1965

مكتبة نوبل

ميخائيل شولوخوف

الدون الهادئ

3



ترجمة : علي الشول ، أمجد حسين ، غانم حمدون .

مراجعة : غالب طعمة فلرمان

الدون الهادئ

ميخائيل شولوخوف

الدون الهادئ

(المجلد الثالث)

ترجمة

علي الشوك . أمجد حسين . غانم حمدون

مراجعة: غائب طعمة فرمان

اسم المؤلف : ميخائيل شولوخوف
عنوان الكتاب : الدون الهادئ ـ ٣
ترجمة : علي الشوك/أمجد حسين/غانم حمدون
مراجعة : غائب طعمة فرمان
الناشر : دار المدى للثقافة والنشر
المجمع الثقافي/ أبو ظبي
الطبعة الأولى : ١٩٩٨

Author : Mikhail Sholokhov
Title : The Silent Don /3
Translator: A. Al-Shuk/ A.Hussein\ G. Hamdoun
Al- Mada : P. C.
Cultural Foundation
First Edition 1998

دار المدى للثقافة والنشر

سوريا - دمشق صندوق بريد : ٨٢٧٢ أو ٧٣٦٦
تلفون : ٧٧٧٢٠١٩ - ٧٧٧٦٨٦٤ - فاكس : ٧٧٧٣٩٩٢
بيروت - لبنان صندوق بريد : ٣١٨١ - ١١
فاكس : ٤٢٦٢٥٢ - ٩٦١١

المجمع الثقافي

الامارات العربية المتحدة - أبو ظبي
ص.ب : ٢٣٨٠
تلفون : ٢١٥٣٠٠

Al Mada : Publishing Company F.K A.
Nicosia - Cyprus , P.O.Box : 7025
Damascus - Syria , P.O.Box . : 8272 or 7366 . Tel: 7776864 , Fax: 7773992
P.O. Box : 11 - 3181 , Beirut - Lebanon,
Fax : 9611- 426252

Cultural Foundation
U.A.E. Abu Dhabi
P.O.Box: 2380
Tel. 215300

ايه ، أبانا الدون الهادىء المجيد
أيها الدون ، يا أبانا ، أيها الدون ، يا حامي حمانا
بورك اسمك
وطاب ذكرك
لقد طالما كنت دفاقاً ، أيها الدون
لقد طالما كنت دفاقاً رائقاً
ولكنك الآن تجري ، أيها الدون ، طينياً
أنت كدرا كدرا تجري .
ثم نطق الدون الهادىء المجيد :
«وكيف لي إلا أن أكون طينياً ،
فلقد سيقت نسوري الجريئة بعيداً
نسوري ، قوزاق الدون
وعلى اغترابهم تآكلت شطآني
وأنبتت رمالي الصفر على اغترابهم ضفائر طويلة» .

(أغنية قوزاقية قديمة)

الجزء السادس

١

في نيسان عام ١٩١٨ حدث انشقاق خطير في اقليم الدون . فقد انسحب مع مفارز الحرس الأحمر المتقهقرة قوزاق الجبهة القادمون من المناطق الشمالية ـ خوبر ، وأوست ـ ميدفيديتسا ، والدون الأعلى ، في حين شدد عليهم الخناق قوزاق المناطق السفلى وساقوهم نحو حدود الاقليم .

وقد انضم قوزاق منطقة الخوبر برمتهم تقريباً إلى الحمر ، وأيدهم في ذلك نصف قوزاق منطقة أوست ـ ميدفيديتسا ، وعدد قليل من قوزاق الدون الأعلى .

ولم يتخذ هذا الشق الكبير شكله النهائي الا في عام ١٩١٨ ، بيد أن بوادره ترقى إلى مئات السنين ، يوم كان قوزاق الشمال الفقراء ، المحرومون من الأراضي الخصبة في سواحل بحر آزوف ومن بساتين الكروم ومناطق القنص وصيد السمك الغنية ، ينفصلون عن تشركاسك ، بين حين وآخر ، فيغيرون على مناطق روسيا الكبرى على هواهم ، وكانوا ملاذاً للمتمردين منذ أيام ستيبان رازين .

وحتى في السنين الأخيرة ، يوم كان الاقليم برمته يموج بالثورة تحت

وطأة الأوتوقراطية القيصرية فإن قوزاق المناطق العليا هم الذين ثاروا علناً ، بقيادة أتماناتهم فزعزعوا النظام القيصري من الأساس ، بمقارعة جيوش الإمبراطورية ، وسلب قوافل الجنائب الماخرة في الدون ، فبلغوا بضرباتهم مناطق الفولغا ، ودفعوا قوزاق زابوروجيه المضطهدين إلى الانتفاض .

وفي أواخر نيسان كان الحمر قد تخلوا عن ثلثي اقليم الدون . وبعد ان بات ضرورياً أن تقام حكومة محلية للمقاطعة بشكل من الأشكال ، اقترح الضباط القادة من المجموعات الحربية الذين كانوا يحاربون في الجنوب ، عقد مجلس الدون العسكري . وقد حدد يوم ٢٨ نيسان موعداً لاجتماع أعضاء حكومة الدون المؤقتة ومندوبين من البلدات ومن وحدات الجيش في نوفوتشيركاسك .

وقد ورد قرية تتارسكي إعلام من أتمان بلدة فيشنسكايا يفيد أن اجتماعاً سيعقد في البلدة يوم الثاني والعشرين من ذلك الشهر لانتخاب المندوبين إلى المجلس . وقرأ ميرون كورشونوف الإعلام في اجتماع عقدته القرية ، فتقرر إيفاده والجد بوغاتيريوف وبانتلاي ميليخوف إلى فيشنسكايا .

وفي فيشنسكايا ، انتخب ميليخوف مندوباً إلى المجلس العسكري المرتقب ضمن المندوبين الآخرين . فعاد إلى قريته في اليوم ذاته ، وقرر السفر إلى ميليروفو في الغد بصحبة نسيبه ميرون كورشونوف لكيما يبلغ نوفوتشيركاسك في وقت مناسب . وكان ميرون يود الذهاب إلى ميليروفو لابتياع الكيروسين والصابون وحاجيات منزلية أخرى ، وكذلك ليربح بعض المال بشراء الغرابيل ومعدن البابيت لموخوف .

أسريا عند انبلاج الفجر ، وراح جوادا ميرون كورشونوف الأدهمان يجران العربة الخفيفة بيسر . وقد جلس النسيبان جنباً إلى جنب في المقعد المصبوغ بألوان زاهية . وحين بلغا قمة التل المطل على القرية شرعا في الحديث . وكان الألمان معسكرين في ميليروفو ، فسأل ميرون بلهفة قائلاً :

ـ أتظن الألمان لا يتصدّون لنا ؟ انهم معشر شرار ، اللعنة عليهم .

فطمأنه بانتلاي قائلاً :

ـ كلا ، لقد كان ماتفي كاشولين في ميليروفو قبل أيام ، وقال إنهم يخافون القوزاق ولا يجرؤون على التعرض لهم .

ـ هكذا الأمور إذن... ـ فابتسم ميرون بين ثنايا لحيته الحمراء ، وعبث بسوطه المصنوع من عود الكرز . والظاهر أنه سرّ في دخيلته ، فأدار الحديث إلى أمور أخرى ، وسأل : ـ أي نوع من الحكومة ينبغي أن نقيمها ، في رأيك ؟

ـ سنقيم لدينا أتماناً ، واحداً من أبناء جلدتنا . قوزاقياً!

ـ حقق الله الآمال! اختاروا رجلاً طيباً . تفحصوا أولئك الجنرالات كما يتفحص الغجري الخيل ، رجلاً لا تشوبه شائبة .

ـ سوف نفعل ذلك . ما زالت بين قوزاق الدون رؤوس حكيمة .

ـ قد يكون ذلك ، يا قريبي... لكن الحمقى أيضاً لا يزرعهم أحد ومع ذلك يولدون تلقائياً ـ ثم تغضنت أطراف عيني ميرون ، وادلهم وجهه الأنمش وعلته سيماء الحزن ، وأردف :

حسبت أنني جاعل من ولدي ميتكا شيئاً ما ، أردته أن يتعلم لكي يصبح ضابطاً ، ولكنه لم يتم دراسته في مدرسة الأبرشية ، فهرب في الشتاء الثاني .

وران عليهما الصمت برهة اذ راحا يفكران بأبنائهما الذين كانوا قد ذهبوا في اثر البلاشفة وراحت العربة الصغيرة تثب وثبات محمومة على الطريق الوعر ، وكان الحصان الأيمن يؤذي أحد حوافره مصلصلاً بحدوة جديدة . وأخذت العربة تتأرجح فيرتطم الشيخان كالسمك أثناء وضع البيض .

وقال بانتلاي متنهداً :

ـ أين قوزاقنا الآن ، يا ترى ؟

ـ ذهبوا بمحاذاة نهر الخوبر . عاد فيدوت كالميك إلى القرية قبل أيام ، وقد فقد حصانه . قال إنهم ماضون صوب تيشانسكايا .

ثم ران الصمت عليهما مرة ثانية . وهب على ظهريهما نسيم قارس . ومن ورائهما عبر الدون كانت شمس الفجر المتوهجة تضرم النار بصمت وروعة في الغابات ، والمروج ، والبحيرات ، والفرجات بين الأشجار . وقد بدت الربوة الرملية أشبه بقرص عسل أصفرٍ ، واكتست قمم الأمواج التي تشبه أسنام الجمال لوناً برونزياً باهتاً .

حل الربيع وئيداً عامذاك وكانت الغابات المكتسية بلون زرقة البحر قد استحالت خضرة ثرة هفهافة . وتفتق السهب بالأزهار ، وانحسر ماء الفيضان ، فخلف وراءه بركاً لا حصر لها تشع في المروج المنخفضة ، على أن الثلج الذي نهشه الذوبان كان لا يزال يشع بسطوع وتحد لصق المنحدرات الطينية المتعرية العالية في الوهاد .

بلغا ميليروفو مساء اليوم التالي وأمضيا الليل عند أوكراني من معارفهما يقطن عند صومعة بنية الحبوب . وفي صباح اليوم التالي بعد الفطور أسرج ميرون جواديه ومضى بالعربة صوب الحوانيت وتخطى معبر السكة الحديد بسلام ، وحينئذ شاهد الألمان لأول مرة في حياته . كان ثلاثة من مشاة الألمان يعبرون الطريق أمامه . وقد لوح أحدهم بيده ليقف ، وكان قصير القامة ، ولحيته الجعدة الكستنائية نمت حتى أذنيه .

سحب ميرون الأعنة لإيقاف حصانيه ، وهو يعض على شفتيه قلقاً ، ودنا الألمان منه . فقال بروسي مديد القامة مكتنز وهو يبتسم مكشراً عن أسنان لامعة :

ـ انظروا ، ها هو قوزاقي حقيقي حي !! إنه يرتدي بزة القوزاق أيضاً . أحسب أن أولاده قد حاربوا ضدنا . دعونا نرسله إلى برلين حياً . انه لقطة نادرة للعرض .

فقال ذو اللحية الكستنائية الكثة فيما هو يمر أمام الجوادين بحذر ويتقدم نحو العربة الصغيرة دون أن يبتسم :

ـ نريد جواديه ، وليذهب هو إلى الشيطان!

وطاف حول الجوادين واقترب من العربة .

ـ انزل ، أيها العجوز! نحن بحاجة إلى جواديك لنقل الدقيق من الطاحونة إلى المحطة . قلت لك انزل! بامكانك استعادتهما من القومندان فيما بعد . ـ وأومأ بعينيه إلى الطاحونة ، وبحركة لا تدع شكاً في مقصده ، ثم طلب إلى ميرون أن يترجل .

واستدار رفيقاه ، وسارا نحو الطاحونة ، وهما يتلفتان إلى الوراء ضاحكين . فاحمر وجه ميرون احمراراً رمادياً أصفر . وقفز من العربة بخفة بعد أن شد الأعنة إلى العربة وتقدم إلى رأسي الجوادين ليقودهما .

وبرق في ذهنه والرعدة تسري في بدنه : «من المؤسف أن باانتلاي ليس معي ، سوف يأخذون الجوادين ، بحق الشيطان . ما الذي دعاني ، أن أخرج بمفردي ؟!» .

وزم الألماني شفتيه ، وأمسك بكمّ ميرون ، وأشار اليه أن يستدير صوب الطاحونة .

فجّر ميرون نفسه مبتعداً وقد ازداد احمرار وجهه وقال :

ـ إليك عني! ارفع يديك النظيفتين عن جواديّ ، لن تحصل عليهما!

وأدرك الألماني فحوى رد ميرون من نبرة صوته . وكشر عن أسنانه البيض المائلة إلى الزرقة بوحشية ، واتسعت حدقتاه بتهديد ، وصرخ بصوت غاضب وآمر . ، وأسرعت يده إلى حمالة البندقية المعلقة عبر كتفه ، إلا ان ميرون تذكر في تلك اللحظة أيام شبابه . فسدد بجمع يده إلى الرجل لكمة في عظم وجنته . فارتد وجه الرجل إلى الخلف وانقطع سير خوذته . وكبا الألماني على الأرض على وجهه وهو يبصق كتلة قانية من الدم الكثيف من فمه ،وبينما هو يحاول النهوض ، ضربه ميرون كرة أخرى على قفا رأسه ، وتلفت حواليه ، ثم التقط بندقية الرجل بدفعة . وراح ذهنه يعمل بسرعة وبشكل لا يصدق وضوحه . انه يعرف أن الرجل لم يعد قادراً على إطلاق النار عليه وهو يدير الجوادين ، وكل ما كان يخشاه هو أن يقع عليه بصر

الألمانيين الآخرين أو الواقفين وراء السياج أو الحرس عند السكة الحديدية في المحطة .

وجرى الحصانان الأدهمان بسرعة جنونية لا مثيل لها حتى في المسابقات . وراحت عجلات العربة تجلجل بشدة غير معهودة حتى في احتفالات الزفاف وجعل ميرون يتمتم وهو يسلط السوط على صهوتي حصانيه : «أيها الرب ، نجني! ارحمني ، أيها الرب! باسم الأب!...» وكاد ما جبل عليه من جشع أن يدفع به إلى التهلكة : فقد أراد أن يذهب بعربته إلى الأوكراني لأخذ حاجياته . ولكن الحكمة غلبت ، فاستدار خارجاً من المدينة . وقطع الفرستات العشرين الى القرية أريخوفايا أسرع (على حد قوله بعد ذلك) من النبي ايليا في عربته النارية . ساق العربة إلى فناء بيت أوكراني من معارفه ، وأخبر الرجل بما جرى له ، وهو أدنى إلى الموت من الحياة ، وتوسل اليه أن يخفيه وحصانيه .

ـ سوف أخفيك ، يا رجل ، لكن اذا ضيقوا علي الخناق باستجوابهم فسأضطر إلى إخبارهم . إنك تعرف الأمر ، سيضرمون النار بالبيت ويشنقونني ان لم أفعل ذلك .

ـ اخفني! سأعطيك كل ما شئت! أنقذني من الموت فقط واخفني في مكان ما ، سأرسل لك عدداً من غنمي . ولن أبخل عليك بعشر من خيرة غنمي! ـ ومضى ميرون يتضرع ويكيل الوعود ، وهو يجر عربته إلى داخل المأوى .

كان يخشى المطاردة أكثر من أي شيء آخر . مكث عند الأوكراني إلى أن حل الليل ، ثم انطلق بعربته ثانية كالمخبول ، حتى غطى الزبد جواديه وتناثر على جنبيهما ، وقرقعت العربة بسرعة حتى مرقت برامق العجلات كالأقراص . ولم يجر العنان إلى أن خلّف ميليروفو وراءه بمسافة كبيرة وقبل أن يبلغ القرية نيجني ـ يابلونوفسكي ، أخرج البندقية التي غنمها من تحت المقعد ، وتفحص السير وقد كتب في أسفله اسم الألماني بحبر ثابت . ثم تنفس الصعداء مغمغماً :

ـ ماذا ، هل تمسكوني ، يا أبناء الشيطان ؟ لن تبلغوا ذلك!

لكنه لم يرسل إلى الأوكراني الغنم الموعود . وصادف أن ذهب إلى القرية في ذلك الخريف ، وحين لاحظ عيني الرجل مسمرتين فيه بترقب ، أخبره قائلاً :

ـ لقد ماتت أغنامنا كلها ، إن وضعنا سيء بالنسبة للأغنام ، ولكنني جلبت لك بعض الكمثرى من بستاني ، اعترافاً بجميلك القديم . ـ ثم أخرج من العربة كيساً من كمثرى تلفت أثناء الرحلة ، وقال له مشيحاً عينيه الماكرتين : ـ إن كمثراتنا جيدة ، جيدة جداً... ـ ثم ودعه على عجل .

وفيما كان ميرون يهذب بعربته إلى خارج ميليروفو كان بانتلاي في محطة القطار . وقد حرر له ضابط ألماني شاب جواز مرور ، واستجوبه عن طريق مترجم ، ثم أشعل سيكاراً رخيصاً ، وقال له بأريحية :

ـ بإمكانك أن تمضي في حال سبيلك ، ولكن تذكر أنكم بحاجة إلى حكومة ذكية . انتخبوا رئيس جمهورية ، أو قيصراً ، أو أياً تشاءون ، شريطة أن يكون رجلاً لا يخلو من العقل السياسي ويتبع سياسة موالية لألمانيا .

فحدجه بانتلاي بعينين لا ود فيها ، اذ لم تكن لديه رغبة في هذه المحادثة فأخذ جواز مروره ، ومضى لشراء تذكرة .

وحين بلغ نوفوتشيركاسك دهش لكثرة الضباط الشبان في المدينة : كانوا يملأون الشوارع ، ويجلسون في المطاعم ، يتمشون مع الفتيات ويتحلقون حول قصر الأتمان أو بناية المحكمة ، حيث تقرر انعقاد المجلس .

وفي المنزل المعد للمندوبين ، التقى بانتلاي بعدد من قوزاق المناطق الأخرى وبشخص من معارفه ، وكان غالبية المندوبين من القوازق ، ولم يكن ثمة سوى بضعة ضباط ، مع عدد أكثر بقليل من ممثلي المثقفين المحليين . وكان الحديث يدور بصورة ما حول انتخاب حكومة مؤقتة في الاقليم ، ولكن

شيئاً واحداً فحسب بدا واضحاً : فقد كان انتخاب أتمان أمراً محتوماً . وكانت أسماء بضعة جنرالات قوزاق معروفين تدور على الألسن ، فراح المندوبون يتبادلون الرأي في مزايا كل من المرشحين على حدة .

وفي مساء يوم وصوله ، صعد بانتلاي إلى غرفته ، بعد أن احتسى شاي المساء ، لكي ينعم ببعض ما جلبه من طعام البيت . وضع على المائدة شيئاً من سمك الشبوط المجفف ثم قطع الخبز . وما كاد يفعل ذلك حتى انضم إليه قوزاقيان من قرية ميغولينو مع بضعة قوزاق آخرين . وابتدأ الحديث حول الوضع في الجبهة ، ثم عرّج ، رويداً رويداً ، على مسألة انتخاب الحكومة .

فقال قوزاقي من شوميلينو ذو لحية رمادية اللون وهو يتنهد :

ـ ليس بوسعكم أن تجدوا رجلاً أفضل من المغفور له الجنرال كاليدين رحمه الله وكتب له الراحة .

وأيده قوزاقي آخر من بلدة ايلانسكايا فقال :

ـ أجل والحق يقال .

وتكلم أحد المشتركين في النقاش ، وهو ضابط برتبة ملازم مندوب عن بلدة بيسرغنيفسكايا فقال بشيء من الحماس :

ـ ما قصدك من القول ان ليس ثمة رجل لائق ؟ ما رأيك بالجنرال كراسنوف ؟

ـ أي كراسنوف ؟

ـ أيها السادة ، ألا تخجلون من هذا السؤال ؟ إنه جنرال شهير ، وهو قائد فيلق الفرسان الثالث ، مفرط الذكاء ، ويحمل وسام القديس جورج ، وهو آمر عظيم الموهبة .

فاستفزت كلمات الملازم الحماسي هذه مندوباً يمثل احدى الكتائب العاملة إلى القول :

ـ أقول لكم بأننا نعرف كل شيء عن عبقريته! إنه لجنرال عديم النفع! نال شهرة في الحرب الألمانية! ولم يكن بوسعه أن يتخطى رتبة اللواء لولا الثورة .

فردّ عليه الملازم بنبرة باردة كالثلج :

ـ كيف تجرؤ على هذا القول ، وأنت لا تعرف الجنرال كراسنوف ؟ وكيف تجرؤ على أن تتحدث هكذا! عن جنرال يحترمه الجميع ؟ لعلك نسيت أنك قوزاقي بلا رتبة .

فغلب القوزاقي الإرتباك والحيرة ، وغمغم قائلاً :

ـ كل ما أقوله ، يا صاحب السعادة ، انني خدمت بنفسي تحت قيادته ، وفي الجبهة النمساوية دفع فوجنا إلى الهجوم على الأسلاك الشائكة ، ولذلك نعتبره عديم النفع... وعلى كل حال فقد أكون مخطئاً...

فشن بانتلاي الهجوم على رجل الجبهة وكاد أن يبتلع عظم سمكة الشبوط لفرط غضبه :

ـ لماذا منحوه صليب القديس جورج اذاً ، في رأيك ؟ يا أحمق! لقد تعودتم على التبرم ، فكل شيء رديء ، انكم لا تطيقون شيئاً... فلو أنكم ، يا اصحاب العقول ، اقتصدتم في الكلام قليلاً ، لما وقعنا في ما نحن فيه الآن من متاعب . يا لكم من عقاعق!

كانت منطقة تشيركاسك والمناطق السفلى تؤيد كراسنوف برّمتها ، . فالشيوخ يميلون إلى جانب الجنرال حامل الوسام ، فقد قاتل معظمهم تحت أمرته في الحرب الروسية ـ اليابانية . أما الضباط فيملأ سجله قلوبهم غبطة ، اذ كان في الماضي ضابطاً في الحرس ، وهو جم الثقافة ، فقد كان قريباً إلى قصر الأمبراطور وخدم في حاشيته . وقد رضي به المثقفون المتحررون لأنه لم يكن جنرالاً فحسب ، بل أديباً ، فقد ظهرت له قصص عن حياة الضباط في ملاحق مجلة «نيفا» ، فكانوا يعتبرونه من المثقفين رغم أنه رجل عسكري .

وكانت بين المندوبين دعاية قوية لكراسنوف ، فبدت أسماء الجنرالات الآخرين شاحبة لا أهمية لها أمام اسمه . وقد أشاع الضباط المؤيدون لكراسنوف أن بوغايفسكي متواطئ مع دينيكين ، واذا تم انتخابه لمنصب

الأتمان فان امتيازات القوزاق واستقلالها الذاتي ستزول حالما يتم القضاء على البلاشفة ويدخل الحرس الأبيض موسكو .

وكان لكراسنوف معارضوه أيضاً . فقد سعى عبثاً أحد المندوبين وهو معلم مدرسة ، أن يثير الشكوك حول سمعة الجنرال . فراح يدور على غرف القوزاق وينفث حقده في آذانهم المشعرة :

ـ كراسنوف ، ها ؟ إنه لجنرال تافه ، أكثر تفاهةً كأديب! يلعب على الحبلين ، ومهرج قصر! إنه يحاول الحصول على شهرة على نطاق الأمة ، كما يقال ، ثم يبقى في الوقت نفسه ديمقراطياً بريئاً . انتبهوا لما أقول ، انه سيبيع الدون لأول مشتر ، بقفله ، وعتاده ، وماسورته! يا للنكرة! ليس هو برجل دولةٍ قط . إن أكاييف هو الرجل الذي نريده ، فهو يختلف عنه تماماً .

بيد أن المعلم لم يصب أي نجاح . ففي الأول من أيار ، بعد ثلاثة أيام من انعقاد المجلس ، دبّ الحماس بالمجتمعين حين تعالت الهتافات تنادي بالجنرال كراسنوف .

ـ لا بد من دعوة الجنرال كراسنوف!

ـ روعة!

ـ نجلّه!

ـ نفتخر به!

ـ دعه يأتي ويحكي لنا عن الحياة!

واستجاب القوزاق للتصفيق الحاد الذي ضج به الضباط ، فشرعوا يهبدون أكفهم بارتباك . وكانت الأيدي السود ، التي صلبها الكدح تبعث صوتاً جافاً خشناً ، يختلف تماماً عن الموسيقى الرقيقة التي تنبعث من الأكف الناعمة للسيدات والضباط والطلاب الذين ملأوا الشرفات والممرات .

ولكن ما إن خطا جنرال مديد القامة إلى المنصة ، وكأنه يسير في استعراض عسكري حتى دوت القاعة بعاصفة من التصفيق والهتاف . كان رشيقاً وجميلاً رغم تقدمه في السن ، وقد انتصب ، وكأنه يقف أمام مصور ،

تزين صدره الصلبان والأوسمة ، ويعبر وجهه عن عميق المشاعر ، فبدا لكثير من الحاضرين وكأنه يبعث بمظهره جلال الأمبراطورية السالف . وهو يتأمل متأثراً كراسنوف الواقف على المنصة .

اغرورقت عينا بانتلاي ، فتمخط في منديل أحمر أخرجه من قبعته ، وقال في نفسه : «هذا هو الجنرال! بوسع المرء أن يرى فوراً أنه رجل حقاً ، يشبه الامبراطور قليلاً ، بل هو أبهى منه طلعة . إن من السهولة بمكان أن يحسبه المرء الكسندر الراحل» .

ومضى المجلس ـ وقد سمي بمجلس انقاذ الدون ـ في أعماله بخطى وئيدة . واتخذ ، باقتراح من رئيسه يانوف ، قراراً حول شرائط الكتف وشارات الرتب العسكرية .

ثم ألقى كراسنوف كلمة أعدها خير إعداد . فتحدث بكلمات مؤثرة عن روسيا التي تعاني لعنة البلاشفة ، وعن سالف جبروتها ، وعن مصير الدون . ثم أوجز الوضع الراهن ، مشيراً إلى الاحتلال الألماني إشارة عابرة ، وأثار ضجة من الاستحسان حين ختم كلمته منوهاً باحتمال حصول الدون على الاستقلال حين يتم القضاء على البلاشفة .

ـ سيحكم المجلس العسكري إقليم الدون . وسوف يستعيد القوزاق ، وقد حررتهم الثورة ، نظام حياتهم القديم الرائع برمته ، وإننا ، كأجدادنا في الأيام الخوالي ، سنهتف بأصوات داوية شديدة : نحن ، قوزاق الدون الكريم ، نرحب بك ، يا قيصر موسكو الحجرية الأبيض!

وتم انتخابه أتمانا مساء في الثالث من أيار بأغلبية مائة وسبعة أصوات مقابل ثلاثين ، وامتناع عشرة عن التصويت . بيد أنه أبى قبول صولجان الأتمان من يد ضابط الجيش حتى وافق المجلس على بعض الشروط . فقد طلب منحه صلاحيات مطلقة بحكم منصبه أتماناً ، والموافقة على بعض القوانين الأساسية وقال :

ـ ان بلدنا على شفا الخراب! فلا يسعني قبول الصولجان إلا عند توفر

ثقة تامة بالأتمان . ان الظرف يقتضي أن أعمل بثقة تامة ، ووعي بهيج بأن المقاييس الشرعية الثابتة قد حلت محل التسيب والفوضى التي جاء بها البلاشفة .

ولما كانت المقاييس المشار إليها لا تعدو كونها قوانين العهد الأمبراطوري السابق ، وقد أجري عليها تعديل طفيف لكي تلائم الوضع الجديد في الدون ، فقد وافق المجلس عليها بكل حماس فكيف لا يوافق عليها ؟ وافق بفرح ، فإن كل شيء حتى العلم المعدل بشكل غير موفق كان يحمل طابع الأيام السابقة : خطوط طولانية ذات اللون الأزرق ، والأحمر ، والأصفر (معبرة عن القوزاق ، والمستوطنين الأجانب ، والكالميك) ، ولم يدخل تغيير جذري إلا على شعار الدولة المرسوم على الترس ، إرضاء لنفسية القوزاق . فاستعيض عن النسر الكاسر ذي الرأسين والجناحين المشرعين ، والمخالب المسلولة ، بقوزاقي عار يعتمر قبعة من جلد الخراف ، متسلح بسيف ، وبندقية ، وعتاد ، قد امتطى برميل خمر .

وقد وجه أحد المندوبين السذج ، المتزلفين ، سؤالاً ذليلاً :

- ربما يقترح صاحب السعادة تعديلاً أو إعادة النظر في بعض القوانين المطروحة ؟

فابتسم كراسنوف متلطفاً وأجاز لنفسه أن يمزح . فحوّم على المجتمعين بنظرة سريعة وأجاب بصوت من يتمتع باهتمام ورضى الجميع .

- أجل ، بوسعي أن أفعل ذلك . المواد ثماني وأربعون ، وتسع وأربعون ، وخمسون ، الخاصة بالعلم ، وشعار الدولة ، والنشيد الوطني ، أنا على استعداد للقبول بأي علم ، ما خلا العلم الأحمر ، وبأي شعار ما خلا النجمة السداسية اليهودية أو الشارة الماسونية ، وبأي نشيد ما خلا النشيد الأممي .

فصادق المجلس على هذا الاقتراح وسط ضجة من الضحك ، وظل الناس يتناقلون دعابة الأتمان فترة طويلة .

وانفضّ المجلس في الخامس من أيار بعد أن ألقيت الكلمات الختامية . ووعد آمر الجيش الجنوبي ، العقيد دينيسوف ، وهو ساعد كراسنوف الأيمن ، أن يضع حداً للتخريب البلشفي في المستقبل القريب . وقد توجه المندوبون إلى أهلهم هانئين مغتبطين بنجاحهم في اختيار أتمانهم ، وبآخر الأخبار الواردة من الجبهة .

استقل بانتلاي القطار عائداً من عاصمة اقليم الدون ، وكان متأثراً عميق التأثر ، يكاد البشر يطفح منه ، شاعراً باليقين الراسخ أن صولجان سلطة الأتمان وقع في يد أمينة ، وأن البلاشفة سيقهرون بسرعة ، وأن ولديه سيعودان إلى مزرعتهم عما قريب . وبينما هو في القطار وقد ارتفق طاولة العربة كان ما يزال بوسعه أن يسمع أنغام نشيد الدون ينشد عند الوداع . وقد تغلغلت كلماته المنعشة إلى أعماق وعيه ، وبدا له أن «الدون المسيحي الهادئ قد هبّ بالفعل واستيقظ» .

ولكن ما كاد القطار يقطع بضعة فرستات بعد نوفوتشيركاسك حتى شاهد من النافذة دوريات أمامية من الخيالة البافارية ، وكانت جماعة من الفرسان تمضي بجانب الخط الحديد ميمّمة صوب القطار . كان الفرسان جالسين على سروجهم بيسر ، تلتمع أكفال خيلهم الأسيلة قصيرة الذيل . فمال بانتلاي إلى الامام ، وقد انعقد حاجباه ألماً ، وراح يراقب حوافر الجياد تدق أرض القوزاق بزهو ، وحين مروا به قبع في مقعده وظهره إزاء النافذة ، يجر أنفاسه بمشقة .

٢

تدفقت صفوف طويلة من القطارات ، تحمل من الدون الدقيق الأبيض ، والزبدة ، والبيض ، والماشية إلى ألمانيا عبر أوكرانيا . وكان يحرس كل قاطرة جندي ألماني بقمصلة زرقاء رمادية ، وقبعة مستديرة لا رفوف لها ، وحربة مشكوكة . وراح الألمان يدوسون دروب الدون بأحذيتهم ، ذات

الكعوب الحديدية ، المصنوعة من الجلد الأصفر الفاخر . وكان الخيالة البافاريون يذهبون بجيادهم لسقايتهم من الدون . ولكن شباب القوزاق مجندين لتوهم كانوا منهمكين في قتال كتائب بتلورا على الحدود الفاصلة بين الدون وأوكرانيا . وقد قتل زهاء نصف جنود فوج قوزاق الدون الثاني عشر الذي شكل حديثاً ، قرب ستاروبيلسك بغية الاستيلاء على رقعة جديدة من الأرض الأوكرانية .

وفي الشمال تبادلت الأيدي قصبة أوست ـ ميدفيديتسكايا مراراً وتكراراً . فقد استولت عليها أول الأمر مفرزة من قوزاق الحرس الأحمر التابعة لميرونوف ، ولم تمض ساعة حتى طردتهم منها مفرزة الأنصار البيض التابعين لألكسييف ، فطرزت دروبها ستر تلامذة المدارس الثانوية وطلاب الكليات الذين يؤلفون العمود الفقري للمفرزة الاخيرة .

وراح قوزاق الدون الأعلى يتدفقون أمواجاً من قصبة إلى أخرى . وتقهقرت مفارز ميرونوف صوب حدود محافظة ساراتوف . فقد تركوا وراءهم منطقة الخوبر برمتها ، وما أن حلت نهاية الصيف ، حتى سيطر على الحدود جيش الدون المؤلف من القوزاق القادرين على حمل السلاح من شتى الأعمار .

وبعد أن أعيد تنظيم الجيش ، وعزز بضباط من نوفوتشيركاسك ، بدأ يكتسب مظهر قوة محاربة حقيقية : فقد دمجت المفارز الصغيرة التي أرسلتها مختلف المناطق ، وأعيد بناء الكتائب النظامية من الرجال الذين بقوا على قيد الحياة في الحرب الألمانية ، وتشكلت من مجموعها فرق ، وفي الأركان العامة ، استبدل نواب الضباط بعقداء من المحاربين القدماء ، وجرى تغيير القادة الضباط بالتدريج أيضاً .

وحين أوشك الصيف على نهايته كانت الوحدات القتالية التي تم تشكيلها من مئات القوزاق من ميكولينسكايا ومشكوفسكايا وكازانسكايا وشوميلينسكايا بأمر من الجنرال الفيوروف قد اجتازت حدود الدون واحتلت

دونيتسكويه أولى القرى الأمامية من اقليم فورونيج ، وأحكم الحصار على بلدة بوكوتتشار الصغيرة .

* * *

ظلت سرية مؤلفة من قوزاق تتارسكي تسير ، طوال أيام أربعة ، نحو الشمال خلال القرى والنواحي ، بقيادة بيوتر ميليخوف . وكان الحرس الأحمر ، في مكان ما إلى اليمين ، يتراجع صوب سكة الحديد دون أن يجازف بالقتال . ولم يعثر القوزاق أثناء مسيرتهم ، على أثر للعدو ، كما أنهم لم يقطعوا مسافات طويلة دفعة واحدة . فقد قرر بيوتر ، وسائر القوزاق ، فيما بينهم ، أن ليس ثمة من داع للإسراع إلى حتفهم ، فلم يقطعوا أكثر من ثلاثين فرستاً دفعة واحدة .

وفي اليوم الخامس دخلوا قصبة كوميلجينسكايا وعبروا نهر الخوبر عند ضيعة دوندوكوفو . وكانت حشود البرغش تخيم على المرج كستار من الموسلين ، وطنينها الناعم الرجراج لا ينقطع . فكان يدخل آذان وعيون الخيل وفرسانها ، فتزنخر الجياد وتنفض رؤوسها ، ويلوح القوزاق بأيديهم ولا يتوقفون عن تدخين تبغهم المحلي .

ودمدم خريستونيا ، ماسحاً عينه الدامعة بكمه :

ـ إنها رياضة جميلة ، عليها اللعنة!

فقال غريغوري باسماً :

ـ هل دخلت واحدة في عينك ؟

ـ لا بد أنها سامة ، إنها تخز كالشيطان!

ثم سحب خريستونيا جفنه المحمر ودفع إصبعه الخشنة فوق كرة العين ، مدلّياً شفته السفلى ، وفرك عينيه بعض الوقت بظهر يده .

وكان غريغوري يسير بجانبه . فقد بقيا سوية منذ أول يوم غادروا فيه تتاركسي . ثم انجذب إليهما أنيكوشكا أيضاً ، وقد ازداد في الأسابيع

الأخيرة سمنة ، فبات أشبه بامرأة أكثر من أي وقت مضى .

لم يكن تعداد السرية يبلغ المائة تماماً . وكان مساعد بيوتر هو رئيس العرفاء لاتيشيف الذي صاهر عائلة من تتاركسي . وكان غريغوري آمراً لأحد الرعال . وكان قوزاق رعيله برمتهم تقريباً ، من جنوب القرية : خريستونيا ، أنيكوشكا ، فيدوت بودوفسكوف ، مارتن شامل ، ايفان توميلين ، بورتششيلوف الطويل ، زاخار كوروليوف الشبيه بالدب ، بروخور زيكوف ، ميركولوف ، وهو من دم غجري ، يبيفان ماكسابيف ، يغور سنيلين ، وبضعة عشر قوزاقياً آخر أصغر منهم عمراً .

وكان الرعيل الثاني بقيادة نيكولاي كوشيفوي ، والثالث بقيادة ياكوف كولوفيدين ، والرابع بقيادة ميتكا كورشونوف ، الذي رقي إلى رتبة عريف من قبل الجنرال ألفيروف نفسه وذلك اثر إعدام بودتيلكوف .

كانت السرية تبعث في جيادها الدفء بخبب نشاط . ودار بهم الطريق حول غدران فائضة ، ثم ولج أخاديد تغطيها أشجار الصفصاف الفتية والحلفاء ، ثم تعرج بهم الدرب عبر المروج .

وتعالى هدير عميق من ضحكات ياكوف بودكوفا في الصفوف الخلفية ، فردد صداه أندريه كاشولين بضحكاته الرخيمة الرفيعة ، وكان هذا قد نال شرائط عريف لهدره دماء رفاق بودتيلكوف .

وكان بيوتر ميليخوف يمضي إلى جانب الرتل على صهوة جواده بصحبة لاتيشيف وهما يتحدثان بهدوء . وراح لاتيشيف يعبث بأنشوطة سيفه الجديدة ، وبيوتر يمسد بيسراه على جواده ويحك رأسه بين الأذنين . وبدت على وجه لاتيشيف المكتنز ابتسامة ، وظهرت من تحت شاربه الخفيف أعقاب أسنانه التي اصفرت من الدخان .

وسار وراء الجميع قوزاقي يدعى أنتيب افديفيتش ، ابن بريخ يلقبه القوزاق أنتيب بريخوفيتش .

مضى القوزاق يتحادثون فيما بينهم ، وكانوا يخالفون نظام المسيرة ،

بين الحين والحين ، ليسير كل خمسة معاً . وكان البعض منهم يمعن النظر في المنطقة التي لم يألفوها من قبل ، والمرج الذي تنتشر فيه البرك كبثور الجدري ، والحاجز الأخضر من الصفصاف والحور في المدى . ويحسب الناظر إلى عدتهم أنهم لا ريب ماضون في حملة طويلة . فخروجهم ملأى بالثياب والتجهيزات ، وقد لفوا معاطفهم بعناية وحزموها خلف سروجهم . وكانت سيور الأعنة قد شمعت جيداً ، وبدا كل شيء مرتباً على ما يرام . كانوا قبل شهر على يقين أن الحرب لن تقع ، وها هم الآن ماضون ، وقد أيقنوا أن إراقة الدماء أمر لا معدى عنه . وكانت هذه الفكرة تشغل بال الجميع : «إن جلدك اليوم عليك ، ولكن الغربان ستدبغه في البرية غداً» .

مر طريقهم بقرية سقوفها من القصب . وأخرج أنيكوشكا من جيب سرواله كعكة من صنع بيته ، وقضم نصفها ، وجعل يمضغ بقوة وفكاه يتحركان كفكي الأرنب .

فألقى خريستونيا إليه نظرة ، وسأله :

ـ جائع ؟

ـ لمَ لا... وقد خبزته زوجتي .

فقال خريستونيا :

ـ أنت تفرط في الأكل! لا بد أن لك بطن خنزير! ـ ثم التفت إلى غريغوري وأردف بلهجة شاكية غضبة : ـ يا له من أكول . هذا العفريت القذر! أين يضع كل ذلك ؟ حين أتطلع إليه هذه الأيام أشعر بالفزع : فهو صغير الجسم ولكنه يبتلع الطعام في بئر بلا قرار .

ـ إن ما آكله هو من مالي . أتعشى بلحم الضأن وفي الصباح أشعر بالجوع . نحن نتناول كل ما هو لذيذ ومفيد للمعدة .

وضحك أنيكوشكا وغمز بعينه لغريغوري ، مومئاً إلى خريستونيا الذي بصق بغضب .

وصاح توميلين :

ـ أين نقضي الليلة ، يا بيوتر بانتلييفتش ؟ فقد تعبت الخيل .

وأيده ميركولوف قائلاً :

ـ الشمس تغيب . حان وقت المبيت .

فلوّح بيوتر بسوطه قائلاً :

ـ سنبيت في قرية « كلوتشي » ، أو ربما سنمضي حتى كوميلزينسك .

وابتسم ميركولوف بين ثنايا لحيته السوداء المجعدة وهمس لتوميلين :

ـ يحاول أن يكون عند حسن ظن ألفيروف ، يا له من ابن كلبة! مستعجل!...

كان أحدهم يشذب لحية ميركولوف فاحتال عليه وقص لحيته المسترسلة بحيث غدت أشبه بأسفين معوج ، فبات مظهره موضع هزء لا ينقطع .

وحتى الآن لم يستطع توميلين أن يكبح رغبته في السخرية ، فقال :

ـ وحظوة مَنْ تريد أن تكسب ؟

ـ ماذا تعني ؟

ـ حين شذبت لحيتك كالجنرال . أحسبك تظن أنهم سيبادرون إلى إعطائك فرقة وأنت بلحية كهذه ؟

ـ إنك لأحمق . أليس بوسعك أن تنظر إلى الأمور نظرة جدية ؟

دخلوا القرية التالية ، مازحين ضاحكين ، . وكان أندريه كاشولين قد سبقهم ليدبر لهم المأوى ، فلقيهم عند أول بيت ، وقال :

ـ رعيلنا ، اتبعوني! الرعيل الأول إلى تلك البيوت الثلاثة هناك ، الرعيل الثاني إلى اليسار ، الرعيل الثالث إلى هذه الدار حيث ثمة بئر وأربعة أكواخ بعدها ايضاً .

وتقدم بيوتر إليه ، قائلاً :

ـ هل سمعت شيئاً ؟ هل سألت أحداً ؟

ـ لا رائحة لهم في هذه الأنحاء ولكن هناك الكثير من العسل ، أيها

الفتى . إن لدى إحدى العجائز زهاء ثلاثمائة خلية . سنفتح واحدة منها هذه الليلة بكل تأكيد .

ـ لا تكن أحمق . سأفتح رأسك إن فعلت ذلك! قال بيوتر ذلك ، ثم تجهم ، ولمس جواده بالسوط .

ذهب القوزاق كل إلى مأوى رعيله وربطوا خيلهم في الاسطبلات . وخيّم الظلام ، فقدم القرويون إلى القوزاق العشاء ، ثم خرج الرجال إلى الأفنية وجلسوا على أكوام الحطب . وبعد أن تسامروا بعض الوقت دلفوا إلى مآويهم ليناموا .

وعند الفجر استأنفت السرية مسيرتها صوب كوميلزنسك . ولكن رسولاً أدركهم قبل أن يمضوا شوطاً بعيداً . وفضّ بيوتر الرسالة التي جاء بها الرجل ، ثم جلس على سرجه يترنح وهو يقرأ الرسالة ، وقد أمسك بطبقة الورق ، وكأنه يجد مشقة في حملها لثقلها ودنا غريغوري منه بجواده وسأله :

ـ أهو أمر ؟

ـ ها ها!

ـ ماذا يقال ؟

ـ علي أن أسلم السرية . فكل الرجال الذين بدأوا الخدمة في دورتي مدعوون للذهاب لتشكيل الكتيبة الثامنة والعشرين ، المدفعيون وحملة الرشاش كذلك .

ـ ماذا عن البقية ؟

ـ هاك ، إنها تريد أن تضع نفسها تحت تصرف آمر الكتيبة الثانية والعشرين في أرزينوفسكايا . «على الفور» .

وحين جاء لاتيشيف ، أخذ الأمر ، فقرأه ، وشفتاه الثقيلتان تختلجان ، وقد رفع أحد حاجبيه بحدة .

وصاح بيوتر : ـ إلى الأمام سر!

ومضى القوزاق على خيلهم سيراً وبعضهم ينظر إلى بعض ، ويرمقون بيوتر منتظرين أن يقول شيئاً . وحين بلغوا كوميلزنسك أعلن لهم فحوى الأمر . وشرع القوزاق ذوو الخدمة المبكرة يتأهبون لرحلة العودة . وقرروا أن يمضوا الليل في كوميلزنسك ثم يتفرقوا في اليوم التالي كل إلى سبيله .
وكان بيوتر طوال يومه يتحين الفرصة للتحدث إلى أخيه ، فذهب إليه في مأواه ، ودعاه قائلاً :

ـ تعال إلى الساحة .

فتبعه غريغوري صامتاً . وجاء ميتكا كورشونوف وراءهما راكضاً ، بيد أن بيوتر قال له بجفاء :

ـ إليك عنا ، ميتكا! أريد أن أكلم أخي .

فابتسم ميتكا عن فهم ، وتخلف وراءهما ، قائلاً :

ـ لا مانع أبداً .

ونظر غريغوري إلى بيوتر بزاوية عينه ، فأدرك في الحال أنه يضمر شيئاً جدياً . ولتفادي هذه النيّة المبيتة شرع الكلام بحيوية مصطنعة .

ـ إنه أمر غريب ، أليس كذلك ؟ نحن لم نبتعد عن ديارنا إلا مائة فرست ، وإذا الناس يختلفون تماماً . إنهم لا يتكلمون مثلنا ، وأبنيتهم لا تشبه أبنيتنا . انظر إلى تلك البوابة المسقفة ، ما أشبهها بالمزار . ليس عندنا من هذا القبيل . وانظر! ـ ثم أشار إلى أحد المنازل ، وأردف : ـ إن إفريز ذلك البيت مسقوف هو الآخر . أظنهم يفعلون ذلك كي لا يتلف الخشب .

فانتهز بيوتر قائلاً :

ـ أوه ، كفاك! ليس هذا موضع الحديث ، لنمضِ قرب السياج ، فالناس ينظرون إلينا .

وكان القرويون القادمون من الساحة يتطلعون إليهما بفضول . وقد وقف رجل شيخ بقميص أزرق سائب وقبعة قوزاقية ذات حافة توردت من

كونها قديمة وقال :

ـ هل تمضون النهار هنا ؟

ـ نريد ذلك .

ـ هل عندكم شيء من الشوفان لخيلكم ؟

فرد بيوتر :

ـ نعم ، لكنه قليل .

ـ إذن ، ادخلا إلى عندي ، سأعطيكما كيسين منه...

ـ الله يخليك يا جدي!

ـ الله معكما! عرّجا عليّ . ها هي داري مسقفة بسفائح خضراء .

قال غريغوري عابساً وقد عيل صبره :

ـ حسناً ، عمّ تريد أن تتكلم ؟

ـ عن كل شيء ، ـ ثم ابتسم بيوتر ابتسامة خجل وإجهاد ، وهو يعض ذؤابة شاربه القمحي : ـ إن الأمور ، يا غريشاتكا ، في حال ربما لا نستطيع معها أن يرى أحدنا الآخر ثانية...

وفجأة تلاشى ما كاد يحسه غريغوري من عداء إزاء أخيه ، فقد أُخِذ بالابتسامة البائسة وبندائه إليه باسمه الطفولي القديم «غريشاتكا» . فراح بيوتر ، يتملى وجه أخيه بحنو وقد علت شفتيه ذات الابتسامة الناعسة ، ثم كبت ابتسامته ، وتجهم وجهه اذ قال :

ـ انظر كيف زرعوا الفرقة بين الناس ، يا للحثالة! تماماً كما يشق المحراث حقلاً ، جزء إلى هذه الجهة والآخر إلى تلك . من الفظاعة أن يعيش المرء في زمن لا يفهم بنو البشر بعضهم بعضاً . فأنت ، مثلاً ، أنت شقيقي اللح ، ولكنني لا أفهمك ، يشهد اللّه أنني لا أفهمك . فأنا أحس بأنك تنأى عني أكثر فأكثر . هذا صحيح ، أليس كذلك ؟ أنت تعرف أنه صحيح . إني لأخشى أن تنحاز إلى الحمر . فأنت لم تكتشف نفسك بعد ، يا غريشا .

فسأله غريغوري :

ـ وهل اكتشفت نفسك أنت ؟

وراح يحدق في الشمس الغاربة وراء خيط نهر الخوبر غير المرئي وراء التل الكلسي ، وسماء المغرب برمتها تشتعل بما خلّفته الشمس من وهج ، والغيوم تولي الأدبار من الأفق مسرعة ندفاً سوداً كالفحم :

ـ أجل ، لقد وجدت طريقي . وليس بوسعك أن تحرفني عنه . لن أتعثر مثلك ، يا غريغوري .

ـ آه .

وافترت شفتا غريغوري عن ابتسامة كدر :

ـ كلا ، لن أتعثر! ـ وفتل بيوتر شاربيه غاضباً ، وطرف بعينه ، وكأن شيئاً قد بهر بصره . وأردف : ـ ليس بوسعك أن تجرني إلى صفوف الحمر ، حتى والحبل في عنقي . فالقوزاق ضدهم ، وكذلك أنا . ولست أرغب في أن أقف ضد القوزاق ، ولن أفعل ذلك! كيف أعبر عن الأمر... ليس في ذلك حكمة ، لهم طريقهم ولي طريقي .

فقال غريغوري وقد تملكه الإعياء : ـ دعك من هذا القول . ـ ثم استدار ليذهب إلى مأواه . وعند البوابة أوقفه بيوتر ، وسأله :

ـ قل لي ، أريد أن أعرف... قل لي ، يا غريغوري ، هل تنضم إليهم ؟

ـ لا أظن ذلك... لا أدري .

جاء جواب غريغوري متعثراً متردداً . فتنهد بيوتر ولكنه كف عن استجواب أخيه . فمضى عنه مهموماً وقد غارت وجنتاه . إذ آلمه ، شأن غريغوري ، أن يرى أجمة منيعة من تجارب الحياة تعترض الدرب الذي سلكاه معاً . (انه أشبه بدرب مهدته أظلاف الماعز ، ينحدر على سفح تل ملتوياً ، ولكنه ما أن يبلغ منعطفاً ما ويهبط إلى القرار حتى ينتهي فجأة عند منعطف وكأنه تحول غائصاً إلى أجمة شجيرات) .

في اليوم التالي قفل بيوتر بنصف السرية راجعاً نحو فيشنسكايا . وسار بقية الفتيان تحت قيادة غريغوري صوب أرزينوفسكايا . كانت الشمس منذ

الصباح الباكر تستعر دونما رحمة ، وراح السهب يموج بضباب داكن ، ولاحت من خلفهم المعالم الزرق للتلال ، وترامت الكثبان الرملية وكأنها بحر من الزعفران . ومضت الجياد العرقى تتمايل في سير وئيد . وتوردت وجوه القوزاق وغدت بنية اللون بهتت من جراء فعل الشمس وباتت قرابيس سروجهم ، وركائبهم ، وشكائمهم ، يصعب لمسها باليد من شدة الحرارة . ولم يكن القيظ أخف وطأة حتى في الغابة ، حيث كان الهواء حاراً خانقاً تفوح منه رائحة المطر بشدة .

كان غريغوري يمضه حنين بائس ، وظل طوال يومه يفكر بمستقبله تفكيراً لا نسق له ، وهو يهتز على سرجه . كانت كلمات بيوتر ترنّ في أذنيه رنين خرزات المسبحة . وأشاعت مرارة الشيح الجفاف في شفتيه . وبدا الطريق وكأنه يحترق ، وانكفأ السهب الذهبي البني تحت وطأة الشمس ، تجوب فوقه نفثات الهواء اللافح ، محركة بقايا الأعشاب مثيرة الغبار .

وعند الغروب لفع الشمس ضباب رهيف ، وحالت السماء فأمست رمادية اللون . وتجمعت في الغرب سحب أسيانة ، وتعلقت فوق خط الأفق الدقيق وهي لا تكاد تبدي حراكاً . ولكن الرياح ساقتها ، فاندفعت تحمل النذير ، جارةً السحب الداكنة على ارتفاع قليل خانق ، بينما اكتست حواشيها لوناً أبيض كالسكر .

عبرت الحضيرة نهيراً ، ومضت تتغلغل في غابة من الحور . وجعلت الريح تعبث بأوراق الشجر فتكشف عن أسفلها الأزرق الحليي وترسل حفيفاً هامس النغم . وفي مكان ما ، وراء نهر الخوبر ، تناثر رشيش مطر مائل وبرد من حواشي السحب البيض يطوقها قوس قزح متألق .

وأمضوا اللية في قرية صغيرة موحشة . وبعد أن عني غريغوري بجواده ، خرج إلى حديقة النحل . وقد أخبره مضيفه ، وهو قوزاقي كهل أجعد الشعر ، بنبرة تنم عن القلق :

ـ أترى تلك الخلية ؟ لقد اشتريت سرب النحل قبل أيام ، وها هي صغارها تموت لسبب ما . أنظر ، إن النحل تجرها إلى الخارج .

وتوقفا عند الخلية الخشبية ، فأشار إلى الفتحة ، وكانت كبار النحل ترسل طنيناً خافتاً وهي تخرج جثث الصغار وتطير بها مبتعدة .

خاوص صاحب النحل عينيه وزم شفتيه أسفاً .

كان يرتجّ في مشيته ، ويهز ذراعيه بعنف وارتباك ، فبدت غلظته تلك وحركاته اللامجدية نشازاً في حديقة النحل تلك ، حيث يكد المجتمع الهائل من النحل كداً مشتركاً رتيباً في عمله الدؤوب الحكيم . فراح غريغوري يتفرس فيه بشعور أقرب إلى النفور . وزادته نفوراً طريقة كلام الرجل السريعة الصارة :

ـ كان عام خير على العسل . لقد حمل الصعتر زهراً جيداً ، فجمع النحل نتاجاً طيباً . إن الأقفاص خير من الخلايا سأحصل على المزيد من هذا...

جلس غريغوري في المطبخ يشرب الشاي المحلى بعسل كثيف دبق كالغراء ، يعبق بالأعشاب وأزاهير المروج . وتولت تقديم الشاي ابنة رب البيت ، وهي فتاة حسناء فارعة القوام ، متزوجة من أحد الجنود . وكان زوجها قد ذهب مع الحمر المتراجعين ، الأمر الذي جعل أباها يظهر الود والمسكنة ، فبدا وكأنه ودود مسالم . كان لا يلاحظ النظرات الخاطفة التي تصوبها ابنته إلى غريغوري من تحت أهدابها وهي تزم شفتيها الرقيقتين الباهتتين . وحين مدت يدها إلى إبريق الشاي ، استطاع غريغوري أن يرى الشعر الأسود الفاحم تحت إبطها . وقد التقت عيناه بعينيها المتوسلتين الفضوليتين ، أكثر من مرة ، وخيل إليه اذ تلاقت أعينهما أن الحمرة خضبت وجهها وأنها ابتسمت ابتسامة دافئة .

وبعيد الشاي قالت له :

ـ سوف أعد فراشك في الغرفة الأمامية ـ ثم ذهبت لتجلب وسادة وبساطاً . وحين مرت بجانبه لفحته بنظرة جائعة فاضحة . وبينما هي تسوي

الوسادة قالت له على عجل وبصوت خافت ، وكأن الأمر ليس ذا بال : « إني أنام تحت السقيفة . فالهواء خانق في الداخل ، والبرغوث يلسع... »

لم يخلع غريغوري سوى جزمته ، وما إن تناهى إليه شخير القوزاقي الشيخ حتى ذهب إليها في السقيفة . فأفسحت له بجانبها ، وغطت نفسها بالفروة ، ورقدت صامتة تلامسه بساقيها . وكانت شفتاها جافتين خشنتين تنبعث منهما رائحة بصل وعذوبة شفافة . فرقد غريغوري بين ذراعيها الرشيقين الأسمرين حتى الفجر ، وراحت طوال الليل تشده إليها بضراوة ، وترضيه بشراهة وتعض شفتيه وهي تتضاحك وتتمازح حتى نز منهما الدم . وقد تركت على عنقه ، وصدره ، وكتفيه آثاراً زرقاً من قبلاتها اللاسعة ومن أسنانها الصغيرة التي تشبه أسنان الحيوان . وحين صدح الديك للمرة الثالثة حاول أن ينهض ويذهب إلى الكوخ ، ولكنها حالت دون قيامه .

فجعل يبتسم تحت شاربيه المتهدلين وتوسل إليها ، جاهداً أن يفك أسار نفسه :

ـ دعيني أذهب ، يا عزيزتي ، دعيني أذهب ، يا توتتي الصغيرة!

ـ اضطجع قليلاً... اضطجع!

ـ ولكن سيروننا . سينبلج ضياء الصبح عما قريب .

ـ حسناً دعهم يروننا!

ـ وماذا عن أبيك ؟

ـ إنه يدري .

فرفع غريغوري حاجبيه دهشة :

ـ ماذا تقصدين ؟

ـ الواقع... طلب إليّ البارحة أن أضاجع الضابط إن هو أراد ذلك ، لئلا يأخذوا حصانه بسبب زوجي ، أو يلحقوا به ضرراً أشد... فقد ذهب زوجي مع الحمر .

فقال غريغوري بازدراء ، ولكنه شعر بالإهانة في دخيلته :

ـ هكذا الأمر ، اذاً!

وعمدت بنفسها إلى تبديد هذا الشعور الذي ساوره ، فراحت تعابث عضلة ذراعه وارتعشت وهي تقول :

ـ ليس زوجي الغالي مثلك .

فسألها غريغوري ، وعيناه الصاحيتان تحدقان بقبة السماء المتشاحبة :

ـ كيف هو ، اذاً ؟

ـ لا ترجى منه فائدة... إنه ضعيف ـ ثم استكانت إليه والتصقت به ، ونمّ صوتها عن دموع جافة ، وأردفت : ـ عشتُ معه دون أن أذوق معه طعم حلاوة في حياتي . انه لا يفي بحاجة المرأة . ـ وكالزهرة الريانة بالندى تفتح أوراقها بكل بساطة ، تفتحت لعين غريغوري روح هذه الفتاة الغريبة الساذجة كالطفل . فأصاب غريغوري الثمل ، وثار فيه الإشفاق . فراح يداعب خصلات شعر صديقته الطارئة ، وأغمض عينيه الكليلتين .

جرى نور القمر الحائل خلال قصب السقف ، وخرّ شهاب واندفع صوت الأفق بعنف ، فخلف وراءه رفلاً تلاشى وهو يتوهج في السماء الرمادية . ونادت بطة في البركة فأرسل الذكر جواباً بصوت أجش ولهان .

ذهب غريغوري إلى الكوخ . وكان جسمه الخاوي خفيفاً يغمره تعب لذيذ مخدر . وأخذه النوم وعلى شفتيه طعم شفتيها المالح . وأودع بكل عناية في أعماق قلبه ذكرى جسد القوزاقية اللهوف ، وعبقه الذي كان مزيجاً من روائح عسل الأعشاب ، والعرق ، والدفء .

أيقظه قوزاق سريته بعد ذلك بساعتين . وأسرج بروخور زيكوف حصانه وقاده خارج البوابة . وودع غريغوري رب البيت ، وهو يتحمل بثبات نظرة الأب اللافحة بالعداء ، ثم أومأ برأسه إلى ابنته وهي تمر إلى داخل البيت . فأحنت رأسها ، ولاحت في طرفي شفتيها الرقيقتين الشاحبتين ابتسامة وظل مرارة وحسرة .

ومضى غريغوري بجواده في الشارع الفرعي ، وهو يتلفت إلى الوراء .

وتعرج الطريق ماراً بالدار التي أمضى فيها ليلته ، فشاهد المرأة التي بعث فيها الدفء تحدق صوبه عبر السياج ، وراحتها السمراء تظلل عينيها . فالتفت غريغوري بحنين غير متوقع جاهداً أن يستشف ما ارتسم على محياها من تعبير ، وأن يستوعب صورتها الكاملة . بيد أنه أخفق ، فلم ير إلا رأسها يدور فيما كانت عيناها تتعقبانه كما تتعقب زهرة عباد الشمس مسار الشمس الدائري الوئيد .

* * *

سيق ميخائيل كوشيفوي على قدميه من فيشنسكايا إلى الجبهة . وبلغ قصبة فيدوسييف ، بيد أن أتمان المنطقة هناك أبقاه يوماً ، ثم أعاده إلى فيشنسكايا مخفوراً .

فسأل ميخائيل الكاتب قائلاً :

ـ لماذا تعيدونني ؟

فأجابه الرجل بتردد :

ـ وصلتنا تعليمات من فيشنسكايا .

واتضح أن والدته قد جثت على ركبتيها أمام مجمع القرية وتضرعت إلى الشيوخ ، فبعثوا التماساً باسم مجمع القرية طالبين تعيينه راعياً في حقل المنطقة المعد للخيل ولكونه المعيل الوحيد في عائلته . وقد أخذ ميرون كورشونوف الالتماس إلى الأتمان بنفسه وأفلح في اقناعه .

وصرخ أتمان المنطقة في وجه ميخائيل ، الواقف امامه باستعداد وأنهى خطابه غاضباً :

ـ لن نأتمن البلاشفة في الدفاع عن الدون! بإمكانك أن تذهب إلى مرعى الجياد ، وسنرى بعد ذلك . فاحذر ، يا ابن الخنزير! لقد أشفقنا على أمك ، وإلا كنا... أخرج!...

سار ميخائيل في الشوارع اللاهبة بدون حرس . يوجع كتفه المعطف

العسكري الملفوف ، وأبت قدماه مطاوعته فقد أضنتها الكيلومترات المئة والخمسون التي قطعتها ، ولم يبلغ قريته عند المغرب إلا بشق النفس . وفي اليوم التالي مضى على فرسه إلى حقل الخيل ، بعد أن عانقته أمه وبكت عليه . وقد انطبعت في ذاكرته صورة وجه أمه الشائخ وبواكير المشيب في شعرها .

الى الجنوب من كاركينسكايا امتدت بقعة من أرض السهوب البكر ، طولها نيف وثمانية وعشرون فرستاً وعرضها ستة فرستات . وقد أفرزت هذه البقعة من الأرض ، ومساحتها آلاف عديدة من الأكرات ، لرعي جياد المنطقة لذلك راح يسموها «المفروزة» . وفي كل عام ، في عيد القديس ييغور ، يسوق الرعاة قطعان الجياد من اصطبلات الشتاء ويأتون بها إلى هذا المرعى . وقد أقيم في المرعى اصطبل ، وأكواخ للرعاة ، وللمشرف ، والطبيب البيطري ، من المبالغ التي اعتمدها ناظر خزينة المنطقة . فيجلب قوزاق منطقة فيشنسكايا أفراسهم ، فيتثبّت الطبيب البيطري والمشرف من أن كل فرس لا يقل ارتفاعها عن أربعة عشر شبراً ، ولا عمرها عن أربع سنين . وكانت الأفراس السليمة توزع على قطعان يضم كل منها أربعين فرساً فيقود كل فحل قطيعه من الأفراس ويرعاها بكل عناية .

ذهب ميخائيل إلى الحقل على صهوة الفرس الوحيدة التي تملك عائلته . وقالت أمه وهي تمسح دموعها بصدريتها :

ـ ربما ستلد مهراً... لا تنس العناية بها ، لا تلح عليها بالعدو ، فنحن بأمس الحاجة إلى فرس أخرى .

وعند الظهيرة لاح لميخائيل الكوخ وسقف الاسطبل الرمادي الكالح خلل الضباب الذي اكتنف الوادي . حثّ فرسه وصعد قمة تل فشاهد ، بوضوح تام ، الثكنات وغمر العشب الحليبي وراءها . واستطاع أن يرى إلى الشرق ، على مبعدة ، ثلة بنية من الخيل تجري نازلة إلى البركة ، وكان يهذب إلى جانبها فارس بدا وكأنه دمية صغيرة على ظهر فرس من لعب الأطفال .

ولج ميخائيل فناء الثكنة ، وترجل ، ثم ربط عنان فرسه بعمود سقيفة الباب ، ودخل والتقى في المجاز العريض براعٍ ربع القامة يكسو وجهه النمش :

فسأله الراعي بنبرة لا ود فيها وهو يتفحصه من أم رأسه إلى أخمص قدمه :

ـ من تريد ؟

ـ أريد المشرف .

ـ غير موجود ، خرج . مساعده هنا . الباب الثاني إلى اليسار ، ولماذا تريده ؟ من أين أنت ؟

ـ جئت لأشتغل راعياً .

فغمغم الرجل وهو يسير إلى الباب :

ـ ما يحشرون لنا من هبّ ودبّ... ! ـ وكان الحبل ذو الأنشوطة الذي ألقاه عبر منكبه يخط على الأرض في أثره . وحين فتح الباب وقف وظهره إلى ميخائيل ، ثم لوّح بسوطه وقال بلهجة أرق : ـ إن عملنا شاق ، أيها الأخ . إننا نقضي بعض الأحيان أكثر من يومين على السرج دونما راحة .

وحدق ميخائيل بمنكبيه المكورين وساقيه المعوجّتين إلى الداخل . وبدت تقاطيع جسمه غير المتناسق بارزة في ضوء الباب . وقد سر ميخائيل لمنظر ساقيه المقوّستين ، وقال في دخيلته وهو يلتمس رتاج الباب : « كأنه أمضى أربعين عاماً وهو راكب برميلاً » .

استقبل مساعد المشرف الراعي الجديد بعدم اكتراث ينم عن تعال . ثم جاء المشرف نفسه بعد فترة وجيزة . وكان قوزاقياً جسيماً ، ورئيس عرفاء سابق في كتيبة الأتمان . وقد أصدر التعليمات بأن يدرج اسم ميخائيل في سجل الأرزاق ، ثم خرج وإياه إلى سقيفة الباب وسأله :

ـ هل تستطيع تدريب الخيل ؟ هل سبق لك أن روّضت حصاناً ؟

فاعترف ميخائيل قائلاً بصراحة :

ـ لا أستطيع أن أقول إنني قمت بذلك . وسرعان ما لاحظ ظلاً من التبرم يمر على وجه المشرف العرقان . وجعل الرجل يحك ظهره ، ثم سمّر نظره بوجه ميخائيل ، وسأله :

ـ هل تستطيع استعمال الحبل ذي الأنشوطة ؟

ـ أستطيع ذلك .

ـ وهل اعتدت معاملة الخيل معاملة لائقة ؟

ـ أجل .

فأمره قائلاً : « كن رفيقاً بدون أن تلجأ الى السوط! لأنهم كالبشر ولكنهم لا ينطقون » .

وبدا على محياه التفكير لحظة ولكن سرعان ما تلاشى ذلك التعبير ليحل محله قناع صارم من اللامبالاة .

ـ متزوج ؟

ـ لا .

فصاح المشرف جذلاً :

ـ أنت أحمق إذن! ينبغي أن تتزوج!

ووقف برهة يحدق في صدر السهب الرحب وهو صامت ثم تثاءب ودخل الكوخ . ولم يسمع ميخائيل من شفتيه كلمة أخرى طيلة شهر أو يزيد أمضاه في الرعي .

كان في الحقل خمسة وخمسون جواداً ، يتولى كل راع العناية بقطيعين أو ثلاثة ، وقد عهد إلى ميخائيل قطيع كبير يتصدره جواد عجوز شديد البأس اسمه باخار ، وقطيع أصغر منه يضم حوالي عشرين فرساً وجواداً يلقب بـ « البسيط » . وأرسل المشرف في طلب أمهر الرعاة وأشجعهم ، رجل اسمه ايليا سولداتوف ، وأخبره قائلاً :

ـ إليك راعياً جديداً ، ميخائيل كوشيفوي من قرية تتاركسي ، أره

قطيعي باخار و«البسيط» وأعطه حبلاً بأنشوطة . سوف يسكن في كوخك ، أره موقعه . اذهبا!

أشعل سولداتوف سيكارة وهو صامت ، ثم أومأ إلى ميخائيل :

ـ تعال معي .

وفي سقيفة الباب أشار إلى فرس ميخائيل وهي تقف في الشمس وكأنها نائمة ، وقال :

ـ هذه بهيمتك ؟ أهي ملقحة ؟

ـ كلا .

ـ ضعها مع باخار . إنه من حقل كوروليوف لتربية الجياد مهجن بحصان انكليزي . إنه عداء سريعٍ! حسناً ، اركب .

مضيا سوية ، وفرساهما تفجان عشباً يعلو حتى الركب وقد خلفا وراءهما الكوخ والاسطبلات . وامتد السهب أمامهما مهيب الصمت ، متلفعاً بضباب رقيق أزرق . وانهمر ضياء الشمس من سمتها عبر خيط من السحب البيضاء . وفاح من العشب الدافئ عبق مفعم لزق . وإلى اليمين ، توهج أديم باسم أبيض متلألئ لبركة جيروف في وهدة يكتنفها الضباب . وفي كل اتجاه على مرمى البصر ، فضاء أخضر لا حدود له ، ومسارب راعشة من الضباب ، والسهب الجليل يصفده قيظ الظهيرة ، وعند الأفق لاحت أكمة تسبح بطيف لازوردي خلاّب .

كان العشب عند الجذور نضيراً ذا خضرة عميقة بينما أزهرت أوراقه بالمن تحت ضوء الشمس فراحت ترسل ألوانا نحاسية . وكان العشب الريشي أشعث تحت ثقل حبوب لما تنضج ، مبقعاً بنبات الايموركا ، وبدا الثيل رافعاً سنابله المحملة بالبذور نحو الشمس بكل لهفة . ولاذت بالأرض هنا وهناك شجيرات قميئة من القصعين ، ومن جديد انساب عشب السهب غزيراً تزينه ألوان الشوفان البري ، وعشب السلجم الأصفر ، والفربيون ، وعشب الجينكين القاسي الأناني الذي يطرد الأعشاب الأخرى من حواليه .

ومضى القوزاقيان دونما كلام . وكان ميخائيل يشعر باحساس جديد من الطمأنينة الذي لم يشعر به منذ الزمن البعيد . كان السهب يخيم عليه بصمته ، ومهابته الجليلة . وأغفى صاحبه على السرج ، مائلاً إلى الأمام فوق عرف حصانه ، وقد انطوت يداه النمشاوان على قربوس السرج وكأنه على وشك أن يتلقى العشاء الرباني .

وطار حباري من بين حوافر الخيل ، وحلق فوق واد وخوافيه البيض تسطع بوهج أبيض . وتماوجت الأعشاب بنسيم ربما كان يداعب أمواج بحر آزوف صبيحة ذلك اليوم .

وعثرا بعد نصف ساعة على قطيع يسرح على مقربة من البركة ، فاستيقظ سولداتوف وتمطى في سرجه متكاسلاً :

ـ هذا هو قطيع لوماكين . ولكنني لا أراه في أي مكان . فسأله ميخائيل وهو ينظر باعجاب إلى الكميت الفاقع ذي السيقان الطويلة :

ـ ما اسم هذا الجواد ؟

ـ فرازر . انه ابليس عنيف! انظر كيف يبحلق فينا!... ها هو يمضي!

وابتعد الجواد فهبت الأفراس وراءه .

تسلم ميخائيل القطيعين اللذين أوكلا له ، ووضع متاعه في كوخ الحقل . وقد شاركه الكوخ ثلاثة آخرون يترأسهم سولداتوف ، الذي عرّف ميخائيل بواجباته عن طيب خاطر ، وأخبره بعادات الجوادين وخصائصهما ، ونصحه وهو يبتسم بمكر :

ـ ان الأصول تقضي بأن تؤدي عملك على ظهر فرسك ، ولكنك اذا بقيت تمتطيها ، يوماً بعد يوم ، فإنك ستنهكها . دعها تنضم إلى القطيع ، وأسرج أفراس الآخرين ، ثم بدلها بسرعة .

وأمام عيني ميخائيل ، اختار فرساً من القطيع ، وألقى حول عنقها أنشوطة الحبل بمهارة . ثم أسرجها بسرج ميخائيل وقادها اليه :

ـ امتط هذه! أحسب أن أحداً لم يروضها من قبل ، يا للشيطانة .

اركبها! ـ صرخ بذلك غاضباً ، ويمناه تشد على العنان بقوة ، ويسراه تضغط على خطمها الراعش . «عاملها بلطف! ربما تصرخ على جواد في الاسطبل فيطاوعك ، ولكن الأمر يختلف هنا في البرية . راقب باخار بعين مفتوحة . إياك أن تدنو منه كثيراً وإلا سحقك» ـ أضاف ذلك وهو يمسك بالركاب ، ويربت بحنان على ضرع الفرس الرقيق المتوتر .

٣

استراح ميخائيل أسبوعاً ، يمضي سحابة يومه على ظهر جواده . لقد أذله السهب ، وأرغمه على أن يحيا حياة البراري البدائية . كان قطيعه يسرح غير بعيد عنه ، فيجلس ميخائيل على سرجه غافياً ، أو يطرح نفسه على العشب ، ويراقب أسراب الغيوم البيض تجوب السماء ، وهو ساهم . وقد استمرأ تلك العزلة عن العالم بادئ الأمر ، فقد بدت الحياة بعيداً عن الناس شيئاً مسراً . ولكنه حين ألف تلك الحالة في أواخر الأسبوع بدأ خاطر مبهم يقض مضجعه وكان يقول في دخيلته : «هناك يقرر الناس مصائرهم ومصائر غيرهم ، وهنا لا شغل لي سوى الاعتناء بحشود الأفراس . ينبغي أن أرحل ، وإلا دفعت بي هذه الحياة إلى الحضيض!» . بيد أن همسة كسلى أسرت اليه : «دعهم يقتتلون : هناك يحوم الموت ، أما هنا فحرية وعشب وسماء . هناك يستشيط الرجال غضباً ، وهنا يسود السلام . علام أهتم لما يفعله الآخرون ؟» ومع ذلك شرعت أفكاره تخز طمأنينته الطيعة الأمر الذي دفعه إلى التماس صحبة الآخرين . فجرب أكثر من السابق أن ينسجم وسولداتوف ، وحاول أن يوطد رفقته به .

وجلي أن سولداتوف لم تثقل كاهله مثل تلك الوحشة . فنادراً ما كان يمضي الليل في الكوخ ، ولكنه كان على الدوام تقريباً مع قطعانه أو قرب البركة . كان يحيا حياة الحيوانات . يوفر طعامه من الصيد ، ويفعل ذلك

بمهارة فائقة . لكأنه لم يفعل في حياته شيئاً آخر غيره . وذات مرة ألفاه يجدل خيط صنارة من شعر الفرس ، فسأله :

ـ ماذا ستصيد بهذا ؟

ـ سمكاً .

ـ وأين السمك ؟

ـ في البركة .

ـ وأي طعم تستخدم ؟ الديدان ؟

ـ الخبز والديدان .

ـ هل تسلقه ؟

ـ أجففه في الشمس . إليك ، كل قطعة! ـ قال ذلك اذ أخرج من جيب بنطاله قطعة من سمكة الشبوط وقدمها إلى ميخائيل بحفاوة .

وحدث أيضاً فيما كان ميخائيل يسوق قطيعه أن عثر على حباري في فخ كان سولداتوف قد نصبه . وكان يقف عن كثب تمثال حباري متقن الصنع . وكانت الشبكة مخفية في العشب بمهارة . وقد شوى سولداتوف الحباري مساء ذلك اليوم في حفرة في الأرض ، ناثراً بعض الفحم فوقها . ثم دعا ميخائيل ليأكل معه .

وفيما كان يتناول اللحم اللذيذ ، قال :

ـ لا تلمس الفخ ثانية ، ستفسده .

فسأله ميخائيل : ـ كيف حدث أن جئت إلى هنا ؟

ـ في رقبتي عائلة ـ ثم صمت سولداتوف لحظة ، وسأل على حين غرة :

ـ اسمع! أصحيح ما يقوله الأولاد أنك من الحمر ؟

فارتبك ميخائيل اذ لم ينتظر سؤالاً كهذا :

ـ كلا... حسناً ، أجل ، انضممت إليهم... ثم ألقي القبض علي .

وسأله سولداتوف وفي عينيه نظرة قاتمة وصار أبطأ في مضغه :

ـ لماذا انضممت إليهم ؟ ما الذي كنت تبغي ؟

كانا جالسين قرب النار على شفا واد جاف ، وكان وقود الروث يبعث دخاناً كثيفاً ، وراحت لهبة صغيرة تختلج بين الرماد ، والليل من ورائهما يبعث أنفاساً لاهفة ورائحة شيح ذاوٍ . وكانت السماء بلون الحبر تخططها الشهب المتساقطة ، فكلما خر شهاب ترك في السماء أثراً أشبه بالحز الذي يتركه السوط على ثفر الحصان .

وتفرس ميخائيل بحذر وجه سولداتوف الذي أضاءته النار ، ثم أجاب :

ـ أردت أن أناضل من أجل حقوق الشعب .

ـ أي حقوق ؟ أخبرني .

كان صوت سولداتوف خافتاً متهيباً ، فأحجم ميخائيل برهةٍ ، وظن أن صاحبه وضع قطعة جديدة من الوقود على النار عامداً إلى اخفاء الانطباع البادي على وجهه . ثم استجمع شجاعته وقال :

ـ المساواة للجميع ، ذلك ما أريد! ينبغي ألا يكون هناك أسياد وخدم . أفهمت ؟ وسوف يتحقق ذلك يوماً ما .

ـ هل تعتقد أن الكاديت سينتصرون ؟

ـ كلا ، لا أعتقد .

فقال سولداتوف :

ـ هذا ما كنت تسعى وراءه إذن ؟ ـ وجر نفساً عميقاً ثم وثب على قدميه : ـ ابن العاهرة ، أردت أن تغدر بالقوزاق من أجل اليهود ؟ ـ وكان صوته ينم عن غضب شديد . ـ أردت أن تقتلعنا كلنا من الجذور ؟ ها! لكي يستطيع اليهود إقامة معاملهم في كافة أرجاء السهب ؟ لكي يستطيعوا طردنا من أراضينا ؟

ونهض ميخائيل المذهول على مهل . وظن أن سولداتوف يوشك أن يضربه ، فخطا إلى الوراء . وحين رأى سولداتوف ميخائيل يتراجع لوّح بجمع يده . بيد أن ميخائيل أمسك ذراعه في منتصف الطريق ، وهصرها عند الرسغ ، ونصحه قائلاً :

ـ دعك من هذا يا عم ، وإلا دققت لك عنقك! علام تصرخ ؟

وقفا في الظلام وجهاً لوجه . وقد انطفأت النار التي دهساها بأقدامهما ، ولم تبق سوى جمرة واحدة أطارتها رفسة من أقدامهما فظلت تدخن في حواشيها . وأمسك سولداتوف بيسراه ياقة قميص ميخائيل ، ولمها في جمع يده ورفعها إلى أعلى ، محاولاً أن يطلق يده اليمنى .

فقال ميخائيل لاهثاً : ـ أبعد يدك عن قميصي ، ـ ولوى رقبته القوية ، وأردف : ـ أطلق قميصي ، قلت لك! سأسحقك ، أسمعت ؟

فزنخر سولداتوف :

ـ كلا... تسحقني ، ها... انتظر!

فحرر ميخائيل نفسه ودفع الآخر إلى وراء ، وأصلح وضع قميصه وهو يرتجف ويشعر برغبة قطيعة لضربه ، وركله ، ويطلق الحرية ليديه .

لم يحاول سولداتوف أن يهجم عليه . فصاح وسط سيل من السباب وهو يصر بأسنانه :

ـ سأخبر... سأخبر المشرف حالاً . أيها الثعبان! أيها الدنيء! بلشفي! يجب أن تلقى مصير بودتيلكوف نفسه! إلى المشنقة!

« سوف يخبرهم... سوف يختلق شيئاً ما . سيضعونني في السجن . لن يرسلوني إلى الجبهة . فلا أستطيع الانضمام إلى الحمر ، لقد قضي علي! » ـ ودبت البرودة في أوصاله ، وراحت أفكاره وهي تبحث عن مخرج ، تضطرب اضطراب سمكة في بركة صغيرة خلفتها مياه الفيضان المنحسر : « سأقتله! سأخنقه الآن! لا مفر من ذلك » . ومنذ تلك اللحظة شرعت أفكاره تبحث عن حجة : « سأقول أنه حاول قتلي . فأمسكت بخناقه... سأقول إنه حادث عارض » .

وخطا نحو سولداتوف مرتجفاً ، ولو حاول هذا أن يهرب في تلك اللحظة لالتحم الدم والموت فوق رأسيهما . الا أن سولداتوف وقف يزعق شاتماً ، فتوقف ميخائيل ، وساقاه تختضان والعرق يتصبب حدر ظهره ، وقال :

ـ مهلاً ، ألا تسمعني ؟ سولداتوف ، كفاك! لا تصرخ! كنت أنت البادئ... ـ كان فكاه يتحركان بعصبية ، وعيناه تجولان على غير هدى ، ثم شرع يتضرع بذلة :

ـ كان شجاراً بين صديقين ليس إلا . لم أضربك في حين أمسكت أنت بتلابيبي . ما الذي قلته لك ؟ إغفر لي... أي واللّه ، حسناً ؟

هدأ سولداتوف تدريجياً ، وبعد برهة قال وهو يلتفت منتزعاً يده من يد ميخائيل الباردة العرقانة :

ـ إنك تهز ذنبك كالأفعى! حسناً ، لن أخبر أحداً . سأشفق على غبائك . ولكن لا ترني وجهك ثانية ، فلست أطيق مرآك . أيها الخنزير! لقد بعت نفسك لليهود ، وليس في قلبي رحمة لأولئك الذين يبيعون أنفسهم بالمال!

ابتسم ميخائيل في الظلمة بذلة وأسى ، إلا أن سولداتوف لم يستطع رؤية ابتسامته ، كما لم يستطع أن يرى من قبل قبضتي ميخائيل وهو يشدهما بقوة .

وافترقا دون كلمة أخرى . وراح كوشيفوي يلهب جواده بالسوط ويخب باحثاً عن قطيعه . كان البرق يومض جهة الشرق . وتناهى إلى سمعه هدير الرعد .

وفي تلك الليلة مرت عاصفة بالسهب ، فهبت الريح عند منتصف الليل ومضت هائجة فوق الأرض تجر في أذيالها البرد والغبار المر . كانت السماء ملبدة بغيوم جعل البرق يحرث أكداسها التي تشبه التربة السوداء . وخيم سكون طويل ، ثم جاء هدير الرعد يحمل النذير من بعيد ، وشرعت زخة غزيرة من المطر تنيم العشب إلى الأرض ، وعلى وهج البريق التالي رأى كوشيفوي الغيوم سوداء منذرة في السماء ، وخيله قد تجمعت على الأرض كالحزمة . وانفجر الرعد يدوي رهيباً وطفق المطر كالسيل على حين غرة .

همهم السهب همهمة مبهمة ، وانتزعت الريح القبعة المبتلة من على رأس ميخائيل وأطاحتها على قربوس سرجه . وخيم لبرهة صمت رهيب ، ثم مرق البرق ثانية عبر السماء ، مخلفاً وراءه ظلاماً أشد وحشة . وكان هزيم الرعد التالي من القوة ما جعل فرس ميخائيل تقعي على كفلها ، ثم شبّت مزنخرة . وبدأت خيل القطيع تدق الأرض بحوافرها . فصاح ميخائيل وهو يعتّ اللجام بكل قواه ، جاهداً أن يهون عليها .

ـ قف! هيه... هيه!

ومن خلال البرق المتعرج ، ذي البياض السكري ، الذي رف بين الغيوم ، أبصر القطيع يستدير ويعدو صوبه بكل قواه ، ورؤوس الخيل تكاد تلمس الأرض ، ومناخيرها المتسعة تنشد الهواء لاهثة ، وحوافرها الحافية تدق الأرض الندية . وكان باخار في الطليعة ، يجري بأقصى سرعته . فأدار كوشيفوي فرسه وأفلح بمراوغة القطيع ، فتدفقت الخيل مارة به ، ثم توقفت عن بعد . ولم يدرك ميخائيل أن الخيل ، وقد أهاجها الرعد وأفزعها هرعت اليه جراء صيحته ، فصرخ ثانية بصوت أعلى :

ـ قف! هيه... هيه!

وكرة ثانية سمع في الظلام هزيم الحوافر الداوي يهرع نحوه . وانتابه الهلع فضرب فرسه بالسوط ما بين عينيها ، ولكن بعد فوات الأوان : فقد ارتطمت احدى الأفراس المهووسة بكفل فرسه فطار من على سرجه وكأنه قذف بالمقلاع . ولكنه نجا بأعجوبة ، فقد اندفع معظم القطيع يجري إلى يمينه عن بعد قليل ، غير أن فرساً واحدة أصابت ذراعه الأيمن بحافرها ، ثم نهض وابتعد حذراً وبأقصى ما يسعه من هدوء . وسمع القطيع على بعد قليل ينتظر صيحته ، على أهبة الاستعداد ليعدو نحوه ثانية باندفاعه الهائج ، وسمع الزنخرة التي تميز الفحل .

ولم يبلغ كوخه حتى انبتق الفجر .

٤

في ١٥ أيار وصل كراسنوف أتمان جيش الدون الأعظم إلى مانيتشسكايا ، على ظهر باخرة ، يصحبه كل من اللواء أفريكان بوغايفسكي ، رئيس مجلس الوزراء ووزير الشؤون الخارجية ، والعقيد كيسلوف رئيس تموين جيش الدون ، وفيليمونوف ، أتمان الكوبان .

وقف أسياد أراضي الدون والكوبان على ظهر الباخرة يرقبون إرساءها ، وعمال المرفأ المنهمكين ، والأمواج الدكناء تترقرق تحت الرصيف . ثم دلفوا إلى الشاطئ تحت أنظار الحشد الذي تجمهر في المرفأ .

كان ثمة ضباب أزرق يلفع السماء ، والأفق ، والنهار وحتى الدون اتخذ لوناً أزرق شاحباً لا عهد له به ، فغدا كالمرآة المقعّرة يعكس القمم البيضاء كالثلج التي تعلو الغيوم المنتفخة .

وكانت الريح مضمخة بروائح الشمس ، والسبخات اليابسة والعشب الميت . وسرت بين الجمهور همهمة من الكلام . وقد رحب رجال السلطة المحلية بالجنرلات ، ثم مضوا إلى الساحة جميعاً .

وبعد ساعة ، عقد مؤتمر بين ممثلي حكومة الدون وجيش المتطوعين في منزل أتمان المنطقة . وكان جيش المتطوعين ممثلاً بالجنرالين دينكين وألكسييف ، والجنرال رومانوفسكي ، رئيس أركانهم ، والعقيدين رياسنيانسكي وايفالد...

ساد الفتور جو المؤتمر ، فاحتفظ كراسنوف بهيبته . أما ألكسييف فقد دار على الحاضرين يصافحهم ، ثم جلس إلى طاولة ، وأسند خديه المترهلين إلى راحتيه البيضاوين اليابستين وأغمض عينيه غير آبه لشيء . فقد سببت له الرحلة بالسيارة شعوراً بالدوار ، وكان الذبول بادياً عليه من ثقل الأحداث وتقدمه في السن ، فتهدلت زاويتا فمه على نحو أسيان ، وكانت أجفانه الزرق المعروقة ثقيلة منتفخة ، وانتشرت على عارضيه مروحة من الغضون .

وتغلغلت أصابعه ، الحاطة على خده المترهل ، في شعره الأشيب المصفر . ونشر العقيد رياسنيانسكي على الطاولة خارطة مخشخشة ، يساعده كيسلوف بكل اهتمام . ووقف رومانوفسكي إلى جانبهما يضغط على زاوية الخارطة بظفر خنصره . واتكأ بوغايفسكي على حافة النافذة الواطئة وراح يراقب وجه ألكسييف المتعب القانط بعطف شديد ، فقد بدا له لشدة بياضه كقناع من الجبس . فهمس بوغايفسكي لنفسه وعيناه المائعتان ، الشبيهتان ببندقتين ، مسمرتان في وجه ألكسييف : «لكم تقدمت به السن! ما أفظع ما تبدو عليه الشيخوخة!» ولم يتيسر الوقت لكي يأخذ الآخرون مقاعدهم حول الطاولة اذ خاطب دينيكين كراسنوف بلهجة مفاجئة منفعلة :

- قبل افتتاح المؤتمر لا بد لي أن أبلغك بأننا فوجئنا للغاية حين علمنا أنك أشرت ، في توزيعك القطعات للاستيلاء على باتيسك ، أن فوجاً وبطارية ألمانيين يعملان في طابور جناحك الأيمن . فينبغي أن أعلن بأن تعاوناً كهذا يبدو لي أكثر من مستغرب... هل لي أن أسأل عن الدوافع التي حدت بك إلى الدخول في مفاوضات مع هؤلاء الأعداء ـ هؤلاء الأعداء الغادرين! ـ لبلادنا ، وقبولك عونهم ؟ ولا بد أنك قد أبلغت باستعداد الحلفاء لمدنا بالمعونة .إن جيش المتطوعين يعتبر التحالف مع الألمان خيانة لهدف اعادة النظام السابق إلى روسيا ، إن أعمال حكومة الدون لقيت ذات الانطباع في أوساط الحلفاء الواسعة . انني أطالبك بتقديم إيضاح حول هذا الأمر .

وانتظر دينيكين الجواب عاقداً حاجبيه بغضب .

ولولا ضبط النفس وحسن المنبت لما استطاع كراسنوف أن يحتفظ برصانته ، ولكن الغضب بدأ يفعل مفعوله فجعل فمه يرتعش بعصبية تحت شاربيه الأشيبين . فأجاب بهدوء وأدب زائدين :

- حين يكون مصير القضية كلها معلقاً في كفتي القدر ، لا يسع المرء أن يتقزز من قبول العون حتى من الأعداء السابقين . وعلى أية حال ، فان حكومة الدون ، التي تمثل شعباً ذا سيادة تعداده خمسة ملايين ، والتي لا

تعترف برعاية أحد ، لتجد من حقها أن تتصرف تصرفاً مستقلاً ، وفق مصالح القوزاق التي يفترض أن ترعاها .

وهنا فتح ألكسييف عينيه وبدا عليه جهد عظيم للإنصات بانتباه . ووجه كراسنوف نظرة سريعة إلى بوغايفسكي الذي كان يفتل شاربه الرفيع ، واستطرد قائلاً :

ـ إن الصفة الغالبة على تفكيرك ، يا صاحب السعادة ، تبدو ذات طبيعة أخلاقية ، لقد أوضحت بكلماتك ، التي تتحمل أنت مسؤوليتها ، ما يروق لك أن تدعوه خيانتنا لقضية روسيا ، وخيانتنا للحلفاء ، وما إلى ذلك . ولكنني أحسبك على علم بأن جيش المتطوعين قد تلقى من عندنا قنابل باعها لنا الألمان ؟

ـ هل لك أن تميز ، من فضلك ، بين مسائل تختلف بطبيعتها كل الاختلاف! لا تهمني طريقة تسلمك الذخيرة من الألمان ، بل تقبل معونة جيوشهم!...

ثم هز دينيكين كتفيه غضباً .

وأنهى كراسنوف كلمته مشيراً بعناية وتأكيد إلى أنه لم يعد ذلك الفريق الذي عرفه دينيكين في الجبهة النمساوية الألمانية .

وعمد دينيكين إلى تشتيت الصمت الذي خيم على أثر خطاب كراسنوف بأن حوّل وجهة النقاش بمهارة إلى موضوع توحيد جيشي الدون والمتطوعين وتشكيل قيادة موحدة . إلا أن الشجار السابق أدى في حقيقة الامر إلى تدهور مستمر في العلاقات بينهما ، التي انقطعت نهائياً أثناء تنحية كراسنوف عن السلطة .

وتحاشى كراسنوف وقتئذ أن يعطي جواباً مباشراً ، بل اقترح القيام بحملة مشتركة على تساريتسين لكيما يتم الاستيلاء على أكبر مركز استراتيجي أولاً ، ولإقامة صلة مع قوزاق الأورال ، ثانياً .

ودار بينهما هذا النقاش الوجيز :

ـ لا أكاد أجد حاجة لايضاح ما لتساريتسين من أهمية هائلة بالنسبة الينا .

ـ قد يلتقي جيش المتطوعين مع الألمان . إنني أرفض المضي الى تساريتسين حتى أحرر الكوبان .

ـ أجل ، ولكن الاستيلاء على تساريتسين يشكل المهمة الأساسية . لقد خولتني حكومة جيش الدون أن ألتمس مساعدتكم ، يا صاحب المعالي .

ـ أكرر ، إنني لا أستطيع التخلي عن قوزاق الكوبان...

ـ لا يمكن أن يكون توحيد القيادة موضوع بحث إلاّ بشرط أن يتمَ الهجوم على تساريتسين ـ ومضغ ألكسييف شفتيه بغير استحسان .

ـ ليس ذلك موضوع بحث! لن يخطو قوزاق الكوبان خطوة واحدة خارج حدودهم حتى ينظف إقليمهم من البلاشفة تماماً . ليس لدى جيش المتطوعين سوى ألفين وخمسمائة حربة ، وإن ثلث جنوده خارج الخدمة الفعلية ما بين جريح ومريض .

وكانت الملاحظات المتبادلة أثناء وجبة الطعام المتواضعة ثقيلة لا معنى لها ، فبدا جلياً أن اتفاقاً ما لن يحصل . ثم قص العقيد رياسنيانسكي مغامرة مسلية نادرة لأحد رجال ماركوف ، وبدأ التوتر يخف تدريجياً بتأثير القصة المضحكة ووجبة الطعام . ولكن بعد الطعام ، حين ذهب الضباط للتدخين في قاعة الاستقبال ، ربّت دينيكين على كتف رومانوفسكي وأمال عينيه الحادتين نصف المغمضتين صوب كراسنوف وهمس :

ـ نابليون قروي... رجل يعوزه الذكاء .

فابتسم رومانوفسكي وأجاب بسرعة :

ـ إن بوده أن يمسك بالصولجان... فريق قد أثملته سلطة ملك . إنه في رأيي ، ثقيل الظل .

افترقوا والعداء والكراهية يملآنهم . ومنذ ذلك اليوم ازدادت العلاقة بين

جيش المتطوعين وحكومة الدون سوءاً ، وقد بلغ هذا التدهور ذروته حين علمت قيادة جيش المتطوعين بمضمون رسالة كراسنوف إلى ويلهلم ، أمبراطور ألمانيا . وكان جرحى المتطوعين ، الذين يقضون أيام النقاهة في مستشفى نوفوتشيركاسك ، يسخرون من رغبة كراسنوف في الاستقلال ، وميله إلى بعث التقاليد القوزاقية القديمة . كانوا في أوساطهم يزدرونه ، ويتحدثون عنه بلهجة قاسية ، فيلقبونه بالمعلم ، ويستعملون صفة «قذير» بدلاً من «قدير» الواردة في اللقب الرسمي لجيش الدون . ويرد عليهم طالبو الاستقلال فيلقبون المتطوعين بـ «المغنين المتجولين» و «الحكام الكارتونيين» وقال شخص ذو منصب هام في جيش المتطوعين ساخراً من حكومة الدون إنها «مومس تكسب أجرها في سرير ألماني» . وجاء الرد على ذلك من الجنرال دينيسوف نفسه : «لئن كانت حكومة الدون مومساً ، فإن جيش المتطوعين هو القط الذي يقتات على فتات مائدتها» .

كان ذلك تلميحاً إلى اعتماد جيش المتطوعين على قوزاق الدون ، الذي يقاسمهم التجهيزات العسكرية التي يتلقونها من الألمان .

كانت روستوف ونوفوتشيركاسك ، اللتان تشكلان مؤخرة جيش المتطوعين ، تعجّان بالضباط . وقد اعتاش الألوف منهم على المضاربة ، أو عملوا في العديد من تنظيمات مؤخرة الجيش أو التجأوا إلى الأقارب والمعارف ، أو دخلوا المستشفيات بشهادات مزورة تشير إلى أنهم مصابون بجراح . لقد مات كل شجعانهم ، إما في سوح القتال أو من جراء التيفوس والجراح ، أما الباقون ، الذين فقدوا في سني الثورة كل معاني الشرف والضمير ، فتواروا في المؤخرة كأبناء آوى ، وباتوا كالزبد العفن يطفو على مياه الزمن العاصفة . كان هؤلاء يشكلون الاحتياطي التافه والعاطل من الضباط الذين صب عليهم تشيرنتسوف ذات مرة العار والتهم ، وأهاب بهم أن يدافعوا عن روسيا . وكانوا بغالبيتهم أحط «المثقفين المفكرين» الذين ارتدوا البزة العسكرية خلال تلك الفترة . كانوا قد فروا من البلاشفة ولكنهم

لم يربطوا مصيرهم بالبيض أيضاً ، فعاشوا حياة التخفّي ، يتناقشون حول مصير روسيا ، ويكسبون ما يسعهم لشراء الحليب لأطفالهم ، آملين بكل جوارحهم أن تحل نهاية الحرب .

لم يكن يعنيهم ، من الذي سيحكم البلاد ، كراسنوف ، أم الألمان ، أم البلاشفة . كان كل همهم أن ينتهي كل شيء .

على أن هدير الأحداث استمر يوماً بعد يوم . ففي سيبيريا تمرّد التشيكيون ، وفي أوكرانيا حوار صاخب بلغة المدافع والرشاشات بين ماخنو والألمان... روسيا برمتها مطوقة بالنيران . روسيا برمتها تتلوى من عذاب الانقسام الكبير .

في حزيران اجتاحت الدون ، مثل ريح شرقية ، شائعة تقول ان التشيكيين سيحتلون ساراتوف وتساريتسين واستراخان لكي يفتحوا جبهة شرقية على امتداد الفولغا ، تمهيداً لشن هجوم على الألمان . وفي أوكرانيا شرع الألمان يمنعون مرور الضباط الذين يتسربون خلال خطوطهم بعد أن هربوا من روسيا تحت شارات جيش المتطوعين .

أرسلت القيادة الألمانية ممثليها إلى الدون ، فقد أقلقتها شائعات فتح «الجبهة الشرقية» . وفي العاشر من تموز وصل إلى نوفوتشيركاسك كل من الرؤساء الأوائل فون غوغنهاوزن ، وفون ستيفاني ، وفون شلاينتس ، وهم من الجيش الألماني .

وقد استقبلهم الأتمان كراسنوف في قصره في اليوم ذاته بحضور الجنرال بوغايفسكي .

وبعد أن ذكّر الرئيس الأول غوغنهاوزن سامعيه بأن جيش الدون العظيم في قتاله ضد البلاشفة ومن أجل استعادة حدوده قد تلقى المعونة من القيادة الألمانية بكل السبل ، بما في ذلك التدخل المسلح ، استفسر عما ستفعله حكومة الدون اذا ما لجأ التشيكيون إلى القيام بعمليات عسكرية ضد الألمان . فأكد له الجنرال كراسنوف أن القوزاق سيلتزمون الحياد التام ،

وأنهم بطبيعة الحال ، لن يدعوا أرض الدون مسرحاً للعمليات العسكرية . وقد أبدى الرئيس الأول فون ستيفاني رغبته في أن يؤيد الأتمان كلامه خطياً . وعلى هذا النحو اختتم اللقاء .

وفي اليوم التالي كتب كراسنوف الرسالة الآتية إلى الامبراطور الألماني :

«صاحب الجلالة الملكية والأمبراطورية! إن حامل هذه الرسالة ، مبعوث أتمان جيش الدون العظيم إلى بلاط جلالتكم الأمبراطورية ، قد خولته وزملاءه ، أن يقدموا تحياتي ، أنا أتمان الدون ، إلى جلالتكم الأمبراطورية ، عاهل ألمانيا العظمى الأعلى ، وأن يعلموا جلالتكم بما هو آت : لقد تكلل بالظفر الكفاح الذي خاضه لمدة الشهرين قوزاق الدون الصناديد من أجل حرية أوطانهم ، ذلك الكفاح الذي ما زالوا يخوضون غماره بالشجاعة الفائقة التي أبداها – البوير – بنو عمومة الشعب الألماني ضد الانكليز في الآونة الأخيرة . لقد تم حتى هذا التاريخ ، تحرير تسعة أعشار أراضي جيش الدون العظيم من قبضة عصابات الحمر الوحشية . ولقد توطد النظام في داخل البلاد وأعيدت للقانون سيادته . وبفضل المعونة المادية التي قدمتها قوات جلالتكم ، أعيد الهدوء إلى جنوب بلادنا ، وقد أعدت من قبلي قوات من القوزاق للمحافظة على النظام في الداخل ، وصد هجمات العدو من الخارج . وإن من الصعوبة لجهاز دولة فتية ، كدولة جيش الدون ، أن يعيش بمفرده ولهذا السبب فقد عقدنا حلفاً متيناً مع قائدي جيشي القوزاق في استراخان والكوبان العقيد الأمير توندوتوف والعقيد فيليمونوف ، هادفين ، بعد تطهير أراضي استراخان من البلاشفة ، إلى إقامة نظام وطيد للدولة ، على أساس اتحاد فيدرالي بين جيش الدون العظيم ، وجيش استراخان ، وكالميك مقاطعة ستافروبول ، وجيش الكوبان ، وكذلك شعوب قفقاسيا الشمالية . وقد تمت موافقة هذه الولايات جميعها ، وقررت الدولة الجديدة ، باتفاق تام مع جيش الدون العظيم ، ألا تدع أراضيها تتحول إلى ميدان للقتال الدامي ، وأن تلتزم الحياد

التام .إن أتامان المنطقة «زيموفايا» سفيرنا لدى بلاط جلالتكم مخول من قبلي :

«أن يلتمس من جلالتكم الأمبراطورية الاعتراف بحق جيش الدون العظيم في العيش باستقلال ، وحين يتم تحرير بقية أراضي جيوش الكوبان ، واستراخان والتيريك ، وأراضي قفقاسيا الشمالية ، أن تعترفوا بحقوق السيادة للاتحاد برمته تحت اسم اتحاد الدون والقفقاس .

وأن يلتمس من جلالتكم الأمبراطورية أن تعترفوا بحدود جيش الدون العظيم على الأسس الأثنوغرافية والجغرافية السابقة ، وأن تمدوا يد المساعدة لحل الخلاف القائم بين أوكرانيا وجيش الدون حول مقاطعة تاغانروغ ، لصالح جيش الدون الذي ملك مقاطعة تاغانروغ لما يزيد على ٥٠٠عام ، والذي يعتبر مقاطعة تاغانروغ جزءاً من تموتاراكان التي انبتق جيش إقليم الدون منها في الأصل .

وأن يلتمس من جلالتكم مدّ يد المساعدة في توحيد إقليم الدون ، لاعتبارات استراتيجية ، مع مدينتي كاميشين وتساريتسين التابعين لمقاطعة ساراتوف ، وكذلك مدن فورونيج ، وليسكي ، بوفارينو ، وتثبيت حدود إقليم جيش الدون كما هو مبين على الخارطة التي توجد في منطقة «زيموفايا» الآن .

وأن يلتمس من جلالتكم ممارسة الضغط على السلطات السوفياتية في موسكو وإرغامها ، بأوامر من لدنكم ، أن تُخلي أراضي جيش الدون العظيم والولايات الأخرى التي تؤلف إتحاد الدون والقفقاس من عصابات قطاع الطريق التابعة للجيش الأحمر ، وأن تهيئ السبل لإعادة العلاقات الطبيعية السلمية بين موسكو وجيش الدون . وعلى روسيا السوفياتية أن تعوض جميع الخسائر التي لحقت سكان الدون ، في تجارتهم وصناعتهم ، بسبب الغزو البلشفي .

وأن يلتمس من جلالتكم الأمبراطورية مساعدة دولتنا الفتية بالأسلحة ، والعتاد ، والمعدات الهندسية ، وإن وجدتم في ذلك صالحكم ، أن تقيموا في أراضي جيش الدون معامل لصناعة المدافع والأسلحة الخفيفة والقذائف والذخيرة .

إن جيش الدون العظيم ، وسائر ولايات اتحاد الدون والقفقاس ، لن تنسى المساعدات الودية التي قدمها الشعب الألماني ، الذي قاتل القوزاق معه كتفاً لكتف

في حرب الثلاثين سنة ، يوم كانت كتائب القوزاق تعمل في صفوف جيش فالنشتاين وفي سني ١٨٠٧ ـ ١٨١٣ ، حين قاتل قوزاق الدون ، بقيادة أتمانها الكونت بلاتوف لتحرير ألمانيا ، واليوم ، وفي غمار الحرب الدامية التي دامت ثلاث سنوات ونصفاً ، في حقول بروسيا ، وغاليسيا ، وبوكوفينا ، وبولندا ، تعلّم القوزاق والألمان على حد سواء أن يحترموا شجاعة ووفاء بعضهما ، وهما يقاتلان الآن معاً من أجل حرية وطننا الدون ، بعد أن تصافحا محاربين نبيلين .

يتعهد جيش الدون العظيم ، وفاء لمساعدات جلالتكم الأمبراطورية ، أن يلتزم الحياد التام خلال النزاع الدولي بين الأمم ، ولا يسمح بوجود قوات مسلحة معادية للشعب الألماني في أراضيه ، وقد اقترن ذلك بموافقة أتمان إقليم جيش استراخان ، الأمير توندوتوف ، وكذلك حكومة الكوبان ، وستتم موافقة بقية أعضاء اتحاد الدون والقفقاس لدى انضمامهم .

ويمنح جيش الدون العظيم الأمبراطورية الألمانية حق الأفضلية في تصدير المقادير الفائضة عن الحاجة المحلية من منتجات القمح والدقيق ، والبضائع الجلدية والجلد الخام والصوف ومنتجات السمك واللحوم ، والدهونات الحيوانية والزيوت النباتية ومنتجاتها ، والتبغ ومنتجات التبغ ، والخيل والماشية ، والكروم ، والنبيذ وسائر غلال البستنة والزراعة ، وسوف تجهزنا الأمبراطورية الألمانية في مقابل ذلك ، بالمكائن الزراعية ، والمنتجات الكيماوية ومواد الدباغة ، ومعدات لانتاج الوثائق الحكومية ، فضلاً عن مواد ومعدات كافية لمعامل نسيج ، وقطن ، ودباغة وكيمياء ، وسكر ، وغيرها من المعامل ، وكذلك الأجهزة الكهربائية .

وفضلاً عن ذلك ، فإن حكومة جيش الدون العظيم ستمنح الصناعة الألمانية امتيازات خاصة لتوظيف رؤوس الأموال في مشاريع الدون الصناعية والتجارية ، ولاسيما في بناء واستغلال الطرق المائية الجديدة وفي وسائل المواصلات .

ان تحالفاً وثيقاً يعود بالمنافع على الطرفين وصداقة لحمتها الدماء التي أراقها العنصران المحاربان الألماني والقوزاقي في ميدان واحد لهما قوة جبارة في مقارعة العدو المشترك .

وبعد فإن هذه الرسالة لم تكتبها إلى جلالتكم الأمبراطورية يد دبلوماسي ، أو عالم داهية بالقانون الدولي ، بل جندي تعوّد ، خلال المعارك المشرّفة ، أن يحترم قوة السلاح الألماني ، ولذلك ألتمس من جلالتكم أن تصفحوا لصراحة لا تعرف الحيلة والدهاء ، وأن تؤمنوا بصدق مشاعري الخالصة .

مع مزيد من الاحترام

اللواء بيوتر كراسنوف ، اتمان الدون .

وقد عرضت الرسالة على مجلس مديري المصالح في ١٥ تموز ورغم التحفظ الواضح في موقف المجلس من الرسالة ، والمعارضة الصريحة التي أبداها بوغايفسكي وبضعة آخرون من أعضاء الحكومة ، فإن كراسنوف لم يتردد في تسليمها إلى دوق ليختنبرغ ، المبعوث القوزاقي إلى برلين ، الذي سافر الى كييف في الحال ومن هناك إلى ألمانيا بصحبة الجنرال تشرياتشوكين .

وقد استنسخت الرسالة بمعرفة بوغايفسكي في مصلحة الشوون الخارجية قبل إرسالها ، ووزعت نسخها بشكل واسع على وحدات القوزاق ومناطقهم مرفقة بالإيضاحات اللازمة . وتبين أنها سلاح ماض للدعاية . فتعالت الأصوات القائلة بأن كراسنوف باع نفسه للألمان . واستعر التذمر في جبهات القتال .

أما الألمان فقد أثملهم الظفر فذهبوا بالجنرال الروسي تشيرياتشوكين إلى مشارف باريس حيث قام وهيئة الأركان الألمانية العامة بمشاهدة العمل الرائع الذي كانت تؤديه مدافع كروب في دكّ معاقل الجيوش الأنكلو فرنسية .

٥

اثناء «الحملة الجليدية»* أصيب يفغيني لستنتسكي مرتين بجراح غير

* بذلك كان رجال الجنرال كورنيلوف يسمون تقهقرهم من روستوف إلى كوبان . المؤلف

بليغة عاد على أثرها إلى وحدته . ولكن وعكة ألّمت به في أيار ، وجيش المتطوعين ينال قسطاً من الراحة في نوفوتشيركاسك ، فحصل على إجازة لمدة أسبوعين . ورغم رغبته الشديدة في الذهاب إلى أهله ، قرر البقاء في نوفوتشيركاسك ، لكيلا يخسر الوقت برحلتي الذهاب والاياب الطويلتين . وحصل رفيق من فصيله ، هو الرئيس غورتشاكوف على إجازة في الوقت ذاته ، فدعاه للإقامة في بيته في نوفوتشيركاسك قائلاً :

ـ ليس لديَّ أطفال ، وستكون زوجتي سعيدة برؤيتك ، لقد أخبرتها عنك في رسائلي .

وعند الظهر ذهبا بالعربة إلى بيت منعزل قائم في أحد الشوارع القريبة من محطة القطار . فقال غورتشاكوف :

ـ كان هذا محل إقامتي ، يوماً ما ، ـ وحث خطاه وعيناه السوداوان الكبيرتان نديتان لفرط سروره ، ثم دلف إلى المنزل ، فملأ الغرف برائحة الجنود الحريفة . وهتف بالخادمة التي خرجت من المطبخ باسمة :

ـ أين أولغا نيكولاييفنا ؟ في الحديقة ؟ اتبعني يا لستنتسكي .

وفي الحديقة لاح فيء مبقّع تحت أشجار التفاح ، وكان الهواء يعبق برائحة العسل والأرض الملفوحة . والتمعت عوينات لستنتسكي المعلقة على أنفه في أشعة الشمس المائلة . وفي مكان ما على خط سكة حديد بعيد ، راحت قاطرة تهدر دونما كلل ، فقاطع نداء غورتشاكوف هديرها الرتيب ذلك :

ـ أولغا! أولغا!

وجاءت امرأة طويلة القامة تسير في ممر الحديقة الجانبي لتستقبلهما وقد توشحت بالأصفر ، توقفت لحظة ، وراحتاها تشدان على صدرها بحركة أنثوية أنيقة وكأن الرعب قد استبد بها ، ثم هرعت نحوهما وهي تصرخ ، بذراعيها الممدودتين . كانت تركض مسرعة بحيث لم يستطع لستنتسكي أن يرى سوى ركبتيها تصطفقان بتنورتها ، ورأسي خفيها المدببين ، وطوفان ذهبي من الشعر يتطاير حول رأسها باضطراب . ثم وقفت على رؤوس

أصابعها ، وألقت ذراعيها العاريين ، المتوردين في أشعة الشمس ، حول عنق زوجها ، وقبلته على وجنتيه المغبرتين ، وأنفه ، وعينيه ، وشفتيه ، وعنقه الملفوح ، وكان صوت قبلاتها ينبعث كطلقات المدفع الرشاش .

وراح لستنتسكي يمسح عويناته ، ويستنشق فوح أزهار حشيشة الأوجاع . ثم ألفى نفسه يبتسم ابتسامة مصطنعة غبية إلى أقصى حد .

ولما خفت ثورة فرحها فك غورتشاكوف أصابعها عن رقبته بعناية ولكن بإصرار ، ثم وضع ذراعه عبر كتفها ، وأدارها بخفة :

ـ أولغا ، أقدم إليك صديقي لستنتسكي .

فقالت وهي تمر عليه بعينيها الباسمتين ، دون أن تبصر شيئاً لفرط سعادتها .

ـ لستنتسكي ؟ أنا مسرورة جداً بالتعرف إليك . زوجي أخبرني عنك...

ثم عادوا إلى المنزل سوية . وكانت يد غورتشاكوف المشعرة ، بأظافرها القذرة ، تطوق خصر زوجته الأهيف . فاسترق لستنتسكي النظر إلى تلك اليد ، واستنشق عبق حشيشة الأوجاع وجسد تلك المرأة الذي بعثت فيه الشمس دفئاً فانتابه شعور طفولي بالتعاسة ، لكأن أحداً أصابه بجرح عميق دونما حق . ورمق أديم خديها الأسبل ، وفص أذنها الصغيرة الوردي ، تكاد تخفيه خصلة من شعرها الذهبي الحائل . ثم انسلت عيناه كالسحلية ، إلى فتحة ردائها ، فرأى ثدياً نافراً أبيض كالحليب . وحلمة بنية صغيرة . وكانت تلتفت إليه بين حين وآخر بعينين تشع فيهما زرقة خفيفة ، فتلوح النظرات فيها رقة وودّ . لا يلبث أن يخزه الألم إذ تدير تيكما العينين إلى محيا زوجها الأسمر فتشعان نوراً آخر .

واستطاع لستنتسكي أثناء الغداء أن يتملى زوجة صديقه على نحو تام فلاحظ في قوامها الجميل وفي محياها ذلك الحسن الذاوي الذي يتفتح في المرأة إذ تشهد الثلاثين خريفاً . بيد أنها احتفظت بمعين من الشباب لم ينضب في حركاتها وفي عينيها المتضاحكتين والباردتين نوعاً ما . لربما لم

يكن في وجهها ما يميزه بملامحه الجميلة وقسماته غير المتناسقة بل الجذابة . على أن ثمة تناقضاً فيها سرعان ما يلفت النظر ، كانت لها شفتا سمراوات الجنوب الحمراوان الرقيقتان اللافحتان إزاء بشرة وردية صافية وحاجبين أشقرين . وكانت تضحك بكثرة ، غير أن الاصطناع كان يبدو واضحاً في بسمتها التي تومض بأسنان صغيرة وكأنها مقصوصة . وكان صوتها الخفيض لا رنة فيه ويفتقر إلى العذوبة والعمق . وبدا جمالها مفرطاً لعيني لستنتسكي اللتين لم تشهدا طيلة شهرين إلا ممرضات الجيش المرهقات . فراح يتملّى رأسها الشموخ وعقصة شعرها الغزير ، ويرد على أسئلتها بأجوبة خرقاء ، ثم ما لبث أن آوى إلى غرفته متذرعاً بالتعب...

... مرت الأيام طافحة بالحلاوة واللهفة . وحين استعاد لستنتسكي ذكرى تلك الأيام ، بعد ذلك ، شعر إزاءها بإجلال ، ولكنه حينذاك ظل يعذب نفسه كالطفل عذاباً لا مبرر له . وقد تحاشى غورتشاكوف وزوجه لقاءه وهما يهدلان هديل اليمام . ثم عمدا إلى نقله من الغرفة الملاصقة بمخدع نومهما إلى أخرى بعيدة في ركن المنزل بحجة إجراء بعض الترميمات الضرورية فأدرك أن بقاءه يضايقهما ولكنه لم يجد رغبة في الذهاب إلى أي مكان آخر . فأمضى أياماً بطولها مستلقياً تحت شجرة التفاح ، حيث الفيء البرتقالي الأغبش ، يطالع صحفاً طبعت على ورق رديء بعجالة ، أو يغط في نوم ثقيل لا ينعش النفس . وكان يشاركه السأم كلب صغير وسيم أبلق ، إذ كان يحس بغيرة صامتة من احتكار سيده لسيدته ، فحوّل اهتمامه إلى لستنتسكي ، وراح يرقد بجانبه وينفث الحسرات .

كان لستنتسكي يمسد على ظهر الكلب ويتمتم أبياتاً أثيرة لديه من شعر بونين* . وحين ينتهي من ترديد ما يحفظ لذلك الشاعر من شعر مزوق مضمخ بالعطور ، يستسلم للنوم من جديد...

* كاتب وشاعر روسي كبير (١٨٧٠ ـ ١٩٥٣) . المعرب

وأدركت أولغا بغريزة المرأة مبعث هذا المزاج . وقد كانت متحفظة في موقفها إزاءه منذ البداية ، فزادها ذلك تحفظاً ، وذات مساء عادا سوية من منتزه المدينة (فقد تخلّف غورتشاكوف وراءهما حين صادف بعض معارفه الضباط عند بوابة المتنزه) . فتأبط لستنتسكي ذراعها ، وأقلقها بأن شد مرفقها إلى جنبه بقوة .

فسألته باسمة :

ـ علام تحدق فيّ هكذا ؟

تصور أنه وجد في صوتها نبرة خافتة تنّم عن تحد عابث ، فدفعه ذلك إلى أن يغامر بورقته . وكان رأسه لبضعة أيام خلت يعج بالشعر ، وبمناحة رجل آخر . فأحنى رأسه وهمس باسماً :

قريب منها مصفد بسحرها
أحاول المستحيل استكناه سرها الملفع بالظلام
لكأني أرنو إلى شاطئ مسحور
يتوارى في المدى وراء شحوب يأسر الألباب

فحررت يدها منه بهدوء وقالت بنبرة مرحة :

ـ يفغيني نيكولايفتش ... أنا... لا أستطيع إلاّ أن ألاحظ سلوكك تجاهي . ألا تخجل ؟ على مهلك ، على مهلك! كنتُ أظنك على... غير هذه الشاكلة . هذا غير لائق ، أليس كذلك ؟ أنا هدف سيء لمثل هذه المحاولات . تريد مطارحتي الغرام ؟ طيب ، لا تفسد علاقتنا الودية ، ولا ترتكب حماقة . ولنكن صديقين . مفهوم ؟ هاتِ يدك .

فاصطنع لستنتسكي غضبة رجل شريف ، ولكنه لم يستطع المضي في ذلك فحذا حذوها ، وانفجر ضاحكاً . وحين بلغهما غورتشاكوف ازدادت حيوية ومرحاً ، إلا أن يفغيني خلد إلى الصمت ، وهو يشعر بالاحتقار القاسي لنفسه طوال الطريق إلى المنزل .

وعلى الرغم من ذكائها اللامع ، فقد خيل إليها بكل صدق أنهما سيغدوان بعد هذا صديقين . وقد حقق لستنتسكي تصوراتها تلك في الظاهر ، ولكنه كاد أن يضمر لها الكراهية في قلبه ، ثم ألفى نفسه بعد بضعة أيام يعذب نفسه بالبحث عن صفات مكروهة في شخصها وخلقها ، فأدرك أنه على شفا الوقوع في حب صادق عميق .

ونضبت أيام الاجازة ، مخلّفة رواسبها في أعماق وعيه . ثم أخذ جيش المتطوعين يستعد لكيل ضربة ، بعد أن نال الراحة والتعزيز ، فتحرك نحو الكوبان ومعه غورتشاكوف ولستنتسكي .

وجاءت أولغا تودعهما . وقد زادها ثوب أسود من الحرير جمالاً على جمالها الهادئ . كانت تبتسم بعينين دامعتين وقد أسبغت شفتاها الوارمتان على محياها ملامح صبيانية مثيرة . وانطبعت صورتها تلك في ذاكرة لستنتسكي وظل يحتفظ ، في غمرة دماء الحرب وقذارتها ، بتلك الصورة الواضحة الثابتة ، وقد أحاطها بهالة من القدسية لفرط إخلاصه .

وفي حزيران خاض جيش المتطوعين المعركة . وبقرت بطن غورتشاكوف في الصدام الأول بشظية من قذيفة ، فنقل إلى ما وراء خط القتال ، وبعد ساعة خاطب لستنتسكي ، وهو راقد في العربة والبول والدماء تنزف منه :

ـ لا أظن أنني سأموت... سوف يجرون لي عملية على الفور...ويقال أن ليس لديهم كلوروفورم . إنها لا تسوى الموت ، أليس كذلك ؟ ولكن هب أنني مت... يا يفغيني ، اني الآن بكامل حواسي ، وما إلى ذلك... لا تتخلى عن أولغا فليس لأي منا قريب . أنت رجل شريف وطيب لا غبار عليك . تزوجها... لعلك لا ترغب في ذلك ؟

ومضى يحدق في يفغيني وفي عينيه ضراعة وحقد ، وارتجف خداه غير المحلوقين . ثم أسند بعناية يديه الداميتين الملطختين بالوحل والدم إلى بطنه المبقور ، ولعق العرق الوردي من على شفتيه ، وأردف قائلاً :

ـ هلا وعدتني ؟ أن لا تتخلى عنها... اللهم الا اذا أجرى لك الجنود الروس عملية تجميل كما فعلوا بي! أتعد بذلك ؟ إنها امرأة رائعة . ـ والتوت تقاسيم وجهه وأضاف : ـ إنها امرأة من بطلات تورغنيف . ليس في هذه الأيام نساء من شاكلتها . هلا وعدتني ؟ لماذا لا تتكلم ؟

ـ انني أعدك .

ـ حسناً ، والآن اذهب إلى الشيطان! وداعاً!...

وصافحه بيد مرتعشة ثم جره إليه بحركة ثقيلة يائسة . وارتجف لشدة ما بذل من جهد وهو يرفع رأسه المخضل بالعرق ليضغط شفتيه المسفوعتين على يد لستنتسكي . ثم غطى رأسه بطرف معطفه على عجل وأشاح بوجهه . فلمح يفغيني ، وهو متهيّج ، قساوة صارمة على شفتيه وظلاً رمادياً ندياً على خده .

مات بعد يومين . وفي اليوم التالي بالذات أرسل لستنتسكي إلى المؤخرة بعد أن أصيب بجراح خطيرة في ذراعه وفخذه الأيسرين .

كانوا في غمرة قتال عنيد لا نهاية له . وقد شن يفغيني مع كتيبته هجوماً وبعده هجوماً معاكساً ، وأهيب بفوجه للمرة الثالثة أن يتقدم . وجعل آمر سريتهم يستحثهم للتقدم : «استمروا يا أولاد ، لا تنبطحوا! إلى الأمام من أجل كورنيلوف!» . فدب لستنتسكي يتعثر في القمح الذي لم يحصد بعد ، يحمل بيسراه رفشاً يقي به رأسه ، ويمسك بندقيته بيمناه . وبترت رصاصة معدن الرفش المستدير وهي تنز ، فأحس بوخزة من الفرح : «لم تصب!» وفي اللحظة التالية ارتمت يده جانباً بضربة خاطفة هائلة . فأسقط الرفش واندفع إلى الأمام مسافة خمسين ياردة أخرى دون أن يقي رأسه بشيء . وأراد أن يحمل بندقيته أمامه ، ولكنه عجز عن رفع يده . وسرى ألم ممض في كل مفاصل بدنه ، كما ينسكب ذوب الرصاص في القالب . فاستلقى في شق محراث وراح يرسل صراخاً متواصلاً دون أن يستطيع السيطرة على نفسه . ومع أنه كان راقداً إلا أن رصاصة أصابت فخذه ، فغاب عن الوعي ببطء وعذاب .

وفي المؤخرة بتروا ذراعه المهشمة وأخرجوا من فخذه كسراً من عظمة . ورقد مدة أسبوعين يمزقه اليأس والألم والحنين . ثم نقل إلى نوفوتشيركاسك ، حيث أمضى ثلاثين يوماً آخر مثقلة بالضنى في المستشفى ، ما بين تبديل الضمادات ، ومواجهة الأطباء والممرضات بوجوههم الضجرة ، ورائحة اليود والكاربوليك لا تنقطع... وكانت أولغا تزوره أحياناً . لقد علا وجنتيها ظل أصفر مخضوضر . وزاد لباس الحزن في عمق الأسى الحنون البادي في عينيها . فكان لستنتسكي يتملى وجهها الذاوي وهو صامت وقد أخفى كمه الخاوي تحت بطانيته بتكتم وخجل . وقد سألته عن تفاصيل مصرع زوجها من غير ما لهفة . وراحت تنصت إليه ، وعيناها تجولان فوق الأسرّة بشرود بيّن . وحين غادر يفغيني المستشفى ذهب لزيارتها ، فاستقبلته على درجات عتبة المنزل ، وأشاحت بوجهها حين أحنى رأسه ، ذا الشعر الغزير الأشقر القصير ، ليلثم يدها .

كان قد حلق وجهه بعناية وارتدى قمصلة خاكي أنيقة تقولب قامته كعادته ، بيد أنه أحس بالعذاب من كمه الخاوي وعقب ذراعه المبتور القصير المضمّد يختلج متشنجاً في داخله ، ثم ولجا المنزل ، وقبل أن يجلس شرع في الكلام :

ـ رجاني بوريس قبل موته... جعلني أعده بعدم التخلي عنك .

ـ أعرف .

ـ كيف ؟

ـ أخبرني في آخر رسالة .

ـ كانت مشيئته أن نعيش سوية... وهذا طبعاً منوط بموافقتك وقبولك الزواج من ذي عاهة . أرجو أن تثقي... إن القاء خطاب عن مشاعري سيبدو في مثل هذه الظروف... لكنني لا أريد إلا إسعادك... من صميم قلبي .

فتأثرت بحرجه وعباراته المتقطعة المنفعلة . وقالت :

ـ فكرت بالأمر ، أنا موافقة .

ـ سوف نذهب إلى ضيعة والدي .

ـ طيب .

ـ هل يمكننا أن نسوي بقية الترتيبات فيما بعد ؟

ـ أجل .

فلمس بشفتيه يدها الرخامية باحترام . وحين رفع عينيه المتضرعتين شهد ظل ابتسامة ينزلق من شفتيها .

كان الحب والشهوة العارمة يشدان لستنتسكي إلى أولغا . فشرع يزورها كل يوم . كان قلبه ، وقد أضنته الحرب ، يحن إلى عالم الأساطير . فراح ينظر إلى نفسه كبطل في رواية كلاسيكية ، ويبحث مجهداً عن مشاعر سامية لم يحس بها لأحد ولا في أي وقت كان . ولعل مرد ذلك رغبته في التستر على بواعث جسده البدائية والتسامي بها ، بيد أن الأسطورة لم تكن لتخلو من واقع فلم تكن الجاذبية الجنسية وحدها ، بل كان ثمة خيط آخر غير منظور يشده إلى هذه المرأة التي ولجت حياته عرضاً . وقد حاول أن يحلل مشاعره الغامضة فاذا به لا يدرك إلا أمراً واحداً بجلاء : أنه رغم العجز الذي لحق به لما يزل نهبا لغريزة بدائية عارمة : «كل شيء مباح لي» . كان يفغيني يهفو إليها ، بشوق مخبول ، ويستعر غيرة من بوريس الراحل مع أن أولغا كانت ما تزال في حدادها تعاني مرارة نكبتها الفاجعة . كانت الحياة من حوله تزبد كدوامة عارمة . فقد أمسى الرجال الذين تنفسوا دخان البارود ، وأعمتهم وصمّت آذانهم الأحداث من حولهم ، لا يعيشون إلا لساعتهم . يحيون حياة عاطفية شرهة . ولعل هذا الذي حدا بلستنتسكي أن يسارع إلى شد حياته بحياة أولغا ، فقد تنبأ بشكل مبهم أن القضية التي واجه الموت من أجلها مقضي عليها بفشل محتوم .

كتب إلى والده يخبره بعزمه على الزواج وبقدومه وزوجته إلى ياغودنويه . واختتم رسالته بهذه الكلمات الحزينة الساخرة : «لقد أديت نصيبي . وكان بوسعي مع ذلك أن أمضي بيد واحدة في محق الحثالة المتمردة . هذا « الشعب »

اللعين الذي تباكى على مصيره المثقفون وسال لعابهم طيلة عقود . ولكن ، الآن ، والحق يقال ، يبدو الأمر لعيني غير ذي معنى بشكل فظيع . فكراسنوف لن يتصالح مع دينيكين وثمة في صميم كل من الطرفين مكائد ، ومؤامرات ، وفضائح ، وفساد . إني أستشعر بالهلع أحياناً . كيف لهذا كله أن ينتهي ؟ إني قادم إلى البيت لأعانقك بذراع واحدة ، ولأعيش معك ، وأرقب الصراع من الخارج . لم أعد جندياً ، بل كسيحاً في جسدي وروحي . لقد تعبت . لم أعد أستطيع المضي ولذلك أستسلم . وربما كان هذا دافعاً من دوافع زواجي ورغبتي في ضمان ـ مرسى هادئ ـ لنفسي » .

وقرر مغادرة نوفوتشيركاسك بعد أسبوع . قبل أن يبارحا المدينة ببضعة أيام انتقل يفغيني إلى منزل أولغا . وغب ليلة تواصلهما بدت وكأن خديها يغوران وسحنتها تزداد عتمة . لقد أذعنت لإلحاحه ولكنها بدت مهمومة كسيرة الخاطر من الوضع الذي وجدت نفسها فيه . ولم يكن يفغيني يعلم ، وما كان بوده أن يعلم ، أنه قد توجد مقاييس شتى للحب الذي يربط بينهما ، ولكن ثمة مقياساً واحداً للكراهية .

لم تخطر أكسينيا على بال لستنتسكي إلا لماماً وعلى مضض . كان يصد عن التفكير بها شأن رجل يذود الشمس عن نفسه براحة يده . ولكن ذكريات عشرته بها ، والتي لم يستطع نسيانها أخذت تقض مضجعه بإلحاح متزايد . حتى أنه خيل إليه مرة أن قطع صلته بها أمر غير ضروري : « إنها ستقبل بالأمر الواقع » بيد أن إحساس اللياقة تغلب عليه . فقرر أن يتحدث إليها بعد وصوله ، وأن يفصم علاقته بها إن تيسر له ذلك .

بلغا ياغودنويه بعد أربعة أيام من رحيلهما عن نوفوتشيركاسك . وقد استقبلهما رب البيت الشيخ على بعد فرست تقريباً من الضيعة . لاحظ يفغيني بطء والده في خلع قبعته ورفع ساقه عبر المقعد في عربته الخفيفة .

قال الشيخ ، وهو يعانق الكنّة بارتباك ، دافعاً شاربه الأشيب المخضوضر إلى وجنتيها :

ـ جئت أستقبل ضيفيّ العزيزين . دعيني ألقي نظرة عليك .

واقترح يفغيني قائلاً :

ـ اركب معنا ، بابا . امض بنا ، يا حوذي ، آه ، هذا أنت يا جدّ ساشكا ؟! مرحباً! ما زلت على قيد الحياة ؟ اجلس في محلي ، بابا . وسأجلس أنا مع الحوذي .

جلس الشيخ بجانب أولغا ، ومسح شاربه بمنديله ، وراح يتفحص ابنه بعدم اكتراث ملحوظ :

ـ حسناً ، كيف حالك ؟

ـ أنا سعيد جداً بلقائك ثانية ، يا بابا .

ـ اذا فأنت كسيح ، كما تقول ؟

ـ لا مفر من ذلك .

وحدق أبوه فيه ، جاهداً أن يخفي حنانه بما أضفى على وجهه من قسوة ، مشيحاً عينيه عن كم قمصلته الخضراء الخاوي .

قال يفغيني وهو يهز كتفيه :

ـ إنه ليس شيئاً ذا بال . لقد اعتدته .

فسارع والده بالقول :

ـ بالطبع ، إنك تعتاد عليه ، طالما بقي رأسك سليماً ، لقد عدت عودة مشرفة ثم إنك جئت بـ «أسيرة» جميلة .

فسّر يفغيني بالمجاملة الرقيقة التقليدية التي صدرت عن والده ، فسأل أولغا بعينيه : «ما رأيك فيه ؟» ومن ابتسامتها المشرقة وعينيها الدافئتين أدرك أن الشيخ قد أعجبها .

جر الجوادان الرماديان السريعان العربة الخفيفة فراحت تقعقع بسرعة حدر التل . وبدت للعين المرافق الخارجية ، ولبدة البستان الخضراء المتماوجة ، والمنزل ذو الجدران البيض وأشجار الاسفندان تظلل النوافذ . فهتفت أولغا :

ـ يا للروعة! يا لروعة كل شيء هنا!

واندفعت كلاب البرزوي السود خارجة من الفناء وأحاطت بالعربة ففرقع الحوذي ساشكا بسوطه على أحدها حين أراد القفز إلى داخل العربة، وصاح: «ستدهسك العجلات بعد هذا، أيها الشيطان!».

أدار يفغيني ظهره إلى الجوادين، وحين زنخرا رشت الريح القطرات الصغيرة على عنقه.

وعلت وجهه ابتسامة وهو ينظر إلى والده، إلى أولغا، إلى الطريق المزروع بالقمح، والى الرابية ترتفع وراءها رويداً لتحجب خط الأفق البعيد.

ـ يا للبقعة النائية! يا للهدوء...

وتطلعت أولغا باسمة إلى الغربان تحلق عبر الطريق، وكتل الشيح والبرسيم تمرق مسرعة.

وضيق أبوه عينيه وقال:

ـ ها، قد خرجوا لاستقبالنا.

ـ مَنْ؟

ـ خدمنا.

فنظر يفغيني عبر كتفه ورغم أنه كان ما يزال بعيداً يشق عليه تمييز أحد أحس أن أكسينيا بين النسوة فعلت وجهه حمرة شديدة. وتوقع أن ينم وجهها عن إمارات الانفعال حين مرت العربة خلال البوابة فخفق قلبه لما رنا إلى اليمين وشاهدها هادئة باسمة. فأومأ برأسه وكأن حملاً ثقيلاً قد انزاح عن كاهله.

وأشارت أولغا إلى اكسينيا بعينين تطفحان اعجاباً وقالت:

ـ يا للجمال الطاغي! من هي؟ إنه جمال عنيف، أليس كذلك؟

بيد أن يفغيني استعاد رباطة جأشه. فوافقها مؤيداً بفتور:

ـ أجل، إنها امرأة جميلة... إنها خادمتنا.

* * *

كان لمجيء أولغا أثره على أهل ياغودنويه كلهم . فقد أصدر رب البيت الشيخ ، الذي كان فيما مضى يتجول طوال يومه بثوب النوم والبنطال الصوفي الدافئ ، أوامره بأن تخرج سترة وبنطال الجنرالية من الصناديق حيث عبثت في أكياس تحفظها من العث . كان في السابق لا يكترث لمظهره ، فاذا به يصرخ في وجه اكسينيا إن وجد في ثيابه أي تغضن ، ويعبس أشد العبوس حين تأتيه بجزمة غير ممسوحة في الصباح . واستعاد نضارته فأثار استغراب يفغيني الممزوج بالفرح بنعومة خديه الحليقين .

جهدت أكسينيا أن ترضي سيدتها الشابة ، وكأنها تتوجس شراً ، فجعلت تتودد إليها بتواضع وتبدي العناية الزائدة في خدمتها ، وكادت لوكريا أن تجن في حرصها على إعداد وجبات لذيذة ، وتفننها في ابتكار ضروب شهية من المرق والتوابل . ولم ينج من أثر تلك التغيرات التي حصلت في ياغودنويه حتى الحوذي ساشكا الذي بلغ من الشيخوخة والهزال عتيا . فقد صادف أن التقى به سيده الشيخ عند الدرجات ، وتفحصه من الرأس حتى القدم ، فهز سبابته مهدداً :

ـ ما هذا كله ، يا ابن القحبة ؟ ـ وأجال لستنتسكي الشيخ عينيه بحدة ، وأردف : ـ بنطالك ، بأي حال ؟!

فأجاب ساشكا العجوز بوقاحة ، رغم أنه ارتبك قليلاً للتفتيش الدقيق الذي تعرض له ولصوت سيده المرتجف :

ـ حسناً ، بأي حال ؟

ـ امرأة شابة في المنزل ، وأنت تحاول أن تدفع بي إلى القبر ،يا ابن الكلبة ؟ لماذا لا تزرر سروالك ؟ أيها التيس الهرم العفن ؟!

فمر ساشكا العجوز بأصابعه القذرة حدر الخط الطويل من الأزرار على سرواله . وكأنه يعزف على أكورديون . كان على وشك الرد بوقاحة مرة أخرى ، بيد أن سيده خبط قدمه خبطة عنيفة بحيث انخلع نعل جزمته المدببة قديمة الطراز عند الوجه وزنخر :

ـ عد إلى اسطبلك! عادة ، سر! سأخبر لوكريا أن تغسلك بالماء الفائر ، أزل عنك هذه القذارة ، أيها الكديش الهرم!

راح يفغيني ينعم بالدعة يتجول ببندقية لصيد الحجل . كانت مشكلة أكسينيا تقض مضجعه . ولكن والده استدعاه إلى غرفته ذات مساء وسأله وهو ينظر صوب الباب بقلق متحاشياً عيني ابنه :

ـ أنا ، أنت تعلم... ينبغي أن تعذرني لتدخلي في شؤونك الخاصة . ولكني أود أن أعرف ما تقترحه بشأن أكسينيا ؟

ففضح يفغيني نفسه بالسرعة التي أولع فيها سيكارة . وكما حدث له يوم وصوله ، فقد احمر وجهه ، وحين أحس بذلك ، ازداد وجهه احمراراً . فاعترف بصراحة ، قائلاً :

ـ لست أدري... والله لست أدري...

فقال الشيخ وهو يزن كلماته :

ـ لكن أنا أدري! اذهب وتحدث إليها حالاً . اعرض عليها النقود ، نقود الستر ، ـ ثم ابتسم تحت طرف شاربه وأردف : ـ أطلب منها أن تغادرنا . سوف نجد واحدة غيرها .

وبادر يفغيني للذهاب إلى جناح الخدم في الحال . فألفى أكسينيا واقفة تعد العجين وظهرها إلى الباب . وكان عظما اللوح يعملان في ظهرها المقوس بحيوية ، وكماها مشمرين إلى ما فوق المرفقين ورأى العضلات تترقرق في ذراعيها الأسمرين الريانين . وراح يحدق في الجدائل المنفوشة حول عنقها ، وقال :

ـ أكسينيا ، أود أن أكلمك دقيقة .

والتفتت في الحال ، جاهدة أن تضفي على وجهها تعبيراً من الأدب والهدوء . بيد أن يفغيني لاحظ أصابع يدها ترتجف وهي ترخي كميها .

وألقت إلى الطباخة نظرة وجلة ، ولم تستطع كبت فرحتها ، فتبعت يفغيني بابتسامة سعيدة متسائلة .

وحين بلغا درجات العتبة في الخارج ، قال :

ـ سنذهب إلى البستان . أود أن أكلمك .

فقالت بفرح وتواضع : «حسناً!» فقد حسبت أن هذا يعني استئناف علاقتهما السابقة . وبينما هما سائران سألها بصوت خافت :

ـ أتدرين لماذا استدعيتك ؟

فابتسمت في العتمة ، وتعلقت بذراعه ، ولكنه انتزعها منها ، فأدركت كل شيء ، وتوقفت قائلة :

ـ ماذا تريد ، يفغيني نيكولايفتش ؟ لن أتقدم خطوة أخرى .

ـ طيب ، يمكننا أن نتكلم هنا! لن يسمعنا أحد . ـ وراح يفغيني يسرع ويتخبط في شبكة خفية من الكلمات : ـ يجب أن تفهميني . لا أستطيع أن أكون معك كما كنت في السابق . لا أقدر أن أعيش معك ، هل تفهمينني ؟ أنا الآن متزوج ، ولا أستطيع ، بصفتي رجلاً شريفاً أن آتي أمراً معيباً . إن ضميري لا يسمح بذلك . ـ قالها وهو يتعذب خجلاً من كلماته الرنانة .

كان الليل قد دب لتوه من جهة الشرق المعتم . وفي الغرب كانت سلخة من السماء ما تزال زرقاء بنور المغرب . وعلى ساحة الدرس كان الرجال يدرسون الحبوب على ضوء الفانوس ، مستغلين صفاء الجو ، وكانت المكائن تنبض بالحياة . وراح الرجل الذي يغذي ماكينة الدرس دونما كلل يصرخ بصوت أجش فرح : «مزيداً!» وخيم في البستان صمت عميق ، وفاح عبق القريص ، والقمح ، والندى .

لم تقل أكسينيا شيئاً .

ـ ما قولك ؟ لماذا أنت صامتة ، يا أكسينيا ؟

ـ ليس لديّ ما أقوله .

ـ سوف أعطيك نقوداً . يجب أن ترحلي . وأظن أنك ستقبلين ، سيكون من الصعب عليَّ أن أراك دائماً :

ـ سينتهي الشهر بعد أسبوع ، هل أستطيع أن أبقى حتى نهاية الشهر ؟
ـ طبعاً ، طبعاً .

صمتت أكسينيا برهة ، ثم زحفت إلى جانبه بخجل والتصقت به ، وكأن أحداً يضربها ، وقالت :

ـ حسناً ، سوف أذهب . ولكن هل لك... للمرة الأخيرة فحسب ؟ إنها حاجتي التي تحملني أن أفقد الحياء هكذا . لقد أكلت قلبي الوحشة... لا تقس في الحكم علي ، يفغيني .

كان صوتها جافاً مرناناً . وعبثاً حاول يفغيني أن يعرف ما اذا كانت جادة أم هازلة في كلماتها تلك .

ـ ماذا تريدين ؟

ثم تنحنح متضايقاً ، وأحس بغتة أنها تتلمس يده بوجل ، من جديد .

... وبعد بضع دقائق ، خرج من وراء شجيرة الزبيب الرومي العبقة الندية . وقبل أن يبلغ المنزل توقف ومسح بمنديله ركبتي بنطاله الملطختين بنسغ العشب . والتفت بينام هو يرتقي الدرج . ومن خلال نافذة في جناح الخدم ، شاهد أكسينيا وقد شمرت ذراعيها خلف رأسها ، وهي تسوي شعرها . وكانت ثمة بسمة تتراقص على شفتيها .

٦

اكتمل نمو العشب الريشي ، فاتشح السهب الذي لا نهاية له بحلة فضية متموجة . وجعلت الريح تغذ خطاها المتواثبة فوقه وهي تنشر حفيفها ، وتدفع أمواجاً شهباً ترة الظلال تارة نحو الجنوب وأخرى نحو الغرب . وحيثما ولت النسائم المنسابة وجهها طأطأ العشب الريشي هامه بخشوع وامتد على أديمه الأشهب مسرب أعمق ظلاً .

ذوت الأعشاب المبرقشة ، وذبل الشيح الواهن الكئيب في أعالي

التلال . وكانت الليالي القصار تتلاشى على عجل ، كانت سماؤها تنتشر فيها أنجم لا حصر لها . وغام القمر ، وهو الذي يدعوه القوزاق «الشمس الصغيرة» فدخل محاقه وجعل يرسم وهجاً خابياً . وتداخلت المجرة الفسيحة بغيرها من مسارب الأنجم . وكانت السموم خانقة والريح جافة تحمل رائحة الشيح . وكانت الأرض ، وقد أترعها الشيح الجبار مرارة ، تهفو إلى نسمة من البرد . ودب الشحوب في مجرات الأنجم الشم ، التي لم تطأها سنابك الخيل ولا أرجل الانسان ، ثم توارت عن الأنظار . وخمدت أنفاس النجوم المنتشرة كحبات القمح في السماء المعتمة القاحلة التي لم تعط شتلاً ولم تذق طعم الحياة رغم سوادها الذي يحاكي سواد الأرض . وبدا القمر أشبه بمستنقع أجاج قاحل . وأذوى العطش أعشاب السهب ، وعلقت في سمائه أصوات فضية الرنين متواصلة لطير السمان ، وصرير معدني الجرس يرسله الجراد...

كان السهب في النهار يتسربل بغبش ضبابي خانق ، وكانت تحوم في زرقة سمائه الصافية الشاحبة شمس لا ترحم وقوس جناحي حدأة مشرعين بلون الفولاذ الداكن . ويترامى العشب الريشي ساطعاً عنيداً في غلالة بنية كوبر البعير . وجعلت الحدأة تتمايل وراحت تعوم في السماء ، وظلها الكبير ينساب على العشب بصمت .

وكانت السناجب البرية ترسل نداءات كسلى مبحوحة ، والفئران البرية تغفو على المنحدرات الهشة الصفر . كان السهب يشع حرارة لكنه لا ينبض بالحياة ، فقد ران سكون الموتى في كل مكان . وحتى رابية المقبرة الزرقاء التي لاحت في الأفق كانت تترجرج على نهاية مرمى البصر أشبه ما تكون بالحلم .

ايه أيها السهب الحبيب! إن لفح هوائك المر يعابث أعراف الجياد والأفراس . وخطوم الخيل تتشرب ملوحة فتروح تلوك شفاهها الحريرية وهي تتنسم لهاثها المر الأجاج وتصهل اذ تذوق طعم الريح والشمس . يا سهبنا

الحبيب! تنوء أنت تحت سماء الدون الخفيضة . وهاد ملتوية ، وديان يابسة ، ضفاف حمر ، مدى من العشب الريشي تتخلله آثار داكنة من حوافر الخيل ، رواب قائمة بصمت حكيم ، لتحرس مجد القوزاق الدفين... اليك أركع بخشوع يا سهب قوزاق الدون ، أنا واحد من بنيك ، ألثم ترابك الذي غسلته دماء لا تجف مدى الزمن .

* * *

كان رأس الجواد صغيراً ، دقيقاً ، أشبه ما يكون برأس الثعبان ، وأذناه منبسطتين مرنتين . وكانت عضلات صدره بديعة التكوين وسيقانه جميلة قوية ، بعواضد مستقيمة ، وحوافر ه أشبه بحصاء النهر . أما كفلاه فكانا لدنين مائلين قليلاً ، وذيله غزير الشعر منتصباً . كان من أصائل جياد الدون ، لا تجري في عروقه قطرة واحدة من دم أجنبي ، وتبدو أصالته في كل سمة من سماته . وكان اسمه مالبروك .

وذات يوم ، اشتبك عند الورود مع جواد أقوى وأكبر سناً منه دفاعاً عن فرس ، فأصيب برفسة مؤذية في قادمته اليسرى ، رغم أن جياد المراعي لا تحذى قط . فقد شب الجوادان وترافسا بقوادمهما ، وعض كل منهما الآخر فمزق لحمه...

لم يكن الراعي حاضراً ، كان مستلقياً في السهب يغط في نومه ، وقد أعطى ظهره إلى الشمس ، وباعد بين ساقيه بجزمته المتربة . وطرح الجواد الآخر مالبروك أرضاً ، ثم طارده إلى مسافة بعيدة عن قطيعه . ثم تركه سابحاً بدمائه ، واستولى على القطيعين معاً وساقهما بمحاذاة المستنقع .

جيء بالجواد الجريح إلى الاسطبلات ، فعالج الطبيب ساقه الجريحة ، وبعد ذلك بستة أيام ، جاء ميخائيل كوشيفوي بتقريره إلى الإدارة فرأى مالبروك ، وقد استبدت به غريزة الحفاظ على النوع العارمة ، يقضم حبل الرسن ، ويقفز خارجاً من مربطه ، ويلم الأفراس المقيدة حجولها والتي

كانت ترعى في فناء الثكنة ، ليسوقها أمامه إلى السهب ، خبباً في بداية الأمر ، ثم جعل يستحث على العدو بعض المتوانيات منهن . فهرع الرعاة والمشرف إلى خارج الكوخ . ولكن الأوان فاتهم فلم يسعهم سوى أن ينصتوا إلى أصوات الحبال وهي تتصرم فيما راحت الأفراس تحطم قيودها وتجري بعيداً .

ـ لم يبق اللعين لنا مطية نركبها!

وراح المشرف يصب لعناته ، وهو يحدق وراء الخيل المبتعدة عنهم ، شاعراً بالرضى في سريرته .

وعند الظهيرة عاد مالبروك بأفراسه لترد . فعزله الرعاة الراجلون عن الأفراس ، وأسرجه ميخائيل ، ثم امتطاه وخرج به إلى السهب ، فأطلقه بين قطيعه الأصلي .

عكف ميخائيل خلال الشهرين الذين أمضاهما في رعي الخيل على دراسة حياتها عن كثب ، فأفعم باحترام عظيم لذكائها ونبلها الذي لا يدانيه نبل البشر . شهد جياداً تشبو أفراساً ، وكان ذلك الفعل الفطري ، الذي الذي تمارسه في ظروف بدائية ، يبدو من الحكمة والبساطة ما يحمل المرء على مقارنتها بالبشر مقارنة ليست في صالحه ولكن ميخائيل وجد في علاقات الخيل كثيراً من سيماء العلاقات بين البشر . فقد لاحظ ، مثلاً ، أن الجواد العجوز باخار ، وهو فظ قاس لا يرحم في معاملة أفراسه ، يولي اهتماماً خاصاً لفرس شقراء جميلة ، ملتهبة العينين لها من العمر أربع سنوات ، تزين جبينها غرة كبيرة ، فيبدو في صحبتها عصبي المزاج مرتبكاً منفعلاً ، يتشممها على الدوام بزنخرة خاصة تنم عن تحفظ مشوب بالوله . كان حين تقف الخيل يحب أن يركن رأسه الوحشي على كفل فرسه المحبوبة ويغفو على هذه الحال ساعات طوالاً . وقد راقبه ميخائيل ، فلاحظ عضلاته تتحرك لينة تحت جلده الناعم ، وبدا لعينه أن باخار مغرم بتلك الفرس بما للشيوخ من عاطفة يائسة في عنفوانها وأساها .

كان ميخائيل مجداً في خدمته ، ولا بد أن خبر حماسه للخدمة بلغ أتمان المنطقة ، فقد تسلم المشرف ، في منتصف آب ، تعليمات باعادة كوشيفوي إلى فيشنسكايا .

تأهب ميخائيل لفوره ، فسلم عدته ، وتوجه صوب فيشنسكايا بعيد العصر في اليوم ذاته . وجعل يستحث فرسه دونما انقطاع ، فاجتاز كارغين عند الغروب . وعلى التلال الواقعة وراء كارغين أدرك عربة صغيرة تمضي نحو فيشنسكايا . كان الحوذي الأوكراني يستحث حصانيه القويين المتصببين عرقاً ، وقد استكان في مؤخرة العربة ، ذات النوابض الخفيفة ، رجل عريض المنكبين أنيق المظهر يرتدي سترة أهل المدن ، وقبعة رمادية من اللباد وقد انداحت إلى مؤخرة رأسه . وسار ميخائيل بعض الوقت ، وراء العربة ، يتفرس في منكبي الرجل وهما يهتزان والعربة ترتج فوق العثرات ، وفي شريط ياقته الأبيض المترب . وكان ثمة حقيبة سفر صفراء وكيس مغطى بمعطف مطوي عند قدمي المسافر . وبلغت رائحة السكائر الغريبة أنف ميخائيل ، فحدث نفسه فيما حاذى المسافر بفرسه : «لا بد أنه موظف ذاهب إلى فيشنسكايا» . بيد أن فكه تهدل وسرت حدر ظهره قشعريرة من الخوف والدهشة البالغة ، حين حاوص بنظره إلى ما تحت حافة القبعة التي يعتمرها الرجل . كان الرجل القابع في العربة ، يمضغ عقب سيكار بنفاد صبر ويخاوص عينيه الحادتين الفاقعتين ، إلى ستيبان أستاخوف . واذ لم يستطع ميخائيل الجزم تماماً ألقى نظرة أخرى إلى ذلك الوجه المألوف ، وقد طرأ عليه تبدل غريب ، وجه ابن قريته ، فأيقن أنه ستيبان . فتنحنح والعرق يتصبب منه لفرط الانفعال :

ـ عفوك ، يا سيدي ، ولكن ألست أستاخوف ؟

فدفع الرجل الجالس في العربة قبعته إلى الوراء ، واستدار رافعاً عينيه إلى ميخائيل ، وأجاب :

ـ بلى ، أنا أستاخوف . هل أنت ـ مهلاً ، ألست كوشيفوي ؟ ـ فهب ،

يكاد يقف في العربة ، ولم تمتد الابتسامة أبعد من شفتيه تحت شاربيه ، أما وجهه الذي كاد ينم عن الشيخوخة ، فقد احتفظ بقسوة منيعة ، ثم مد يده بسرور لا يخلو من بعض ارتباك ، وأردف : ـ انك كوشيفوي! ميخائيل! يسعدني كثيراً...

فقال ميخائيل وهو يسقط العنان وينشر يديه دهشة :

ـ ولكن كيف... ؟ كيف وصلت إلى هنا ؟ قالوا إنك قتلت . ولكنني أرى أستاخوف بعينه!

ثم أشرق بابتسامة وراح يتململ على سرجه . لقد أربكه مظهر ستيبان ونبرته المهذبة الخفيضة ، فغيّر أسلوبه في الحديث ، وتخلى عن كلمات الألفة ، اذ اعتوره إحساس غامض بأن ثمة حاجزاً خفياً يفصل بينهما .

طفقا يتحدثان ، وراحت الخيل تمضي وئيدة ، كان الغروب يتورد في الغرب بكل مهابته ، وراحت سحب حمر كالزنابق تعوم عبر السماء اللازوردية شطر الليل . ومن بين الدخن المزروع على جانب الطريق أرسل طائر سلوى نداء نفاذاً ، ولكن صمتاً مغبراً ران على السهب وهو يودع صخب النهار وضجيجه ليستقبل سكون الليل وهدوءه . وعن بعد لاح الصليب الذي يتفرع عنده الطريق بين تتارسكي وفيشنسكايا ، فبدا على صفحة السماء الليلكية كالطيف .

سأل ميخائيل بنبرة ودود :

ـ من أين جئت ، يا ستيبان أندرييتش ؟

ـ من ألمانيا . عدت إلى وطني ، كما ترى .

ـ ولكن قوزاقنا ذكروا أنك قتلت أمام أعينهم .

فأجاب ستيبان بتحفظ وتؤده ، ولكأن الأسئلة تثقل كاهله :

ـ جرحت في موقعين . أما القوزاق... ما شأنهم ؟ لقد تخلوا عني هناك... فوقعت في الأسر... أشفى الألمان جروحي وأرسلوني للعمل...

ـ ولكننا لم نتلقّ في القرية أية رسالة منك...

ـ لم يكن لديَّ من أكتب له .

ورمى ستيبان عقب سيكاره وما لبث أن أشعل واحداً آخر .

ـ ولكن ماذا عن زوجتك ، إنها حية ترزق .

ـ لم أكن أعيش وإياها ، حسبت أن الكل يعرف هذا .

كان صوته جافاً خالياً من أية نبرة ودية . وبدا أن ذكر زوجته لم يضايقه .

وسأله ميخائيل بفضول متلهف ، وهو يميل إلى الأمام حتى كاد يلامس رمانة سرجه :

ـ ألم تشعر بالحنين إلى وطنك في غربتك ؟

ـ أجل ، في بداية الأمر ، ولكنني ألفتها . لقد عشت حياة ميسورة . ـ وأضاف بعد برهة : ـ كدت أبقى في ألمانيا وأحصل على الجنسية الألمانية . بيد أن دافع العودة إلى الوطن هو الذي تغلب... وهكذا تركت كل شيء وجئت . ـ ثم ارتخت الغضون القاسية البادية في طرفي عيني ستيبان للمرة الأولى وابتسم .

قال ميخائيل :

ـ أرأيت ما نحن عليه من فوضى هنا ؟ نقاتل بعضنا البعض .

ـ أجل ، هذا ما طرق سمعي...

ـ كيف عدت ؟

ـ عن طريق فرنسا ، بالباخرة من مرسيليا ـ وهي مدينة في فرنسا ـ إلى نوفوروسييسك .

ـ هل سيجندونك أيضاً ؟

ـ ربما... ما أخبار القرية ؟

ـ إنها أكثر من أن يتسع لي الوقت لإخبارك بها الآن ، لقد حدثت أشياء كثيرة .

ـ أما زال بيتي قائماً ؟

ـ إنه خالٍ...

ـ ماذا عن الجيران... ؟ أما زال الأخوان ميليخوف على قيد الحياة ؟

ـ بلى ، إنهما كذلك .

ـ هل سمعت شيئاً عن زوجتي السابقة ؟

ـ ما زالت هنا ، في ياغودنويه .

ـ وغريغوري... ألا يزال يعيش معها ؟

ـ كلا ، إن له زوجته الشرعية ، لقد هجر زوجتك أكسينيا...

ـ هكذا اذاً... لم أعرف ذلك .

لبثا صامتين برهة . ومضى كوشيفوي يتفحص ستيبان بلهفة ثم قال له بارتياح وبشيء من الاحترام :

ـ يبدو أن الحظ قد واتاك ، يا ستيبان أندرييتش . إن ثيابك مترفة . أشبه ما تكون بثياب النبلاء .

ـ كل الناس يرتدون ملابس لائقة هناك . ـ قال ستيبان ذلك ، ثم عبس وجهه ، وربت على كتف الحوذي قائلاً :

«أسرع ، يا صاح» .

لوح الحوذي سوطه بفتور ، فراح الحصانان المتعبان يجران العربة على مضض . وأخذت العربة الصغيرة تتواثب على العثرات ؛ وبلغ الحديث خاتمته حين أدار ستيبان ظهره إلى ميشا سائلاً :

ـ أذاهب أنت إلى القرية ؟

ـ كلا ، أنا ذاهب إلى أتمان المنطقة .

وعند مفترق الطريق انحرف ميخائيل نحو اليمين وانتصب في ركابيه قائلاً : ـ إلى اللقاء يا ستيبان أندرييش!

فلمس ستيبان حافة قبعته بلمة أصابعه الثقيلة ، وأجاب بفتور ، وهو ينطق كل كلمة بوضوح كالأجانب :

ـ أسعدت نهاراً!

٧

امتدت الجبهة في خط موصول من فيلونوف حتى بوفورينو . كان الحمر يحشدون قواتهم ، تأهباً لإنزال ضربة مضادة . وكان القوزاق الذين يعانون نقصاً خطيراً في الذخيرة يواصلون هجومهم بوهن ، دون أن يحاولوا تخطي حدود إقليمهم . وكان الطرفان يتبادلان الانتصارات . وقد طرأ ، في آب ، فتور نسبي على القتال وراح القوزاق الذين عادوا إلى أهليهم في إجازة قصيرة يتحدثون عن هدنة تعقد في الخريف .

وفي أثناء ذلك ، كان حصاد القمح يجري في مؤخرة الجبهة . وقد أحس الجميع بقلة اليد العاملة ، فلم يستطع الشيوخ والنساء تدبير أمر الحصاد ، هذا إلى أن تسخير عرباتهم وخيلهم لنقل المؤن والتجهيزات العسكرية إلى الجبهة كان يعيق حصادهم على الدوام . فقد كان الجيش يسخّر كل يوم تقريبا خمس أو ست عربات في تتارسكي ، ويرسلها إلى فيشنسكايا لنقل التجهيزات العسكرية ، حيث تتجه من هناك إلى قوات القوزاق .

كانت الحياة في القرية نشيطة لكنها كئيبة . فقد اتجهت خواطر الجميع صوب الجبهة البعيدة ، والكل ينتظر أنباء القوزاق بلهفة وألم ، متوجسين الشر منها . غير أن وصول ستيبان أستاخوف كان حدثاً أثار اهتمام الجميع .

كان ذلك موضوع الحديث الوحيد في كل كوخ ، وعلى كل ساحة لدرس الحبوب . لقد عاد قوزاقي إلى أهله وقد حسبه الناس قد دفن منذ زمن بعيد ، رجل لم تأت على ذكره إلا العجائز ، وإن هن فعلن ذلك في الكنيسة ، في أيام التأبين ، يتمتمن قائلات : «رحمة الله على روحه» . أوليست تلك معجزة ؟...

نزل ستيبان في بيت زوجة أنيكوشكا وحمل متاعه إلى داخل الكوخ .

وفيما كانت هي تعد له شيئاً من الطعام ذهب هو إلى داره . فسار بخطوات رب البيت الحازمة جيئة وذهاباً في باحة الدار المغمورة بضوء القمر ، ثم مشى إلى داخل السقائف المتداعية ، وتفحص الدار ، واختبر الأسيجة . وكان البيض المقلي قد برد على مائدة زوجة أنيكوشكا منذ وقت طويل ، بيد أن ستيبان مضى يتفحص داره التي تكاثفت عليها الأعشاب ، مفرقعاً أصابعه وهو يتمتم مع نفسه...

وجاء القوزاق في ذلك المساء ليروه ويسألوه عن حياته في الأسر . فازدحمت الغرفة الأمامية في دار أنيكوشكا بنساء وصبية وقفوا كالجدار المرصوص ، وراحوا يصغون بأفواه فاغرة إلى حكايات ستيبان . كان يتكلم دونما حماس ، ولم يشرق محياه الذي زحفت إليه الشيخوخة بأية ابتسامة . فقد غيرته الحياة أيما تغيير .

وصباح اليوم التالي جاء بانتلاي بروكوفتش ميليخوف وستيبان ما يزال نائماً ، فتنحنح الشيخ في راحته وانتظره في الخارج حتى أفاق . وكانت الغرفة تفوح برائحة الأرض الترابية الرطبة العفنة والتبغ الخانق غير المألوف ، فضلاً عن تلك الرائحة التي تلازم المسافر وقتاً طويلاً .

لقد استيقظ ستيبان الآن ، ذلك أمر واضح ، فثمة صوت لكبريت يضرب لإشعال سيكار .

فسأل بانتلاي : ـ هل لي أن أدخل ؟ ـ وجعل بكل عناية يسوي طيات قميصه الجديد الذي أصرت ايلينشنا على أن يرتديه لتلك المناسبة ، وكأنه على وشك أن يقدم نفسه إلى ضابط رفيع الرتبة .

ـ أدخل!

كان ستيبان يرتدي ثيابه وهو يدخن سيكاراً ويخاوص عينيه ليتحاشى الدخان . وتخطى بانتلاي بروكوفتش العتبة بشيء من الارتباك ، ثم توقف ومد راحته السوداء ، وقد أدهشه التبدل الذي طرأ على سيماء ستيبان والإبزيم المعدني لحمالة بنطاله الحريرية .

ـ صباح الخير ، يا جار . يسعدني أن أراك حياً...

ـ صباح الخير .

سحب ستيبان حمالات بنطاله عبر كتفه القوي ، ثم وضع يده بوقار في راحة الشيخ المتقرنة . وتفحص كل صاحبه على عجل . فأومضت عينا ستيبان بشرر من النفور ، ولاح في بؤبؤي ميليخوف ، الجاحظين المائلين ، احترام يخالطه شيء من الدهشة الساخرة .

ـ أنت كبرت ، يا ستيبان ، كبرت ، يا بني .

ـ أجل ، كبرت .

وقال الشيخ :

ـ تلونا صلاة الموتى على روحك ، كما تلوناها على ابني غريشا... ـ ولكنه توقف حانقاً ، فلم يكن ذلك يناسب المقام . فلم يكن من اللائق أن يذكر هذا! وحاول إصلاح خطأه . ـ الحمد لله ، أنك عدت حياً ، معافى! الحمد لله! لقد تلونا صلاة الموتى على غريشا ابني ، أيضاً ، ولكنه قام يمشي ، كلعازر* . إن لديه طفلين الآن ، وقد تحسنت صحة زوجته ناتاليا ، والحمد لله ، إنها امرأة رائعة... وكيف حالك ؟

ـ إنني على أحسن ما يرام ، أشكرك .

ـ هلا أتيت لزيارة جيرانك ؟ تفضل ، شرفنا . سوف نتحدث...

ورفض ستيبان ذلك ، إلا أن بانتلاي بروكوفتش ألح عليه حتى بدا عليه الاستياء فقبل ستيبان الدعوة . ثم اغتسل ومشط شعره القصير وابتسم حين سأله الشيخ : «ماذا فعلت بخصلتك ، هل أبليتها تمشيطاً ؟» . ثم وضع قبعته على رأسه بكل ثقة وتقدم خارجاً إلى الفناء .

وأبدى بانتلاي بروكوفتش من الود واللطف ما جعل ستيبان يقول في سريرته : «انه يحاول التكفير عن الإساءة القديمة...» .

---

* يروي الانجيل أن لعازر أخ ماري ومارتا بعثه المسيح من الموت . المترجمون

ولبّت ايلينشنا إشارة زوجها فانهمكت في المطبخ وراحت تستحث ناتاليا ودونيا على العمل ، وأعدت المائدة بنفسها .

وجعلت المرأتان تلقيان نظرات فضولية بين حين وآخر إلى ستيبان الذي جلس تحت الأيقونات فراحت أعينهما تتفرس سترته ، وياقته ، وسلسلة ساعته الفضية ، وتسريحته ثم رحن يتبادلن ابتسامات الدهشة خلسة .

ودخلت داريا من الفناء بوجه متورد ، تبتسم بارتباك وتمسح خط شفتيها الجميل بطرف شالها . ثم خاوصت عينيها وهتفت :

ـ ماذا ، يا جارنا ، لم أعرفك... أنت لم تعد تشبه القوزاق .

ولكي لا يذهب الوقت سدى وضع بانتلاي بروكوفتش على المائدة قنينة من الفودكا المنزلية ، ثم انتزع الخرقة التي تسدها ، وتشمم شذاها الحاد ، وأطرى حسناتها .

ـ ذقها! إنها من صنع يدي . ما إن تقرب الكبريت منها حتى تشتعل بلهب أزرق!

وكانا يتجاذبان أطراف الحديث البطيء . لم يكن ستيبان راغباً في الشراب ، ولكن سرعان ما بدا عليه الثمل بعد أن شرب قدحاً ، فغدا ألطف معشراً . فقال بانتلاي بروكوفتش :

ـ ينبغي لك أن تتزوج الآن ، يا جار .

ـ وماذا أفعل بزوجتي القديمة ؟

ـ صارت عجوزاً ؟ وهل تتصور أن الزوجة القديمة لا تذبل ؟ الزوجة كالفرس : بوسعك أن تركبها طالما بقيت في فمها أسنان . سوف نعثر لك على فتاة شابة .

فأجاب ستيبان ، وقد بارحه أسلوب الأجانب في الكلام اذ اشتد به الثمل :

ـ حياتنا كانت مشربكة . لا وقتَ للزواج... عندي إجازة لعشرة أيام ، وعلي بعد ذلك أن أعود إلى فيشنسكايا ، ومن ثم إلى الجبهة ، كما أحسب .

غادرهم بعد برهة وجيزة ، ترافقه نظرة الإعجاب من عيني داريا ، مخلفاً وراءه نقاشاً وجدالاً .

ـ لكم هذّب نفسه ، ابن العاهرة! يا لطريقته في الكلام! ما أشبهه بمأمور الضرائب أو بأحد النبلاء . حين دخلت اليه ألفيته يسحب شرائط حريرية ذات أبزيم عبر كتفه . يشهد الله ، كان ظهره وصدره مشدودين كما يشد الحصان إلى العربة . لماذا كل ذلك ؟ إنه الآن يشبه رجلاً مثقفاً كل الشبه! ـ قال بانتلاي بروكوفتش ذلك بإعجاب ، وواضح أنه سر بقبول ستيبان لكرمه وتغاضيه عن الإساءة القديمة .

واستنتجوا ، بعد تقليب الأمر على أوجهه ، أن ستيبان سيعود إلى القرية ويشيد بيته وحقله من جديد بعد أن ينهي خدمته العسكرية . وقد ذكر عرضاً أن لديه ثروة ، فأثار هذا في نفس بانتلاي بروكوفتش حدساً جاداً واحتراماً لا إرادياً . فقال حين غادرهم ستيبان :

ـ عنده فلوس ، بالتأكيد! غيره من القوزاق يعودون من الأسر بجلودهم ، أما هو فقد عاد يرفل بالحرير . لا بد أنه قتل شخصاً ما أو سرق مالاً .

أمضى ستيبان الأيام الأولى من عودته في كوخ زوجة أنيكوشكا بهدوء ، وكان نادراً ما يخرج إلى الشارع . فراح الجيران يترصدونه ، ويحصون سكناته ، حتى أنهم حاولوا استجواب زوجة أنيكوشكا عما ينتوى عمله . ولكنها أطبقت شفتيها بقوة وتذرعت بالجهل . وسرعان ما سرت شائعات قوية في أرجاء القرية حين اكترت زوجة أنيكوشكا عربة صغيرة وفرساً من آل ميليخوف ومضت بها في صبيحة يوم السبت إلى مكان لا يعرفه أحد ، ولم يحدس القصد من وراء ذلك سوى بانتلاي بروكوفتش ، فغمز لايلينشنا وهو يشد الفرس الحجلاء إلى العربة الصغيرة وقال : «إنها ذاهبة لتعود بأكسينيا» . ولم يخطئ ظنه . فقد طلب ستيبان إلى المرأة أن تذهب إلى ياغودنويه أكسينيا تسأل ما اذا كانت راغبة في العودة إلى زوجها ، وإسدال ستار النسيان على كل الهفوات السابقة .

ويومذاك فقد ستيبان زمام نفسه ورصانته . فراح يجوب القرية حتى المساء ، جالساً لفترة طويلة على عتبة دار موخوف ، قاصاً عليه الحكايات عن حياته في ألمانيا وعودته عن طريق فرنسا عبر البحر . وكان لا ينفك ينظر إلى ساعته طوال حديثه إلى موخوف واستماعه إلى شكواه .

عادت زوجة أنيكوشكا من ياغودنويه عشاء . فيما كانت تعد الطعام في المطبخ الصيفي حكت له كيف فوجئت أكسينيا بالخبر المباغت ، وكم من الأسئلة وجهت ، وكيف أنها رفضت العودة رفضاً قاطعاً ، وأخبرته زوجة أنيكوشكا وهي تبتلع حسرات الغيرة : ـ لا حاجة بها للعودة ، فهي تعيش كإبنة أكابر . لقد غدت ناعمة وابيض وجهها . إنها لا تعرف العمل الشاق ، وماذا تريد أكثر من هذا ؟ لن تصدقني إن وصفت لك ثيابها! كان يوم عمل ولكني ألفيتها ترتدي تنورة كالثلج ، ويديها نظيفتين كل النظافة .

فعلت الحمرة وجنتي ستيبان ، وجعل شرر الحنين الغضوب يتقادح في عينيه المنكستين ثم يخبو . فغرف ملعقة لبن من إنائه بيدٍ جهد أن يحول دون ارتجافها . وغدا استجوابه بطيئاً متمعناً .

ـ تقولين إنها امتدحت معيشتها ؟

ـ ولم لا ؟ لا أظن أن أحداً يرفض حياة كتلك .

ـ ولكن هل سألتك عني ؟

ـ بالطبع! أقول لك أن وجهها ابيض تماماً لما أخبرتها بعودتك .

وبعد أن أتم ستيبان تناول طعام العشاء خرج إلى الفناء الذي غطاه العشب . كانت ليالي آب القصيرة تتلاشى بسرعة . وقد ضايقته في برودة تلك الأمسية الرطيبة الأصوات الفضية وجلبة المباذر . واستمرت زحمة الحصاد على ضوء القمر الأصفر الأبقع . كانوا يغربلون أكوام القمح الذي يدرسونه في النهار ومن ثم ينقلونه إلى المخازن . واكتنف القرية غبار التبن والرائحة الحريفة اللافحة ، المنبعثة من القمح الذي درس لتوه . وفي مكان ما قرب الساحة ، كانت ثمة دارسة ميكانيكية تبربر وكلاب تنبح . وتناهى

صوت غناء من ساحة لدرس الحبوب نائية . وهبت من الدون رطوبة منعشة .

مال ستيبان على السياج وراح يحدق في مجرى الدون المنساب وراء الشارع ، وفي الشريط الوهاج المتماوج الذي خطه البدر على النهر . ومضت رقرقات جعد تدوم حدر النهر . وفي الجانب الآخر استكانت أشجار الحور إلى راحة وخدر وسنان . وأخذ الحنين يدب في ستيبان رويداً رويداً ، فلم يستطع له صدّاً .

* * *

تساقط المطر عند الفجر ، ولكن السماء ما لبثت أن صحت بعد شروق الشمس ، وما ان مرت زهاء ساعتين حتى لم يبق من أثر للطقس الماطر سوى كتل من الطين لما تجف علقت بعجلات العربة . وفي الصباح ذهب ستيبان إلى ياغودنويه . وربط حصانه عند البوابة وهو يحس بشيء من الارتباك ، ثم سار مسرعاً إلى جناح الخدم . كان الحوش الفسيح الذي تكاثف عليه العشب الجاف قفراً . وكان الدجاج يبحث في الروث عند الاسطبل ، وديك أسود كالزاغ ينقل خطاه بحذر قرب السياج المتهدم . وفيما كان ينادي الدجاجات تظاهر بنقر دعاسيق حمر فوق السياج الذي سقط على الأرض . وكانت كلاب البورزوي الملساء جاثمة في الفيء قرب مأوى العربة . وقد طرحت ستة جراء بلقاء أمها أرضاً وراحت تترافس بنشاط فيما كانت ترضع منها . وكان الندى يتلألأ على الجانب الظليل من السقف الحديدي للبيت .

راح ستيبان يجيل النظر فيما حوله ، ثم دلف إلى جناح الخدم ، وسأل الطباخة البدينة :

ـ هل أستطيع أن أرى أكسينيا ؟

فسألته لوكريا ، وهي تمسح وجهها النمش العرقان بصدريتها .

ـ من أنت ؟

ـ هذا ليس من شأنك . أين أكسينيا ؟

ـ في حضرة السيد . انتظر!

جلس ستيبان ، واضعاً قبعته على ركبتيه بحركة تنم عن كلال فظيع . وانهمكت الطباخة في المطبخ دون أن تعيره أي انتباه . وكانت رائحة الجبن والتخمر الحامضة تملأ الغرفة ، وانتثر ذباب أسود على الموقد ، والجدران والمائدة التي يعلوها الدقيق . انتظر ستيبان ، يصغي متوتر الأعصاب ، واذ تناهى إليه صوت مشية أكسينيا المألوف هب من مصطبته فسقطت القبعة من على ركبتيه .

دخلت أكسينيا تحمل كومة من الصحون . واذ رأت ستيبان علا وجهها شحوب الموتى ، وجعلت زاويتا شفتيها ترتعشان . توقفت وهي تشد الصحون إلى صدرها بوهن ، وتسمرت عيناها الفزعتان على وجه ستيبان . ثم انتزعت نفسها على نحو ما وسارت من مكانها إلى الطاولة بسرعة ووضعت الصحون . ثم قالت :

ـ صباح الخير...

وراح ستيبان يتنفس بتؤده وعمق ، لكأنه مستغرق في النوم ، وأرغمت ابتسامة متوترة شفتيه على الانفراج ، ثم مال إلى الأمام بصمت ومد يده إلى أكسينيا . فأشارت تدعوه قائلة :

ـ تعال إلى غرفتي .

فرفع ستيبان قبعته وكأنها حمل ثقيل ، واندفع الدم إلى رأسه وغشي عينيه . وحين دخلا غرفتها وجلسا على جانبين متقابلين من الطاولة ، لعقت أكسينيا شفتيها الجافتين ، وسألته وهي تئن :

ـ من أين جئت ؟

فلوح ستيبان يده على نحو غامض ثمل في محاولة مفتعلة لخلق جو من المرح . وكانت ابتسامة الفرح والألم ما تزال عالقة بشفتيه .

ـ من الأسر في ألمانيا... جئت كي أراك ، يا أكسينيا...

تململ بارتباك ، ثم هب واقفاً ، وأخرج من جيبه صرة صغيرة فمزق الخرقة

على عجل بأصابع مرتجفة ، وأخرج ساعة نسائية من الفضة ، وخاتماً محلى بحجر أزرق رخيص . وقدمهما إليها في راحة يده العرقة ، بيد أن عينيها بقيتا مسمرتين على وجهه الغريب الذي لم تألف فيه الابتسامة الذليلة الشوهاء من قبل .

ـ خذيها ، احتفظت بها لك... لقد عشنا سوية...

فهمست خلال شفتيها الخدرتين :

ـ ما حاجتي إليها ؟ انتظر!

ـ خذيها... لا تزدري بي . علينا أن ندع حماقاتنا القديمة جانباً...

قامت وهي ترفع يدها وكأنها تتقي شيئاً ومضت إلى الموقد :

ـ قالوا إنك قتلت...

ـ وهل سيسرك ذلك ؟

لم تجب ، بل راحت تتفحص زوجها من الرأس إلى القدم بمزيد من الهدوء ، فيما جعلت تسوي لغير ما داع طيات تنورتها المكوية بكل عناية . وقالت وذراعاها وراء ظهرها :

ـ هل أرسلت زوجة أنيكوشكا إليّ ؟ قالت إنك تريدني أن أعود إليك... للعيش سوية .

فقاطعها ستيبان قائلاً :

ـ هل ستأتين ؟

فأجابته بصوت جاف :

ـ كلا! كلا ، لن آتي .

ـ لِمَ لا ؟

ـ لم أعد آلف ذلك... والأوان متأخر جداً . أجل ، متأخر .

ـ ولكني أريد أن أحيي حقلي . فكرت بالأمر طوال الطريق وأنا عائد من ألمانيا ، فكرت في ذلك أيضا وأنا مقيم هناك . ماذا أنت فاعلة ، يا أكسينيا ؟ لقد هجرك غريغوري... أم تراك وجدت رجلاً آخر ؟ سمعت بعض الحكايات عنك وعن ابن السيد هنا... أصحيح ذلك ؟

فالتهبت وجنتاها ، وتدفقت دموع الإثم من تحت أهدابها المسبلة .

ـ هذا صحيح تماماً . أعاشره .

فانتاب ستيبان الفزع وقال :

ـ لا تحسبي أنني ألومك . كنت على وشك القول إنك ربما لم تقرري مستقبل حياتك بعد . إنه لن يظل راغباً فيك زمناً طويلاً ، إنه يعبث بك ليس إلا . الغضون ظهرت تحت عينيك... سوف يطردك حالما يشبع منك . وآنذاك إلى أين ستولين وجهك ؟ ألم تسأمي حياة العبودية ؟ فكري بالأمر جيداً... ها قد عدتُ ببعض المال ، وحين تنتهي الحرب سنعيش بيسر . حسبت أن شملنا سيلتئم... أريد أن أنسى الماضي .

فسألته خلل دموعها بمرح ورعشة يسيرة تسري في أوصالها :

ـ لماذا لم تفكر في الأمر قبل اليوم ، يا صاحبي العزيز ؟ ـ ثم انتزعت نفسها من جانب الموقد وجاءت إلى الطاولة ، قائلة : ـ بماذا فكرت حين سحقت شبابي في التراب ؟ لماذا دفعتني إلى أحضان غريشا دفعاً ، أيبست قلبي . أتذكر ما فعلت بي ؟

فقال ستيبان وهو يحدق في ذراعيه الممتدين على الطاولة :

ـ لم آت إلى هنا للعتاب . أنت... كيف لك أن تعرفي كم فكرت وعانيت ؟ ـ وراح يتحدث على مهل وكأنه يجتث الكلمات من فمه : ـ كنت أفكر فيك على الدوام .الدم تخثر في قلبي... لم تبارحي فكري لا في الليل ولا في النهار... كنت أعيش مع أرملة ، مع ألمانية... عشت حياة ميسورة ، ولكنني تركتها... أردت العودة إلى الوطن...

فسألته أكسينيا ومنخراها يرتعشان انفعالاً :

ـ والآن ترغب أن تحيا حياة هادئة ؟ تريد أن تستأنف زراعتك . أظنك تريد أطفالاً وزوجة... زوجة تغسل ملابسك وتعد لك الطعام ؟ ـ ثم ابتسمت ابتسامة خبيثة ، وأردفت : ـ كلا ، لا أريد ذلك ، لا سمح الله! شختُ أنا... بوسعك أن ترى الغضون في وجهي . ثم إني قد نسيت كيف أحمل الأطفال .

أنا محظية ، ينبغي على المحظيات ألا يحبلن . أتريد امرأة كهذه ؟

ـ صرتِ سليطة...

ـ هذا حالي ، وسأبقى عليها .

ـ اذاً فأنت تقولين لا .

ـ أقول لا ، لن أذهب! كلا!

ـ حسناً ، مع السلامة ـ وقام ستيبان ، وقلب الساعة في يده بتردد ، ثم وضعها على الطاولة ثانية ، وأضاف : إذا غيرت رأيك ، فأخبريني .

رافقته أكسينيا إلى البوابة . ثم وقفت تحدق وراءه وقد أثارت عجلات العربة غباراً اكتنف منكبيه العريضين .

وراحت تغالب عبراتها الحانقة ، وتنشج نشيجاً متقطعاً فيما كانت تفكر على نحو مبهم في آمالها التي لم يكتب لها أن تتحقق ، وتبكي حياتها التي أضحت في مهب الريح من جديد . فبعد أن علمت أن يفغيني لم يعد بحاجة إليها ، وحين سمعت بعودة زوجها ، عقدت العزم على العودة إليه ، لتلم أشتات السعادة التي لم تكن ملك يديها . فانتظرت ستيبان يحدوها ذلك الأمل . ولكن حين رأته ذليلاً حقيراً استبد بها التعالي وثارت فيها الكبرياء بكل عنفوانه ، تلك الكبرياء التي ما كان لها أن تدعها تبقى في ياغودنويه بعد أن عافها لستنتسكي ، ولا بد أن واعزاً شريراً هو الذي وسوس لها بتلك الكلمات ودفعها إلى ذلك السلوك . تذكرت عارها القديم ، تذكرت كل ما عانته من هذا الرجل ، من يديه الحديديتين الضخمتين . واستبد بها الذعر لما تفوه به ، وهو مغاير لما تريده ، حين لهثت بهذه الكلمات اللاسعة : « لا ، لن أذهب! كلا! » .

ومرة ثانية سرحت الطرف في إثر العربة المبتعدة .

ولوح ستيبان سوطه ، وتوارى خلف ليلك الشيح الواطئ على جانب الطريق .

* * *

وفي اليوم التالي ، تسلمت أكسينيا أجورها ، ثم جمعت حاجياتها . وحين ودعت يفغيني انفجرت باكية :

ـ لا تذكرني بالسوء ، يا يفغيني نيكولايفتش .

فأجابها بصوت ينم عن مرح مفتعل ، جاهداً أن يخفي حرجه :

ـ لماذا ، طبعاً لا ، يا عزيزتي... أشكرك على كل شيء .

ثم رحلت . وبلغت تتارسكي عند المساء الباكر . وقابلها ستيبان عند البوابة ، وسألها باسماً :

ـ هل قد عدت إذاً ؟ إلى الأبد ؟ هل لي أن آمل بأنك لن ترحلي مرة أخرى ؟

ـ لن أرحل بعد الآن .

قالت ذلك ببساطة ، وقد اعتصرها قلبها اذ أجالت البصر بالكوخ الذي أوشك أن يتداعى والفناء الذي تكاثف عليه الدغل والنجيل .

٨

وأخيراً اشتبكت كتيبة فيشنسكايا بالحرس الأحمر المتقهقر بعد أن ظلت تتقدم عدة أيام . ففي ظهيرة أحد الأيام احتلت السرية التي يقودها غريغوري ميليخوف قرية صغيرة تعشش في بساتين وافرة الخضرة . فأمر غريغوري قوزاقه بالترجل في فيء صفصاف ينمو قرب جدول كان قد شق له مجرى ضحلاً خلال القرية . وكانت الينابيع تبقبق من ثنايا التربة الرخوة السوداء في مكان ليس بالبعيد . كان الماء بارداً كالثلج ، فعب القوزاق منه بنهم ، مغترفين بقبعاتهم التي صفقوها بعدئذ على رؤوسهم المخضلة بالعرق وهم يطلقون جنيراً ينم عن ارتياح . وكانت الشمس ترسل أشعة عمودية على القرية التي أترعت بالحر . وكانت الأرض تضطرم تحت وطأة الظهيرة الوخمة . وتدلت الأعشاب وأوراق الصفصاف واهنة ، وقد رشقتها الأشعة

الكاوية بلفحها ، على أن شيئاً من البرودة كان في فيء الصفصاف إلى جانب الجدول . كان نبات الأرقطيون نضراً بخضرته . وراح دغل البطة يومض ببسمة عذرية في الجداول الصغيرة ، وطفق البط عند حنوة الجدول يرشق الماء ويصفق أجنحته فيه ، وزنخرت الخيل واشرأبت صوب الماء وهي تعض على شكائمها وتشد على أعنتها ، وراحت شفاهها تتلمس الماء الصافي فيما كانت أرجلها تثير الوحل . وكان النسيم الوغر ينثر قطرات كبيرة متوهجة كحبات الماس من شفاهها . وتصاعدت رائحة كبريتية من الماء الخابط ورائحة ذكية حادة من جذور الصفصاف المتعفنة التي يغسلها ماء الجدول...

وما إن استلقى القوزاق بين الأرقطيون ليدخنوا ويتجاذبوا أطراف الحديث حتى عادت دوريتهم الأمامية . وحال سماع كلمة «الحمر» هب الرجال على أقدامهم ، فشدوا أحزمة السروج وذهبوا إلى الجدول ثانية ليشربوا منه ويملأوا زمزمياتهم ، وكل منهم يقول في دخيلته : «ربما كانت هذه آخر مرة أشرب فيها ماء كهذا صافياً مثل دموع الأطفال» .

اتجه بهم الطريق عبر الجدول ، وتوقفوا في الجانب الآخر . وعلى مبعدة من القرية لمحوا على بعد فرسخ منهم دورية تضم ثمانية من خيالة العدو تتحرك بحذر على ربوة رملية ، تعلوها الأحراش ، ميممين صوب القرية . فاقترح ميتكا كورشونوف على غريغوري قائلاً :

ـ سوف نطبق عليهم ، ها ؟

ثم ذهب بنصف رعيل إلى خارج القرية ليطوق الدورية بيد أن رجال الحرس الأحمر اكتشفوا أمر القوزاق في الوقت المناسب فعادوا أدراجهم .

وحين وصلت بعد ذلك بساعة السريتان الأخريان اللتان تؤلفان كتيبة فيشنسكايا استأنفوا تقدمهم من جديد . وعادت الدوريات بمعلومات تفيد أن الحمر ، وهم يناهزون الألف عدداً ، قادمون للاشتباك بهم . كانت سرايا كتيبة فيشنسكايا قد فقدت الصلة عن يمينها مع كتيبة بوكانوفسكي الثالثة والثلاثين ، ومع ذلك فقد تقرر الاشتباك بالعدو . فتقدموا إلى قمة الربوة

وترجلوا ، واقتيدت الخيل إلى منخفض فسيح ينحدر صوب القرية . وفي مكان ما إلى اليمين كانت الدوريات قد بدأت القتال ، فتناهت إلى سمعهم لعلعة خفيفة من المدافع الرشاشة .

وبعد قليل لاح خط رفيع من الحمر . فوضع غريغوري رجال سريته على قمة التل واستلقى القوزاق على امتداد القمة التي تعلوها الأحراش فيما راح غريغوري يتطلع بمنظاره ، من تحت شجرة تفاح قميئة ، إلى صفوف العدو النائية . وقد استطاع أن يرى بوضوح الصفين الأولين ، ومن خلفهما طابور آخر من الجنود انتشروا في صف خلال أكداس من القمح المحصود الذي لم يجمع بعد .

فدهش ، وسائر القوزاق لرؤية فارس ، لا بد أنه القائد ، يمتطي حصاناً أبيض كبيراً في مقدمة الصف الأول . وكان ثمة آخران في مقدمة الصف الثاني . وكان الصف الثالث كذلك يتقدمه قائد ترفرف بجانبه راية بدت إزاء صفرة الحقل المغبر أشبه ما تكون بقطرة صغيرة من الدم القاني .

قال ميتكا كورشونوف ضاحكاً باعجاب :

ـ قوميساروهم في المقدمة : إنها بطولة منهم!

ـ هؤلاء هم الحمر الآن! أنظروا إليهم! يا فتيان!

فرفع جميع القوزاق تقريباً أنفسهم من على الأرض لينظروا ، وعلت الأيدي لتظلل العيون ، وتلاشى الحديث فخيم على السهب والوادي صمت مهيب كئيب ، نذير الموت ، وكأنه ظل سحابة ينساب بهدوء ورفق .

والتفت غريغوري فرأى الغبار يتصاعد خلف جزيرة الصفصاف الرمادية الداكنة إزاء القرية : إنها السرية الثانية ماضية لتطويق العدو . وقد أخفت حركاتها بعض الوقت في أحد الأخاديد ، ولكنها بعد أربعة فراسخ تقريباً أخذت ترتقي مرتفعاً وفق نظام الانتشار فقدّر غريغوري في ذهنه المكان والزمان الذي ستحاذي فيه السرية جناح العدو .

أعاد منظاره إلى حافظته ، والتفت بسرعة ليأمر رجاله بالبقاء على وضع الامتداد .

وعاد إلى صفه ، فالتفتت إليه وجوه القوزاق قاتمة متلامعة بفعل الغبار والحر . وانبطح الرجال يتبادلون النظرات . وحين صدر الأمر : «تأهب!» تعالت من الترسانات جلبة صخابة . وكان بوسع غريغوري أن يرى من وقفته سيقاناً ممتدة ، ورؤوس قبعات ، وظهوراً تغطيها قمصان معفرة ، ومعالم عظام اللوح ندية بالعرق . وجعل القوزاق يزحفون هنا وهناك بحثاً عما يتقون به النار أو عن نقاط أفضل للرمي . وحاول البعض أن يحفروا بسيوفهم حفراً .

وفي أثناء ذلك ، حملت الريح إلى سفح الربوة ، أنغام نشيد غير واضح المعاني... وتعرجت صفوف الحرس الأحمر دونما نسق ، وتناهت أصواتهم خافتة ضائعة في أرجاء السهب الفسيح الراكد الهواء . وأحس غريغوري بضربات قلبه العنيفة المتشنجة ، فقد سمع من قبل لازمة ذلك النشيد المتأوه! سمع البحارة ينشدونه ، حين كان مع بودتيلكوف في غلوبوكايا ، كانوا يرفعون قبعاتهم خاشعين ، وعيونهم تشع حماساً . وتنامى في دخيلته قلق غامض فجائي أقرب إلى الخوف .

فسأل أحد القوزاق الكهول ملتفتاً بوجه قلق :

ـ بماذا يجأرون ؟

فأجابه الرجل الراقد إلى يمينه :

ـ بصلاة الأبالسة .

ـ صلاة إلى ابليس ، ـ قال أندريه كاشولين ذلك باسماً ، ثم صوّب إلى غريغوري نظرة وقحة وسأله : ـ وأنت ، يا غريغوري ، كنت في السابق معهم . أنت تعرف ماذا ينشدون ، أليس كذلك ؟ لا بد أنك أنشدت ذلك النشيد معهم ، ها ؟...

ـ «... امتلكوا الأرض...» جاءت الكلمتان في تلك اللحظة واضحتين عبر المدى الفاصل بين الفريقين ، ثم ران السكون على السهب من جديد . وسرت بين القوزاق موجة من المرح المرير وانفجر رجل في وسط الصف ضاحكاً . فشتمهم ميتكا كورشونوف شتماً مقذعاً وسخر منهم قائلاً :

ـ هل تسمعون ذلك ؟ إنهم يريدون أن يمتلكوا الأرض! غريغوري باتتلايفتش ، هل لي أن أصرع ذلك الخيال من على فرسه ؟ سأطلق النار مرة واحدة لا أكثر . ممكن ؟

وأطلق النار دون أن ينتظر الإيعاز . ويبدو أن الطلقة أربكت الفارس ، فترجل وسلم حصانه إلى أحد الجنود ، ثم سار في طليعة رجاله ، وسيفه المستل يلتمع .

وشرع القوزاق يطلقون النار فانبطح الحمر . وأمر غريغوري حملة الرشاشات أن يفتحوا النار . وبعد بضع رشقات هب الصف الأمامي من الحمر وتقدم راكضاً نحو ثلاثين ياردة ثم انبطحوا ثانية . واستطاع غريغوري أن يراهم ، خلل منظاره العسكري ، يعملون بأدوات الحفر لإعداد الخنادق ، فتعلقت فوقهم سحابة غبار مائل إلى الزرقة ، وتنامت أمام الصف تلال صغيرة أشبه ما تكون بتلال حيوان الخلد . وأخذت تصلهم من تلال الخلد تلك رشقات من الرصاص ، وبدا أن المعركة ستطول . وفي أقل من ساعة بدأت الاصابات تحل في القوزاق : فقد قتل رجل من الرعيل الأول ، وزحف ثلاثة جرحى متقهقرين صوب المنخفض حيث الجياد . ثم ظهرت السرية الثانية على جناح العدو وأغار قوزاقها على الحمر هذباً ، غير أنهم صدوا بنيران الرشاشات فهذبوا ناكصين وقد تملكهم الرعب وتناثروا كراريس صغيرة . ثم لمت السرية شعثها ، وتقدمت ثانية بصمت ، وللمرة الثانية صدتهم زوبعة من نيران الرشاشات فتراجعوا كالأوراق في مهب الريح .

بيد أن الهجوم قد نال من معنوية الحرس الأحمر . فارتبك الصفان الأماميان وشرعا في التقهقر .

فأمر غريغوري سريته بالنهوض دون أن يوقفوا اطلاق النار . وتلاشى الإحجام الذي اعتورهم بادئ الأمر ، وشجعهم أن رأوا بطارية المدفعية تهرع إلى مراكزها . وجر المدفع الأول إلى مركزه وفتح النار . وأرسل غريغوري رجلاً يأمر القوزاق في المنخفض بجلب الخيل . فقد أعد العدة للهجوم . وجر

مدفع ثالث إلى مركزه قرب شجرة التفاح حيث وقف غريغوري يرقب بداية المعركة . وكان ضابط مديد القامة يرتدي سروال خيالة ضيقاً يضرب جزمته بالسوط ويصب اللعنات الداوية على رؤوس رجال المدفعية البطيئين .

ـ أنصبوه ، ها ؟ تخطفكم الشيطان!

كان ثمة مراقب وضابط متقدم يقفان على بعد نصف فرسخ من البطارية يحدقان بمنظاريهما نحو صفوف الحمر المتقهقرة . وكان جنود المخابرة يركضون بسلك لربط البطارية بمركز المراقبة . وكان آمر البطارية الرئيس الكهل ، يعدل منظاره بأصابع عصبية معقدة ـ في أحدها خاتم زواج يلتمع . كان يتخبط قرب المدفع الأول ، منحنياً برأسه على صوت الطلقات ، ومع كل حركة فجائية كانت محفظة ميدان بالية تضرب على جنبه .

وبعد أن انطلق هدير داو مدمر انتظر غريغوري سقوط القذيفة فغطى منثار أول قذيفة سافات القمح الذي لم يجمع بعد ، فعلقت كتلة من دخان أبيض كالقطن في إطار خلفي أزرق . وراحت المدافع الأربعة ترسل قذائفها على سافات القمح المحصود ، ولكن ، على غير ما توقع غريغوري ، لم تحدث نار المدافع ارتباكاً ملموساً في صفوف الحمر المتقهقرين . فقد استمروا في تراجعهم البطيء المنتظم ثم تواروا في أحد المنخفضات . فأدرك غريغوري خطل فكرة الهجوم ، ولكنه قرر مع ذلك بحث الموضوع مع آمر البطارية . فذهب إلى الضابط ، وابتسم له ابتسامة ود وهو يلمس بيسراه طرف شاربه المتجعد الذي حال لونه من الشمس . وقال :

ـ أنا أفكر بقيادة رجالي للهجوم .

ـ كيف يسعك أن تهاجم ؟ ـ وهز الرئيس رأسه بعنف ، وهو يمسح من صدغه سيلاً من قطرات بظهر يده . وأردف : ـ يمكنك أن ترى كيف تراجعوا بانتظام . هؤلاء الخنازير! انهم لم يذعنوا . ومن السخف أن ننتظر منهم الإذعان : إن تلك الوحدات يقودها ضباط نظاميون ، رجال ارتقوا من بين الجنود . إن لي بينهم رفيقاً قديماً ، اسمه سيروف .

فسأله غريغوري مرتاباً :

ـ كيف عرفت ذلك ؟

ـ عن طريق الفارين . ـ ثم أصدر الأمر إلى رجاله : ـ أوقفوا النار ، ثم أوضح الأمر لغريغوري ، وكأنه يبرر له ما فعل : ـ إن نارنا لم تحقق أي غرض ، ثم إن القذائف تنقصنا . أنت ميليخوف ، أليس كذلك ؟ اسمي بولتافتسيف ـ ثم دفع يده الضخمة العرقى في يد غريغوري ، وأخرج من محفظته بعض السكائر بسرعة ، ودعا غريغوري قائلاً : ـ أتريد سيكارة ؟

وانبعث قعقعة مكتومة وهرع السواق يجرون عربات المدافع من المنخفض . وامتطى غريغوري حصانه وقاد سريته يتعقب الحمر المتقهقرين . واحتل العدو القرية التالية ، ولكنه تخلى عنها دون مقاومة . وانتشرت البطارية وسرايا كتيبة فيشنسكايا الثلاث في أرجاء القرية . ولم يشأ القرويون المرتعبون إخراج رؤوسهم من أكواخهم . فراح القوزاق يهومون في أقنية الأكواخ بحثاً عن الطعام . وترجل غريغوري خارج كوخ منعزل بعض الشيء ، ثم ربط حصانه عند سقيفة الباب ، فألفى رب البيت ، وهو قوزاقي كهل طويل القامة ، راقداً في فراشه ، يئن ويقلب رأسه الصغير الذي يشبه رأس الطير على الوسادة القذرة . فابتسم غريغوري للرجل قائلاً :

ـ أمريض أنت ؟

ـ مر... يض...

بيد أن الرجل كان يتظاهر بالمرض فحسب ، وكانت عيناه الزائغتان القلقتان تدلان على أنه لم يتوقع أن يصدقه غريغوري .

فسأله غريغوري قائلاً :

ـ هلا أعطيت رجالي بعض الطعام ؟

وظهرت ربة البيت من وراء الموقد سائلة :

ـ كم عددهم ؟

ـ خمسة .

ـ حسناً ، أدخلهم ، سنعطيهم مما قسم الله .

وبعد أن تناول غريغوري الطعام مع رجاله خرج إلى الشارع . كانت البطارية عند البئر على أهبة تامة للقتال . وكانت الخيل تأكل شعيراً من المخالي ، والسواق ورجال المدفعية يتفيأون في ظل صناديق العتاد ، في حين جلس بعضهم أو رقد حول المدافع . وكان أحد المدفعيين مستلقياً يغط في نوم عميق وساقاه متقاطعان ، وكتفاه تختلجان . ربما كان قد استلقى في الفيء ، بيد أن الشمس بلغته فصارت تلفح رأسه الأجعد الحاسر الذي خالطه بعض القش .

وبدت أدم الخيل براقة صفراء من العرق الذي كان يتصبب من تحت أحزمة العدة العريضة .

وكانت خيل الضباط تقف مربوطة إلى أحد الأسيجة وقد تهدلت ذيولها بكلال ، أما القوزاق فقد خلدوا إلى الراحة ، لائذين بالصمت ، مثقلين بالغبار والعرق ، في حين جلس الضباط وآمر البطارية على الأرض يدخنون وظهورهم إزاء جدار البئر . وفي مكان ليس بعيداً عنهم ، تحلق ستة قوزاق ، على هيئة نجمة سداسية فوق الدغل المحروق ، وراحوا يشربون اللبن الرائب من جرة ، وبين آونة وأخرى يبصقون شعيراً كان قد وجد سبيله إلى اللبن .

راحت الشمس تصب لهيبها . وبدت شوارع القرية الممتدة على التل وكأنها مقفرة . كان القوزاق نائمين بجانب مخازن الحبوب ، أو تحت السقائف أو عند الأسيجة في الظل الأصفر لنبات الأرقطيون . وكانت الخيل التي وقفت مسرجة عند الأسيجة قد تملكها الاعياء وران عليها النعاس من شدة الحر الخانق . ومر قوزاقي على حصانه ، كان لفرط كسله لا يكاد يقوى على رفع سوطه عن ظهر حصانه ، ثم ما عتمت القرية أن هجعت كدرب في السهب أتى عليه النسيان ، وبدت المدافع الخضراء والجند المنهكون النيام أشياء زائدة لا لزوم لها .

كان غريغوري يوشك أن يأوي إلى الكوخ ، وقد استبد به الضجر من ضياع الوقت دونما عمل . إلا أنه صادف في هذا الحين أن ظهر في الشارع

ثلاثة خيالة قوزاق من سرية أخرى يسوقون أمامهم ثلة صغيرة من أسرى الحرس الأحمر . فتململ رجال المدفعية وجلسوا من رقدتهم ، نافضين الغبار عن سترهم وسراويلهم ونهض الضباط على أقدامهم .

ومن الفناء المجاور ، نبت صيحة جذلة :

ـ هيه ، يا أولاد ، ها هم قادمون ببعض الأسرى... يشهد الله أنهم لكذلك .

وجاء قوزاق بدا عليهم النعاس يتراكضون من الأفنية القريبة .

وأقبل الأسرى ، وكانوا فتياناً ثمانية يعلوهم الغبار والعرق فحف بهم حشد حاشد .

وسأل آمر البطارية وهو يعاين الأسرى بفضول وكراهية :

ـ أين أمسكتم بهم ؟

فأجابه أحد مرافقي الأسرى وفي صوته نبرة من التباهي :

ـ محاربون!... عثرنا عليهم بين عباد الشمس في ضواحي القرية مختبئين كما تختبئ من الحدأة طيور السلوى . رأيناهم من على ظهور خيلنا ، فجمعناهم وقتلنا واحداً...

وتلاصق جنود الحرس الأحمر فزعين ، مترقبين أن يعدموا جميعاً ، وراحت أعينهم تنتقل بين وجوه القوزاق على نحو بائس ، إلا أسيراً ، أسمر الوجه من لفح الشمس ، يرتدي قمصلة متسخة ولفاف أرجل خلقاً ، ويبدو أكبر سناً من الآخرين فقد ظل ينظر عبر رؤوس القوزاق بازدراء بعينيه السوداوين والحولاوين بعض الشيء وقد أطبق شفتيه المتشققتين . كان مكتنز الجسم عريض المنكبين ، تعلو شعره الأسود الذي يحاكي بخشونته عرف الفرس ، قبعة بالية لا بد أنه احتفظ بها من أيام الحرب الألمانية . كان واقفاً في وضع الاستراحة وأصابعه السوداء الغليظة ، التي يكسو أظافرها دم متيبس ، تعبث بياقة قميصه المفتوح وجوزة عنقه المشعرة . كان بادي الهدوء تماماً ، سوى أن إحدى ساقيه ، التي تخلفت عن الأخرى بعض الشيء ، كانت ترتعش . وقد بدت هائلة الحجم بلفافها الذي يبلغ الركبة .

أما الآخرون فقد علاهم الشحوب ، ولم يكن في سيمائهم ما يتميزون به . وكان وحده يستلفت النظر باتساع منكبيه القويين ، وبوجهه التتري المتسم بالحيوية . ولعل ذلك جعل آمر البطارية يتوجه إليه بالسؤال :

ـ من أنت ؟

فلاح ضوء في عيني الرجل ، الشبيهتين بقطعتين من فحم الأنثرسيت ، ثم انتصب في وقفته على نحو رشيق لا يكاد يحس به أحد :

ـ جندي من الحرس الأحمر . روسي .

ـ أين ولدت ؟

ـ في اقليم بيتزا .

ـ أمتطوع أنت ، يا ثعبان ؟

ـ كلا . كنت نائب ضابط أقدم في الجيش السابق ، ثم وجدت نفسي في الحرس الأحمر عام ١٩١٧ ، وبقيت معهم منذ ذلك الحين...

وتدخل أحد الحرس المرافقين للأسرى فأخبر الضابط قائلاً :

ـ هذا الخنزير أطلق علينا النار!

ـ أطلق النار ؟ ـ وتجهم وجه الرئيس غاضباً ، وحين التقت عيناه بنظرة غريغوري الواقف تجاهه ، أشار إلى الأسير بعينيه ، وأردف : ـ يا لله !... أطلقت النار على القوزاق ، أليس كذلك ؟ ألم يخطر ببالك أنك قد تقع في الأسر ؟ لنفرض أننا سوينا الحساب معك هنا في الحال ؟

فارتعشت شفتا الرجل المتشققتان بابتسامة استرحام وهو يقول :

ـ أردت أن ادافع عن نفسي...

ـ يا لك من نموذج رائع! ولماذا لم تفعل ذلك ؟

ـ استنفدت كل طلقاتي...

ـ آها!

أصبحت عينا الرئيس باردتين ، ولكنه راح يحدق في الجندي بارتياح جلي . ثم أجال عينيه بالآخرين وسألهم بنبرة مغايرة تماماً :

ـ وأنتم ، يا أولاد العاهرات ، من أين أنتم!

فأعول شاب طويل العنق ، وراحت عيناه تطرفان وهو يحك شعره الذي يشبه اللهب ويقول :

ـ جندونا ، يا صاحب السعادة... نحن من ساراتوف ، من بالاشوف .

تفحص غريغوري بفضول وألم أولئك الفتيان بسحناتهم الريفية الساذجة ومظهرهم الذي يدل بوضوح على أنهم مشاة مكلفون ، ولم يثر شعور العداء فيه سوى الرجل ذي الشعر الأسود . فخاطبه بازدراء وغضب ، قائلاً :

ـ بِمَ اعترفت ؟ أحسبك كنت تقود سرية من الحمر ، أليس كذلك ؟ آمر ؟ وشيوعي ؟ تقول انك استنفدت كل رصاصك ؟ حسناً ، لنفرض أننا قطعناك بالسيوف في الحال ؟ ما قولك في هذا ؟

فاختلج منخرا أنفه المتشقق بالزناد وأجاب بجسارة مضاعفة :

ـ لم أقل ذلك شيطنة مني . علام أخفي الأمر ؟ فلو أني أطلقت النار عليهم لوجب عليَّ الاعتراف بذلك . أليس كذلك ؟ أما عن بقية... قطعوني بالسيوف ، اذا شئتم . أنا لا أتوقع رحمة منكم . ـ ثم ابتسم ثانية ، وأردف : ـ تلك هي مهمة القوزاق .

فعلت ابتسامات الرضى وجوه من حوله . أما غريغوري فقد أشاح عنه بوجهه شاعراً بالرضى من نبرة الجندي المتئدة ، وشاهد الأسرى يذهبون إلى البئر لشرب الماء . وفي تلك الأثناء جاءت سرية من القوزاق المناوشين من وراء العطفة وقد انتظموا أرتالاً .

٩

وبعد هذه الفترة صار غريغوري يلتقي بالعدو على الدوام اذ كانت كتيبته تخوض غمار قتال مستديم وقد التحمت جبهة القتال في خط موصول بعد أن كانت أشبه بستار مهلهل . وعند التماس المباشر بالعدو ، كان

يتملكه ذلك الشعور الحاد بالفضول الهائل الذي لا يشفى غليله إزاء جنود الحرس الأحمر ، إزاء أولئك الروس الذين بات عليه أن يقاتلهم ، ولكن لا يعلم إلا الله لماذا . لكأنه ما يزال نهباً لذلك الشعور الصبياني الساذج الذي تملكه في مطلع الحرب الألمانية يوم التقى بالقوات النمساوية الهنغارية للمرة الأولى . «ترى أي ضرب من الرجال هم» ؟ لكأن حياته لم تشهد فترة قاتل فيها جنباً لجنب مع الحمر ضد مفرزة تشيرنتسوف في غلوبوكايا . بيد أنه كان وقتئذ يعرف سيماء الأعداء معرفة تامة : فجلهم قوزاق من ضباط الدون . أما الآن فهو يواجه مشكلة الجنود الروس ، رجال يختلفون عن أولئك كل الاختلاف ، إنهم حشد حاشد من الرجال الذين يؤيدون الحكم السوفييتي ، ويحاربون حسب ظنه ، من أجل الاستيلاء على أراضي القوزاق وممتلكاتهم .

وذات مرة ، في غمرة المعارك كاد أن يلتقي ثانية بالحرس الأحمر وجهاً لوجه ، ففيما كان في دورية مع رعيل خيالة يسير في باطن أحد الوديان سمع على حين غرة شتائم بالروسية ووقع أقدام . ثم جاء بضعة من رجال الحرس الأحمر ، وبينهم صيني ، يتراكضون إلى شفا الوادي فصعقوا لمرأى القوزاق . ووقفوا لبرهة متدوهين .

فصرخ أحدهم بصوت مرعوب : «قوزاق!» ثم ألقى بنفسه على الأرض . وأطلق الصيني رصاصة ، ثم صاح الجندي المنبطح وهو يتأتئ بصوت حاد ناشج :

ـ يا رفاق! أجلبوا رشاش المكسيم!

إنهم قوزاق! فأردى ميتكا كورشونوف الصيني أرضاً بطلقة من مسدسه ، ثم استدار بحصانه وكان أول الهاذبين على امتداد الوادي ، وما لبث الآخرون أن هبوا وراءه ، وكل يحاول استباق الآخر . ودوت خلفهم لعلعة الرشاش العميقة ، فراح الرصاص يئز خلال أوراق العليق والزعرور البري النابت على جانبي الوادي ، ويهرش قاعه الصخرية .

والتقى بالحمر وجهاً لوجه في مناسبات أخرى وشاهد رصاص القوزاق يمزق الأرض تحت أقدامهم ، ورآهم يتساقطون لينزفوا آخر قطرة من دمائهم على هذه التربة المعطاء الغريبة عنهم .

... ورويداً رويداً راحت الكراهية للبلاشفة تملأ قلب غريغوري . ولقد ولجوا حياته كأعداء ، وانتزعوه من الأرض انتزاعاً! ولاحظ أن القوزاق الآخرين يمتلكهم الشعور ذاته . فقد خيل إليهم جميعاً أنه لو لم يغز البلاشفة إقليم الدون لما نشبت هذه الحرب على الإطلاق . وكلما رأى رجل منهم حزم القمح التي لم تجمع ، والحبوب غير المحصودة يدوسها حصانه بحوافره ، وساحات درس الحبوب الخالية ، تعود به الذاكرة إلى أرضه هو حيث تكدح نسوة بيته كدحاً لا قبل لهن به ، فيشتد قلبه قسوة وضراوة . وكان غريغوري يعتقد أحياناً أن قلوب أعدائه ، فلاحي تامبوف وريازان وساراتوف ، لا بد أن تنبض بهذا الحب الموهوب للأرض ، فيقول في دخيلته : «ها نحن نتنازع عليها وكأنها امرأة حسناء» .

تناقص عدد الأسرى . وتكاثرت حالات الإعدام الجماعي الذي كان ينفذ في الحال . وطغت على الجبهة موجة من السلب والنهب . فراح القوزاق يسلبون عوائل الحرس الأحمر ومن يشتبه فيهم العطف على البلشفية ، وكان الأسرى يعرون من ملابسهم .

راحوا ينهبون كل شيء ، من الخيل والعربات ، إلى الحاجيات المنزلية الثقيلة التي لا يرجى منها خير يذكر ، ولم يكن الضباط ليختلفوا عن القوزاق الجنود في ذلك ، فكلهم في النهب سواء . وحملت قوافل الشحن بالغنائم : بالثياب ، والسماورات ، ومكائن الخياطة ، وعدد الخيل ، وبكل شيء ذي فائدة تذكر . وراحت الحاجيات تتدفق من قوافل الشحن إلى أهاليهم في سيل لا ينقطع . وكان الأقرباء يأتون إلى الجبهة ، يجلبون العتاد والمؤونة عن طيب خاطر ، ثم يحملون عرباتهم بالأسلاب . وكانت كتائب الخيالة ، وهي أكثرية الجيش ، تبز غيرها ولا يردعها في ذلك رادع . فلم يكن عند المشاة

ما يحملون عليه الأسلاب ، أما الخيالة فبوسعهم أن يعبئوا خروج جيادهم ، ويحملوا الأسلاب على سروجهم ، فيشدوا خلفهم من الصرر ما يجعل خيلهم تبدو أشبه منظراً ببغال التحميل منها بجياد القتال . لقد أطلق القوزاق لأنفسهم كل العنان . كان السلب في الحروب جانباً أساسياً في سلوكهم . وكان غريغوري على بينة تامة من ذلك ، سواء من أقاصيص الحروب السابقة ، أو من تجاربه هو . فحتى في الحرب الألمانية ، يوم كانت كتيبته تجوب بروسيا ، فقد أشار آمر اللواء ، وكان جنرالاً شريفاً محترماً ، بسوطه إلى بلدة صغيرة تقع في سفح التلال ، وقال للكتيبة :

ـ اذا استوليتم على البلدة فإنها ستكون تحت تصرفكم مدة ساعتين ، ولكن من يقبض عليه متلبساً بالنهب بعد انقضاء الساعتين يعدم رمياً بالرصاص!

على أن غريغوري لم يعتد السلوك على هذا النحو أبداً . كان لا يأخذ إلا الطعام لنفسه ولحصانه ويرفض أن يلمس أي شيء آخر ، فكانت نفسه تعاف النهب ، ويزداد نفوره حين يعمد قوزاقه إلى النهب . فشدد النكير على سريته . فلو حدث أن عمد أي من رجاله إلى السلب فلم يكن ذلك يحدث إلا خفية وفي أحوال نادرة . كان لا يأمر بتجريد الأسرى من ثيابهم ولا بالإجهاز عليهم . وقد أثارت رقة قلبه غير المألوفة السخط لدى القوزاق ولدى قيادة الكتيبة ، فاستدعي إلى رئاسة أركان الفرقة ليقدم إيضاحاً عن سلوكه . وصرخ ضابط من ضباط الأركان فيه بفظاظة :

ـ أيها نائب الضابط ، علام تفسد سريتك ؟ ما هذا التساهل من عندك ؟ أتراك تعد لنفسك فراشاً وثيراً في حالة انقلاب الأحوال ؟ أتلعب على الحبلين بسبب ماضي أيامك ؟ صه ، لا تجادل! ألا تعرف أصول الضبط ؟ ماذا ؟ نستبدلك ؟ سوف نفعل ذلك! سوف أصدر الأمر إليك بتسليم سريتك هذا اليوم بالذات ، وإياك أن تتذمر ، يا فتى!

وفي نهاية الشهر احتلت كتيبة غريغوري ، وسرية من كتيبة يلانسكايا الثالثة والثلاثين قرية غريماتشي لوغ .

كان الوادي يعج بأشجار الصفصاف والدردار والحور ، وعلى المنحدر القريب كان ثمة عشرون أو ثلاثون كوخاً بيض الجدران متباعدة تحف بها أسيجة واطئة من الحجر المصقول . وتقوم على قمة التل المطل على القرية طاحونة هوائية قديمة تعبث فيها الرياح كلما هبت . وبدت أذرعها المقيدة أشبه بصليب معوج داكن إزاء غيمة بيضاء منفوشة كانت تلامس ذروة التل . كان النهار ماطراً يكتنفه الضباب ، وقد علا حفيف أوراق الشجر وهي تتساقط في الأخدود مثل رذاذ من الثلج الأصفر . وراح الصفصاف الأزغب يرسل وهجاً قانياً . وعلت ساحات درس الحبوب أكداس عالية من القش المتلامع . لقد نثر الشتاء المقبل لحافه الوثير على الأرض العطرة .

ونزل غريغوري في البيت المخصص له ولقوزاقه ، وكان يومذاك آمر رعيل . وتبين لهم أن رب البيت قد تراجع مع الحمر ، فراحت الأم الكهلة وابنتها التي لم تبلغ العشرين تقومان على خدمتهم وهما صاغرتان . ودخل غريغوري غرفة الاستقبال وأجال فيها عينيه ، فبدا له جلياً أن أهل البيت كانوا يحيون في بحبوحة من العيش ، فأرضية الغرفة مطلية بالدهان ، ولديهم كراسي من الخشب المثني على الطراز النمساوي ، وثمة مرآة ، والتصاوير المألوفة على الجدار ، وشهادة مدرسية بإطار أسود . وعلق غريغوري مشمعه الندي عند الموقد لكي يجف ثم لف له سيكارة . ودخل بروخور زيكوف ، ووضع بندقيته إزاء السرير ، ثم قال له بدون اكتراث :

ـ جاءت عربات من تتارسكي ، وأبوك معها ، غريغوري بانتلاييفتش!

ـ هل من أكاذيب أخرى كهذه ؟

ـ إنها الحقيقة ، هناك ست عربات من قريتنا ، اذهب واستقبلهم .

فارتدى غريغوري معطفه وخرج ، فرأى أباه يقود حصانه خلل بوابة الفناء ، وقد جلست داريا في العربة ماسكة بالأعنة . متدثرة بمعطف من نسيج محلي . ولاحت لغريغوري ابتسامة ندية وعينان ضاحكتان من تحت قلنسوة معطفها المبتلة .

فصاح غريغوري وهو يبتسم لوالده :
ـ ما الذي جاء بكما إلى هنا ؟
ـ آه ، يا ولدي ، جميل أن نراك حياً . جئنا لزيارتك ضيفين متطفلين...
عانق غريغوري منكبي والده العريضين وشرع في حل أحزمة العربة .
ـ أظن اننا جئنا على غير انتظار ، أليس كذلك ؟
ـ بالطبع!...
وفيما كانا يحلان الحصانين تبادلا حديثاً متقطعاً . قال له أبوه :
ـ جلبنا لكم الذخيرة لكي تواصلوا القتال بها .
أما داريا فقد أخرجت من العربة طعاماً وشيئاً من الشوفان للحصانين .
فسألها غريغوري :
ـ وعلام جئت أنت أيضاً ؟
ـ رافقت أبي . لم تكن صحته على ما يرام . وقد خشيت أمي أن يحدث له شيء وهو وحيد في ديار غريبة .
ورمى بانتلاي بروكوفتش حزمة من القش الأخضر إلى الحصانين ، ثم دنا من غريغوري وسأله في همس أبح ، وقد اتسعت بقلق عيناه السوداوان ببياضهما المرضي المحمر :
ـ حسناً ، وكيف تسير الأمور ؟
ـ آه ، على ما يرام . ما زلنا نقاتل .
ـ سمعت حكاية تفيد أن القوزاق لا يريدون تخطي حدود الاقليم... أصحيح هذا ؟
فأجابه غريغوري مراوغاً :
ـ ليست هذه إلا أقاويل...
فقال الشيخ بنبرة قلقة فيها شيء من الارتباك :
ـ ماذا تعني بذلك ، يا ولدي ؟ ليس بوسعكم أن تستمروا على هذا المنوال... فنحن معشر الشيوخ نأمل... من سواكم يذود عن أبينا الدون ؟ اذا

لم ترغبوا في القتال ، لا سمح الله... أخبرني رجالك... أنهم يبثون الشائعات ، أبناء العاهرات!...

ودلفا إلى البيت ، فالتم القوزاق لسماع أخبار القرية ، ثم فتحت داريا كيساً من الطعام وشرعت تعد العشاء بعد أن عقدت مع ربة البيت مشاورات هامسة .

وسأل بانتلاي بروكوفتش وهو يسرّح لحيته الشعثاء بمشط عظمي :

ـ بلغني أن رتبتك أنزلت من آمر سرية ؟

فأغاظ غريغوري أباه الشيخ اذ أجابه بلا مبالاة :

ـ أنا الآن آمر رعيل .

فلاحت الغضون فوق حاجبي بانتلاي بروكوفتش ، ومشى يظلع إلى المائدة ثم غمغم بالصلاة على عجل ، ومسح ملعقته بذيل معطفه ، ثم سأله بنبرة تنم عن مهانة :

ـ ولأي سبب كان ذلك ؟ ألم ترض رؤساءك ؟

فلم يجد غريغوري رغبة في خوض الموضوع بحضور القوزاق ، فهز كتفيه امتعاضاً ، وقال :

ـ أرسلوا الينا آمراً جديداً... متعلماً...

ـ مع ذلك ، أخدمهم ، يا بني! سيقدرونك حق قدرك عما قريب . تباً لهم ولتعليمهم! لقد حصلت أنت على تعليم حقيقي أثناء الحرب الألمانية ، تعليم يفوق ما لدى ضباطهم ذوي العوينات .

والواضح أن الشيخ كان ساخطاً ، بيد أن غريغوري عبس ونظر إلى القوزاق بزاوية عينه ليرى ما اذا كانوا يبتسمون .

لم يشعر غريغوري بأي استياء من تنزيل رتبته . لقد سلم سريته إلى خلفه عن طيب خاطر ، مدركاً أنه لم يعد يتحمل مسؤولية عن حياة رجال قريته . ومع ذلك فقد جرحت كرامته وسببت له كلمات أبيه كدراً لم يستطع كبحه .

دخلت ربة البيت إلى المطبخ ، فعاد بانتلاي بروكوفتش إلى الموضوع

الذي كان يقض مضجعه ، مستشفاً أمارات الرضى في وجه ابن قريته بوغاتيريف ، الذي جاء مع القافلة أيضاً . فوجه كلامه إلى جميع القوزاق الموجودين في الغرفة :

ـ اذاً ، صحيح أنكم لا تريدون المضي أبعد من الحدود ؟

وراح بروخور زيكوف يطرف بعينيه الوادعتين الشبيهتين بعيني العجل ويبتسم بهدوء . اما ميتكا كورشونوف الذي كان مقرضاً عند الموقد فقد جر آخر نفس من سيكارته حارقاً أطراف أصابعه ، وكان ثلاثة قوزاق آخرين بين جلوس ومتمددين على المصاطب ، بيد أن أحداً لم يجب على السؤال . فلوح بوغاتيريوف يده بمرارة ، وقال بصوت جهير عميق :

ـ لا يبدو عليهم أي اكتراث لأمور كهذه .

فسأل ايلين بتكاسل ، وكان رجلاً هادئ الطبع قليلاً :

ـ ولماذا ينبغي أن نتخطى الحدود ؟ لماذا ينبغي ذلك ؟ لقد ماتت زوجتي وخلفت لي أطفالاً يتامى ، أفينبغي ان أفقد حياتي بدون داع ؟

وأيده قوزاقي آخر فقال بعزم :

ـ سنطردهم من أراضي القوزاق ، ثم نعود إلى أهلينا!

وابتسم ميتكا كورشونوف بعينيه الخضراوين فقط وفتل شاربه النحيف وأعلن :

ـ بوسعي أن أمضي في القتال خمسة اعوام أخرى! فإنني أحبه .

وفي تلك اللحظة علت صيحة في الفناء :

ـ اخرجوا! إلى الخيل!

وقال ايليين بنبرة يائسة :

ـ ها ، هذا شاهد على ما قلت! ها نحن أولاء لم تجف ملابسنا من المطر بعد ، وهم يصيحون : «إلى الخيل!» هذا يعني الذهاب إلى مواقعنا ثانية ، وأنت تتحدث عن الحدود . أي حدود ؟ ينبغي لنا أن نعود إلى أهلينا . ويجب أن نسعى إلى إحلال السلام ، وأنت تتحدث...

وظهر أن الإنذار لم يكن له داع . فقاد غريغوري حصانه عائداً إلى الفناء ، وراح يركل الحصان على كفله لغير ما سبب ، ويزمجر :

ـ سر باستقامة ، ايها الشيطان!

وحين كان القوزاق يدخلون سألهم بانتلاي بروكوفتش وهو واقف يدخن عند الباب :

ـ ما سبب الإنذار ؟

ـ إنذار!... حسبوا قطيعاً من البقر جنوداً حمراً!

وخلع غريغوري معطفه وجلس إلى المائدة ، ورمى القوزاق الآخرون سيوفهم ، وبنادقهم ، وأكياس رصاصهم ، على المصاطب وهم يتنحنحون . وحين استلقى الآخرون ليناموا استدعى بانتلاي بروكوفتش غريغوري إلى الفناء . وجلسا على الدرجات . فربت الشيخ على ركبة غريغوري وهمس قائلاً :

ـ اريد ان اتحدث اليك . ذهبت لزيارة بيوتر قبل اسبوع . وكان سعيي هناك مشكوراً ، يا بني ، فبيوتر لا يغفل عن البيت ابداً ، اعطاني شوالاً من الملابس ، وحصاناً ، وسكراً... حصاناً رائعاً .

فقاطعه غريغوري بحدة وقد احتدم غيظه اذ ادرك ما تهدف اليه كلمات الشيخ :

ـ مهلاً! أتراك جئت هنا لهذا الغرض ؟

ـ ولم لا ؟

ـ ما قصدك بلم لا ؟

ـ الآخرون يأخذون الحاجيات ، يا غريغوري...

فكرر غريغوري كلمات أبيه بغضب شديد ، وقد أعياه الكلام :

ـ الآخرون! يأخذون الحاجيات! أليس يكفيهم ما عندهم ؟ انكم شرذمة من الخنازير! كان الجنود يعدمون رمياً بالرصاص في الحرب الالمانية لعمل كهذا...

فقاطعه ابوه بجفاء :

ـ كفى! أنا لا أسألك شيئاً . فلست بحاجة الى شيء . فأنا اليوم على قيد الحياة ولكنني غداً سأرقد في القبر . قل لي من فضلك : أي غني أنت... ليس لديك سوى عربة صغيرة في الحقل ولكنك... لِمَ لا تأخذ الحاجيات من اولئك الذين انضموا إلى الحمر ؟ انها لخطيئة الا تفعل ذلك . ان كل قطعة وكل عصا تنفعنا في البيت...

فقال غريغوري وهو يرتجف ويلهث :

ـ لا تحدثني بذلك ، والا فسأطردك في الحال! لقد سلخت جلود بعض القوزاق لعمل كهذا ، والآن جاء أبي ليسلب الناس!

فسخر منه والده قائلاً :

ـ ولهذا انزلوا رتبتك من آمر سرية .

ـ اجل ، وسوف اتخلى عن الرعيل ايضاً .

ـ لم لا ؟ أنت شديد الذكاء...

ثم ران عليهما الصمت برهة . واذ أشعل غريغوري سيكارته لمح على ضوء الكبريت وجه ابيه وقد بدا عليه الغيظ والحرج . واذ ذاك فقط ادرك غريغوري سبب مجيء والده ، فقال في نفسه : «ولهذا السبب جلب داريا معه ، يا للشيطان العجوز! لتهتم بالأسلاب!» .

ثم قال بانتلاي بروكوفتش بلا اكتراث :

ـ ستيبان استاخوف عاد . هل بلغك ذلك ؟

فسقطت السيكارة من يد غريغوري وهو يقول :

ـ ماذا ؟

ـ الظاهر انه وقع في الاسر ولم يقتل رغم ما قيل ، وقد جاء محملاً بالمال والثياب ، صدق ذلك أو لا تصدقه! لقد جلب من ذلك عربتين محملتين . ـ كان الشيخ يكذب ويتباهى وكأن ستيبان قريب له ، واردف :ـ اعاد اكسينيا من ياغودنويه ، ثم رحل إلى الجيش . اوكلوا اليه عملاً مرموقاً ، فهو الآن قومندان منطقة في كازانسكايا ، أو غيرها .

وادار غريغوري دفة الحديث إلى وجهة أخرى ، فقال :
ـ كيف كانت حصيلة درس الحبوب ؟
ـ اربعمائة بوشل .
ـ كيف صحة حفيديك ؟
ـ أوهو ، انهما رائعان ، يا بني! ينبغي ان ترسل لهما هدية .
فتنهد غريغوري اذ قال :
ـ أرسل لهما هدايا من جبهة القتال! ـ اما افكاره فقد شغلت باكسينيا وستيبان .
ـ أليس عندك بندقية زائدة ؟
ـ ما حاجتك بها ؟
ـ للبيت . لنطرد بها السوائم المتطفلين . فقد تدعونا الحاجة اليها . وعندي من الخراطيش صندوق بأكمله أخذته فيما كنت أحمل العتاد في عربتي .
فندت عن غريغوري ابتسامة غائمة وقال :
ـ خذ بندقية من العربة . لدينا الكثير من هدايا كهذه حسناً ، اذهب الآن ونم . عليّ ان اتفقد المواقع .
وفي صبيحة اليوم التالي نقل من القرية جزء من الكتيبة ومن ضمنه سرية غريغوري . فرحل وهو على ثقة من انه قد أشعر اباه بالخزي ، وان الشيخ سيرجع خاوي الوفاض . على ان بانتلاي بروكوفتش حين فرغ من وداع القوزاق دخل المخزن وكأنه في بيته ، فانزل اطواقاً وعدة خيل من مشاجبها ثم حملها إلى عربته . فلحقته ربة البيت وهي تتشبث بكتفيه وتصيح باكية :
ـ يا سيدي العزيز ، الا تخشى ارتكاب خطيئة كهذه ؟ لمَ تسيء إلى أيتام ؟ أعد إليّ الاطواق . أعطني اياها كرامة لحب الله .
فدفعها بانتلاي بروكوفتش عنه ، قائلاً :

ـ مهلاً ، مهلاً ، اتركي الله جانباً . أظن أن أزواجكن أيضاً سيأخذون الحاجيات من عندنا . فأنا أعرف قوميسارييكم! ان اموالك هي أموالي فاخرسي ولا تشتكي .

ثم كسر أقفال الصناديق ، والآخرون يراقبونه باستحسان صامت ، وانتقى سراويل ومعاطف جديدة ، ورفعها إلى الضوء ، وتلمسها بيديه السوداوين الخشنتين ، ثم شدها على هيئة صرة...

وعند الظهر تأهب وداريا لرحلة الاياب . فجلست داريا مطبقة شفتيها الرقيقتين فوق الصرر التي تكدست في العربة ، وقد علا خلفها مرجل انتزعه بانتلاي بروكوفتش من موضعه في الحمام ، وحمله بشق النفس إلى العربة ، وحين لامته داريا قائلة : «أنت لن تترك حتى غائطك ، يا أبتي!» رد عليها غاضباً : «أيتها المتعجرفة! أترك لهم هذا المرجل ؟ ما أشبهك ، ربة بيت حريصة ، بغريغوري ، يا فاجرة! هذا المرجل يعجبني ، فلا تفتحي فمك» .

وحين كانت ربة البيت الباكية تغلق البوابة وراءهما ، قال لها بأريحية :

ـ وداعاً ، أيتها المرأة . لا تغضبي . سوف تحصلين على غيرها عما قريب .

١٠

توالت الأيام سلسلة مترابطة الحلقات ، بين مسيرة ، وقتال ، واستراحة ، تنوء تحت وطأة الحر والمطر ، مفعمة برائحة عرق الخيل وجلد السروج الحامية... وغدا الدم في العروق كزئبق حار من فرط ارهاق لا ينقطع . وبات الرأس من فرط السهاد ، أثقل من قذيفة من عيار ست بوصات . واستبدت بغريغوري اللهفة إلى الراحة ، والى الرقاد ، ومن ثم إلى السير على شقوق الأرض الهشة غب مرور سكة المحراث عليها ، يستحث الثيران بالصفير ، ويتسمع نداء الكراكي الرخيم ، ويمسح عن خديه ريق الشمس المتطاير في الهواء ، ويرشف عبير التربة المحروثة المثمل .

ولكن عينه لم تقع الا على قمح تمزقه مسالك أشبه بحد السكين ، تعج بحشود من أسرى عراة باتوا من وعثاء الطريق أشبه بالجثث السود . وكانت السرايا تهرس الدروب ، وتدرس القمح بسنابك خيلها المنعلة بالحديد . أما في القرى فالهواة يفتشون بيوت المنسحبين مع الحمر ويجلدون نساءهم وأمهاتهم بالسياط...

ومضت الأيام غاصة بالسأم تجرجر خطاها ، ثم ما لبثت أن تلاشت من الذاكرة ، ولم تترك أحداثها ، حتى الهامة منها ، اي أثر وراءها . وبدت أيام هذه الحرب أشد كآبة منها في الحرب الألمانية ، ولعل مرد ذلك أنهم كانوا يعرفون كل شيء مسبقاً . كان جميع المشتركين في الحرب السابقة ينظرون باستخفاف إلى هذه الحرب : اذ بدت لعينهم ضيقة الأفق بمداها وقواها وخسائرها مقارنة بالحرب الألمانية ، لكن الموت وحده أبى أن ينزل من عليائه المهيبة ، شأنه في حقول بروسيا ، فراح يبعث الرعب في نفوسهم ، ويفرض عليهم تشبثاً حيوانياً بالحياة .

كان رجال خط الجبهة يقولون :

ـ أهذه حرب ؟ بل تمثيل . ففي الحرب الالمانية كانت الكتائب تباد عن بكرة أبيها تحت نيران المدافع الألمانية ، وها نحن أولاء نتحدث عن الخسائر كلما جرح رجلان في احدى السرايا .

ولكن حتى هذا اللعب بالحرب كان يثير في نفوسهم الغيظ . وتفاقم فيهم السخط والكلال والغيظ ، فكان القوزاق في سرية غريغوري يقولون بلجاجة متزايدة :

ـ سنطرد الحمر من اقليمنا ، وكفى . لن نذهب أبعد من ذلك . دع روسيا تدبر شؤونها بنفسها ، وسوف ندبر نحن شؤوننا . ولن نفرض عليهم نظامنا .

ودارت طوال الخريف حرب متثاقلة كسول . اذ كانت تسارتسين أهم مركز استراتيجي ، فقد قذف كل من الحمر والبيض خيرة قواتهما في

اتجاهها . وبنتيجة ذلك لم يكن لأي من الطرفين الباع الأطول في الجبهة الشمالية ، فراح كل منهما يحشد قواته تمهيداً للقيام بهجوم حاسم . وكان لدى القوزاق قوات كثيرة من الفرسان ، وقد استفادوا من تفوقهم في هذا المضمار ، فعمدوا إلى القيام بعمليات حربية موحدة ، وبحركات التفاف ، وهجمات على مؤخرة العدو . ولكن الغلبة لم تكن بجانب القوزاق الا حين تجابههم فرق مضعضعة الهمم قوامها جنود حمر مستجدّون من أهل المناطق الواقعة وراء الجبهة مباشرة . فكان رجال ساراتوف وتامبوف يستسلمون بالآلاف ، ولكن ما ان تدفع القيادة الحمراء بكتيبة من العمال أو بقوة من البحارة إلى المعركة حتى يتغير الوضع ، فلا يحتفظ أي من الطرفين بزمام المبادرة في يده ، ولا يحرز سوى انتصارات ذات أهمية موضعية .

وكان غريغوري يراقب مجرى القتال بغير اكتراث رغم اشتراكة فيه . وكان واثقاً أن الامر سينتهي حين يحل الشتاء ، وهو على علم بجنوح القوزاق إلى السلم ، وبأن التفكير بقتال طويل الأمد عبث لا طائل تحته . وكانت الصحف تصل الكتيبة بين آن وآخر ، وحين تصل واحدة يلتقط غريغوري بشعور من الكراهية الصحيفة المطبوعة على ورق التغليف الأصفر ، ويصر بأسنانه وهو يلقي نظرة سريعة على البلاغات الحربية . وكان القوزاق من حوله يقهقهون طرباً اذ يقرأ عليهم الكلمات الطنانة الزاخرة بتفاؤل كاذب :

٢٧ ايلول : يدور القتال على قطاع فيلونوف بنجاح متفاوت . ففي ليلة ٢٦ طردت كتيبة فيشنسكايا البارعة العدو من بودغورنايا ، وتابعت هذا النصر فدخلت لوغانوفسك . وقد استولت على غنائم كثيرة وأسرت عددا هائلا من الأسرى . وتتراجع مفارز الحمر بدون نظام ويتمتع القوزاق بمنعويات رائعة . ان رجال الدون مقبلون على انتصارات جديدة .

راح ميتكا يهتز من الضحك ، وهو يضغط راحتي يديه الطويلتين على جنبيه ، وقد فغر فاه عن أسنان بيض .

ـ كم أسرنا ؟ أعداداً هائلة ؟ ها... ها! يا لأبناء العواهر! أسرنا اثنين وثلاثين رجلاً بالضبط . وهم يقولون...

ولم يصدق القوزاق الأخبار التي وردتهم عن انتصارات الكاديت في سيبريا والكوبان . كانت الصحف تكذب دونما رادع أو حياء . وقد قرأ قوزاقي فارع القامة ذو يدين كبيرتين من رعيل غريغوري مقالة عن التمرد التشيكوسلوفاكي فأعلن على مسمع من غريغوري :

ـ سيقضي الحمر على التشيكيين ، ثم ينقلبون علينا بجيشهم كله ، فيهصروننا حتى نغدو هلاماً ، ـ ثم اختتم قوله بنبرة كئيبة : ـ انها روسيا! وليس في الأمر مزاح!

فقال بروخور زيكوف :

ـ لا تحاول بث الرعب فينا! ان أقوالك المخبولة تثير في الغثيان .

ولكن غريغوري قال في سريرته ، بهدوء ومرارة ، فيما كان يلف لنفسه سيكارة : «انه على حق!» .

ومساء ذلك اليوم لبث وقتاً طويلاً ، جالساً إلى طاولته ، مهموماً محدودباً ، وياقة قميصه الحائل اللون مفتوحة الأزرار . وكان ثمة تعبير قاس على محياه الملفوح ، واكتسب وجنتاه امتلاء لا ينم عن صحة ومعافاة . وراح يشرئب بعنقه الأسمر العضل ، ويفتل ذؤابة شاربه التي حال لونها من الشمس ، مستغرقاً في التفكير ، مسمراً في الجدار عينيه اللتين أمستا باهتتين قاسيتين في الأيام الأخيرة . كان يفكر بامان ، وبمشقة لا عهد له بها ، وفيما كان يستلقي للنوم ، قال وكأنه يجيب على سؤال يشغل بال الجميع :

ـ ليس هناك مفر .

ولم يذق طعم النوم طوال تلك الليلة . وقد خرج مراراً وتكراراً ليلقي على الخيل نظرة ، وليقف على درجات العتبة طويلاً ، مصغياً إلى همس السكون الرائق .

* * *

يبدو أن نجم غريغوري كان ما يزال يشع وميضاً هادئاً راعشاً . فلا بد أن الأوان لم يحن بعد لكي يحطم هذا النجم قيوده ويطير عبر السماء فيلفحها بوهجه البارد الآفل . فقد قتل خلال ذلك الخريف ثلاثة جياد من تحت غريغوري . وثقب معطفه في خمسة مواضع . ويبدو أن المنية كانت تعابثه وترفرف فوق رأسه بجناحها الأسود . وذات يوم نفذت رصاصات في مقبض سيفه النحاسي وسقطت عقدة السيف عند أقدام جواده وكأن أحداً قد قضمها .

فقال له ميتكا كورشونوف : ـ لا بد أن هناك من يصلي من أجلك بلا انقطاع يا غريغوري . ـ ودهش اذ رأى غريغوري يبتسم ابتسامة كالحة .

تعدّت الجبهة خط السكة الحديد . وكانت عربات الشحن تأتي كل يوم ببكرات ضخمة من الأسلاك الشائكة . وفي كل يوم تحمل أسلاك التلغراف هذه الكلمات على امتداد الجبهة :

«بات وصول جيوش الحلفاء وشيكا . فلا بد أن تعزز المواقع على حدود الاقليم ريثما تصل الامدادات ، فينبغي أن نقاوم ضغط الحمر مهما كلف الثمن» .

كان أهالي المنطقة ، الذين جندوا للعمل يضربون الأرض المتجمدة بالمعاول فيحفرون الخنادق ويحصنونها بشباك من الأسلاك الشائكة . ولكن ما ان يحل الليل ، ويترك القوزاق خنادقهم ليلوذوا بالقرى طلباً للدفء حتى تزحف جماعات من طلائع الحرس الأحمر إلى خنادق القوزاق فتحطم تحصيناتها وتعلق نداءات مطبوعة على أعمدة الأسلاك الشائكة الصدئة . فيقرأها القوزاق بنهم وكأنها رسائل من أهليهم . وبدا جليا أن مواصلة القتال في ظروف مثل هذه أمر لا طائل تحته . ثم حل موسم الصقيع ، تتخلله فترات من ذوبان التلج وتهاطله بمقادير هائلة . فامتلأت الخنادق بالثلج ، وبات من المتعذر أن يرقد المرء فيها ساعة واحدة . وتجمدت أوصال القوزاق ، وأصابت أقدامهم وأيديهم لسعة الجليد . وأمسى الكثير من جند المشاة

ومفارز المناوشات القوزاقية دونما جزمات ، وكان آخرون قد خرجوا إلى الجبهة بصنادل وسراويل صيفية فقط وكأنهم خارجون إلى أفنية حقولهم . ولم يكن الحلفاء موضع ثقتهم ، وذات يوم قال آندريي كاشولين بمرارة : «لا بد أنهم قادمون إلي هنا على ظهور الخنافس» .

وحين كان القوزاق يحتكون بدوريات الحمر كانوا يسمعونهم يصيحون :

ـ يا من هنا ، أنتم يا عبدة المسيح! ألم تحصلوا على دباباتكم بعد ؟ سنأتيكم على الزحافات ، فاستعدوا للهرب!

وفي أواسط تشرين الثاني بدأ الحمر هجومهم ، فواصلوا الضغط بعناد وحملوا فرق القوزاق على التقهقر الى خط السكة الحديد غير ان التغير الجذري في القتال جرى فيما بعد . وفي ١٦ كانون الأول أحاقت الخيالة الحمراء بكتيبة القوزاق الثالثة والثلاثين بعد قتال طويل ، أما في القطاع الذي كانت كتيبة فيشنسكايا تذود عنه فقد جوبه الحمر بمقاومة مستمية ، فراحت رشاشات الكتيبة تستقبل مشاة العدو من وراء أسيجة الأفنية التي يعلوها الثلج ، بسيل جارف من الرصاص . واذ كان المندفع الرشاش يمطر من الميمنة وابلاً من الموت ، أرسلت من المسيرة سريتان للقيام بحركة التفاف .

ووشيك المساء استبدلت قوات الجيش الأحمر التي كانت تزحف زحفاً واهناً بقوة من البحارة وصلت الجبهة حديثاً . فتدفق سيلهم في هجوم صامت على المدافع الرشاشة ، دون أن ينبطحوا أو يهتفوا .

وراح غريغوري يطلق النار دون توقف ، حتى غدت ماسورة بندقيته حارة كالجمر . فاكتوت يداه . ثم برّد البندقية ، ودفع الخراطيش فيها كرة ثانية ، وصوبها بعينين مخاوصتين إلى الهياكل السود الصغيرة البادية عن بعد .

واقتحم البحارة تحصينات القوزاق . فهرعت السرايا إلى الخيل ولاذت بالفرار هذباً عبر القرية إلى الربوة التي وراءها . واذ التفت غريغوري إلى

الوراء سقط من يده العنان دون ارادته ، فمن على سفح التل استطاع أن يرى السهب الحزين وقد جلله الثلج ، وانتشرت في أرجائه رواب صغيرة لشجيرات تكللها الثلوج ، وترامت على مدى وهاده ظلال المساء الليلكية . وكانت جثث البحارة الذين حصدتهم نيران الرشاشات ترقد على امتداده فرسخ بأكمله ، فبدوا بسترات البحرية ، والقمصلات الجلدية أشبه بالزيغان وقد حطت على الحقل...

وفي المساء توقفت السرايا المشتتة ، وقد فقدت صلتها بالكتائب على الجانبين ، لتمضي الليل في قريتين تقعان على جدول من روافد نهر بوزولوك .

وفيما كان غريغوري عائداً عند الغسق من الموقع حيث طلب اليه آمر سريته أن يضع الحرس ، صادف آمر الكتيبة ومرافقه . فسأله الآمر وهو يكبح حصانه :

ـ أين السرية الثالثة ؟

فأحاب غريغوري على سؤاله ومضى الضابطان في طريقهما .

وحين ابتعد بعض المسافة التفت المرافق وسأله : ـ هل كانت الخسائر فادحة في السرية ؟ ـ واذ لم يسمع جواب غريغوري أعاد سؤاله .

الا أن غريغوري مضى في طريقه غير آبه .

وطوال الليل راحت عربات الشحن تسير متثاقلة خلال القرية حيث أوت سرية غريغوري . توقفت بطارية مدفعية في الشارع وقتاً طويلاً ، فحل في كوخ غريغوري مدفعيون ومراسلو أركان ينشدون الدفء ولا يعلم الا الله كيف ظهروا في هذه القرية . وفي منتصف الليل اندفع ثلاثة مدفعيين إلى داخل الكوخ ، فأيقظوا أهل البيت والقوزاق . كان مدفعهم قد غرز في الجدول القريب من القرية ، فقرروا تركه هناك ريثما ينقضي الليل فيخرجونه بواسطة الثيران عند الصبح . استيقظ غريغوري وراح يحدق في المدفعيين وهم ينظفون جزمهم من الوحل اللزج ، ويخلعون ملابسهم ، وينشرون

جواربهم لتجف . وبعد ذلك بقليل جاء ضابط مدفعية ملطخ برشاش الوحل حتى أذنيه . فسأل ما اذا كان بوسعه أن يمضي الليل هنالك ، ثم خلع معطفه ووقف ينشر بقع الوحل على وجهه بكم قمصلته وقتاً طويلاً دون أن يبدو عليه أي اكتراث .

قال ، وهو يمعن النظر في غريغوري بعينين ذليلتين كعيني حصان كليل :

ـ خسرنا مدفعاً . فقد توصلوا إلى تحديد موقعنا بعد أن أطلقنا مرتين . وما ان بدأ قصف مدفع العدو حتى أصيب محور مدفعنا ، وكان منصوباً في ساحة لدرس الحبوب ، ولم يكن بالوسع اخفاؤه في موضع أفضل من ذلك... ـ كان يذيل كل عبارة بشتيمة معيبة دون أن يشعر بذلك تماماً . وأردف : ـ هل أنت من كتيبة فيشنسكايا ؟ هل تريد شيئاً من الشاي ؟ يا امرأة ، ما رأيك باعداد سماور لنا ، هاه ؟

وتبين أن الضابط جليس ثرثار يبعث في النفس الملل . وراح يشرب الشاي دونما كلل ، وفي غضون نصف ساعة علم غريغوري أنه من مواليد منطقة بلاتوفسكي وخريج المدرسة التانوية ، وأنه شارك في الحرب الألمانية ، وأنه تزوج مرتين زواجاً فاشلاً . قال وهو يلعق العرق من موضع شاربه الحليق بلسان أحمر طويل :

ـ هذه نهاية المطاف بالنسبة لجيش الدون! فالحرب قاربت نهايتها . غدا تتفكك الجبهة ، وما هما الا أسبوعان ونعود إلى نوفوتشيركاسك . أرادوا اجتياح روسيا بقوزاق حفاة! أليسوا مخابيل ؟ ثم ان ضباط القيادة كلهم أوغاد . أنت قوزاقي ، أليس كذلك ؟ هاه ؟ لقد أرادوا منك أن تخرج لهم البلوط من النار . أما في المؤخرة فهم ماضون في نهب برغل وغار في المخازن .

وراح يطرف بعينيه الباهتتين ، وقد مال بجرمه الثقيل على الطاولة ، وتهدلت زاويتا شفتيه بقنوط ، أما وجهه فهو مايزال يحتفظ بسيماء حصان ذليل منهك .

ـ في سالف الأيام كانت ثمة متعة في الحرب ، حتى أيام نابليون . يشتبك الجيشان ، فيتضاربان بعض الوقت ثم يفترقان . فلا جبهات ولا قبوع في الخنادق . ولكن حاول أن تفهم ما يجري هذا اليوم.. ان الشيطان ذاته عاجز عن ذلك! ربما كذب المؤرخون في ما كتبوا عن الحروب الأخرى ، ولكن ما كتبوه ليس شيئاً يذكر قياساً بما سيكتبونه عن هذه الحرب . انها ليست حربا بل الضجر بعينه ، لا لون لها! لا شيء غير الخوض في الوحل . جنون عموماً . أتدري ما بودي أن أقول للمتربعين في القمة ؟ سأقول : «هاك ، أيها السيد لينين ، اليك رئيس عرفاء دعه يعلمك كيف تستعمل البندقية . وأنت أيها السيد كراسنوف لا بد أنك تجيد ذلك» . ثم خلهما يقتتلان على الحكم كما اقتتل داود مع الغول* ، ثم ليتسلم الحكم من ينتصر منهما . فالشعب لا يهمه من الذي يتولى حكمه . ما رأيك يا نائب الضابط ؟

لم يجبه غريغوري ، بل راح يراقب ، والنعاس قد تملكه ، الحركات الثقيلة لمنكبي الرجل اللحيمين ، وذراعيه ، ولسانه الذي كان يخرجه من فمه ، باستمرار . كان يتوق إلى النوم ، فراح يضطرم في دخيلته غيظاً من هذا الضابط المتطفل الأبله ، الذي اثار في نفسه الغثيان من نتانة قدميه العرقتين .

استيقظ غريغوري في الصباح يمضه شعور بأنه ترك أمراً لم يسوه . فرغم انه كان يتوقع تلك التطورات منذ الخريف فانها افزعته بحدوثها الفجائي . فقد فاته ان يرى السخط من الحرب الذي يتسرب في اول الامر إلى صفوف السرايا والكتائب مثل مسارب صغيرة ، ما لبث ان التم بشكل خفي فتدفق معاً في طوفان جبار . ولم يعد الآن بوسعه ان يرى سوى ذلك الطوفان الذي طفق يكتسح الجبهة اكتساحاً عارماً نهماً .

ومثل خيّال يسير عبر السهب في الربيع الباكر ، يرى الشمس مشرقة ،

---

* يروي الانجيل ان داود تصارع مع الغول فقتله بصخرة رماها بمقلاع . المترجمون

وعلى مدى العين يترامى الثلج البنفسجي الذي لم تطأه قدم . اما تحت الثلج فثمة عمل أزلي خارق يجري دون ان تلحظه اعين البشر : فقد جعلت الاصفاد تتحطم عن الارض . فتأكل الشمس الثلوج ، تقضمها رويداً رويداً ، فتغمرها بالبلل من اسفلها ، ثم يرخي الليل سدوله متلفعاً بضباب رجراج ، وما ان يحل الصباح الا وقشرة الثلج آخذة بالهبوط فيتعالى هسيسها وهديرها ، ولا يلبث الماء الاخضر المنحدر من سفوح التلال ان يتدفق إلى الدروب والمسالك ، واذا بكتل ندية من الثلج تتطاير من تحت حوافر الجواد في كل اتجاه . ها قد حل الدفء وانجاب الثلج عن الروابي ، وشاعت رائحة بكر من التربة الطينية والعشب المتعفن وما ان ينتصف النهار حتى تهدر الوديان بالمياه ، وتعلو خشخشة الجليد المنزلق على الجروف المائلة ، وينبعث عن البقع الجرد من ارض الحقول السوداء المخملية بخار عبق . وما ان يهبط المساء حتى يقضم نهير السهب جليده وهو يئن ، ثم يدفع به حدر تياره الدافق مترعاً مليئاً كثدي ام شابة . ويقف الرجل على الضفة الرملية وقد اذهله رحيل الشتاء المباغت ، باحثاً عن موضع ضحل ، ضارباً بالسوط جواده المرتبك العرق . وفي هذه الأثناء يومض الثلج فيما حوله بزرقة بريئة خادعة ، ثم لا يلبث الشتاء الناعس ان يبسط سلطانه من جديد...

وراحت الكتيبة تتقهقر طوال اليوم التالي ، فكانت عربات الشحن تجري على امتداد الطريق . وتناهى إلى الاسماع هدير قصف المدافع من موضع ما إلى اليمين وراء الغيوم الرمادية التي تغشى الأفق . ومضت السرايا تخبط في الطريق التي ذاب عنها الثلج المختلط بالروث ، والخيل تنثر الثلج الندي وهو يبقبق تحت حوافرها ، فيما كان المراسلون يهذبون على جانب الطريق . وكانت الزيغان الصامتة ، وقد ارتدت حلة زاهية من ريش مائل للزرقة ، سمينة وخرقاء ، تنقل خطاها الثقيلة على مقربة من الطريق ، وكأنها فرسان راجلة ، تنظر بمهابة إلى الصفوف المتقهقرة من سرايا القوزاق ، والمناوشين ، وسيل العربات ، فبدت وكأنها تشهد عرضاً عسكرياً .

ادرك غريغوري ان أحداً لن يستطيع ان يضع حداً للتراجع الذي كان اشبه بنابض منطلق . وفي تلك الليلة فر من كتيبته بلا اذن وقد افعم بهجة لقراره ذلك .

واذ كان ميتكا كورشونوف يراقب غريغوري وهو يرتدي وقاء المطر فوق معطفه ويشد حزام السيف وقراب المسدس ، سأله باسماً :

ـ إلى أين ذاهب ، ياغريغوري ؟

ـ ولماذا تريد ان تعرف ؟

ـ من الفضول ، ليس غير .

فاختلج محيا غريغوري ، ولكنه اجاب بغمزة مرحة من عينيه :

ـ إلى ارض اسمها «لا تدس انفك في شؤون الآخرين» ، أفهمت ؟

ثم خرج .

كان حصانه واقفاً وهو مسرج ، فمضى يهذب فوق مسالك الحقول المتجمدة حتى مطلع الشمس . «سأبقى في البيت ، وحين يبلغني انهم يمرون بديارنا سيكون بوسعي الالتحاق بالكتيبة من جديد» . هذا ما عنّ له بشأن أولئك الذين كان بالأمس فقط يقاتل إلى جانبهم . وما ان هبط مساء اليوم التالي حتى دخل غريغوري حوش ابيه يقود جواده الذي انهكته وهدت قواه رحلة المائتي فرسخ .

١١

في نهاية تشرين الثاني ، شاع في نوفوتشيركاسك خبر وصول بعثة عسكرية من حلف (الانتينت)* وسرت في المدينة شائعات متواترة مفادها ان سرية قوية من البحرية البريطانية قد رست في ميناء نوفوروسيسك وان

---

* حلف بريطانيا وفرنسا وروسيا القيصرية في الحرب العالمية الأولى . المترجمون

قوات حليفة ضخمة منقولة من سالونيكا تنزل إلى البر ، وان فيلقاً من المغاربة التابعين للجيش الفرنسي قد نزل إلى البر بالفعل وانه سينضم إلى جيش المتطوعين لشن هجوم عام عما قريب . وراحت الشائعات تكبر شأن كرة من الثلج المتدحرج .

اصدر كراسنوف أوامره ان يستقبل البعثة حرس شرف من الحرس الاتماني الخاص ، وسرعان ما تزينت سريتان من الحرس الشباب بالجزم العالية وبمحافظ الرصاص البيض عبر صدورهم ، ثم اوفدوا بسرعة البرق إلى تاغانروغ تصحبهم سرية من عازفي البوق .

كانت البعثتان العسكريتان البريطانية والفرنسية في جنوب روسيا قد قررتا ايفاد بضعة ضباط إلى نوفوتشيركاسك للاستطلاع السياسي ، وليأخذوا على عاتقهم التعرف على الوضع في الدون وما هنالك من امكانات لمواصلة القتال ضد البلاشفة . كانت بريطانيا ممثلة بالرائد بوند والملازمين بلومفيلد ومونرو ، أما فرنسا فكان يمثلها الرائد أوشين والملازمان دوبريه وفور .

وقد حدثت هرجلة في القصر الأتماني بوصول هؤلاء المندوبين ذوي الرتب الواطئة نوعاً ما ، والذين رفعتهم نزوات القدر إلى «سفراء» دون سابق انذار .

وزف «هؤلاء السفراء» إلى نوفوتشيركاسك في بهرج عظيم . ولفرط ما لقي أولئك الضباط الصغار من خنوع وذلة دارت رؤوسهم ، واذ شعروا بعظمتهم «الحقيقة» على حين غرة ، راحوا ينظرون بتعال إلى مشاهير جنرالات القوزاق والى شخصيات تلك الجمهورية الكارتونية العظمى .

ودبت في أحاديث الملازمين الفرنسيين الشابين إلى جنرالات القوزاق نبرة من الغطرسة والتعالي على الرغم من كياستهم الظاهرة ودماثتهم الفرنسية التي تتسم بالطلاوة المخنثة .

وفي المساء أقيم احتفال في القصر ، وأضفت جوقة عسكرية على القاعة أوشحة حريرية من الأغاني القوزاقية تطرزها الأصوات الصادحة المنفردة

بألوان ثرة وراحت جوقة من الآلات النحاسية تدوي بالنشيدين الوطنيين للدولتين الحليفتين وتناول «السفراء» الطعام بتكبر شديد وعلى نحو يناسب المقام ، واذ أحس ضيوف الأتمان بالأهمية التاريخية لتلك المناسبة راحوا يتطلعون إلى السفراء بفضول خفي واحترام .

وشرع كراسنوف يلقي خطابه :

ـ سادتي ، انكم تجلسون في قاعة تاريخية ، يطل عليكم من جدرانها أبطال حرب وطنية سابقة ، حرب ١٨١٢ ، بشهادة صامتة . ان بلاتوف ، وايلوفايسكي ، ودنيسوف ليذكروننا بتلك الأيام المقدسة ، يوم رحب سكان باريس بمحرريهم ، قوزاق الدون ، يوم انتشل الأمبراطور ألكساندر الأول فرنسا الجميلة من الخراب...

كانت عيون مبعوثي «فرنسا الجميلة» ، قد أخذت تشع وميضاً مرحاً لفرط ما كرعوا من الشمبانيا الوفيرة ، ولكنهم راحوا ينصتون إلى خطاب كراسنوف بانتباه .

وبعد أن أطنب كراسنوف في وصف المحن التي كان الشعب الروسي يعانيها تحت «نير البلاشفة الوحوش» اختتم كلامه بنبرة تنم عن شجن عميق :

ـ ... ان خيرة ممثلي الشعب الروسي يموتون الآن في السجون البلشفية . ان أنظارهم تشخص اليكم ، انهم ينتظرون عونكم ، فعليكم أن تساعدوهم ، هم ، لا الدون . اننا بوسعنا أن نقول بكل اعتزاز إننا أحرار . غير أن كل أفكارنا ، وغاية كفاحنا هي روسيا العظمى ، روسيا المخلصة لحلفائها ، روسيا التي دافعت عن مصالحهم ، وضحت بنفسها على مذبحهم روسيا التي تتعطش إلى مساعدتهم بظمأ مريع . وقبل مائة وأربع سنين ، في شهر آذار رحب الشعب الفرنسي بالأمبراطور ألكساندر الأول وحرسه الروسي . ومنذ ذلك اليوم ، حل في فرنسا عهد جديد ، عهد ارتقى بها إلى طليعة أمم العالم . وقبل مائة وأربع سنين زار أتماننا ، الكونت بلاتوف

لندن . اننا في انتظار وصولكم إلى موسكو! اننا ننتظركم كي ندخل واياكم قصر الكرملين ، على أنغام نشيدنا الوطني الشجي لكي تشاركونا كل حلاوة السلم والحرية! روسيا العظمى! في هاتين الكلمتين نضع أحلامنا وآمالنا!

وحين اختتم كراسنوف كلمته نهض الرائد بوند على قدميه . وقد خيم صمت الموتى على القاعة عند سماع اللغة الانكليزية ، وراح المترجم يؤدي مهمته بكل حماس فقال :

ـ ان الرائد بوند ، أصالة عن نفسه ونيابة عن الرائد أوشين ، مخول أن يخبر أتمان الدون ، أنه وزملاءه الضباط قد انتدبوا رسمياً مبعوثين عن حلف «الانتينت » لكي يقفوا على ما يجري في الدون . ان الرئيس بوند يؤكد أن دول حلف «الأنتينت » ستقدم المساعدة إلى الدون والى جيش المتطوعين في قتالهم الباسل ضد البلاشفة ، بكل ما يتيسر لديها من سبل ، دون ان تستثني القوات أيضاً .

وقبل أن يستطيع المترجم النطق بالجملة الختامية ، اهتزت جدران قاعة الاحتفال بثلاثة هتافات داوية . ونودي بالأنخاب على أنغام الموسيقى ، فشرب الحضور نخب ازدهار «فرنساالجميلة» و «بريطانياالعظمى» والنصر على البلاشفة وعلا زبد الشمبانيا ووهجها في الكؤوس ، وفاح شراب « كاهورز» المعتق بنكهته الرقيقة الحلوة . وبات منتظراً أن يقول ممثلو بعثتي الحلفاء كلمتهم ، فلم يخيب الرائد بوند آمال مضيفيه :

ـ أقترح أن نشرب نخب روسيا العظيمة ، ويطيب لي أن أسمع في هذه القاعة نشيدكم الوطني السابق . ليس ما يهمنا فيه الكلمات ، انما أريد سماع اللحن وحسب...

ونقل المترجم هذا الالتماس .

فالتفت كراسنوف إلى ضيوفه ، وقد شحب وجهه انفعالاً ، وصاح بصوت متكسر :

ـ لتعش روسيا عظيمة موحدة لا تتجزأ ، هوراه!

وعزفت الفرقة الموسيقية اللحن المهيب : «حفظ الله القيصر» . وهنا نهض الجميع فأفرغوا كؤوسهم . وانهمرت الأدمع على خدي رئيس أساقفة أشيب الرأس . وهتف الرائد بوند وقد أصابه ثمل طفيف : «ما أجمل ذلك» وغلبت العاطفة أحد الضيوف البارزين فأجهش باكياً ، لسذاجة روحه ، فدس لحيته في منديل سفرة ملطخ ببقع كبيرة من الكافيار...

* * *

اعولت في المدينة ليلتذاك ريح صرصر آتية من بحر آزوف . وراحت قبة الكاتدرائية تومض بلون موات في حومة ندف الثلج التي طفقت تدوم في أول عاصفة ثلجية .

وفي تلك الليلة تم اعدام عمال سكة حديد شاختينسكك البلاشفة ، في مقلب النفايات تحت جرف طيني ، وذلك بأمر من المحكمة العسكرية . فاقتيدوا إلى شفا الجرف أزواجاً وقد شدت أيديهم وراء ظهورهم ثم أطلقت عليهم النار بالبنادق والمسدسات من مسافة قصيرة ، فضاع دوي الرصاص في خضم الريح الزمهرير كما يتلاشى الشرر من السيكارة...

ولبث حرس الشرف واقفاً عند مدخل القصر الأتماني لا يبدي حراكاً في ريح الشتاء القر ، فاسودت أيدي القوزاق وهي تمسك بنصب السيوف المسلولة وسالت دموعهم من شدة البرد ، ودب الخدر في أقدامهم... ومضى القصر يصخب حتى مطلع الفجر بصيحات العربدة ، وضجيج الجوقة النحاسي ، والجرس النائح تشدو به الأصوات الصادحة في الجوقة العسكرية...

* * *

وبعد اسبوع حدث أفظع ما في الحسبان : فقد اخذت الجبهة تنهار . وكان اول من فتح الجبهة على مصراعيها الكتيبة الثامنة والعشرون التي يخدم بيوتر ميليخوف فيها . فبعد ان اجرى القوزاق مفاوضات سرية مع قيادة العدو

المواجهة لهم ، قر رأيهم على الانسحاب وافساح المجال لمرور الجيش الاحمر خلال منطقة الدون الاعلى دونما عائق . وتولى قيادة هذه الكتيبة العاصية ياكوف فومين ، وهو قوزاقي ضيق الافق محدود الذكاء ، اما في واقع الحال فلم يكن فومين سوى دمية تحركها اصابع جماعة من القوزاق الميالين إلى البلشفية ، وشرعت الكتيبة بالتراجع غب اجتماع عاصف الح فيه الضباط دونما حماس على ضرورة مواصلة القتال ، فقد كانوا يتوجسون ان يطلق على ظهورهم الرصاص ، في حين راح القوزاق يصرخون بعنف ولجاجة وفوضى ، يرددون نفس الكلمات القديمة التي ضجر منها الجميع ، الكلمات المنادية بعدم ضرورة الحرب ، وبعقد الصلح مع البلاشفة . وفي نهاية اليوم الاول من المسيرة تخلى عن الكتيبة آمرها وجل ضباطها ، فالتحقوا بلواء الكونت موليير الذي كان يتراجع بعد ان عانى هزائم جسيمة .

حذت الكتيبة السادسة والثلاثون حذو الكتيبة الثامنة والعشرين ، فتخلت عن مواقعها ، ووصلت إلى كازانسكايا بكامل تعدادها ، بما في ذلك الضباط . وكان آمرها القميء ذو العينين الماكرتين قد أفلح في الاحتفاظ بمنصبه بالتذلل للقوزاق ، فتقدم ، يحف به الخيالة ، إلى الدار التي ينزل فيها قومندان المنطقة ، وترجل ، ثم دخل المنزل متغطرساً وهو يعبث بسوطه ، وصاح :

ـ من القومندان هنا ؟

فنهض ستيبان استاخوف وقال بكبرياء :

ـ انا مساعده ، اغلق الباب يا حضرة الضابط .

ـ انا آمر الكتيبة السادسة والثلاثين العقيد نعوموف... لي الشرف... ينبغي ان اجهز رجالي بثياب وجزمات جديدة . انهم حفاة يرتدون الاسمال . أتسمعني ؟

ـ القومندان غير موجود ، ولا يسعني بدون تخويل منه ان اسلم من المخازن زوجاً واحدا من الجزمات اللبادية .

ـ ماذا ؟

ـ هذا ما اقوله!

ـ انت ، مع من تتكلم ؟ سوف اعتقلك ، يا لعين! خذوه ، يا فتيان! اين مفتاح المخازن ، يا جرذ المؤخرة ؟ ـ قال الضابط ذلك ، وهوى على الطاولة بسوطه ، ثم اعاد قبعته المصنوعة من جلد الخراف إلى رأسه ، وقد شحب وجهه غضباً ، واضاف : ـ اعطني المفتاح ، دون مناقشة!

وما هي الا نصف ساعة حتى شرعت تتطاير من باب المخازن على الثلج جزم من الفراء والجزمات اللبادية والجلدية ، وراحت اكياس السكر تنتقل من يد إلى يد . فتعالت في الساحة جلبة من الاصوات المرحة .

وفي هذه الأثناء كانت الكتيبة الثامنة والعشرون تتراجع إلى منطقة فيشنسكايا بقيادة آمرها الجديد رئيس العرفاء فومين . وكانت وحدات من الفرقة الخامسة عشرة الحمراء تتقدم وراءهم على بعد ثلاثين فرسخاً تقريباً ، وقد شرعت دورياتها تستطلع قرية دوبروفكا .

وكان قائد الجبهة الشمالية اللواء ايفانوف ورئيس اركان حربه الجنرال زامبريجيتسكي قد اجليا قبل ذلك بأربعة ايام إلى كارغينسكايا على عجل . وقد انغرزت سيارتهما في الثلج فراحت زوجة رئيس الاركان تعض على شفتيها حتى ادمتهما وجعل اطفالها ينتحبون .

وبقيت فيشنسكايا في حالة من الفوضى بضعة أيام . ودارت شائعات تفيد ان قوات يجري تحشيدها في كارغينسكايا للهجوم على الكتيبة الثامنة والعشرين المتمردة . ولكن في الثاني والعشرين من كانون الاول وصل مرافق ايفانوف قادماً من كارغينسكايا ، وجعل ، وهو يضحك مع نفسه ، يلم الحاجيات التي تركها الآمر وراءه : قبعة جنرال صيفية ذات شارة جديدة ، وفرشاة شعر وملابس داخلية واشياء أخرى من سقط المتاع .

وراحت وحدات من الجيش الأحمر الثامن تتدفق خلال فجوة المائة فرسخ التي حدثت في الجبهة الشمالية . وقد تراجع الجنرال سافاتييف إلى

الدون دون ان يشتبك بقتال ، وانسحبت كتائب الجنرال فيتسخالاورف على عجل . وقد ساد الشمال سكون غريب طيلة اسبوع . فكفت الرشاشات عن لعلعتها ، وخلدت المدافع إلى الصمت . وراح قوزاق الدون الاسفل ، الذين كانوا يحاربون في الشمال ، يتراجعون دون ان يخوضوا اية معركة ، فقد ثبطت عزائمهم من خيانة قوزاق الدون الاعلى . اما الحمر فجعلوا يتقدمون ببطء وحذر ، فيستطلعون كل قرية بعناية .

ولكن حادثاً بهيجا طرأ على حكومة الدون فخفف من وقع الكارثة التي حلت في الجبهة الشمالية . ففي ٢٦ كانون الاول وصلت نوفوتشيركاسك بعثة الحلفاء التي كانت تضم الجنرال بول رئيس البعثة العسكرية البريطانية في القفقاس ، ورئيس اركان حربه العقيد الركن كيس ، والمبعوثين العسكريين الفرنسيين الجنرال فرانشي دي سبير والرئيس فوكيه .

واصطحب كراسنوف ضباط الحلفاء إلى جبهة القتال . ففي صبيحة يوم بارد من ايام كانون الاول ، اصطف حرس شرف على الرصيف في محطة تشير . وبدا الجنرال ماموتتوف بشاربيه المتهدلين ووجهه الثمل المألوف ، انيق الهندام حليق الذقن في هذه المرة على غير عادته ، فيما كان يقطع الرصيف جيئة وذهاباً وقد أحاط ضباطه به . وكانوا في انتظار القطار .

وظل عازفو الجوقة العسكرية عند مدخل المحطة يراوحون على اقدامهم وينفخون في اصابعهم المتجمدة ، وقد اخذ وضع الاستعداد حرس شرف بهي من قوزاق المناطق السفلى للدون ، وكانوا من شتى الاعمار والهيئات ، فقد وقف الشيوخ بلحاهم البيض إلى جانب فتيان لم تنبت شواربهم بعد ، وجنود خط الجبهة وقد تدلت خصلات شعرهم . وكانت معاطف الشيوخ تزهو بالاوسمة الذهبية والفضية التي نالوها في لوفتشا وبليفنا ، وازدان القوزاق الذين هم اصغر سناً بالأوسمة التي فازوا بها خلال هجماتهم الجسورة في غيوك تيبيه وصانديب وفي معارك بيرمشيل ووارشو ولفوف اثناء الحرب الالمانية . اما الفتيان فلم يكن لديهم ما يزهون به ، غير انهم وقفوا بقامات

مشدودة كأوتار الكمنجة ، وسعوا لمحاكاة كبارهم في كل شيء .

هدر قطار إلى داخل المحطة تكتنفه سحابة من بخار ابيض كالحليب ، وقبل ان يتسنى فتح ابواب العربة الفخمة لوح قائد الجوقة الموسيقية بعصاه بهزة عنيفة فدوت الجوقة بالنشيد الوطني البريطاني . وهرع مامونتوف إلى العربة ، واحدى يديه تشد على سيفه . وسار كراسنوف رب البيت الكريم بضيوفه إلى بناية المحطة عبر صفوف القوزاق الذين وقفوا ثابتين كالحجارة .

وتحدث بلغة فرنسية فصحى ، فقال وهو يبستم ابتسامة رقيقة ويومئ متلطفاً إلى القوزاق الذين اصطفوا وقد جحظت عيونهم واحتبست انفاسهم :

ـ القوزاق هبوا عن بكرة ابيهم ليصدوا عن ارضهم عصابات الحرس الاحمر المتوحشة . فبوسعكم ها هنا ان تشهدوا ممثلي ثلاثة اجيال . لقد حارب هؤلاء الرجال في البلقان ، واليابان ، وفي النمسا والمجر أو في بروسيا ، وهم اليوم يحاربون من اجل حرية وطنهم .

كان مامونتوف قد بذل قصارى جهده لتفيذ الأوامر التي تلقاها من رؤسائه بشأن اختيار حرس الشرف . وقد ادى عرض سلعته تلك خير مفعول . فقال الجنرال بول لكراسنوف قبل رحيله :

ـ انني راض كل الرضى عن مظهر قواتك الرائع ، وضبطها ، ومعنوياتها الحربية ، وسأقوم باصدار التعليمات لكي ترسل اليكم الدفعة الاولى من رجالنا القادمين من سالونيكا . وألتمسك ، أيها الجنرال ، ان تهيئ ثلاثة آلاف معطف شتوي من الفرو وجزمة دافئة . واني آمل ان تستطيع ، بمساعدة من عندنا محق البلاشفة محقاً تاماً .

وصنعت المعاطف القصيرة من جلد الخراف على عجل وجزمات الشتاء من اللباد . ولكن القوات الحليفة لم تظهر في نوفوتشيركاسك لسبب ما . ثم رحل بول إلى لندن واستبدل ببريكز ذي الطابع البارد الفظ الذي جاء بتعليمات جديدة من لندن . فصرح بأسلوب الجنرلات المباشر الجاف ، قائلاً :

ـ ان حكومة جلالته ستقدم لجيش المتطوعين في الدون مساعدات مادية واسعة ولكنها لن تقدم جندياً واحداً .

ولم يكن ثمة لزوم للتعقيب على هذا التصريح...

١٢

في ايام التحلل تلك بلغ العداء بين القوزاق والضباط حداً لم يسبق له مثيل ، ذلك العداء الذي كان منذ الحرب الاستعمارية يفصل الضباط عن قوزاقهم مثل شق محراث غير منظور . لقد كانت حوادث اغتيال الضباط والغدر بهم نادرة الوقوع في اواخر عام ١٩١٧ ، يوم كانت كتائب القوزاق تتدفق ببطء في طريق عودتها إلى الدون ، ولكن ما ان مر عام حتى غدت امثال هذه الحوادث عادية تقريباً . فراح القوزاق يحملون ضباطهم على السير في الطليعة اثناء الزحف كما يفعل قادة الجيش الاحمر ، ومن ثم يطلقون النار عليهم من الخلف بهدوء . الا ان المعنويات كانت ما تزال عالية في عدد من الوحدات ، مثل كتيبة القديس غيورغي التابعة لغوندروفسكي ، بيد ان امثال هذه الوحدة كانت نادرة في جيش الدون .

وقبل ذلك الحين بوقت طويل كان بيوتر ميليخوف ، وهو بطيء الذهن دقيق التفكير معاً ، قد ادرك ان التشديد على القوزاق يعرضه للهلاك ، فعمل بعناية منذ اول ايام التمرد على ازالة الحواجز التي تفصله عن مراتب الجنود بحكم منصبه كضابط ، فكان في بعض المناسبات الملائمة يتحدث مثلهم عن عدم جدوى الحرب . وكان يجد مشقة في حديثه الذي لا يأتي عن ايمان ، ولكن احداً لم يفطن اليه . كما شرع يضفي على نفسه صبغة بلشفية ، وما ان وجد ياكوف فومين مقبلاً على تسلم قيادة الكتيبة حتى شرع يتودد اليه بمهارة . وحذا بيوتر حذو الآخرين فلم يتوان في النهب أو في شتم الضباط والابقاء على حياة الاسرى ، رغم ان قلبه كان مفعماً بمقتهم ، ويديه

ترتعشان من رغبته في ضربهم والاجهاز عليهم ..اما في قضايا الخدمة العسكرية فقد كان ليناً كريماً ، فبدا اشبه بفص من الشمع منه بضابط! وعلى هذا النحو افلح في كسب ثقة القوزاق والتمويه على حقيقته دون ان يشعروا .

وحين سار آمر الكتيبة بضباطه ورحل ، آثر بيوتر البقاء ، فكان هادئاً مسالماً ، لا يبرز نفسه قط ، متحفظاً في كل تصرفاته . وهكذا وصل مع كتيبته إلى فيشنسكايا ، ولكنه بعد ان امضى يومين فيها لم يعد يطيق صبراً ففر إلى اهله دون ان يستأذن فومين أو رئاسة الاركان في ذلك .

ويومذاك كان ثمة اجتماع قد انعقد منذ الصباح الباكر في ساحة التدريب ، عند الكنيسة القديمة . كانوا ينتظرون مندوبي الفرقة الخامسة عشرة . فراح القوزاق يجوبون الساحة اسراباً ، وقد ارتدوا معاطف ، وستراً مبطنة بالفراء ، أو ستراً قصيرة قصت من المعاطف ، أو ستراً محشوة بالصوف . كان من المستحيل ان يصدق المرء ان هذا اللملم العجيب كان في يوم من الايام يشكل الكتيبة الثامنة والعشرين .

وجعل بيوتر ينتقل من جماعة إلى أخرى ويتأمل القوزاق وقد اعتراه القنوط . ولم يكن طراز ملبسهم قد اثار استغرابه في جبهة القتال ، ولعل مرد ذلك إلى انه لم ير آنذاك الكتيبة برمتها متجمهرة في حشد حاشد . فجعل يعض ذؤابتي شاربيه الطويلتين البيضاوين بحقد وهو يحدق في رؤوسهم التي كانت تعتمر تشكيلة غريبة من القبعات الاعتيادية ، والقبعات المصنوعة من جلد الخراف والقلنسوات ، ثم خفض عينيه فوقع نظره على تشكيلة ثرة من الجزم اللبادية البالية ، والجزم الجلدية ، ولفافات تعلو جزماً قصيرة غنمها اصحابها من الحرس الاحمر . فجعل يتمتم لنفسه وقد تملكه الغيظ واليأس :

ـ يا للصعاليك! يا للفلاحين الملاعين! يا للمتفسخين!

كانت اوامر فومين معلقة على الأسيجة ، ولم يكن بالوسع ان يشاهد المرء في فيشنسكايا احداً من سكانها . فقد توارى كل اهالي المدينة عن

الانظار ولبثوا يترقبون . وكان صدر الدون الابيض الذي اجتاحته الثلوج يلوح خلل فجوات الشوارع الفرعية ، وبدت الغابة من ورائه سوداء وكأنها خضبت بالحبر الصيني . ومن حول كومة الاحجار الرمادية لبناء الكنيسة تجمهرت النسوة القادمات من القرى لزيارة ازواجهن مثل قطيع من الشياه .

واحس بيوتر بنظرات جانبية شزر قد سمرت فيه وهو يرتدي سترة مبطنة بالفرو يعلو صدرها جيب واسع ، ويعتمر قبعة الضباط الاستراخانية اللعينة التي كانت محط اعتزازه الشديد في يوم ليس ببعيد . وضاعفت تلك النظرات مما كان قد انتابه من قلق وحيرة . فوقف بعض الوقت يصغي إلى جندي قصير الجرم من الجيش الاحمر يرتدي معطفاً فاخراً وقبعة جديدة من جلد الحمل قد اعتلى برميلاً فارغاً في وسط الساحة . فسوى الرجل وشاحاً من فراء الارنب الرمادي حول عنقه بيد يغطيها قفاز من الوبر ، ثم نظر فيما حوله .

وراح صوته الخفيض المبحوح ينفذ إلى أذني بيوتر : «ايها الرفاق القوزاق!...» .

وجال بيوتر بنظره فيما حوله . فالفى القوزاق ينظرون إلى بعضهم ويغمزون بأعينهم ترقباً ، اذ ان كلمة «رفاق» التي لم يألفوها قد اشاعت فيهم الارتباك . واسهب الجندي الاحمر في الحديث عن الحكم السوفييتي والجيش الاحمر ، والعلاقات مع القوزاق ، وعلقت في ذاكرة بيوتر تلك الصيحات التي كانت تقاطع حديث الجندي باستمرار :

ـ أيها الرفيق ، ماذا تعني بكلمة « كومنة » ؟

ـ هل سيقبلوننا ؟

ـ ما هو الحزب الشيوعي ؟

فشد الرجل يده على صدره وراح يشرح بأناة :

ـ ايها الرفاق! ان الحزب الشيوعي مسألة اختيارية . والناس ينضمون

إلى الحزب بمحض ارادتهم لأنهم يريدون النضال في سبيل الهدف العظيم لتحرير العمال والفلاحين من اضطهاد الرأسماليين ومالكي الاراضي .

وفي ذات اللحظة تقريباً نبت صيحة من شخص آخر :

ـ وضح لنا موضوع الشيوعيين والقوميسارية!

وما كاد الرجل يفرغ من شرحه حتى ارتفعت صيحة اخرى :

ـ اننا لا نفهم ما تقول . نحن اناس جهلة . تحدث بكلمات ابسط .

وحين فرغ الجندي الاحمر من كلمته ، القى ياكوف فومين كلمة طويلة مملة ، محاولاً ان يتباهى بكلمات لا يكاد يستطيع النطق بها . وكان صبي يرتدي قبعة الطلاب ومعطفاً انيق الصنع يتواثب إلى جانبه . واذ راح بيوتر يصغي إلى تخبط فومين عادت به الذاكرة إلى اول لقاء له مع فومين في الجيش ، يوم تقدمت داريا لزيارته في المحطة على طريق بتروغراد في شباط عام ١٩١٧ وتراءت له صورة ذلك الهارب من كتيبة الاتمان بعينيه القاسيتين ترسلان وميضاً ندياً ، وبمعطفه وقد علا كتفيه الرقم ٥٢ الذي حال لونه ، وبمشيته التي تحكي مشية الدب . وعادت كلماته إلى ذاكرة بيوتر : «لم اعد استطيع الاحتمال أكثر من ذلك ، يا أخي» . فقال بيوتر في دخيلة نفسه وعيناه تشعان مرارة : «هارب احمق مثل خريستونيا ، وها قد اصبح آمرا للكتيبة ، اما انا فلا ازال صفر اليدين» .

واحتل مكان فومين قوزاقي يتمنطق عبر صدره بأحزمة من عتاد الرشاشات ، فصاح بصوت ابح وهو ينشر ذراعيه :

ـ اسمعوا ، يا اخوان! انا نفسي في مفرزة بودتيلكوف ، ويلوح لي اننا سنحارب الكاديت معاً ، بعون الله!

فدار بيوتر على عقبيه ومضى إلى مأواه على عجل . واسرج حصانه وراح ينصت إلى القوزاق فيما كانوا يبارحون فيشنسكايا على ظهور خيلهم ويطلقون النار من بنادقهم ايذاناً بعودة الجند إلى قراهم جرياً على العرف الذي ما فتئ الجميع يحترمونه منذ القدم .

١٣

كانت الايام القصيرة ساكنة إلى حد الرعب تبدو طويلة مثل ايام موسم الحصاد . وقد انبسطت القرى كالسهب البكر الذي تطأه الاقدام . لكأن المناطق المحاذية للدون فقدت الحياة ، وكأن وباء قد حل بالمنطقة فأمست قراها يباباً . ولكأن سحابة هائلة راحت تحوم بجناحها الاسود الاصم في سماء اقليم الدون ، فتنتشر انتشاراً صامتاً مريعاً ، حتى يعن للريح أن تهب فتثني أشجار الحور إلى الارض فتنقض بلعلعة من الرعد الحاد العاتي لتمزق الغابة البيضاء القائمة عبر الدون ، وترسل الاحجار التي تجللها الطحالب متواثبة من على التلال الكلسية ، وتظل تزمجر بصخب العواصف الرعدية المدمر...

كان الضباب قد اكتنف تتاركسي والسهب منذ الصباح . وتجاوبت التلال بهدير ينذر بالزمهرير . ونبعت الشمس عند الظهيرة خلل الضباب الذي علق بها ، غير انها لم تزد الدنيا نوراً . وراح الضباب يضرب على غير هدى فوق اعالي التلال المحاذية للدون ، وينحدر في الوهاد والأخاديد ، حيث يتلاشى ، فيحط غباراً ندياً على السفوح الكلسية التي تغطيها الطحالب ، وعلى القمم الجرد التي يجللها الثلج .

وفي المساء بزغ ترس القمر المحمر من وراء رماح الغابة الجرداء . وطفق يبعث فوق القرى الصامتة وجهاً خافتاً بلون الدم من لهيب الحرب والنيران . وتحت نوره الازلي الذي لا يرحم تولدت في افئدة الرجال نذر خوف مبهم . وراحت البهائم تتململ بقلق ، والخيل والثيران تجوب الافنية لا يقر لها قرار حتى مطلع الفجر . وجعلت الكلاب ترسل عواء اسياناً ، والديكة تتنادى قبل انتصاف الليل بوقت طويل . وكان الصقيع يكسو غصون الاشجار الجرد عند الغسق بقشرة من الجمد ، تهزها الرياح فتجلجل مثل ركائب الخيل الفولاذية . لكأن جيشاً من فرسان لا تراهم العين ، مضوا

يزحفون على ضفة الدون اليسرى خلال الغابة المعتمة والضباب الداكن ، فيسمع الناس قعقعة اسلحتهم وجلجلة ركائبهم .

كان قوزاق تتارسكي ، الذين حاربوا في الجبهة الشمالية قد عادوا إلى القرية ، كلهم تقريباً ، تاركين كتائبهم على هواهم وهي تتقهقر صوب الدون ببطء . كان لا يمر يوم دون أن يعود إلى القرية فارس طال اليه الانتظار . كان البعض يعودون ليجردوا مطايا الحرب من سروجها ويلبثوا اياماً عديدة في انتظار مجيء الحمر ، فيدسون عدتهم العسكرية في كوم من القش أو تحت افريز سقيفة . وثمة آخرون قادوا خيلهم إلى افنية بيوتهم ، وباتوا ليلتهم مع زوجاتهم ، وفي صباح اليوم التالي تزودوا بالمؤن ومضوا ثانية على دروب السهب ، بعد ان القوا من قمة التلال نظرة اخيرة على مجرة الدون البيضاء الهامدة ، وعلى قرية اهليهم ، وقد خلفوها وراءهم ربما للأبد .

ترى من بوسعه ان يتنبأ في أي مكان سيلقى مصرعه ؟ من بوسعه ان يعرف نهاية مطاف الانسان ؟لكم شق على الخيل ان تجهد مبتعدة عن القرية! لكم شق على القوزاق ان يزيحوا عن قلوبهم الواهنة شعور الفجيعة في اعزائهم!

وفيما مضى القوزاق في تلك الطريق عادت الذاكرة بالكثير منهم إلى الاهل ، فراحوا يقلبون العديد من الخواطر في اذهانهم ، وقد تنساب دموعهم مالحة كالدماء إلى السرج وتتصبب حدر الركاب إلى الدرب الذي تآكلته سنابك الخيل ، فلا يقيض حتى لوردة الفراق الصفراء المحمرة ان تنبت هناك في الربيع!

* * *

وفي بيت ميليخوف انعقد مجلس عائلي في الليلة التي اعقبت مجيء بيوتر من فيشنسكايا . فقد سأل بانتلاي بروكوفتش ابنه بيوتر حالما اجتاز عتبة الباب :

ـ حسناً ، ما هذا ؟ هل سئمت الحرب ؟ عدت وانت لا تحمل شارة

الضباط على كتفك ؟ حسناً ، اذهب ، سلم على اخيك ، وابعث الفرحة في قلب امك . زوجتك توشك على الهلاك من الشوق اليك . عظيم ، يا بيوتر! غريغوري! لماذا انت راقد فوق الموقد كفأر الجبل ؟ انزل .

فدلّى غريغوري ساقيه العاريتين ، وجعل يحك صدره ذا الشعر الاسود ، وهو يبتسم ويراقب اخاه فيما كان يحل نطاق سيفه بأصابع خدرة ، وتعمل يده المتجمدة في عقد شرائط قلنسوته . وكانت داريا تبتسم في عيني زوجها دونما كلام وهي تفك ازرار سترته المصنوعة من جلد الخراف متحاشية جنبه الايمن باحتراس حيث كانت قنبلة يدوية مثبتة في الحزام على مقربة من قراب المسدس .

وقد مسحت دونيا شاربي اخيها بقبلة وهرعت إلى الخارج لتعنى بحصانه . اما ايلينشنا فقد مسحت شفتيها بصدريتها وتهيأت لتقبيل ابنها «البكر» ، في حين انهمكت ناتاليا في اعداد الموقد وطفلاها يتشبثان بأذيالها . وبقي الجميع ينتظرون كلام بيوتر ، إلا انه اكتفى بأن القى بـ« كيف الصحة ؟ » من العتبة بصوت مبحوح ، وراح يخلع ملابس الطريق بصمت ، وقد امضى وقتا طويلا في مسح جزمته بمكنسة من قش الدخن . ثم اعتدل وارتجفت شفتاه بغتة ، ومال على حافة السرير شارد الفكر ، ورأى الجميع الدموع تشرق على خده الاسمر الذي لفحه الزمهرير .

فتساءل ابوه مازحاً وهو يحاول إخفاء قلقه ودموعه هو الآخر :

ـ ما هذا ، ايها الجندي ، ماذا جرى ؟

فالتوى فم بيوتر ، وارتعش حاجباه الحائلان ، ثم اخفى عينيه وهو يتمخط في منديله القذر الملطخ بالتبغ ويقول :

ـ لقد انتهى أمرنا ، يا ابتي!

وركل غريغوري القطة التي كانت تتمسح به ، وقفز هابطاً من على الموقد وهو ينحنح . وانفجرت الأم ناشجة ، وراحت تلثم رأس بيوتر الذي يعج بالقمل ، ولكنها سرعان ما ابتعدت عنه قائلة :

يا حبيبي! يا ولدي المسكين ، هل ترغب بشيء من اللبن الرائب ؟ اذهب واجلس ، لقد برد حساؤك ، لا بد انك جائع...

وحين جلس بيوتر إلى المائدة ، واضعاً ابن اخيه على ركبتيه ، بدا عليه الانشراح . واذ استعاد رباطة جأشه ، راح يحكي لهم قصة انسحاب الكتيبة الثامنة والعشرين من الجبهة ، وهرب الضباط ، وفومين والاجتماع الأخير الذي شهده في فيشنسكايا .

فقال غريغوري ويده ذات العروق الداكنة على رأس ابنته :

ـ حسناً ، ما رأيك في كل هذا ؟

ـ لست ارى شيئاً . سأمضي نهار الغد هنا ، ثم ابارح عند حلول الليل .

ـ ثم التفت إلى أمه قائلاً : ـ اعدي لي شيئاً من الطعام ، يا اماه .

فقال بانتلاي بروكوفتش وهو يدس اصابعه في كيس تبغه :

ـ اذا ، فستتراجع ؟ ـ ثم لبث ينتظر جواب بيوتر وقبضة التبغ بين اصابعه .

فنهض بيوتر ورسم على صدره اشارة الصليب امام الايقونات العتيقة الداكنة ، ثم حدق في والده بمرارة وقسوة وقال :

ـ نجني ايها المسيح ، لقد نلت ما فيه الكفاية . قلت أتراجع! ماذا عساي أفعل غير هذا ؟ لماذا أبقى ؟ أمن اجل ان يقطع الحمر رأسي ؟ ربما فكرت انت في البقاء ، اما انا فلا! انهم لن يرحموا الضباط .

ـ وماذا عن البيت ؟ يعني تتخلى عنه ؟

فلم يقل بيوتر شيئاً بل اكتفى بهز كتفيه ، ولكن سرعان ما انطلق لسان داريا :

ـ انت ترحل ، وعلينا نحن ان نبقى ؟ لطيف حقاً! أنبقى هنا لحراسة أموالك ؟ وقد تفقد حياتنا بسببها! لتحل عليها اللعنة! لن ابقى أنا!

وحتى ناتاليا تدخلت في النقاش ، فرفعت صوتها فوق صوت داريا الداوي الرنان ، وهتفت قائلة :

ـ اذا رحلت القرية برمتها ، فلن نبقى نحن . سنذهب على اقدامنا!

فأرعد بانتلاي بروكوفتش حانقاً وهو يجيل عينيه باحثاً عن عصاه دون ارادته :

ـ يا للحمقاوتين! يا للقحبتين البلهاوين! اخرسا ايتها اللعينتان! هذه شؤون الرجال ، وانتما تدسان أنفيكما فيها . حسناً ، لنفرض اننا تركنا كل شيء لنذهب إلى حيث تحملنا اقدامنا ، فما سنفعل بالماشية ؟ انضعها في جيوبنا ، والبيت ايضاً ؟

فأيدت ايلينشنا زوجها بحمية وقالت :

ـ لقد مسكما الجنون ، يا ابنتي! لم تتحملا جهد انشاء الحقل ، فلا اسهل عليكما من تركه . اما انا والرجل الشيخ فقد كدحنا فيه ليل نهار ، فلن نبارحه! ـ ثم زمت شفتيها وتنهدت : ـ اذهبوا انتم ، اما انا فلن اتحرك من هنا . خير للمرء ان يقتل على عتبة بيته من ان يموت تحت جدار الغرباء .

وسوى بانتلاي بروكوفيتش فتيلة المصباح ، وهو يجر أنفاساً ثقيلة وينفث الحسرات . وخيم على الجميع الصمت لحظة . ثم رفعت دونيا التي كانت منهمكة في الحياكة رأسها وهمست :

ـ بوسعنا ان نسوق الماشية معنا... ولا داعي لبقائنا بسبب الماشية .

وثار الشيخ من جديد ، وجعل يضرب الارض بقدميه كجواد طال بقاؤه في الاسطبل ، وكاد ان يقع حين عثر بجدي نائم عند الموقد . ثم توقف امام دونيا وارعد :

ـ نسوقها!... والبقرة العجوز على وشك ان تلد ؟ ماذا نفعل بها ؟ إلى أية مسافة نستطيع ان نسوقها ؟ ليتك تغصين بآثامك! ايتها السفيهة التافهة! الفطرة السامة! بيضة القملة! بعد كل ما بذلنا من جهد لنبني لهم بيوتاً صرنا نصغي لمثل هذه الاقوال! ماذا نفعل بالغنم ؟ ماذا ستفعلين بالحملان ؟ يا ابنة العاهرة! خير لك ان تمسكي لسانك!

ونظر غريغوري إلى بيوتر بزاوية عينه ، وكعهده وجد في عيني اخيه ابتسامة ماكرة متهكمة تنم في الوقت ذاته عن الاحترام ، ولاحظ الارتعاش المألوف على شاربه القمحي . ورفت عينا بيوتر بسرعة . واختض جسده بقهقهة حبيسة . واحس غريغوري هو الآخر برغبته في الضحك الذي كاد ان ينساه في السنوات الاخيرة فأرسلها ضحكة جهورية داوية دونما تصنع .

فقال الشيخ :

ـ عال ، عال! الحمد لله!... هكذا ، اذن كنا نتحادث اليوم... ـ ثم حدجه بنظرة غاضبة واشاح بنظره صوب النافذة التي غشاها الجمد .

ولم يتوصلوا إلى اتفاق الا في منتصف الليل ، فارتأوا ان يبارح القوزاق الثلاثة تتارسكي ، في حين تبقى النسوة للمحافظة على البيت والحقل .

اوقدت ايلينشنا الموقد قبل بزوغ الشمس بوقت طويل ، وما ان حل الصبح حتى كانت قد خبزت الخبز وجففت كيسين منه . وتناول الشيخ افطاره على ضوء المصباح ، وخرج عند الفجر ليعنى بالماشية ويعد الزحافة للرحيل . وقد اطال الوقوف في مخزن الحبوب فغرز يده في خابية القمح وترك حبات القمح تتقاطر من بين اصابعه . وخرج كمن يبارح جثة هامدة ، رافعاً قبعته وهو يغلق الباب الاصفر بهدوء...

كان مايزال متلكئاً حول الزحافة تحت السقيفة حين ظهر انيكوشكا في الشارع وهو يسوق بقرته ليوردها . فتبادل الرجلان التحية . وسأل بانتلاي بروكوفتش :

ـ هل تتهيأ للرحيل ، يا انيكوشكا ؟

ـ أنا اتهيأ ؟ العريان لا يحتاج إلى حزام! لست املك إلا احشائي ، وبوسعي ان أتدبر أمري من فتات الآخرين .

ـ هل من اخبار ؟

ـ كثير منها ، يا بروكوفتش!

فتملك بانتلاي بروكوفتش القلق فدّس فأسه في جنب الزحافة .

ـ ماذا ؟

ـ سيكون الحمر هنا عما قريب . انهم يقتربون من فيشنسكايا . رآهم رجل من بولشوي كروموك وقال انهم يقتلون الناس اثناء تقدمهم . ثمة يهود وصينيون معهم . ليتنا قضينا عليهم جميعاً ، لعنة الله على الشياطين الحول!

ـ يقتلون الناس ؟

ـ ماذا كنت تنتظر غير هذا ؟ ـ ثم صب انيكوشكا اللعنات ، ومضى يتحدث وهو سائر : ـ النسوة في القرى يصنعن الفودكا ويقدمنها اليهم دفعاً لأذاهم ، فيأخذهم السكر ويمضون قدماً لاحتلال القرية التالية فيعيثون فيها فساداً .

وراح الشيخ يجيل عينيه في ارجاء السقيفة ، ممعناً النظر في الاعمدة والعيدان التي اقامتها يداه . ثم أخذ شوالاً فذهب إلى ساحة درس الحبوب ليتزود بشيء من القش لرحلته . وانزل كلاباً حديدياً ، واذ غاب عنه ان الرحيل أمر لا مفر منه ، شرع في انتقاء اردأ القش (كان دوما يدخر القش الجيد لكي يستعمله اثناء الحراثة في الربيع) . ولكنه عدل عن رأيه ، فتحول إلى كدس آخر من القش ، وهو حانق على نفسه . فلم يخطر بباله انه في غضون دقائق سيبارح الفناء والقرية ، ويمضي إلى مكان ما في الجنوب ، وربما لا يعود أبداً . وانزل بعض القش ، ثم استدار ليعيد ما انتثر منه إلى الكدس بحكم العادة كذلك . ولكنه جر يده وكأن المذراة حامية .

ثم مسح حاجبه العرقان وقال بصوت مسموع :

ـ علام أعنى الآن به ؟ ما جدوى ذلك ، سيلقون به تحت اقدام خيلهم ، وسيتلفونه أو يحرقونه .

ثم كسر المذراة على ركبته ، وصر بأسنانه وحمل شوال القش ، ثم سار متثاقلاً نحو المنزل ، وهو بادي الانحناء والشيخوخة .

ولم يدخل المنزل ، بل صاح خلال الباب المفتوح :

ـ تهيأوا! فسأشد الخيل في الحال ، يحسن بنا الا نتأخر في الرحيل .

وضع العدة على الخيل ، ورمى بكيس من الشوفان في مؤخرة الزحافة ، واستبدت به الدهشة لأن ولديه لم يخرجا بعد لشدّ السرج على حصانيهما فدلف إلى الكوخ .

وطالع عينيه في المطبخ مشهد غريب : كان بيوتر يحل غاضباً الصرر التي اعدت لرحلتهم فيرمي البنطالات ، والقمصلات ، وثياب الاعياد الخاصة بالنساء على الارض .

فسأل الشيخ وهو يخلع قبعته من فرط الذهول :

ـ ما كل هذا ؟

فأشار بيوتر بابهامه عبر كتفه إلى النساء وقال :

ـ هن! انهن يعولن! لذا فلن نذهب إلى اي مكان! ينبغي ان نرحل جميعاً والا فلا! كيف نستطيع الرحيل لانقاذ اموالنا والحمر قد يغتصبونهن في غيابنا ؟ فلئن قتلونا ها هنا ، حسبنا ان نموت تحت انظارهن!

وقال غريغوري باسماً ، وهو يخلع معطفه وسيفه :

ـ اخلع ثيابك ، يا ابتي .

فأمسكت ناتاليا الباكية يده وقبلت ظهرها ، وراحت دونيا تصفق ابتهاجا ، وقد احمر وجهها فبات مثل شقائق النعمان .

ارتدى الشيخ قبعته ، ولكنه خلعها ثانياً في الحال ، وخطا عبر الغرفة إلى الايقونات فرسم على نفسه اشارة الصليب بحركة سريعة . ثم انحنى ثلاثاً ، ونهض من ركوعه وأجال حوله النظر :

ـ حسناً ، لئن كان الأمر كذلك فنحن باقون! يا ملكة السماء ، استري علينا واحمينا! سأذهب واخلع عن الخيل عدتها .

وجاءهم انيكوشكا صدفة فدهش اذ رأى آل ميليخوف كلهم بوجوه ضاحكة مستبشرة . فسألهم : ـ ما الخبر ؟

فأجابت داريا عن الجميع :

ـ لن يرحل رجالنا .

ـ غريب! هل غيرتم فكركم ؟...

فكشر غريغوري عن اسنانه القوية المائلة إلى الزرقة بابتسامة مقتضبة ، وغمز بعينه وقال :

ـ أجل ، غيرنا رأينا! لا داعي للسعي وراء الموت ، فانه سيجدنا في انتظاره هنا .

فهتف انيكوشكا :

ـ حسناً ، لئن قرر الضباط عدم الرحيل ، فلا ريب أنّا باقون كذلك .

وخرج من الكوخ يخبط الأرض كأن في قدميه نعلي فرس .

١٤

ظلت بيانات فومين ترفرف على اسيجة الدور في فيشنسكايا ، فقد بات وصول الجيش الاحمر متوقعاً بين ساعة وأخرى . وفي اثناء ذلك ، عمدت هيئة اركان الجبهة الشمالية إلى اتخاذ مقر عام لها في كارغينسكايا على بعد خمسة وثلاثين فرسخاً . وفي مساء الرابع من كانون الثاني وصلت إلى مدينة كارغينسكايا مفرزة التشيتشينيين التأديبية التي يقودها العقيد رومان لازاريف وما لبثت ان غادرتها على جناح السرعة لمعالجة امر كتيبة فومين المتمردة .

وكان المفروض ان تهاجم تلك المفرزة فيشنسكايا في الخامس من كانون الثاني . فقد اتمت الدوريات استطلاع القرى المحيطة بالمدينة . على ان الهجوم لم يتم حين اخبر جندي فار من كتيبة فومين بأن قوات غير قليلة من الجيش الاحمر قد توقفت لتبات ليلتها في غوروخوفكا ، وان وصولها إلى فيشنسكايا بات منتظراً في اليوم التالي . حاول كراسنوف ، الذي كان منشغلاً مع ممثلي الحلفاء في نوفوتشيركاسك ان يستميل فومين . وقد استدعى فومين إلى دائرة التلغراف في فيشنسكايا بعد ان ظل جهاز التلغراف يئز لوقت طويل ، فتسلم رسالة مقتضبة :

فيشنسكايا فومين نقطة العريف فومين فاصلة آمرك بالرجوع إلى صوابك وضع رجال كتيبتك في مراكزهم حالاً نقطة ارسلت مفرزة تأديبية نقطة عصيان الاوامر عقوبته الموت نقطة كراسنوف .

وقف فومين مفتوح السترة يراقب على ضوء مصباح البرافين شريط الورق المخرم ينسل كالثعبان من تحت اصابع عامل التلغراف ، ثم نفث على رقبة الرجل انفاساً من حرقة الفودكا والهواء البارد وقال :

ـ ماذا يهرف ؟ ارجع إلى صوابي ؟ هل انتهى من ثرثرته ؟ حسناً ، اكتب له الآن... ماذا ؟ ممنوع ذلك ؟ اطع أوامري ، والا انتزعت احشاءك!

ومرة ثانية شرع مفتاح التلغراف يعمل :

نوفوتشيركاسك الاتمان كراسنوف نقطة اذهب إلى جهنم وبئس المصير نقطة فومين .

بات الوضع في الجبهة الشمالية من التعقيد ما حدا بكراسنوف ان يقرر الذهاب إلى كارغينسكايا بنفسه ليسدد من هناك «ضربة انتقام» إلى فومين ، والأهم من ذلك ليستنهض همم القوزاق الذين ثبطت عزائمهم ، وكان هذا الهدف نصب عينيه حين دعا الحلفاء للقيام بجولة تفتيشية في الجبهة .

وفي بوتورلينوفكا استعرضوا كتيبة القديس غيورغي من غوندروفسكي التي قد سحبت لتوها من المعركة . وبعد ان تفقد كراسنوف رعائل الكتيبة اتخذ مكانه عند رايتها ، واتى بالتفاتة رشيقة إلى اليمين وصاح بصوت رنان :

ـ كل من خدم تحت امرتي في الكتيبة العاشرة... خطوة إلى الامام تقدم!

فتقدم زهاء نصف رجال الكتيبة تقريباً إلى الامام . فخلع كراسنوف قبعته وعانق رئيس العرفاء ، الذي كان ما يزال رشيقاً رغم كهولته والذي كان اقرب الجميع اليه ، ثم قبله ثلاث مرات . فمسح رئيس العرفاء شاربيه القصيرين بكم معطفه ووقف يحملق بعينين جاحظتين . قبل كراسنوف كافة رجال كتيبته السابقة . فجعل ضباط الحلفاء يهمسون إلى بعضهم دهشين على أن

دهشتهم تلاشت وحلت محلها الابتسامات والرضا المتحفظ حين تقدم كراسنوف نحوهم وشرح لهم الأمر :

ـ هؤلاء هم الأبطال الذين بهم سحقت الالمان في نيزفيزكايا والنمساويين في بلزيتس وكوماروف لأجل انتصارنا المشترك على العدو .

.. وعلى جانبي الشمس كان عمودان تلغرافيان محزمان بجمد أبيض ويلفعهما سكون الموتى ماثلين اشبه بجنديين يقفان على حراسة خزينة الكتيبة . وجعلت ريح شمالية غربية باردة تعزف خلل الغابات كالبوق . وتجتاح السهب وتثني الادغال الشائكة وتسحقها سحقاً . وفي مساء السادس من كانون الثاني ، حين كانت ظلال الغسق تلفع نهر التشير وصل كراسنوف كارغينسكايا يرافقه ضابطا جلالته البريطانية ادوردز والكوت ، والضابطان الفرنسيان الرئيس بارتيلو والملازم ارليخ ، فهبط ضباط الحلفاء من السيارة تحف بهم رائحة دخان السيكار وعطور الكولونيا ، وقد تدثروا بمعاطف من الفرو وقبعات وثيرة من جلد الأرانب . وكانوا يتضاحكون وهم يرتجفون ويدقون الارض بأقدامهم . وبعد ان تدفأوا واحتسوا الشاي في بيت التاجر الثري ليفوجكين ، توجهوا بصحبة كراسنوف وقائد الجبهة الشمالية أمير اللواء ايفانوف إلى المدرسة المحلية حيث اعدت العدة لعقد اجتماع .

والقى كراسنوف كلمة مسهبة في حشد من القوزاق المتلفهين . فاصغوا اليه بانتباه وطيب خاطر . ولكنه حين شرع في مجرى كلمته يصور لهم «فظائع البلاشفة» التي اقترفوها في المناطق المحتلة ، نب من وراء حجاب الدخان الازرق صوت يقول : «هذا غير صحيح»! مما افسد الاثر الذي تركته الكلمة .

وفي صبيحة اليوم التالي رحل كراسنوف والحلفاء صوب ميليروفو على عجل .

وبعجالة مماثلة تم الجلاء عن مقر قيادة الجبهة الشمالية . وراح التشيتشينيون يطوفون الناحية حتى المساء بحثاً عن القوزاق الذين حاولوا

التخلف عن الجيش . وفي ذلك المساء اضرمت النيران في مستودع العتاد ، وظلت خراطيش البنادق تلعلع ، حتى منتصف الليل ، مثل كوم هائل من دغل تلتهمه النيران ، اما القذائف فقد راحت تدوي دوي الجليد المنهار . وفي اليوم التالي ، وفيما كانت الصلاة تقام قبل التراجع ، ارتفع صوت مدفع رشاش من على تل كارغينسكايا فجعلت الطلقات تضرب سقف الكنيسة مثل برد الربيع ، فهرعت القطعات إلى السهب كغوغاء شاع فيه الاضطراب . وحاول لازاريف ومفرزته ان يحمي الجنود المنسحبين تساعده في ذلك بضع من وحدات القوزاق . فاتخذ بعض المشاة مواقع لهم وراء الطاحونة الهوائية ، وقامت بطارية كارغينسكايا السادسة والثلاثون ، التي يقودها الرئيس فيودور بوبوف ، وهو من اهالي كارغينسكايا ، بصب حمم من قذائفها على الصفوف الهاجمة من قطعات الحمر .

ولكن البطارية ما لبثت ان شدت رحالها ، فقد ضرب الخيالة الحمر الطوق حول المشاة المدافعين بعد ان طلعوا عليهم من قرية مجاورة عن طريق الوديان ، وفتكوا بزهاء العشرين شيخاً من اهالي كارغينسكايا الذين اطلق البعض عليهم اسم «القوميين الأوكرانيين» .

١٥

تجدد ايمان بانتلاي بروكوفتش بما للاشياء من قوة وأهمية ، بعد ان عقدوا العزم على البقاء في تتارسكي مهما كلفهم ذلك . ففي المساء خرج ليعنى بالماشية ولم يتردد في انتقاء القش من اردأ الكدوس . ولبث في الفناء الذي بدأ يخيم عليه الظلام يتفحص البقرة من جميع جوانبها بكل عناية ، وقال في سريرته بشعور من الرضى : «انها تزداد سمنة . فهل انعم الله عليها بتوأمين يا ترى ؟ » لقد عاوده الشعور بأن كل شيء يخصه ، وعاد لكل شيء ما كان يرى فيه من قيمة واهمية . وقبل ان يحل المغرب وجد

متسعاً من الوقت ليزجر دونيا لأنها بعثرت شيئاً من العصافة ولأنها لم تكسر الجليد الذي علا جابية الماء ، وكذلك ليصلح ثغرة احدثها خنزير ستيبان استاخوف في السياج . وفيما كان يفعل ذلك خرجت اكسينيا لتسد نوافذ كوخها الخارجية . فسألها ما اذا كان ستيبان ينوي الرحيل . فلفت اكسينيا رأسها بعصابتها واجابت بصوت ملول :

ـ كلا ، كلا ، اين تراه يذهب ؟ انه راقد فوق الموقد وقد المت به حمى . ان رأسه يضطرم كالنار . انه مريض فليس بوسعه ان يرحل .

ـ ونحن لسنا راحلين كذلك . ان الشيطان وحده يعلم ما اذا كانت الأمور ستتحسن أو تسوء...

هبط الليل ، وراح نجم الشمال يتوهج في اعماق السماء المخضوضرة ، عبر الدون ، وراء خليج الغابة الرمادية . وفي الشرق تلفعت السماء بالأرجوان وكان الغروب يضطرم في الغرب . وتهادى سنام القمر بين قرون اشجار الحور المنتشرة . واختلطت على أكوام الثلج المعتمة ظلال مبهجة . كان السكون من العمق بحيث استطاع بانتلاي بروكوفتش سماع شخص يكسر الجليد في حفرة على الدون ، ولعله كان انيكوشكا . وكانت فتات الجليد ترن وتدندن بينما في الحوش كانت الثيران تمضغ الحشيش اليابس بتؤدة وشهية .

وأنير المصباح في الدار ، ومرقت ناتاليا ما بين النافذة والمصباح . وقد جذب الدفء بانتلاي بروكوفتش ، فألفى العائلة مجتمعة في الداخل . كانت دونيا قد عادت لتوها من زيارة لزوجة خريستونيا . فأفرغت كوباً من المشروب البيتي ناقلة لهم آخر الاخبار على عجل ، خشية ان يقاطعها احد .

وفي غرفة الاستقبال دهن غريغوري بندقيته ، ومسدسه وسيفه ، ثم لف منظاره العسكري بقطعة من الجنفاص ، ونادى بيوتر قائلاً :

ـ أهيأت بندقيتك ؟ يحسن بنا ان نخبئها .

ـ ولكن ماذا لو اردنا الدفاع عن انفسنا ؟

فضحك غريغوري قائلاً :

ـ دعك من هذا! لئن عثروا عليها فسيشنقوننا .

ثم خرجا إلى الحوش . ولسبب ما اخفيا اسلحتهما كل على انفراد . ولكن غريغوري كان قد دس مسدسه الاسود الجديد تحت وسادته .

وما كادوا يفرغون من عشائهم ، وفيما كانوا يتهيأون للمنام ، شرع الكلب المربوط في الفناء يرسل نباحاً مبحوحاً وهو يشد قيده خانقاً نفسه بالطوق . وخرج العجوز ليستجلي الامر وعاد برجل قد امال قلنسوته إلى عينيه . وحين دخل الرجل الذي كان يرتدي بزة عسكرية كاملة رسم اشارة الصليب على نفسه وتصاعدت من شاربيه المتجمدتين سحابة من البخار وسأل :

ـ ألا تعرفونني ؟

فهتفت داريا :

ـ انه قريبنا ماكار!

وحينذاك فقط عرف بيوتر والآخرون قريبهم البعيد ماكار نوغايتسيف ، وهو قوزاقي من قرية سينغين ، ذاع صيته في انحاء المنطقة لصوته الجميل وافراطه في الشراب . فابتسم بيوتر ، دون ان يتحرك من مجلسه ، وقال :

ـ ما الذي جاء بك إلى هنا ؟

وانتزع نوغايتيسف من شاربيه بلورة من الجليد ، وألقى بها قرب الباب ، وضرب الأرض بقدميه في جزمته اللبادية الكبيرة . ثم شرع يخلع ثياب السفر على مهل .

ـ ليس الرحيل بمفردي امراً ساراً ، ففكرت بالمجيء اليكم لنذهب معاً . فقد بلغني ان كلا الأخوين في البيت ، فقلت لزوجتي انني ذاهب لاصطحب آل ميليخوف ، وحينذاك تغدو جماعتنا اكثر مرحاً .

ثم انزل بندقيته عن كتفه ووضعها عند الموقد بجانب الملاقط ، فأثار بذلك ضحك النساء . ثم دس صرته تحت الفرن ، ولكنه وضع سيفه وسوطه

على السرير بعناية . وكان زفيره يفوح كعهده برائحة الفودكا المنزلية . وبدا الثمل واضحاً في عينيه ولاح من ثنيات لحيته الندية صف جميل من اسنان بيضاء مائلة للزرقة تشبه الصدف النهري .

فسأله غريغوري وهو يقدم اليه كيس تبغه المزرقش :

ـ هل سيرحل جميع القوزاق عن سينيغين ؟

فدفع الضيف عنه يد غريغوري قائلاً :

ـ اشكرك ، لا ادخن... القوزاق ؟ رحل بعضهم ، ويبحث الآخرون عن مكان يختفون فيه . هل أنتم راحلون ؟

فقالت ايلينشنا بفزع :

ـ لن يرحل قوزاقنا . اياك ان تزين لهم ذلك .

ـ لا أحسبكم باقين هنا ؟ لا استطيع ان اصدق ذلك ، أصحيح هذا ، يا قريبي غريغوري ؟ انكم تسعون إلى المتاعب ، يا أولاد .

فقال بيوتر :

ـ لا حول ولا... ـ وتنهد واحمر وجهه على حين غرة ، واردف : ـ غريغوري ، ما رأيك ؟ الم تغير رأيك ؟ هل نرحل ؟

ـ أبداً .

واكتنف غريغوري اكليل من الدخان فتعلق على خصلات شعره الكثة .

فسأل بيوتر ماكار مغيراً وجهة الحديث :

ـ هل خرج والدي ليعنى بحصانك ؟

وران عليهم صمت طويل لم يقطعه سوى طنين دولاب مغزل دونيا يثير النعاس . وظل توغايتسيف ساهراً حتى الفجر يحاول اقناع الآخرين للذهاب معه عبر الدونيتس . واثناء الليل انسل بيوتر إلى الخارج مرتين ليسرج حصانه ، ولكنه عاد في كلتا المرتين ليجرد الحصان من سرجه راضخاً لعيني داريا المنذرتين بالوعيد .

طلع الصبح ، فتهيأ الضيف للرحيل . وحين ارتدى كل ملابسه وقف

ويده على سقاطة الباب ، واتى نحنحة ذات مغزى ، وقال بصوت ينم عن الوعيد .

ـ قد يكون طريقكم افضل ، ولكنكم قد تأسفون فيما بعد . فاذا ما قيض لنا ان نعود ، فسنتذكر اولئك الذين فتحوا للحمر ابواب الدون ومكثوا ليقوموا على خدمتهم...

كان الثلج يتساقط بكثرة منذ الصباح . وحين خرج غريغوري إلى الفناء شاهد حشداً اسود من الرجال يتحرك نحو المعبر في الجانب الآخر من الدون . كانت الخيل تجر شيئاً ما ، وقد شدت كل ثمانية منها معاً ، وكان بوسعه ان يسمع الكلام ، والصهيل ، والشتائم . وبدت اشكال الرجال والخيل داكنة خلل دوامة الثلج وكأنها وسط لجة من الضباب . ومن طريقة شد الخيل خمن غريغوري انها بطارية مدفعية : «اتراهم حمراً ؟» واشتد وجيب قلبه ازاء هذا الاحتمال ، ولكنه اطمأن بعد ان فكر بالأمر ثانية .

واقترب الحشد المبعثر من القرية . وقام بالتفاف واسع المدى تحاشياً لحفرة سوداء فاغرة في الجليد . ولكنهم حين اقتربوا من حافة النهر انكسر الثلج تحت عجلة المدفع الاول . وحملت الريح إلى اذني غريغوري صيحات السواق وخشخشة الثلج المتهشم ، وضربات حوافر الخيل السريعة المنزلقة . ودخل إلى حظيرة الماشية القائمة وراء البيت وجعل يسترق النظر بحذر . واستطاع ان يعرف من كتافياتهم التي غطاها الثلج قليلاً انهم قوزاق . وبعد بضع دقائق اجتاز بوابة ميليخوف مدفعي كهل على صهوة حصان طويل القامة عريض الظهر . فترجل عند درجات العتبة وربط العنان إلى عمود السياج ودخل الدار . وقال بعد ان حيا من في الدار :

ـ من هو رب البيت هنا ؟

فأجاب بانتلاي بروكوفتش : «انا...» ـ وانتظر بقلق ان يوجه إليه مثل هذا السؤال : «لماذا بقي رجالك في الدار ؟» بيد ان المدفعي نفض الثلج عن عذاريه الطويلين المجعدين وتوسل قائلاً :

ـ بحب المسيح ، ساعدونا على اخراج مدفعنا . لقد غاص في النهر حتى المحور قرب الشاطئ تماماً . ألديكم شيء من الحبال ؟ ما اسم هذه القرية ؟ لقد تهنا بسبب الثلج . ثم ان الحمر يتعقبوننا عن كثب .

فقال الشيخ متردداً :

ـ لا ادري ، والله...

ـ ما الذي لا تدريه ؟ لعمري انكم قوزاق طيبون! نحن في حاجة إلى رجال لمساعدتنا . فقال بانتلاي بروكوفتش كاذباً :

ـ ان صحتي ليست على ما يرام .

فجال المدفعي عينيه بينهم كالذئب ، دون ان يدير رقبته ، وبدت نبرة صوته اكثر قوة وعنفواناً :

ـ ألستم قوزاقاً ؟ هل بوسعكم ان تدعوا المعدات الحربية تذهب هباء ؟ لم يعد ثمة من يقود البطارية سواي ، فقد هرب الضباط جميعاً . ومضى علي اكثر من اسبوع وانا لا أكاد ابارح السرج ، لقد تجمدت اوصالي ، وفقدت اصابع احدى قدمي بسبب لسعة الجليد ، ولكني لن اتخلى عن بطاريتي ، وانتم... لئن ابيتم تقديم المساعدة لنا فإني سأستدعي قوزاقي وسوف... ـ وصاح بصوت غاضب متهدج : ـ سوف نرغمكم على ذلك يا ابناء العواهر! يا بلاشفة! سوف نشد عدة الخيل عليك ايها العجوز ، ان شئت ذلك . اذهب واستدع مزيداً من الرجال واذا لم تعد بهم ، فاننا ، والله ، سنمحو قريتكم من الوجود...

كان يتكلم كمن لا يثق بقوله كل الثقة . فأسف غريغوري لحاله .

-امسك بقبعته وقال بخشونة ، دون ان ينظر إلى المدفعي الهائج :

. كفى زعيقاً! سنساعدك ثم امضِ إلى شأنك بسلام .

سرعان ما عثر على جمع كبير من القوزاق الراغبين في تقديم ـدة . وبالتعاون مع رجال البطارية قام انيكوشكا ، وتوميلين وخريستونيا . ميليخوف وزهاء عشر نساء ، بوضع العصي تحت العجلات ثم رفعوا مدفع

الميدان وصناديق الذخيرة وأعانوا الخيل على مواصلة السير . ولم تدر العجلات ، انما راحت تنزلق على الثلج انزلاقاً . وقد وجدت الخيل المنهكة كل المشقة في ارتقاء اوطأ المرتفعات . ولم يبق من رجال البطارية الا نصفهم راح يمشي على الاقدام . وخلع المدفعي قبعته وانحنى شاكراً اولئك الذين مدوا اليه يد المعونة ، واستدار على سرجه فأمر البطارية بهدوء ان تتبعه .

وسرح غريغوري النظر وراءه بشعور من الاحترام تخالطه الريبة والدهشة وتقدم بيوتر وهو يلوك شاربيه ، وكأنه يعقب على ما دار في خلد غريغوري :

ـ ألا ليتهم جميعاً مثل هذا! هكذا يكون الدفاع عن الدون الهادئ!

فسألهما خريستونيا وهو متسخ من رأسه إلى أخمص قدميه :

ـ أتتحدثان عن ذلك المدفعي ؟ يبدو انه سيوصل مدافعه حيث يشاء مهما كلفه الامر! ارأيتم كيف هز السوط امام وجهي ، ذلك النغل! لا بد ان اليأس قد تملكه . لم اكن راغباً في المساعدة ، ولكن الذعر تملكني فجئت رغم انني لا املك جزمة ارتديها . ولكن ما جدوى تلك المدافع لهذا الاحمق ؟ انه اشبه بخنزير خطر مربوط إلى جلمودة من الخشب . انها لا تجديه فتيلاً ، بيد انه يمضي قدماً في جرها .

فابتسم القوزاق ومضوا كل إلى حال سبيله .

١٦

تصرّم الظهر ، ومن وراء الدون تأتأ مدفع رشاش ببضع صليات ، ثم خلد إلى الصمت .

وبعد نصف ساعة خطا غريغوري ، الذي امضى سحابة يومه عند نافذة غرفة الاستقبال ، إلى الوراء وقد استحال وجهه ازرق كالرماد ، وقال :

ـ ها قد جاءوا!

فصاحت ايلينتسنا واندفعت صوب النافذة . كان في الطريق ثمانية فرسان يهذبون على خيلهم . واذ بلغوا فناء ميليخوف على خبب ، توقفوا ، ونظروا إلى المعبر على الدون والدرب الاسود الممتد بين النهر والجبل ، ثم عادوا ادراجهم . كانت خيلهم الشبعى تلوح بذيولها المهلوبة ، وتثير كتل الثلج بحوافرها . وراحت الدورية تستطلع القرية ثم توارت عن الانظار .

وما هي إلا ساعة حتى ضجت تتارسكي بخبط أقدام وكلام غريب ، ونباح كلاب . فقد عبرت الدون كتيبة مشاة وجعلت تتدفق إلى القرية ومعها رشاشات محملة على الزحافات ، وعربات شحن ومطبخ ميدان .

رغم ما في تلك اللحظة الأولى لوصول قوات العدو من فظاعة ، لم تستطع دونيا أن تكبح هأهأتها . فحين عادت الدورية أدراجها ، زنخرت في صدريتها وهرولت إلى المطبخ ، فلقيتها ناتاليا بنظرة وجلة ، وسألتها :

ـ ما الأمر ؟

ـ اوه ، ناتاليا ، يا عزيزتي ، ليتك رأيت كيف يركبون خيلهم! كان رجل منهم يهتز في سرجه إلى الأمام وإلى الوراء ، إلى الامام وإلى الوراء... وكان ذراعاه ومرفقاه يصفقان جنبيه ، وكأنهم جميعاً مصنوعون من قماش!

لقد أجادت محاكاة الجنود الحمر الذين كانوا يتأرجحون على سروجهم مما جعل ناتاليا تهرع إلى الفراش ، وهي تكتم ضحكتها ، وتنكب على الوسادة لتتحاشى غضب حميها منها .

كان بانتلاي بروكوفتش ، الذي اعترت أوصاله الرجفة ، جالساً على المصطبة يعبث على غير هدى بخيط السكافة والإبر وعلبة المسامير الخشبية ، وظل يتطلع إلى خارج النافذة ، وفي عينيه نظرة حيوان وقع في الفخ .

أما في المطبخ فقد تعالت قهقهات النسوة على نحو يثير حفيظة الآخرين . كانت دونيا ، وقد احمر وجهها فغدا بلون الارجوان ، واخضلت عيناها بالدموع فراحتا تشعان كحبات الزيتون الأسود المندى ، تمثّل لداريا

كيف جلس الجنود الحمر على سروجهم وتضفي على حركاتها المنتظمة مسحة من التهتك دون أن تشعر بها .

فراح حاجبا داريا المزججان يرتعشان وهي تغصّ بضحكاتها العصبية وتشهق شهيقاً أبح .

ـ أخشى ان يثقبوا سراويلهم . ويسمون أنفسهم خيالة...!

وحتى بيوتر ، الذي دخل المطبخ مهموماً سرى إليه مرحهن لحظة فقال :

ـ إنه لمشهد غريب أن يراهم المرء راكبين على هذه الشاكلة . ولكن لا يضيرهم ، فإن هم قصموا ظهر جواد حصلوا على واحد آخر! يا للفلاحين! لعلهم لم يروا الخيل في حياتهم إلا مرة واحدة! كان آباؤهم يخافون من صرير عجلات العربات ، أما هؤلاء فيمتطون صهوات الجياد... غريب أمرهم!...

ثم لوح بيده بحركة تنم عن ازدراء لا يوصف .

وراح جنود الجيش الاحمر يتدفقون من الشوارع ، وتوزعوا جماعات دخلت الأفنية . وقد عرج ثلاثة منهم إلى بوابة انيكوشكا ، ونزل خمسة آخرون في كوخ استاخوف ، كان أحدهم يمتطي جواداً ، وتوجه الخمسة الباقون إلى بيت ميليخوف بمحاذاة السياج . دخلوا البوابة يتقدمهم كهل مكتنز الجسم حليق الوجه ذو أنف أفطس واسع المنخرين ، بادي اليقظة والنشاط ، والظاهر أنه كان محارباً قديماً . وتوقف عند الدرجات برهة يراقب الكلب الذي طفق ينبح ، وهو يكاد يختنق بقيده ، ثم أنزل بندقيته من على كتفه . فانهال على دوي الاطلاقة ضباب أبيض من الثلج الذي تساقط من سقف المنزل . وكان غريغوري يشهد ذلك من الشباك فجعل يجر ياقة قميصه الضيقة وهو يرى الكلب يتلوى على الثلج الملطخ بالدماء ويعض جنبه الجريح وقيده الحديدي وهو يعاني سكرات الموت ، واذ التفت وقع نظره على وجوه النسوة وقد ابيضت من الشحوب ، وعلى عيني أمه الفزعتين . فخطا شطر الباب دون أن يرتدي قبعته .

فصاح أبوه وراءه بصوت غريب :

ـ قف!

واذ فتح غريغوري الباب الامامي ، سقطت على العتبة خرطوشة فارغة فأحدثت رنيناً معدنياً . ودخل الجنود الحمر الآخرون من خلال البوابة ، فسأل غريغوري من على العتبة :

ـ علام أطلقت النار على الكلب ؟ هل كان يؤذيك ؟

كان منخرا الجندي الاحمر الواسعان يجران أنفاساً ثقيلة ، وقد تهدلت زاويتا شفتيه الرقيقتين ، فالتفت وجعل بندقيته في وضع التهيؤ لإطلاق النار . وقال :

ـ ما شأنك في ذلك ؟ أآسف انت ؟ سأضع فيك رصاصة دون أن آسف لذلك . أتود أن أفعل ذلك ؟ قف إزاء السياج!

فتقدم رجل من الحرس الأحمر طويل القامة ، أحمر الشعر وقال ضاحكاً :

ـ كفي ، كفي! دعك من هذا ، يا الكساندر . أسعدت عصراً ، أيها السيد! هل رأيت حمراً من قبل ؟ إننا نريد مأوى . هل رمى كلبك بالرصاص ؟ لم يكن هناك داع لذلك أبداً! ايها الرفاق ، ادخلوا!

كان غريغوري آخر من دخل الدار ، فألفى رجال الجيش الاحمر يحيون أهل البيت بانشراح ، وينزلون حقائبهم وينزعون أحزمة العتاد الجلدية اليابانية ، ويلقون معاطفهم ، وسترهم المحشوة بالقطن ، وقبعاتهم على السرير . فامتلأ المطبخ للحال برائحة الجنود الكحولية الحامضة والعرق ، والتبغ ، والصابون الرخيص ، وشحم البنادق ، ووعثاء السفر .

جلس الرجل المدعو الكساندر عند المائدة ، وأشعل سيكارة ، ثم سأل غريغوري ، وكأنه يستأنف حديثه :

ـ هل كنت مع البيض ؟

ـ أجل...

ـ هكذا... بوسعي أن أميز البوم في الحال من طيرانها ، أما أنت فمن مخاط أنفك . أبيض! وأحسبك ضابطاً كذلك ؟ ضابط بشارات كتف ذهبية ؟

وأرسل الدخان خلل منخريه على هيئة عمودين ، والتفت بعينيه العدائيتين العابستين إلى غريغوري الذي كان واقفاً عند الباب ، ثم نفض سيكارته بظفر مقوس ملطخ بالتبغ وأردف :

ـ كنت ضابطاً ، أليس كذلك ؟ هيا اعترف! بوسعي أن أعرف ذلك من الطريقة التي تشد بها قامتك . لقد كنت في الحرب الألمانية ، أنا ايضاً .

فحمل غريغوري نفسه على الابتسام وأجاب : « أجل ، كنت ضابطاً » . واذ التقت عيناه بعيني ناتاليا الهلعتين المتوسلتين وقد سمرتهما عليه ، عبس وارتعش حاجباه ، وهو يشعر بالغيظ من ابتسامته تلك .

ـ اسفاً! اذاً لم يكن الكلب هو الذي ينبغي أن أرميه بالرصاص!...

ومن جديد أحس غريغوري بشفتيه تلتويان ، بالرغم عنه ، في ابتسامة مستغفرة مسترحمة ، فاحمر وجهه خزياً من بوادر تخاذله الذي لم يقو على كبحه . وجعلت هذه الفكرة تلهب أفكاره : « ما أشبهني بكلب مذنب أمام سيده! » وتمثل لعينيه برهة الكلب المقتول يوم كان يدنو منه ، وهو سيده ، فتلتوي شفتاه ويهتز ذيله الزنجبيلي الكث فيما ينبطح على ظهره .

وبالنبرة الغريبة نفسها سأل بانتلاي بروكوفتش ضيوفه ما اذا كانوا يريدون بعض العشاء ، قائلاً إنه سيأمر ربة البيت أن...

ومضت ايلينشنا صوب الموقد دون أن تنتظر الجواب . وقد ارتجف السفود في يدها ، وهي لا تكاد تستطيع ان ترفع به قدر حساء الكرنب المخلل من الفرن . وأعدت داريا المائدة منكسة العينين ، فجلس الجنود الحمر دون أن يرسموا إشارة الصليب على أنفسهم . فراح الشيخ يراقبهم بوجل ونفور خفي . وأخيراً لم يعد يستطيع كبح جماح نفسه ، فرأى من واجبه أن يسألهم :

ـ اذاً فأنتم لا تصلون لله ؟

فلاح على شفتي الكسندر ظل ابتسامة طفيف ، وأجاب وسط عاصفة من قهقهات زملائه :

ـ لا أنصحك بالصلاة ، أنت ايضاً ، أيها الشيخ! لقد طردنا آلهتنا منذ زمن بعيد إلى... ـ ثم تلعثم وأردف : ـ ليس ثمة آلهة ، ولكن الحمقى لا يصدقون ذلك فيمضون في صلاتهم لهذه القطع من الخشب .

فأسرع بانتلاي بروكوفتش يؤيده بخوف :

ـ أجل ، أجل... إن للمثقفين بطبيعة الحال...

وكانت داريا قد وضعت لكل رجل ملعقة ، بيد أن الكسندر دفع ملعقته جانباً وقال :

ـ أليست عندكم ملاعق أخرى غير خشبية ، لسنا نريد أن نصاب بالمرض . أتسمون هذه ملعقة ؟ إنها قطعة خشب لا غير...

فغضبت داريا وصاحت :

ـ عليك أن تحمل ملعقتك معك إن كانت ملاعقنا لا تروق لك .

ـ اسكتي يا شابة! أليس لديكم غيرها ؟ إذن أعطيني منشفة نظيفة امسح بها هذه الملعقة .

وجاءت ايلينشنا بالحساء إلى المائدة في إناء كبير ، فطلب إليها قائلاً :

ـ ذوقيه أنت أولاً ، يا أم .

فسألته العجوز فزعة :

ـ لماذا أذوقه ؟ أتظنه مالحاً أكثر من اللازم ؟

ـ ذوقيه كما أمرتك ، ذوقيه . ربما وضعت فيه لضيوفك مسحوقاً ما...

فأمرها بانتلاي بروكوفتش بصرامة : «تناولي منه ملعقة ، هيا!» وما عتم أن أطبق شفتيه . ثم جاء بآلات اسكافٍ وقرمة لشجرة حور كان يستعمله مقعداً حين يرقع الأحذية ، فدفعه إلى النافذة وجلس يحتضن جزمة عتيقة . ولم يعد يسهم في الحديث .

أما بيوتر فقد لبث في غرفة الاستقبال . وقد ذهبت ناتاليا هناك هي

الأخرى فجلست مع الطفلين . ولبثت دونيا جالسة تنسج جورباً وقد اتكأت على الموقد ، ولكنها غادرت المكان حين خاطبها أحد الجنود الحمر بـ«سيدتي الشابة» ودعاها للعشاء معهم . ثم تلاشى الحديث . وبعد أن تناول الضيوف طعامهم أشعلوا السكائر ، وقال ذو الشعر الأحمر :

ـ هل التدخين مسموح عندكم ؟

فوافقت ايلينشنا على مضض :

ـ يوجد هنا الكفاية من المدخنين .

ورفض غريغوري السيكارة التي قدموها إليه . كان داخله كله يرتجف ، وقد اعتصر قلبه مرأى الرجل الذي قتل الكلب ، وراح يبدي إزاءه ذلك الموقف المتحدي الوقح . ولا ريب أن الرجل كان يبحث عن المتاعب ، فراح يحاول طوال الوقت أن يجر غريغوري إلى الحديث . فسأله :

ـ في أي كتيبة خدمت ، يا صاحب السعادة ؟

ـ في العديد منها .

ـ كم من زملائنا قتلت ؟

ـ ليس ثمة حساب في الحروب . لا حاجة بك إلى الظن بأنني ولدت ضابطاً ، يا رفيق . حصلت على الرتبة أثناء الحرب الالمانية . منحوها لي لقاء خدماتي...

ـ لست رفيقاً للضباط ، إننا نوقف امثالك إزاء الحائط ونرميهم . أنا نفسي صوبت بندقيتي إلى أكثر من واحد .

ـ ما أود قوله ، يا رفيق هو : لا يحسن أن تسلك هذا السلوك ، تتصرف وكأنكم استوليتم على القرية عنوة . لقد تركنا الجبهة بأنفسنا ، وأفسحنا لكم الطريق ، ولكنكم جئتم إلى هنا كمن يدخل بلداً مدحوراً . بوسع أي إنسان أن يرمي كلباً بالرصاص ، وليس فخراً أن تقتلوا أناساً عزلاً أو توجهوا الإهانات إليهم...

ـ لا تشر علي بما يجب أن أفعله! إننا نعرفكم جيداً... «تركنا الجبهة»! لو لم ندحركم لما تركتموها . وبوسعي أن أكلمك كما يحلو لي .

فزمره الرجل ذو الشعر الاحمر قائلاً :

ـ اخرس ، يا الكسندر! سمعنا من صوتك ما فيه الكفاية! إلا أن الكسندر تقدم من غريغوري ، وقد اتسع منخراه وتلاحقت انفاسه :

ـ خير لك ألا تثيرني ، أيها الضابط ، وإلا فالويل لك!

ـ أنا لا أثيرك .

ـ أجل ، أنت تثيرني!

ففتحت ناتاليا باب الغرفة الامامية ونادته بصوت مرتعش . فدار حول الرجل الواقف أمامه ، وترنح في مدخل الغرفة كالسكران ، فاستقبله بيوتر بهمس عدائي متوجع :

ـ ما هذا العبث ؟ الشيطان وحده يعلم لماذا رددت عليه! ستجلب الويل على نفسك وعلينا! اجلس!

فدفع غريغوري إلى احد الصناديق وأجلسه عنوة ثم ذهب الى المطبخ . وجلس غريغوري يلهث بشهقات كبيرة وتلاشى الاحمرار الشديد من خديه ، والتمعت عيناه بوهن .

فتوسلت ناتاليا إليه وهي ترتجف واضعة ثديها على فمي الطفلين اللذين أوشكا أن يصرخا :

ـ غريغوري! يا روح قلبي! دعهم وشأنهم!

فقال غريغوري ، وهو ينظر إلى ناتاليا بقنوط :

ـ لِمَ لم أرحل ؟ لا داعي للقلق ، لن أفعل ذلك . ولكن اسكتي! لا أستطيع احتمال المزيد .

وبعدها جاء ثلاثة جنود آخرين من الجيش الاحمر . وقال أحدهم ، وكان يرتدي قبعة من الفرو الأسود ، والظاهر انه الآمر :

ـ ما عدد النازلين هنا ؟

فأجابه الرجل ذو الشعر الاحمر عن الجميع ، وهو يعالج العزف على أوكورديونه :

ـ سبعة رجال .

ـ سنضع نقطة رشاشات هنا . عليكم أن تفسحوا لهم المجال .

وخرج الرجال الثلاثة . ثم ما لبثت البوابة أن صرت ودخلت الفناء عربتان . وسحب رشاش إلى سقيفة الباب . وأشعل أحدهم عود ثقاب وشتم في الظلمة بحنق . وراح رجال المدفع الرشاش يدخنون تحت سقف المخزن ، ثم أنزلوا بعض القش ، وأوقدوا في ساحة درس الحبوب ناراً . ولكن أحداً لم يخرج إليهم من اصحاب البيت ، .

وهمست ايلينشنا وهي تمر قرب بانتلاي بروكوفتش : «ينبغي أن تذهب للعناية بالخيل» . ولكنه اكتفى بهز كتفيه دون أن تبدر منه محاولة للقيام . وظلت الأبواب تصطفق طوال الليل . وعلق تحت السقف بخارأبيض وتقطر على الجدران كالندى . وقد افترش رجال الجيش الاحمر قاع الغرفة الامامية . وجاء غريغوري ببعض البسط وفتحها لهم ثم وضع فروته ليتوسدوها .

ـ كنت في الجيش كذلك ، فأنا اعرف الحالة ، ـ قال غريغوري ذلك وهو يبتسم ابتسامة صلح للرجل الذي اعتبره عدواً . الا ان منخري الكساندر العريضين اتسعا وراحت عيناه ترقبان غريغوري دون رغبة في المصالحة . رقد غريغوري وناتاليا في الغرفة نفسها . ووضع رجال الجيش الاحمر بنادقهم عند رؤوسهم واحتشدوا على البسط . وكانت ناتاليا على وشك أن تطفئ المصباح ولكن سؤالاً زاجراً ما لبث أن حال دون ذلك :

ـ من طلب إليك أن تطفئي المصباح ؟ إياك أن تطفئي الضوء! اخفضي الفتيلة ، ودعيها تشتعل طوال الليل .

وأرقدت ناتاليا الطفلين عند قدميها ، وتمددت إزاء الجدار دون أن

تخلع ملابسها . وتمدد غريغوري بجانبها بصمت ويداه تحت رأسه .

وراح يقول في سره ، وهو يصر بأسنانه :

ـ لو كنت قد رحلت ، لو كنت قد ذهبت لافترشوا ناتاليا على هذا السرير وقضوا معها وطرهم ، كما فعل الرجال بفرانيا في بولندا .

وشرع أحد رجال الحرس الأحمر يروي قصة ، لكن صوتاً مألوفاً انطلق في العتمة يقاطعه بتحد :

ـ آه ، ما أشقى الحياة ، بلا نساء ؟ إلا أن رب البيت ضابط! ولن يتنازل عن زوجته لنا معشر الجنود البسطاء ذوي الأنوف القذرة... أتسمع أيها السيد ؟...

كان احد الرجال يشخر ، واطلق آخر ضحكة ناعسة . ولكن الرجل ذا الشعر الأحمر قطع عليه الكلام بصوته المتوعد :

ـ كفى ، يا الكسندر ، لقد نصحتك ما فيه الكفاية ، ففي كل مأوى يحدث الشيء ذاته ، تثير المتاعب ، وتسلك سلوك الشقاة . فتجلب العار إلى اسم مقاتل الجيش الاحمر . لم أعد أحتمل! إني ذاهب إلى القوميسار أو إلى آمر السرية في الحال . وسيكون لديه ما يقوله لك!

فخيم عليهم صمت كصمت المقابر لا يقطعه إلا صوت الرجل ذي الشعر الاحمر وهو يقبع غضباً فيما كان يرتدي جزمته . وبعد قليل غادر الغرفة صافقاً الباب وراءه .

ولم تقو ناتاليا على ضبط نفسها أكثر من ذلك فانفجرت تنشج بصوت مسموع . فراح غريغوري يمسد بيد راجفة رأسها ، وجبينها الندي ، ووجهها المخضل بالدموع فيما كانت يده الأخرى تفك أزرار قميصه وتشدها من جديد بحركة لا إرادية .

وهمس لها بصوت لا يكاد يسمع : «اهدأي ، اهدأي!» كان في تلك اللحظة يعلم علم اليقين أنه على استعداد لتقبل أية محنة أو مذلة لينقذ حياته وحياة أعزائه .

وأشعل أحدهم عود ثقاب فكشف الضوء عن الكسندر وفمه وأنفه الافطس ، وهو جالس يجر نفساً من سيكارة . ودمدم بصوت خافت وشرع يرتدي ملابسه . فأجهد غريغوري أذنيه ، وقد تملكه امتنان لا حد له للرجل ذي الشعر الاحمر ، واعترته رعشة البهجة حين سمع وقع خطوات تحت النافذة وصوتاً ساخطاً يقول :

ـ وهو طوال الوقت يحاول إثارة المشاكل... أيها الرفيق القوميسار .

وتعالى وقع الخطوات في السقيفة وصر الباب ثم فتح ، وأصدر أحدهم أمراً بنبرة فتية :

ـ الكسندر تورنيكوف ، ارتدِ ملابسك واخرج على الفور . ستمضي الليل في كوخي ، وفي الصباح سنحاكمك لسلوكك الذي لا يليق بجندي من الجيش الاحمر .

والتقت عينا غريغوري بنظرة ثاقبة طيبة تنبعث من عيني رجل يرتدي سترة قصيرة سوداء من الجلد واقف بجانب الرجل ذي الشعر الاحمر . كان بادي الفتوة والعنفوان وقد انطبقت شفتاه بصرامة أكثر قليلاً مما ينبغي . فقال لغريغوري وهو يبتسم ابتسامة طفيفة :

ـ اذا ، فقد كان عندك ضيف مشاكس ، أيها الرفيق ؟ حسناً ، يمكنكم الآن أن تناموا وسوف نلقنه درساً غداً . طاب مساؤكم ، هيا ، ياتورنيكوف!

ثم خرجوا ، فتنفس غريغوري الصعداء . وفي الصباح ، حين سدد الرجل ذو الشعر الاحمر أجرة مبيت الليلة والمؤونة تخلف عن الآخرين عامداً وقال :

ـ حسناً ، يا سادة ، لا تغضبوا منا . الكسندر ، صاحبنا ذاك ، كأنه مصاب في عقله بعض الشيء . ففي العام الماضي قام بعض الضباط البيض في لوغانسك (وهي مدينته) باعدام أمه وأخته بالرصاص أمام عينيه . وهذا سبب حالته هذه . حسناً ، شكراً لكم . اوه ، كدت أنسى الطفلين!...

واخرج من حقيبته قطعتين رمادتين متسختين من السكر دسهما في يديهما ، فسر الطفلان أيما سرور .

وحدق بانتلاي بركوفتش بحفيديه ، ثم هتف وقد تأثر تأثراً عميقاً :

ـ يا لها من هدية! لم نرَ سكراً طيلة ثمانية عشر شهراً أو يزيد . الله معك ، ايها الرفيق . انحنيا للرجل أيها الطفلان! اشكريه يابوليا! وأنتِ يا ميلوشكا ، فيم وقوفك كالبكماء ، يا حبيبتي ؟

ثم خرج الجندي الاحمر ، فالتفت الشيخ صوب ناتاليا غاضباً :

ـ ألا تعرفين حسن التصرف ؟ كان عليك أن تعطيه كعكة لرحلته . علينا أن نرّد معروف الرجل الطيب بمعروف .

وأمرها غريغوري قائلاً :

ـ اركضي وراءه!

فألقت ناتاليا شالها على رأسها وجرت فأدركته عند البوابة الصغيرة ودست الكعكة في جيب معطفه الواسع وقد احمر وجهها ارتباكاً .

١٧

عند الظهيرة مرت بالقرية فرسان حمر مسرعة ، فأخذت معها الخيل العسكرية العائدة لبعض القوزاق . وكان دوي المدافع يتناهى إلى الأسماع من وراء التل .

فاستنتج بانتلاي بروكوفتش قائلاً :

ـ لا بد أن هناك قتالاً على نهر التشير .

وفي المساء ، خرج بيوتر وغريغوري إلى الفناء أكثر من مرة . كان بوسعهما أن يسمعا هدير مدافع الميدان ، وحين كانا يضعان أذنيهما على الأرض المتجمدة كانت تبلغ أسماعهما ترثرة رشاشات خافتة تكاد لا تميز ، من موضع ما بعيد عن الدون .

فقال بيوتر ، وهو ينهض نافضاً الثلج عن ركبتيه وقبعته :

ـ إنهم يخوضون معركة حامية!

ثم أضاف دونما مناسبة :

ـ سيأخذون حصانينا ، إن حصانك ؛ جيد ، يا غريغوري ، سيأخذونه حتماً .

وحين ذهب غريغوري عند حلول المساء إلى الاسطبل ليخرج بالحصانين إلى النهر ليوردهما ، وجد أنهما يظلعان على قادمتيهما . فذهب يستدعي أخاه ، وقال له :

ـ أصيب جوادانا بأذى ، جوادك في قادمته اليمنى وجوادي في اليسرى . ولكن ليس هناك أثر للجروح .

كان الحصانان واقفين دون حراك على الثلج ذي الظلال الارجوانية ، تحت أنجم المساء الخابية . فأشعل بيوتر فانوساً ، غير أن أباه خرج من ساحة درس الحبوب واستوقفه :

ـ ما حاجتك بالفانوس ؟

ـ الجوادان يظلعان ، يا أبتي .

ـ وهل في هذا ما يدعو للأسف ؟ أم إنك تريد أن يأتي فلاح فيسرجهما ، ويمضي بهما ؟

ـ هذا صحيح ، ولكن...

ـ أنا الذي فعلت ذلك . قل لغريشا أنني أخذت مطرقة وأدخلت مسماراً في ساقيهما تحت الغضروف ، وسيظلان يظلعان حتى يذهب الحمر .

فهز بيوتر رأسه وراح يعض على شاربيه ، لكن علاج العجوز أنقذ الحصانين . ففى تلك الليلة ضجت القرية بالجند ثانية ، فراح الفرسان يذهبون فى الشوارع ، وسيقت البطاريات لتصف فى الساحة . فقد باتت كتيبة الخيالة الثالثة عشرة ليلتها فى القرية . وجاء خريستونيا إلى بيت ميليخوف ، فجلس القرفصاء وأشعل سيكارة وسأل :

ـ ألم ينزل فى بيتكم أي من الشياطين ؟

فدمدمت ايلينشنا برمة :

ـ لقد نجانا الله حتى الآن . كان البعض منهم عندنا ، فامتلأ الكوخ بجيفتهم الفلاحية .

فانخفض صوت خريستونيا حتى غدا همساً وقال : «لقد جاؤوا لزيارتي» . ثم مسح براحته الضخمة دمعة صغيرة من عينية . بيد انه هز رأسه الكبير ، وتأوه ، وبدا عليه الخجل من دموعه .

ولأول مرة في حياة بيوتر رأى خريستونيا يبكي فسأله ضاحكاً :

ـ ماذا ، يا خريستونيا ، ما بالك ؟

ـ أخذوا حصاني... لقد خضت الحرب الالمانية على ظهره . وقاسينا المحن سوية... كان أشبه بالانسان وله من العقل ما يفوق البشر . لقد قال لي الرجل : «أسرجه أنت فلست أقدر عليه» . فقلت له : «آه ، ألا تستطيع ؟ هل ينبغي أن أسرجه لك طوال حياتي ؟ أسرجه أنت اذا أردت أن تأخذه . وقد فعل ، ذلك النغل الصغير . كان قزماً صغيراً لا يكاد يبلغ خاصرتي . وحين قاد الحصان إلى البوابة جعلت أبكي كالأطفال . وقلت لزوجتي : «كم اعتنيت بذلك الحصان وأطعمته وسقيته ، وها هو...» واستحالت كلمات خريستونيا همسات متلاحقة كالصفير فيما كان ينهي حديثه : «بت أتوجس خيفة من النظرإلى الاسطبل الخاوي والفناء الذي يعمه صمت المقابر...»

أرهف غريغوري أذنيه ، فاستطاع أن يسمع خارج النافذة خشخشة ، وقعقعة السيوف ، وصوت رجل يصيح : هوه!...

فجعل بانتلاي بروكوفتش يحرك يديه ، دون أن يعرف ماذا يفعل بهما ، وقال : «إنهم قادمون إلى هنا . لعل أحداً أخبرهم أن...» .

وجاء صوت يصيح :

ـ يارب البيت! يا هذا ، اخرج إلى هنا!

فألقى بيوتر فروته على كتفيه وخرج . فأمره رجل يتقدم فارسين آخرين قائلاً :

ـ أين خيلكم ؟ اخرجها!

ـ لا مانع لدي ، ولكنها تظلع ، أيها الرفاق .

ـ أين تظلع ؟ ما عليك إلا أن تخرجها! لا تخف ، لن نأخذها دون مقابل . سنترك لكم خيلنا نحن .

فقاد بيوتر الحصانين واحداً بعد الآخر . فقال أحد الرجال وهو يدير الفانوس إلى داخل الاسطبل :

ـ هناك فرس أخرى في الداخل . لِمَ لم تخرجها ؟

ـ إنها فرس حامل . وهي هرمة ، عمرها مائة عام .

وصرخ الرجل الذي بيده الفانوس غاضباً :

ـ هيه ، أنت ، هات السروج . مهلاً ، لقد صدقت إنهما يظلعان ؟ بحق المسيح ، إلى أين تقود هذين الجوادين الكسيحين ؟ أعدهما!

فجر بيوتر الرسن ، وأشاح بوجهه عن الضوء لكي يخفي شفتيه المتغضنتين .

ـ أين هي السروج ؟

ـ أخذها الرفاق صباح هذا اليوم .

ـ كذبت ، أيها القوزاقي! من أخذها ؟

ـ بحق الله... لعنة الله على الكاذب ، لقد أخذوها . مرت بالقرية كتيبة خيالة فأخذوها : السرجين وطوقين معهما .

مضى الخيالة الثلاثة وهم يشتمون . ودخل بيوتر الدار تنبعث منه رائحة عرق الخيل وبولها . وكانت شفتاه الصارمتان ترتعشان وهو يضرب على كتف خريستونيا ويقول مباهياً :

ـ هكذا تُدبر الأمور . قلنا لهم إن جوادينا يظلعان ، وأنهم أخذوا السروج... آه ، يا لك من أبله!

وأطفأت ايلينشنا المصباح ومضت فى العتمة لتعد الأفرشة . وقالت :

ـ سنجلس فى الظلمة ، وإلا قد يزورنا بعض الثقلاء .

* * *

وفي تلك الليلة أقام آنيكوشكا حفلة أنس في داره . فقد طلب إليه رجال الحرس الأحمر الذين نزلوا عنده أن يدعو إليها جيرانه القوزاق للشراب . فجاء أنيكوشكا ليدعو آل ميليخوف ، وراح يجادلهم :

ـ تقولون إنهم حمر ؟ حسناً ، وماذا أنهم حمر ؟ لقد تعمدوا في الكنيسة ، أليس كذلك ؟ إنهم روس مثلنا ، إني والله أرثي لحالهم ، سواء صدقتم قولي أو لا . هناك يهودي بينهم ، ولكنه إنسان كذلك . لقد ذبحنا من اليهود في بولندا عدداً كبيراً ، ولكن هذا قدم إليَّ كأسا من الفودكا . أنا أحب اليهود . هيا ، يا غريغوري ، وأنت يا بيوترا لا تنظر اليَّ شزراً...

فرفض غريغوري ، بادئ الأمر ، أن يذهب ، ولكن أباه نصحه قائلاً :

ـ اذهب ، وإلا حسبوا أننا نعتبرهم أقل شأناً منا . لا تضمر حقداً لهم .

وخرج بيوتر وغريغوري بصحبة أنيكوشكاإلى الحوش . وكان الليل الدافئ يبشر بجو حسن . كانت في الهواء رائحة رماد وجل محترق . وتوقف القوزاق الثلاثة صامتين برهة ، ثم مضوا . وعند البوابة أدركتهم داريا ، وكان حاجباها المقوسان المزججان يلتمعان في ضوء القمر الخابي كالمخمل الأسود .

وغمغم أنيكوشكا قائلاً :

ـ إنهم يسكرون زوجتي ، ولكنهم لن يحصلوا على ما يبتغون ، فلدي عينان... ـ وكان ثملاً من شرب الفودكا المنزلية . فمضى يترنح صوب السياج ، وتعثر فحاد عن الطريق وغاص في كومة من الثلج .

كان الثلج الأزرق المحبب يخشخش تحت أقدامهم . وراح الثلج ينهمر مزناً من صفحة السماء الرمادية ، والريح تطير الشرر من سكائرهم وتعفرهم بنثار الثلج ، ثم انقضّت على غيمة متهدلة تحت نجوم السماء العالية كما ينقض الصقر على البجع ، فتطاير منها ثلج كالريش الأبيض وانثال على الأرض المستكينة ، فغطى القرية والسهب ومسالك الإنسان والبهائم .

لم يكن في بيت أنيكوشكا متنفس من هواء . وكانت ألسنة حادة من

السخام تتصاعد من المصباح ، ولم يكن في وسع المرء أن يرى شيئاً خلل دخان السكائر وكان عازف أوكورديون من الجيش الأحمر قد مد ساقيه الطويلتين أمامه وراح يعمل منفاخ آلته بحمية . وجلس جنود حمر على المصاطب بصحبة نسوة من جيران أنيكوشكا . وكان يداعب زوجة أنيكوشكا رجل ضخم الجرم يرتدي سروالاً محشواً من الخاكي ، وجزمة قصيرة تنوء بمهمازين كبيرين كأنه جاء بهما من المتحف . وقد دفع قبعته المصنوعة من فرو الحمل الناعم إلى مؤخرة رأسه ، والعرق يتصبب من وجهه الأسمر . وراحت يده العرقة تلهب ظهر المرأة . وكانت الخمرة قد لعبت برأسها فلم تقو على الابتعاد عنه رغم أنها كانت ترغب في ذلك . أدركت ما تعنيه نظرة زوجها وابتسامات النسوة الأخريات . بيد أنها لم تعد تقوى على إبعاد الذراع القوية عن ظهرها ، فلبثت تضحك ضحكات ثملة واهنة .

كانت الأباريق مفتوحة على المائدة ، فملأت رائحة الخمر الكوخ وأمسى غطاء المائدة خرقة قذرة .

وقد توسط الغرفة آمر رعيل خيالة يرتدي سروال فرسان ضيقاً وجزمة بلون صبغة الكروم الصفراء وراح يرقص ويتلوى كشيطان أخضر . وتفرس غريغوري في السروال والجزمة من عتبة الغرفة وقال في دخيلته : «لا بد أنه سلبها من أحد الضباط!» ثم رفع عينيه إلى وجه الرجل : كان أسمر داكن السحنة ، يتصبب عرقاً ، وقد برزت أذناه الكبيرتان المستديرتان ، وبدت شفتاه الغليظتان متهدلتين . فقال غريغوري في نفسه : «إنه يهودي ، ولكنه رشيق الحركات» . ثم صبوا له ولبيوتر شيئاً من الفودكا المنزلية . فراح غريغورى يشرب بحذر ، بيد أن الخمرة سرعان ما لعبت برأس بيوتر . وما إن انقضت ساعة حتى راح يرقص رقصة قوزاقية على الأرض الترابية ، مثيراً بكعبيه الغبار ، صارخاً بصوت مبحوح إلى عازف الأوكورديون أن يسرع في العزف . وجلس غريغوري عند المائدة ، يقشر بذور القرع . وكان يجلس إلى جانبه حامل رشاشة من أهالي سيبيريا . فقال لغريغوري :

ـ لقد سحقنا كولتشاك ، وسنعالج الآن أمر صاحبكم كراسنوف بما يستحق ، وسيكون في هذا خاتمة المطاف! وعند ذلك تستطيعون أن تعودواإلى زراعتكم ، لتحرثوا الأرض ، وتبذروها ، وتجعلوها تلد . فالأرض كالمرأة ، إنها لا تستيجيب لك من تلقاء نفسها ، بل عليك أن تنتزع منها ما يروق لك . واقتل كل من يعترض سبيلك! نحن لا نريد شيئاً مما تملكون . غاية مرادنا أن نساوي بين الجميع...

فوافقه غريغوري الرأي ، بيد أنه كان طوال الوقت يتأمل الجنود الحمر خلسة . ولم يلمح في الجو ما يدعوه للقلق . كان الجميع ينظرون إلى بيوتر ، ويبتسمون استحساناً للمهارة التي يبديها في رقصه .

وهتف رجل بنبرة صاحية جذلى : «انظرواإلى هذا الشيطان! أحسنت!» ولكن غريغوري لاحظ بالصدفة أن عيني جندي أحمر أجعد الشعر قد سمرتا فيه باهتمام ، فلزم الحذر وكف عن الشراب .

وشرع عازف الاوكورديون يعزف ألحان رقصة البولكا ، فدعا الجنود الحمر نساء القوزاق للرقص . وطلب أحدهم ، وهو يترنح ثملاً ، من زوجة شابة ، من جيران خريستونيا ، أن تراقصه ، ولكنها رفضت ، ثم التقطت تنورتها وجرت عبر الغرفة إلى غريغوري ، وقالت له :

ـ تعال ارقص معي .

ـ لا أريد .

ـ هيا ، يا غريغوري ، يا زهرتي الذهبية!

ـ دعيني وشأني! لا أريد!

فجرته من كمه ، وهي تتصنع الضحك . فعبس ومانع ، بيد أنه أذعن اذ لمح غمزتها إليه . وبعد بضع دورات استغلت وقفة في الرقص فوضعت رأسها على كتف غريغوري وهمست إليه بصوت لا يكاد يسمع :

ـ إنهم يعدون العدة لقتلك... فقد أخبرهم أحد الناس انك ضابط... أخرج من هنا...

ثم أضافت بصوت مرتفع :

ـ اوه ، إن رأسي يدور .

فخطا غريغوري عبر الغرفة إلى المائدة بمرح مفاجئ وشرب قدحاً من الفودكا . ثم استدار يسأل داريا :

ـ هل بيوتر سكران ؟

ـ تقريباً .

ـ خذيه إلى البيت!

فقادت داريا بيوتر إلى خارج الغرفة وهي تقاوم دفعاته وعثراته بقوة كقوة الرجال . فتبعهما غريغوري .

فهرع أنيكوشكا وراء غريغوري قائلاً : «هيه ، إلى أين أنتم ذاهبون ؟ كلا ، لا تذهبوا!» بيد أن غريغوري حدجه بنظرة جعلت أنيكوشكا ينشر ذراعيه ويمضي مترنحاً .

وحين بلغ غريغوري عتبة الباب لوح بقبعته وغمغم قائلاً :

ـ شكراً لدعوتك!

فسوى جندي الحرس الأحمر ذو الشعر الأجعد وضع حزامه ولحق غريغوري . وعند العتبة همس الرجل وهو ينفث أنفاسه في وجه غريغوري وعيناه الجريئتان تتقادحان :

ـ إلى أين أنت ذاهب ؟

فأجابه غريغوري دون أن يتوقف : «إلى البيت» وجعل يجر الرجل وراءه ، وقال في سريرته وقد أخذته لجة من الحبور : «لن تظفر بي حياً» .

فراح جندي الحرس الاحمر يتنفس بشدة ، ثم أمسك غريغوري بيسراه برفق ، وسارإلى جانبه . وتوقفا عند البوابة . ثم سمع غريغوري الباب يصر من ورائهما . وفي تلك اللحظة أحس بيد الجندي الاحمر تتلمس خاصرته ومسمع أظافر يده تخمش قراب مسدسه . ولمح غريغوري عيني الرجل الفولاذيتين مسمرتين في وجهه . فاستدار وأمسك باليد التي كانت تجر

غطاء القراب ، فأمسك بها من المعصم ، وتلّ ذراع الرجل عبر كتفه بقوة مريعة ، ثم انحنى وألقى جسد الرجل الثقيل على ظهره وجر اليدإلى أسفل بكل ما عهد فيه من مهارة ، فسمع صوت طقطقة المرفق . فهوى الرأس الأشقر الأجعدإلى أسفل وغاص في كومة من الثلج .

وجرى غريغوري في طريق جانبي نحو الدون منحنياً وراء الأسيجة وراح يعدو قفزاً ، ميمماً شطر النقطة التي يهبط عندها الطريق إلى الضفة . وظلت هذه الفكرة تساوره : «لئن لم تصادفني نقطة أمامية هناك فسوف...» ثم توقف برهة . كان فناء بيت أنيكوشكا ينبسط من ورائه . وسمع طلقة . فمرقت الرصاصة تصفر بقربه بشراسة . ثم تتابعت الطلقات ، فقرر في نفسه : «تحت التل ، عبر الدون» وحين بلغ منتصف النهر أزت بقربه رصاصة ثم دفنت نفسها في الجليد ، مثيرة الشظايا البلورية وهي تلذع عنق غريغوري . وحين بلغ الجهة الثانية من النهر التفت وراءه . كانت الطلقات ماتزال تفرقع مثل سوط راعي الخيل . ولكن النجاة لم تبعث في نفسه حرارة الفرح ، بل كان يقبضه شعور بعدم الاكتراث لما مر به من أحداث . واذ توقف ثانية قال في سريرته دونما اهتمام : «كأنهم كانوا يطاردون حيواناً... لن يفتشوا عني ، سيخافون دخول الغابة . لقد أصبت ذراعه بشيء يتذكرني به . يا للوغد ، يظن أن بوسعه النيل من قوزاقي بلا سلاح» .

واتخذ طريقه إلى أكداس القش الشتوية ولكنه تحول عنها فخلفت قدماه آثاراً متعرجة متشابكة كآثار الأرنب . وعقد العزم على أن يبيت ليلته في كدس مهجور من البردي اليابس ، فشرع يحفر في قمة الكدس ، فانسل نمس من بين قدميه . واحتفر غاراً ودفن نفسه حتى الرأس في البردى العفن ، فاستكان وهو يرتجف . كان ذهنه خلواً من أية خطة أو فكرة . على أن شيئاً أشبه بالخاطرة مر بذهنه : «هل أسرج الحصان غداً وأجتاز جبهة القتال نحو جماعتي ؟» بيد أنه لم يستطع أن يجد جواباً فرقد بهدوء .

وقبيل الفجر اعترته رجفة باردة ، فأطل بعينيه : كان ضوء الصباح

الباكر يترجرج من فوقه على نحو بهيج ، وخيل لعينه لحظة أنه يرى قعر هوة السماء السوداء الزرقاء ، شأن ضفاف الدون الضحلة ، وكان لازورد الصبح الباكر المضبب بادياً في سمت الأوج يحف به نثار من أنجم خابية .

١٨

ابتعدت جبهة القتال عن قرية تتارسكي ، وتلاشى ضجيج الحرب . وفي اليوم السابق لرحيل الجند من القرية نصب حملة الرشاشات من إحدى كتائب الخيالة جهاز الغرامفون العائد لموخوف على زحافة عريضة راحوا يهذبون بها خيلهم في الشوارع جيئة وذهاباً . وجعل الغرامفون يئز ويسعل فيما كانت حوافر الخيل تقذف الثلج في بوقه الوسيع . وقد تولى أحد حملة الرشاشات وهو يرتدي قبعة سيبيرية ذات غطائين طويلين للأذنين ، تنظيف البوق بهدوء ، وراح يدير ذراع الفونوغراف المنقوشة بكل ثقة وكأنه يعالج مدفعه الرشاش . وتراكض وراءهم صبية القرية كسرب رمادي من العصافير ، وراحوا يتشبثون بالزحافة وهم ، يصرخون : «يا عمّ ، شغل ذلك الشيء الذي يصفر! مرة أخرى ، يا عمّ!» وقد جلس صبيان محظوظان جداً على ركبتي حامل الرشاش ، واذ كان يفرغ من إدارة ذراع الغرامفون ، راح يمسح بأناة وصبر أنف الصبي الاصفر الذي كان مخاطه يتصبب من شدة الصقيع وفرحه .

وبعد ذلك ، حين تلاشت ضوضاء القتال ، ظلت عربات الشحن تتهادى ببطء خلل تتارسكي لتزود الجيش الأحمر في الجبهة الجنوبية بالمؤن والعتاد .

وفي اليوم التالت دار رسل من بيت إلى بيت ، داعين القوزاق لحضور مجمع القرية . وقال أحد القوزاق لبلانتلاي بروكوفتش مازحاً :

ـ سوف ننتخب أتاماناً أحمر!

فتساءل بانتلاي بروكوفتش قائلاً :

ـ هل سيسمحون لنا بانتخاب أتمان ، أم انهم سيعينونه بأنفسهم ؟
ـ سوف نرى!...
وذهب غريغوري وبيوترإلى المجمع . وقد حضر القوزاق الشباب برمتهم ، أما الشيوخ فقد تخلفوا عن الحضور ، إلا أفدييتش الكذوب الذي لمّ حوله حلقة صغيرة من القوزاق ومضى يقص عليهم كيف أن قوميساراً أحمر قد بات عنده ليلة وطلب إليه قبول منصب هام .
ـ قال لي : «لم أدر أنك كنت عريفاً في الجيش السابق ، فمن دواعي سروري والحالة هذه أن تتبوأ هذا المنصب» .
ـسب ميحائيل كوشيفوي ساخراً :
ـ أي منصب ؟ لا يوجد غير منصب واحد يليق بك ، وأنت أدرى به .
فانطلقت أصوات عديدة تؤيده :
ـ سيوكلون إليك أمر فرس القوميسار ، لتمسح دبرها!
ـ استمر!
ـ كاه ، كاه!
ـ أنت لا تدري أي منصب يخبئون لك... شغله ذلك القوميسار بالكلام فيما نعم مراسله بدغدغة زوجة أفدييتش العجوز . وانشغل أفدييفتش بالانصات حتى نسي أن يمسح المخاط من أنفه...
فابتلع أفدييتش ريقه ، وسأل ، وهو يجيل النظر بعينين جاحظتين :
ـ من قال ذلك ؟
فجاء صوت جريء من الوراء :
ـ أنا قلت ذلك!
فقال أفدييتش : «حسنا ، هل رأيتم في حياتكم ابن عاهرة كهذا!» ثم أجال بصره فيما حوله بحثاً عن التأييد ، فجاءه سيل منه :
ـ إنه ثعبان قذر ، هذا هو رأيي فيه دائماً .
ـ عائلته برمتها على هذه الشاكلة .

فقال أفدييتش : «لو أنني كنت أصغر سناً...» ثم توهجت وجنتاه توهج الاجاص ، وأضاف : «لو كنت أصغر سناً للقنتك درساً أو درسين . ماذا ، أنت تتكلم كلام أوكراني قذر . أنت يا وعاء الشحم!...» .

ـ لماذا لا تنقض عليه ، يا أفدييتش ؟ انه مجرد فروج بالنسبة لك .

ـ أفدييتش عاجز هذه الأيام...

ـ يخشى تمزّق سرّته من شدة الضغط .

وانسحب أفدييتش بمهابة وسط رعيد من الأصوات .

وتحلق القوزاق جماعات صغيرة في ساحة القرية . ولم يكن غريغوري قد رأى صديقه القديم ميشا كوشيفوي منذ التعبئة العامة في الربيع ، وحين لمحه ، تقدم منه ، وشد على يده ، وسأله وهو يبتسم وينظر في عينيه الزرقاوين :

ـ مرحباً ، يا ميشا ، أين اختفيت ؟ تحت راية من كنت تقاتل ؟

فأجاب ميتشا : «أوهوه! أول الامر كنت أشتغل راعياً للخيل ، ثم جندوني في سرية تأديبية في جبهة الكالاش فهربت وعدت إلى دياري لأنضم إلى الحمر في الجبهة ، ولكنهم وضعوا علي رقابة أشد من رقابة أم لابنتها الجاهلة . ثم جاءني قبل أيام ايفان اليكسييفتش مرتدياً بزة كاملة وقال : «أعد بندقيتك وهلم!» وكنت قد عدت إلى أهلي تواً فسألته : «لعلك لا تقصد الرحيل ؟» فهز كتفيه وقال : «الأتمان أرسل في طلبي . كنت في سابق الأيام أعمل تحت خدمتهم في الطاحونة» . ثم ودعني ومضى . وحسبت أنه رحل بالفعل . ولكن كتيبة حمراء دخلت القرية في اليوم التالي فاذا به مع رجالها . ثم صاح بصوته عبر الساحة : «هاه ، هوذا! يا ايفان اليكسييفتش!»

وتقدم ايفان بصحبة دافيد العامل الأجير في الطاحونة ، يضحك دافيد وأسنانه تلمع مثل اللؤلؤ . فاعتصر وايفان يد غريغوري بأصابعه الصلبة التي تفوح منها رائحة الدهان ، ثم طق لسانه قائلاً :

ـ كيف حدث أن تخلّفت ، يا غريغوري ؟

ـ وماذا عنك ؟

ـ حسناً ، الأمر يختلف بالنسبة لي .

فقال غريغوري :

ـ أتعني رتبتي ؟ لقد جازفت بها وبقيت هنا . كدت أن أُقتل البارحة ، اذ طاردني الحمر وشرعوا يطلقون النار عليَّ ، وقد تملكني الأسف لأنني لم أرحل . أما الآن فلست آسفاً لذلك .

ـ ماذا كان السبب ؟ هل هم من الكتيبة الثالثة عشرة ؟

ـ نعم . كنت في بيت أنيكوشكا ، وأخبرهم البعض أنني كنت ضابطاً ، ولكنهم لم يمسوا بيوتر بسوء... وقد أفلت من قبضتهم بعبور الدون . ولكني أتلفت يد أحدهم قليلاً... ومقابل ذلك ، ذهبوا إلى بيتنا وأخذوا كل شيء : السراويل ، والستر ، وكل شيء . ولم يبق لي إلا ما عليّ من ملبس .

فقال ايفان اليكسييفتش :

ـ كان علينا أن ننضم إلى الحمر في أول فرصة . ولوفعلنا ذلك لما بدا علينا هذا السخف .

ثم ابتسم ايفان بمرارة ، وشرع يدخن .

ابتدأ الاجتماع ، فافتتحه الضابط لابتشنكوف من فيشنسكايا ، وكان من رجال فومين :

ـ أيها الرفاق القوزاق! لقد رسخت جذور الحكم السوفييتي في منطقتنا . والآن ينبغي أن نقيم إدارة ، وننتخب لجنة تنفيذية ورئيساً ، ونائب رئيس . تلك هي المسألة الأولى . ثم إنني جئت بأمر من سوفييت الاقليم يقضي بتسليم كافة الأسلحة النارية والأسلحة الأخرى .

فقال رجل في المؤخرة بصوت ملؤه الحقد : «شيء جميل!» ثم خيم صمت طويل .

ـ لا داعي لتعليق كهذا ، أيها الرفاق . ـ ثم اعتدل الضابط في وقفته

ووضع قبعته الفرو على المنضدة . وأردف : «من الطبيعى أن الأسلحة يجب أن تسلم ، لأنكم لا تحتاجون إليها في حياتكم المنزلية اليومية . فاذا شاء أحدكم أن يسهم في الدفاع عن الحكم السوفييتى فإنه سيزود بالسلاح . ينبغي تسليم كافة البنادق خلال ثلاثة أيام . والآن سيجري الانتخاب . سوف أكلف الرئيس بإخبار الجميع بهذا الأمر ، ويجب عليه أن يأخذ الختم من الاتمان وكذلك المال .

ـ هل هم الذين أعطونا أسلحتنا هذه ليتصوروا أن بوسعهم الاستيلاء عليها ؟

ولم ينته القائل من كلامه حتى التفتت إليه كل العيون ، فاذا به زاخار كوروليوف . فقال خريستونيا ببساطة :

ـ ولماذا تريد الاحتفاظ بها ؟

ـ لست أريدها . ولكننا جين سمحنا للجيش الاحمر بدخول مقاطعتنا ، لم يكن ثمة اتفاق على أن يقوموا بتجريدنا من السلاح .

ـ هذا صحيح !

ـ قال فومين ذلك في الاجتماع .

ـ وقد اشترينا سيوفنا بفلوسنا!...

ـ لقد عدت ببندقيتي من الحرب الالمانية ، فهل ينبغي عليَّ أن أتخلى عنها ؟

ـ إنهم يريدون سلبنا . ماذا بوسعنا أن نفعل بدون أسلحتنا ؟ إنني بدونها كالمرأة من غير تنورة... سأصبح عارياً .

ثم طلب ميشا كوشيفوي أن يصغوا إلى صوته ، فقال بوقار :

ـ دعوني أتكلم ، يا رفاق! أنا أعجب أن أسمعكم تتكلمون على هذه الشاكلة! هل هناك حالة حرب في المنطقة أم لا ؟ فإن كانت هناك حرب ، فلا طائل من النقاش حول الأمر . سلموها! ألم نجعل الأوكرانيين يقومون بالشيء ذاته حين احتللنا قراهم ؟

ومر لابتشنكوف بيده على قبعته الفرو وقال مؤكداً :

ـ إن كل من لا يسلم أسلحته خلال ثلاثة أيام سيقدم إلى محكمة ثورية ويعدم رمياً بالرصاص باعتباره معادياً للثورة .

وبعد برهة من الصمت تنحنح توميلين ونادى :

ـ دعونا نشرع بالانتخاب .

فرشحوا نيفاً وعشرة أسماء . وصاح أحد الفتيان : «أفدييتش» ولكن المزحة خابت . وكان اسم ايفان اليكسييفتش أول المرشحين ، فانتخب بالاجماع .

فاقترح بيوتر ميليخوف :

ـ إن هذا يحسم الأمر ، فلا لزوم لتصويت آخر .

فوافقه القوزاق الرأي فعين ميتكا كوشيفوي نائباً للرئيس دونما تصويت .

وفيما كان الأخوان ميليخوف وخريستونيا عائدين إلى بيوتهم إثر الاجتماع صادفوا أنيكوشكا في الطريق . وكان يحمل تحت إبطه بندقيته والعتاد ملفوفاً بصدرية زوجته . وقد بدا عليه الحرج حين رأى القوزاق فاختفى في منعطف جانبي . فنظر بيوتر إلى غريغوري ، ونظر غريغوري إلى خريستونيا ، وضحك الجميع سوية .

١٩

هبت على السهب ريح شرقية عاتية ، وكان الثلج قد ملأ الحفر والوهاد . ولم تعد الطرق والمسالك بادية للعيان . فحيثما جالت العين طالعها السهل الأجرد الأبيض تجتاحه الرياح . وبدا السهب هامداً همود الموتى إلا من غراب هرم بعمر السهب يحلق عالياً بين الفينة والفينة فوق الثلج ويرسل نداءه ، فتحمل الريح صرخته عبر السهب ، فاذا بها تبدو طويلة حزينة ، شأن وتر عميق النغمة جرته بالصدفة يد في سكون الليل .

أما تحت الثلج فكان السهب يمور بالحياة . فحيث تمتدالأرض المحروثة تحت لجج من الثلج الفضي ، وحيث ازدادت الأرض المحروثة انتفاخاً منذ الخريف ، هناك يرقد جويدار الشتاء تحت الجمد تتشبث جذوره الحية الشرهة بالتربة ، ويمضي الجويدار ذو الخضرة الحريرية يسبح بدموع من الندى المتجمد ، ويشد على التربة الهشة السوداء ، يتغذى من دمها الأسود الطافح بالحياة ، ويرتقب حلول الربيع ، حلول الشمس ، ليستوي فيقتحم القشرة الثلجية الرقيقة المرصعة بالماس ، ويشب في أيار أخضر يانعاً . ولا بد أنه سيشب في أوانه ، فتتقاتل طيور السلوى بين سيقانه ، وتشدو قبرة نيسان في سمائه . وستغمره الشمس وتهدهده الرياح ، حتى تتساقط سنابله التي داعبتها الأمطار الكاسحة والرياح القاسية تحت ضربات منجل صاحبه فتلقى حباتها الثقيلة الغضة على ساحة الدرس بكل تواضع .

كان إقليم الدون برمته يحيا حياة منغلقة منسحقة . كانت أيامه كالحة ، ولاح في الأفق شيء ما . وراحت شائعة قاتمة تزحف من أعالي الدون ، من روافده ، من التشير ، من الخوبر ، ومن اليلانكا ، من الأنهر الكبيرة والصغيرة التي تتناثر حولها قرى القوزاق . فقد أفاد بعض الرجال أن الجبهة لم تعد مصدر الخوف ، فقد انحدرت تمضي في سبيلها وتوقفت عند نهر الدونتيس ، إنما مصدر الخوف تلك اللجان الاستثنائية والمحاكم العسكرية . قيل إن هذه اللجان والمحاكم ستصل مناطق القوزاق في يوم قريب ، وإنها قد ظهرت بالفعل في ميغولينسكايا وكازانسكايا وراحت تعقد محاكمات مقتضبة غير شرعية للقوزاق الذين قاتلوا إلى جانب البيض . والظاهر أن قوزاق الدون الأعلى لم يشفع لهم انسحابهم الاختياري من جبهة القتال ، وان إجراءات المحاكمة بسيطة إلى حد مرعب : اتهام ، وبضعة أسئلة ، وصدور الحكم . ومن ثم الموت بالمدفع الرشاش . وقيل إن ثمة في كازانسكايا عديداً من جثث القوزاق ملقاة بين الأدغال باهمال . ولكن رجال الجبهة ضحكوا من هذه

الشائعات : «أكاذيب! حكايات ضباط! كم حاول الكاديت بث الرعب فينا بأكاذيب مثل هذه» .

وكان الناس بين الشك واليقين إزاء تلك الشائعات ، التي كان العديد منها يدور في القرى على الدوام . والشائعات هي التي حملت ضعاف الهمم على الفرار ولكن حين ابتعدت جبهة القتال ، كان ثمة كثيرون لا ينامون الليالي ، يتقلبون على فرشهم ويتضورون فتعجز ملاطفات زوجاتهم عن تهدئة أنفسهم . وقد ندم البعض لعدم فرارهم عبر الدونيتس . ولكن ما فات فات ، فعبثاً تراق الدموع .

وكان قوزاق تتارسكي يجتمعون في الأزقة الجانبية عند المساء ، فيتبادلون الأنباء ، ثم يتنقلون من بيت إلى بيت يشربون الفودكا المنزلية . كانت القرية تحيا حياة هادئة مريرة . وحين حل عيد المرافع لم تجلجل أجراس الزحافات إلا بزفاف واحد : فقد زوّج ميشا كوشيفوي أخته ، فراح الجيران يتحدثون عن هذا الزفاف بسخرية وحقد :

ـ وجدوا وقتاً مناسباً للزواج! لا بد أنه زواج اضطراري!

وفي غداة الانتخابات سلم كل بيت ما لديه من سلاح فتكومت الأسلحة في سقائف ومجازات بيت موخوف الدافئ ، الذي صار مقراً للجنة الثورية وقد سلم بيوتر ميليخوف بندقيته وبندقية غريغوري ، ومسدسين ، وسيفاً ، بيد أنه لم يسلم إلا تلك الأسلحة التي عادا بها من الحرب الألمانية ، واحتفظا بمسدسيهما اللذين كانا يحملانهما وهما ضابطان .

وعاد بيوترإلى البيت مرتاح البال فألفى غريغوري في سقيفة الباب ، مشمراً عن ساعديه ، يفكك أجزاء صدئة لترباسي بندقيتين وينظفهما بالكيروسين . وكانت البندقيتان مسندتين إلى الموقد .

فتهدل شاربا بيوتر دهشة وقال :

ـ من أين حصلت عليهما ، بحق الشيطان ؟

ـ جاء بهما أبي من فيلونوفو يوم أتى لزيارتي .

والتمعت عينا غريغوري ، وهدر ضاحكاً ، وهو يضرب جنبيه بيديه الملطختين بالكيروسين . وكما ضحك فجأة تلاشت ضحكاته فجأة أيضاً ، وكشّر عن أسنانه التي تشبه أسنان الذئب ، وقال :

ـ البندقيتان ؟ ليس ذلك شيئاً يذكر . أتدري ؟ ـ ثم خفض صوته وجعل يهمس ، رغم أن أحداً غريباً لم يكن في الدار : ـ أتدري ، أبي أخبرني اليوم أن لديه رشاشاً . ـ وراحت شفتاه تقاومان ابتسامة .

ـ تكذب! أين حصل عليه ؟ وما فائدته ؟

ـ يقول إن بعض القوزاق المكلفين بالنقل أعطوه الرشاش لقاء بعض اللبن ، ولكني أعتقد بأنه يكذب ، ذلك الشيطان العجوز! لقد سرقه ، على ما أظن . إنه كالخنفساء يجر كل ما يستطيع ولا يستطيع حمله . لقد همس لي قائلاً : ـ لديّ مدفع رشاش مدفون في ساحة الدرس . إن نابضه الرئيسي يصلح لعمل كلاليب رائعة ، بيد أنني لم ألمسه . ـ فسألته قائلاً : ـ ما حاجتك بالرشاش ؟ ـ فأجابني : ـ أعجبني النابض . خيل إليَّ أنه يفيد لعمل شيء ما . إنه شيء نفيس ، ومصنوع من الحديد...

فتميز بيوتر غضباً وهمّ بالذهاب إلى والده والتحدث إليه حول الموضوع ، بيد أن غريغوري ثناه عن ذلك قائلاً :

ـ انتظر قليلاً! ساعدني في تنظيف هذين وتركيبهما . وما حيلتنا في هذا وهو عجوز...

فزنخر بيوتر وهو ينظف الترباسين ، ولكنه بعد برهة قال مفكراً :

ـ ربما كان على حق... قد نجد فيه فائدة . ليظل مدفوناً هناك .

وزارهم ذلك اليوم ايفان توميلين لينقل إليهم شائعة تفيد أن الرمي بالرصاص قائم على قدم وساق في كازانسكايا ، فجلسوا يدخنون ويتحدثون حول الموقد . ولبث بيوتر ، أثناء الحديث ، مقطب الحاجبين مستغرقاً في التفكير حتى تصبب جبينه عرقاً . وحين ذهب توميلين قال :

ـ سأذهب إلى روبيجين وأقابل ياكوف فومين . بلغني أنه عاد إلى

قريته . ويقال أنه يقوم برئاسة اللجنة الثورية الاقليمية . سأذهب وأطلب إليه التدخل اذا ما حدث شيء ما .

وفيما كان بنتلاي بروكوفتش يشد الفرس إلى الزحافة ، لفت داريا نفسها بفروة جديدة وتشاورت مع حماتها بعض الوقت بهمس . ثم دخلتا معاً إلى مخزن الحبوب وجاءتا بصرّة ، فسألهما العجوز :

ـ ما تلك ؟

فلبث بيوتر صامتاً ، ولكن ايلينشنا همست على عجل :

ـ «لديَّ بعض السمن وفرته هنا ، احتفظت به لوقت الحاجة . ولكن ليس هذا وقت التفكير بالسمن ، فأعطيته إلى داريا تقدمه هدية إلى زوجة فومين ، فلعله يصغي إلى بيوتر . ـ ثم أجهشت بالبكاء ، وأردفت : ـ ولداي شقّا طريقهما إلى رتبة الضباط بعرق الجبين ، والآن قد تؤدي بهما هذه الرتبة إلى ...

فقال بنتلاي بروكوفتش :

ـ كفاك نحيباً!

ثم ألقى السوط في داخل الزحافة غاضباً وتقدم إلى بيوتر . وقال :

ـ خذ بعض القمح له أيضاً .

فانفجر بيوتر صائحاً :

ـ ماذا عساه فاعلاً بالقمح بحق الشيطان! من الافضل لو ذهبت إلى أنيكوشكا وجلبت له بعض الفودكا المنزلية ، قمح!...

وذهب بانتلاي بروكوفتش في الحال ليعود بعد بضع دقائق بقارورة فودكا تحت معطفه . وحين وضع القارورة على الأرض قال باستحسان :

ـ إنها فودكا جيدة والله ، إنها بجودة الفودكا التي كنا نشربها أيام القيصر .

فصاحت ايلينشنا به : «لقد شرب منها ، يا له من كلب عجوز!» وتظاهر الشيخ أنه لم يسمع قولها ، فظلع إلى داخل البيت بفتوة وهو يمسح شفتيه الخدرتين ، ويخاوص عينيه راضي النفس .

وانطلق بيوتر تاركاً بوابة بيته مفتوحة وكأنه ضيف .

وأخذ معه فضلاً عن الفودكا قطعة من جوخ من صنع ما قبل الحرب ، وجزمة ، ورطلاً من الشاي الشذيّ الفاخر هدية لزميله السابق في الجندية الذي أصبح يومذاك عظيم السلطان .

وكانت هذه الاشياء كلها ، والكثير غيرها ، نصيبه من الأسلاب حين استولت الكتيبة الثامنة والعشرون على محطة السكة الحديد في ليسكي وقامت بنهب الشاحنات والمخازن . وكان قد استولى على رزمة كبيرة من الألبسة النسائية الداخلية فأرسلها بصحبة والده يوم قام الشيخ بزيارة الجبهة . ويوم عودة بانتلاي بروكوفتش إلى القرية أثارت داريا حسد ناتاليا ودونيا حين تزينت بملابس داخلية لم تشهد القرية لها مثيلاً . كانت مصنوعة من أجود قماش أجنبي ، فهي أنصع من الثلج بياضاً ، وقد طرز كل قطعة منها الشعار والأحرف الأولى ، وكان دانتيل سروالها أرهف من زبد الدون...

وكانت داريا في الليلة الأولى لعودة بيوتر من فيشنسكايا قد أوت إلى الفراش بسروالها الطويل . فابتسم لها مداعباً قبل أن يطفئ المصباح وقال :

ـ اذاً فقد حصلت على سروال رجل لترتديه ؟

فأجابت داريا بنبرة حالمة :

ـ إنه أكثر دفئاً وجمالاً . ما الذي يجعلك تظنه للرجال ؟ لو صح ذلك لوجب أن يكون أكثر طولاً ، ثم ما حاجة الرجال بالدانتيل ؟

فأجابها بيوتر وهو يحك جسمه ، وقد استبد به النعاس :

ـ أحسب أن النبلاء يضعون الدانتيل في سروايلهم . ولكن لست أبالي ، بوسعك أن ترتديه إن شئت .

ولكنه حين اضطجع في الليلة التالية إلى جانب زوجته أبعد نفسه عنها فزعاً وهو ينظر إلى الدانتيل نظرة وجلة وارتباك لم يستطع كتمانها ، ويخشى أن يلمسه شاعراً وكأن داريا غريبة عنه . وفي الليلة الثالثة انتابه الغضب فأمرها بلهجة لا تقبل الرفض :

ـ اخلعي سروالك وألقي به إلى الشيطان! إنه لا يليق بالمرأة أن ترتديه ، وهو ليس سروال نساء على أية حال . ترقدين هنا كالسيدات! أنت تصبحين امرأة أخرى حين ترتدينه .

ونهض صباح اليوم التالي قبل داريا وراح يجرب ارتداء السروال وهو يتنحنح عابساً . وظل وقتاً طويلاً ينظر إلى المشدات الحريرية ، وإلى الدانتيل ، وإلى ساقيه المشعرتين العاريتين فيما تحت ركبتيه . وصادف أن استدار فلمح نفسه في المرآة ، بسرواله المتغضن عند المؤخرة في ثنيات أنيقة ، فبصق وجعل يصب اللعنات وهو يخرج نفسه من السروال كالدب . فعلق اصبعه الكبير بالدانتيل فكاد أن يسقط على الصندوق ، فانتابه غيظ حقيقي فقطع المشدات واستعاد حريته . وقد سألته داريا بنبرة نعسانة : «ماذا تفعل ؟» إلا أن بيوتر خلدإلى صمت جريح ، وراح يزنخر ويبصق دون أن يجيب ، وصباح ذلك اليوم حملت داريا السروال فأودعته الصندوق وهي تتحسر . وكانت قد أودعته كثيراً من حاجيات لا تجد النساء فيها أيما فائدة ، بيد أنها استفادت من التنورات الداخلية خير استفادة ، فرغم أن التنورات الداخلية كانت قصيرة جداً ، إلا ان داريا الذكية كانت ترتديها بحيث تتدلى من تحت تنورتها الاعتيادية . فيبرز الدانتيل مقدار بوصة . ثم تخرج للتباهى أمام الآخرين ، فتكنس الأرض الترابية بدانتليها الهولندي .

وبدت داريا في أبهى وأزهى حلة حين ذهبت بصحبة زوجها لزيارة فومين . كان الدانتيل بادياً من تحت معطفها القرو ، وكانت سترتها الصوفية جديدة جميلة ، كل ذلك لتدرك زوجة فومين التي صعدت من الثرى إلى الثريا ، أن داريا ، رغم كل شيء ليست قوزاقية من العامة ، بل زوجة ضابط .

لوّح بيوتر بسوطه وطق شفتيه . فانطلقت الفرس الهرمة البطينة تخب في الطريق المحاذي للدون . وبلغا روبيجين في ساعة الغداء ووجدا فومين في

بيته كما أملا . فرحب ببيوتر ، وأجلسه إلى المائدة ، وراح يبتسم بين ثنيات عذاريه الأحمرين حين أخرج بيوتر جرة الفودكا المخلوطة بالقش من الزحافة المفضضة بالثلج...

وقال فومين بصوت وئيد جهوري لطيف : حسناً ، يا صاحبي ، لماذا لم نرك قبل هذا ؟ ـ وكان يلقي إلى داريا النظرات من زاويتي عينيه الزرقاوين الواسعتين المغازلتين ويفتل شاربه بوقار .

ـ حسناً ، أنت تدري ، يا ياكوف يفيموفتش ، لقد تقهقرت الكتائب ، إنه لوقت عصيب .

ـ وهو كذلك! أنت على حق . ـ ثم نادى على زوجته : ـ هيه ، يا امرأة! ايتينا بشيء من الخيار المخلل والكرنب ، أو بعض السمك المجفف...

كان البيت الصغير مدفأ إلى درجة الاختناق . وكان ثمة طفلان جاثمان فوق الموقد : صبي له عينان وسيعتان زرقاوان كعيني أبيه ، وبنت صغيرة . وبعد أن شرب بيوتر قليلاً عرج على مهمته قائلاً :

ـ يدور في القرى كلام كثير عن وصول التشيكا* وقيامهم بإلقاء القبض على القوزاق .

ـ لقد وصلت إلى فيشنسكايا محكمة عسكرية تابعة للجيش الأحمر . ولكن ماذا في ذلك ؟ وماذا يضيرك منها ؟

ـ أنت تدري ، يا ياكوف يفيموفتش ، أنني أعتبر ضابطاً . ولكن أي ضابط أنا ؟ أنا ضابط في المظهر وحسب .

ـ حسناً ، ماذا في ذلك ؟

وشعر فومين بأنه سيد الموقف . وقد بعثت فيه نشوة الخمر الطفيفة الغرور والاعتداد بالنفس ، فراح يمسد شاربه ويشخص إلى بيوتر بنظرة متسلطة لا تريم .

---

* التشيكا : اللجنة الاستثنائية ـ كان هدفها النضال ضد أعداء السلطة السوفييتية والتمرّد والمضاربة في الأعوام الاولى من الحكم السوفييتي   المترجمون

وجعل بيوتر يتملقه ، فغدا متواضعاً ذليلاً في موقفه ، رغم أنه اتخذ لهجة أقل تكلفاً :

ـ لقد خدمنا أنا وأنت سوية . وليس بوسعك أن تقول فيَّ كلمة رديئة . هل كنت يوماً ضدك ؟ أبداً! لعنة الله على الكاذب ، ولكني كنت دوماً إلى جانب القوزاق!

ـ نحن ندري ، لا تخف يا بيوتر بانتلايفتش! نحن نعرفك كل المعرفة . لن يمسك أحد بشيء . ولكن ثمة أناساً سوف يمسهم شيء! لقد تخلف العديد من الثعابين ممن يخبئون سلاحهم... هل سلمت سلاحك ؟ ها ؟

وكان انتقال فومين من حديثه البطيء إلى أسئلته اللجوج من السرعة ما أفقد بيوتر اتزانه ، فاندفع الدم إلى وجهه...

ألح فومين متسائلاً ، وهو يميل فوق المائدة :

ـ سلمت أسلحتك ، أليس كذلك ؟ حسناً ، ماذا تنتظر ؟

ـ سلمتها بالطبع ، يا ياكوف يفيموفتش . لا تظن... إنني أتحدث بنية صافية...

فغمز فومين غمزة ثملة وقال :

ـ بنية صافية! نحن نعرف نياتكم الصافية! أنا ابن المنطقة ، كما تعلم . صافح القوزاقي الميسور بيد وأمسك السكين باليد الأخرى... يا للكلاب! لا وجود لنيات صافية هنا . لقد خبرت الكثير من الناس في حياتي . يا للخونة! ولكن لا تخف . لن يصيبوك بأذى . إن كلمتي من ذهب!

وأكلت داريا شيئاً من اللحم البارد . وقد اصطنعت الأدب فلم تأكل من الخبز إلا قليلاً ، رغم أن زوجة فومين كانت لا تني تلحف عليها بالطعام .

وانطلق بيوتر في المساء الباكر ليعود إلى أهله يساوره التفاؤل والأمل المتجدد .

* * *

بعد أن ودع بانتلاي بروكوفتش بيوتر ذهب لزيارة كورشونوف العجوز وكان قد زاره قبيل مجيء الحمر ، ولكنه وجد لوكينشنا منهمكة في اعداد العدة لهرب ميتكا وكان المنزل في حالة الفوضى الشاملة . واذ شعر بانتلاي بروكوفتش بأن زيارته كانت تعيقهم عادإلى بيته . ولكنه أحس آنذاك برغبة في الذهاب ليرى إن كانت الأمور عندهم على ما يرام ، وليجلس ويتجاذب أطراف الحديث عن الفترة التي تحياها القرية .

وأمضى وقتاً طويلاً وهو يظلع في مشيته إلى الطرف الآخر من القرية . وفي الحوش التقى بغريشاكا العجوز وقد فقد العديد من أسنانه ودب الوهن في قواه . كان اليوم أحداً والشيخ ذاهباً إلى صلاة المغرب . فبهت بانتلاي بروكوفتش اذ رآه ، فقد كانت الأوسمة والمداليات التي نالها أثناء الحرب التركية بادية متوهجة من تحت فروته ، وكانت شرائط صغيرة حمر تتلامع بتحد على الياقة المتصلبة لقمصلته قديمة الطراز ، وكان سرواله المقلم العتيق قد دس في جوربيه الأبيضين بعناية ، وعلى رأسه قبعة عسكرية تحمل شعاراً وقد انداحت إلى أذنيه الكبيرتين اللتين تشبهان الشمع .

ـ ماذا ، أيها الجد! هل أنت بكامل عقلك ؟ علام ترتدي الشعار والأوسمة في أيام كهذه ؟

فوضع الشيخ يده على أذنه قائلاً :

ـ هاه ؟

ـ أقول لك : انزع هذا الشعار . انزع هذه الأوسمة . سيلقون القبض عليك إن خرجت بهذه الحالة . ليس بوسعك التجوال على هذه الحالة في ظل الحكم السوفييتي ، فقوانينهم لا تجيز ذلك .

ـ لقد خدمت قيصري الأبيض بصدق وإيمان ، يا بني . وليست هذه حكومة ترضي الله . لست أعترف بها حكومة . لقد أقسمت يمين الولاء للقيصر ألكساندر وليس للفلاحين! ـ ثم مضغ العجوز شفتيه الشاحبتين وأشار إلى المنزل بعصاه وقال : «أتريد ميرون ؟ إنه في البيت .أما ميتكا فقد كان

عليه أن يهرب ، يا ملكة السماء ، أحرسيه! لقد تخلف ولداك ، أليس كذلك ؟ ها هما قوزاقيا زماننا هذا!... أقسما اليمين ، وها إن الجيش بحاجة إلى الرجال وهما باقيان عند زوجتيهما . هل ناتاليا بصحة جيدة ؟

ـ أجل ، ولكن انزع أوسمتك ، يا إلهي ، لقد ركبك الجنون ، أيها الجد!

ـ امضِ في طريقك! أنت أصغر من أن تعلمني!

وخطا الشيخ نحو بانتلاى بروكوفتش مباشرة ، فهز ميليخوف رأسه يائساً وتنحى نازلاً إلى الثلج ليفسح الطريق لمروره .

ونهض ميرون غريغوريفتش ، الذي بدت الشيخوخة واضحة عليه في الأيام القلائل الأخيرة ، يستقبل بانتلاي بروكوفتش ، وقال :

ـ هل رأيت محاربنا الشيخ ؟ إنه مصيبة على رؤوسنا! ومع ذلك لم يأخذ الرب روحه بعد . إنها أفضل طريقة لجلب البلايا على رؤوسنا! علق أوسمته ، وارتدى قبعته ، ثم خرج بكل بساطة! لقد أضحى طفلاً تماماً ، إنه لا يفقه أي شيء .

فقالت لوكينشنا :

ـ دعه يعزي نفسه كما يحلو له ، فلم يبق أمامه عمر طويل .

ثم جلس مع القوزاقيين وراحت تتشكى بمرارة :

ـ حسناً ، كيف أنتم جميعاً ؟ سمعنا أن أعداء المسيح قد طاردوا غريشا . لقد أخذوا أربعة من خيلنا ولم يتركوا لنا سوى فرس ومهر حولي . لقد سلبونا كل شيء!...

فضيق ميرون عينيه وكأنه يسدد الهدف إلى شخص ما وشرع يتكلم بنبرة جديدة يفعمها الحقد . فقال :

ـ ما سبب الدمار الذي يحل في حياتنا ؟ من فعل هذا ؟ إنه من فعل هذه الحكومة الشيطانية! أية حكمة هناك في محاولة المساواة بين الجميع ؟ بوسعك أن تزهق الروح مني ، ولكني لن أرتضي هذه المساواة . لقد تعين

عليَّ أن أشتغل طيلة حياتي بجهد ، واذا بهم يريدون مساواتي برجل لم يرفع في حياته إصبعاً لينتشل نفسه من الفاقة . كلا ، سننتظر قليلاً! إن هذه الحكومة ستقطع شرايين المزارع المجدّ! ولهذا السبب لا نستطيع الانصراف إلى العمل! فما جدوى العمل ، ولأجل من نشتغل ؟ لئن كسبت شيئاً فانهم سيأتونك لينتزعوه منك... انتبه الآن لما أقول . وكما قلت لصديق لي من مريخين ، إن الجبهة تمتد الآن على نهر الدونيتس . ولكن أتراها باقية هناك أبداً ؟ إنني أقول لن أركن إليهم ، أن علينا مدّ يد العون إلى قوزاقنا الذين يعملون وراء الدونيتس...

فسأله بانتلاي بروكوفتش بحذر ، وقد خفض صوته لسبب ما فغدا هامساً :

- كيف يكون ذلك برأيك ؟

- كيف ؟ بأن نركل هذه الحكومة ونطردها! أجل ، نركلها ركلة شديدة تعيدها إلى اقليم تامبوف . فليتقاسموا مساواتهم مع الفلاحين هناك . إنني على استعداد لأن أقدم كل ما أملك حتى آخر خيط من أجل القضاء على هؤلاء الأعداء . هذا أوان العمل ، والا فسيغلبنا الوقت بلغني من القرى الأخرى أن القوزاق متذمرون هناك . علينا أن نعمل سوية! - وانخفض صوته إلى همس لاهث : - لقد انسحبت كتائبهم ، ولم يبق منهم الآن سوى قلائل! لم يبق سوى رئيس لكل قرية... لن تستغرق تسوية الحساب معهم سوى لحظة . أما فيشنسكايا... فاذا هجمنا كلنا معاً سنمزقهم إرباً إرباً! لن يتخلى رجالنا عنا . إنه لأمر أكيد .

فنهض بانتلاي بروكوفتش على قدميه . ثم نصح ميرون بقلق وهو يزن كلماته بعناية :

- حذار من الانزلاق! وإلا فستجني لنفسك المتاعب . صحيح أن القوزاق مترددون ، ولكن الشيطان وحده يعلم إلى أية وجهة سيتجهون في النهاية . ليس بوسعك هذه الأيام أن تتحدث في هذه الأمور إلى كل الناس... أنا لا

أستطيع فهم القوزاق الشباب أبداً ، يبدو كأنهم يعيشون بعيون مغمضة . رحل البعض منهم ، وتخلف الباقون . انها حياة شاقة . هذه ليست حياة ، بل ظلام في ظلام...

فابتسم ميرون ملاطفاً وقال :

ـ لا تدع الشك يساورك! أنا لا ألقي الكلام جزافاً . فالناس كالأغنام : حينما يسير الكبش ، يتبعه القطيع برمته . ولذا ينبغي أن ندلهم على الطريق . علينا أن نفتح أعينهم على هذه الحكومة . فحيث لا تجد الغيوم لا تسمع الرعد . اني أقول للقوزاق بصراحة : عليهم أن يهبوا للتمرد لقد سمعت أنهم أصدروا الأوامر بشنق كافة القوزاق . كيف نقبل بهذا ؟

واحمر وجه ميرون غريغوريتش تحت نمشه ، وأردف :

ـ ماذا سيحل بنا ، يا بروكوفيتش ؟ بلغني أنهم شرعوا بإعدام الناس رمياً بالرصاص... أتسمي هذه حياة ؟ أنظر كيف حل الخراب والدمار بكل شيء خلال هذه الأعوام! فليس هناك كيروسين ولا ثقاب . ولم يكن لدى موخوف ما يبيعه إلا الحلوى قبل أن يغلق حانوته نهائياً! وماذا بشأن البذار ؟ قارن ما زرعنا الآن بما كنا نزرع سابقاً . لقد استولوا على خيلنا . انهم يحسنون الاستيلاء على كل شيء ، ولكن من ذا الذي سيعوض عن هذه الأشياء كلها ؟ كنا نملك في صباي ستاً وثمانين حصاناً ، أنت تذكر هذا ، أليس كذلك ؟ كانت أسرع من الطير وبوسعها أن تلحق حتى بجواد عربي أصيل!... وكان أحدها كستنائياً ، ذا غرة على ناصيته . كنت أذهب به لقنص الأرانب البرية . أخرج به إلى السهب وأفزع أرنباً من بين العشب الطويل فأطارده ثلاثمائة ياردة أو يزيد ثم أدهسه بحصاني . ما زلت أتذكر ذلك حتى الآن...

ثم علت وجه ميرون ابتسامة منفعلة ، وأضاف :

ـ كنت ذات يوم على صهوة هذا الحصان في طريقي إلى الطاحونة

فانطلق أرنب في الطريق ، أمامي مباشرة .. فاستدرت لأطارده ، فاذا به يجري حدر التل ويمضي عبر الدون . كان ذلك عشية عيد المرافع وقد جرفت الرياح الثلج من على الجليد ، ولشد ما كان هذا زلقاً ، فهوى الحصان ولم ينهض أبداً . كاد الخوف يعصف بي . انتزعت السرج وعدت أجري إلى البيت . قلت : «أبتاه ، أهلكت حصاني في طراد أرنب!» فاذا به يقول : «ولكن هل اقتنصت الأرنب ؟» ، «لا يا أبي» ، «حسناً ، أسرج الأدهم واذهب فاقتنصه ، يا ابن العاهرة!» هكذا كانت الحياة! كان القوزاق يومذاك يحيون حياة ممتعة . لم يكن ليضيرهم أن يقتل المرء حصاناً ما دام قد اقتنص أرنباً . كان الحصان يساوي المائة والأرنب قرشاً... آه ، ولكن ما جدوى الكلام!...

* * *

عاد بنتلاي بروكوفتش إلى البيت وقد اشتدت به الحيرة أكثر من ذي قبل ، وعصف به القلق والحنين . وكان يشعر الآن شعورا يقينياً بأن عناصر غريبة معادية شرعت تتولى زمام الحياة . كان في سابق الأيام يدبر أمور حقله وحياته كما لو كان على صهوة جواد حسن التدريب في سباق الطراد ، ولكن ها هو الجواد وقد استبد به الهياج فاذا هو مرتم على ظهره المتمايل وهو يبذل جهداً يائساً ليجنب نفسه السقوط .

توارى المستقبل في ثنايا الضباب . فها هو ذا ميرون كورشونوف الذي كان ذات يوم أغنى قوزاقي في المنطقة برمتها ، وها هي الأعوام الثلاثة الماضية قد هدّت حيله : ذهب عماله جميعاً ، وصار لا يزرع الا النزر اليسير ، وكان عليه أن يبيع ثيرانه وخيله لقاءأثمان مضحكة وبعملة تتناقص قيمتها على الدوام . ما أشبه اليوم بحلم ، بضباب ينضح من الدون . لم يبق سوى المنزل بشرفته ذات النقوش ، وأفاريزه الخشبية المتقشرة يروي قصة أمجاده الغابرة . ولقد حالت لحية ميرون التي يحاكي لونها حمرة الثعالب ،

حالت قبل أوانها بوقت طويل ، ودب الشيب بقعاً صغيرة في بادئ الأمر ، أشبه بتسجيرات على الرمال ، حتى اجتاح كل صدغيه ببياضه الأملح ، ثم جعل يزحف إلى ناصيته شعرة تلو شعرة . وكان ثمة عاملان يتنازعان السلطة في نفس ميرون . فقد كان دمه الفوار يحدوه للعمل ، ويحمله على زرع أرضه ، وبناء سقائفه ، وإصلاح معدات حقله ، وزيادة ثروته . ولكن ما فتئت تجثم على صدره : ما جدوى ثروته ؟ إنها ستنهار برمتها . فاذا بالإهمال يلقي ظلاله المميتة على كل شيء . فلم تعد يداه اللتان ترك عليهما الكدح آثاره تمسكان بالمطرقة أو المنشار كعهدهما في سالف الأيام بل تحطان على ركبتيه بكسل . لقد حلّت الشيخوخة فيه قبل أوانها ، وحتى الآن غدت تثير فيه النفور : فقد أتاها في الربيع كما تؤتى زوجة غير محبوبة بحكم من العادة ، وشعور بالواجب . وصار يضاعف أملاكه دونما سرور ويخسرها دون أن يخامره أسفه المرير السابق . فحين أخذ الحمر أحصنته لم يرف له جفن ، ولكنه قبل عامين كاد أن يبقر زوجته بالمذراة حين وطأت الثيران شيئاً لا يؤبه له من القش . كان جيرانه يدمدمون قائلين : لقد اكتنز من المال حتى التخمة .

ظلع بانتلاي بروكوفتش إلى بيته واستلقى على فراشه . وأحس في نقرة في أسفل الصدر ألماً ممضاً ، وتصاعد إلى بلعومه غثيان بطيء . وبعد العشاء طلب إلى زوجته أن تأتيه بشيء من البطيخ المملح ثم اعترته نوبة من القشعريرة فأخذ طريقه إلى الموقد عبر الغرفة بشق النفس ، وقبيل الصبح انهد فاقد الوعي تلهبه حمى التيفوس . وتشققت شفتاه ، واصفر وجهه وقتم بياض عينيه بظل أزرق . وقد جاءت دروزديخا العجوز ففصدت دمه ، وسحبت من أوردته ملء صحنين من السائل الأسود كالقطران إلا أنه لم يستعد وعيه : اشتد وجهه بياضاً وفغر فاه وهو يلهث ناشداً الهواء .

٢٠

في أواخر كانون الثاني ، استدعى ايفان اليكسييفتش إلى فيشنسكايا لمقابلة رئيس اللجنة الثورية للمنطقة . وكان المفروض أن يعودإلى تتارسكي مساء اليوم ذاته ، فجلس ميشا كوشيفوي في انتظاره في منزل موخوف الخاوي ، وراء منضدة الكتابة الكبيرة العائدة لرب البيت السابق . وكان يجلس على حافة الشباك رجل ميليشيا من فيشنسكايا يدعى أولشانوف (فلم يكن ثمة إلا كرسي واحد في الغرفة) ، وكان أولشانوف يدخن بصمت ويبصق عبر الغرفة بمهارة فائقة . وكانت سماء الغروب عبر النافذة قد استحالت ليلاً مرصعاً بالكواكب وخيم على القرية سكون الصقيع المرن . وكان ميشا يحرر أمراً بتحري منزل ستيبان أستاخوف ، ويشخص بين آونة وأخرى إلى النافذة ، إلى أغصان أشجار القيقب والمفضضة .

اجتاز أحدهم الشرفة ، ودخل سقيفة الباب ، وجزمته اللبادية تخشخش بهدوء . فقال ميشا :

ـ ها هو ذا!

ثم نهض ، ولكنه سمع في المجاز وقع خطوات غير مألوفة ، ونحنحة غريبة ، ثم دخل غريغوري ميليخوف ، وقد استحال وجهه أحمر داكناً من الزمهرير ، وكانت بلورات ثلجية عالقة بحاجبيه وعذاريه ، ومعطفه مزرراً حتى الرقبة ، قال :

رأيت في النافذة ضوءاً ، فعنّ لي أن أدخل . كيف حالك ؟

فحياه ميشا ، قائلاً :

ـ مرحباً ، هل من شكاية ؟

ـ لا شكاية . جئت لتبادل الحديث ولأطلب منك عدم إرسالنا في مهمة النقل . ان خيلنا تظلع .

فنظر إليه ميشا بزاوية عينه ، وقال :

ـ ولكن ماذا عن الثيران ؟

ـ ليس بوسعك استخدام الثيران للمواصلات! فالطريق زلقة .

وتناهى اليهم وقع أقدام تجرجر على الألواح ، التي تجمدت من الصقيع ، حين ارتقى أحدهم الدرج ، وفي اللحظة التالية ولج الغرفة ايفان اليكسييفتش ودخل الغرفة معه الهواء المنعش القارس ورائحة الحشيش اليابس والدخان وقد تلفع بعباءة كالمرأة ، فصاح :

ـ أنا متجمد ، متجمد ، يا أولاد! مرحباً غريغوري! فيم تجوالك ليلاً ؟ هذه العباءات من عمل الشيطان ، الريح تنفذ خلالها كما تنفذ خلال الغربال .

وفيما خلع عباءته مضى يتحدث بلهفة وعيناه تومضان :

ـ حسناً ، لقد قابلت الرئيس . دخلت مكتبه فصافحني وقال : «اجلس ، أيها الرفيق!» لا تنسوا أنه رئيس منطقة! وكيف كانت الأمور في العهد السابق ؟ لا بد أن يكون مكانه أمير لواء ، فيحتم على المرء أن يقف أمامه وكأنه في عرض عسكري . هكذا هي حكومتنا اليوم... الكل سواسية .

فلم يستطع غريغوري أن يفهم سبب حديث ايفان الجذل والسعادة والحيوية المرتسمتين على وجهه ، فسأله قائلاً :

ـ فيم اغتباطك ، يا ايفان اليكسييفتش ؟

فرفع ذقنه ، وقال :

ـ فيم اغتباطي ؟ لقد عاملني معاملة الرجال ، فلماذا لا أغتبط ، مدّ لي يده كالند للند ، وطلب إليَّ الجلوس...

فمسّد غريغوري عذاريه ، وقال :

ـ حتى الجنرالات يخرجون هذه الأيام بقمصان من الجنفاص . لقد رأيت أيام التراجع ضابطاً تعلو كتفه شارات مرسومة بقلم لا يمحي حبره . وكانوا يمدون أيديهم إلى القوزاق كذلك...

ـ الجنرالات يفعلون ذلك مكرهين ، أما هؤلاء فهو طبعهم ، ألا ترى الفرق ؟

فهز غريغوري رأسه قائلاً :
ـ لا فرق .
ـ وهل تعتقد أن هذه الحكومة تشبه سابقتها ؟ لماذا قاتلت ؟ أمن أجل الجنرالات ؟ تقول لا فرق بين الحكومتين!
ـ قاتلت من أجل نفسي ، وليس من أجل الجنرالات . لو توخيت الصدق ، لقلت انني لا أميل إلى أي من الحكومتين .
ـ إلى من تميل اذاً ؟
ـ لا أميل إلى أحد .
فبصق أولشانوف ، رجل الميليشيا ، عبر الغرفة مباشرة ، ثم ابتسم مؤيداً . فلا ريب أنه هو الآخر لم يجد في أي من الحكومتين ما يرضيه .
فقال ميشا متعمداً جرح شعور غريغوري :
ـ لا أظنك كنت تحمل آراء كهذه في السابق .
ولكن غريغوري لم يظهر أنه قد تأثر ، فأجاب :
ـ أنت ، وأنا ، والجميع ، كنا نحمل أفكاراً مختلفة...
كان ايفان اليكسييفتش متلهفاً للتخلص من غريغوري كي يروي لميشا أخبار رحلته وحديثه مع رئيس المنطقة ، ولكن الحديث بدأ يثير قلقه ، فنزل إلى حومة النقاش ، متأثراً بما شاهد وسمع من فيشنسكايا . فقال :
ـ أتيت هنا لتضللنا! أنت ، يا غريغوري ، لا تعرف ما تريد .
ـ صدقت ، لا أعرف .
ـ لماذا تعادي هذه الحكومة ؟
ـ وعلام تساندها أنت ؟ متى أصبحت أحمر هكذا ؟
ـ سوف لا نتحدث عن ذلك . سوف نتحدث عما يجري الآن . ولا تكثر القول عن هذه الحكومة ، فأنا رئيس مجلس قرية ، وليس من الحكمة أن أجادلك في هذا المكان .
ـ دعنا من هذا الحديث اذاً . حان وقت ذهابي ، على أية حال . جئت

بشأن سخرة النقل ، أما عن حكومتك هذه ، فقل ما تشاء ، ولكنها حكومة عفنة . قل لي شيئاً واحداً بصراحة ، فندع الأمر عند ذلك الحد : ما نفع هذه الحكومة للقوزاق ؟

ـ أي قوزاق ؟ هناك قوزاق من شتى الفئات .

ـ لكل الفئات...

ـ الحرية ، والمساواة... مهلاً... هناك شيء لا تعرفه...

فقاطعه غريغوري قائلاً :

ـ هذا ما قالوه عام ١٩١٧ ، ولكن ينبغي لهم الآن أن يفكروا بشيء أفضل . هل يعطوننا الأرض ؟ أم الحرية ؟ هل يساوون بين الجميع ؟ ان لدينا الآن من الأرض ما يكفي لإتخامنا . ولسنا نريد مزيداً من الحرية فيقتل بعضنا البعض في الشوارع . كنا فيما مضى ننتخب اتماناتنا بأنفسنا ، ولكنهم الآن يفرضونهم علينا فرضاً . ان هذه الحكومة لا تجلب للقوزاق سوى الخراب . إنها حكومة فلاحين ، وإن الفلاحين هم الذين بحاجة إليها . ولسنا بحاجةإلى الجنرالات كذلك . سيان بين الشيوعيين والجنرالات : إنهم جميعاً نير في أعناقنا .

ـ أثرياء القوزاق ليسوا بحاجة إليها ، ولكن ماذا عن الآخرين ؟ أيها الأحمق! هناك ثلاثة قوزاق أثرياء في القرية ، وكم عدد الفقراء ؟ وماذا عساك فاعلاً بالشغيلة ؟ كلا ، ليس بوسعنا أن نقبل رأيك فيها . ليتنازل أثرياء القوزاق عن بعض أموالهم وليعطوها إلى الفقراء . وإن هم امتنعوا عن ذلك ، فسننتزعها مع جلودهم أيضاً! لقد سئمنا من تحكمهم برقابنا! لقد سرقوا الأرض منا...

ـ لم يسرقوها ، بل استولوا عليها عن طريق الفتح . لقد سكب جدادنا الدم في سبيلها ، وربما كان ذلك مرجع خصبها...

ـ هذا لا يغير من الأمر شيئاً ، عليهم أن يتقاسموها مع أولئك الذين يحتاجون إليها . أما أنت... فأشبه بديك الطقس على السطح . فأنت تدور مع الرياح . إن رجالاً على شاكلتك يثيرون المتاعب .

ـ لا داعي لشتمي! لقد أتيت بدافع صداقتي القديمة لكي أقول لكم ما يغلي في دخيلتي . أنت تتحدث عن «المساواة» . هكذا كسب البلاشفة الجهلة إلى جانبهم . إنهم يستخدمون كثيراً من الكلمات المعسولة طعماً ، فيدلف أناس كثيرون في شباكهم كالأسماك . وأين هي «مساواتك» هذه ؟ أنظرإلى الجيش الأحمر . لقد مروا بالقرية ، وكان ضباط الرعيل يرتدون جزماً من الجلد بلون الكروم ، أما ايفان* وصحبه فلا يرتدون الا الأسمال . لقد شاهدت قوميسارات يرتدون الجلد من أعلى الرأس إلى أسفل القدم : البنطال والسترة وكل شيء . ولم يكن لدى الآخرين جلد يكفي لصنع حذاء . لم يكد يمضي على الحكم السوفييتي سوى عام واحد ، فما عسى أن يحل بمساواتهم حين ترسخ جذور هذا الحكم تماماً ؟ كنا في جبهة القتال نقول إننا سنغدو جميعاً سواسية ، فيتلقى الضباط والجنود رواتب واحدة . ولكن لا! لم يكن ذلك إلا طعماً! فمهما بلغ السيد من السوء فإن الصعلوك الذي يغدو سيداً أسوأ منه بعشر مرات . كان الضباط القدامى سيئين ، ولكن حين يصير القوزاقي ضابطاً فما عليك إلا أن ترقد وتموت ، فليس في الكون أسوأ منه . لقد نال من الثقافة قدر ما نال أي قوزاقي آخر ، فتعلم ثني أذيال الثيران ، ولكن أنظر اليه الآن! علا نجمه وأثملته السطوة ، وهو مستعد لسلخ جلد أي انسان آخر لكيما يحتفظ بكرسيه .

فرد ايفان اليكسييفتش على غريغوري ببرود دون أن يرفع عينيه إلى وجهه :

ـ إن كلامك يعبر عن عداء للثورة . أنت لن تستطيع أن تجرني إلى طريقك ولست أريد أن أحطمك ، لقد مضى زمن طويل مذ رأيتك آخر مرة ، ولا بد من القول بأنك قد تغيرت . إنك الآن من أعداء الحكومة السوفييتية .

ـ لم أنتظر منك مثل هذا الكلام! ألأنني أبديت رأيي في نوع الحكم

* يراد بذلك سواد الناس ، إذ إن ايفان اكثر الأسماء في روسيا شيوعا . المترجمون

الذي ينبغي أن يقوم عندنا ، أصبح معادياً للثورة ، هل أنا واحد من الكاديت ؟

فاستعار ايفان من أولشانوف كيس تبغه ، ثم قال بنبرة أخف حدة :

ـ كيف أوضح لك الأمر ؟ فالناس يتخذون هذا الموقف أو ذاك بالاحتكام إلى عقولهم وقلوبهم . ليس بوسعي أن أعبر عن الأمر بالكلمات ، وذلك لجهلي وقلة ثقافتي . أنا نفسي يتعين عليَّ أن أتلمس طريقي إلى أشياء كثيرة .

فصاح ميشا مغتاظاً :

ـ كفاني ما سمعت من هذا الكلام!

ثم غادروا المنزل سوية . وظل غريغوري صامتاً . وحين افتراقهم ، قال له ايفان اليكسييفتش :

ـ أفضل لك أن تكتم مثل هذه الأفكار في نفسك ، والا فلن أعدم وسيلة لإسكاتك ، رغم أنك من أقاربي . لن أدعك تشيع البلبلة بين القوزاق ، حسبهم ما عندهم من بلبلة . وإياك أن تعترض سبيلنا ، وإلا فسوف نسحقك...إلى اللقاء!

فمضى غريغوري في طريقه شاعراً أنه قطع على نفسه خط الرجعة . لقد اتضحت الأمور التي كان يغشاها الشك ، فكل ما فعله هو أن أفصح عن الأفكار التي كانت تدور في خلده منذ مدة طويلة . كان يقف في مفترق الطرق ، يتنازعه عاملان ، فيصد عن كليهما مما خلق في نفسه شعوراً عميقاً بالغيظ لا يخمد أواره .

ومضى ايفان وميشا سوية . فشرع ايفان يحكي له عن اجتماعه برئيس المنطقة . ولكنه حين أخذ يتكلم لم يعد يجد في الأمر ما كان قد استشعره من مسرة ومتعة . وحاول أن يستعيد مزاجه المرح ، غير أنه لم يفلح : كان شيء يعترض سبيله ويحول دون تمتعه ببهجة الحياة وملء صدره بالهواء المنعش القارس ولم تكن العقبة سوى غريغوري وكلامه . واذ تذكر النقاش الذي دار بينهما قال بصوت ينم عن الحقد :

ـ ليس غريغوري وأمثاله سوى عثرات في الطريق ، الحثالة! إنه لا يبلغ ضفة النهر أبداً ، بل يظل يطفو كروث البقر اليابس ؛ إن جاء ثانية فسألقنه درساً! وإن شرع بإثارة الناس ، فسنجد له مكاناً صغيراً هادئاً... حسناً ، وأنت ، يا ميشا ؟ كيف تسير أمورك ؟

فنفس ميشا عن أفكاره بأن أرسل لعنة .

ومضيا يسيران في الشارع ، فالتفت كوشيفوي إلى ايفان والابتسامة تلوح على شفتيه المكتنزتين اللتين تحاكيان شفتي فتاة . وقال :

ـ أي شيء عفن هي السياسة ، بحق الشيطان! بوسع المرء أن يتحدث في أي موضوع آخر يشاء ، دون أن ينتابه غم كهذا . هوذا غريغوري : كنا صديقين مذ كنا في المدرسة سوية . وكنا نلاحق الفتيات سوية ، وكان أشبه بأخ لي ، وها نحن أولاء نشرع في الكلام فيستبد بي الجنون حتى يوشك قلبي أن ينفطر كما تنفطر البطيخة . كنت أختض من رأسي إلى أخمص قدمي . فكأنه انتزع مني شيئاً عزيزاً أو سلبه مني . إن كلاماً مثل هذا قد يدفع المرء إلى القتل . إن هذه الحرب لا تعرف أخوّة أو قرابة . فليس أمامك إلا أن تسير في الطريق الذي رسمته لنفسك .

ثم ارتعش صوت ميشا لما كان يستبد به من شعور جارح وأردف :

ـ لم يبلغ غضبي منه على فتاة انتزعها مني يوماً ما بلغه الآن على ما قاله . إن ذلك يريك كم ابتعدت الشقة بيننا!

٢١

جعل الثلج يذوب وهو يتساقط . وعند الظهر انهالت أكوام الثلج من على الصخور الناتئة محدثة هديراً ثقيلاً أصمَ . ودبت الحركة في الغابة الواقعة في الجانب الآخر من الدون وسرى حفيفها . وتعرت جذوع البلوط ، وراحت قطرات صغيرة تتساقط من أغصانها فتنفذ خلل الثلج إلى الأرض التي كانت

تنعم بالدفء تحت غطاء من أوراق الخريف المتعفنة . وكانت رائحة الربيع الحارة المسكرة تفوح ، وعبق البستان بشذى الكرز . وظهرت الحفر على صفحة الدون الجليدية ، وراح الجليد ينحسر عن الضفاف ، وطفا على حوافي الحفر ماء رائق أخضر .

كانت إحدى قوافل النقل التي تحمل العتاد إلى جبهة الدون قد توقفت في تتارسكي لتبديل الزحافات . وقد برهن الجنود الحمر المرافقون للقافلة أنهم فتيان نشطون . وظل آمرهم يراقب ايفان اليكسييفتش قائلاً له : «سأبقى عندك ، وإلا فإنك ستختفي عن الأنظار فلا نعرف أين أنت» . وذهب الاخرون ليجمعوا الزحافات وكانوا بحاجة إلى سبع وأربعين زحافة ذات حصانين .

وذهب يميليان ، حوذي موخوف السابق ، إلى بيت ميليخوف فوجد بيوتر وقال له :

ـ شد حصانيكم لحمل العتاد إلى بوكوفسكايا .

فزنخر بيوتر وقال دون أن يتحرك قيد شعره :

ـ الحصانان يظلعان ، ثم إنني نقلت البارحة بعض الجرحى إلى فيشنسكايا بواسطة الفرس .

فلم يقل يميليان كلمة أخرى ، بل استدار ذاهباًإلى الاسطبل . فجرى بيوتر وراءه ، حاسر الرأس ، وهو يصيح :

ـ هيه! انتظر دقيقة... لا تذهب هناك .

فحدّق يميليان في بيوتر بصرامة وقال : «لا تعبث اذاً! أريد أن أرى حصانيكم... أحسبكم جعلتموهما يظلعان بالمطرقة . ليس بوسعكم ذر الرماد في عيني . لقد رأيت في عمري من الخيل قدر ما رأيتم من الجل . شد أي شيء ، حصانين أو ثورين سيان عندي!

وذهب غريغوري برفقة القافلة . وقبل أن يرحل هرع إلى المطبخ ، فقبل طفليه ، وقال لهما على عجل :

ـ سأعود إليكما بهدايا لطيفة ، ولكن عليكما أن تحسنا السلوك وتصغيا إلى قول أمكما . ـ لكنه قال لبيوتر : ـ لا يأخذك القلق عليَّ . لن أذهب بعيداً . اذا أرادوا الذهاب أبعد من بوكوفسكايا فسأترك الثورين وأرجع . ولكنني قد لا أعود إلى القرية . سأمكث في بيت خالتنا في سينغين . تعال لزيارتي ، يا بيوتر ، لست أحب البقاء هنا . ـ ثم ابتسم بمرارة ، وقال : ـ حسناً ، مع السلامة . لا تتأسي على فراقي كثيراً يا ناتاليا .

ثم حملت الزحافة بالقذائف عند حانوت موخوف ، الذي جعلوا منه مخزناً للطعام وانطلقوا في رحلتهم .

وفيما كان غريغوري راقداً في الزحافة متدثراً بمعطفه ، والثوران يسيران أمامه بثبات ، قال في دخيلة أفكاره : «الحمر يقاتلون في سبيل حياة أفضل لهم ، ولكننا قاتلنا أيضاً من أجل حياة أفضل لنا . فلا وجود للحقيقة في هذه الحياة . فالغالب يأكل المغلوب . وقد كنت أبحث عن الحقيقة التي لا وجود لها ، فأضنيت قلبي من أجلها ، وانتقلت من جانب إلى آخر . يقال أن التتار حاولوا ، في سابق الأيام ، أن يستولوا على أراضي الدون ويجعلوا منا عبيداً . وها قد جاء الآن دور روسيا . لا ، لا سلام معهم! إنهم غرباء عني وعن القوزاق جميعاً . سيدرك القوزاق الآن ذلك . لقد فررنا من الجبهة ، وها هم الجميع مثلي يندمون... ولكن فات الأوان» .

كان كتف الطريق مطرزاً بحاشية متماوجة من السهب الذي كان يتلاشى بين آونة وأخرى في أخدود يعج بالأحراش ، وكانت الحقول الثلجية مترامية على مدى العين لا تكاد ترتفع عن مستوى الزحافة أبداً . وامتد الطريق لا تحده نهاية ، يبعث في النفس شعوراً بانقباض خدر .

وراح غريغوري يستحث الثورين ، بين آونة وأخرى بوسن ، ثم أغفى متكئاً على صناديق الذخيرة . فبعد أن دخن سيكارة ، دفن رأسه في القش . وكان يعبق برائحة البرسيم اليابس وأنسام تموز . ثم أخذه النوم . فحلم أنه

يسير وأكسينيا خلل ذرة طويلة وهي تحمل بين ذراعيها طفلة بكل حنان ، وعيناها القادحتان مسمرتان في غريغوري بترقب ، وكان بوسع غريغوري أن يسمع وجيب قلبه ، وحفيف الذرة الغريد ، ويشاهد زركش العشب الألق يفصل بين الحقول ، وزرقة السماء الصافية . لقد عاوده غرام أكسينيا بكل جوارحه ، وفي كل ضربة من ضربات قلبه . ولكنه في الوقت نفسه كان يدرك أن ما ترى عيناه ليس حقيقة بل ظلاً آفلاً من عالم الرؤى . على أنه استمرأ حلمه ذاك واعتبره واقعاً . كانت أكسينيا كما عهدها قبل خمسة أعوام سوى أنها غدت أكثر تحفظاً وفتوراً ورأى غريغوري خصلات شعرها المخملي تعابثها الريح من حول جيدها كما لم يرها من قبل . ورأى أطراف عصابة رأسها البيضاء...

لكن رجة من الزحافة أيقظته ، فعادت به جلبة الأصوات إلى دنيا الواقع . وحين رفع عينيه رأى أنهم يمرون بصف طويل من زحافات النقل تتحرك في اتجاه معاكس .

وكان بودوفسكوف يسوق زحافته أمام غريغوري ، فسألهم بصوت مبحوح :

ـ ما حملكم ، يا أصدقاء ؟

وراحت مزالق الزحافات تصر ، وأظلاف الثيران المتشققة تخشخش على الثلج . ومرت فترة طويلة من الصمت قبل أن يجيبه أحد على السؤال فقال أخيراً أحد السواق :

ـ جثث . ماتوا بالتيفوس...

فرفع غريغوري نظره فرأى جثثاً مغطاة بالمشمع ممددة على الزحافات المارة به وارتطمت سكة زحافته بيد ظاهرة من تحت المشمع فانبعث من لحمها رنين معدني خاب... فأشاح غريغوري بنظره غير آبه .

وجعلت رائحة البرسيم الثقيلة المخدرة تبعث فيه النعاس من جديد ، وتستدرج إلى ذاكرته أحداث الماضي التي كاد يطويها النسيان ، وتحدو به

أن يفتح قلبه لمشاعر الماضي التي كانت أشبه بالسيف البتار . وتناهبه ألم ممض ولذيذ معاً وهو يرتمي في الزحافة ثانية ، فيلامس خده سيقان البرسيم الصفر . وراح قلبه ينزف ويعلو وجيبه تحت سياط الذكريات ، ولم يعاوده النوم إلا بعد وقت طويل .

٢٢

تجمع حول لجنة تتارسكي الثورية بعض الأشخاص ، هم دافيد العامل ، وتيموفي ، ويميليان حوذي موخوف السابق ، والاسكافي فيلكا ذو الوجه المجدور . وكان على ايفان اليكسييفتش أن يركن إلى هذه الجماعة لإسناده في نشاطه اليومي فقد أدرك أن بينه وبين أهل القرية الاخرين جداراً ما ينفك يرتفع . كان القوزاق يحجمون عن حضور الاجتماعات ، فلا يأتون إلا بعد أن يدور دافيد والآخرون على البيوت مرات عديدة ، وحينذاك يوافقون على كل المقترحات بصمت . وكان القوزاق الشباب يشكلون أغلبية الذين يحضرون هذه الاجتماعات . ولم يكن هناك مؤيدون حتى بين هؤلاء . فلم تكن عينا ايفان لتقع أثناء الاجتماعات إلا على وجوه جامدة ، ونظرات مرتابة وأعين مسبلة . فكان الفتور يسري إلى قلبه ، وتلوح في عينيه نظرة توسل ، ويغدو صوته واهناً تعوزه الثقة . وذات يوم شكا له فيلكا قائلاً :

ـ انقطعنا عن القرية ، أيها الرفيق كوتلياروف . فقد ركب الشيطان رؤوسهم . ذهبت البارحة لأحصل على زحافات لنقل جرحى الجيش الاحمر إلى فيشنسكايا ، لكن أحداً لم يقبل بالذهاب . إننا لن نتقدم كثيراً على هذه الشاكلة .

وهتف يميليان وهو يدك الغليون بإبهامه :

ـ وما أشد ما يسرفون في الشراب هذه الأيام! الفودكا تُقطّر الآن في كل منزل .

وعبس ميشا كوشيفوي وكتم خواطره.، ولكنهم حين هموا بالذهاب إلى بيوتهم مساء طلب من ايفان اليكسييفتش قائلاً :

ـ دعني آخذ بندقية .

ـ لماذا ؟

ـ لست أميل إلى التجوال خاوي اليدين . أم تراك لم تلاحظ شيئاً ؟ أحسب أن علينا اعتقال البعض... ينبغي أن نعتقل غريغوري ميليخوف ، وبولديريف العجوز ، وماتفي كاشولين ، وميرون كورشونوف . إن هؤلاء الأشخاص يقرأون في آذان القوزاق... إنهم في انتظار عودة رجالهم من الدونيتس .

فقطب ايفان اليكسييفتش وجهه وأتى حركة قانطة :

ـ إن نحن شرعنا في اقتلاع الدغل ، فإن علينا اجتثاث الكثيرين من مثل هؤلاء . لقد بدأ الناس يتذبذبون... بعضهم يؤيدنا ، ولكنهم يهابون كورشونوف . إنهم يخشون عودة ابنه ميتكا من الدونيتس فيزهق أرواحهم .

وتغيرت الحياة تغيراً عنيفاً ومفاجئاً... فجاء رسول عاجل من فيشنسكايا في اليوم التالي ، حاملاً تعليمات تقضي بفرض أتاوة على أغنى العوائل . فكان لزاماً أن يجبي من القرية مبلغ أربعين ألف روبل فحددت اللجنة الثورية مقدار ما ينبغي لكل عائلة أن تسهم به . وحين حل اليوم التالي كان قد جمع قرابة ثمانية عشر ألف روبل ، وضعت في كيسين . وكتب ايفان اليكسييفتش رسالةإلى لجنة المنطقة . ثم جاء منها ثلاثة رجال من الميليشيا يحملون هذا الامر : «يجب أن يعتقل أولئك الذين رفضوا تأدية أتاواتهم وأن يرسلوا إلى فيشنسكايا مخفورين» فألقى القبض فوراً على أربعة شيوخ أودعوا موقتاً قبو موخوف ، حيث كان يختزن تفاحه الشتائي في السابق .

وضجت القرية مثل خلية نحل مستثار . كان كورشونوف قد رفض ، رفضاً باتاً ، أن يدفع أي شيء مما يكتنزه من العملة التي ما انفكت قيمتها تهبط . على أن الوقت قد حان ليقدم حسابه عن أيامه المترفة الغابرة .

فوصل القرية محقق ، وهو قوزاقي شاب من فيشنسكايا كان قد خدم في الكتيبة الثامنة والعشرين وبصحبته رجل يرتدي فروة فوق صدرية جلدية . وعرضوا على ايفان أمر المحكمة الثورية . ثم اختلوا به في مكتبه . وكان رفيق المحقق رجلاً كهلاً ، حليق الوجه ، فقال بجد :

ـ لقد بدأت القلاقل في المنطقة . فمن بقي من رجال الحرس الأبيض أخذوا يرفعون رؤوسهم ويحرضون القوزاق الكادحين . علينا أن نزيح جميع المعادين لنا : الضباط والقسس ، والأتمانات والدرك ، والأغنياء وكل أولئك الذين قاتلوا ضدنا بحمية . أعد قائمة بأسمائهم ، وقدّم للمحقق كل عون . مع العلم أن له معلومات سابقة عن البعض منهم .

وحدق ايفان في وجه الرجل الحليق ، واستعرض الأسماء عائلة بعد عائلة ومر على ذكر بيوتر ميليخوف أيضاً ، بيد أن المحقق هز رأسه قائلاً :

ـ إنه واحد منا . كما أن فومين طلب ألا نتعرض له . إنه صديق للبلاشفة ، لقد خدمت معه في الكتيبة الثامنة والعشرين .

وكتب كوشيفوي القائمة بخط يده على ورقة مسطرة مقطوعة من كراسة ووضعها على المنضدة .

وبعد ذلك ببضع ساعات جلس القوزاق المعتقلون في حوش موخوف الفسيح يحرسهم رجال الميليشيا ، ينتظرون أن ترسل لهم عوائلهم المؤونة والملابس والحاجيات الأخرى . وكان ميرون كورشونوف يرتدي ملابس جديدة تماماً وهي معطف فرو وحذاء وجوارب بيضاء ، وكأنه يعد العدة لمواجهة منيته ، وكان يجلس في الأخير إلى جانب بوغاتيروف العجوز وماتفي كاشولين . وراح أفدييتش الكذوب يجوب الحوش ويلقي نظرات ساهمة على البئر أو يلتقط عوداً من الأرض ثم يعود من سقيفة الباب إلى بوابة الصفصاف ، وهو يمسح وجهه الأرجواني العرِق بكمه . أما الآخرون فقد جلسوا صامتين ، منكسي الرؤوس ، يخطون على الثلج بعصيهم . وجرت نساؤهم إلى الحوش دامعات العيون ، يحملن أكياساً وصرراً وهنّ يتهامسن .

وبكت لوكينتشنا وهي تزرر سترة الفرو على رجلها العجوز وتشدّ ياقته بمنديلٍ نسائيٍّ كبيرٍ أبيض . وفيما كانت تحدق في عينيه الذاويتين قالت :

ـ لاتحزن ، ياميرون! فلعل نهايتنا خير . يا إلهي! ـ واستطال فمها وهي تخنق عبراتها ، و لكنها ما لبثت أن زمت شفتيها و همست : ـ سآتي لزيارتك وأجلب معي أغريبينا ، فإنك تحبها كثيراً...

و صاح رجل من رجال الميليشيا عند البوابة :

ـ وصلت الزحافات . ضعوا عليها حوائجكم وهلموا! يا نساء ، كفى هذا البكاء والنحيب!

فلثمت لوكينيشنا يد ميرون المشعرة ، لأول مرة في حياتها ، ثم جرت نفسها عنه . و دبت زحافات الثيران عبر الحوش وئيدة صوب الدون . وتبعها المعتقلون السبعة ورجلان من رجال الميليشيا مشياً على الأقدام .

وقد تخلف أفدييتش عنهم ليربط حذاءه ثم جرى كالشباب ليلحق بهم . وسار ماتفي كاشولين إلى جانب ابنه . وراح ميدانيكوف وكوروليوف يدخنان . أما ميرون فقد تشبث بالزحافة ، و سار خلفهم جميعاً بوغاتيريوف الشيخ بخطى ثقيلة مهيبة . كانت الريح تدفع لحيته الكهنوتية البيضاء إلى وراء ، وكان اللفاح الملقى على كتفه يخفق فيما يشبه تلويحة الوداع .

في ذلك اليوم الغائم من شباط وقع في تتارسكي حادث خارق آخر . كان أهل القرية قد ألفوا في الآونة الأخيرة مجيء الموظفين من مركز المنطقة . و لذا فإن أحداً لم يلق بالاً إلى المركبة الزحافة تجتاز ساحة القرية ، يجرها حصانان ويجلس إلى جانب سائقها أحد الرجال وهو منكمش من البرد . وتوقفت المركبة عند منزل موخوف ونزل الرجل ، فإذا به كهل متئد الحركة . فسوى معطف الخيالة الطويل الذي يرتديه ، ثم رفع غطائي الأذن لقبعة الخيالة الحمراء الفرو من على أذنيه ، ثم أمسك بالقراب الخشبي لمسدسه الموزر ، و ارتقى الدرجات على مهل .

كان ايفان اليكسييفتش في غرفة اللجنة الثورية بصحبة اثنين من رجال

الميليشيا . ودخل القادم الجديد دون أن يطرق الباب ، ثم مسد لحيته القصيرة الشهباء ، وقال مستفهماً بصوت عميق :

ـ أريد الرئيس .

فأدار إيفان إلى المتكلم عينيه الجاحظتين وحاول أن يهب على قدميه . ولكنه لم يستطع إلا أن يحرك فمه كالسمكة ، وينقر على ذراعي كرسيه الباليتين بأصابع يده . فقد كان شتوكمان يحدق فيه من تحت قبعة الخيالة القوزاقية . و ظل لحظة يشخص إلى إيفان بعينين ضيقتين دون أن يبدو عليه أنه عرفه ، ثم أشرقت عيناه وانساب خط من الغضون الصغيرة من زاويتيهما حتى الصدغين ، وخطا عبر الغرفة نحو إيفان الذي لبث جالساً ، فعانقه بدون تردد وقبله ، ماسحاً وجهه بلحيته المبتلة ، وهتف :

ـ لقد عرفت ذلك! قلت في نفسي ، إذا كان إيفان ما يزال حياً فسأجده رئيساً في تتارسكي!

ـ أوسيب دافيدوفيتش ، اقرصني! اقرصني ، أنا الخنزير! فلا أستطيع أن أصدق عيني!...

وكاد إيفان أن يجهش بالبكاء ، فرد عليه شتوكمان وهويفك يده برفق :

ـ إنها الحقيقة تماماً! حسناً ، أليس لديك ما نجلس عليه ؟

ـ هاك ، خذ هذا الكرسي . و لكن من أين نبعت ؟ قل لي .

ـ أنا الآن أعمل في الشعبة السياسية للجيش الأحمر . أراك ما تزال غير مصدق بأنني ماثل أمامك حقيقة! أيها الحجر! ـ قال شتوكمان باسماً وهو يضرب على ركبة إيفان برفق . ـ ولكن الأمر في غاية البساطة ، يا صاحبي القديم . فبعد أن أخذوني من هنا أرسلوني إلى المنفى وهناك استقبلت الثورة . و قد قمنا ، أنا ورفيق آخر بتنظيم مفرزة من الحرس الأحمر وأسهمنا في قتال دوتوف وكولتشاك . لقد كان وقتاً بهيجاً ، يا ولدي! ثم طردناه إلى ما وراء الأورال ، هل تعرف ؟ وها أنذا الآن في جبهتكم ، فقد

أرسلتني الشعبة السياسية في الجيش الثامن إلى هنا لأعمل في منطقتكم لأنني سبق أن عشت فيها وخبرت الأوضاع ، كما يقال . وحين وصلت فيشنسكايا ، تحدثت إلى جماعة اللجنة الثورية ، ثم قررت المجيء إلى تتارسكي قبل كل شيء . فكرت بالمجيء إلى هنا والبقاء لأعمل وأساعدكم على تنظيم الأمور ، ومن ثم أذهب إلى مكان ثان . أنا ، كما ترى ، لم أنس صداقتنا القديمة . ولكن بوسعنا أن نعود إلى ذلك فيما بعد ، دعنا الآن نتحدث عنك ، عن الوضع هنا ، أخبرني بكل ما تعلم عن الجميع ، من يعمل الآن معكم ؟ من بقي على قيد الحياة ؟ ـ ثم التفت إلى رجلي الميليشيا وأردف : ـ أيها الرفيقان ، أتركاني والرئيس وحدنا ساعة أو بعض ساعة . أف يا للشيطان! حين كنت أجتاز القرية شممت رائحة الأيام الخوالي... أجل ، لقد كانت الحياة راكدة يومئذٍ ، أما الآن... حسناً هات ما عندك!

وبعد زهاء ثلاث ساعات أوصل ميشا كوشيفوي وايفان شتوكمان . إلى مأواه القديم عند لوكيريا الحولاء . سارا على ممشى الطريق بني اللون ، وميشا متشبث بكم شتوكمان وكأنه يخشى أن يتلاشى كشبح .

وقدمت لوكيريا لنزيلها القديم صحناً من الحساء ولم تبخل حتى بقطعة مهروشة من السكر نبشتها من مذخرها الخفي . وبعد أن تناولوا شاياً من خلاصة أوراق الكرز تمدد شتوكمان على رف الموقد ، ولبث ينصت إلى حكايات لا رابط بينها ، يرويها ميشا وايفان ، ويطرح أسئلة ، ويعض على مبسم سيكارته . وقبيل الفجر استسلم إلى الرقاد فسقطت سيكارته على قميصه الفانيلة الوسخ . ومضى ايفان في حديثه نحو عشر دقائق أخرى ، ولكنه حين سمع شتوكمان يجيب على سؤاله بالشخير ، بارح الغرفة على أطراف أصابعه بهدوء ، وقد احمر وجهه من الجهد الذي بذله لكبت سعاله .

وفيما كانا يهبطان الدرج سأله ميشا وهو يضحك بهدوء :

ـ هل تشعر بتحسن ؟

* * *

عند منتصف الليل عاد أولشانوف الذي كان قد رافق المعتقلين إلى فيشنسكايا . فطرق مراراً على نافذة الغرفة الصغيرة حيث ينام ايفان اليكسييفتش ، وأيقظه في نهاية الأمر .

فسأله ايفان وقد انتفخ وجهه من النوم :

ـ ماذا تريد ؟ هل عدت برسائل ، أم ماذا ؟

فجعل أولشانوف يعبث بسوطه وقال :

ـ رموا القوزاق بالرصاص .

ـ أنت تكذب ، أيها الخنزير!

ـ حققوا معهم حال وصولهم ثم ذهبوا بهم إلى غابة صنوبر قبل حلول الظلام... شهدت الأمر بنفسي!...

فشرع ايفان يتخبط بجزمته اللباد ، وارتدى ملابسه على عجل ، ثم جرى إلى شتوكمان ، وهتف قائلاً :

ـ أرسلنا بعض المعتقلين الى فيشنسكايا اليوم فأعدموهم رمياً بالرصاص! ظننت أنهم سيودعونهم السجن وحسب ، ولكن هذا شيء آخر . لن يسعنا والحالة هذه أن نحرز أي تقدم . سيعرض الناس عنا يا أوسيب دافيدوفتش ، علام قتلوهم ؟ ماذا سيحدث الآن ؟

كان يتوقع أن يعتري شتوكمان ما يشعر به من هياج وسخط على ما جرى ، ولكن شتوكمان قال فيما كان يرتدي قميصه على مهل :

ـ والآن ، دعك من الصياح!فإنك ستوقظ لوكيريا! ـ ثم ارتدى ملابسه ، وأشعل سيكارته ، وسأله مرة أخرى عن الأسباب التي أدت الى اعتقالهم ثم قال بفتور : ـ ينبغي أن تدخل في رأسك شيئاً ، وتبقيه هناك! إن الجبهة على بعد مائة وعشرين فرسخاً من هنا . وإن غالبية القوزاق ، يناصبوننا العداء ، وسبب ذلك أن الكولاك من القوزاق وأتماناتكم ، والرؤساء الآخرين ، ما زالوا يتمتعون بنفوذ كبير بين القوزاق الكادحين . ما علة ذلك ؟ حسناً ، ينبغي أن يكون في وسعك الإجابة عن ذلك . إن القوزاق طائفة عسكرية

خاصة . لقد ربت القيصرية فيهم حبهم هذا للسلطات و«للقادة الآباء» . هؤلاء «القادة الآباء» أنفسهم هم الذين كانوا يأمرون القوزاق بسحق إضرابات العمال . لقد لعبوا برؤوس القوزاق طيلة ثلاثمائة عام . حسناً! ثمة فرق كبير بين كولاكي من إقليم ريزان وكولاكي من قوزاق الدون . فقد كان كولاكي ريزان عرضة للاستغلال ، إنه أفعى سامة خطرة . فهو لا يكتفي بتلفيق الأكاذيب ضدنا ، كما فعل كورشونوف والآخرون ، حسب قولك أنت ، بل سيحاول أن يهاجمنا هجوماً مكشوفاً . إنه سيفعل ذلك حتماً! إنه سيحمل بندقية ويطلق النار علينا . سيقتلك . وسيحاول أن يجعل القوزاق الآخرين يتبعونه ، ولا سيما غير المعسرين منهم ، لا بل وفقراءهم أيضاً وسيقتلنا بأيديهم! حسناً ، ما تهمة هؤلاء ؟ هل اتهموا بنشاطهم المعادي لنا ؟ حسناً ، قل كلمة أو اثنتين . وادفع بهم إلى الحائط! ولا داعي لذرف المخاط عليهم... «كان رجلاً طيباً» وما إلى ذلك...

فحرك ايفان اليكسييفتش يده وقال :

ـ لست آسفاً ، لا تسيء فهمي . إن ما أخشاه هو أن نثير عداء الآخرين لنا .

كان شتوكمان حتى تلك اللحظة قد ربت على صدره المشعر وهو يتظاهر بشيء من الهدوء . ولكنه انفجر ، فجأة وأمسك ايفان من ياقة قميصه بعنف وجره إليه ، وقال بصوت مخنوق :

ـ لن نثير عداءهم إن أدخلنا في أذهانهم حقيقة واقعنا الطبقي ، فليس لدى القوزاقي الكادح من رفاق سوانا ، لا الكولاك . آه ، يا الهي ، أنت... الكولاك يعيشون من كدح هؤلاء ويسمنون عليه ، أليس كذلك ؟ أيها المغفل العجوز! لقد فقدت حماسك! آه ، أراني بحاجة إلى معالجة أمرك! عامل مثلك ، وها أنت تروّل كالمثقفين... كأنك عضو حقير في الحزب الثوري الاشتراكي القذر! آه ، يا ايفان! ـ ثم خلى عن ياقة ايفان وابتسم بوهن ، وهز رأسه ، ثم جعل يجر أنفاساً عميقة من سيكارته واختتم كلامه بنبرة أخف وطأة :

ـ اذا لم نلق القبض على أنشط الأعداء في المنطقة فستحدث انتفاضة . أما اذا عزلناهم في الوقت المناسب فقد لا تحدث تلك الانتفاضة . ليس ضرورياً أن نعدمهم جميعاً ، ينبغي القضاء على القادة فقط ، أما الآخرون فقد نرسلهم الي قلب روسيا . ولكن ليس بوسعك أن تبدي المجاملات لأعدائك . ليس بوسعك أن «تصنع ثورة وأنت مرتد قفازين» كما يقول لينين . هل كان من الضروري إعدام هؤلاء الرجال والحالة هذه ؟ أحسب أنه كذلك ، ربما ليس جميعهم ، ولكن كورشونوف بالتأكيد . هذا أمر واضح . وثمة غريغوري ميليخوف : لقد نجا إلى حين . كان ينبغي أن نعالج أمره . إنه أخطر من الآخرين جميعاً . وتذكر هذا ايضاً . إن ذلك الحديث الذي تحدث به إليكم هو حديث رجل سيصبح في الغد عدواً . إننا لا نعاني هنا شيئاً يذكر . أما في جبهة القتال فيموت الآن خيرة أبناء الطبقة العاملة ، يموتون بالألوف . ينبغي أن تحزن عليهم هم ، لا على أولئك الذين يقومون بقتلهم أو يتحينون الفرصة لتسديد الطعنة إلى ظهورنا . فإما نحن وإما هم! ليس ثمة حل وسط . هذا هو الحال ، يا ايفان ، يا صاحبي القديم!

٢٣

كان بيوتر قد دخل المطبخ لتوه بعد أن أطعم الماشية ، وعلى أثره في الحال طق مزلاج الباب الخارجي ، وتخطت لوكينشنا العتبة وهي متلفعة بشال تركي أسود . وهرولت صوب ناتاليا واقفة عند المصطبة بخطى صغيرة ، دونما تحية وهوت على ركبتيها أمامها .

فصرخت ناتاليا بصوت غريب فيما حاولت رفع جسد أمها الثقيل :

ـ ماما! عزيزتي! ماذا جرى ؟

وبدل أن تجيب راحت تضرب رأسها على الأرض الترابية وتنوح بصوت مكبوت منكسر وتبكي كمن يبكي على الموتى :

ـ يا حبيبي! لم ذهبت عني وخلفتني ؟

وانفجرت المرأتان تنتحبان نحيباً زاده حزناً على حزن زعيق الطفلين الباكيين ، فما كان من بيوتر إلا أن أخذ كيس تبغه من على حافة الموقد وهرع إلى سقيفة الباب . وقد خمن في الحال ما حدث ، ووقف يدخن على الدرجات . ثم تلاشت الأصوات الناحبة ، فعاد إلى المطبخ وهو يحس بقشعريرة مزعجة تسري في ظهره . كانت لوكينشنا قد دفنت وجهها في منديلها الندي ، وهي تندب :

ـ لقد قتلوا عزيزنا ميرون غريغوريفتش! فغاب نسري عن الحياة... تركنا أيتاماً... ليس لنا الآن من يرعانا...

ثم علا صوتها فاستحال عويلاً : «انغلقت عيناه العزيزتان . انغلقتا إلى الأبد!»

ورشت داريا الماء على وجه ناتاليا التي أغمي عليها . ثم مسحت ايلينشنا خديها بصدريتها وجاءهم من الغرفة الأمامية ، حيث يرقد بانتلاي بروكوفتش عليلاً ، صوت سعال وأنين موجع .

وأمسكت لوكينشنا بيد بيوتر وشدتها إلى صدرها بجنون :

ـ بحب المسيح! بحب الله! اذهب إلى فيشنسكايا وعد به رغم أنه ميت . عد به . أواه ، يا ملكة السماء الرحيمة! أواه ، لا أريده أن يجيف هناك من دون تشييع لائق!...

فخطا بيوتر مبتعداً عنها وكأن فيها طاعوناً ، وقال :

ـ ماذا بحق!... بماذا تفكرين ؟ إنها لمهمة رائعة أن أبحث عنه! حياتي أغلى عندي من أن أفعل ذلك . كيف يسعني أن أعثر عليه هناك ؟

ـ لا ترفض طلبي ، يا عزيزي بيوترا بحب المسيح... بحب ربنا...

وراح بيوتر يلوك شاربه ، ثم وافق في نهاية الأمر . فقرر الذهاب إلى قوزاقي من معارف أبيه في فيشنسكايا ، ليستعين به في محاولة للحصول على جثة ميرون . وانطلق بعربته ليلاً ، ومنازل القرية تفيض بالضياء ، والناس

يناقشون حادث الإعدام في كل مطبخ . ثم توقف قرب الكنيسة الجديدة ، في بيت رفيق قديم لوالده في الجندية ، والتمس مساعدته . فوافق القوزاقي عن طيب خاطر ، وقال معلقاً :

ـ أعرف أين دفنوهم . لا يحفرون الأرض عميقاً . ولكن من الصعب أن نعثر عليه فليس هو الوحيد . لقد أعدموا البارحة اثني عشر رجلاً من الذين أعدموا القوزاق في ايام سلطة الكاديت . لديَّ شرط واحد : عليك أن تبتاع لي ربع غالون من الفودكا . هل اتفقنا ؟

وتزودا بمحفة ومجارف ، واجتازا المقبرة عند منتصف الليل متجهين بمحاذاة القرية نحو الصنوبر حيث نفذت أحكام الاعدام . كان ثلج ناعم يتساقط ونبات السرخس المتجمد يخشخش تحت أقدامهما فأرهف بيوتر أذنيه لكل نأمة وهو يلعن في سره هذه المهمة ، ولوكينشنا ، وحتى ميرون المتوفى . ثم توقف القوزاقي عند ربوة رملية ، وقال :

ـ ينبغي أن يكونوا في مكان قريب من هنا .

ثم مضيا مائة ياردة أخرى ، فولت الأدبار ثلة من الكلاب وهي تنبح وتزمجر . فرمى بيوتر المحفة وهمس بصوت مبحوح :

ـ إني عائد! ليذهب إلى الشيطان! كيف يتسنى لنا العثور عليه بين الآخرين ؟ أوه ، تورطت ، توسلت تلك الروح الشريرة العجوز!...

فضحك القوزاقي منه وقال :

ـ علام خوفك ؟ تعال!

مضيا فبلغا بقعة عند شجرة صفصاف عجوز حيث كان الثلج مداساً بشدة ومختلطاً بالرمل . وكانت تخرج منه كالأشعة آثار خطوات الناس العريضة وخطوات الكلاب الصغيرة . وشرعا يحفران .

... عرف بيوتر ميرون بلحيته الحمراء . فرفع الجثة من الحزام ، ورماها على المحفة . وراح القوزاقي يسعل وهو يردم القبر ، ثم رفع مقبضي المحفة ، وهو يتبرم :

ـ كان ينبغي أن نأتي بالزحافة إلى أشجار الصنوبر . نحن أحمقان! فهو يزن أكثر من ثمانين كيلوغراماً . وليس من السهل أن نمشي على الثلج .

وباعد بيوتر ما بين ساقي الرجل الميت كيما يستطيع أن يمسك بمقبضي المحفة .

وفي كوخ القوزاقي ، جلسا يشربان حتى مطلع الفجر . وكان ميرون كورشونوف ملفوفاً ببساط ينتظر في الزحافة خارج المنزل ، وبسبب ثمله فقد ترك بيوتر الحصان مشدوداً إلى الزحافة ، فوقف الحيوان طوال الوقت يشد على رسنه ، ويزنخر وينصب أذنيه . لقد شم رائحة الجثة فلم يقترب من القش الموضوع في الزحافة .

كان الفجر ينبلج حين وصل بيوتر إلى تتارسكي ، قادماً عن طريق المرج يسوق الحصان دونما توقف . وكان رأس ميرون من ورائه يضرب على قاع الزحافة ، فتوقف بيوتر مرتين ليدس تحته شيئاً من قش المروج الندي . وذهب بالجثة إلى أهلها مباشرة ، ففتحت البوابة أغريبينا ابنة ميرون الأثيرة لدى أبيها الميت ، ثم تولت عن الزحافة إلى أكوام الثلج في الحوش . فرفع بيوتر الجثة على كتفه كما يرفع كيساً من الدقيق ، ثم حملها إلى المطبخ الواسع ، وأنزلها بعناية فوق المنضدة التي نشر عليها خوان أبيض . فزحفت لوكينشنا ، حاسرة الرأس وقد بحّ صوتها من البكاء ، فدنت من قدمي زوجها وعليهما جوربا جناز أبيضان نظيفان . ثم همست قائلة :

ـ كنت أحسب أنك تعود إلى بيتك على قدميك ، يا سيدي العزيز . ولكن كتب لك أن تأتي محمولاً على الأيدي . كان همسها ونشيجها خافتين لا يكاد المرد يسمعهما ، يشبهان قهقهة الضحكات إلى حد غريب . ثم قاد بيوتر غريشاكا العجوز إلى داخل الغرفة من ذراعه . كان الشيخ يختض بكل جسده . ولكنه سار إلى الطاولة بنشاط فوقف عند الرأس .

ـ حسناً ، يا ميرون! هكذا اذا نلتقي ثانية ، يا ولدي! ـ ثم رسم إشارة الصليب على نفسه وقبل الجبين المتجمد الملطخ بالطين الأصفر : ـ ميرون...

وأنا لن أتأخر كذلك... ـ ثم ارتفع صوت الشيخ إلى عويل متوجع . ورفع اليد الهامدة ، بحركة فتية نشطة ، إلى شفتيه ، كأنه يخاف من إفشاء سرّ ، ثم جثا عند الطاولة .

أخذت نوبة من الحزن بخناق بيوتر ، فخرج إلى الفناء ، بهدوء حيث كان حصانه مربوطاً عند بيت الدجاج .

٢٤

يتهافت الدون من بطونه العميقة الهادئة على الضفتين ، فيخلف بركاً واسعة ضحلة . وتدوم المياه فيما ينساب الدون دؤوباً رقيقاً ، تسرح على قعره الرملي الصلد أسراب سمك أسود البطن ، وفي الليل يرتفع صغار السمك بحثاً عن الطعام ، ويتجول الشبوط في الأماكن الخضر الموحلة التي يرتادها قرب الضفة ، ويبحث سمك الكراكي وسمك الشط عن صغار السمك ، وينبش سمك القرموط بين القواقع ، فيرمي بعض الأحيان برشة من الماء الأخضر حين يظهر للعيان هنيهة فيهف بزعنفته الذهبية في ضوء القمر الغامر ، ثم يغوص ثانية لينقب بين القواقع برأسه المنتفخ ذي العذار حتى مطلع الصبح ، حين يرقد خدراً في أمان تحت نتوء أسود متهرئ .

ولكن حيث تضيق الفسحة بين الضفتين يشق الدون الحبيس لنفسه مجرى عميقاً ويمضي على صهوة أمواجه المزبدة يرسل هديراً مكتوماً فتظهر الدوامات حول الرؤوس والنتوءات ، وتروح المياه تتسابق بسرعة مريعة فتعجز العين عن تتبعها .

وانسابت الحياة في رحابة أيامها الوادعة إلى مجرى يضيق بها . كانت مناطق الدون الأعلى تمور . وقد ارتطم تياران فانقسم القوزاق على أنفسهم وراحت الدوامة تحوم بكل عنفوانها . كان الشباب والفقراء من القوزاق ما يزالون قابعين مترددين ، يأملون أن يأتيهم السلام من الحكم السوفييتي ،

ولكن الرجال المسنين بدؤوا الهجوم وكانوا يقولون صراحة أن الحمر عازمون على إبادة القوزاق عن بكرة أبيهم .

وفي الرابع من آذار دعا ايفان اليكسييفتش أهل تتارسكي إلى عقد اجتماع ، فحضر الاجتماع حشد كبير على غير العادة ، ولعل مردة ذلك أن شتوكمان كان قد اقترح أن تدعو اللجنة الثورية إلى عقد اجتماع لتوزيع أملاك التجار الذين هربوا إلى صفوف البيض على القوزاق المعوزين . وقد سبق الاجتماع لقاء عاصف بين شتوكمان وموظف محلي قدم من فيتشنسكايا يحمل تخويلاً باستلام بعض الملابس المصادرة فأوضح شتوكمان له أن اللجنة الثورية لا تستطيع تسليم الملابس في الوقت الراهن اذ أنها أعطيت في اليوم السابق إلى قافلة تحمل جرحى ومرضى من الجيش الأحمر .

فاغتاظ الموظف الشاب ، وجعل يصرخ بحدة في وجه شتوكمان :

ـ من أعطاك إذناً لتسليم الملابس المصادرة ؟

ـ لم نطلب إذناً من أحد .

ـ فبأي حق اختلست أموال الدولة ؟

ـ لا تصرخ ، أيها الرفيق ، ولا تهذر . لم يختلس أحد شيئاً . لقد سلمنا الفروات إلى السواق وفق تعهد خطي يقضي بإعادة الملابس بعد أن ينقلوا جرحاهم إلى نقطة معينة . كان الجنود شبه عراة ، فلو أننا سمحنا بذهابهم على تلك الحال لكنا مرسيلهم إلى حتوفهم . ما كان بوسعي أن أفعل غير ذلك ؟ لا سيما والملابس كانت مهملة في القبو .

كان شتوكمان يتحدث بهدوء ، كابحاً جماح غيظه ، فكان يمكن أن ينتهي الحديث بسلام . ولكن الشاب مضى يقول بصوت صارم النبرات :

ـ من أنت ؟ رئيس اللجنة الثورية ؟ سأعتقلك! سلم عملك إلى مساعدك . سأرسلك إلى فيشنسكايا على الفور . أحسب أنك سرقت نصف الأموال هنا ، ولكن...

فسأله شتوكمان وقد علا وجهه شحوب الموتى :

ـ هل أنت شيوعي ؟

ـ ليس هذا من شأنك! يا رجل الميلشيا! خذ هذا الرجل فوراً وسلمه في فيشنسكايا . ضعه تحت يد ميليشيا المنطقة وخذ به إيصالاً .

ثم تفحّص شتوكمان بنظرة خاطفة ، وأضاف :

ـ سوف نتحدث وإياك هناك! سأجعلك ترقص ، أيها المتسلط .

ـ يا رفيق ، هل جننت ؟ ألا تعرف...

ـ بلا كلام! أسكت!...

كان ايفان اليكسييفتش يصغي إلى ذلك الحوار دون أن يستطيع التدخل بكلمة ، فرأى شتوكمان يمد يده إلى مسدسه الموزر المعلق على الحائط بحركة بطيئة فظيعة ، فتراقص الهلع في عيني الشاب . وبسرعة مدهشة فتح الباب دفعاً بظهره ، فهوى على درجات العتبة وظهره يرتطم بكل درجة . وحبا على قدميه ثم ألقى بنفسه في زحافته وراح يستحث سائقه ، يهمزه في ظهره وهو يجتاز ساحة القرية ، ناظراً إلى الوراء باستمرار ، ليرى ما اذا كان أحد يتعقبه .

فهز هدير الضحك نوافذ مقر اللجنة الثورية . وتكوم دافيد الضحوك على المنضدة متشنجاً . ولكن أجفان شتوكمان كانت تطرف بعصبية وهو يلف سيكارة بأصابع راجفة ، ويدمدم :

ـ يا له من خنزير! يا للخنزير البائس!

وذهب إلى الاجتماع بصحبة ميشا وايفان . كانت الساحة ملأى ، فخفق قلب ايفان بجزع وهو يقول في دخيلة أفكاره : ثمة شيء في الهواء ، لقد حضرت القرية برمتها . على أن مخاوفه تبددت عندما خلع قبعته وسار إلى وسط الحلقة . فقد أفسح له القوزاق الطريق عن طيب خاطر . وكانت وجوههم تنم عن الاحترام ، وبدت عيون البعض باسمة . فأجال شتوكمان النظر في حلقة القوزاق ، وكان يريد إزالة ذلك الجو المتوتر ، وجر القوزاق إلى الحديث . وحذا حذو ايفان فخلع قبعته الفرو وهتف :

ـ أيها الرفاق القوزاق! ها قد مضت ستة أسابيع منذ أن أقيم عندكم الحكم السوفييتي . ولكننا ، معشر أعضاء اللجنة الثورية ، ما نزال نلاحظ أنكم لا تطمئنون إلينا ، بل وتناصبوننا العداء . إنكم لا تحضرون الاجتماعات ، وتدور بينكم الشائعات ، والحكايات السخيفة عن الإعدام بالجملة وعن الظلم الذي يزعم أن الحكومة السوفييتية فرضته عليكم . لقد حان الوقت لأن نتحدث بصراحة أكثر ونزيل الحواجز بيننا . لقد اخترتم بأنفسكم لجنتكم الثورية ، فايفان كوتلياروف وكوشيفوي قوزاقيان منكم ، فلا ينبغي أن تكتموا عنا الأمور . وقبل كل شيء ، أعلن الآن على رؤوس الأشهاد أن ما يروج الأعداء من الحكايات حول الإعدام الجماعي إن هي إلا افتراءات لا أكثر ولا أقل . إن هدفهم من نشر هذه الافتراءات لواضح : إنهم يودون بذر الشقاق بين القوزاق والحكومة السوفييتية ، ودفعكم إلى أحضان البيض من جديد .

فصاح أحدهم في مؤخرة الحشد :

ـ أنت تقول أن ليس هناك إعدام بالرصاص ؟ فأين ذهب رجالنا السبعة ، اذاً ؟

ـ لم أقل ، أيها الرفيق ، أن ليس هناك اعدام بالرصاص البتة . لقد أعدمنا ، وسنظل نعدم ، أعداء الحكومة السوفييتية وكل من يفكر بتكبيلنا بنظام مالكي الأراضي . إننا لم نطح بالقيصر ، ونضع نهاية للحرب مع ألمانيا ، ونحرر الشعب ، لأجل ذلك . ماذا أصابكم من الحرب الألمانية ؟ آلاف من القوزاق الموتى ، واليتامى ، والأرامل ، والدماء...

ـ هذا صحيح!

واستطرد شتوكمان قائلاً :

ـ ونحن نريد إنهاء الحروب جميعاً . إننا ندعو للأخوة ما بين الشعوب . أما تحت النظام القيصري فكنتم تستخدمون لفتح الأرض من أجل أصحاب الأرض والرأسماليين . وفي سبيل إثراء أولئك الملاكين

والصناعيين . خذوا لستنتسكي الذي كان يعيش على مقربة من قريتكم مثلاً . لقد تسلم جده عشرة آلاف أكر من الأرض لقاء خدماته في حرب ١٨١٢* . ولكن ماذا تسلم أجدادكم ؟ خسروا رؤوسهم على أرض ألمانية . أراقوا دماءهم عليها .

فسرت في بداية الأمر همهمة ثم ارتفع هدير الجمع مؤيداً . فمسح شتوكمان العرق من جبينه الذي دبّ فيه الصلع ، وهتف :

ـ سنحطم كل من يرفع يداً ضد حكومة العمال والفلاحين . لقد كان قوزاقكم الذين أعدموا بأمر المحكمة الثورية أعداءنا . إنكم جميعاً تعلمون ذلك . ولكننا سنمضي معكم ، مع الكادحين ، مع الذين يؤيدوننا ، يداً بيد ، أو منكباً لمنكب شأن ثيران الحراثة . سنشق الأرض سوية لأجل حياة جديدة ، ونمشطها لنزيل الأدغال القديمة منها ، لنزيل أعداءنا ، من التربة ، لكي لا يرسلوا في الأرض جذورهم مرة أخرى ، فيخنقوا نماء الحياة الجديدة .

وأدرك شتوكمان من همهمة القوزاق الخفيضة ووجوههم المشرقة بأن كلماته أصابت مرماها في قلوب القوزاق ، ولم يخطئ حدسه ، فقد شرعوا يفصحون عما يدور في أفكارهم وأرواحهم .

ـ أوسيب دافيدوفتش! إننا نعرفك خير معرفة ، لقد عشت معنا ذات مرة ، فأنت مثل واحد منا . أوضح لنا الأمر ، لا تخش شيئاً . حكومتك هذه ، ماذا تريد منا ؟ نحن بطبيعة الحال نؤيدها ، وقد فرّ أبناؤنا من الجبهة ، ولكننا قوم جهلة ، لا نفهم جلية الأمر .

هكذا استرسل غريازنوف العجوز في حديث طويل ، لا يكاد يفهم إلا بعضه ، فقد كان يدور حول الموضوع ، وواضح أنه خشي أن يفرط في الكلام . بيد أن اليكسي شامل ذا الذراع الواحدة لم يطق صبراً فصاح :

---

* حرب روسيا ضد نابليون . المعرب

ـ هل بوسعي أن أتكلم ؟
فأجاب ايفان ، وقد بعث فيه النقاش حماساً :
ـ هيا ، اذا .
ـ يا رفيق شتوكمان ، قبل كل شيء أجبني عن هذا : هل بوسعي أن أقول ما أشاء ؟
ـ أجل .
ـ ولن تعتقلني ؟
فابتسم شتوكمان وأجاب بالنفي بحركة من يده .
ـ ولكن لا تغضب . أنا رجل ساذج ، وسأنطق بما يدور في ذهني .
فجره أخوه مارتن من كمه الخاوي من الخلف وهمس قلقاً :
ـ دعك من هذا ، يا أحمق! دعك من هذا وإلا فإنهم يضعون اسمك في القائمة! سيضعونك في القائمة ، يا أليكسي!...
ولكن أليكسي جر نفسه مبتعداً ، واستدار ليواجه المجتمعين وخده ما انفك يرمع ، ثم قال :
ـ أيها القوزاق! سوف أتكلم ، واحكموا أنتم إن كان كلامي صحيحاً أم لا . ـ ثم استدار إلى الوراء على عقبيه كما يفعل الجند ونظر إلى شتوكمان بمكر : ـ هكذا أرى الأمر . إن كنا سنقول الحقيقة ، فلنفعل ذلك بلا تحفظ! والآن سأفصح لك عما يجول في خواطر القوزاق جميعاً . وسأذكر سبب شعورنا بسوء معاملة الشيوعيين لنا . قلت إنكم لستم ضد القوزاق الشغيلة ، أولئك الذين لا يحاربونكم . وإنكم ضد الأغنياء ، وأن المفروض فيكم أنكم إخوان الفقراء . حسناً ، أجبني عن هذا ، هل كانوا على حق في إعدام قوزاق قريتنا أم لا ؟ لم أقل شيئاً عن كورشونوف : لقد كان أتماناً ، وظل يركب ظهور القوزاق طوال حياته . ولكن لماذا أعدم أفدييتش الكذوب ؟ وماتفي كاشولين ؟ وبوغاتيريوف ، وميدانيكوف وكوروليوف ؟ لقد كانوا مثلنا تماماً جهلة اختلطت عليهم الأمور . لقد تعلموا كيف يمسكون بمقابض المحاريث

لا الكتب . ولو صح أنهم تفوهوا بسوء ، فهل كان هناك داع لصفهم عند الحائط بسبب ذلك ؟ ـ ثم جرّ نفساً عميقاً ، وخطا إلى الأمام ، فخفق كمه الخاوي على صدره ورمع فمه : ـ أنتم اعتقلتم أولئك الذين تكلموا كالحمقى ، وعاقبتموهم ، ولكنكم لا تلمسون التجار بشيء . التجار افتدوا حياتهم بمالهم . ولكن ليس لدينا نحن ما نفتدي به حياتنا ، إننا ننفق حياتنا في عزق الأرض ، ولكن الحظ يصد عنا . ربما أعدمتم البعض منهم ، ولكن كان من الممكن أن يسوقوا آخر ثيرانهم إليكم من بيوتهم لينجوا بجلودهم . ومع ذلك فإنكم لم تفرضوا عليهم فدية ، بل أعدمتموهم وحسب ، وإننا جميعاً نعرف ما يجري في فيشنسكايا ، فالتجار والقسس هناك أحياء سالمون . وفي كارغينسكايا أيضاً . إننا نسمع بما يحدث من حولنا : الذكر الطيب لا ينتشر ، أما الذكر السيء فيطوّف في العالم كالطير .

فصاح صوت منفرد في مؤخرة الحشد :

ـ هذا صحيح!

وغطت دمدمة القوزاق على كلمات أليكسي . ولكنه تريث حتى تلاشت الجلبة ، ثم مضى يصيح غير آبه بيد شتوكمان المرفوعة :

ـ ونحن ندرك أن الحكومة السوفييتية ربما كانت حكومة خيرة . ولكن الشيوعيين الذين تولوا المهام يحاولون إغراقنا بملعقة من الماء إنهم يعاقبوننا بسبب ما حدث عام ١٩٠٥ ، وقد سمعنا الجنود الحمر يقولون ذلك . فنحن نقول لبعضنا بأن الشيوعيين يريدون هلاكنا ومحو أثرنا . إنهم يريدون نفي القوزاق من الدون إلى الأبد! هذا كل ما عندي من قول . إني أشبه برجل سكران : أتفوه بأول شيء يخطر ببالي . ونحن جميعاً سكارى بهذه الحياة الطيبة ، وبما نحمل لكم من ضغائن ، أيها الشيوعيون!

وشق أليكسي طريقه متراجعاً خلال حشد القوزاق فخيم صمت طويل . ثم شرع شتوكمان يتحدث ، ولكنه قوطع بصيحات من المؤخرة :

ـ إنه على حق! فالقوزاق مغتاظون . أتعرف أي أغان تغنيها القرى الآن ؟

لس الكل مستعدين للافصاح عن دخيلتهم ، ولكنهم يعبرون عنها بالغناء . ليس بوسع أحد ان يؤاخذ الناس على أغنية! حتى أن هناك أغنية يتظلم فيها القوزاق إلى الكاديت حين يعودون إليهم . فلا ريب إذن أن هناك أساساً لشكواهم!

فضحك أحدهم في غير مناسبة ، وتململ الحشد ، وسرت فيه الهمهمات .

فلبس شتوكمان قبعته بعنف ، ثم أخرج من جيبه القائمة التي كان كوشيفوي قد كتبها وصاح :

ـ كلا ، ليس هذا صحيحاً! إن أنصار الثورة لا يشكون من شيء . لقد أعدم رجال قريتكم أعداء النظام السوفييتي ، لهذه الأسباب . انصتوا! ـ وشرع يقرأ بصوت مرتفع وببطء ووضوح :

قائمة

بأسماء أعداء النظام السوفييتي الذين اعتقلوا

وسلموا إلى اللجنة التحقيقية التابعة

للمحكمة الثورية للفرقة الخامسة عشرة :

كورشونوف ميرون غريغوريفتش : أتمان سابق ، وثري نتيجة استغلال جهد الآخرين .

سنيلين ايفان أفدييتش : يروج الشائعات للإطاحة بالحكومة السوفييتية .

كاشولين ماتفي ايفانوفتش : للسبب نفسه .

ميدانيكوف سيميون غافريلوفتش : يحمل شارات الضباط على كتفه ويهتف في الشوارع ضد الحكومة السوفييتية .

ميليخوف بانتلاي بروكوفيتش : كان عضواً في المجلس العسكري .

ميليخوف غريغوري بانتلاييفتش : كان ضابطاً رئيساً معادياً للحكومة السوفييتية ، وهو من الخطرين .

كاشولين أندريه ماتفييتش : اشترك في إعدام قوزاق بودتيلكوف الحمر .
بودوفسكوف فيدوت نيكيفوروفتش : ارتكب الشيء نفسه .
بوغاتيريوف أرخيب كاتفييتش : كان قيم الكنيسة ومعادياً للحكومة ويحرض الناس ضد الثورة .
كوروليوف زاخار ليونتييفتش : رفض تسليم أسلحته ، وهو لا يوثق به .

وكانت إزاء أسماء ميليخوف وابنيه وبودوفسكوف ملاحظات لم يقرأها شتوكمان بصوت مرتفع ، تقول : « إن أعداء الحكم السوفيتي هؤلاء لا يمكن اعتقالهم لغياب اثنين منهم كلفا بمهمة النقل ، ثم إن بنتلاي بروكوفتش ميليخوف مريض بالتيفوس . وسيعتقل الرجلان الغائبان ويرسلان إلى فيشنسكايا فور عودتهما ، أما الثالث فحين يستطيع الوقوف على قدميه » .

خيم الصمت على الاجتماع برهة ، ثم نبَت صيحة :
ـ ليس هذا صحيحاً!
ـ لا تكذب! لقد تكلموا ضد السوفييتات!
ـ لمثل هذه الأمور يجب أن يعتقلوا الرجال!
ـ لفق أحدهم هذه الأشياء كلها ضدهم .
وتكلم شتوكمان ثانية . وبدا أنهم يصغون إليه باهتمام ، حتى انطلقت بعض الصيحات استحساناً . ولكنه حين طرح في نهاية الأمر مسألة توزيع ممتلكات أولئك الذين فروا إلى صفوف البيض ، خيم الصمت .
فتساءل ايفان اليكسييفتش حانقاً :
ـ ماذا دهاكم جميعاً ؟
وبدأ الاجتماع يرفض مثل قذيفة عنقودية متناثرة . وتقدم واحد من أفقر القرويين متردداً ، ولكنه أحجم وعادإلى مكانه .
ـ سيعود أصحاب الممتلكات ، وحينذاك ماذا سيـ... ؟

وحاول شتوكمان أن يقنعهم بالبقاء ، إلا أن كوشيفوي ، وكان وجهه مبيضاً كالدقيق ، همس في أذن ايفان اليكسييفتش :

ـ قلت لك إنهم لن يلمسوها . الأفضل أن نحرقها بدل أن نسلمها لهم الآن...

٢٥

ساركوشيفوي إلى درجات منزل موخوف بتؤدة وهو منكس الرأس يضرب بالسوط ساق بنطاله مفكراً . كانت في المجاز بعض السروج ملقاة على الأرض . وكان من الواضح أن أحداً قد وصل لتوه : كانت كتلة من الثلج بلون الروث ما تزال عالقة في أحد الركائب ، وعليها أثر جزمة ، أخذت تتكون تحتها بركة صغيرة من الماء . ورفع كوشيفوي عينيه من السروج ومن أرض الشرفة القذرة إلى سورها المنقوش وإلى الطبقة الهشة من التلج البنفسجي قرب الحائط ، ثم ألقى نظرة إلى النوافذ التي يغشاها البخار ، ولكن ما رآه لم يخلف في ذهنه أيما انطباع . لقد كان قلب ميشا الطيب يغلي رثاء وحقداً على غريغوري ميليخوف .

كانت الغرفة الأمامية لمقر اللجنة الثورية تفوح برائحة خانقة من الدخان وعدة الخيل والثلج الذائب ، وكانت تشعل الموقد خادمة خلفها آل موخوف بعد فرارهم إلى ما وراء الدونيتس . وفي الغرفة التالية راح رجال الميليشيا يتضاحكون بصخب ، فقال ميشا في دخيلة فكره ساخطاً فيما مر بغرفتهم : «يا لهم من سخفاء! علام يضحكون ؟» ثم ولج غرفة اللجنة ، وهو يخبط ساق جزمته بالسوط للمرة الأخيرة .

كان ايفان اليكسييفتش جالساً إلى منضدة الكتابة ، وقد فتح سترته السميكة ، وأمال قبعته الفرو على نحو يوحي بالتهتك ، وقد بدا التعب على وجهه العرق المتغضن . وكان شتوكمان جالساً إلى جانبه على دكة النافذة

وهو ما يزال يرتدي معطف الخيالة الطويل ، فابتسم لميشا مرحباً ، ثم دعاه للجلوس بقربه . وأثار صوت شتوكمان الهادئ الطمأنينة في نفس كوشيفوي فجلس ماداً قدميه ، وقال :

ـ سمعت البارحة من مصدر موثوق أن غريغوري ميليخوف عاد إلى أهله . ولكني لم أذهب إليه بعد .

فقال شتوكمان وهو يلف لنفسه سيكارة :

ـ ماذا تقترح أن نفعل بصدده ؟ ـ ثم نظر إلى ايفان اليكسييفتش مترقباً .

فتساءل ايفان ، وعيناه تطرفان بسرعة :

ـ أنودعه القبو ، أم ماذا ؟

ـ أنت رئيس اللجنة الثورية . فالقرار موكول لك! ـ ثم ابتسم شتوكمان وهز كتفيه تملصاً . كان في مقدوره دائماً أن يبتسم ابتسامة تفوق لفحة السوط حرقة . فتفصّد العرق على ذقن ايفان وهو يقول بحدة :

ـ بصفتي رئيساً فاني على استعداد لاعتقال غريغوري وأخيه أيضاً ، وإرسالهماإلى فيشنسكايا .

فردّ عليه شتوكمان قائلاً :

ـ لا جدوى من اعتقال أخيه . ففومين إلى جانبه ، وأنت تدري كم يطنب في مدح بيوتر... ولكن ينبغي اعتقال غريغوري اليوم ، وفي الحال! وسنرسله إلى فيشنسكايا غداً ، ثم نرسل الأدلة ضده إلى رئيس المحكمة الثورية هذا اليوم بيد خيّال من الميليشيا .

فاقترح ايفان قائلاً :

ـ الأفضل أن نعتقل غريغوري مساءً ، ألا ترى ذلك ، يا أوسيب دافيدوفتش ؟

فانتابت شتوكمان نوبة حادة من السعال . ثم مسح لحيته وسأل :

ـ ولماذا في المساء ؟

ـ كي لا يكون ذلك مثار لغط كثير .

فأجاب شتوكمان :

ـ إن هذا اعتراض سخيف .

فالتفت ايفان إلى كوشيفوي وقال له :

ـ ميخائيل ، خذ رجلين واذهب لاعتقاله في الحال . ضعه في موقف انفرادي . فهمت ؟

فانسل كوشيفوي من على دكة النافذة وذهب إلى رجال الميليشيا ، وشرع شتوكمان يتخطى في الغرفة جيئة وذهاباً وحذاؤه اللبادي المهترئ يخفق اثناء السير . وبعد برهة توقف عند المنضدة وسأل :

ـ هل بعثت آخر دفعة من الأسلحة التي جمعت ؟

ـ كلا ، سترسلها هذا اليوم .

فعبس شتوكمان ، ورفع حاجبيه وسأل بسرعة :

ـ ماذا سلم آل ميليخوف ؟

فعقد ايفان اليكسييفتش حاجبيه جاهداً أن يتذكر ، ثم قال آخر الأمر وهو يبتسم :

ـ سلموا بندقتين ومسدسين . أتظن أن هذا كل ما عندهم ؟

ـ ألا تظن ذلك ؟

ـ أوهو ! لا تحسبهم أشد حماقة منك!

فقال شتوكمان وهو يزم شفتيه :

ـ بالضبط! لو كنت مكانك لقمت بتفتيش بيتهم تفتيشاً دقيقاً بعد الاعتقال . أصدر الأوامر إلى القومندان لينفذ ذلك . فوضع الخطة شيء وتنفيذها شيء آخر .

وبعد نصف ساعة عاد كوشيفوي ، فاندفع عبر الشرفة ، وفتح الباب بعنف ثم توقف عند العتبة ليستعيد أنفاسه ، وصاح :

ـ اللعنة على الشياطين أجمعين!

فأسرع شتوكمان إليه عبر الغرفة ، وقد اتسعت عيناه على نحو مرعب ورفرفت أطراف معطفه وضربت على جزمتيه اللبادتين ، وقال :

ـ ما الأمر ؟

فاستبد بكوشيفوي الغضب إما بسبب نبرة شتوكمان الهادئة أو لشيء آخر ، فهدر قائلاً :

ـ كفاك تقليب عينيك هكذا! ـ ثم أطلق لعنة وأردف : ـ يقولون إن غريغوري ذهب إلى خالته في سينغين . ما علاقتي بذلك ؟ولكن أين كنتم ؟ تصطادون الذباب ؟ من الذي فتح له الباب ؟ لقد يسرتم له الإفلات من بين أصابعكم . لا حاجة للصراخ في وجهي ، ليس هذا من شأني... ولكن بم كنتم أنتم تفكرون ؟ ـ وجعل يتقهقر إلى الموقد فيما كان شتوكمان يتقدم نحوه ، ثم ضحك وقال : ـ لا تقترب ، يا أوسيب دافيدوفيتش ، لا تقترب ، وإلا سأضربك والله!

فتوقف شتوكمان أمامه مباشرة وفرقع أصابعه . ثم حدق في أسنان ميشا البيضاوين وعينيه الوفيتين الباسمتين ، وقال من بين أسنانه :

ـ أتعرف الطريق إلى سينغين ؟

ـ أجل .

ـ اذاً لمَ عدت إلى هنا ؟ وأنت تقول أنك حاربت الألمان!... يا لك من مغفل! ـ ثم عبس وهو يتصنع الازدراء .

* * *

كان السهب راقداً تحت ضباب يحاكي الدخان زرقة ، والقمر الأرجواني يبزغ من وراء التلال المحاذية للدون ، فيرسل نوراً خابياً لم يحجب ألق النجوم .

ومضى ستة خيالة يهذبون في الطريق إلى سينغين . وكان شتوكمان على حصانه يسير إلى جانب ميشا ، وقد استبد القلق بحصانه طويل القوائم

فظل يحاول عض ركبة فارسه . وراح شتوكمان يقص على ميشا حادثاً مضحكاً دون أن توحي نبرته بانشغال باله ، فجعل ميشا ينكب على قربوس سرجه ويرسل قهقهات صبيانية ويشهق فيما كان يحاول أن ينفذ بنظرته إلى وجه شتوكمان الصارم تحت القبعة .

... وفي سينغين لم ينجم البحث الدقيق عن أية نتيجة .

٢٦

أجبروا غريغوري على مغادرة بوغوفسكايا إلى تشيرنيشفسكايا وعاد بعد عشرة أيام . وقبل يومين من عودته إلى تتارسكي ألقي القبض على أبيه . كان بانتلاي بروكوفتش العجوز قد غادر لتوه فراش المرض . وقد اشتد به الهزال والشيب . كان شعره يتدلى فوق ناصيته وكأن العثة قرضته . وبدت لحيته خفيفة يحف بها المشيب .

وذهب رجال الميليشيا به بعد أن أمهلوه عشر دقائق ليجمع حاجياته ، فأودع قبو موخوف ، تفوح منه رائحة التفاح الشذي ، حتى يتسنى إرساله إلى فيشنسكايا . وكان معه رهن الاعتقال تسعة شيوخ آخرين وقاض فخري واحد .

وأبلغ بيوتر الخبر إلى غريغوري قبل أن يدخل بحصانه الفناء ، ثم نصحه قائلاً :

ـ أدر حصانك وعد من حيث أتيت ، يا أخي! لقد سألوا عن موعد رجوعك إلى البيت . اذهب وتدفأ وألق نظرة إلى طفليك ، ثم ارحل إلى قرية ريبني ، حيث يسعك أن تختفي وتنتظر هناك ، ولئن سألوني عنك فسأخبرهم بأنك ذهبت إلى بيت خالتك في سينغين . لقد أعدموا سبعة من رجالنا رمياً بالرصاص ، ألم يبلغك ذلك ؟ اسأل الله ألا يكون مصير أبينا مثل هذا! أما بخصوصك...

وجلس غريغوري في المطبخ نصف ساعة ، ثم أسرج حصانه وانطلق يهذب طوال الليل إلى ريبني . فأخفاه قوزاقي أمين من أقاربه البعيدين بين الجل في المخزن ، فلبث هناك يومين لا يخرج إلا عند هبوط الليل .

٢٧

في العاشر من آذار توجه ميشا كوشيفوي إلى فيتشنسكايا ، بعد يومين من عودته من سينغين ، ليعرف موعد اجتماع منظمة التيوعيين . فكان قد قرر ، هو وايفان اليكسييفتش ، ودافيد ، ويميليان ، وفيلكا أن ينضموا جميعاً إلى الحزب . وحمل معه آخر دفعة من الأسلحة التي سلمها القوزاق ، ومدفعاً رشاشاً عثر عليه في ساحة المدرسة ، ورسالة من شتوكمان إلى رئيس اللجنة الثورية المنطقية .

واستثاروا في طريقهم إلى فيشنسكايا العديد من الأرانب الكامنة في الغياض ، كانت قد تدفقت أثناء الحرب إلى المنطقة وجعلت تتوالد دونما عائق فصار المرء يجدها لدى كل خطوة تطل في كل مكان شأن دغل مستنقع أصفر . كان صرير الزحافة يفزعها فتتواثب على الثلج الذي لم تطأه قدم ، فتكشف عن بطونها البيضاء وأذنابها المتصلبة المسودة . فكان يميليان الذي يسوق الزحافة يلقي الأعنة ويصيح بأعلى صوته :

ـ هيا! ارمه!

فيثب ميشا من زحافته ، وينثني على ركبتيه ، ثم يفرغ بندقيته على الكرة الشهباء المتواثبة عن بعد ، ثم يراقب بخيبة أمل الطلقات تثير فتات الثلج والكرة تتواثب أسرع فأسرع حتى تتوارى بين الأدغال .

ألفى لجنة المنطقة في حالة من الفوضى والارتباك . وكان الرجال يتراكضون هنا وهناك قلقين ، وكان الرسل الخيالة في جيئة وذهاب ، والشوارع تكاد تقفر من السابلة . فانتاب ميشا العجب دون أن يدرك سبب

تلك الجلبة . ودس نائب رئيس اللجنة رسالة شتوكمان في جيبه وهو شارد اللب ، وحين سأله ميشا ما اذا كان ثمة جواب ، زنخر بشدة :

ـ اذهب إلى الشيطان! ليس لديَّ وقت لك الآن!

كان بعض الجنود الحمر التابعين لأحد مراكز الحراسة يتحركون في أرجاء الساحة . ومر مطبخ ميدان يتصاعد الدخان منه مخلفاً رائحة لحم البقر وورق الغار في الهواء .

ودخل ميشا المحكمة الثورية ليدخن سيكارة مع بعض معارفه وسألهم قائلاً :

ـ فيم هذه الجلبة ؟

فأجاب محقق المحكمة المحلية غروموف على مضض :

ـ هناك اضطرابات في كازانسكايا . لقد اقتحمها البيض ، أو أن القوزاق قد ثاروا ، أو أن شيئاً ما قد حدث . لا بد أن قتالاً قد نشب هناك البارحة ، وقطعت أسلاك التلفون .

ـ يجب أن تبعثوا رسولاً .

ـ فعلنا ذلك ، ولكنه لم يعد . واليوم أرسلنا سرية إلى يلانسكايا ، ثمة قلاقل هناك أيضاً .

جلسوا عند النافذة يدخنون ، وكان الثلج كالدقيق ينهال عبر زجاج النوافذ في بيت التاجر حيث مقر المحكمة الثورية .

وعلى حين غرة دوت طلقات في مكان ما خارج القرية قرب أكمة الصنوبر . فشحب وجه ميشا وسقطت سيكارته . وهرع الكل إلى الحوش . ثم تعالى صوت الرصاص واشتد وقعه ، ثم دوت صلية من الطلقات فأخذت الرصاصات تنهش السقائف والأبواب بشراسة . وجرح جندي أحمر كان يقف في الفناء . وانطلق غروموف . راكضاً إلى الميدان وهو يدسّ أوراقه في جيوبه . فصفت فلول السرية العسكرية على عجل أمام اللجنة الثورية وقادهم الآمر ركضاً نحو المنحدر المؤدي إلى الدون . وشاع الفزع المهلك ، فراح

الناس يتراكضون جيئة وذهاباً في الساحة . وعدا عبر الساحة حصان من غير فارسه .

ولم يتذكر ميشا في خضم رعبه كيف جاء إلى الساحة . فشاهد فومين في جلباب اسود يندفع من وراء الكنيسة كالزوبعة ، وقد شد إلى حصانه عربة مدفع رشاش . وعجزت العجلات عن استيعاب الاستدارة ، فانقلب المدفع وراح ينجر ، وهو يتأرجح من جهة إلى أخرى على صهوة حصانه وتوارى فومين عند سفح التل ، وهو منكب على سرجه ، مخلفاً وراءه مثاراً من الثلج الفضي .

وكانت أول فكرة خطرت لميشا : «إلى الخيل» . فجرى في الأزقة الجانبية حانياً ظهره ، دون أن يتوقف مرة للتنفس . فألفى يميليان يشد الحصانين ، ويعمل يده في الأسارين وقد انتابه الرعب ، فتساءل بصوت متقطع وأسنانه تصطك :

ـ ماذا يجري يا ميخائيل ؟ ماذا حصل ؟

ولاستعجاله لم يستطع العثور على الأعنة . وحين عثر عليها انحل سير الطوقين . وكان الحوش الذي نزلا فيه يطل على السهب ، فشخص ميشا نحو أشجار الصنوبر ، ولكن لم يظهر أي صف من المشاة في ذلك الاتجاه ، ولم ير أي أثر للخيالة المغيرين أيضاً . كان إطلاق النار مستمراً في مكان بعيد ، وبدت الشوارع مقفرة واتشح المكان مظهره الكئيب المألوف . ولكن شيئاً فظيعاً كان يجري : لقد اندلع التمرد بكل ما في الكلمة من معنى .

لم يحوّل ميشا نظرته عن السهب طوال انشغال يميليان بالخيل ، فشاهد رجلاً عليه معطف أسود يعدو من وراء المصلّى الصغيربجانب المكان حيث أضرمت النار في كانون الأول الماضي بمحطة اللاسلكي . كان الرجل يعدو بكل سرعته ، وقد انحنى إلى أمام وذراعاه تشدان على صدره . ومن معطفه عرف ميشا أنه محقق المحكمة غروموف . ثم برز فارس يعدو من وراء سياج ، فعرفه كذلك : كان قوزاقياً من فيشنسكايا يدعى

تشيرنيتشكين ، وكان هذا الشاب حرساً أبيض بكل معنى الكلمة . وكانت المسافة بينهما حوالي مئة متر . وفيما كان غروموف يعدو نظر إلى الخلف مرة ، ثم أخرى ، وأخرج مسدسه من جيبه . ودوى صوت اطلاقة ، ثم أخرى . وجرى غروموف إلى قمة ربوة رملية ثم أطلق النار . وقفز تشيرنيتشكين من سرجه والحصان ما يزال يعدو ، ثم أنزل بندقيته من على كتفه ، وانبطح وراء كومة من الثلج وهو ما يزال ممسكاً بالأعنة وعلى أثر طلقته الأولى ، تعثر غروموف ، وراح يتشبث بالدغل بيده اليسرى . ودار حول الربوة ثم كبا على الثلج . «قتل!» ودب البرد في أوصال ميشا . كان تشيرنيتشكين هدافاً سديد الرماية ، يستطيع بغدارته النمساوية التي عاد بها من الحرب الألمانية أن يصيب أي هدف مهما كان بعيداً . وفيما كان جالساً في زحافته وهي تعدو خارجة من الباب رأى تشيرنيتشكين يركض إلى الجثة ويعمل سيفه في المعطف الأسود المتكوم على الثلج .

كان من الخطر أن يحاولا عبور الدون عند المعبر الاعتيادي ، لأن الخيل والرجال تكون هدفاً واضحاً على صفحة النهر البيضاء . وكان جنديان أحمران من سرية المقر العام مطروحين هنا وقد طوح بهما الرصاص . فاستدار يميليان عبر البحيرة إلى داخل الغابة . وفيما كانا يعبران البحيرة ، خلفت حوافر الخيل بركاً صغيرة من الماء على الثلج الذي يوشك على الذوبان ، وأحدث المزلاقان شقين عميقين وانطلقا يهذبان بجنون عائدين إلى تتارسكي . ولكنهما حين بلغا المعبر القائم عند أعتاب القرية جر يميليان أعنة الخيل وأدار وجهه الذي احمر من لفح الريح إلى ميشا : ـ ماذا يحسن بنا أن نفعل ؟ هب أن اضطراباً مماتلاً يجري في قريتنا ؟

فبدت التعاسة على وجه ميشا وشخص بنظره إلى القرية . كان ثمة فارسان يهذبان في الشارع القريب من النهر ، وحسب أنه ميز فيهما رجلين من رجال الميليشيا .

فأجاب ميشا بعزم :

ـ سق الخيل إلى القرية . ليس هناك مكان آخر يمكن أن نذهب إليه!

فجعل يميليان يسوط الخيل على مضض . وعبرا النهر وارتقيا المنحدر القائم في الجهة الأخرى . فجاء أنتيب ، ابن افدييتش الكذوب يركض نحوهما بصحبة رجلين آخرين من سكان الطرف الأعلى من القرية يكبرانه سناً .

فقال يميليان : «أوه ، ميشا!» واذ رأى البندقية في يد أنتيب جر الأعنة فأدار الحصانين .

وجاءهما الأمر :

قف!

ودوت اطلاقة ، فسقط يميليان ، ويده ماتزال تمسك بالأعنة . واقتحم الحصانان سياجاً ، فقفز ميشا من الزحافة . فهرع انتيب نحوه وقدماه تنزلقان ثم ترنح ، وألقى البندقية على كتفه . وحين هوى ميشا على السياج لمح الرؤوس اللماعة لمذراة ذات ثلاث شوكات تمسك بها يد أحد الشيوخ .

ـ اضربه!

وأحس بألم محرق في كتفه وخر دون أن تبدر منه صيحة ، وغطى وجهه بيديه . وانحنى فوقه رجل يلهث بشدة وراح ينخسه بالمذراة ويقول :

ـ انهض ، عليك اللعنة!

ولم يتذكر ميشا بقية ما حدث إلا كما يتذكر المرء الأحلام .

لقد ألقى انتيب نفسه عليه وأعمل أظافره في صدره ، وهو ينتحب :

ـ لقد أرسل أبي إلى حتفه . دعوني أظفر به ، أيها الناس الطيبون! دعونى آخذ ثأرى منه!

ثم جروه عنه . وتجمع حشد صغير . وسمع ميشا صوت رجل أبح يحاججهم :

ـ دعوا الفتى وشأنه! هل أنتم مسيحيون ، أم لا ؟ دعه ، يا انتيب! لن تعيد أباك إلى الحياة ، بل ستكون سبباً لهلاك رجل! اذهبوا إلى بيوتكم ، يا أخوان! إنهم يتقاسمون السكر فى المخزن ، اذهبوا وخذوا حصتكم...

وحين أفاق ميشا في المساء ألفى نفسه راقداً تحت السياج نفسه. كان جنبه حيث طعنته المذراة يلتهب ألماً. ولكن أسنان المذراة لم تكن قد توغلت في اللحم عميقاً بعد أن اخترقت الفروة والقميص. فتحامل على قدميه وأرهف السمع، فلا بد أن المتمردين قد عينوا دوريات لحراسة القرية. وكان ينبعث بين آونة وأخرى صوت إطلاقة تثير نباح الكلاب. وكانت الأصوات المنطلقة من بعيد تقترب منه. فسلك مسار الماشية بمحاذاة الدون، ثم بلغ قمة الجرف، وزحف حذاء الأسيجة، ويداه تتخبطان على الثلج فيما كان يدب ويسقط من جديد. ولم يدر أين هو فظل يزحف على غير هدى. كان جسده يهتز من شدة البرد، ويداه متجمدتين. ثم دفع البرد به إلى داخل بوابة ما. وفتح البوابة التي يعلوها العوسج ودخل الحوش الخلفي، ورأى سقيفة إلى يسار فاتجه صوبها. ولكنه سرعان ما سمع وقع خطوات وسعلة. ثم دخل السقيفة شخص وجزمته اللبادية تخشخش، ففكر ميشا في نفسه دونما اكتراث، وكأنه يتحدث عن شخص آخر: «سيجهزون عليَّ في الحال». وقف الرجل في المدخل الذي ينفذ منه ضياء باهت.

ـ من هناك؟

كان الصوت ضعيفاً ينم عن الخوف. فمضى ميشا قرب الجدار الفاصل.

فسأل الرجل بنبرة أعلى وأشد قلقاً: ـ من هذا؟

فعرف ميشا صوت ستيبان استاخوف فصرخ:

ـ ستيبان، هو أنا! كوشيفوي! أنقذني، لحب الله! لا أحسبك تخبر عني. أليس كذلك؟ ساعدني!

فقال ستيبان بصوت واهن:

ـ إذن، هو أنت! ـ وكان قد نهض لتوه من الفراش إثر اصابته بالتيفوس. واتسع فمه الممطوط وندت شفتاه عن ابتسامة مترددة: ـ حسناً، أمض الليلة هنا، ولكن يجب أن ترحل في الصباح. ثم كيف أتيت إلى هنا؟

فالتمس ميشا يده وشد عليها ، ثم دس نفسه في كومة من التبن . وما أن حل الغسق مساء اليوم التالي حتى توجه إلى بيته بحذر ، بعد أن عقد العزم على قرار يائس ، ثم نقر على الشباك . ففتحت أمه الباب ، وتفجرت دموعها اذ رأته . وتشابكت يداها على رقبته وراحت تخمشها ، وطفق رأسها يدق على صدره .

ـ إرحل ، لحب المسيح ، إرحل ياميشا . جاء القوزاق إلى هنا هذا الصباح . وفتشوا الفناء كله بحثاً عنك . وضربني انتيب افديتش بسوطه قائلاً : أخفيت ابنك . يؤسفني أنني لم أقتله على الفور!

لم يكن ميشا يعلم أين يعثر على أصحابه . وقد فهم من حديث أمه المقتضب أن قرى الدون كافة قد تمردت ، وأن شتوكمان ، وايفان اليكسييفتش ، ودافيد ورجال الميليشيا قد فروا ، وأن فيلكا وتيموفي قتلا في الساحة ظهر اليوم السابق .

وجعلت أمه تبكي ولكن الحزم بدا في نبرتها اذ قالت له :

ـ والآن إرحل . سيعثرون عليك هنا .

وللمرة الأولى منذ أعوام عديدة أجهش ميشا بالبكاء . وجعل ينشج كالأطفال ويبقبق بشفتيه . ثم أخذ الفرس العجوز التي كان يمتطيها وهو راع وقادها إلى الحوش ، فلحق بها مهرها . وأعانته أمه على اعتلاء السرج ، ثم رسمت عليه إشارة الصليب . فسارت الفرس على مضض وهي تصهل لمهرها . وكان قلب ميشا يثب هلعاً كلما نادت الفرس مهرها .

ولكنه نجا من القرية بسلام ومضى يخب على امتداد طريق هيتمان نحو الشمال الشرقي .

كانت الليلة المدلهمة تستقبل الشاردين بترحاب ، وفرسه لا تكف عن الصهيل خشية أن تفقد مهرها ، فيصر ميشا بأسنانه ويلفح أذنيها بالعنان ، ويتوقف المرة تلو المرة فينصت ليعرف ما اذا كانت سنابك الخيل الثقيلة تدق الأرض من أمامه أو من ورائه . ولكن صمتاً سحرياً كان يخيم من حوله

فلا يصل سمعه سوى صوت المهر الذي ينتهز فرصة توقف أمه ليرضع منها ، وقد انغرزت ساقاه الخلفيتان في الثلج .

٢٨

كانت السقيفة تعج بنتن القش المتعفن ، والجل اليابس وحزم التبن . وفي النهار كان ضوء باهت يتسلل خلل السقف ، وتطل الشمس بعض الاحيان خلل الباب المضفور من الأغصان وكأنها تطل خلل الغربال ، أما في الليل فلم يكن ثمة إلا صئي الفئران والصمت...

كانت ربة البيت تأتي غريغوري بالطعام خلسة مرة كل يوم . وكان هناك إبريق من الماء مدفون في الجل . ولم يكن يشعر بتعاسة حياته تلك ، لولا أنه استنفد كل تبغه ، فراح يتعذب من حالته تلك خلال اليوم الاول ، فلم يقو على البقاء من دون شيء يدخنه ، فزحف صباحاً على القاع الترابية وجمع شيئاً من روث الخيل الجاف في يديه . ثم فركه براحتيه ولف منه سكائر . وفي المساء بعث إليه رب البيت بأوراق بالية من نسخة انجيل ، وعلبة ثقاب ، وحفنة من البرسيم والجذور اليابسة من التبغ المنزلي . فاستبد الفرح بغريغوري وطفق يدخن حتى أوشك أن يصاب بالغثيان ، ثم استغرق في أول نوم عميق على الجل ، وهو يغطي رأسه بذيل معطفه مثلما يخفي طير رأسه تحت جناحه .

وفي صباح اليوم التالي أيقظه مضيّفه وهو يركض إلى السقيفة صارخاً بأعلى صوته :

ـ أنت نائم ؟ انهض! الدون كسر جليده!

ثم طفق يضحك من كل قلبه .

فقفز غريغوري إلى الأرض ، فتساقط قطعات الجل المربعة الثقيلة وراءه هادرة ، وسأله :

ـ ماذا حصل ؟

ـ ثار قوزاق يلانسكايا وفيشنسكايا في الجانب الآخر . وهرب فومين وكل رجال الحكومة في فيشنسكايا ، إلى توكين . يقولون إن قوزاق كازانسكايا ، وشوميلين ، وميكولينسكايا ثاروا ايضاً . هل فهمت إلى أي حد بلغت الحال ؟

فانتفخت حزم الأوعية على ناصية غريغوري ورقبته ، وراحت عيناه تبعثان شرارات صغيرة خضراً . ولم يستطع كتمان ابتهاجه فجعلت أصابعه السود تعبث بعرى معطفه ثم قال بصوت راعش :

ـ وهنا... في قريتكم ؟ هل حصل شيء هنا ؟

ـ لم أسمع شيئاً . التقيت بالرئيس لتوي وقد ضحك قائلاً :

«سيان عندي أي رب نعبده ، طالما أن هناك رباً» . ولكن يمكن أن تخرج من جحرك .

فذهبا إلى المنزل . فسار غريغوري بخطى واسعة ، وهرع القوزاقي إلى جانبه ، يحكي له الأنباء :

ـ في منطقة يلانسكايا كانت كراسنويارسكي أولى القرى الثائرة . فقبل يومين ذهب عشرون من شيوعيي يلانسكايا لاعتقال بعض القوزاق . فسمع رجال كراسنويارسكي بذلك فقر رأيهم وقالوا :

« إلى متى نتحمل هذا ؟ إنهم يأخذون الآن آباءنا ، وسيأتي دورنا بعد ذلك . لنسرج خيلنا ونذهب لاطلاق سراح المعتقلين» . اجتمع حوالي خمسة عشر فتى غيورا . ولم يكن لديهم سوى بندقيتين أو ثلاث ، وبعض السيوف والحراب . ووجدوا الشيوعيين يستريحون في حوش ملنيكوف ، فأغاروا عليهم بالخيل ، ولكن الحوش كان مسوراً بجدار حجري ، فصد هجومهم . وقد قتل الشيوعيون واحداً منهم ، تغمده الله برحمته . ولكن منذ تلك اللحظة حانت نهاية الحكم السوفييتي ، عليه اللعنة!...

التهم غريغوري بقية فطوره بنهم ثم خرج مع صاحبه إلى الشارع . كان

القوزاق قد تحلقوا جماعات صغيرة عند المنعطفات وكأنهم في عيد . وحين تقدما من إحدى الجماعات ، رفعا أيديهما إلى قبعتيهما تحية ، فردوا عليهما بتحفظ ، متطلعين بفضول وترقب إلى ملامح غريغوري غير المألوفة . فقال رب البيت متفاخراً :

ـ إنه واحد منا . لا تخافوا . أسمعتم بآل ميليخوف من تتارسكي ؟ هذا غريغوري بن بانتلاي بروكوفتش . التجأ إليَّ لينجو بنفسه من الإعدام .

فشرعوا يتحدثون ، ولكن ما إن بدأ أحد القوزاق يحكي لهم كيف طرد الحمر من فيشنسكايا حتى لاح فارسان في أقصى الشارع ، كانا يهذبان ويتوقفان عند كل جماعة من القوزاق ، فيديران فرسيهما ويصرخان بشيء ما ملوحين بأذرعهما . فانتظر غريغوري دنوهما بفارغ الصبر . وقال أحد القوزاق وهو يتشخص بعينيه نحوهما :

ـ ليس هذان من رجالنا.. إنهما رسولان من مكان ما .

وتقدم الفارسان من الجماعة . كان أحدهما عجوزاً مشرع الفروة ، وقد احمر وجهه العرق ، وتهدل شعره الاشيب على جبينه . فكبح فرسه كما يفعل الفتيان ثم شرع يده اليمنى ، وهتف :

ـ أيها القوزاق ، علام تثرثرون عند منعطفات الشوارع كالنساء . . ـ وهدجت الدموع صوته ، واختلج خداه المزرقان انفعالاً .

وراحت فرسه تتوثب من تحته ، وكانت كميتاً بيضاء المنخرين جميلة لها من العمر أربع سنوات ، ذيلها كث طويل وسيقانها كالفولاذ المسقي . وجعلت تزنخر وتعض على شكيمتها ثم جمحت وشدت على اللجام ، طالبة أن يخلي رأسها لتستطيع المضي في عدوها الراقص مستوية الأذنين ، تعابث الريح عرفها وترنّ الأرض المتجمدة تحت حوافرها المقعرة النظيفة . وكانت كل عضلة في رقبتها وسيقانها تختلج وتترقرق تحت أديمها الرقيق ، وخطمها ذو اللون الوردي الرائق يرتعش وعيناها الجاحظتان ، بلونهما الأبيض والياقوتي ، تصليان فارسها بنظرات آمرة حادة .

صاح العجوز ثانية ، وهو يجيل نظرته من غريغوري إلى القوزاق الآخرين :

ـ علام وقوفكم هنا ، يا أبناء الدون الهادئ ؟ إنهم يعدمون آباءكم واجدادكم . إنهم يستولون على أموالكم . القوميسارية اليهود يسخرون من ديننا ، وأنتم تلوكون بذور عباد الشمس وتلاحقون النساء . إنكم تنتظرون إلى أن يضعوا الأنشوطة حول رقابنا . انسوا النساء بعض الوقت! ثارت منطقة يلانسكايا برمتها ، شيباً وشباناً . طردوا الحمر من فيشنسكايا ، وأنتم... هل يجري كفاس* الفلاحين في عروقكم بدل الدم القوزاقي ؟ هبوا! احملوا أسلحتكم! أرسلتنا قرية كريفسكوي لنستنفر قريتكم . إلى الخيل ، يا قوزاق ، قبل أن يفوت الاوان . ـ ثم سمر عينيه الهائجتين في وجه كهل من معارفه وصاح بسخرية لاذعة : ـ علام وقوفك هنا ، ياسيمون كريستوفوروفيتش ؟ الحمر ذبحوا ابنك في فيلونوفو ، وأنت مختبئ على موقد دارك!

ولم يتمهل غريغوري ليسمع مزيداً ، فهرع نحو الفناء وشرع ينبش بأظافره حتى أدماها ليخرج سرجه من تحت الجل ، فأسرج حصانه ، وأخرجه من سقيفة التبن ، وطار خلل الباب وكأن به مساً من الجنون .

واستطاع أن يوصل صوته إلى صاحب البيت المقترب من البوابة : «أنا ذاهب! في أمان الله!» ـ ثم مال على قربوس سرجه حتى لامس عنق حصانه ، وراح يلفح الحيوان بسوطه فجعل يهذب ، ومثار الثلج يحط وراءه ، وتحتك ساقاه بالسرج ، ويجلجل الركابان السائبان على جزمته . وطفقت سنابك الجواد تتسابق من تحته . وأحس بفرحة طاغية عارمة ، ودفق من القوة والعزم فانفجرت في حنجرته صيحة راعدة ، وانطلقت مشاعره الخفية الحبيسة . ها قد بدا طريقه أخيراً واضح المعالم ، وضوح مسار القمر عبر السهوب .

---

* مشروب شعبي روسي . المترجمون

فكر بكل شيء ملياً وحسب له حسابه خلال الأيام المرهقة ، حين كان مختبئاً بين الجل كالحيوان يجفل لكل صوت ونأمة في الخارج . لكأن أيام البحث عن الحقيقة ، والتأرجح ، والتقلب ، والصراع الداخلي المؤلم لم تكن قط . لقد مرت كما يمر السحاب ، وها هو سعيه ذاك صار يبدو جزافاً لا طائل تحته . ما الذي كان يشغل أفكاره ؟ علام تقلبت روحه كالذئب الطريد ، بحثاً عن سبيل للخلاص ، عن حل للتناقضات ؟ لقد بدت الحياة حكيمة وسخيفة معاً في بساطتها . وغدا يعتقد بأن ليس هناك حقيقة واحدة يستطيع الكل أن يستظلوا تحت جناحها ، وبات يعتقد بأن لكل امرئ حقيقته الخاصة به وسبيله الخاص . فمن أجل كسرة خبز ، أو رقعة أرض ، أو من أجل الحق في الحياة ، كان الناس يحتربون منذ الأبد ، ولسوف يقتتلون أبد الدهر ما دامت الشمس تسطع فوق رؤوسهم ، وما بقي الدم يجري حاراً في عروقهم . ينبغي أن يحارب أولئك الذين يريدون حرمانه من حياته ، من حقه في الحياة ، أن يحاربهم بثبات لا يعرف الكلل ، بسلاح الكراهية البارد . ينبغي ألا يكبح مشاعره ، بل يطلق لها كل العنان .

لقد اعترض مسار القوزاق درب فلاحي روسيا الذين لا يملكون أرضاً ودرب عمال المصانع . فلتحاربهم حتى الرمق الأخير! انتزع منهم ارض الدون الخصيبة التي غسلتها دماء القوزاق . اطردهم كما طرد التتار ذات يوم إلى خارج الاقليم . اضرب موسكو ، وافرض عليهم سلاماً لا يشرفهم! فالمعبر لا يتسع لاثنين : ينبغي لأحد الطرفين أن ينحي جانباً . لقد ذاقوا طعم التجربة : سمحوا لكتائب الحمر أن تدخل اراضي القوزاق وعرفوا معنى ذلك . فالآن ـ إلى السيوف!

تضرم غريغوري حقداً أعمى ، فجعل يهذب حتى حمله حصانه عبر بساط الدون ذي العرف الابيض . ثم انقض عليه الشك لحظة : « إنها حرب الفقراء على الأغنياء ، وليست حرب القوزاق على الروس... ميشا كوشيفوي وايفان اليكسييفتش قوزاقيان أيضاً ، ولكنهما أحمران حتى العظم ـ ولكنه نفض عنه هذه الفكرة مغضباً .

ولاحت تتارسكي من بعيد ، فجّر العنان . فأخذ حصانه المزبد يمضي في خبب يسير . ثم لزّه ثانية عند بوابة بيته فدفعها الحصان بصدره ودخل هاذباً .

٢٩

عند الفجر دخل كوشيفوي قرية في منطقة اوست خوبرسكايا منهك القوى . فأوقفه مركز حراسة لكتيبة حمراء ، وقاده إثنان من الحرس الاحمر إلى مقر هيئة الاركان . ثم استجوبه ضابط من الأركان استجواباً طويلاً ينطوي على التشكك ، جاهداً أن يجعله يناقض نفسه . وقد سئم ميشا الإجابة على أسئلة خرقاء كهذه :

«من كان رئيساً للجنتكم الثورية ؟» و«لِمَ لا تحمل هوية ؟» .

فاحتج قائلاً :

ـ لا تحاول إعاقتي ، ايها الرفيق ، القوزاق جربوا كل شئ معي ولكنهم لم ينالوا شيئاً .

ثم رفع قميصه كاشفاً عن جنبه وبطنه المطعونين بالمذراة .

وكان على وشك أن يصب اللعنات على الضابط فاذا بشتوكمان يدخل في تلك اللحظة .

وارتعش صوت شتوكمان الهادر وهو يطوق ظهر ميشا بذراعه قائلاً :

ـ أيها السفيه! أيها الشيطان الصغير! علام تستجوبه يا رفيق ؟ ـ ثم التفت إلى الضابط ـ إنه واحد من فتياننا . لماذا لم تستدعني أو تستدعِ كوتلياروف ، لما كانت هناك حاجة للأسئلة . هم ، يا ميخائيل . ولكن كيف نجوت ؟أخبرني ، كيف نجوت ؟ شطبناك من قائمة الاحياء . حسبناك مت ميتة الأبطال .

فتذكر ميشا كيف أسر ، وكيف عجز عن الدفاع عن نفسه ، تاركاً بندقيته في الزحافة ، فاحمر وجهه ألماً .

٣٠

يوم بلغ غريغوري تتارسكي كانت القرية قد أفلحت في جمع سريتين من القوزاق . وكان مجمع القرية قد اتخذ قراراً بتعبئة كافة الرجال القادرين على حمل السلاح ، من السادسة عشرة حتى السبعين . على أن العديد منهم كان يائساً من الوضع : ففي الشمال كان إقليم فورونيج تحت سيطرة البلاشفة ، فضلاً عن منطقة خوبر التي تميل إليهم ، أما في الجنوب فهناك الجبهة التي قد تتراجع فتسحق المتمردين في زحفها . وكان بعض القوزاق الحذرين لا يريدون حمل السلاح ، ولكنهم أرغموا على ذلك . فقد رفض ستيبان استاخوف رفضاً باتاً أن يذهب للقتال . فأعلن لغريغوري وخريسترنيا وانيكوشكا ، حين ذهبوا لمقابلته صباحاً قائلاً :

ـ لست ذاهباً ، خذوا حصاني ، افعلوا بي ما شئتم ، ولكني لا أريد بندقية .

فسأله غريغوري ، ومنخراه يرتعشان :

ـ ماذا تعني بقولك لا أريد ؟

ـ لا أريد ، وهذا كل ما في الأمر .

ـ واذا استولى الحمر على القرية ، فماذا ستفعل ؟ أترحل ام تبقى ؟

فحول ستيبان نظرته الثابتة النافذة من غريغوري إلى اكسينيا . ، وأجاب بعد برهة :

ـ سوف نرى...

ـ في هذه الحالة ، تعال إلى الخارج! خذه ، يا خريستونيا! سوف نعدمه رمياً بالرصاص في الحال!

ثم أمسك غريغوري بكم ستيبان ، جاهداً أن يتحاشى النظر إلى اكسينيا المنكفئة إزاء الموقد ، وقال : ـ هيا!

فشحب وجه ستيبان وجعل يقاوم بوهن قائلاً :

ـ غريغوري ، لا تكن أحمق! خل عني!
فأحاط خريستونيا العابس بخصره من الوراء وهو يدمدم :
ـ اذا كان موقفك على هذا النحو ، فهلم!
ـ يا إخوان!...
ـ لسنا إخوانك! قلت لك هيا!
ـ خل عني ، سأنضم إلى السرية . إني معتل الصحة من أثر التيفوس .
فابتسم غريغوري ابتسامة لاذعة ، وخلى عن كم ستيبان ، قائلاً :
ـ هيا اذهب واجلب بندقيتك . كان ينبغي أن تقول ذلك منذ زمن .
ثم زرر معطفه وخرج دون كلمة وداع ، ولكن بعد كل الذي حصل ، لم يخجل خريستونيا من طلب بعض التبغ من ستيبان وجلسا يتحادثان طويلاً وكأن شيئاً لم يحدث بينهما .
وعند المساء جيء من فيشنسكايا بزحافتين محملتين بسلاح قوامه أربع وثمانون بندقية ونيف ومائة سيف . وأخرج كثير من القوزاق أسلحتهم المخبأة ، فجندت القرية مائتين وأحد عشر قوزاقياً ، مائة وخمسون منهم فرسان ، فيما سار البقية على الأقدام .
كان المتمردون ما يزالون بدون قيادة موحدة ، فكانت القرى تعمل دونما تنسيق ، كل قرية تشكل السرايا من تلقاء نفسها ، فتنتخب القادة من بين أشد القوزاق ضبطاً ، آخذة الخدمة بعين الاعتبار وليس المرتبة . ولم يقوموا بعمليات هجوم ، فكل ما فعلوه هو أنهم أقاموا الصلة مع القرى المجاورة ، وأرسلوا دوريات الخيالة .
وقبيل وصول غريغوري كان أخوه بيوتر قد اختير آمراً لسرية الخيالة في تتاركسي ، كما كان في عام ١٩١٨ ، في حين تولى لاتشيف قيادة المشاة . وكان المدفعيون ، وعلى رأسهم ايفان توميلين ، قد ذهبوا إلى قرية مجاورة حيث ترك الحمر مدفع ميدان معطوباً ، فعملوا على إصلاحه . ووزعت مائة وثماني بنادق ومائة واربعون سيفاً وأربع عشرة بندقية صيد جيء بها من

فشينسكايا على مائتين واحد عشر قوزاقياً . واخرج بانتلاي بروكوفتش مدفعه الرشاش من مخبئه في الأرض وكان قد أخلي سبيله مع الآخرين من قبو موخوف . على ان أحزمة العتاد كانت تعوزهم فرفضت السرية أن يكون الرشاش جزءاً من سلاحها .

وجاءت الأخبار مساء اليوم التالي تفيد أن مفرزة تأديبية من الجنود الحمر برئاسة ليخاتشوف ، تعدادها نحو ثلاثمائة ، مجهزين بسبعة مدافع ميدان واثني عشر رشاشاً ، كانت تتقدم من كارغينسكايا لإخماد التمرد . فعزم بيوتر على إرسال دورية وكذلك إنباء فيشنسكايا بالأمر . فبارحت الدورية المؤلفة من اثنتين وثلاثين رجلاً بقيادة غريغوري القرية عند الغسق . فانطلقوا من القرية يهذبون حتى كادوا أن يبلغوا توكين دون أن يخففوا من سرعتهم . وعلى مبعدة حوالي الفرسخين من الجانب الأدنى للقرية ، أمر غريغوري قوزاقه بالترجل عند أخدود غير عميق ، ثم وزعهم في أماكن مختفلة من الأخدود ، واقتيدت الخيل إلى باطن وهدة مشجرة ، حيث كان الثلج كثيفاً ، فغاصت حتى بطونها في الثلج . وكان أحد الجياد ينبض الربيع في دمه ، فراح يثير المتاعب ، فأفرد له رجل ليعنى به عناية خاصة .

وأرسل غريغوري إلى القرية ثلاثة قوزاق : انيكوشكا ومارتن شامل وبروخور زيكوف . فمضوا على خيلهم سيراً . كانت بساتين توكين تتعرج نحو الجنوب الشرقي خلال زرقة المنحدرات الداكنة . وكان الليل قد حل ، وراحت غيوم واطئة تتدحرج فوق السهب . ولبث القوزاق في الأخدود صامتين ، وظل غريغوري يراقب خيال الفرسان الثلاثة حتى هبطوا التل فتداخل خيالهم في معالم الطريق المعتمة . ثم اختفت خيلهم عن ناظريه ولم يعد يرى سوى رؤوسهم فحسب . ثم تلاشوا تماماً . وبعد برهة شرع رشاش يثرثر في الجانب الأقصى من التل ، ثم لعلع رشاش آخر بنبرة أعلى ، وكان جلياً أنه مدفع رشاش خفيف . ثم لاذ الرشاش الخفيف بالصمت ، وبعد برهة

وجيزة أنهى الأول شريطاً آخر بسرعة . فتطاير وابل من الرصاص في الغسق فوق الأخدود يئز أزيزاً مفعماً بالحيوية والمرح . وجاء القوزاق الثلاثة عائدين يهذبون بأقصى سرعتهم .

وصاح بروخور زيكوف وهو ما يزال على مبعدة ، فضاع صوته بين هدير حوافر الخيل :

ـ اصطدمنا بنقطة امامية .

فأمر غريغوري بأن تكون الخيل على أهبة الاستعداد ، ثم قفز خارجاً من الأخدود ، وذهب يلقى القوزاق ، غير آبه للرصاص الذي كان ينغرز في الثلج وهو يئز . وسألهم :

ـ هل رأيتم شيئاً ؟

فأجابه انيكوشكا لا هثاً شاتماً فيما عالج باليد جزمته التي علقت بالركاب بعد أن وثب من الحصان :

ـ كان بوسعنا أن نسمعهم يتحركون . لا بد أنهم كثرة . استنتجنا ذلك من أصواتهم .

وبينما كان غريغوري يستجوبهم هرع ثمانية قوزاق من الأخدود إلى حيث وضعت الخيل ، فركبوا خيلهم ، وانطلقوا يهذبون في اتجاه القرية .

فقال غيرغوري بهدوء وهو ينصت إلى صوت الحوافر المبتعدة :

ـ سنعدمهم غداً .

أما القوزاق الذين بقوا تحت أمرته فلبثوا ساعة أخرى ، محافظين على الصمت التام وهم يصيخون سمعهم ، وأخيراً سمع أحدهم صوت حوافر الخيل . فأعلن قائلاً :

ـ إنهم آتون من جهة توكين .

ـ هي دورية!

وراحوا يتهامسون مع بعضهم ، ويشرئبون برؤوسهم خارج الأخدود ، ويحاولون عبثاً أن يميزوا شيئاً في الظلمة الحالكة . وكانت عينا فيدوت

بودوفسكوف الكاليميكيتان الحادتان أول من لمحتا الفرسان المتقدمين فقال واثقاً ، وهو ينزل بندقيته عن كتفه :

ـ ها هم قادمون .

كان يحمل بندقيته على نحو غريب ، جاعلاً السير حول رقبته مثل خيط الصليب ، والبندقية مدلاة عبر صدره . كان يحملها على هذا النحو سواء كان راجلاً أم راكباً ، فيضع إحدى يديه على ماسورتها والأخرى على عقبها ، شأن امرأة توازن حمالة دلوين على كتفيها .

كان نحو عشرة فرسان يتقدمون بهدوء على الطريق دونما نظام . وكان شخص مهيب وثير الملبس يتقدمهم قليلاً ، وحصانه ذو القوائم الطويلة والذنب الملهوب يسير سيراً حثيثا واثقاً . وفيما كان غريغوري يصعد فيهم نظراته ، ومن خلفهم رقعة السماء الرمادية ، استطاع أن يرى معالم أجسام الخيل ، ومعالم فرسانها ، وحتى قبعة الفرو المسطحة التي يعتمرها قائدهم . ولم يبق بينهم وبين القوزاق سوى ثلاثين ياردة ، وبدا وكأنهم يستطيعون سماع أنفاس القوزاق الثقيلة ووجيب قلوبهم العميق .

كان غريغوري قد أصدر أوامره مسبقاً بالإمساك عن الرمي حتى يصدر لهم الإيعاز . ومثل الصياد في مكمنه كان ينتظر اللحظة المناسبة وهو واثق من تقديراته : سوف يدعو الفرسان ، ثم يفتح النار حين يكبحون خيلهم ويلتمون بارتباك .

كانت خشخشة الثلج تنبعث من الطريق بهدوء . طارت شرارة صغيرة صفراء من تحت أحد الحوافر : ربما انزلقت الحدوة على صخرة جرداء .

ـ من هناك ؟

ثم وثب غريغوري إلى حافة الأخدود وثبة هر وانتصب واقفاً . فاندفع قوزاقه وراءه بحفيف خفيف . ولكن غريغوري لم يكن متهيئاً لما تلا ذلك .

فسأله قائد الفرسان قائلاً : «من تريد ؟» وكان صوته الأبح لا ينم عن إمارة خوف أو مباغتة . وأدار الرجل حصانه صوب غريغوري .

فصاح غريغوري بحدة ، دون أن يتململ من مكانه وقد رفع مسدسه خلسة « من أنت ؟ » فأجاب الرجل بصوت مرتفع غاضب :

ـ من هذا الذي يتجرأ على الصياح هكذا ؟ أنا آمر الحملة التأديبية وأنا مخول من هيئة أركان الجيش الأحمر الثامن بإخماد التمرد . من هو آمركم ؟ دعه يأتي إلى هنا .

ـ أنا الآمر .

ـ أنت ؟ آه...

ورأى غريغوري شيئاً أسود في يد الفارس المرفوعة ، فارتمى إلى الأرض وهو يصرخ قبل أن يطلق الفارس رصاصته :

ـ نار!

واعولت من فوق رأسه رصاصة فطساء من مسدس الرجل من نوع البراونينك . وانطلق من الجانبين دوي الطلقات يصم الآذان . ثم جرى بودوفسكوف وأمسك بعنان حصان القائد الاحمر . ومال غريغوري جانباً ثم ضرب رأس الرجل بنصل سيفه فأهوى به من على سرجه . وانتهى كل شيء في بضع دقائق . فهذب ثلاثة جنود حمر هاربين ، وقتل اثنان ، وجرد البقية من سلاحهم .

واستجوب غريغوري القائد الاحمر بصرامة ، داساً ماسورة مسدسه في فم الرجل المهشم :

ـ ما اسمك ، أيها الخنزير ؟

ـ ليخاتشوف .

ـ ماذا كنت تأمل أن تفعل ، لا يحرسك سوى تسعة رجال ؟ أحسبت أن القوزاق سيركعون أمامك ويرجون المغفرة ؟

ـ اقتلني!

فواساه غريغوري قائلاً :

ـ سيكون ذلك في الوقت المناسب! أين أوراقك ؟

ـ في حقيبتي . خذها ، يا قاطع طريق... يا خنزير!

ولم يلتفت غريغوري إلى شتائم ليخاتشوف ففتشه بنفسه ، وأخرج من جيب سترته الفرو مسدساً آخر من نوع البراونينك ، ثم أزاح مسدس الموزر وحقيبة الميدان . وعثر في جيب جانبي على علبة سكائر ودفتر جلدي صغير مع الأوراق .

ولم ينقطع سباب ليخاتشوف وتأوهاته من الألم . فقد شجت ضربة سيف غريغوري رأسه كما أن رصاصة قد استقرت في كتفه الأيمن . كان مديد القامة ، أطول من غريغوري ، متين البنية بادي القوة ، وكان حاجباه الأسودان الكثان ينعقدان فوق أنفه على نحو يوحي بالقوة ، وكان ذا وجه أسمر حليق وفم كبير وفك مربع . كان يرتدي معطفاً قصيراً ضيقاً عند الخصر ، تغطي رأسه قبعة كوبانية سوداء دعكتها ضربة غريغوري بالسيف ، ويرتدي تحت معطفه سروال خيالة واسعة وقمصلة عسكرية تناسبه تماماً . بيد أن قدميه كانتا صغيرتين رشيقتين تغطيهما جزمة أنيقة ذات ساق جلدي لامع .

وأمر غريغوري قائلاً :

ـ اخلع معطفك ، أيها القوميسار! أنت منعّم ، لقد سمنت على خبزالقوزاق ، ولا أظنك ستتجمد .

وقيدت أيدي الاسرى إلى ظهورهم بالسيور والأعنة ، ثم أجلسوا على خيلهم . وأمر غريغوري وهو يعدل على جنبه وضع مسدس ليخاتشوف :

ـ اتبعوني!...

وباتت الجماعة ليلتها في بازكى وهي لا تبعد كثيراً عن فيشنسكايا . وراح ليخاتشوف يتقلب على الأرض عند الموقد ، يئن ويصر بأسنانه . وغسل غريغوري كتفه وضمده على ضوء مصباح الكيروسين ، وقرر ألا يمضى في استجواب الرجل . فجلس إلى المنضدة وقتاً طويلاً يتفحص الأوراق التي استولى عليها ، وقوائم القوزاق المعادين للثورة في فيشنسكايا ، التي كانت المحكمة الثورية الهاربة قد أعدتها ، ودفتر الملاحظات والرسائل ،

والعلامات المرسومة على الخارطة . وكان بين آونة وأخرى يحدق في ليخاتشوف ، مبادلاً إياه نظرات أشبه بسيوف متقاطعة . وسهر القوزاق طيلة الليل ، وكانوا يخرجون إلى خيلهم بين حين وآخر ، أو يستلقون متسامرين أو يدخنون داخل السقيفة .

وقبيل الفجر غفا غريغوري ، ولكنه ما لبث أن أفاق ورفع رأسه المستثقل من على المنضدة فرأى ليخاتشوف جالساً على القش يفك ضماداته بأسنانه ويمزقها . كان مكشراً عن أسنانه ألماً ، ورفع إلى غريغوري عينين قاسيتين محمرتين تنمان عن شوق قتال . أزاح النعاس عن غريغوري مثل يد خفية . فسأله :

ـ ماذا تفعل ؟

فأرعد ليخاتشوف والشحوب ينتابه وهو يلقي رأسه على القش من جديد : «ما شأنك في ذلك ، بحق الجحيم ؟ أريد أن أموت ؟» . كان قد شرب أثناء الليل نصف دلو من الماء ، ولم يغمض له جفن . وفي الصباح أرسله غريغوري إلى فيشنسكايا على زحافة مع الوثائق التي استولى عليها وتقرير مقتضب .

٣١

رافق الزحافة قوزاقيان فارسان فمضت تقرقع حتى بلغت بناية الآجر الأحمر التي كانت مقر اللجنة التنفيذية في فيشنسكايا . كان ليخاتشوف بين جالس وراقد في مؤخرة الزحافة ، فنهض ماسكاً الضمادة المشربة دماً بإحدى يديه ثم ترجل القوزاقيان وقاداه إلى داخل المنزل .

كان حوالي الخمسين قوزاقياً متجمهرين في الغرفة التي يشغلها سورياروف الآمر المؤقت للقوات المتمردة . واتجه ليخاتشوف ، وهو يصون يده المصابة ، إلى المنضدة حيث جلس سورياروف ، وهو قوزاقي قميء ليس

فيه ما يميزه سوى شقي عينيه الصفراوين اللذين ينمان عن مزاجه الصفراوي . فنظر إلى ليخاتشوف وسأله :

ـ إذن ، أنت ليخاتشوف ، يا ولدي ؟

ـ نعم ، هناك أوراقي . ألقى القائد الاحمر دفتر الملاحظات على المنضدة وجعل يحدق بسوياروف بعناد وصرامة : ـ يؤسفني أنني لم افلح في تنفيذ التعليمات التي تلقيتها لسحقكم كما تسحق الأفاعي . بيد ان روسيا السوفييتية ستعاملكم كما تستحقون . أعدموني رمياً بالرصاص في الحال رجاء! ـ وحرك يده الجريحة ثم حاجبه الكث .

فرد عليه سوياروف برفق وعيناه تلتمعان بعض الشيء :

ـ كلا ، أيها الرفيق ليخاتشوف . نحن أنفسنا ثرنا ضد أحكام الإعدام . لسنا من شاكلتكم ، نحن لا نعدم الناس . سنداوي جرحك ، وقد نفيد من خدمتك لنا . ـ ثم التفت إلى الحشد ، وأردف : ـ إلى الخارج ، كلكم! أسرعوا!

فلم يبق في الغرفة سوى آمري السرايا الخمس ، فجلسوا إلى المنضدة ، ودفع أحدهم بقدمه مقعداً إلى ليخاتشوف ، إلا أنه أبى الجلوس ، فاتكأ على الجدار شاخصاً بنظره عبر رؤوسهم إلى خارج النافذة .

وبدأ سوياروف الكلام ، بعد أن تبادل النظرات مع آمري السرايا :

ـ حسناً الآن ، يا ليخاتشوف ، أخبرنا كم عدد أفراد مفرزتك ؟

ـ لن أفعل ذلك .

ـ لن تفعل ؟ حسناً ، لا حاجة . سنحصل على ذلك من أوراقك ومن استجواب حرسك الأحمر . شيء آخر نطلبه منك :

اكتب لمفرزتك كي تأتي إلى فيشنسكايا . ليس لدينا ما نقاتلكم عليه . لسنا ضد الحكومة السوفييتية ، بل ضد الشيوعيين واليهود . سنجرد رجالك من السلاح ونرسلهم إلى أهليهم . وسنطلق سراحك . وصفوة القول ، اكتبْ لهم بأننا كادحون ايضاً ولا داعي لخوفهم منا ، فلسنا ضد السوفييت...

فبصق ليخاتشوف على لحية سورياروف الشهباء الصغيرة مباشرة ، فمسح سوياروف لحيته بكمه واحمر وجهه . فابتسم واحد من الأمراء ، ولكن أحداً منهم لم ينهض للدفاع عن شرف قائدهم .

وقال سوياروف بتصنع واضح :

ـ إذن فأنت تريد إهانتنا أيها الرفيق ليخاتشوف! كان الاتمانات والضباط يوجهون الإهانات الينا ، ويبصقون علينا وها أنت الشيوعي تبصق علينا أيضاً! ومع ذلك تقولون إنكم إلى جانب الشعب... حسناً ، اسمعوا! من من الخفراء هناك ؟ قودوا القوميسار! سنرسلك إلى كازانسكايا غداً .

وسأله أحد أمراء السرايا بصرامة :

ـ ألا تعيد النظر في القضية ؟

فسوى ليخاتشوف قمصلته على كتفه والتفت إلى الحارس الواقف على الباب .

ولم يعدموه مع ذلك . لقد كان المتمردون يقاتلون ضد «الإعدام والنهب»...

وفي اليوم التالي سيق إلى كازانسكايا . فسار أمام حارسه الخيال ، يخطو على الثلج بخفة وهو معقود الحاجبين . ولكنه حين مر ، خلال الغابة ، بشجرة بتولا يجللها بياض تبسم في الحال ، توقف ، ثم مد ذراعه السليمة وانتزع غصناً . وكانت عليه براعم صغيرة بدأت تنتفخ بعصير آذار الحلو يفوح منها عبق الحياة الربيعي . فدس ليخاتشوف البراعم في فمه ولاكها ، شاخصاً بعينين مضببتين إلى الشجرة وقد ازدانت بنضارة الربيع الفضي ، وعلت الابتسامة طرفي شفتيه .

مات وعلى شفتيه تويجات البراعم السود . فعلى مبعدة سبع فراسخ من فيشنسكايا ، وبين الكثبان الرملية الكثيفة ، مزقه الحرس بعنف ووحشية . وقد غرزوا في عينيه رؤوس سيوفهم وهو ما يزال على قيد الحياة ، وبتروا ذراعيه ، وجدعوا أنفه وصلموا أذنيه وشقوا وجهه بسيوفهم . ثم حلوا سرواله

ومثلوا بجسده الرجولي الوسيم الكبير . ثم هتكوا جذعه الدامي ، ووطأ أحدهم صدره الراعش ودحرج رأسه بعيداً عن جسده بضربة من سيفه .

٣٢

جاءت الأنباء من وراء الدون ، ومن أعاليه ، ومن كل المناطق تشير إلى اتساع مدى التمرد . لقد انتفضت سبع مناطق وجمعت سرايا الخيالة على عجل ، وكانت ثلاث مناطق أخرى على استعداد للانضمام إلى التمرد . وبات خطر التمرد يهدد بالاتساع شمالاً . وأصبحت فيشنسكايا مركزاً للعصيان . وبعد نقاش وجدال طويلين تقرر الإبقاء على الشكل الأسبق للحكم . فانتخب لعضوية اللجنة التنفيذية الإقليمية قوزاق يتمتعون بأوفر قسط من الاحترام ، وكان أغلبهم من الذين لم يتقدم بهم العمر . فانتخب دانيلوف ، وهو ضابط مدفعية سابق ، رئيساً وشكلت مجالس السوفييت في المناطق والقرى ، ومن الغريب ، أن كلمة «رفيق» بقيت دارجة في الحياة اليومية بعد أن كانت مستهجنة ، ورفع شعار مضلل يقول : «من أجل الحكم السوفييتي ، ولكن ضد نظام الكومونات ، والإعدام ، والنهب» . وبدلاً من الشارة أو الشريط الأبيض على القبعة ، ارتدى المتمردون شريطاً أبيض وأحمر متقاطعين .

وحل محل سوياروف في قيادة القوات المتمردة الموحدة نائب ضابط شاب يدعى بافل كودينوف له من العمر ثمانية وعشرون ، يحمل وسام القديس غيورغي بدرجاته الأربع ، وهو رجل ذكي ذلق اللسان . وكانت نقيصته تكمن في ضعف شخصيته ، ثم إنه لم يكن الرجل اللائق لقيادة منطقة ثائرة في وقت يعج بالمشاكل كذلك ، بيد أن القوزاق انجذبوا إليه لسجيته البسيطة المفضلة . والمهم أن لكودينوف طبائع قوزاقية ذات جذور عميقة فكان خلواً من العجرفة وغطرسة الضباط اللتين يظهرهما حديثو النعمة في

العادة . كان بسيط الملبس دائماً ، طويل الشعر ، يسير مطأطئ الهامة بعض الشيء ، وهو سريع الكلام . ولم يتميز وجهه الذي يحمل شيئاً من سيماء الفلاحين بشيء سوى أنف طويل أقنى .

وانتخب القوزاق لرئاسة أركانهم رئيساً يدعى ايليا سافونوف . وقع عليه اختيارهم ، رغم أنه كان جباناً بعض الشيء ، لا لشيء إلا لأنه يحسن استعمال قلمه ولكونه متعلماً . وكان أحدهم قد قال أثناء الاجتماع :

ـ أبقوا سافونوف في المقر . إنه لا يصلح في خط القتال . فلن يفعل سوى التفريط بحياة القوزاق . إن جدارته للعمل في خط القتال لا تختلف عن جدارة الغجري بأن يكون قسيساً .

فابتسم لهذا القول سافونوف وراء ثنيات عذاريه الأشقرين المائلين للبياض ، وكان قصير القامة مكتنزاً ، ثم وافق بسرور على تولي رئاسة الأركان .

ولكن كودينوف وسافونوف لم يفعلا شيئاً أكثر من أن يضيفا الطابع الرسمي على الأعمال التي قامت بها السرايا من تلقاء نفسها . ومن حيث التنظيم والقيادة كانا مقيدي الأيدي ، وما كانت لديهما القوة اللازمة لتوجيه دفة منظمة مرتبكة كتلك أو لمتابعة الحركة السريعة للأحداث .

أرسلت كتيبة حمراء من الخيالة لمواجهة التمرد ، وقد لمت في مسيرتها بلاشفة أوست ـ خوبرسكايا ، ويلانسكايا وبعض مناطق فيشنسكايا ، ثم شقت طريقها قتالاً من قرية إلى قرية ، متحركة على السهب غرباً بمحاذاة الدون . وفي الخامس من آذار هذب قوزاقي إلى تتارسكي يحمل استغاثة مستعجلة لإرسال المساعدة إلى متمردي يلانسكايا ، الذين كانوا قد تراجعوا دون أن يبدوا مقاومة تذكر ، اذ كانت تعوزهم البنادق والذخيرة . كان الحمر يحصدونهم برصاص الرشاشات ، وراحت بطاريتان تقذفانهما بحممهما . وفي ظروف كهذه بات انتظار التعليمات من مركز المنطقة أمراً ميؤوساً . ومن ثم فقد عقد بيوتر ميليخوف العزم على التقدم لمواجهة الحمر بسريته .

وتولى قيادة السرايا الأربع الأخرى التي جمعتها القرى المجاورة ، وخرج بقوزاقه من تتارسكي صباحاً . وبدأت المناوشات المألوفة بين الدوريات . أما القتال الحقيقي فقد تأخر قليلاً .

ترجل الخيالة في ذلك اليوم التشتائي القارس على مبعدة ستة فراسخ من القرية في البقعة التي كان غريغوري وزوجته ناتاليا قد حرثاها وحيث اعترف لها غريغوري بأنه لم يكن يحبها . ثم انتشر القوزاق في صف على الثلج قرب وديان ضيقة عميقة ، واقتيدت الخيل إلى مخبأ . وكان بوسعهم أن يروا الحمر يسيرون في ثلاثة صفوف خارجين من واد فسيح . وكان العدو ما يزال على بعد فرسخين تقريباً ، فراح القوزاق يتهيأون للمعركة على مهل .

وخب بيوتر بحصانه العرق المعتنى به إلى حيث يتولى غريغوري قيادة نصف سريته . وكان بيوتر فرحاً نشيطاً :

ـ أيها الإخوان ، لا تضيعوا رصاصكم . أطلقوا النار حين آمركم . يا غريغوري ، خذ نصف سريتك مسافة خمسين ياردا إلى اليسار . أسرع! ولا تجمع الخيل كلها معاً! ـ ثم أصدر بضعة أوامر ختامية أخرى ، ورفع ناظر الميدان إلى عينيه ، وهتف : ـ ماذا ، هل ينصبون بطارية فوق ربوة ماتفييف ؟...

فقال غريغوري :

ـ رأيت ذلك منذ وقت ، لا حاجة بك لناظور كي تراهم . ـ ثم تناول الناظور من يد أخيه وحدق فيه . واستطاع أن يرى فوق الربوة التي تعبث بها الرياح عربات وأشباحاً صغيرة لرجال منهمكين حولها .

وعلى الرغم من الأوامر القاضية بعدم التجمع ، التم مشاة تتارسكي أو «الزاحفون» كما كان الخيالة يسمونهم هزلاً ، في شراذم يدخنون ويتقاسمون الرصاص ويتناولون الخراطيش ويتمازحون . وبدا خريستونيا بقبعته الفرو العالية أطول بمقدار رأس من القوزاق الأصغر منه بعض الشيء (وكان خرستونيا بين المشاة لفقدانه حصانه) وبدت قبعة بانتلاي بروكوفتش

بغطاء الأذنين حمراء متميزة بين غيرها . كان المشاة جلهم من الشيوخ والفتيان . وكان رجال يلانسكايا إلى الجانب الأيمن من عباد الشمس الذي لم يحصد بعد . وكان تعداد المشاة في السرايا الأربع ستمائة ، لكن حوالي المائتين ، أي ثلث مجموع القوات ، التجأوا إلى الوديان ليعتنوا بالخيل .

وجاءت الصيحات من المشاة :

ـ بيوتر بانتلايتش ، لا تتخلوا عنا ، نحن المشاة ، حين يبدأ القتال ، نرجوك!

فابتسم بيوتر قائلاً :

ـ لا تخافوا ، لن نترككم . ـ وفيما نظر إلى صفوف الحمر تتقدم صوب التل ، شرع يعبث بسوطه وهو بادي العصبية .

وناداه غريغوري ، وهو يبتعد قليلاً عن صف الرجال :

ـ بيوتر ، تعال إلى هنا . ـ فتبعه بيوتر . فقال غريغوري وكان عبوسه ينم عن برم جلي :

ـ إني لا أرتاح إلى هذا الموقع . علينا أن نبتعد عن هذه الوديان . فربما هاجمونا من أحد الجناحين . فماذا يحل بنا ؟ ما رأيك ؟

فلوح بيوتر يده غاضباً وقال :

ـ ما هذا منك ؟ كيف يسعهم أن يهاجمونا من الجناح ؟ لقد أبقيت سرية احتياطاً ، اذا ما ساءت الأمور فإن الوديان ستكون نافعة لنا . إنها ليست مبعث خطر علينا .

فحذره غريغوري ، وهو يلقي نظرة خاطفة أخرى حول الموقع ، ويتفحص المكان بعينه :

ـ اذا ، خذ الحذر .

ثم قفل راجعاً إلى رجاله وكان العديد منهم قد ألهبهم الانفعال فخلعوا قفازاتهم الاعتيادية ، وراح بعضهم يصلحون وضع سيوفهم ويشدون أحزمتهم بعصبية .

وقال أحد القوزاق مبتسماً وهو يشير إلى حيث يسير بيوتر على امتداد الصفوف بخطوات ثقيلة :

ـ آمرنا قرر أن يترجل عن حصانه .

وزعق أليكسي شامل ذو الذراع الواحدة الذي كان السيف كل سلاحه :

ـ هيه ، أنت يا جنرال! مر أن يقدم لكل قوزاقي كوزاً من الفودكا!

ـ اخرس ، أنت يا سكير! سيبتر الحمر ذراعك الأخرى ، وكيف ستشرب حينذاك ؟ سيكون لزاماً عليك أن تلعق الشراب من الحوض .

ـ كفاكما .

وقال ستيبان استاخوف متنهداً ، وهو يرفع يده عن مقبض سيفه ليفتل عذاريه المائلين إلى الحمرة :

ـ إني مستعد لبذل الكثير من أجل قطرة شراب الآن .

وما إن شرعت بطارية الميدان تطلق نارها من خلف الرابية حتى تلاشى الحديث الذي لا يتصل بالموقف الحالي إلا من بعيد . وانطلق الصوت الداوي الثقيل من فوهة المدفع وعلق فوق السهب . وكانت القذيفة الاولى غير محكمة التسديد فسقطت أمام خطوط القوزاق بنحو نصف فرسخ . فانتشر الدخان الأسود المنبعث من الانفجار ثم علق بالشجيرات . وشرعت مدافع الرشاش تطلق النار من صفوف الحمر ، محدثة صوتاً كصوت المدقة الخشبية . فانبطح القوزاق على الثلج ، وراء الشجيرات ، وبين سيقان عباد الشمس الكثة التي لا رؤوس لها .

وصاح بروخور زيكوف منادياً غريغوري :

ـ ذلك الدخان شديد السواد . يبدو وكأنهم يستعملون قذائف ألمانية .

وساد السرية الثانية هرج . وحملت الريح صرخة :

ـ ميتروفان قُتل!

وجاء آمر سرية أحمر اللحية من قرية روبنجي إلى بيوتر راكضاً ، وقال :

ـ لديّ فكرة ، يا رفيق ميليخوف . ابعث سرية تهبط إلى الدون ، فتمر حذاء النهر إلى القرية ثم تضرب الحمر في المؤخرة . لا بد أنهم تركوا زحافات متاعهم دونما حراسة . فإن تم ذلك شاع الهلع في صفوفهم .

واستحسن بيوتر « الفكرة » وبعد أن أمر سريته بإطلاق النار سارإلى غريغوري وشرح له الاقتراح ، وأمره باقتضاب :

ـ اسحب نصف سريتك واضرب مؤخرتهم!

فسحب غريغوري قوزاقه ، وأمرهم بركوب خيلهم في أحد الوديان ، وسار بهم في خبب سريع صوب القرية .

وأطلق القوزاق من مراكزهم رشقتين من الرصاص ثم لزموا الصمت . وانبطح صف الحمر ، وبقيت رشاشاتهم تطلق النار . وأصابت حصان مارتن شامل رصاصة ، فانتزع نفسه من يد القوزاقي الذي يقوم على حراسته ، وجرى هائجاً خلال صف قوزاق روبنجي ومضى مسرعاً صوب الحمر . فتطاير عبره فيض من رصاص الرشاشات ، فوثبت ساقا الحيوان الخلفيتان عالياً في الهواء قبل أن يهوي على الثلج .

وأصدر بيوتر الأوامر بتصويب النار إلى حملة الرشاشات . ولم يطلق النار سوى خيرة الهدافين فأوقعوا بهم ضرراً جسيماً . وقد أصاب قوزاقي قميء عرف بإحكام رميه ثلاثة من حملة الرشاش ، فسكت رشاش المكسيم والماء يغلي في مبردته . بيد أن حملة رشاش احتياط أسرعوا يحلون محلهم ، وسرعان ما أخذ المدفع يزرع بذور الموت من جديد . وجاءت الصليات متلاحقة فجعل القوزاق يدفنون أنفسهم أعمق في الثلج . وحفر انيكوشكا حتى بلغ الارض الجرداء وهو يمزح طوال الوقت . وكان قد نفذت خراطيشه (اذ لم يكن لديه سوى خمس منها في مشط صدئ) وأخذ يرفع رأسه من حجره بين آونة وأخرى ، محدثاً بشفتيه صئياً يحاكي صئي فأر جبلي فزع .

وكان ستيبان استاخوف على يمينه يبكي من فرط الضحك ، فيما كان انتيب الكذوب على يساره يلعن غاضباً :

ـ صه ، يا حشرة! أهذا وقت مناسب للعبث!

فيزعق انيكوشكا : «اهيو!» جاحظاً عينيه صوبه مصطنعاً الذعر .

والواضح أن بطاريات الحمر كان ينقصها العتاد ، اذ كفت عن إطلاق النار بعد نحو ثلاثين قذيفة . فالتفت بيوتر إلى قمة التل بنفاد صبر ، كان قد بعث برسولين إلى القرية يحملان أوامر تقضي بخروج كافة السكان البالغين متسلحين بالمذاري والمناجل والفؤوس . كان يأمل أن يترك ظهورهم على التل أثره في الحمر فيكونون انطباعاً خاطئاً عن قوة القوزاق .

واستجابة للأمر ظهر حشد الناس على حنوة التل وتدفقوا حدره . وقد استقبلهم القوزاق بالتنكيت :

ـ انظروا إلى تلك الحجارة السوداء تتدحرج!

ـ خرجت القرية ، النساء وكل الآخرين!

وراح القوزاق يصيحون إلى بعضهم ويبتسمون . كانوا قد أوقفوا إطلاق النار كلياً . ولم يبق سوى رشاشين يطلقان النار على صفوف الحمر ، وكانت الصليات تلعلع من حين إلى آخر .

وقال اليكسي ذو الذراع الواحدة :

ـ آسف أن تتوقف بطاريات الحمر عن إطلاق النار . فلو أنهم رموا قذيفة واحدة بين هذا الحشد لرأيتهن يهرولن عائدات إلى القرية بتنورات مبتلة . ـ يبدو أنه كان آسفاً بالفعل لأن الحمر لم يطلقوا أي قذيفة على النساء .

اصطف الحشد صفين طويلين غير متسقين ثم توقف . وأمرهم بيوتر أن يلبثوا بعيدين وراء خطوط القوزاق . ولكن يبدو أن ظهورهم بحد ذاته قد ترك أثره في الحمر ، فشرعوا يتقهقرون وانحدروا إلى قعر الوادي . وبعد أن عقد بيوتر مشاورات قصيرة مع أمراء سراياه عمد إلى كشف ميمنة قواته حين أمر صفين من رجال يلانسكايا بالانسحاب والذهاب شمالاً على خيلهم لإسناد الهجوم الذي اعتزمه غريغوري . واصطفت السرايا على مرأى من الحمر ثم انحدرت شطر الدون .

استأنف القوزاق إطلاق نيرانهم على العدو المتقهقر . وفي أثناء ذلك ، توغل في صفوف المحاربة «جنود الاحتياط» وهم عدد من أشد النسوة طيشاً وحشد من الصبيان . وكانت داريا في عدادهم ، فدنت من بيوتر قائلة :

ـ بيوتر ، دعني أطلق رصاصة على الحمر . إني أعرف كيف أستعمل البندقية . ـ ثم أخذت غدارة بيوتر وركعت على ركبتيها فأسندت عقبها على صدرها بثقة رجال وأطلقت طلقتين .

وجعل « جنود الاحتياط » الماثلون على سفح التل يراوحون بأرجلهم ويتواثبون التماساً للدفء ، فراح الصفان يرتجان وكأن الريح تهزهما . وصارت خدود النسوة وشفاههن زرقاء ، وتسلل الزمهرير تحت أذيال تنوراتهم الفضفاضة . وتجمد الشيوخ الهرمون تجمداً تاماً ، وكان يجب أن يُعاني الكثيرون منهم ليصعدوا التل ، بما فيهم غريشاكا العجوز ولكن ما إن بلغ الشيوخ قمة التل التي تعبث بها الرياح حتى بعث الرمي البعيد والبرد فيهم الحماس . وانهمكوا في حديث حام يروون مآثر الحروب والمعارك السالفة وبؤس الحرب الراهنة ، حيث يقاتل الأخ أخاه ، والوالد ولده ، وحيث تطلق المدافع من بعد شاسع تعجز العين المجردة عن رؤيتها...

٣٣

أغار غريغوري بنصف سريته على زحافات الامتعة ، فصرع ثمانية من الحرس الأحمر ، واستولى على أربع زحافات محملة بالذخيرة وعلى حصانين للركوب . وقد خسر حصاناً واحداً ، وأصيب أحد القوزاق بخدش طفيف .

ولكن حين قفل غريغوري راجعاً على محاذاة الدون بما غنم من زحافات ، قرير البال منتشياً بانتصاره ، كان القتال قد بلغ نهايته فوق التل المشرف على تتارسكي . فقبل أن تبدأ المعركة شرعت سرية من فرسان

الحمر في مسيرة عشرة فراسخ لتطويق القوزاق ، وظهرت وراء التل بغتة وأغاروا على الرجال المكلفين برعاية الخيل واختلط الحابل بالنابل . فسرى الذعر في القوزاق وهربوا بالخيل من الوهدة . وقد أفلح بعضهم في قيادة المطايا إلى صفوف القوزاق . ولكن أغلبيتهم سقطوا صرعى سيوف الخيالة الحمر . والكثيرون من القوزاق المجردين من أسلحتهم أطلقوا سراح الجياد التي كانوا يكلفون برعايتها ولاذوا بالفرار شذر مذر . ولم يستطع المشاة إطلاق النار خشية أن يصيبوا رجالهم . وتدفقوا إلى باطن الاخدود يخبطون خبط عشواء كما تتدفق حبات الفاصولياء من كيس . أما فرسان القوزاق الذين أفلحوا في بلوغ الخيل ، وهم الغالبية ، فقد راحوا يتزاحمون في سباق سريع عائدين شطر القرية .

وحالما سمع بيوتر الصيحة ورأى جحافل الحمر المتدفقين إلى القوزاق ، أصدر أمره :

ـ إلى الخيل! لاتيشيف! خذ المشاة عبر الأخدود!...

بيد أنه لم يفلح في الوصول إلى حصانه . فقد جاء الصبي الذي كان حصانه في عهدته يهذب هذباً ، يقود حصانه وحصان فيدوت بودوفسكوف . بيد أن رجلاً من الجيش الأحمر أغار عليه من الخلف وأهوى بالسيف على كتفه . ومن حسن حظ الصبي أن بندقيته كانت معلقة على ظهره ، فلم يقطع السيف عنقه المعصومة بالوشاح الأبيض ، بل انزلق على ماسورة البندقية مصراً فطار من يد الرجل . غير أن حصان الصبي استدار وهذب مبتعداً ، فتبعه حصانا بيوتر وفيدوت . فندت عن بيوتر أنة ولبث واقفاً لبرهة ، شاحب الوجه ، والعرق يتصبب حدر خديه . ثم التفت فرأى ما ينوف على عشرة قوزاق يعدون شطره . وصاح بودوفسكوف وقد شوه الرعب وجهه :

ـ هلكنا!

فأمرهم بيوتر قائلاً :

ـ اهبطوا إلى الاخدود ، يا قوزاق! يا إخوان ، إلى الأخدود!

واستعاد رباطة جأشه فقادهم جرياً إلى حافة الأخدود ، وتدحرج حدر المنخفض كيفما اتفق . وعلق بمعطفه الفرو القصير شيء ما فتمزق من جيب صدره حتى درز الحاشية . وحين بلغ القعر وثب ونفض نفسه كما يفعل كلب . فتدحرج القوزاق من فوق التل وهم يتقلبون أثناء طيرانهم .

وكان الرصاص ما يزال يلعلع من عل ، وكان بوسعهم أن يسمعوا الصيحات ووقع الحوافر . وراح القوزاق في باطن الأخدود ينفضون الثلج والرمل عن قبعاتهم بحركات آلية اويدلكون كدماتهم . وانهمك مارتن شامل في تنظيف ماسورة بندقيته من الثلج . أما الفتى مانيتسكوف ، ابن الاتمان السابق ، فقد كان يرتعد خوفاً والدموع تنهمر على خديه . وقال باكياً :

ـ ماذا نفعل ؟ قل لنا ، يا بيوتر! الموت يحيق بنا! أين نذهب ؟ سيقتلوننا!...

واستدار فيدوت يودوفسكوف ، وأسنانه تصطك ، وجرى على امتداد القعر شطر الدون ، فتبعه الآخرون كالاغنام . كاد بيوتر أن يوقفهم :

ـ قف! سنتدبر الأمر... لا تهربوا! سيحصدونكم بالرصاص!

ثم قادهم إلى ما تحت جرف ناتئ واقترح عليهم وهو يتلعثم ، جاهداً أن يحتفظ بشيء من مظاهر الهدوء :

ـ ليس بوسعكم الخروج من الأخدود . فهم الآن يطاردون رجالنا دونما ريب . علينا أن نختفي هنا . وينبغي لبعضنا أن يذهب إلى الجانب الآخر... يجب أن نطلق النار وندافع عن هذه النقطة . وبوسعنا أن نقاوم الحصار هنا!

وانفجر مانيتسكوف الصغير الأبيض الشعر يبكي ويعول :

ـ انتهى أمرنا! يا آبائي! يا إخواني! دعوني أخرج من هذا المكان! لا أريد أن... لا أريد أن أموت!

فالتمعت عينا بودوفسكوف الكالميكيتان ، وأنزل جمع يده على وجه الصبي ، فأسال الدم من أنفه وانخرط ظهره على جدار الجرف . فكاد الصبي يسقط لكنه كف عن العويل .

سأل مارتن شامل وهو يمسك بيوتر من ذراعه :

كيف نستطيع إطلاق النار عليهم ؟ ليس لدينا أي رصاص .

ـ سيمحقوننا بالقنابل اليدوية! يا ويل!...

ـ حسناً ، ماذا علينا أن نفعل غير هذا ؟ ـ واستحال وجه بيوتر أزرق ، على حين غرة ، ولاح الزبد على شفتيه : ـ انبطحوا!... ألست القائد أم لا ؟ سأقتل! ـ وهز مسدسه فوق رؤوسهم بالفعل .

ولكأن همسه الصافر قد بعث فيهم حياة جديدة . فجرى بودوفسكوف ومارتن شامل وقوزاقيان آخران إلى الجانب المقابل من الأخدود وانبطحوا تحت الجرف ، أما الآخرون فقد ظلوا مع بيوتر .

في فصل الربيع تدفع مياه التلول الفائضة العكرة الأحجار وتجرف قعر الاخدود ، فتنخر طبقات الطين الأحمر وتحدث الحفر والشقوق في جدران الجرف . وقد اختبأ القوزاق في تلك الحفر .

وربض انتيب الكذوب محدودباً بجانب بيوتر وقد هيأ بندقيته ، وراح يتمتم بكلام غير واضح :

ـ أمسك ستيبان استاخوف بحصانه من الذيل ، وأفلح في النجاة ، أما أنا فلم أستطع... لقد خاننا رجال المشاة... انتهى امرنا ، يا أخوان... يعلم الله ، انتهينا!...

وسمعوا من فوقهم صوت أقدام تتراكض ، وتساقط في الاخدود نثار من الثلج والرمل .

فهمس بيوتر :

ـ ها هم قادمون! ـ ثم امسك بكم انتيب ، لكنه انتزع بعنف ونظر إلى فوق واصبعه على الزناد .

لم يدن أحد من حافة الجرف ، ولكن القوزاق سمعوا جلبة أصوات ورجلاً يصرخ بحصانه .

فقال بيوتر في دخيلته : ـ إنهم يتشاورون في طريقة الإجهاز علينا . ـ وعاد العرق يتصبب حدر ظهره وعلى صدره ووجهه...

ثم علت صيحة من فوقهم :

ـ يا هؤلاء ، اخرجوا! سنقتلكم على أية حال!

وانثال في الاخدود سيل من الثلج ابيض كالحليب ، فلا بد أن احدهم اقترب من حافة الجرف .

وعقب صوت آخر بكل ثقة :

ـ قفزوا هناك ، هذه آثار اقدامهم . وقد رأيتهم بنفسي .

ـ بيوتر ميليخوف ، اخرج من هناك!

فانتابت بيوتر برهة فرحة تعمي الأبصار . وقال في سريرته : «من الذي يعرفني من بين الحمر ؟ لا بد أن هؤلاء من قوزاقنا ، لقد هزموهم» . ولكن الصوت ذاته ما لبث أن بعث فيه الرعدة بعد لحظة .

ـ أنا ميخائيل كوشيفوي ، إننا ندعوكم للاستسلام . لن تفلتوا على أية حال .

فمسح بيوتر حاجبه الندي ، فعلقت خيوط من عرق يخالطه الدم في راحة يده . ودب فيه شعور غريب من اللامبالاة ، أشبه بالغيبوبة . وبدت صيحة انتيب وكأنها آتية من بعيد :

ـ سنخرج إن أخليتم سبيلنا ، وإلا فسنطلق النار!

وجاء الرد من عل ، بعد صمت وجيز :

ـ سوف نخلي سبيلكم .

وبذل بيوتر جهداً هائلاً كي ينفض عنه شعور الخدر . وظن أنه شم رائحة السخرية في كلمتي «نخلي سبيلكم» . فصاح بصوت مبحوح : «ارجع!» بيد أن أحداً لم يلتفت اليه . فقد تسلل كل القوزاق إلى خارج الأخدود ما خلا انتيب الذي اختبأ في حفرة .

كان بيوتر آخر من غادر مخبأه . كانت الحياة تنتفض في اعماقه انتفاض الجنين في أحشاء الأم .

وقد حدت به غريزة البقاء أن يفرغ مخزن بندقيته من الطلقات قبل أن

يتسلق المنحدر المائل . كانت عيناه لا تبصران ، وكأن الطين أعماهما ، وقلبه يملأ صدره . وخالجه شعور الاختناق كطفل يغط في نوم عميق ، فحرر عنقه من ياقته . كان العرق يملأ عينيه ، وراحت يداه تنزلقان على منحدر الجرف البارد . وتسلق لاهثاً إلى حيث كانوا يقفون ، فألقى بندقيته عند قدميه ، ورفع يديه فوق رأسه . وكان القوزاق الذين سبقوه قد حشروا سوية . فخطا ميخائيل كوشيفوي من بين جمع الجنود المشاة والخيالة ، وتقدم نحوهم . ودنا من بيوتر ، فوقف إزاءه مباشرة ، ثم سأله بهدوء وقد تسمرت عيناه في الأرض :

ـ هل شبعت من القتال ؟ ـ ولبث برهة ينتظر الجواب ، ثم سأله بالنبرة ذاتها ، وهو ما يزال يحدق في قدمي بيوتر : ـ كنت تتولى قيادتهم ، أليس كذلك ؟

فاختلجت شفتا بيوتر . وبحركة تنم عن وهن فظيع ومشقة بالغة رفع يده إلى جبينه المبتل . وخفقت أهداب ميخائيل الطويلة ، وانثنت شفته العليا المتورمة . واختص جسده برعشة عنيفة فبدا وكأنه لن يستطيع الثبات على قدميه . ولكنه سرعان ما رفع عينيه إلى عيني بيوتر ، وراح يحدق في بؤبؤيه مباشرة ، نافذاً خلالهما بنظرة غريبة كل الغرابة ، ثم غمغم بسرعة :

ـ اخلع ملابسك!

فنزع بيوتر سترته الفرو على عجل ، ثم لفها بعناية ، ووضعها على التلج . ثم خلع قبعته ، ونطاقه ، وقميصه الخاكي ، وجلس على طرف سترته ، وشرع يخلع جزمته ، فيما كان شحوبه يزداد لحظة إثر لحظة .

وترجل ايفان اليكسييفتش ، ثم خطا نحوهما ، يصر بأسنانه خشية أن يجهش بالبكاء .

وهمس ميخائيل : «لا تخلع قميصك» . ـ ثم اعترته الرجفة ، وصرخ على حين غرة :

ـ أسرع ، يا...

فدس بيوتر جوربيه الصوفيين في ساقي جزمته على عجل ، وانتصب واقفاً ، ثم نحى قدميه الحافيتين عن سترته ، وكانتا على صفحة الثلج أشبه بالزعفران صفرة .

ثم نادى بيوتر على ايفان اليكسييفتش ، وهو لا يكاد يحرك شفتيه : ـ يا عرّاب! ـ ولكن ايفان لبث واقفاً ينظر بصمت إلى الثلج يذوب تحت قدمي بيوتر العاريتين . وراح بيوتر يتضرع : ـ ايفان ، كنت عراب ابنتي في العماد... يا عراب ، لا تقتلوني . ـ وحين رأى أن ميخائيل قد رفع مسدسه إلى مستوى صدره ، جحظت عيناه ، كمن يتوقع ومضة تبهر الابصار ، ثم خفض رأسه بين كتفيه .

لم يسمع الطلقة ، وهوى على قفاه ، وكأن أحداً كال له ضربة عنيفة .

خيل إليه أن يد كوشيفوي المبسوطة قد أمسكت قلبه ، واعتصرت الدم منه . وبذل بيوتر آخر ما فيه من جهد ففتح ياقة قميصه وكشف عن ثقب الرصاصة تحت ثديه الأيسر . وجعل الدم ينز من الجرح أول الأمر ، ثم تفجر وراح يتدفق سيلاً كثيفاً داكناً .

٣٤

عند الغسق عادت ثلة استطلاعية أرسلت من تتارسكي بأنباء تفيد أنهم لم يعثروا على أثر للحمر . ولكنهم وجدوا بيوتر ميليخوف وعشرة قوزاق آخرين راقدين في السهب وقد مزقتهم السيوف .

فأمر غريغوري بإرسال زحافات لجلب الجثث ، ثم ذهب ليقضي الليلة عند خريستونيا ، هارباً من بيته الذي كان يضج بعويل النسوة على بيوتر القتيل وبكاء داريا الهيستيري . ولبث جالساً حتى الفجر عند الموقد في كوخ خريستونيا ، يدخن سيكارة إثر سيكارة ، مواصلاً حديثاً لا طائل تحته مع خريستونيا النعسان ، ومن جديد يختطف كيس تبغه بعصبية ويستنشق

رائحته الحادة بنهم ، وكأنه يخشى الانفراد وجهاً لوجه مع أفكاره ، ومع كربته على أخيه .

انبلج النهار . وشرع الجليد في الذوبان منذ الصباح الباكر . وما إن حلت الساعة العاشرة حتى ظهرت البرك على الطريق الذي تبعثر عليه الروث . وجعل الماء يقطر من السطوح . وصاح ديك وكأنه في عز الربيع ، وقاقت دجاجة وكأنها في ظهيرة راكدة الهواء .

وتجمعت الماشية في الجانب المشمس من الأفنية وجعلت تحتك بالأسيجة . فحملت الريح شعرها المتساقط من على ظهورها البنية . وفاح الثلج الذائب بالرطوبة والعفونة . وراح طائر قرقف صغير الحجم ، أصفر الصدر ، يتأرجح ويغرد فوق غصن أجرد لشجرة تفاح تقوم عند بوابة خريستونيا .

واذ وقف غريغوري عند البوابة ينتظر وصول الزحافات ، ألفى نفسه يترجم زقزقة القرقف إلى لغة طفولته . كان القرقف ينادي بانشراح في ذلك الصباح الدافئ : «اشحذ محراثك ، اشحذ محراثك!» ولو أصبح الطقس زمهريراً لتغير صوت القرقف ، ولتعجل بالنصح : «البس جزمتك! البس جزمتك!»

حول عينيه من الطريق إلى القرقف المتأرجح ، الذي مضى يغرد نشوان : «اشحذ محراثك! اشحذ محراثك!» وفيما أنصت غريغوري ، عادت به الذاكرة إلى أيام الطفولة ، يوم كان وبيوتر يسوق الديكة الرومية لرعيها في السهب ، وكيف أن بيوتر بشعره الأشقر وأنفه الأفطس المقشّر دائماً في الصيف يقلد صياح فرخ الديك الرومي الحزين بكل مهارة ويترجمه إلى لغة الاطفال :

«لكل القوم أحذية ما عداي! لكل القوم أحذية ما عداي!» وراح يقلب عينيه ويخفق بيديه وقد ألصق مرفقيه بجنبيه ، يتهادى في مشيته مغمضاً مدمدماً وكأنه ديك رومي عجوز : «غور! غور! غور! سنشتري لك حذاء في

السوق ، يا صعلوك » ويومذاك ضحك غريغوري من كل قلبه ، فطلب إلى أخيه أن يقلد ثانية لغة الديك الرومي وفراخه المغمغمة وقد عثرت في العشب على قطعة حديد أو قماش وهو شيء غير مألوف لديها...

ظهرت في نهاية الشارع زحافة يسير قوزاقي إلى جانبها . ثم بدت للعين أخرى وثالثة . فمسح غريغوري دمعة وأزال معها ابتسامته الهادئة التي أثارتها تلك الذكريات اللجوج . ثم ذهب نحو بوابة داره على عجل . كانت أمه شبه مخبولة من شدة الويل ، فأراد في تلك اللحظة الرهيبة الأولى أن يحول بينها وبين الزحافة التي تحمل جثمان بيوتر . كان اليكسي شامل يسير حاسر الرأس إلى جانب الزحافة الأولى ، يشد قبعته إلى صدره بجذمة ذراعه اليسرى ويمسك الأعنة بيده اليمنى . فنظر غريغوري إلى الزحافة : كان مارتن شامل راقداً على ظهره فوق القش ، وقد لطخ الدم المتخثر وجهه وقمصلته الخضراء . وكان مانيتسكوف في الزحافة الثانية وقد انغرز وجهه المثخن بالجروح في القش ، وتكوم رأسه على كتفيه ، وقد طوحت بجمجمته ضربة ماهرة حاذقة ، وكانت عظام القحف مؤطرة ببلورات من الثلج قاتمة يخالطها الشعر . ونظر غريغوري إلى الزحافة الثالثة ، فلم يستطع معرفة الجثة الهامدة ، بيد أن اليد المتدلية من جانب الزحافة استرعت انتباهه ، بأصابعها الشمعية المصطبغة بدخان التبغ وقد التمت لرسم إشارة الصليب . وأمسك لجام الحصان الرابع وقاده إلى داخل الحوش ، فتراكض من ورائها الجيران والنسوة والاطفال . واجتمع الحشد حول درجات الباب .

قال أحدهم بصوت هادئ :

ـ هوذا راقد عزيزنا بيوتر بانتلايتش! لقد انتهت حياته على هذه الأرض!

وجاء ستيبان استاخوف خلال الباب حاسر الرأس ، ووصل غريشكا وثلاثة شيوخ آخرين من مكان ما . وأجال غريغوري حوله نظرة شاردة ، ورجاهم قائلاً :

ـ أعينوني في حمله إلى داخل الدار...

واذ هم السائق بحمل بيوتر أفسح الحشد الطريق لايلينشنا بصمت واحترام وهي تهبط الدرجات .

راحت تحدق في الزحافة ، ورف على جبينها شريط من شحوب الموت . وأمسك بانتلاي بروكوفتش ذراعها وهو يرتجف . وكانت دونيا أولى النائحات فرددت نواحها عشر دور أخرى في القرية . ثم جاءت داريا منفوشة الشعر ، متورمة الوجه من البكاء ، وعدت تهبط الدرجات وألقت بنفسها على الزحافة .

ـ بيوتر ، أيها العزيز ، يا عزيزي بيوتر ، انهض! انهض! واسودت الدنيا في عيني غريغوري . فصرخ بوحشية عارمة :

ـ ابتعدي ، يا داريا!

ثم دفعها بعنف فسقطت في كومة من الثلج . وأسرع غريغوري يرفع بيوتر من إبطيه وأمسك السائق بقدميه الحافيتين . ولكن داريا زحفت على يديها وركبتيها صاعدة الدرجات وراءهما ، فتشبثت بيدي زوجها المتخشبتين المتجمدتين وراحت تقبلها . وأحس غريغوري أنه يوشك أن يفقد زمام نفسه تماماً ، فدفعها بقدمه . وفكت دونيا يدي داريا عنوة ثم شدت إلى صدرها رأس داريا الذي غشيته الغيبوبة .

* * *

خيم على المطبخ صمت موحش . ورقد بيوتر على الأرض ضئيل الجرم إلى حد فظيع ، وكأن بدنه قد تيبس . وقد ضاق أنفه ، وغام لون عذاريه الكتاني ، بيد أن تقاسيم وجهه كانت قد توترت فزادته وسامة . كانت ساقاه العاريتان المشعرتان بارزتين من سرواله . وأخذ الثلج يذوب عن الجثة ببطء ، فتكونت تحتها بركة صغيرة من ماء وردي . وكلما ازداد ذوبان الثلج عن الجثة اشتدت رائحة الدم الملحية ، ورائحة التفسخ المقرفة .

كان بنتلاي بروكوفتش في السقيفة منهمكاً يصنع تابوتاً ، والنسوة ما زلن منشغلات بداريا التي لم تثب إلى وعيها بعد . ومن حين لآخر تنبعث من الغرفة صرخة هستيرية نفاذة تعقبها صرخات اوطأ نبرة من فم الخالة فاسيليسا ، التي هرعت «تشاطر» آل ميليخوف أتراحهم . وجلس غريغوري على المصطبة يحدق في وجه أخيه الذي تزايدت صفرته ، وفي يده ذات الاظافر المستديرة الزرقاء . وانتابه شعور بالاغتراب عن بيوتر ، فسرت فيه رعدة باردة : لم يعد أخاً بل ضيفاً طارئاً ينبغي له أن يرحل الآن . كان راقداً وخده على الأرض الطينية دونما اكتراث وقد تجمدت تحت شاربه ابتسامة رائقة غامضة . وغداً ستعده أمه وزوجته لرحلته الأخيرة .

في الليل تقوم أمه بتسخين ثلاث جرات من الماء له ، وتهيء زوجته حراماً ، وأفضل سراويله ، وقمصلته الرسمية . ويغسل غريغوري وبانتلاي بروكوفتش ذلك الجسد الذي لم يعد ملك بيوتر ، والذي لم يعد يشعر بالحياء من عريه . ثم يلبسونه أحسن حلة ويسجونه على المائدة ، وتأتي داريا فتمسك يديه العريضتين المتثلجتين ، اللتين كانتا حتى أمس تعانقانها ، وتضع الشمعة التي أنارت لهما حين سارا معاً وراء الكاهن يطوف بهما حول منبر الكنيسة بيوم زفافهما . واذ ذاك يكون القوزاقي بيوتر ميليخوف متأهباً لتشييعه إلى ذلك المكان حيث لا عودة منه إلى دفء البيت في أيما اجازة .

وصار غريغوري يلوم أخاه في ذهنه : ـ كان خيراً لك أن تموت في مكان ما في روسيا بدلاً من أن تموت هنا أمام عيني أمك . ـ وحين نظر إلى الجثة اعتراه الشحوب فجأة . كان ثمة دمعة تلتمع على خد بيوتر ، فقفز غريغوري نحوه ، ولكنه حين أمعن النظر ، تنفس الصعداء ، فلم تكن تلك دمعة ميت بل قطرة ذابت من بين شعر بيوتر الذي تهدل على ناصيته وراحت تسير على خده ببطء .

٣٥

بأمر من قائد القوات الثائرة المتحدة ، عُين غريغوري ميليخوف آمراً لكتيبة فيشنسكايا المؤلفة من عشر سرايا قوزاقية . وقد أوعزت له الأركان من فيشنسكايا أن يسير باتجاه منطقة كارغينسكايا لكي يقضي على مفرزة ليخاتشوف مهما كلف ذلك من ثمن ، ويطردها إلى خارج حدود الاقليم ، فيصبح بالمستطاع إشعال العصيان في القرى الواقعة على ضفاف نهر تشير .

وفي السابع من آذار قام باستعراض قوزاقه وهم خارجون من فيشنسكايا . جلس على سرجه محني الظهر ، وقد شد عنان جواده الواقف فوق ربوة على جانب الطريق ، يوشك ثلجها أن يذوب ، وراحت تمر أمامه السرايا طوابير ، وقد جند رجالها من قرى الدون : بازكي بيلوغوركي ، اولشانسكي ، ميركولوف ، غرومكوفسكي ، سيميونوفسكي ، زيبينسكي ، فوديانسكي ، ليبياجي ويريك . كان يمسد شاربه بيده المقفزة ، ويجعد أنفه الشبيه بمنقار الصقر ، وهو يتفحص كل سرية بعين صارمة يقظة . وكان معارفه من القوزاق يبتسمون اذ يمرون به على ظهور خيلهم . وجعلت سحب من دخان التبغ تنساب وتتلاشى فوق الصفوف وراح البخار يتصاعد من الخيل .

وحين بلغت الكتيبة مكاناً يبعد عن فيشنسكايا زهاء ثلاثة فراسخ ، عادت إحدى الدوريات بخبر يفيد أن الحمر يتقهقرون صوب تشوكارين . ولم تشتبك مفرزة ليخاتشوف معهم ، فأرسل غريغوري ثلاث سرايا لتطويق مفرزة العدو ، ومضى بالبقية يتعقب خطاها بسرعة جعلت الحمر يشرعون في التخلي عن عربات الشحن وصناديق العتاد . وفيما كانت بطارية ليخاتشوف تترك تشوكارين فقدت بعض مدافعها في نهر صغير قرب الكنيسة المهترئة ، فقطع السواقون السيور ولاذوا بالفرار . وتعدى القوزاق تشوكارين بمسافة خمسة عشر باتجاه كارغينسكايا دون أن يصادفوا مقاومة تذكر ، فبدأ القوزاق يمزحون : «ها ، سنصل إلى نوفوتشيركاسك ، إن شاء الله!» .

وقد سر غريغوري بالبطارية التي استولوا عليها ، وقال في نفسه باحتقار : «إنهم لم يتريثوا حتى لإتلاف المدافع» . وقام القوزاق بجر المدافع من النهير مستعينين بالثيران ، وسرعان ما تجمع المدفعيون من شتى السرايا ، وشدت الجياد ، ستة أزواج إلى كل مدفع ، وأفردت نصف سرية لحراستها .

استولى القوزاق على كارغينسكايا عند الغسق . وقد أسروا جزءاً من مفرزة ليخاتشوف مع مدافع الميدان الثلاثة الباقية ، وتسعة رشاشات . أما بقية الجنود واللجنة الثورية معهم فقد أفلحوا في الهرب شمالاً .

ظل المطر يهطل طوال الليل ، فراحت الوديان والشعاب تهدر صباح اليوم التالي بالمياه ، وأضحى المرور على الطريق شاقاً ، فغاصت الخيل في الثلج الذائب والوحل ، وتهادى الرجال إعياء . أرسلت لمطاردة العدو المتقهقر سريتان بقيادة الضابط يرماكوف فأسرتا في الصباح زهاء ثلاثين من الحمر وعادتا بهم إلى كارغينسكايا .

كان غريغوري قد اتخذ مقراً له في بيت كبير يعود إلى أحد تجار المدينة . فسيق الأسرى إلى داخل الفناء . وجاء يرماكوف ، آمر السريتين ، يقدم تقريره إلى غريغوري :

ـ أسرنا سبعة وعشرين من الحمر ، ومراسلك جاء بحصانك هل أنت ذاهب الآن ؟

فشد غريغوري الحزام فوق معطفه ، ثم مشط خصلته المتلبدة أمام المرآة ، وحينذاك التفت إلى يرماكوف :

ـ لنذهب ، سوف نعقد اجتماعاً في الميدان ، ثم نغادر .

فابتسم يرماكوف وهز كتفه قائلاً :

ـ وهل نحن بحاجة إلى اجتماع ؟ الرجال على خيولهم فعلاً ، بلا أي اجتماع . انظر ها قد أتى رجال فيشنسكايا ، أليس كذلك ؟

فأرسل غريغوري نظرة خارج النافذة . كانت سرايا قد اصطف رجالها

أربعاً تمر بنسق رائع . وبدا القوزاق وخيولهم في مظهر بهي .

فغمغم غريغوري بسرور وهو يتمنطق بسيفه ويهرع خارجاً من البيت :

من أين جاؤوا بحق الجحيم ؟

أدركه يرماكوف عند البوابة . كان ثمة آمر سرية أمامية ماثلاً أمام غريغوري ويده مرفوعة بالتحية ، اذ لم يكن ليجرؤ على مصافحته :

ـ الرفيق ميليخوف ؟

ـ نعم . من اين انتم ؟

ـ أقبلوا انضمامنا إلى كتيبتكم . سريتنا تشكلت ليلة أمس ، في ليخوفيدوف . أما السريتان الأخريان فقد جاءتا من غراتشوف ، وارخيبوفكا ، وغاسيليفكا .

ـ خذ القوزاق إلى الميدان . سنعقد اجتماعاً في الحال . وقاد مراسل غريغوري (وهو بروخور زيكوف) حصان يرماكوف ، بل وساعده في الإمساك بالركاب . وألقى يرماكوف جسده الرشيق الحديدي على السرج بحركة سريعة وأنيقة ، وسوى طيات معطفه ثم تقدم من غريغوري ، وسأله :

ـ ماذا سنفعل بالأسرى ؟

فأمسكه غريغوري من زر معطفه الأعلى ومال إلى أذنه ، وأومضت في عينيه شرارات صغيرة ، وتحت شاربيه انفجرت شفتاه بابتسامة تحاكي ابتسامة الذئب :

ـ أرسلهم إلى فيشنسكايا مخفورين . أتفهم ؟ ولكن ينبغي ألا يصلوا إلى أبعد من الجانب الآخر لذلك المرتفع . ـ ثم لوح بسوطه في اتجاه مرتفع رملي يشرف على كارغينسكايا .

وقال في سريرته : «تلك هي الخطوة الأولى للأخذ بثأر بيوتر» ـ ثم أرسل حصانه خبباً ، ودونما سبب واضح ، أهوى بسوطه على الحصان فبدت على ساقيه الخلفيتين لفحة بيضاء .

خرج غريغوري من كارغينسكايا على رأس ثلاثة آلاف وخمسمائة مقاتل . وأرسلت هيئة أركان فيشنسكايا واللجنة التنفيذية وراءه بأوامر وتعليمات عاجلة وبعث له أحد أعضاء اللجنة خطاباً مزوقاً :

«الرفيق ميليخوف الموقر ، تصل أسماعنا شائعات سوء مفادها أنك تعدم أسرى الجيش الأحمر بلا رحمة . ويبدو أن الثلاثين جندياً من الجيش الأحمر الذين أسرهم يرماكوف قد أجهز عليهم بأوامر من عندك .

وقد بلغنا أنه كان في عدادهم قوميسار كان بوسعنا الإفادة منه لمعرفة قوة العدو . أيها الرفيق العزيز ، ألغ أوامرك القاضية بقتل الأسرى فهي تعود علينا بضرر جسيم . لقد شاع التذمر بين القوزاق من هذه القسوة وهم يخشون أن يعمد الحمر بدورهم إلى قتل أسراهم وتدمير قرانا . هذا وأرسل لنا القادة أحياء ، وسنتخلص نحن منهم بهدوء في فيشنسكايا أو في كازانسكايا . غير أنك سائر بما عندك من سرايا مثل تاراس بولبا في رواية بوشكين التاريخية* ، تعمل السيف والنار في كل شيء ، فتثير بذلك القلق في نفوس القوزاق . أكبح جماح نفسك ، من فضلك ، ولا تحكم على الأسرى بالموت ، بل أرسلهم إلينا . ففي ذلك قوة لنا . مع تمنياتنا الطيبة لك بالصحة نبعث إليك بالتحيات الحارة ، ونحن بانتظار أنباء المزيد من انتصاراتك» .

مزق غريغوري الرسالة دون أن يبلغ نهايتها . ثم ألقى بها تحت حوافر جواده ، وجواباً على الأمر الذي تلقاه غريغوري من كودينوف بالتقدم نحو الجنوب والاتصال بالكاديت وتحاشياً لتطويق العدو له ، كتب غريغوري من على سرجه يقول : «إنني أتعقب العدو باتجاه بوكوفسكايا ، أرفض الذهاب

* يخطئ كاتب الرسالة : فان الكاتب الروسي البارز نيقولاي غوغول هو مؤلف هذه الرواية . المعرب

جنوباً وأعتبر أمركم سخيفاً . فليس هناك من شيء سوى الرياح والفلاحين الأوكرانيين » .

بهذا انتهت مراسلاته « الرسمية » مع مقر المتمردين . وجمع السرايا في كتيبتين ومضى في زحفه صوب بوكوفسكايا .

حالف النجاح غريغوري طيلة أيام ثلاثة ، فاستولى على بوكوفسكايا بهجوم عاصف ثم سار على رأس قواته نحو كراسنوكوتسكايا ، وأجهز على مفرزة صغيرة كانت تعترض سبيلهم ، بيد أنه لم يصدر الأوامر بقتل الاسرى ، بل أرسلهم إلى فيشنسكايا .

وفي التاسع من آذار كان غريغوري يسير بكتيبته الي تشيستياكوفكا .

وفزعت القيادة الحمراء في جبهة نهر الدونتسي من الخطر المباغت الذي تعرضت له المؤخرة ، فبعثت ببضع كتائب وبطاريات لمعالجة أمر الانتفاضة . وقد اشتبكت تعزيزات الحمر بكتيبتي غريغوري على مقربة من تشيستياكوفكا . واستمر القتال ساعات ثلاث ، ثم سحب غريغوري قواته في اتجاه كراسنوكوتسكايا ، خشية تعرضها للتطويق . غير أن كتيبتيه تعرضتا في صبيحة اليوم التالي إلى هجوم شنته قوة القوزاق الحمر من خوبرسكايا ، فجعل قوزاق الدون يعملون السيوف في بعضهم البعض كرة ثانية . وفقد غريغوري حصانه وأصيب بجرح في خده . فسحب كتيبته من المعركة وتقهقر إلى بوكوفسكايا .

وفي مساء ذلك اليوم ، أراد الحصول على مزيد من المعلومات عن العدو ، فاستجوب أحد الاسرى ، وكان هذا قوزاقياً من منطقة خوبر ، رجلاً ضامر الصدر أشقر الشعر ، تجاوز سن الشباب ، يحمل على طية معطفه قطعة من شريط أحمر فأجاب الرجل على أسئلته طوعاً ولكن بابتسامة مصطنعة شوهاء :

ـ أي كتائب شاركت في القتال البارحة ؟

ـ كتيبتنا ، وكتيبة باسم ستينكا رازين الثالثة . إنهم جميعاً قوزاق من

منطقة خوبر . وكتيبة زآمورسكي الخامسة ، وكتيبة الخيالة الثانية عشرة ، وكتيبة متسينسكي السادسة .

من هو القائد ، كيكفيدزا ، كما يقال ؟

ـ كلا ، الرفيق دومنيتش كان يقود قطعاتنا .

ـ والعتاد لديكم كثير ؟

ـ لا يُعد ولا يُحصى!

ـ والمدافع ؟

ـ ثمانية على ما يبدو .

ـ أين كنتم معسكرين ؟

ـ في قرى كامننسكايا .

ـ هل أعلموهم إلى أين يرسلون بهم ؟

تردد القوزاقي ولكنه اجاب على السؤال في نهاية الأمر . وعلى حين غرة استبدت الرغبة في غريغوري لمعرفة موقف القوزاق الحمر .

ـ ماذا قال القوزاق حين جندوهم ؟

ـ لم يرغبوا في ذلك...

ـ هل علمتم لماذا انتفضنا ؟

ـ كيف يمكن أن نعلم ؟

ـ لماذا اذاً لم ترغبوا في الجندية ؟

ـ حسناً ، ألستم قوزاقاً مثلنا ؟ ألم نشبع من الحرب ؟ لم نكف عن القتال منذ انضمامنا إلى صفوف الحمر .

ـ أتود الخدمة في صفوفنا ؟

وأجاب القوزاقي هازاً كتفيه : ـ كما تريد . ولكني لا أود في...

ـ طيب ، اخرج . سنعيدك إلى زوجتك . أنت مشتاق إليها ، أليس كذلك ؟

وجعل غريغوري يحدق بعينين مخاوصتين وراء الرجل فيما اقتاده إلى

خارج الغرفة ثم استدعى مراسله ، بروخور زيكوف ، مستغرقاً في تفكير صامت طويل ، مدخناً . وسارعبر الغرفة إلى النافذة ، فوقف وظهره إلى بروخور ، وأمره بهدوء :

ـ هل للأولاد أن يأخذوا ذلك الرجل الذي كنت أستجوبه ويقتادوه إلى البستان بهدوء . لا أريد أن أبقي على أسرى من القوزاق الحمر! ـ ثم استدار على عقبي جزمته الواطئتين وسرح النظر خارج النافذة ، وقال : ـ أجهز عليه في الحال! هيا!...

خرج بروخور . ووقف غريغوري بضع دقائق يتلهى بتكسير أغصان الجيرانيوم الرقيقة المزروعة على النافذة . ثم استدار وأسرع يخرج إلى درجات العتبة ، فرأى بروخور زيكوف يتحدث بصوت منخفض إلى جماعة من القوزاق الجالسين في الشمس تحت جدار مخزن الحبوب .

فنادى على بروخور دون أن ينظر إلى القوزاق :

ـ دع الأسير يذهب! حرر له جواز مرور!

ثم عاد إلى الغرفة وتوقف أمام مرآة عتيقة ، ونشر ذراعيه بدهشة ، عاجزاً عن معرفة سبب خروجه وإصدار الأمر بالافراج عن الأسير . لقد احس بنوع من الرضى حين قال بسخرية : «سنعيدك إلى زوجتك . اخرج» . وهو على علم بأنه سيصدر لفوره أمراً إلى بروخور للإجهاز على الرجل في البستان .

كان مغتاظاً من نفسه بعض الشيء لشعوره المفاجئ بالرثاء ، أوليس الرثاء الأعمى هو الذي اقتحم ذهنه وحدا به إلى أن يفك إسار عدو من الأعداء ؟ ومع ذلك فقد أحس بالارتياح . ومما زاد الأمر غرابة أنه كان في اليوم السابق بالذات قد خاطب القوزاق قائلاً : «الفلاح عدونا ، ولكن القوزاقي الذي يساعد الحمر عدو لدود فينبغي أن ينال القوزاقي قصاص الجاسوس : فيوضع إزاء جدار ويرفع إلى ابواب السماء!» .

غادر غريغوري غرفته وذهنه لا يزال نهب ذلك التناقض المستعصي ، وقلبه مفعم بشعور عات من جور القضية التي يقاتل من أجلها . فتقدم إليه

آمر كتيبة التشير ، وهو رجل من الحرس مديد القامة له وجه مألوف بعض الشيء . وكان بصحبته آمر فصيل ، فقال آمر الكتيبة :

ـ تعزيزات جديدة! ثلاثة آلاف من الخيالة ، وسريتان من المشاة . ماذا سنفعل والحالة هذه ، يا بانتلايتش ؟

ثبت غريغوري مسدسه والمحفظة الأنيقة التي غنمها من ليخاتشوف ثم خرج إلى الفناء . كانت الشمس تشع دافئة ، والسماء بعيدة زرقاء ، شأنها في أواسط الصيف ، تنساب على صفحتها غمائم صغيرة بيض ميممة نحو الجنوب . وجمع غريغوري أمراء السرايا في ركن من الفناء لتبادل الآراء . التم نحو من ثلاثين رجلاً اقتعدوا سياجاً متهدماً ، ودار كيس تبغ أحدهم من يد إلى يد . وافتتح غريغوري المجلس قائلاً :

ـ أي خطط سنضع ؟ كيف يجب أن نتدبر أمر الكتائب التي أعادتنا على أعقابنا ، وأي سبيل ينبغي أن نسلك ؟ ـ ثم أخبرهم بالأمر الصادر عن كودينوف .

فسأل أحد أمراء السرايا بعد فترة من الصمت :

ـ ما عدد الذين يقاتلوننا ؟ هل عرفت شيئاً من الأسير ؟

عدّد غريغوري الكتائب . وخمن على عجل ما يتوقع أن يكون عدد أفرادها . فلبث الضباط جالسين بصمت ، اذ لم تكن بأحدهم رغبة للكلام دون تفكير وتمحيص . وأفصح أحدهم عن ذلك اذ قال لغريغوري :

ـ رويدك قليلاً ، يا ميليخوف! دعنا نفكر . ينبغي ألا نرتكب خطأ الآن .

وكان ذلك الرجل أول من تقدم باقتراح . وأصغى غريغوري إليهم جميعاً باهتمام ، وأبدى غالبية الضباط معارضتهم للمضي أبعد مما بلغوا ، حتى وإن كان النجاح حليفهم ، فقد كانوا يريدون أن يقتصر نشاطهم على حرب دفاعية محض . ولكن أحدهم ، وهو من قوزاق التشير ، أعلن تأييده الحار للأمر الصادر عن هيئة أركان حرب فيتنساكايا بالسير قدماً ، اذ قال :

ـ لا جدوى من إضاعة الوقت ها هنا . ليسر بنا ميليخوف إلى الدونيتس ، إننا حفنة ليس غير ، أما هم فروسيا برمتها من ورائهم . كيف يسعنا أن نصمد ؟ سيسحقوننا ، فينتهي أمرنا . علينا اقتحام الجبهة . ليس لدينا عتاد كثير ، ولكنا سنغنم المزيد منه . علينا أن نشن غارة .

ـ ولكن ماذا عن أهلنا ؟ النساء والشيوخ ، والأطفال ؟

ـ دعهم يبقون وراءنا!

ـ عقلك ذكي ، ولكن نصيبه أن يكون في رأس أحمق!

كان الضباط حتى ذلك الحين لا يتحدثون إلا همساً بما ساورهم من قلق بشأن حراثة الربيع ، وما قد يصيب حقولهم اذا ما اقتحموا الجبهة ، أما الآن ، وقد تحدث رجل التشير ، فإنهم شرعوا جميعاً يزعقون بأعلى أصواتهم ، وأخذ المجلس يضج وكأنه مجمع قرية . وبزّ قوزاقي كهل الآخرين في الصياح :

ـ لن نتخلى عن بيوتنا! سأكون أول العائدين بسريتي إلى القرية . إن كان لا بد لنا من القتال ، فليكن ذلك حول بيوتنا لا من أجل إنقاذ حياة الآخرين .

ـ لا تكمّ فمي! ولا تدعني أبدي رأيي ، بينما أنت تزعق!...

ـ لا فائدة في الكلام!...

ليتقدم كودينوف نفسه إلى الدونيتس!

فتريث غريغوري حتى خيم الصمت ، ثم أدلى برأيه الحاسم :

ـ سوف ندافع عن الجبهة هنا . وان انضم الينا قوزاق كراسنوكوتسكايا ، فسندافع عنهم أيضاً ، ليس ثمة مكان نذهب إليه . انتهى المجلس ، فاذهبوا إلى سراياكم! سنخرج إلى مواقعنا في الحال .

وبعد نصف ساعة وفيما كان غريغوري يراقب صفوف الخيالة المتراصة تتدفق على امتداد الشوارع ، بسيل لا نهاية له ، اعتراه شعور حاد من الفرح والخيلاء . ولكن قلقاً ومرارة كاوية كانت تغلي في دخيلة نفسه إلى جانب

فرحه وغروره . أبوسعه أن يقودهم كما ينبغي ؟ هل سيتهيأ له الذكاء اللازم لتوجيه فعاليات آلاف القوزاق! فتحت أمرته فرقة بأكملها ، لاسرية واحدة فحسب . أينبغي له ، وهو ذلك القوزاقي ذو الثقافة الضحلة ، أن يتحكم بآلاف الأنفس ويتحمل المسؤولية المقدسة عنهم جميعاً ؟ وفكر في نفسه : «المهمّ ضد مَنْ أقودهم ؟ ضد الشعب ... ولكن من هو المحق ؟ »

وراح يصر بأسنانه ، وهو ماض على حصانه إلى جانب صفوف السرايا المتراصة . لقد خبت نشوة الجبروت والسلطة من عينيه فخلّفت وراءها القلق والمرارة ، وأحنت كاهليه بكلكلها الذي لا يحتمل .

٣٧

فجّر الربيع أوردة الأنهار . وصارت الأيام أكثر صحواً ، وازدادت سيول التلال الخضر تصخاباً . واشتد وهج الشمس احمراراً ، فتلاشت ظلالها الصفر الكليلة ، وغدت أشعتها المترامية مخملية لافحة . وكانت الأرض المحروثة تنفث البخار عند الظهيرة ، وغدا الثلج الأجرد المنخور وهاجاً لا تحتمله العين . وأضحى الهواء ، وقد تشبع رطوبة ، ثقيلاً فواحاً .

أشاعت الشمس الدفء في ظهور القوزاق ، وغدت مقاعد السروج دافئة مريحة . وجعلت شفاه الريح الندية ترطب خدود القوزاق السمر ، وتحمل بين حين وآخر أنفاساً باردة من الروابي التي تجللها الثلوج . غير أن الدفء أجهز على الشتاء ، فجعلت الخيل تتراقص وتتواثب في حومة الربيع ، فيتناثر شعرها المتساقط واشتد وخز العرق في مناخيرها . وكان القوزاق قد ربطوا ذيول خيولهم الكثة ، وعلق الفرسان قلنسواتهم الوبرية على ظهورهم بعد أن انتفت حاجتهم إليها ، وتندت جباهم عرقاً تحت قبعاتهم الفرو ، وصاروا يشعرون بالحر في سترهم الفرو ومعاطفهم الملبدة بالقطن .

سارغريغوري بكتيبتيه في الطريق الصيفية . ولاحت لهم فصائل الحمر

عن بعد تصطف في تشكيلات القتال من وراء إحدى الطواحين . ثم نشب القتال بالقرب من قرية سيفريدوف .

لم يصبح غريغوري بعد قادراً على إدارة معركة من خارج صفوف المحاربين ، كما ينبغي لقائد الفرقة أن يفعل . فتولى بنفسه قيادة قوزاق فيشنسكايا إلى المعركة ، فرمى بهم في أشد المواضع خطورة . وسارت المعركة دونما قيادة موحدة . فكانت كل كتيبة تتجاهل ما توصلت إليه من اتفاق مع الكتيبة الأخرى ، وتتصرف بما تملي عليها ظروفها .

لم يكن ثمة جبهة بالمعنى المألوف للكلمة ، وهكذا غدا بالإمكان أن يلجؤوا إلى مناورات واسعة . وأفاد غريغوري من كثرة أعداد الخيالة عنده ، حيث كانوا غالبية جنود فرقته ، فعقد العزم على استغلال هذا التفوق إلى أقصى حد ، وشن الحرب بالأساليب «القوزاقية» : هجمات على الأجنحة ، تسلل إلى مؤخرة العدو ، اعتراض قوافل الشحن ، وشن غارات ليلية تشيع القلق والتحلل في صفوف الحمر .

ولكنه بدل خطته عند قرية سيفريدوف . فقادهم إلى الهجوم بنفسه في خبب سريع ، تاركاً احدى السريا مترجلة تنصب كميناً في بستان يقع عند طرف القرية ، وأرقل بالسريتين الأخريين إلى قمة التل فاستدرج العدو إلى القتال على مسافة نصف الفرسخ من الطاحونة . وكان امامه اكثر من سريتين من الخيالة الحمر . ولم يكن اولئك من قوزاق الخوبر ، اذ كان بوسعه ان يرى خلال منظاره الحربي خيولهم وقد قصت ذيولها ، فليس من عادة قوزاق الدون قط ان يفسدوا جمال خيولهم بقص ذيولها . فإما ان تكون هذه الكتيبة كتيبة الفرسان الثالثة عشرة اوغيرها من الوحدات التي وصلت لتوها .

تفحص الموضع من قمة التل خلال منظاره . وكانت الارض تبدو لعينيه من على السرج اشد اتساعاً ، وتزداد ثقته بالنفس طالما احس بمقدمتي جزمته تستقران على الركابين .

وشاهد طابوراً طويلاً يميل لونه إلى البني قوامه ثلاثة آلاف وخمسمائة

قوزاقي يزحفون إلى المرتفع في الجانب الآخر من نهر التشير ، ميممين شطر الشمال للقاء العدو الزاحف من أوست ـ ميدفيديتسا ولمساعدة قوزاق يلانسكايا الذين تعرضوا لضغط شديد .

كان على بعد فرسخ ونصف من جحافل العدو الذي راح يتأهب لشن الهجوم . فأسرع يصف سراياه على النمط القديم ، واضعاً حملة الرماح من الذين كانت عندهم رماح في طليعة الصفوف ثم هذب إلى مقدمة الجند وادار حصانه جانباً ، واستل سيفه :

ـ خبباً بطيئاً ، إلى الامام سر!

وخلال الدقيقة الاولى من الزحف علقت قدم الحصان في جحر فأر بري يعلوه الثلج فعثر من تحته . فشحب وجه غريغوري غضباً وأهوى عليه بضربة عنيفة من نصل سيفه . كان حصانه جواداً كريماً من خيل الجيش العنيفة كان قد استعاره من احد قوزاق فيشنسكايا ، ولكنه لم يكن ليطمئن اليه . فهو يعلم ان بضعة ايام لا تكفي الحصان كي يعتاد عليه . كما ان الوقت لم يتسن له للالمام بطبائعه وحيله . كان يخشى الا يفهم مركوبه الجديد قصده بلمسة هينة من العنان شأن حصانه الذي قتل في تشيستياكوفكا . لقد اهاجت الضربة الحيوان فانطلق يهذب غير آبه للعنان . فسرى البرد في اوصال غريغوري وفارقه شيء من رباطة جأشه اذ حسب انه لا يستطيع الركون إلى حصانه . ولكنه ازداد ثقة بنفسه وعاودته الطمأنينة حين تباطأ الحصان ، وجعل يحضر متمايلاً ، ويذعن اكثر فأكثر إلى يديه توجهانه بحركات لا تكاد العين تحس بها . وخفض عينيه المشرئبتين إلى صفوف العدو الزاحفة فنظر برهة إلى عنق جواده . كانت اذناه الحمراوان الداكنتان منطبقتين على رأسه بقوة وعنقه المشرئب وكأنه على النطع يختلج بانتظام . واستوى غريغوري على سرجه وعب من الهواء بنهم ، ودفع جزمته في الركاب مسافة اكثر . ثم القى نظرة إلى الخلف . كم من مرة شهد وراءه هذا السيل العرمرم من الخيل والفرسان! لطالما انتاب الخوف قلبه من الصدام المحيق ، واعتراه هياج وحشي لا

يوصف ، فبين لحظة انطلاق حصانه ولحظة دنوه من العدو لحظة خاطفة يحدث خللها تغير داخلي فيه . ففي تلك اللحظة الرهيبة يفارقه الرشد والروية والبصيرة ، وتمتلك زمام ارادته غزيزة بهيمية مستبدة . الا ان الناظر اليه في لحظة الهجوم يخال ان حركاته طوع ذهن رائق لا تعصف به العواطف ذلك لأنه يبدو واثقاً من نفسه ، مسيطراً عليها ، حاسباً للأمور حسابها .

راحت المسافة الفاصلة بين القوتين تتناقص بسرعة تريح القلب . وبدت الجياد والفرسان أكبر حجماً . وأتت حوافر الخيل على الرقعة التي تناثر عليها الثلج من الأرض المشاع بين الطرفين . فانتقى غريغوري فارساً يتقدم سريته بثلاثة أذرع . كان حصانه الضخم الكميت الداكن يجري كالذئب بخطوات قصيرة . وكان الرجل يلوح فوق رأسه بسيف من سيوف الضباط ، وقرابه الفضي يتأرجح فيدق على ركابه ويتوهج في ضوء الشمس توهجاً قوياً . وبعد لحظة استطاع غريغوري أن يعرف في شخص الرجل شيوعياً من كارغينسكايا بيوتر سميغلازوف ، كان في طليعة من عاد في سنة ١٩١٧ من الحرب الألمانية ، وكان يومئذ في الرابعة والعشرين ربيعاً ، يلف ساقيه بلفاف غريب لم ير مثيله أحد من قبل . وقد عاد معه بعقائد بلشفية وحيوية وعزم تمخضت عنهما حياته في الجبهة وقد ظل بلشفياً ، وخدم في الجيش الأحمر ، وقبيل قيام التمرد ، عاد من كتيبته لاقامة النظام السوفييتي في منطقته . وها هو يهذب باتجاه غريغوري تماماً ، واثقاً من زمام جواده ، يلوح سيفه على نحو خلاب ، ذلك السيف الذي استولى عليه عند قيامه بتفتيش منزل لأحد الضباط ، والذي لا يرجى منه خير الا في ميدان الاستعراض .

فكشر غريغوري عن أسنانه ورفع العنان ، فطاوعه الحصان وضاعف سرعته .

كان غريغوري يلجأ في العادة إلى خدعة في الهجوم . فقد كان في طفولته أعسر اليد ، يمسك الملعقة بيسراه وبها أيضاً يرسم اشارة الصليب

على نفسه ، وقد نال على يد والده ضرباً موجعاً مراراً وتكراراً ، بغية حمله على الاقلاع عن تلك العادة ، كما أن أصحابه لقبوه «غريشا اليسراوي» ولابد أن الضرب وقارس الكلام قد أثر فيه ، فما ان بلغ العاشرة من عمره حتى فارقه لقبه «اليسراوي» وعادة استعمال اليد اليسرى وحدها . على انه ظل محتفظاً بمهارتها ، وكان بوسعه أن يفعل بها ما يريد شأن يده اليمنى اضافة إلى ان يسراه كانت أقوى من يمناه . وجعل يفيد دائماً من مهارة يده اليسرى في حالات الهجوم فيلقى نجاحا أكيدا . فهو يمضي بحصانه نحو الفارس المعين من جهة اليسار كما هي العادة وذلك لكي يضرب باليد اليمنى ، اما العدو فانه يفعل الشيء ذاته . وحين تكون المسافة بينهما نحواً من عشرين خطوة ، ويكون الفارس قد مال ميلاً طفيفاً إلى جانب وهيأ السيف ليضرب به ، حينذاك يدير غريغوري حصانه بقوة نحو اليمين ، وفي ذات الوقت يحوّل سيفه إلى اليد اليسري ، فيجد العدو نفسه في موقف ضعيف حيث يضطر إلى ضرب غريغوري عبر رأس حصانه هو ، فينتابه الاضطراب اذ يحس بأنفاس الموت في وجهه . وحينذاك ينزل غريغوري سيفه على الرجل المسكين بقوة مريعة .

لقد انسلت مياه كثيرة تحت الجسور منذ تعلم غريغوري ضربة «باكلانوف» على يد تشوباتي . فالطعان بالسيف لا يتقن بالسير وراء المحراث . لقد «تمرست يد غريغوري» في مجرى حربين ، فغدا أستاذاً خبيراً في الطعان بالسيف .

لم يكن قط ليدخل معصمه في عقدة السيف وذلك لكي يسهل عليه تحويله من يد إلى اخرى بطرفة عين . وكان يدرك ان انحراف ضربة شديدة قد ينتزع السيف من يده وربما خلع رسغ يده . وكان يعرف حيلة لا يحسنها الا القلائل ، فهو يجيد الاطاحة بسلاح الخصم من يده وشل ذراعه بلمسة خفيفة من سيفه . لقد أتقن غريغوري الكثير من فن ذبح البشر بالفولاذ البارد .

سقط سميغلازوف الوسيم من على ظهر حصانه الجامح ، وانزلق من على سرجه بهدوء ويده تشد على صدره المثخن بالجراح القاتلة ، تماماً كما تسقط عصا التمارين من عمودها بضربة مائلة جانبية ، فتقع دونما ارتعاش ، ودون أن يتغير وضعها ، فتنغرز في الرمل بشكل عمودي قرب العمود الذي منه اقتطفها القوزاقي بسيفه . واستوى غريغوري للحال في سرجه انتصب واقفاً في ركابيه . وجاءه رجل آخر لا يلوى على شيء ولا يستطيع كبح جماح حصانه . وكان خطم الحيوان المزبد يحجب فارسه ، ولكن غريغوري استطاع أن يرى حد سيفه المقوس . فشد على العنان بكل ما اوتي من قوة ، وتلقى الضربة ورد عليها ، ثم لمّ العنان بيمناه وأهوى بضربة قاصمة على الرقبة القرمزية الحليفة .

كان اول من شق طريقه وابتعد بحصانه عن حشد القوزاق والحمر المختلط . وحين التفت رأى كتلة موارة من الخيالة وأحس بالحكة في راحة يده جراء توتر أعصابه . فأعاد سيفه إلى غمده ، واستل مسدسه ، وقفل يهذب حصانه بأقصى سرعة . فتدفق القوزاق وراءه صفاً متناثراً . وكان بوسعه أن يرى هنا وهناك قبعات وخوذا ذوات شرائط بيض وقد مالت على أعناق الخيل . وكان يهذب إلى جانبه عريف يرتدي قبعة من جلد الثعالب وسترة خاكي من فرو الخراف ، وقد سلخ خد الرجل وأذنه حتى أسفل حنكه ، وبدا وكأن سلة من الكرز الناضج قد تكسرت على صدره . وكان يكشر عن أسنان مدماة .

ورغم أن عزائم رجال الجيش الأحمر كانت قد تضعضعت وأوشكوا على الفرار ، فانهم تشجعوا وأداروا خيلهم لمطاردة القوزاق المتقهقرين . وقد طار قوزاقي متلكئ عن حصانه ، وكأن الريح ذرته ، فداسته حوافر الخيل في الثلج . صار القوزاق على مرأى من القرية ، وأجمة البساتين السوداء ، ومصلى على منحدر التل ، والشارع الفسيح . ولم تبق بينهم وبين السياج الذي نصب القوزاق وراءه الكمين سوى مائتي خطوة . وكان العرق والدم

يتصبب من ظهور الخيل . وفيما كان غريغوري يهذب بأقصى سرعته حاول أن يطلق النار من مسدسه بكل ما أوتي من قوة ولكن الرصاصة حشرت ، فدس المسدس العاطل في قرابه الخشبي وصرخ منذرا :

ـ افتح الصف!

فانشق تيار سرايا القوزاق المرصوص الى شطرين كتيار نهر تعترضه صخرة عاتية ، وانكشف صف خيالة الجيش الاحمر المطاردين ، فلعلعت رشقة من رصاص السرية الكامنة وراءالسياج ولعلعت ثانية ، وثالثة . وانطلقت صرخة . وتهاوى حصان وفارسه الأحمر ، وجثا آخر ودفن رأسه في الثلج . وطاح ثلاثة أو أربعة حمر من سروجهم . وحين أفلح الخيالة الحمر في كبح جماح خيلهم وداروا على أعقابهم كان القوزاق قد أفرغوا رصاص بنادقهم وخيم عليهم الصمت . وما كاد غريغوري يصرخ : «سرايا...» حتى دارت آلاف الحوافر على الأعقاب في الثلج وانطلق القوزاق يطاردون الخصم . لكنهم تعقبوا الحمر دونما حماس ، فقد هدّ التعب خيلهم . وبعد أن قطعوا مسافة فرست ونصف فرست عادوا أدراجهم . فنزعوا الملابس عن قتلى الجيش الأحمر وجردوا خيلهم الميتة من سروجها . وفتك أليكسي شامل ذو الذراع البتراء بثلاثة من الجرحى الحمر ، حيث أوقفهم ازاء السياج ومزقهم بسيفه واحدا بعد الآخر . وحين فرغ من ذلك تجمع القوزاق حول جثثهم والسكائر في افواههم ونظروا إليها مدة طويلة . وكانت الجثث الثلاث تحمل ذات الأثر : فقد شطرت الهامات من عظم الترقوة إلى الخصر .

وقال اليكسي مباهياً ، وعينه وخده يرمعان :

ـ جعلت من الثلاثة ستة .

فقدم له القوزاق الآخرون التبغ متملقين ، وراحوا يتطلعون باحترام واضح إلى قبضة يده ، التي كانت رغم صغرها صلبة كالقرع الجاف ، والى عضلات صدره المفتولة البادية من تحت قمصلته .

وقفت الجياد العرقى ترتجف عند السياج وقد جللت بالمعاطف . وشد

القوزاق أحزمة السروج وتناوبوا على البئر في طلب الماء . وقد اضطر الكثيرون إلى جر الخيل المنهكة من أعنتها .

سار غريغوري وبروخور وخمسة قوزاق آخرون في الطليعة ، وشعر وكأن عصابة قد سقطت من عينيه . وعاد من جديد يرى ، كما فعل قبل المعركة ، إلى الشمس مشرقة على الارض والى الجليد الذائب جنب أكداس القش ، وتناهت إلى سمعه تغاريد العصافير الجذلى في القرية ، واستاف أذكى روائح الربيع الماثل على اعتاب السنة . وعادت الحياة اليه بكل وهجها ، ولم تبلها الدماء التي أهرقت لتوها ، بل جعلت تغريه أكثر من ذي قبل بأفراحها الشحيحة الخداعة . فرب بقعة من الثلج تخلفت على الارض السوداء بعد الذوبان تتخايل للعين أنصع بياضا وأشد بريقا من حقيقتها...

٣٨

ماج التمرد وانتشر ، كمياه الفيضان ، وطغى على مناطق الدون جمعاء والسهب الممتد إلى شرقي الدون في رقعة قطرها اربعمائة فرست . فاعتلى خمسة وعشرون ألف قوزاقي صهوات الجياد ، وأسهمت القرى الواقعة في اقليم الدون الأعلى بعشرة آلاف من المشاة .

جرت الحرب في ظروف لم يسبق لها مثيل . كان جيش الدون الأبيض يدافع عن جبهة الدونيتس ، ويحمي نوفوتشيركاسك ويعد العدة لخوض معركة فاصلة . وقد نشب تمرد في مؤخرة الجيشين الثامن والتاسع الأحمرين فيما كانا يخوضان القتال ضد قطعات البيض ، الأمر الذي زاد مهمة السيطرة على الدون صعوبة وتعقيداً .

وفي نيسان أصبح المجلس الثوري العسكري أمام خطر اتصال المتمردين بالجيش الأبيض . فكان لزاما أن يخمد التمرد مهما كلف الثمن قبل ان يفلح المتمردون بتفتيت جبهة الحمر من المؤخرة والاندماج بجيش

الدون الابيض . فارسلت قوات ممتازة للاسهام في اخماد التمرد : قوات من بحارة أسطولي بحر البلطيق والبحر الاسود ، وكتائب مجّربة يركن اليها ، وقوات من حرس القطارات المسلحة ، ووحدات من أشد الخيالة بسالة . ونقلت من جبهة الدونيتس خمس كتائب تابعة لفرقة بوغوتشارسكايا قوامها نحو ثمانية آلاف حربة ، وبضع بطاريات وخمسمائة مدفع رشاش . وما ان حلّ شهر نيسان حتى كان منتسبو المدارس الحزبية في ريازان وتامبوف يقاتلون المتمردين بشجاعة وحمية في قطاع قازان من جبهة المتمردين ، وقد انضم اليهم بعدئذ طلبة كلية موسكو الحربية ، وكانت قوات المشاة الخفيفة اللاتفية تقاتل العصاة في شوميلينسكايا .

أما القوزاق المتردون فكانوا يعانون من نقصان المعدات الحربية . كانت البنادق تنقصهم بادئ الأمر ، ثم أعوزهم الرصاص . وبات لزاما أن يغنموا البنادق عن طريق شن الهجمات والغارات الليلية بدمائهم . وقد غنموها . فاكتمل سلاح المتمردين من البنادق في نيسان عام ١٩١٩ وأصبح لديهم ست بطاريات ومئة وخمسون مدفعا رشاشا .

كان ثمة في بداية التمرد خمسة ملايين خرطوشة فارغة في مستودعات فيشنسكايا . فعبأ لها مجلس سوفيات الاقليم* خيرة الحدادين وصانعي الأقفال وصانعي الأسلحة ، فأنشئت ورشة لسبك الرصاص ولكن لم يكن هناك رصاص تصنع منه الطلقات . وتلبية لنداء مجلس سوفيات الاقليم شرعت كافة القرى بجمع مالديها من الرصاص والنحاس . وصودرت كافة الاجزاء الرصاصية في الطواحين البخارية ، وحمل رسل خيالة نداء مقتضبا إلى القرى ، هذا نصه :

ليس لدى ، أزواجكن ، واخوانكن ، وأبنائكن ما يطلقونه من بنادقهم .

---

* وهو مجلس معاد للثورة البلشفية ، رغم هذه التسمية . المترجمون

انهم لا يجدون من ذخيرة لسلاحهم سوى ما يستطيعون أن يغنموه من العدو اللعين .

سلمن كل ما يصلح عندكن لصنع الطلقات .

انزعن الغرابيل الرصاصية من مكائن التذرية .

وفي غضون أسبوع لم تبق ماكينة تذرية بغربالها في طول الاقليم وعرضه . فقد حملت النسوة إلى مجالس السوفيات في القرى كل ما ينفع ولا ينفع ، وعمد الصبية في القرى التي دارت فيها المعارك إلى اقتلاع الرصاص من الجدران ونبش الأرض بحثا عن شظايا القنابل . ولكن حتى في غمرة ذلك النشاط لم تجمعهم وحدة الكلمة ؛ فقد ألقي القبض على بعض النساء المعوزات وأرسلن إلى مراكز المنطقة بتهمة «العطف على الحمر» وذلك لأنهن لم يشأن حرمان أنفسهن من آخر أوانيهن المنزلية . وفي تتارسكي ضرب أغنياء القوزاق الشيوخ قوزاقياً شابا عاد لتوه من كتيبته حتى سالت دماؤه ، لأنه فاه بصوت مسموع بعبارة يعوزها الحذر : «ليعطل الأثرياء انفسهم ما يملكون من مكائن التذرية . فقد تكون لديهم أسباب للخوف من الحمر أشد من خوفهم من الافلاس» .

كان الرصاص يصهر في ورشات فيشنسكايا ، ولكن الرصاصات المصنوعة كان ينقصها غلاف النيكل . الأمر الذي جعلها تذوب أيضا . فحين تطلق البنادق يطير الرصاص كرة صغيرة ذائبة من الماسورة تصحبها فرقعة عالية ولكنه لا يصيب ابعد من مئة أو مئة وعشرين خطوة . بيد أنه كان يحدث جروحا فظيعة . وكان جنود الجيش الاحمر بعد ان عرفوا كيف يصنع الرصاص يصرخون احيانا في القوزاق اثناء الاشتباكات : «رصاصكم ليس صالحا... استسلموا ، وإلا سنقضي عليكم جميعا» .

وزع الخمسة والثلاثون ألف متمرد في خمس فرق ولواء سادس خاص . وتولى غريغوري ميليخوف قيادة الفرقة الاولى ، التي كانت تعسكر

على امتداد نهر التشير وقد تحمّل قطاع الجبهة الموكل اليه وطأة هجوم القطعات الحمر التي جيء بها من خط الدونيتس الجنوبي ، ولكنه لم يفلح في صد ضغط العدو فحسب ، بل في مساعدة الفرقة الثانية التي لا يطمئن اليها كالأولى وذلك بمدها بتعزيزات من الخيالة والمشاة .

لم يفلح التمرد بالانتشار شمالا في مناطق الخوبر وأوست ـ ميدفيديتسا رغم اضطرابها . وقد وفد من هذه المناطق رسل يطلبون ارسال القوات صوب البوزولوك والأصقاع العليا من الخوبر لاثارة القوزاق هناك . ولم تجرأ قيادة القوزاق أن تجازف بالتقدم إلى ما وراء حدود اقليم الدون الأعلى ، لعلهما أن الكثرة الكاثرة من قوزاق الخوبر تؤيد النظام السوفييتي ولا تريد الانتفاض المسلح عليه . كما أن الرسل لم يبعثوا الثقة فيهم لأنهم اضطروا إلى الاقرار بأن القوزاق المتذمرين من الحمر ليسوا بالكثيرين ، وأن الضباط الذين بقوا في الزوايا النائية تواروا عن الأنظار ، وليس في وسعهم ان يجمعوا القوات الكافية لأن جنود الجبهة بين مستكين في بيته وملتحق بالقوات الحمر ، وأما الشيوخ فلم تعد لديهم السطوة ولا الاعتبار السابقان في تلك المناطق .

والى الجنوب ، في المناطق الأوكرانية ، قام الحمر بتجنيد الشباب ، الذين راحوا يقاتلون المتمردين بكل حماس . وهكذا انحصر التمرد داخل حدود اقليم الدون الأعلى . وازداد الأمر وضوحا ، يوما بعد يوم ، فأيقن المساهمون في التمرد ، قادة وجنودا ، أنهم لن يستطيعوا الدفاع عن الأهل والديار طويلا . وسيكر الحمر عليهم من جهة الدونيتس ، عاجلا أو آجلاً ، فيسحقونهم سحقا .

في ١٨ آذار استدعى غريغوري ميليخوف إلى فيشنسكايا للتشاور مع القيادة العليا . وأوكل قيادة فرقته إلى مساعده ريابتشيكوف ورحل مع مراسله في الصباح الباكر . فوصل مقر هيئة الأركان في اللحظة التي كان فيها القائد كودينوف يستجوب رسولا من قرية اليكسييفا . كان كودينوف

يجلس متكورا وراء مكتبه ، يلوي طرف حزامه القفقاسي بين يديه ، لا يرفع عينيه الوارمتين الملتهبتين بسهاد ليال متعددة .

سأل الرسول الجالس قبالته قائلا :

ـ وانتم ما رأيكم ؟ ماذا تفكرون ؟

ـ ماذا أقول ؟ وأنت تعرف حالة الناس . انهم خائفون ، يريدون الانتفاض ، ولكنهم خائفون .

فصرخ كودينوف غاضبا : « يريدون ، ولكنهم خائفون! » وشحب وجهه وراح يتململ على كرسيه وكأن المقعد يلفحه من تحت . « انكم كالبنات! يشتهين ويستحين ، وأمهاتهن يمنعهن! حسنا ، عد إلى قريتك واخبر شيوخكم أننا لن نرسل رعيلا واحدا إلى هناك حتى تبادروا أنتم . وليشنقكم الحمر واحدا تلو الآخر! » .

فدفع القوزاقي الضخم قبعته المصنوعة من فرو الثعالب إلى مؤخرة رأسه بيده الأرجوانية المرتبكة . وراح العرق يتصبب على تجاعيد جبينه كما يتدفق ماء الفيضان في المسارب ، وطرفت أهدابه القصيرة بلون الكتان مسرعة ، وكانت نظرة عينيه بسامة وكأنها تكفر عن شيء .

ـ الطاعون يضطركم إلى المجيء الينا ، اني اعرف ذلك . ولكن المسألة هي الشروع . فالشروع هو الأمر المهم...

وقف غريغوري يصغي إلى الحديث بانتباه ، ثم تنحى جانبا حين فتح الباب على حين غرة ودخل الغرفة رجل قصير القامة قليلا ، دون أن يطرق الباب ، وكان أسود العذارين يرتدي سترة من الفرو . وحيّا كودينوف بايماءة من رأسه وجلس إلى المنضدة ، مسندا خده إلى راحة يده . كان غريغوري يعرف رجال الأركان بوجوههم الا أنه لم يستطع معرفة ذلك الرجل ، فراح يحدق فيه . كانت قسمات وجهه الجميلة ، وسحنته السمراء رغم أن الشمس لم تلفحها ، وبياض يديه الناعمتين وسلوكه المهذب ، كل ذلك يدل على انه ليس من اهل المنطقة .

وقال كودينوف لغريغوري وهو يشير إلى القادم الجديد بعينيه :

ـ ميليخوف ، هذا هو الرفيق غيورغيدزا . انه ـ ثم توقف ولوى أبزيم حزامه القفقاسي الفضي ، ونهض ، والتفت إلى الرسول قائلاً :

ـ حسنا ، يمكنك أن تذهب . لدينا ما يشغلنا . عد إلى اهلك واخبر من ارسلوك بما قلته لك .

فنهض القوزاقي من على كرسيه ، فكادت قبعته تلمس السقف بفرو الثعلب الوردي الداكن المتوهج . وقد حجب منكباه العريضان الضوء فبدت الغرفة صغيرة مزدحمة .

فسأله غريغوري وهو ما يزال يحس بالنفور من مصافحته القفقاسي :

ـ جئت تطلب المساعدة :

فالتفت القوزاقي إلى غريغوري فرحا ، وعيناه تشعان بالرجاء .

ـ اي ، هو ذاك! المساعدة . ها انت ترى كيف هي الأمور...

وكان عرقه يتصبب بغزارة فبدت لحيته وشاربه الأحمر المتهدل وكأن قطرات صغيرة قد انتثرت عليهما . وكان وجهه احمر مثل فراء قبعته وبدا مرتبكا إلى اقصى حد فاستمر غريغوري بأسئلته ، متظاهرا بأنه لا يلاحظ حركات كودينوف التي تنم عن نفاد الصبر :

ـ اذا فأنتم أيضا لا يعجبكم الحكم السوفييتي ؟

فقال القوزاقي في حكمة بصوت عميق :

ـ لا يبدو أنه رديء ، أيها الأخ ، الا أننا نخشى أن يزداد سوءا .

ـ هل حصلت اعدامات عندكم ؟

ـ لا سمح الله . لا شيء من هذا القبيل . استولوا على الخيل والقمح ، وبالطبع ألقوا القبض على الناس الذين جاهروا بالعداء لهم . وهم في الواقع ينبحون أكثر مما ينهشون .

ـ لو كنا أرسلنا لكم القطعات ، فهل كنتم ستثورون ؟ جميعكم ؟

فضاقت عينا القوزاقي الصغيرتان العسجديتان بفعل الشمس ، وزاغتا

بمكر عن عيني غريغوري ، وانحدرت قبعته على جبينه المتغضّن :

ـ لا اعرف عن الجميع.. أما المزارعون الميسورون فانهم سيثورون بطبيعة الحال .

ـ وماذا عن الفقراء ؟

وأفلح غريغوري أخيرا باقتناص نظرته ، وكانت لحظة ذاك طافحة بدهشة طفولية مخلصة .

ـ تقصد الصعاليك ، لماذا يثورون بحق الشيطان ، هذه هي الحكومة التي يريدونها ، انهم في عيد سعيد .

فهدر كودينوف بغضب لم يستطع كتمانه :

ـ اذاً ، ماذا كنت تقول طوال الوقت ، يا ابله ؟ علام جئت هنا ؟ أين هي ثورتكم ؟ أم تراكم أثرياء جميعا ؟ ان اثنين أو ثلاثة مزارعين أثرياء لا يمكن أن يقوموا بثورة . أخرج من هنا! ان اردافكم لم تشبع ضربا بعد ، ولكن حين تنالون كفايتكم من الضرب ستشبون كالخيل دون مساعدتنا . لقد اعتدتم على القاء المهام الدونية على كواهل غيركم ، وتعيشون أنتم بسلام ، يا خنازير ، أخرج ، ان مرآك يثير فيّ الغثيان!

فعبس غريغوري وأشاح بوجهه . وغدت البقع الحمر على وجه كودينوف داكنة . وراح غيورغيدزا يفتل شاربه ، ومنخرا أنفه الكبير المعقوف يرمعان .

فقال القوزاقي وهو يخلع قبعته :

ـ يؤسفي أن يكون الأمر كذلك . ولكن لا داعي لصياحك فيّ ، يا صاحب السعادة . جئتك برسالة شيوخنا وسأبلغهم بجوابك . ولكن لا داعي لصياحك . كان البيض يصيحون فينا ، ثم أعقبهم الحمر ، وها قد بدأتم أنتم ، آه ، ما أشق حياتنا حياة الفلاحين هذه الأيام .

وأعاد قبعته الفرائية إلى رأسه بغضب شديد ، ثم دفع نفسه إلى المجاز ، وأغلق الباب وراءه بهدوء . ولكن ما أن أصبح خارج الغرفة حتى

استبد به الحنق فصفق الباب الخارجي بشدة جعلت الطلاء يتساقط من السقف .

وحين غادرهم الرجل قال كودينوف باسما وقد استعاد هدوءه بسرعة وما يزال يلوي طرف حزامه بين يديه :

ـ عجيب أمر الناس هذه الأيام! كنت في ربيع عام ١٩١٧ ذاهبا إلى القطار في عربة ، وكان ذلك موسم الحراثة ، حوالي عيد الفصح . كان اولادنا القوزاق الأحرار منهمكين في الحراثة ، وقد أفقدتهم حريتهم الصواب فراحوا يحرثون حتى الطريق وكأن أرضهم لا تكفيهم . ناديت قوزاقيا كان يحرث الطريق ، فجاء إليّ . سألته : «أنت ، يا هذا ، علام تحرث الطريق ؟» فانتابه الفزع ، وأجاب : «لن أفعل ذلك ثانية ، سأمهد الطريق من جديد» . وقد أرعبت اثنين أو ثلاثة على هذا النحو . ولكني وجدت الطريق محروثا من جديد على مبعدة من هناك فرأيت الرجل الذي فعل ذلك بمحراثه . ناديته : «أنت . . تعال هنا!» وجاء اليّ ، فصحت : «من الذي أعطاك الحق في حراثة الطريق بحق الشيطان ؟» فجعل يحدق فيّ (وكان قوزاقيا ضخما له عينان فاتحتان) ثم استدار دونما كلمة وركض إلى ثوريه ، فالتقط قضيبا من الحديد وجرى عائدا ، فأمسك بجانب الرفرف ووضع قدمه على المرقاة ، وصاح : «من أنت ؟ والى متى تستمرون على امتصاص دمائنا ؟ اني مستعد لأن أقلع رأسك في الحال» . ثم رفع القضيب ، فقلت له : «هون عليك يا ايفان ، كنت أمزح فقط» . فأجاب : «لم أعد الآن ايفان بل ايفان أوسيبوفتش* ، وان لم تستطع مخاطبتي حسب الاصول فسأحطم وجهك!» وتملصت منه بجهد . وكذلك هو الحال مع هذا القوزاقي الآن : انه يتذلل ويتمخط ، وفي نهاية الأمر يكشف لك عن حقيقة خلقه . لقد استعاد الناس كبرياءهم .

---

* ومعناه ايفان بن أوسيب وهي طريقة للمخاطبة يراد بها الاحترام . المترجمون

وقال الضابط القوزاقي بهدوء تام :

ـ لقد طغت عليهم سفاهتهم ، لا الكبرياء . لقد باتت ، السفاهة خلقاً مشروعاً .

ولم يتريث كيما يتسنى لأحد معارضته ، فأغلق الموضوع بقوله :

ـ لنبدأ المؤتمر من فضلكم . أريد أن أعود الى كتيبتي هذا اليوم .

فنقر كودينوف على الحائط ونادى سافونوف ، ثم التفت الى غريغوري قائلاً :

ـ ابق هنا ، سنتشاور كلنا . أنت تعرف المثل القائل : «رأسان خير من رأس واحد» . إنه لمن حسن حظنا أن الرفيق غيورغيدزا قد تخلّف في منطقة فيشنسكايا وسيكون بوسعه أن يساعدنا . انه مقدم وقد درس في أكاديمية عسكرية .

فسأل غريغوري غيورغيدزا ، وقد اعتراه شعور خفي بالنفور والحذر لسبب ما :

ـ كيف دبرت بقاءك في فيشنسكايا ؟

ـ أصبت بالتيفوس ، فتركوني في احدى القرى حين بدأ التقهقر في الجبهة الشمالية .

ـ في اي كتيبة كنت ؟

ـ لم اكن في خط الجبهة ، كنت ملحقا بأركان مجموعة خاصة .

ـ اي مجموعة ؟ تحت قيادة الجنرال سيتنيكوف ؟

ـ لا...

وكان بود غريغوري أن يمضي في استجوابه ، غير أن التوتر الذي بدا على وجه القفقاسي دفعه إلى الحذر من مواصلة الاستجواب فتوقف قبل أن يتم جملته .

وبعد دقيقة أو اثنتين دخل رئيس الأركان سافونوف ، وقائدا الفرقة القوزاقية الرابعة واللواء السادس الخاص ، فابتدأ المؤتمر . وأوجز لهم

كوديئوف الوضع في الجبهة . وكان القفقاسي أول المتحدثين . فنشر خارطة على المنضدة متهملا وراح يتحدث بلباقة واعتداد تشوب كلامه رطانة خفيفة :

ـ قبل كل شيء ، أرى من الضرورة المطلقة أن نرمي بعضا من احتياطيي الفرقتين الثالثة والرابعة في القطاع الذي تحتله فرقة ميليخوف واللواء الخاص . وعلى ضوء المعلومات المتوفرة لدينا ، واستنادا إلى افادات الأسرى ، يبدو واضحا كل الوضوح أن القيادة الحمراء تعد العدة لشن هجوم كبير على هذا القطاع بالذات . كما علمنا أنهم سيرسلون كتيبتين من الخيالة ، وخمس مفارز خاصة مع ثلاث بطاريات ومفارز رشاشات ملحقة بها . وهذا يضيف إلى قواتهم نحواً من خمسة آلاف وخمسمائة رجل على وجه التقريب . وفي تلك الحالة سيتوفر لديهم التفوق العددي ناهيك عن التفوق في السلاح .

كانت أشعة الشمس الصفراء تتدفق إلى الغرفة من الجنوب . وتحت السقف سحابة زرقاء هامدة من دخان التبغ . ورائحة التبغ المحلى تختلط بنتانة الأحذية الرطبة . وراحت ذبابة تطن يائسة في موضع ما تحت السقف ، وقد اختنقت بالدخان . سرّح غريغوري نظره خارج النافذة بكلال وقد اشتدت به الحاجة للنوم اثر ليلتين من السهر ، وسرى الخدر إلى عزيمته ووعيه تحت وطأة الحرارة الزائدة في الغرفة وبفعل ما يشعر به من كلال . كانت نسائم الربيع الخفيفة تتراقص خارج النافذة ، وبقايا الثلوج تتألق بوميض وردي على سفوح التلال ، وأشجار الحور تتمايل وراء الدون وتهتز في مهب الريح حتى خيل اليه وهو يراقبها أنه يسمع حفيفها العميق الذي لا ينقطع .

أثار صوت القفقاسي الواضح اللجوج انتباهه ، فحمل نفسه على الاصغاء وتلاشى نعاسه دون أن يشعر بذلك .

ـ ان نشاط العدو الذي عراه الضعف في الجبهة التي تدافع عنها الفرقة الأولى وجهوده الحازمة للتقدم على خط ميكولينسك ـ ميشكوف يحملان

النذير ويستوجبان الاحتراس من جانبنا . يلوح لي... ـ وهنا تلعثم اذ قال : «ايها الرفاق» ، وشرع يلوح بعنف يديه الشبيهتين بأيدي النساء ، ورفع صوته : ـ يلوح لي ان كودينوف وسافونوف يرتكبان خطأ جسيما في الحكم على مناورات الحمر من مظهرها ، وفي اقتراحهما بوجوب اضعاف القطاع الذي يسيطر عليه ميليخوف . فمن أبجدية علم الستراتيجيا ايها السادة إن تستدرج قوات عدوك إلى موضع ما بغية قذف قواتك في هجوم على القطاع الذي حل فيه الضعف...

فقاطعه كودينوف قائلا :

ـ ولكن ميليخوف ليس بحاجة إلى كتائب الاحتياطية .

ـ على العكس! ينبغي تهيئة قوات احتياطية بغية سد أية ثغرة يمكن للعدو أن يفتحها .

فقال غريغوري وقد تفاقم غضبه :

ـ يبدو لي أن كودينوف لا ينوي استشارتي حول رغبتي في تسليم الاحتياطي الذي لديّ أم لا . ولكنني لم أتخل عن الاحتياطي التابع لي ، ولا سرية منه!

فشرع سافونوف يتكلم ، وهو يبتسم ويمسد عذاريه الأصفرين :

ـ ماذا ، أيها الأخ ، ان ذلك...

ـ لا دخل للأخوة في هذا . لن أسلمها ، وهذا كل ما عندي من قول .

ـ من وجهة النظر الستراتيجية...

فانتهز غريغوري :

ـ دعك من وجهة النظر الستراتيجية هذه . أنا المسؤول عن قطاعي وعن رجالي .

وأنهى غورغيدزا الخلاف الذي نشأ فجأة على هذه الصورة . فحدد على الخارطة بقلمه الأحمر القطاع المعرض للخطر من الجبهة . وحين مالت الرؤوس على الخارطة سوية بدا واضحا لهم جميعاً أن أي هجوم تعده القيادة

الحمراء لا يمكن أن يأتي الا في القطاع الجنوبي ، وذلك لقربه من الدونيتس ولأفضليته من ناحية المواصلات .

وانتهى المؤتمر في غضون ساعة . وفي آخر الأمر تلفت كوندارت ميدفيديف حوله بتجهم وهو قائد الفرقة الرابعة الكئيب شبه الأمي الذي لزم الصمت طوال النقاش ، ثم قال :

ـ بوسعنا ارسال الاحتياطي لاسناد ميليخوف ، فلدينا وفرة من الرجال . ولكن شيئا واحدا لعينا ما فتئ يضايقني ، لنفرض أنهم هاجمونا على كافة القطاعات في وقت واحد ، فماذا نفعل آنذاك ؟ سيكوموننا واحدا فوق الآخر ونقع في ورطة ، مثل أفاع حصرت في جزيرة .

فقال بوغاتيريف قائد اللواء السادس الخاص ضاحكا :

ـ بوسع الأفاعي أن تسبح ، أما نحن فليس لدينا مكان نسبح اليه .

فقال كودينوف مفكرا :

ـ أخذنا هذا أيضاً في الحسبان . ولكن اذا ما طرأت هذه الحالة فيجب أن نترك وراءنا كافة العاجزين عن حمل السلاح ونترك عوائلنا كذلك ، ونشق طريقنا إلى الدونيتس بالسلاح . فلسنا قوة صغيرة ، ثلاثون ألفا .

ـ ولكن هل سيقبلنا الكاديت ؟ ان لديهم حسابات قديمة يريدون تصفيتها مع قوزاق الدون الأعلى!

فقال غريغوري : ـ لا تحص دجاجك... لا فائدة من الحديث على هذا النحو!

ثم ارتدى قبعته وخرج . وفيما كان يغلق الباب سمع جواب غورغيدزا وهو يلف الخارطة :

ـ سيكفر قوزاق فيشنسكايا وكافة قوات الثوار عما ارتكبوا بحق الدون وروسيا من ذنوب اذا ما استمروا على قتال البلاشفة برجولة...

فقال غريغوري في دخيلة نفسه : «وهذا ما يقوله ، ولكنه يُبيّت أمراً ، يا له من ثعبان!» وعاوده ما انتابه لحظة تعرفه على هذا الضابط من شعور بالقلق الخفي والغيظ الذي لا يجد له سببا .

وعند البوابة ادركه كودينوف ، فسارا دقيقة أو اثنتين دون ان يتجادلا كلمة واحدة . وكانت الريح تعبث بالبرك في الساحة المتسخة بالروث . وكان الغروب وشيك الحلول ، واقبلت سحب صيفية شهب ، منتفخة ثقيلة ، تعوم من الجنوب كالبجع . وكانت الارض التي ذاب عنها الجليد تعبق بالطب والحياة . واطل الحشيش اخضر تحت الاسيجة ، واذا بغريغوري يستطيع أن يسمع الحفيف المثير . ترسله اشجار الحور من وراء الدون تنحنح كودينوف وقال :

سيتكسر الجليد عما قريب .

ـ اجل .

ـ اللعنة... سنموت دون ان ننعم بالدخان . ان حفنة من التبغ البري يكلف الآن اربعين روبلا من روبلات كيرنسكي .

فسأله غريغوري بحدة :

ـ اسمع! هذا الضابط الجركسي ماذا يفعل هنا ؟

ـ أتعني غورغيدزا ؟ انه رئيس دائرة الحركات . شيطان كبير الدماغ! وهو الذي يرسم كل الخطط . وهو يتفوق علينا في فن الستراتيجيا جميعا .

ـ أهو مقيم في فشنسكايا دائما ؟

ـ كلا . نسبناه إلى قافلة الشحن التابعة لكتيبة تشيرنوفسكي .

ـ كيف يسعه اذاً ان يبقى على صلة بالاحداث ؟

ـ انه يأتي إلى فيشنسكايا دائما . كل يوم تقريبا .

فسأل غريغوري جاهدا ان يتوصل إلى جوهر القضية :

ـ لماذا لا تبقيه هنا ؟

فتنحنح كودينوف وغطى فمه بيده . ثم اجاب على مضض :

ـ لا يستحسن ذلك امام القوزاق . أنت أدرى بحالهم . إنهم سيقولون : «ها قد اعتلى الضباط السرج وراحوا يسوقوننا امامهم . الشارات الذهبية عادت إلى الاكتاف ثانية ؟» .

ـ أهناك غيره في قواتنا ؟ .

ـ هناك اثنان أو ثلاثة في كتيبة كازانسكايا . ولكن لا تدقق كثيرا . انا اعرف ما يدور في افكارك . ولكن ليس لنا ملاذ سوى الكاديت ، يا ولدي . اليس كذلك ؟ ام تراك تفكر بانشاء جمهورية صغيرة من مقاطعاتك العشر ؟ كلا ، سيكون لزاما علينا ان نذهب إلى كراسنوف بروؤس مطأطأة ، وعلينا ان نقول له : لا تُدنّا ، يا بيتور نيكولا يفتش ، لقد ضللنا الطريق قليلا حين تركنا الجبهة .

فقاطعه غريغوري قائلا :

ضللنا الطريق ؟

فأجابه كودينوف بدهشة صادقة ، وهو يتحاشى بركة بكل عناية :

ـ حسناً ، ألم نضل الطريق ؟

ـ فهمت القصد... ـ وتورد وجه غريغوري وابتسم مكرهاً ، وأردف : ـ اظن اننا ضللنا الطريق يوم بدأنا التمرد . اما سمعت ما قاله قوزاقي الخوبر ذاك ؟

فلزم كودينوف الصمت ومضى يحدق في وجه غريغوري بفضول .

وافترقا عند مفرق طرق وراء الساحة ، فذهب كودينوف الى مسكنه وعاد غريغوري إلى مقر الأركان وامر مراسله ان يأتي بالحصانين . وحين مضى في طريقه ، يرخي العنان رويدا رويدا ظل يحاول ادراك السبب الذي بعث في نفسه شعور العداء والحذر ازاء القفقاسي . وعلى حين غرة صفا ذهنه وتساءل في دخيلة نفسه برعب : «ماذا لو ان الكاديت تركوا هؤلاء الضباط المثقفين معنا عن قصد ليثيروا التمرد في مؤخرة الحمر ويجرونا وراءهم ؟ » وسرعان ما قدمت ذاكرته الدليل لدعم ما توصل اليه من نتائج : «لم يشأ ان يقول لي من اية كتيبة كان . قال انه ملحق بالاركان ، ولكن لم تمر اية هيئة اركان في هذه الانحاء . واي شيطان ذهب به إلى دودوريفكسي ، تلك القرية الصغيرة القصية ؟ آه ، واضح اننا اوقعنا انفسنا في ورطة رائعة! شد

علينا المثقفون العنان! اوقعنا السادة في شباكهم ، قيدوا حياتنا وراحوا يستخدمونها لتنفيذ مآربهم . ليس بوسع المرء ان يطمئن إلى أحد أبداً...» .

وما ان عبر الدون حتى ارسل جواده في حضر سريع ، وهب مراسله من ورائه فراح السرج يصر من تحته ، وكان هذا جنديا طيبا وقوزاقيا شجاعا . اصطفى غريغوري رجالا على هذه الشاكلة للسير وراءه لاقتحام الصعاب ، فاحاط نفسه برجال كهؤلاء عركوا الحرب الالمانية . ولزم المراسل ، وهو كشاف سابق الصمت طوال الطويق ، وكان يشعل السكائر وهو منطلق على جواده . وحين دخلا احدى القرى نصح غريغوري قائلا :

ـ اذا لم يكن هناك من داع للعجلة ، فلنتوقف ونقضي الليلة في مكان ما . فالجوادان منهكان وستريحهما هذه الوقفة .

أمضيا ليلتهما في احدى القرى . وبدا الكوخ المتداعي ذو الحجرتين حنونا مريحا دافئا غب زمهرير السهب . كانت ارضه الترابية تبعث صنانا مالحا من بول العجول والماعز ، والموقد يفوح برائحة الخبز الندي المحترق الذي يخبز على اوراق اللهانة . وراح غريغوري يجيب مكرها على استفسارات العجوز القوزاقية . وكانت قد ودعت ابناءها الثلاثة وزوجها الذين انضموا إلى المتمردين . وكان لها صوت رجولي عميق ، وابتعدت تخاطب غريغوري بخشونة :

ـ قد تكون ضابطا وقائدا للحمقى القوزاق ، ولكن لا سلطان لك علي ، انا العجوز التي في عمر امك . كلمني ارجوك . ها انت ذا جالس تتثاءب ، احسب انك لا تريد التحدث إلى امرأة! انا ارسلت إلى حربكم الاثيمة اولادي الثلاثة ، ورجلي الشيخ كذلك . انت تقود ابنائي ، ولكني انا التي ولدتهم ، وارضعتهم ، وربيتهم ، وحملتهم إلى الحقول في اعطاف تنورتي . ولم يكن ذلك بالامر الهين . فلا تشمخ بأنفك ، وقل لي : هل سيحل السلام عما قريب ؟

ـ عما قريب! . الآن كان يجب ان تكوني في فراشك ، ايتها العجوز...

ـ عما قريب! ولكن متى سيكون هذا القريب ؟ اياك ان تحاول دفعي

إلى الفراش ، انا سيدة هنا ، لا انت . يجب علي ان اخرج لأعنى بالماعز والحملان . ندخلها هنا في الليل ، فهي ما تزال فتية . هل سيحل السلام قبل عيد الفصح .

ـ حين نطرد الحمر سيحل السلام .

فقالت العجوز : «لا يا هذا!» ثم القت على ركبتيها العجفاوين يديها وقد تورم معصماهما وتقوست اصابعهما من الكدح والروماتزم ، ولاكت شفتيها الذاويتين الداكنتين بمرارة واضافت :

ـ أي شيء فعل بكم الحمر ، بحق السماء ؟ علام تحاربونهم ؟ الناس جنوا تماما . أتحسبونها لعبة اذ تطلقون النار من بنادقكم . وتختالون على صهوات جيادكم ، ولكن ماذا عن معشر الامهات ، انهم اولادنا الذين يقتلون ، اليس كذلك ؟ ابتدعوا حروبا .

فهدر مراسل غريغوري غاضباً ، وقد أثار أعصابه كلام العجوز :

ـ اولسنا ابناء لأمهاتنا ؟ من نحن... ابناء قحاب ؟ انهم يقتلوننا ، وانت تقولين «نتخطر على صهوات جيادنا» . وهل امر الابناء اهون من امر الامهات ؟ لقد عشت حتى المشيب ، ولكن ها انت تثرثرين ولا تدعين أحداً ينام .

فانتهزته العجوز قائلة :

ـ نم ، نم ، ايها الاحمق اللعين! علام انفجرت ؟ لائذ هناك بصمت الجب ، ثم تنفجر هكذا بغتة! حتى بح صوتك!

فتوجع المراسل يائساً : «لن نذوق نوماً مع هذا اللسان ، يا غريغوري بانتلايفتش» . ثم اشعل سيكارة ضاربا الزناد بشدة اطارت منه رشاشا من الشرر .

ـ انت مضجرة كالزنبور ، ايتها المرأة . احسب ان رجلك الشيخ ستغمره السعادة ان اصابته طلقة . سيقول لنفسه : الحمد لله ، تخلصت من امرأتي العجوز .

ـ سد فمك يا لعين!

ـ نامي يا عجوز! سهرنا ثلاث ليال . نامي بحق الرب!

ثم ارغمهما غريغوري على التفاهم . وحين استسلم للرقاد على الارض ، راقه الدفء الحامض المنبعث من فروته . وسمع الباب يصفق ـ فأحست ساقاه بتيار من الهواء البارد . وثغا خروف عند اذنه بصوت عال . وراحت اظلاف الجداء الصغيرة تخبط الارض ، واستاف منخراه رائحة بهيجة تنبعث من القش الغض ، وحليب الضأن الجديد ، والتلج ، تلك الرائحة التي تتميز بها زريبة الماشية...

استيقظ عند منتصف الليل ولبث راقدا مفتوح العينين . كان الفحم يرسل بصيصا خابيا من تحت رماده البني من الموقد . ورقدت الخراف متزاحمة حول الموقد ، ومن خلال السكون اللطيف الذي خيم في منتصف الليل ، استطاع أن يسمع الخراف تجتر وهي نعسى وتزنخر وتعطس بين آونة وأخرى . وأطل بدر تمام خلل النافذة من بعيد ، وفي مربع ضوئه الأصفر راح جدي نشط اسود يتواثب ويرفس فيثير غباراً لألاءً . وبدا الكوخ في ضوئه الأزرق المصفر وكأنه في وضح النهار وكانت كسرة من مرآة تتلألأ على طنف الموقد ، واطار أيقونة فضي يرسل وميضا معتماً في احدى الزوايا . وعادت أفكار غريغوري إلى مؤتمر فيتنسكايا من جديد ، إلى الرسول القادم من منطقة الخوبر والى المقدم القفقاسي . وحين تذكر المقدم بمظهره وأسلوب حديثه المهذبين غشيه قلق ممض . ومشى الجدي على فروته ثم على بطنه وتلفت فيما حوله ببلادة مدة طويلة ، وهز اذنيه ، ثم تجرأ وقفز مرة أو مرتين وباعد بين ساقيه فجأة فانصب سيل رفيع على الراحة الممدودة لمراسله النائم بجانبه . فأنَّ الرجل وأفاق وراح يمسح يده على سرواله : ـ بللني! لعنة الله عليه! ابتعد عني . ـ ثم نقفه بالاصبع على جبينه في متعة ، فقفز من على فروته ، وهو يرسل ثغاء حادا ، ثم تقدم إلى غريغوري وجعل يلحس يده بلسانه الخشن الصغير الدافئ .

التحق شتوكمان وكوشيفوي ، واياقان اليكسييفتش ، وبضعة قوزاق آخرون (ممن عمل في الميليشيا) بكتيبة زامورسكي الحمراء الرابعة بعد فرارهم من تتارسكي . كانت هذه الكتيبة قد انضمت في مطلع عام ١٩١٨ إلى احدى وحدات الجيش الأحمر وهي في طريق عودتها من الجبهة الألمانية ، وكانت ما تزال محافظة على قواها الأساسية بعد ثمانية عشر شهرا من القتال الذي خاضته في جبهات الحرب الأهلية . وكانت الكتيبة مجهزة أفضل تجهيز ، خيلها مطواعة حسنة التدريب ، وقد ذاع صيتها لكفاءتها الحربية ومعنوياتها العالية وبسالتها .

وحين اندلع العصيان استطاعت كتيبة زاموسكي ان تحول دون زحف المتمردين نحو اوست ـ ميدفديتسا لا تساندها في ذلك الا كتيبة موسكو الأولى للمشاة ، ثم وصلت التعزيزات فاحتلت الكتيبة على نحو منظم قطاع أوست ـ خوبر سكايا على امتداد نهر كريفايا .

وفي أواخر آذار اضطر المتمردون على وحدات الجيش الاحمر على الانسحاب من يلانسكايا ، بعد ان استولوا على عدد من القرى الواقعة في منطقة أوست ـ خوبرسكايا ، وقد تغير ميزان القوى اثر ذلك فبقيت الجبهة على حالها زهاء الشهرين . وقام فوج من كتيبة موسكو باحتلال قرية كروتوفسكي الواقعة على الدون بمساندة احدى البطاريات ، بعد ان طوقا الجناح الغربي لأوست ـ خوبر سكايا . ومن المرتفع الممتد على الضفة اليمنى من كروتوفسكي راحت البطارية الحمراء تساند مشاتها فتقصف ، من مكمنها في ساحة لدرس الحبوب ، قطاعات المتمردين التي احتشدت على التلال الواقعة على الضفة اليمنى ، كل يوم من الصباح حتى المساء ، وتحوّل نيرانها ، بين الحين والحين صوب يلانسكايا عى الجانب الآخر من الدون . وجعلت نفثات صغيرة من الدخان تتفجر عالية وواطئة فوق الكتل المتراصة

من الأفنية والبيوت . وكانت القذائف تسقط على القرية أحيانا فتجعل الناس والماشية يهرعون في الشوارع وقد استبد بهم رعب مخبول ، وكانت القذائف تنفجر أحياناً على الكثبان الرملية المهجورة الواقعة وراء المقبرة ، فتتطاير عاليا كتل من التربة التي مازالت متجمدة .

في ١٥ آذار حين بلغ شتوكمان وايفان وميشا أن سرية تتألف من الشيوعيين وأعضاء مجالس السوفييت الذين فروا أمام المتمردين ، يجري تشكيلها في أوست ـ خوبر سكايا ، ذهبوا للانضمام إليها . وقد اكتروا زحافة ساقها بهم قوزاقي من شيعة المؤمنين القدامى له وجه طفولي متورد نظيف مما جعل شفتي شتوكمان تختلجان بابتسامة وهو ينظر اليه . ورغم ان القوزاقي لم يتخط شبابه فقد كانت له لحية هائلة شقراء مجعدة ، وبدا فمه المتورد غضا كشريحة من البطيخ الأحمر ، ونبت على وجنتيه زغب ذهبي اللون ، وكانت عيناه تومضان بزرقة شفافة غريبة يصعب على المرء أن يتبين ما اذا تأتت عن انعكاس ألوان لحيته الكثة أو بشرته الوردية .

مضى ميشا يترنم طوال الطريق بأغنية مع نفسه ، أما ايفان اليكسييفتش فكان جالسا في مؤخرة الزحافة وبندقيته على ركبته ، يتململ بكآبة ، فيما راح شتوكمان يحادث السائق ، فتساءل :

ـ لعلك تشكو من صحتك ، أيها الرفيق ؟

فافتر المؤمن القديم الذي يطفح قوة وعافية عن ابتسامة دافئة ، وقال :

ـ كلا ، والحمد لله! علام أشكو ؟ لم يسبق لفرد من شيعتنا أن دخن سيكارة قط . اننا نشرب الفودكا الصرف ونأكل خبز القمح الجيد طوال عمرنا . فمن أين يأتينا المرض ؟

ـ هل كنت في الجيش ؟

ـ فترة قصيرة . جندني الكاديت .

ـ لمَ لم تذهب معهم إلى الدونيتس ؟

ـ انت تسأل أسئلة غريبة ، أيها الرفيق ـ ثم ألقى الأعنة المجدولة من

شعر الخيل ، وخلع قفازه ليمسح فمه ، مقطبا حاجبيه وكأنه أحس باساءة وجهت اليه ، وأردف : ـ لماذا ينبغي أن اذهب إلى هناك ؟ كنت سأرفض الخدمة في صفوفهم لولا أنهم أرغموني على ذلك . ان حكومتكم عادلة سوى انكم اخطأتم قليلاً .

ـ كيف ؟

ولف شتوكمان سيكارة وأشعلها ، ولبث مع ذلك ينتظر الجواب .

فقال القوزاقي مشيحا بوجهه عن السيكارة :

ـ علام تحرق هذه الخضرة ؟ انظر ، ما أنقى هواء الربيع من حولنا ، وها أنت تتلف رئتيك بدخانك الكريه . سأقول لك اي خطأ ارتكبتم . أثقلتم على القوزاق وارتكبتم أخطاء عديدة ، ولولا ذلك لبقيت حكومتكم راسخة إلى الابد . ان في صفوفكم كثيرا من الحمقى ، ولهذا السبب تواجهون هذا التمرد .

ـ ما وجه أخطائنا ؟

ـ انك تعرفها كما اعرفها أنا... أعدمتم الناس . فاليوم تدور الدائرة على هذا وغدا على ذلك . فمن يرتضي أن ينتظر حلول دوره مكتوف اليدين ؟ حتى الثور يهز رأسه اذا ما هممت بذبحه . خذ قرية بوكانوفسكايا تلك مثلا . أترى الكنيسة حيث أشير بسوطي ؟ حسنا ، كان فيها قوميسار ، اسمه مالكين . هل عامل الناس بالعدل ؟ دعني أخبرك . لقد ساق الشيوخ إلى خارج القرية ، وذهب بهم إلى أجمة ، ثم انترع أرواحهم من أبدانهم ، ورفض السماح لأهليهم أن يدفنوهم . وكل جريرتهم أنهم انتخبوا في يوم من الأيام قضاة فخريين . وهل تدري أية قضاة كانوا ؟ ان الواحد منهم لا يستطيع أن يكتب غير اسمه ، أما الثاني فيغمس اصبعه في الدواة ، وكل ما يفعله الثالث هو أن يرسم شارة الصليب . ان أفضل ما فيهم لحاهم الطويلة ، سوى أنهم كانوا يغفلون عن تزرير فتحات سراويلهم ، لكبر سنهم . كانوا أشبه بالأطفال . أما مالكين ذاك فقد كان يتحكم في أرواح الناس وكأنه الرب...

وذات يوم كان شيخ مارا عبر الساحة يحمل مقودا ليربط فرسه ، فنادى وراءه الصبيان مازحين : «اسمع ، القوميسار يناديك» . فرسم الشيخ على نفسه اشارة الصليب الهرطقية (فكل الناس هناك من شيعة المذهب الجديد) وخلع قبعته وهو ما يزال على مبعدة من الباب . ثم دخل وأوصاله كلها ترتعد ، وتساءل : «هل أرسلتم في طلبي ؟» فاذا بالقوميسار يجيبه ضاحكا : «كلا ، لم يطلبك أحد ، ولكن ما دمت قد أتيت فينبغي ان تنال ما ناله غيرك . خذوه إلى الخارج ايها الرفاق!» حسنا ، أخذوه بالطبع ووضعوه ازاء الحائط . وظلت امرأته العجوز تنتظر ، ولكنه لم يرجع اليها قط . فقد رحل إلى ملكوت السماء . وقد يقع بصر مالكين هذا في الشارع على شيخ آخر من قرية أخرى فيناديه قائلاً : «من أين أنت ؟ ما اسمك ؟» ثم يزنخر قائلا : «ان لك لحية تشبه ذيل الثعلب ، انك أشبه بالقديس نيقولاي . سنصنع منك صابونا» ثم يأمر رجاله : «خذوه!» فيعدمونه لا لشيء إلا لأن لحيته طويلة ولأن القوميسار صادف أن رآه في لحظة نحس . أوليس ذلك انتهاكا لحرمة الناس ؟

كان ميشا قد توقف عن الترنم بأغنيته حالما بدأ الرجل قصته ، وعندما انتهى قال له بغضب :

ـ أكاذيبك غير محبوكة ، يا رجل!

ـ لابد أن أكاذيبك أحسن! تحقق من الامر قبل ان تصفها بالأكاذيب . وحينذاك يمكنك ان تتكلم!

ـ وانت على ثقة من صحة كل ما قلت ؟

ـ كل الناس يتحدثون في ذلك .

ـ الناس! قد يقول الناس ان بوسعك أن تحلب الدجاج ، ولكن ليس للدجاج ضروع كما تعلم . لقد اصغيت إلى الاكاذيب ، وها هو لسانك لا يكف عن الحركة كأنه لسان امرأة .

ـ كان الشيوخ مسالمين .

فهزأ ميشا به قائلاً :

ـ مسالمين! أغلب الظن أن شيوخك المسالمين أولاء قد ساعدوا على اثارة التمرد ، وربما دفن قضاتك الرشاشات في أقنية دورهم ، ثم تقول انهم أعدموا بسبب لحاهم أو على سبيل المزاح . لماذا لم يعدموك أنت ؟ ان لحيتك بطول لحية تيس هرم .

فدمدم المؤمن القديم قائلا بارتباك : «لم أقل الا ما طرق سمعي . من يدري ربما كان الناس كاذبين ، ربما ارتكب الشيوخ الأذى بحق الحكومة الجديدة» . ثم وثب من سلة الزحافة وجعل يسير على جانب الطريق ، وقدماه تزلقان وتخشخشان على الثلج الهش المائل إلى الزرقة . وكانت الشمس تغدق على السهب فيضا من أشعتها ، والسماء اللازوردية الأسيلة تحتضن في طوقها الهائل التلال والوديان النائية المتداخلة ، كان حفيف النسيم يحمل أثرا من أنفاس الربيع الوشيك المعطرة . والى الشرق ، من وراء السلسلة المتعرجة لتل الدون ، ارتفعت ذروة التل المطل على اوست ـ ميدفيديتسكايا في كنف من ضباب ليلكي . وكانت تحف بالافق سحب بيض منفوشة ترامت فوق الارض مثل لحاف هائل وثير .

وثب السائق إلى داخل العربة والتفت إلى شتوكمان وعلى محياه تعبير أشد صرامة ، واستأنف الحديث قائلا :

ـ لي جد ما يزال حيا ، له من العمر مائة وثمانية أعوام كما يقولون ، أخبره جده أنه في أثناء حياته ، اي حياة جد جدي ، أرسل القيصر بطرس أميرا إلى دوننا الأعلى (وكان اسمه لينوروكوف أو دولكوروكوف) فانطلق هذا الأمير بجنده من فورنيج وأعمل النهب في قرى القوزاق لأنهم رفضوا تقبل المذهب اللعين الذي جاء به البطريق نيكون ولأنهم رفضوا خدمة القيصر . وراحوا يمسكون بالقوزاق ويشرّحون أنوفهم ، ويشنقون بعضهم ، ثم يرسلونهم حدر الدون على طوافات عائمة .

فسأله ميشا عابسا :

ـ علام تقص علينا كل هذا ؟

ـ أحسب أن القيصر لم يخوله تلك الصلاحيات رغم أنه أمير ، والشيء ذاته ينطبق على قوميسار بوكانوفسكايا ايضا . كان يصيح في مجمع قرية بوكانوفسكايا : «سأسحق فيكم روح القوزاق وسألقنكم درسا لا تنسوه ، أيها الخنازير» ولكن هل أعطته الحكومة السوفييتة حقا كهذا ؟ تلك هي المسألة . اه لم يتلق اي أمر لاتيان أشياء كهذه ، ولمعاملة كافة القوزاق بجريرة المذنبين ، فهنالك قوزاق من شتى الأصناف .

فتغضنت وجنتا شتوكمان وقال :

ـ لقد أصغيت إليك ، والآن أنصت أنت الي .

فغمغم الرجل قائلا :

ـ ربما قلت شيئاً غير صحيح بسبب من جهلي . فان كان الامر كذلك ينبغي ان تغفر لي .

ـ مهلا ، مهلا! ان ما ذكرته عن القوميسار لا يوحي بالصدق ابدا . ولكني سأتقصى الأمر . فان صح ذلك ، اي أنه عامل القوزاق هذه المعاملة ، فاننا لن ندعه يمضي بسلام!

ـ من يدري!

ـ لا داعي للشك ، انها الحقيقة . حين امتدت جبهة القتال إلى قريتكم أو لم يعدم الجنود الحمر رفيقا من كتيبتهم لأنه سرق شيئا من امرأة قوزاقية ؟ ذلك ما قالوه لي في قريتك .

ـ هذا صحيح . سلب المرأة كل ما في صندوقها . انها الحقيقة . هذا ما حصل . كان العقاب صارما ، والحق يقال . أعدموه بالرصاص خلف ساحة درس الحبوب وقد احتدم بيننا النقاش حول المكان الذي ينبغي أن يدفن فيه ، فاقترح البعض المقبرة ، ولكن الآخرين قالوا إنه سيدنس المكان . وهكذا دفناه قرب ساحة درس الحبوب حيث اطلقت عليه النار ، ذلك الشيطان المسكين .

فلف شتوكمان سيكارة على عجل وقال :
ـ اذا فقد حصلت حالة كهذه!
فأيده الرجل دونما تردد :
ـ اجل ، اجل ، انا لا أنكر ذلك .
ـ اذا لماذا لا تصدق أنا سنعاقب القوميسار اذا ما وجدناه اقترف ما ذكرت ؟
ـ ولكن يا رفيقي العزيز! قد لا يكون مرؤوسا لاحد . فقد كان ذلك جنديا ، أما أن يكون المذنب قوميساراً...
ـ محاسبته ستكون أشد صرامة! أتفهم ؟ الحكومة السوفييتية لا تستخدم العنف الا مع أعدائها . وسنعاقب دونما رحمة اي ممثل لحكومتنا يضطهد الكاحين ظلما .
وبدد دوي مدفع مفاجئ الصمت الذي خيم على السهب عند الظهيرة ، ذلك الصمت الذي لم يعكره الا الصرصر المنبعث من مزلاقي الزحافة ووقع حوافر الخيل . كانت البطارية الموجودة في قرية كوتوفسكي قد استأنفت قصف ضفة الدون اليسرى .
تلاشى الحديث في الزحافة ، فقد مزق قصف المدافع النشاز روعة السهب الشاحب وهو يغفو في خدر الربيع المبكر ، وحتى الخيل جعلت تغذ السير وتنصب آذانها بحذر .
عرج بهم الدرب إلى طريق هيتمان ، فلاحت لهم السهول المترامية وراء الدون ، وقد انتشرت في أرجائها بقع الثلج الذائب على الرمال الصفر ، وأجمات رمادية زرق من الصفصاف والحور .
وحين بلغوا أوست ـ خوبرسكايا أوقف السائق حصانيه خارج منزل اللجنة الثورية المجاور للمقر العام لكتيبة موسكو ، وجعل شتوكمان ينقب في جيبه ثم اخرج ورقة نقدية من فئة الأربعين روبلا من روبلات كيرنسكي وناولها إلى السائق . فأشرق الرجل في ابتسامة كشفت عن اسنانه الصفر من تحت عذاريه الندبيين وتردد في قبولها محرجا .

ـ ماذا ، أيها الرفيق ، بحق المسيح! ذلك لا يستحق نقودا .

ـ خذها لقاء تعب حصانيك . ولا تدع الشكوك تساورك في أمر الحكومة . تذكر أننا ننادي بسلطة العمال والفلاحين ، فأعداؤنا هم الذين دفعوا بكم إلى العصيان . انهم الكولاك ، الأتمانات والضباط . وعليهم تقع المسؤولية الرئيسية لنشوب العصيان . واذا ما ثبت ان أيا من رجالنا قد أساء إلى قوزاقي كادح يميل الينا ويقدم العون للثورة فاننا سنجد السبيل لتصفية الحسابات مع هذا الرجل .

ـ أنت تعرف ، المثل القائل ايها الرفيق : الله أعلى من أن يطار له والقيصر أبعد من أن يسار اليه فالدرب بعيد إلى قيصركم هو الآخر ، والمثل يقول : لا تخاصم الأقوياء ولا تقاض الأثرياء . وانتم اقوياء في آن واحد .

ثم ابتسم بمكر وأضاف :

ـ كيف تبدد روبلاتك الأربعين هكذا! ان خمسة منها كافية . ولكني اشكرك على اي حال .

فابتسم ميشا كوشيفوي قافزا من الزحافة وقال وهو ينفض ساقي بنطالة :

ـ انه أعطاك هذا لقاء حديثك . ومن أجل لحيتك الجميلة هذه ، أتدري من الذي نقلته في زحافتك ، أيها الحمار ؟ إنه جنرال أحمر!

ـ اوه!

ـ أجل بوسعك أن تقول : أوه! شأنك شأن الآخرين عليكم اللعنة! فان أعطاك المرء القليل تذهب وتتباكى في أرجاء المنطقة فتقول : «لقد حملت بعض الرفاق فلم يعطوني سوى خمسة روبلات!» ستظل متكدرا طيلة الشتاء . وان نحن زدنا لك العطاء ، ترفع عقيرتك إلى السماء بالصياح : «ما اغناهم! انهم يبددون أربعين روبلا! لم يتسن لهم عد نقودهم لكثرة ما لديهم منها!» لو ان الامر لي لما أعطيتك اي شيء . انكم لا تشبعون من شيء ، على اي حال . حسنا ، مع السلامة ، يا طويل اللحية!

وحتى ايفان اليكسيفتش تبسم حين انهى ميشا كلامه الناري .

خرج جندي من الحرس الأحمر يهذب على جواده من ساحة البيت الذي نزلت فيه هيئة أركان كتيبة موسكو . فصاح وهو يكبح حصانه : «من أين جاءت هذه الزحافة ؟» .

فسأله شتوكمان : «لماذا تريد أن تعرف ؟»

ـ نريد شحن العتاد إلى كرتوفسكي .

ـ ليس بوسعك ان تأخذ هذه الزحافة ، أيها الرفيق .

فتقدم الفارس الأحمر من شتوكمان ، وكان فتى وسيما ، وقال :

ـ ومن أنت ؟

ـ نحن من كتيبة زامورسكي . لا تأخذ هذه الزحافة .

ـ حسنا ، بوسعه أن يذهب ، أمض بعربتك ، أيها الشيخ!

٤٠

علم شتوكمان ، بعد ان قام ببعض الاستفسارات ، أن سرية يجري تشكيلها في بوكانوفسكايا ، لا في اوست ـ خوبرسكايا . وكان يجمع أفرادها القوميسار مالكين الذي تحدث عنه السائق أثناء الرحلة . وقد التأم شمل الشيوعيين والعاملين في مجالس السوفييت في يلانسكايا وبوكانوفسكايا وغيرهما من المناطق ، وضم اليهم عدد من جنود الجيش الاحمر فتكونت وحدة حربية ذات شأن تعدادها مائتا حربة وبضع عشرات من السيوف ، تؤلف دورية خيالة . وقد عسكرت السرية في بوكانوفسكايا بصورة وقتية ، وكانت تصد ، بمساعدة سرية من كتيبة موسكو ، محاولات المتمردين في التقدم من المناطق العليا لنهري يلانكا وزيموفنايا .

وبعد ان تداول شتوكمان مع رئيس أركان كتيبة موسكو ، وهو ضابط نكد مكتئب النفس من ضباط الجيش النظامي السابق ، ومع القوميسار

السياسي ، وهو عامل من موسكو ، وطد شتوكمان عزمه على البقاء في أوست ـ خوبرسكايا ، والانخراط في الفوج الثاني التابع للكتيبة . وقد اجرى حديثا طويلا مع القوميسار السياسي في حجرة صغيرة نظيفة تكومت فيها البكرات وأسلاك التلفون وغيرهما من التجهيزات العسكرية .

تحدث القوميسار القصير القامة ذو الوجه الأصفر ، الذي كان يقاسي نوبة حادة من التهاب الزائدة الدودية ، فقال على مهل :

ـ كما ترى أيها الرفيق ، فان الوضع هنا معقد نوعا ما . فأغلب جنودي رجال من موسكو وريازان ، وقليل من أهل نزني ـ نوفوكورد . انهم رجال أشداء ، اغلبهم من العمال . انما كانت عندنا سرية من الكتيبة الرابعة عشرة لا يرجى من أفرادها خير ، فاضطررنا إلى اعادتها إلى اوست ـ ميدفيديتسا . ابق معنا ، فثمة عمل كثير ينتظرك هنا . علينا أن نعمل بين السكان ونثقفهم .أنت ملم بأحوال القوزاق ، فينبغي أن تلتزم جانب اليقظة .

فأجاب شتوكمان وهو يبتسم لنبرة الرجل الأبوية :

ـ لا داعي لأن تقول ذلك لي!

ثم نظر إلى البياض المصفر لعيني الرجل المعذبتين وسأله :

ـ ولكن قل لي ، من هو القوميسار في بوكانوفسكايا ؟

فمسد الرجل شاربيه الأشيبين القصيرين ، ثم رفع جفنيه الرقيقين المائلين إلى الزرقة وقال ببطء :

ـ اتسمت اعماله بالتطرف فترة من الوقت . انه فتى طيب ، ولكنه لا يفهم الوضع السياسي الفهم اللازم . ليس بوسع المرء أن يقطع الخشب دون ان يتطاير النثار… انه عاكف على ترحيل ذكور المنطقة كلهم إلى أواسط روسيا… اذهب لمقابلة مأمور المخزن ، وسيقوم بتدوين اسماء كم في قائمتنا .

ثم عبس القوميسار متألما ووضع راحة يده على سرواله المبطن الذي يعلوه الدهن .

وفي صباح اليوم التالي دعي الفوج الثاني لحمل السلاح ، وبعد ساعة من الوقت سار ارتالا نحو قرية كرتوفسكي ، وسار مع رجاله كل من شتوكمان وكوشيفوي وايفان اليكسييفتش . وأرسلت دورية خيالة من كرتوفسكي عبر الدون ، وتبعها الفوج على طريق مبتل تتناثر عليه بقع من الروث وكان الجليد الذي يعلو النهر منقّرا مثل اسفنجة زرقاء . وراحت البطارية الماثلة وراءهم على التل تطلق نيرانها على أجمات الحور البادية وراء قرية يلانسكايا . وكان الفوج قد تلقى الأوامر بتخطي قرية يلانسكايا التي أجلي عنها القوزاق والمضي قدما خلال المنطقة ، لتوحيد قواه مع الفوج الأول الزاحف من بوكانوفسكايا . وكان طريق الفوج الثاني يمتد باتجاه بيزبورودوف . ولكن دورية استطلاع من الخيالة سرعان ما عادت بأخبار تفيد بأن بيزبورودوف خالية من قوات العدو وأن تبادل النار بالبنادق يجري إلى يمين القرية .

وراحت القذائف تزعق فوق رؤوس الجنود ، وانفجار القنابل اليدوية يهز الأرض في موضع ليس بالبعيد . وكان الجليد يتصدع من وراء الفوج ويتهشم . وكان ايفان اليكسييفتش سائرا بجانب شتوكمان وميشا ، فالتفت وراءه ، وقال :

ـ يبدو أن الماء سينزل .

فزنخر ميشا الذي لم يستطع التعوّد على السير مع المشاة وقال بحدة :

ـ من السخف أن نعبر الدون في وقت كهذا . انظر ان الجليد آخذ في التكسر .

راح شتوكمان يحدق في ظهور الرجال السائرين امامه ، والى التمايل الرتيب لماسورات بنادقهم بحرباتها الزرق المضببة . ثم أجال النظر فيما حوله فلاحظ أمارات الجلد مرتسمة على محيا الجنود الذين يختلفون عن بعضهم كثير الاختلاف ويتشابهون كل الشبه في ان واحد ، كما لاحظ حركة القبعات الرمادية وهي تتمايل بنجومها الخماسية والمعاطف الرمادية المصفرة

من فرط القدم . وراح ينصت إلى الوطء الثقيل تحدثه الأقدام العديدة ، والى همهمة الكلام والسعال ، وارتفعت إلى أنفه رائحة الأحذية المبتلة والتبغ والسيور الجلدية . فأغمض عينيه نصف اغماضة وأحس بفيض دافق من الحنان لهؤلاء الشبان الذين لم يمض على تعرفه بهم أكثر من يوم . ثم ساءل نفسه « جميل أن يحس المرء ذلك ، ولكن لماذا بدأت أحبهم فجأة إلى هذا الحد ؟ هناك مبدأ مشترك يشدنا إلى بعضنا ، بطبيعة الحال ، ولكن في الامر شيئا أبعد من ذلك . هناك المهمة المشتركة وربما كان دنو الخطر والموت هو السبب . ما أعزهم إلى قلبي... » ثم لاحت في عينيه بسمة : « أتراني هرمت ؟ » .

وراح يتفرس بشعور يكاد يبلغ تحنان الأبوة في الظهر العريض القوي للرجل السائر أمامه ، وجزء الرقبة النظيفة الفتية الحمراء وقد برز من بين الياقة والقبعة ، ثم ادار عينيه إلى جاره ، وكان الرجل حليقاً ذا خدين أسمرين متوردين وفم جميل صارم . وكان يضيق عينيه كأنه يشعر بألم وشبكة من الغضون تحيط بعينيه . وشعر شتوكمان بالرغبة في محادثته فسأله :

ـ هل مضى عليك في الجيش زمن طويل ، أيها الرفيق ؟

فمرت عينا الرجل الشهلاوان على شتوكمان بفتور وتساؤل ، وأجاب من خلال أسنانه :

ـ منذ ١٩١٨ .

ولم يؤد ذلك الجواب المتحفظ إلى فتور الحماس في نفس شتوكمان فسأله « من اي بلد انت ؟ » .

ـ أتراك تبحث عن شخص من ديارك ، يا ابتاه ؟

سيسعدني أن اعثر على شخص من هناك .

ـ أنا من موسكو .

ـ عامل ؟

ـ اي!
فنظر شتوكمان الي يدي الرجل ولاحظ آثارا تنم عن كونه من عمال التعدين .
ـ أعامل تعدين ؟
ومرت العينان الشهلاوان على وجه شتوكمان ثانية ، وأجاب : «أنا خرّاط معادن . هل كنت من عمال التعدين أيضا ؟» ولاح في العينين الصارمتين بصيص من الدفء .
ـ كنت صانع أقفال . ولكن لماذا تضيق عينيك على الدوام ؟
ـ جزمتي تؤلمني فقد يبست بعد ان تبللت ليلة أمس ، حين كنت في مهمة نصب الكمين .
فابستم شتوكمان قائلا :
ـ أليس ذلك بسبب خوفك ؟
ـ خوفي من اي شيء ؟
ـ نحن ماضون إلى المعركة...
ـ أنا شيوعي .
فشاركهم ميشا الحديث قائلا :
ـ ألا يخاف الشيوعيين الموت ؟ أليسوا اناسا مثل الآخرين ؟
فأجاب الرجل بعد أن فكر لحظة وعدل من وضع بندقيته على كتفه :
ـ أنت مازلت مستجدا في هذه الأمور ، كما هو واضح ، أيها الأخ . ينبغي عليّ ألا أخاف ، فقد اصدرت إلى نفسي الأوامر . أفهمت ؟ فلا تحاول أن تنبش ما في أعماقي من أفكار الا اذا كانت يداك نظيفتين . اني أعرف لماذا نقاتل ومن الذي نقاتله ، كما أعرف أننا سننتصر . وهذا هم المهم . ـ
ثم ابتسم لخاطرة عنّت له ، والتفت إلى شتوكمان ، وشرع يقص عليهما :
ـ كنت في السنة الماضية في مفرزة في اوكرانيا . وكنا نتعرض لضغط شديد من جانب العدو طوال الوقت . فخسرنا العديد من رجالنا . وبلغ بنا

الأمر أن اضطررنا إلى ترك جرحانا وراءنا ثم قام العدو بتطويقنا وتلقينا أوامر تقضي بأن يقوم أحدنا باختراق صفوف العدو ليلاً ويذهب إلى مؤخرتهم لينسف جسرا على أحد الأنهر ، للحيلولة دون عبور قطار مسلح . وقد طُلب المتطوعون لهذه المهمة ، ولكن احدا لم يتقدم . فاقترح شيوعيو وحدتنا ـ وكانوا بضعة رجال لا غير ـ أن نقذف قطعة نقدية في الهواء لتقرر من يذهب منا . ولكنني فكرت في الأمر مليا وقررت التطوع . أخذت الألغام ، والفتيلة البطيئة الاحتراق والثقاب ، ثم ودّعت رفاقي ومضيت : كان الظلام والضباب مخيمين في تلك الليلة . وبعد ان قطعت مائتي خطوة شرعت بالزحف خلال ذرة غير محصودة ومن ثم على امتداد أحد الأخاديد . وفيما كنت زاحفا إلى خارج الأخدود هب طير يرف بجناحيه من تحت أنفي مباشرة . وزحفت عبر نقطة للحراسة على بعد عشرين خطوة تقريبا ثم بلغت الجسر . وكانت مفرزة رشاشات تتولى حمايته . فقبعت هناك ساعتين من الزمن في انتظار اللحظة المناسبة ، ثم زرعت اللغم وشرعت أقدح الثقاب تحت ذيل معطفي ، الا ان العيدان كانت مبتلة من الندى فلم تشتعل ، فقد كانت في جيب صدري حين اضطررت إلى الزحف على بطني . وحينذاك خفت فعلا . فالفجر أوشك على الانبلاج ، فجعلت يدي ترتجف وتصبب العرق إلى داخل عيني ، وقلت في سريرتي : قضي الأمر . لئن فشلت في نسفه فسأقتل نفسي . وحاولت مرارا وتكرارا فأفلحت اخر الأمر في اشعال الثقاب وأشعلت الفتيل . ثم أخفيت نفسي وراء السد على الشاطئ . وحين حصل الانفجار قام هرج ومرج رائعان : فأخذ رشاشان يلعلعان ، وهذب فرسان من جانبي مباشرة ولكن مهمتهم في العثور عليّ ليلا لم تكن يسيرة . فابتعدت عن الوقاء وتسللت إلى الذرة . وفي تلك اللحظة بالذات ـ أتدري ـ انهارت قوة يدي وساقي ، ولم أستطع حراكا ، فرقدت . وحين كنت اشق طريقي إلى الجسر خالجني شعور بالجسارة أما العودة ، فذاك أمر اخر ، لبثت راقدا هناك وانتابني الغثيان كالكلب... وبطبيعة الحال استطعت العودة

آخر الأمر . ـ ولمعت عيناه لمعانا دافئا ـ وكنت أقص على الاولاد سوء طالعي في أمر الثقاب ، صباح اليوم التالي ، فسألني أحدهم : ولكن ما بال ولاعة السكائر التي عندك ؟ هل فقدتها ؟ وجسست جيبي ، فإذا بها مستقرة هناك طوال الوقت أخرجتها فاشتعلت من أول ضربة!

كان ثمة غرابان يطيران مسرعين على ارتفاع شاهق منطلقين على أجنحة الرياح من أجمة حور بعيدة . وبدت الريح وكأنها تقذف الغرابين إلى أمام بشدة . كانا على مسافة غير بعيدة من الطابور حين دوت المدافع المنصوبة على تل كروتوفسكي من جديد غب ساعة من الصمت فمرقت من فوقهم قذيفة محدثة هديرا زاعق . وحين لاح ان صرختها اوشكت ان تبلغ الانفجار اخذ احد الغرابين يتلوى كقشة في دوامة تم اخذ يهوي إلى الارض مدوما كورقة كبيرة سوداء ناشرا جناحيه على نحو شائه محاولا أن ينقذ نفسه . فهتف جندي أحمر يسير وراء شتوكمان باعجاب : «طار إلى حتفه! أرأيتم كيف قذفت به ؟ » .

وعدا آمر السرية على صهوة جواد كميت طويل مثيرا الثلج الذائب .

ـ اصطفاف!...

وجرت قربهم ثلاث زحافات تحمل الرشاشات فنثرت الثلج على أيفان اليكسييفتش وهو يسير في الصف الخارجي صامتا . وقد سقط أحد المدفعيين من الزحافة الاخيرة ، فدوى الضحك من رجال الجيش الأحمر إلى ان أرسل السائق اللعنات وأدار حصانيه لكي يصعد المدفعي إلى الزحافة ثانية .

٤١

اتخذت الفرقة الأولى التابعة لقوات المتمردين كاركينسكايا مركزا لمقاومة الحمر . وقد أدرك غريغوري ميليخوف ما لموقع كاركينسكايا من أهمية استراتيجية فعقد العزم على ألا يتخلى عنها باي حال من الاحوال . فقد

كانت تمتد على الضفة اليسرى لنهر تشير الأمر الذي جعل بمقدور القوزاق ان يحموا خطوطهم من على قممها بشكل رائع . وكانت كاركينسكايا في سفح التلال على الجانب الآخر من نهر التشير ، ومن ورائها يترامى السهب فرستات عديدة نحو الجنوب ، تعترضه الشعاب والوديان هنا وهناك . وقد اختار غريغوري بنفسه لبطاريته التي تضم ثلاثة مدافع موقعا غير بعيد عن ربوة تغطيها اشجار البلوط تشرف على المنطقة وتشكل نقطة مراقبة ممتازة .

كان القتال يدور كل يوم حول كاركينسكايا . فيشن الحمر الهجوم من جبهتين عادة : من السهب جنوباً ، وبمحاذاة التشير شرقاً . وكانت صفوف القوزاق تنتشر على مسافة غير بعيدة من وراء القرية ، فيطلقون نيرانهم بين آونة وأخرى . وكانت نيران الحمر تحمل القوزاق في كل مرة تقريباً على التراجع خلال كاركينسكايا ثم يتخذون طريقهم في بطون شعاب ضيقة شديدة الانحدار تؤدي بهم الى التلول . غير أن الحمر لم تبلغ بهم القوة لدفعهم الى أبعد من ذلك ، فقد كان تقدمهم يتعثر كثيراً بسبب ما يعانون من نقص في الخيالة الذين كان بوسعهم حمل القوزاق على التراجع مسافة أبعد ، وحينذاك تنطلق يد المشاة ، الذين كانوا يضيعون الوقت خارج القرية حائرين ، فيقومون بحركات جديدة . ولم يكن بالوسع أن يستخدم المشاة لمناورات كهذه ، اذ كان بمقدور القوزاق أن يغيروا في أية لحظة على الجنود السائرين فيشتتوا شملهم .

وقد امتاز المتمردون ، فضلا عن ذلك ، بمعرفتهم التامة للمنطقة ، فلم يفوتوا سانحة في ارسال خيالة يستترون في بطون الوديان ليغيروا على جناح العدو ومؤخرته ، ويهددون الحمر على الدوام ويشلّون أي حركة جديدة يقومون بها .

ولم يمض وقت طويل ، حتى رسم غريغوري خطة للقضاء على العدو : يعمد القوزاق الى تضليل العدو فيتراجعون ليستدرجوا الحمر الى داخل

كاركينسكايا ، فيما تقوم كتيبة من الخيالة بحركة التفاف خلال الوديان لتطويق العدو من الشرق والغرب والقضاء عليه . وقد أعدت الخطة بأدق تفاصيلها . وتسلم أمراء المفارز تعليمات دقيقة أثناء اجتماع عقد في مساء اليوم السابق . وتقرر أن تبدأ حركة الالتفاف عند الفجر ، حين يسهل التستر . وبدا كل شيء بسيطاً بساطة الألف باء . وبعد أن فرغ غريغوري من دراسة كافة الاحتمالات بعناية ، وكل ما من شأنه أن يعيق تنفيذ الخطة على غير انتظار ، كرع قدحين من الفودكا المحلية ، ودون أن ينزع ملابسه ، ألقى بنفسه على الفراش ، وغطى رأسه بمعطفه الرطب وغط في النوم كالأموات .

احتل الحمر كاركينسكايا في صباح اليوم التالي . فهرب جانب من مشاة القوزاق خلال الشوارع الى التلال بغية جر الحمر وراءهم . وجعل رشاشان محملان على زحافتين يحصدانهم بالرصاص . وراح الجنود الحمر ينتشرون في القرية رويداً رويداً .

وقف غريغوري على رابية قريبة من احدى البطاريات يراقب مشاة الحمر وهم يحتلون كاركينسكايا ويتجمعون قرب نهر التشير . وكان الاتفاق قد تم على أن تبدأ سريتان من القوزاق رابضتان في بساتين عند سفح التل بالهجوم لدى أول قذيفة تطلقها البطارية ، في حين تقوم كتيبة الالتفاف بمهاجمة المؤخرة . وكان آمر البطارية يريد توجيه أول قذيفة على زحافة مدفع رشاش كانت تجري الى داخل كاركينسكايا ، ولكن الراصد أفاد لحظتئذ أن قوة من الحمر تتقدم من جهة الشرق ببطارية عبر جسر يبعد زهاء ثلاثة فرستات .

فأشار غريغوري عليه وما يزال يراقب الموقع بالمنظار العسكري :

ـ أطلق النار عليهم بمدفع المورتر .

وفي الحال سدد المدفعي مدفعه ، فدوى المورتر بهدير ثقيل ، وشق الأرض التي وراءه حينما ارتد الى الخلف . فأصابت القذيفة الأولى طرف الجسر لحظة وصول المدفع الثاني لبطارية حمراء اليه فأطاحت القذيفة

بالخيل ، وعلموا بعدئذ أن حصانا واحدا لا غير بقي سالما من بين ست خيول تجر المدفع . وأطاحت شظية قذيفة برأس السائق . واستطاع غريغوري أن يرى خلال منظاره عموداً من الدخان الرمادي والأصفر يرتفع أمام المدفع ، وجفلت الخيل والدخان يكتنفها ، ووقع الجنود ولاذوا بالفرار . وكان أحد الجنود على ظهر حصانه أمام المدفع فأطاحت القذيفة به وحصانه من على الجسر الى الجليد .

ولم يكن في حسبان المدفعيين أن يحرزوا نجاحاً كهذا بالقذيفة الأولى ، فحام الصمت برهة من حول مدفع القوزاق المورتر ، ولكن الراصد الذي كان يقف على رابية قريبة صاح بشيء ولوح ذراعيه .

وفي تلك اللحظة نبّ هتاف « هورا » من خلال الأجمة الكثيفة لبساتين الكرز والمزارع التي تحتها وعلت لعلعة نيران البنادق . فضرب غريغوري بالحيطة صفحا وهرع الى الرابية . كان رجال الجيش الأحمر يلوذون بالفرار خلال الشوارع ، وسمع هديرا مختلطاً من الأصوات ، وصرخات حادة توعز بالاوامر ، ولعلعة الرصاص . وشرعت احدى زحافات الرشاشات تجري صعد مرتفع ، ولكنها سرعان ما استدارت بحدة ، على مسافة قصيرة من المقبرة ، وفتحت النار من فوق رؤوس رجال الجيش الأحمر على القوزاق الذين تدفقوا من البساتين .

وعبثاً راح غريغوري يستجلي الأفق بحثاً عن أثر لخيالة القوزاق ، وكان رجال الجيش الأحمر في الجناح الأيسر يتراكضون شطر الجسر الذي يربط كاركينسكايا بقرية أرخيبوفكا الملاصقة ، في حين ما يزال جناحه الأيمن يتدفق الى كاركينسكايا ، فينبطح الرجال تحت نيران القوزاق الذين كانوا مسيطرين على الشارعين القريبين من نهر التشير .

وأخيرا ظهرت السرية الاولى لخيالة القوزاق من وراء التلال ، ثم جاءت الثانية والثالثة والرابعة وانتشروا في خط واستداروا نحو اليسار بحدة لقطع الطريق على حشود الجيش الأحمر الهاربة . فدعك غريغوري قفازيه بيده وهو

يتتبع سير القتال بنفاد صبر دون ان يرفع المنظار العسكري . دنت خيالة القوزاق من الطريق الرئيسية بسرعة فانقلب رجال الجيش الأحمر على أعقابهم وهربوا عائدين صوب قرية أرخيبوفكا زرافات ووحدانا ، وهناك واجهتهم نيران مشاة القوزاق فانقلبوا ثانية وهرعوا الى الطريق ولم يفلت من قبضة القوزاق الا جزء صغير من الجيش الأحمر يمم صوب كليموفكا .

وجعل القوزاق يعملون السيف بالجنود الحمر على الرابية بصمت مريع ، ثم استدارت خيالة القوزاق صوب كاركينسكايا وأعادتهم على أعقابهم كأوراق في مهب الريح . وعند الجسر قُطع خط الرجعة على نحو من ثلاثين جنديا أحمر وحين لم يبق أمامهم رجاء في النجاة ، أخذو بالدفاع عن أنفسهم . كان لديهم مدفع رشاش واحتياطي كبير من العتاد ، فلم يكد مشاة المتمردين يخرجون من البساتين حتى شرع المدفع الرشاش يلعلع بسرعة محمومة . فانبطح القوزاق وشرعوا يزحفون بحثاً عن ملجأ وراء السقائف والأسيجة الحجرية . وشاهد غريغوري من نقطة المراقبة قوزاقه يجرون رشاشا خلال كاركينسكايا . وحين بلغوا أحد الأفنية عند الضواحي توقفوا ثم هرعوا الى داخل الفناء وبعد بضع دقائق شرع مدفعهم الرشاش يتأتئ من على سطح مخزن الحبوب . وشاهد غريغوري المدفعيين من خلال منظاره ، وكان أحدهم يرقد على السطح بساقين ممدودتين وراء درع المدفع ، والثاني يزحف صعد سلم خشبي وقد لف أحزمة العتاد حوله . أعانت بطارية القوزاق مشاتهم ، فركزت نيرانها على تجمعات الحمر . وما ان مرت خمس عشرة دقيقة حتى لاذ رشاش الحمر عند الجسر بالصمت بغتة ، فارتفع هتاف « هورا » ، وبدت أشباح القوزاق الفرسان تظهر وتختفي بين سيقان الصفصاف الجرداء .

وانتهى كل شيء .

* * *

وبناء على أوامر غريغوري قام سكان كاركينسكايا وأرخيبوفكا بسحب المائة والسبعة والأربعين قتيلا من الجنود الحمر الى خندق غير عميق حفر خارج القرية تماما . وقد استولى القوزاق على ست عربات ذات عجلتين من عربات الذخيرة بخيلها ورشاش معطوب واثنتين وأربعين عربة شحن بما فيها من مؤن . وقد خسروا أربعة قتلى ، وخمسة عشر جريحاً .

وبعد هذه المعركة حظي القوزاق بأسبوع كامل من الراحة دونما قتال في المنطة المحيطة بكاركينسكايا . ثم دفعت القيادة الحمراء بقوات ضد فرقة المتمردين الثانية ، وبعد أن حملتها على التقهقر ، استولت على عدد من القرى في منطقة ميكولينسكايا . وصباح كل يوم كان صوت المدافع البعيدة يتناهى الى كاركينسكايا ، ولكن الأنباء الواردة عن سير القتال كانت تتأخر ، فلم تعط فكرة واضحة عن الوضع هناك .

وفي تلك الأيام أخذ غريغوري يسرف بالشراب في محاولة لإلهاء نفسه عن الخواطر المكربة التي راودته عن الأحداث الجارية من حوله وعن دوره البارز فيها . وكان المتمردون يعانون من نقص شديد في الدقيق ، الأمر الذي اضطر القوزاق في غالب الاحيان الى تناول القمح المسلوق ، اذ لم يكن في وسع الطواحين أن تسد حاجة الجيوش . ولكن بالنظر لتوفر مقادير هائلة من القمح فإن الفودكا المحلية لم تكن شحيحة ، فجعلت تتدفق بسيل لا ينضب . وتعددت المرات التي يدخل فيها القوزاق المعارك وهم سكارى . وذات مرة شنت سرية من خيالة القوزاق الهجوم وأفرادها كلهم نصف سكارى ، فهذبوا صوب مدفع رشاش للعدو ، فأبيدت السرية كلها تقريباً . وكان غريغوري يحصل على وفرة من الفودكا ، فقد امتاز بروخور زيكوف في الحصول على الكحول . وبعد معركة كاركينسكايا جاء بثلاث قوارير من الفودكا ، تلبية لطلب غريغوري ، ثم دعا المغنين ، فمضى في التشرب مع القوزاق حتى مطلع الفجر جذلا بشعور الانطلاق من أسار التحفظ متلمسا السلوى عن أفكاره . وفي الصباح عب كأسا ليتخلص من آثار سكره ، ثم

كأساً آخرى . وفي المساء التالي طلب المغنين مرة أخرى ، ومن جديد راح ينعم في صخب الأصوات والمرح البشري ، فبعث كل ذلك فيه وهما من السعادة وحجب عنه قسوة الواقع .

وسرعان ما تحول كلفه بالشراب الى عادة مستحكمة . فما ان يجلس إلى المائدة صباحا حتى يستشعر رغبة عارمة لشرب الفودكا . كان يشرب كثيرا ، ولكن دون أن يفرط ، ويظل مالكاً لشعوره حين يثمل الآخرون وينامون تحت الموائد وعلى الأرض ، ويتدثرون بمعاطفهم ويبقى هو صاحيا بالرغم من شحوب وجهه وشرود عينيه ، وكثيراً ما كان يشد راحتيه الى رأسه .

وبعد أن أمضى أربعة أيام في منادمة متواصلة شرعت آثارها تظهر عليه : أزرق ما تحت عينيه وتورم وأمست نظراته صارمة لا حسّ فيها . وفي اليوم الخامس أشار بروخور زيكوف عليه وهو يبتسم ابتسامة اغراء :

ـ تعال معي هذا المساء الى امرأة رائعة أعرفها في ليخوفيدوف . موافق ؟ لكن اياك أن تفوت الفرصة . إني أعرفها امرأة شهية كالبطيخة ، على الرغم من أنني لم أذق طعمها . ولكنها حادة الطبع متوحشة ، تلك الشيطانة . إنك لن تنال منها شيئاً في أول مرة تسألها ، فلن تدعك تلمسها . بيد أنك لن تجد من يحسن صنع الفودكا مثلها . لديها أروع فودكا في كل قرى التشير .

تم ختم كلامه وكأنه لا يقصد شيئاً :

ـ زوجها انسحب عبر الدونيتس .

انطلقوا الى ليخوفيدوف مساء ذلك اليوم . ورافق غريغوري اثنان من آمري وحداته هما ريابتشيكوف ويرماكوف ، وأليكسي شامل ذو الذراع الواحد ، وقائد الفرقة الرابعة ميدفيديف الذي جاء بزيارة للفرقة الأولى . وتقدمهم بروخور زيكوف على حصانه وحين بلغوا القرية جعل حصانه يمضي سيراً ، ثم استدار في شارع فرعي وفتح بوابة صغيرة تؤدي الى ساحة لدرس

الحبوب . وبلمسة من السوط قفز حصان غريغوري ليتخطى كومة كبيرة من الثلج نصف الذائب ، ثم كبا لحظة واستعاد وضعه وهو يزنخر وخب الى داخل الفناء . أما ريابتشكوف فقد ترجّل وقاد حصانه من الرسن . ومضوا في أثر بروخور زهاء خمس دقائق عبر أكوام من التبن والقش ، ومن ثم خلال بستان من أشجار الكرز الجرد المخشخشة . وكان قدح الهلال الذهبي ينتصب على صفحة السماء الزرقاء الداكنة ، والنجوم تتألق ، وخيم من حولهم سكون مسحور ، لا يعكره سوى نباح كلب بعيد ووقع حوافر خيلهم . وأومضت نقطة من الضوء الأصفر على صفحة السماء القاتمة ، وطالعهم هيكل منزل واسع مسقوف بالقصب . وانحنى بروخور من على سرجه وفتح بوابة من الصفصاف ذات صرير . والتمعت صورة القمر في بركة متجمدة عند الدرجات . فهشم حصان غريغوري حافة الجليد ثم توقف وهو يلهث ، فقفز غريغوري من على حصانه ولف الأعنة حول عمود السلم ودخل سقيفة الباب . وترجل القوزاق الآخرون وهم يهمهمون ويتحدثون وراءه .

تلمس سقاطة الباب ثم فتحه ودلف الى مطبخ فسيح . كانت ثمة امرأة قوزاقية شابة ، مكتنزة ولكنها أنيقة كطير الحجل ، لها سحنة سمراء وحاجبان فاحمان جميلان ، وقفت وظهرها الى الموقد تحوك جوربا . وكانت فتاة شقراء الشعر ، يناهز عمرها التاسعة ، نائمة فوق الموقد وقد نشرت إحدى ذراعيها .

جلس غريغوري الى المائدة دون أن يخلع معطفه ، وقال :

ـ ألديك فودكا ؟

فأجابت المرأة دون أن تنظر الى غريغوري أو تتوقف عن الحياكة :

ـ ألا ترى أن من اللياقة أن تقول مساء الخير أولاً ؟

ـ مساء الخير ، ان كان ذلك يروق لك . ألديك فودكا ؟

فرفعت حاجبيها وابتسمت له عيناها المستديرتان البندقيتان ، ثم أصاخت السمع الى وقع الخطوات في سقيفة الباب .

ـ عندي شيء من الفودكا . ولكنكم أتيتم بعدد كبير لقضاء السهرة ، أليس كذلك ؟

ـ أجل ، الفرقة برمتها .

ودخل ريابتشيكوف وبدأ يرقص مقرفصاً وهو يجر سيفه ويضرب ساقي جزمته بقبعته المصنوعة من جلد الخروف . وتزاحم القوزاق الآخرون في المدخل . وجعل أحدهم ينقر لحنا راقصا سريعا بزوج من الملاعق الخشبية ، ثم كوموا معاطفهم فوق السرير وألقوا أسلحتهم على المصاطب . وخف بروخور لمساعدة المرأة في اعداد المائدة ، دخل أليكسي ذو الذراع الواحدة الى القبو ليجلب شيئاً من الكرنب المخلل ثم سقط حدر الدرج ، وخرج يحمل هشيم الطبق المكسور وكومة من اللهانة الندية في طرف سترته .

وما انتصف الليل حتى كانوا قد شربوا دلوين من الفودكا والتهموا مقادير لا حصر ها من الكرنب . ثم قرروا نحر خروف ، فذهب بروخور يلتمس واحدا في زريبة الأغنام ، فبتر يرماكوف رأسه بضربة واحدة من سيفه . وأشعلت المرأة النار ووضعت فوقها قدراً مليئاً بلحم الضأن لتطبخه . وعادت الملعقتان الخشبيتان من جديد تنقران لحنا راقصاً ، وراح ريابتشوكوف يدور في رقصته مشمراً عن ساقيه ، صافقا اياهما بيديه وهو يغني بصوت صادح حاد ولكنه حلو .

وهدر يرماكوف قائلاً : «أريد أن ألهو!» ولبث يمتحن متانة اطار النافذة بسيفه وكان غريغوري يحب يرماكوف لشجاعته النادرة وجرأته القوزاقية ، فضرب على المائدة بكوزه النحاسي وصاح :

ـ لا تكن سخيفا يا أخي!

فأعاد يرماكوف سيفه الى غمده بإذعان وتناول قدحاً من الفودكا بتعطش .

قال أليكسي ذو الذراع الواحدة ، وهو يجلس بجوار غريغوري :

ـ لا أخشى حتى الموت في سهرة مثل هذه . ايه غريغوري بانتلايفتش ، انك فخر بلادنا! لولاك لكنا الآن في الدنيا الآخرة! أنشرب معا كأساً أخرى!... املأ الكؤوس ، يا بروخور!

ولبثت الخيل غير المسرجة واقفة عند المعلف دونما عقال فكان القوزاق يخرجون اليها بالتناوب ليلقوا عليها النظر .

ولم يحس غريغوري أنه بدأ يثمل إلا وقد أدركهم الفجر . فخيل له أن أصوات الآخرين تأتيه من مسافة بعيدة . فرفع عينيه الحمراوين بثقل باذلاً جهده للسيطرة على نفسه .

فهدر يرماكوف ، وهو يعانق غريغوري :

ـ ان شارات الكتف الذهبية عادت تتحكم برقابنا من جديد! ان بيدهم مقاليد الحكم كلها .

فسأله غريغوري منحيا عنه يديه :

ـ أي شارات ؟

ـ في فيشنسكايا ، أو تعني أنك لم تسمع بها ؟ زمام الأمر هناك في يد أمير قفقاسي! انه عقيد . سوف أقتله! يا ميليخوف! أني أضع حياتي عند قدميك : لا تتخل عنا! شاع التذمر بين القوزاق . سر بنا الى فيشنسكايا فنقتلهم جميعاً ونضرم النار بالمنطقة . نقتل اكودينوف ، والعقيد ، والكل! كفانا مارأينا من حكمهم! دعنا نقاتل الحمر والكاديت في آن واحد . هذا ما أريد! .

فقال غريغوري :

ـ سوف نقتل العقيد! تخلّف في المنطقة عن قصد... يا أخي! دعونا نرضخ لسلطة السوفييتات . اننا على خطأ . ـ وفجأة استعاد غريغوري رشده لحظة وابتسم ابتسامة شوهاء وأضاف : ـ لست الا مازحا . هيا اشرب ثمالة الناس ، يرماكوف .

فقال ميدفيديف بحدة :

ـ بماذا تمزح ، يا ميليخوف ؟ لا تمزح ، انها مسألة خطيرة . إننا نريد تغيير الحكم . سنطردهم جميعاً ونضعك في مكانهم . لقد تحدثت الى القوزاق بالأمر ، فأبدوا موافقتهم . سنقول لكودينوف وزمرته : «انقشعوا انكم لا تصلحون لنا!» .

فان ذهبوا عنا فمع السلامة . والا فسنرسل كتيبة الى فيشنسكايا ونكنسهم كنساً ، لعنة الله عليهم .

فأرعد غريغوري بغضب شديد : «اقلع عن هذا الكلام!» فهز ميدفيديف كتفيه ، وغادر المائدة ، وكف عن الشراب . وراح ريابتشيكوف يغني بصوت نائح وهو ممدد في ركن من الغرفة ورأسه الأشعث متدلّ من المصطبة واحدى يديه تهرش الأرضية الوسخة :

تعال أرح رأسك ، يا فتاي المسكين ،
تعال أرح رأسك ، أيها الحبيب ،
رأسك هذا الثقيل ، رأسك هذا المسكين ،
رأسك الذي تهدل متعباً
دعه يسترح على هذا النحو أو ذاك
دعه يرقد على صدري الأبيض .

وانضم أليكسي شامل بصوته الجهوري الأبح إلى صداح ريابتشيكوف النائح الرقيق :

حين رقدت على صدرك ..
ندت حسراتي ثقيلة أسيانة
ثقيلة حسراتي ثقيلة أسيانة
وذات مرة ، قلت لك عازماً :
وداعا يا حبي الراحل ، وداعا
وداعا ، ولتذهبي الى سقر

كانت ظلال الفجر تستحيل ليلكية خارج المنزل حين قادت المرأة غريغوري الى الغرفة الأمامية .

وقالت وهي تسند غريغوري بيد وتصد بالأخرى يرماكوف الذي كان يتبعهما بكوز من الفودكا :

ـ لقد أسكرتموه بما فيه الكفاية! كفاك الآن ، أيها الشيطان! ألا ترى أنه لم يعد يصلح لشيء ؟

فغمز يرماكوف ، وهو يترنح ويريق الفودكا من الكوز :

ـ إياك أن تضاجعيه الآن ، لا فائدة منه .

فانتهرته قائلة :

ـ ليس هذا من شأنك . لست أنت أبي .

فهأهأ يرماكوف : «خذي معك ملعقة!» ثم تهاوى في نوبة من الضحك الثمل .

ـ يا لك من شيطان! شربت اكثر من اللازم وتقول ما لا يليق!

ودفعت غريغوري الى الغرفة ، وأرقدته على السرير ، ثم جلست وملء عينيها الاشفاق والقرف تراقب وجهه الشاحب شحوب الأموات والنظرة المحدقة تشخص من عينين لا تطرفان . جلبت له قدحا من مشروب الكرز البارد ثم جلست على حافة السرير وراحت تمسد رأسه ، وتبعث أصابعها خلال شعره ، حتى استسلم للنوم . ثم أعدت فراشها فوق الموقد الى جانب ابنتها ، لكن شامل أبى أن يدعها تنام فقد أرقد رأسه على ذراعيه وراح يزنخر كحصان فزع ثم أفاق على حين غرة وجعل يهدر بلحن من أغنية . ثم ألقى برأسه فوق ذراعيه من جديد ، وخلد للنوم بضع دقائق ، وما لبث أن انفجر يغني ثانية وهو يجيل النظر فيما حوله كالمخبول .

٤٢

حين أفاق غريغوري صباح اليوم التالي تذكر كلمات يرماكوف وميدفيديف ، فلم يكن الشراب قد أسكره آنذاك تماما . ولم يجد مشقة كبيرة في استعادة حديثهما حول اسقاط الحكومة ، فأدرك لتوه أن وليمة الشراب في ليخوفيدوف قد أعدت بقصد أن يكسبوا تأييده للخطة . فقد كان القوزاق ذوو الميول اليسارية يحلمون بالانفصال التام عن أجزاء اقليم الدون الأخرى وتأليف نموذج خاص بهم من الحكم السوفييتي دون التعاون مع الشيوعيين ، فراحوا يكيدون لكودينوف الذي كان قد أعرب بكل صراحة عن رغبته في الانسحاب إلى الدونيتس وضم قواته إلى الجيش الأبيض . وقد فاتهم أن يدركوا ما يترتب من نتائج وخيمة على النزاع في داخل معسكر المتمردين ، فقد تيمم قوات الحمر ، اذا ما أعيدت على أعقابها في منطقة الدونيتس ، وجهتها اليهم فتمحقهم ، هم وخصوماتهم . وقال غريغوري في خلده وهو يقفز من على سريره بخفة : «ان هذا عبث صبياني» . وحين ارتدى ملابسه استدعى يرماكوف وميدفيديف الى غرفته ثم أوصد الباب من ورائهما وقال :

ـ انتبها الآن اليَّ أيها الصبيان! أطردا كلام الأمس من رأسيكما ، وحذار من التذمر ، والا فستكون عاقبتكما وخيمة . ليست القضية قضية من يتولى القيادة ، انها ليست مسألة وجود كودينوف في القيادة أم سواه ، فالمشكلة أننا في مأزق حرج ، فنحن أشبه ببرميل داخل أطواقه ، وهذه الأطواق ستحطمنا ان عاجلاً أو آجلاً . فينبغي لنا أن نسير بكتائبنا لا إلى فيشنسكايا بل شطر ميكولين وكراسنوكوتسكايا ـ وأضاف مشددا كلماته دون أن يحوّل عينيه عن وجه ميدفيديف الكئيب الذي لا يبدو عليه الاكتراث :

ـ أجل ، هذه هي الحالة ، يا كوندرات . يحسن بك أن تكف عن اثارة

المتاعب . فكر بالأمر مليا تر أننا ان شرعنا في التخلص من قادتنا وتدبير حركات عصيان هلكنا لا محالة . علينا أن ننحاز اما الى البيض أو الى الحمر . فليس ثمة من سبيل وسط : سيسحقنا هذا الجانب أو ذاك .

فقال يرماكوف وهو يشيح بوجهه :

ـ لعلك لن تعمد الى نقل حديثنا إلى أسماع الغير .

ـ لن أتخذ خطوة أخرى شريطة أن تكفوا عن اثارة القوزاق . ما شأن كودينوف ومستشاريه ؟ فليست بيدهم القوة كلها ما دمت أنا . أتولى قيادة فرقة . انهم حفنة من الأغبياء كما أعرفهم ، وهم يسعون الى جرنا الى الكاديت وبوسع المرء أن يراهن على ذلك . ولكن الى أين يمكننا أن نسير ، على كل حال ؟ ليس ثمة من سبيل أمامنا ، فنحن مقيدون .

فأيده ميدفيديف قائلاً باحجام : «هذا صحيح» وللمرة الأولى مذ دخل تلك الغرفة رفع عينيه الصغيرتين الحاقدتين الى وجه غريغوري .

وأمضى غريغوري يومين آخرين يعاقر الخمرة في القرى الواقعة حول كاركينسكايا ، فينفق حياة خاوية في المنادمة والسكر . وقد تشبع برائحة الفودكا حتى بلغت مرشحة سرجه . وعبثت يداه بنسوة وفتيات فقدن زهرة عفافهن ، تشاطره الواحدة منهن ساعة وجيزة من الغرام ، ولكنه يفيق صباح كل يوم وقد أتخمته حمى الغرام التي نالها من آخر نزوة وصحا من سكره ، فيقول لنفسه بعدم اكتراث : «لقد عشت وخبرت كل شيء في أيامي . طارحت الغرام نسوة وفتيات كثيرات ، وجبت السهب على ظهر جوادي ، ونعمت بالأبوة ، وقتلت رجالا وواجهت المنية ، ونعمت بزرقة السماء . أي جديد يمكن للحياة أن تأتيني به ؟ لا شيء! وبوسعي أن ألاقي الموت! ذلك لن يكون أمراً رهيباً . وبوسعي أن أعبث في الحرب دون أن أجازف بشيء ، شأن ثري يلعب القمار . لن تكون خسارتي فادحة» .

وكانت أيام الطفولة تتساب خلال ذاكرته رائقة مثل يوم مشمس : أعشاش الزرازير ، وقدماه الحافيتان على التراب الحار ، والدون يعمه سكون

مهيب فيعكس ضفافه التي تزخر بالشجر ، والوجوه الفتية لأصدقائه ، وأمه الغضة الممشوقة القوام... فيغطي غريغوري عينيه بيده . أصدقاء قدامى ، وجوه قديمة ، احداث صغيرة متشبثة بذاكرته لسبب ما ، أصوات طواها النسيان ، نتف من حديث ، قهقهات من الضحك . وتعرج به الذاكرة إلى مرأى المنظر القديم ، فإذا به ينتشر مداه أمام عينيه على نحو مفاجئ يبهر الأبصار ، فترى عيناه دروب الصيف تقطع السهب ، وعربة تجرها الثيران وأباه جالساً على عارضتها ، والأرض المحروثة ، والجذامات الذهبية للقمح المحصود ، ونثارا أسود من الغربان على الطريق . وكلما طاف خياله في ذكريات الماضي الذي لا مرد له تراءت له أكسينيا فيقول في سريرته : « حبي ، حبي الذي لن أنساه! » ثم ينجر عن المرأة النائمة إلى جنبه وقد تملكه الازدراء . ويتنهد تنهيدة عميقة وهو ينتظر الفجر بصبر نافذ ، وما أن توشك الشمس على رشق المشرق بظلال العليق والأوبريز حتى يثب على قدميه ، ويغتسل ويمضي إلى جواده .

٤٣

سرى التمرد سريان حريق يلتهم السهب ، ولكن الجبهات أحاطت مناطق المتمردين مثل حلقة الفولاذ ، وكان ظل القدر جاثماً على صدور الناس كوسم الميسم . فقد كان القوزاق يلعبون بالموت ، وخاب فأل الكثيرين منهم فراح الفتية يقبلون على الحياة والغرام بكل جوارحهم ، والكبار يكرعون الفودكا حتى يصعب عليهم الوقوف ، ويلعبون الورق على النقود والرصاص (إذ كان الرصاص أثمن من النقود) ثم يرحلون إلى أهليهم في اجازة ، ليلقوا بنادقهم ولو دقيقة واحدة ، ويلتقطوا الفأس ، أو يرمموا السياج أو يهيئوا المسلفة أو طوق الحصان لعمل الربيع ، مما يريح النفس ، ويعود الكثيرون من الذين ذاقوا حياة السلم هذه إلى كتائبهم وهم سكارى ،

وحين يصحون من سكرهم ينطلقون في الهجوم بشعور مرير ، فيتمدمون إلى الرشاشات وجهاً لوجه ، أو ينطلقون في غارات الليل وقد التهبوا جنوناً ، فلا يحسون بالخيل من تحتهم ، فيأسرون الأسرى ويعبثون بهم بكل قسوة ووحشية ومن ثم يقضون عليهم بالسيوف شحاً بالرصاص .

حل الربيع يزهو بجمال لم يعهد له مثيل . وكانت أيام نيسان مشرقة صافية كالبلور وعلى مدى السماء اللازوردي المنيع ما انفكت أسراب من الأوز البري والكراكي ذات الأصوات اللطيفة تعوم فتدرك الغمام في هجرتها نحو الشمال ، وكان البجع الذي خرج إلى رقعة السهب القريبة من البركة يسطع على الخضرة الشاحبة كاللؤلؤ المنثور . ولم تكن الطيور لتكف عن تغريدها وندائها في الغياض المترامية على ضفاف النهر . وجعل الأوز يتنادى على الغدران الفائضة تأهباً للهجرة . ولم ينقطع حفيف الصفصاف الذي يعج بنشوة الغرام تبثها ذكور البط ، وبدت أشجار الصفصاف خضراً بعراجينها ، وتفتح الحور براعم دبقة فواحة . وكان السهب الأخضر غارقاً في سحر لايوصف ، يغمره فوح الأرض السوداء العريانة والعشب الجديد .

ولعل خير مافي حرب التمرد إن كل قوزاقي بقي على مقربة من قريته . فإذا انتابهم الملل من الذهاب في مهام النقاط الأمامية ونصب الكمائن ، ومن السير على التلال وحدر الوديان في مهام الدوريات ، فإنهم يحصلون على اجازة من آمر سريتهم ، ويذهبون إلى أهليهم ، ويرسلون آباءهم الذين دبت فيهم الشيخوخة والوهن ، أو أبناءهم اليافعين ليحلوا محلهم .

فبقيت السرايا بكل تعدادها على الدوام رغم تغير الوجوه . ولكن بعض القوزاق كانوا أشد مكراً . فما أن تجنح الشمس إلى المغيب حتى تراهم يمضون هذبا من مأوى سريتهم ، فيقطعون عشرين أو ثلاثين فرستا ، فيبلغون بيوتهم عشاء ، فيقضون الليلة مع زوجاتهم أو مع خليلاتهم ، وحين يصيح الديك صيحته الثانية يسرجون خيلهم ويعودون إلى سريتهم قبل أن تتلاشى المجرة في السماء . وكان العديد من القوزاق المرحين مسرورين

كل السرور لهذه الحرب التي يخوضونها على مقربة من بيوتهم . كانوا حين يتوجهون إلى منازلهم يقولون لأنفسهم : «لاداعي للموت» .

وكانت القيادة تخشى أن يعم الهرب الجماعي حين يحل موسم العمل في الحقل أيام الربيع . فقام كودينوف بزيارة خاصة لكل فرقة ، وأعلن بقسوة خارقة قائلاً :

ـ لا يهمني أن تسرح الرياح على حقولنا الخاوية ، ولا يهمني إن خلت أرضنا من أي زرع! ولكنني لن أسمح بمنح إجازة لأي قوزاقي . وإذا ماقبض على أحد في قريته دونما رخصة فسيعدم رميا بالرصاص .

٤٤

ساهم غريغوري مساهمة فعلية في اشتباك آخر وقع في أسفل كليموفكا ، فقد اندلع اطلاق النار قبيل الظهر في يوم من أيام نيسان حول المنازل الواقعة في طرف القرية ، وبعد بضع دقائق دخلت صفوف الحمر إلى القرية ، وكان في ميسرتهم بحارة ، وهم ملاحو سفينة ما من اسطول البلطيق ، يتقدمون إلى أمام بحزم ، فطردوا سرايا القوزاق في القرية بهجوم جريء ودفعوا بهم إلى الوراء على امتداد أحد الوديان .

كان غريغوري يرقب القتال من على تل ، وحين أخذت المبادرة تنتقل إلى يد الحمر لوح بقفازه إلى بروخور زيكوف ليأتيه بحصانه . ثم وثب إلى سرجه وانحدر يخب سريعاً إلى وادٍ كان قد أبقى فية سرية من الخيالة كاحتياط . وشق طريقه إلى السرية خلل البساتين وعبر الأسيجة فألفى القوزاق مترجلين ينعمون بالراحة . وحين كان مايزال على مبعدة منهم استل سيفه وصاح : «الى الجياد!» وفي غمضة عين اعتلى المائتا قوزاقي صهوات جيادهم . وتقدم آمر السرية ليستقبل غريغوري وسأله :

ـ هل تقرر أن تشن هجوم ؟

فأومضت عينا غريغوري :

ـ أجل ، لقد تأخرنا .

ثم جر عنان جواده وترجل ، واضطر إلى تبديد دقائق عديدة ليحكم أحزمة سرجه ، وحصانه العرق الهائج يدور ويروغ رافضاً أن يدع غريغوري يشد الأحزمة فحاول أن يعضه من جنبه ، وحين ثبت غريغوري سرجه باحكام وضع قدمه في الركاب . ودون أن ينظر إلى آمر السرية الذي كان ينصت إلى اطلاق النار المتزايد بأعصاب متوترة ، صاح : «سأتولى أنا قيادة السرية» .

ثم التفت إلى الرجال :

ـ على هيئة رعائل إلى طرف القرية . سر!

وحين تعدوا القرية أمر السرية بالاصطفاف استعداداً للهجوم ، ثم جرّب ما إذا كان سيفه ينسل من غمده بيسر ، وتقدم السرية نحو خمسين خطوة ، ثم قادها هذباً شطر كليموفكا . وحين بلغ قمة المرتفع المطل على كليموفكا أوقف جياده لحظة وتفحص الموقف . كان المشاة والخيالة الحمر يتراكضون ويهذبون متراجعين أمام بصره ، فاستدار نصف استدارة لمواجهة سريته :

ـ استلوا سيوفكم! إلى الهجوم سر! اتبعوني ياأولاد! ـ ثم استل سيفه من الغمد وكان أول الهاتفين «هورا!» فسرت في أوصاله رعشة طفيفة معهودة ، فدفع بجواده هذباً شطر القرية . وجعلت الأعنة المشدودة تختلج في يسراه ، وراح سيفه المرفوع فوق رأسه يفح في مهب الريح .

كانت ثمة غيمة بيضاء هائلة ساقتها نسائم الربيع فحجبت الشمس دقيقة أو اثنتين ، وانسل ظل رمادي عبر المرتفع ببطء متظاهر ثم أدرك غريغوري ، فحول عينيه من أكواخ كليموفكا لحظة إلى هذا الظل المنساب على الأرض الرطبة البنية ، ثم إلى النور الأصفر الوهاج البهيج يلوذ بالفرار أمام الظل . وقد تملكته رغبة لاشعورية ، يستحيل وصفها ، للحاق بالنور الذي راح يجري على الأرض . فضرب جواده وأرسله يهذب بأقصى سرعته ،

بعد بضع دقائق من هذب يائس أشرق رأس الجواد المشرئب برشفة من نور الشمس ، والتمع أديمه الأحمر فجأة بوهج ذهبي أخاذ ، وفي تلك اللحظة لعلعت الطلقات من الشارع الذي أمامه فحملت الريح أصواتها إلى أذنيه ، ولم تمض ثانية حتى لم يسمع ، من خلال وقع سنابك جواده وأزيز الرصاص وهدير الريح عبر أذنيه ، دوي السرية الهاذبة من ورائه . لكأن دوي هذا الحشد الصاخب قد انداح من قرب أذنيه ، وكأنه يتلاشى في الأبعاد ، وبدت لعلة البنادق لأذنه أشبه بقرقعة الحطب في نار المخيمات ، ومضى الرصاص يئز من حوله . فالتفت ينظر إلى وراء بحيرة وفزع ، فشوّه الذهول والغضب قسمات وجهه . فقد دارت السرية بالخيل على أعقابها وعادت تهذب من حيث أتت ، وها هم يتخلون عنه ، وكان آمر السرية وراءه مسافة قصيرة واقفاً في ركابيه يلوح سيفه بارتباك وهو يبكي ويصرخ بصوت كسير أجش . لم يكن وراء غريغوري سوى قوزاقيين ، أما بروخور زيكوف فقد أدار حصانه ومضى يرقل إلى آمر السرية ، وأما الآخرون فقد تشتتوا وانطلقوا من حيث أتوا وهم يعيدون سيوفهم إلى أغمادها ويعملون السياط بخيلهم .

فأوقف غريغوري جواده لحظة وجيزة محاولاً استجلاء ما حدث وراءه ، ومادعا السرية تنقلب على أعقابها فجأة وتلوذ بالفرار ، قبل أن يسقط منها أي رجل ، وفي تلك اللحظة عقد غريغوري عزمه : لن يعود على أعقابه ، لن يهرب ، بل سيمضي قدما . ورأى أمامه سبعة بحارة حمر منهمكين حول رشاش محمول على عربة وراء سياج على نحو مائتي خطوة منه ، كانوا يجاهدون لإدارة الرشاش وتصويبه إلى القوزاق ، إلا أن الزقاق كان ضيقاً . وقد فترت نيران البنادق وقل عدد الرصاص الذي كان يئز من فوق رأسه ، فأدار جواده ليدخل إلى الزقاق عبر حاجز متهدم .

وما إن رفع عينيه عن الحاجز حتى شاهد البحارة أمامه على مسافة قصيرة بكل جلاء ، لكأنه يتطلع اليهم خلال منظار ، وكانوا يهرعون لحل شداد الجواد عن العربة ، ولاحت وجوههم مستديرة سمينة على نحو غريب

لأن قبعاتهم المسطحة ثبتت على رؤوسهم باحكام وهم بسترهم السوداء الملطخة بالطين وكان اثنان منهم يقطعون الأحزمة وثالث قد جثم فوق الرشاشة ، وكان الباقون بين راكع وواقف يطلقون النار على غريغوري من بنادقهم ، وفيما دنا منهم يرقل على حصانه استطاع أن يرى أصابعهم تعالج الترابيس بشكل محموم وسمع الطلقات تدوي أمامه مباشرة .

وكان الرمي من العجالة وأعقاب البنادق ترتفع إلى المنال بسرعة بحيث خالط غريغوري ، والعرق يتصبب منه ، يقين بهيج مباغت أنهم لن يصيبوه .

خشخش السياج من تحت حوافر جواده ثم خلفه وراءه فرفع سيفه وسمر عينيه في أقرب بحار إليه ، واعترته رجفة أخرى من الخوف لفحته كالبرق : «سيطلقون علي النار أفقياً.. إلى صدر الحصان مباشرة.. سيلقي بي.. فينتهي أمري!» . طلقتان صوبتا إليه مباشرة ، تلتهما صيحة :«سنأسره حيا!ورأى أمامه وجهاً جريئاً ذا جبين حاسر وشرائط قبعة بحرية عليها اسم سفينة بأحرف ذهبية باهتة . وانتصب غريغوري في ركابيه وأهوى بسيفه فأحس به ينغرز في جسم البحار الهش اللين وأفلح بحار ثان جسيم في ارسال رصاصة في لحم كتف غريغوري الأيسر قبل أن يخر تحت ضربة من سيف بروخور وقد انفلق رأسه شطرين ، والتفت غريغوري على قعقعة ترباس بندقية : فإذا بالعين الصغيرة السوداء لماسورة بندقية تحدق فيه من وراء عربة المدفع الرشاش ، وأزّت الرصاصة فوق رأسه وهو يميل جانباً بشدّة زحزحت السرج وجعلت حصانه الفزع يترنح مزنخراً ، ثم وثب حصانه عبر العمود الوسطى للعربة وقضى غريغوري على الرجل قبل أن يتسنى له الوقت لحشو بندقيته من جديد ، وما أن مضت لحظة (كان يتصورها حين كانت تعود به الذاكرة إليها بعدئذ) حتى كان قد أعمل سيفه في أربعة بحارة ، وهم بخامس يجري عند منعطف الزقاق ، غير مبال بصيحات بروخور إلا أن آمر السرية انطلق بحصانه فاعترض طريق غريغوري وأمسك جواده من شكيمته :

ـ إلى أين ذاهب ؟ سيقتلونك! عندهم مدفع رشاش ثان خلف تلك السقيفة .

وهرع قوزاقيان آخران إليه مع بروخور الذي كان قد ترجل ، فأنزلوه من عن جواده عنوة . وجعل يقاوم بين أيديهم ويصيح :

ـ أتركوني ياخنازير! سأقتلهم ، سأقتلهم جميعاً .

فتضرع إليه بروخور زيكوف قائلاً :

ـ ـ غريغوري بانتلايفش! أيها الرفيق ميليخوف! عد إلى صوابك!

فرجاهم بصوت ذاو متغير : «اتركوني ، ياإخوان!» فخلوا عنه ، وهمس آمر السرية إلى بروخور قائلاً :

ـ ضعه على حصانه ، وعد به . أظنه مريضاً .

كان آمر السرية على وشك الذهاب إلى حصانه حين رمى غريغوري قبعته على الأرض ووقف يترنح . وبغتة صرّ بأسنانه وشاهت قسمات وجهه على نحو فظيع ، وندت عنه أنّة مريعة ، وشرع يفتح أزرار معطفه . وإذ خطا آمر السرية عائداً إليه خرّ على وجهه حيث كان واقفاً ، وصدره الحاسر إزاء الثلج . وراح يبكي ويختض مع بكائه ، وشرع يلعق الثلج الذي تحت السياج كالكلب .وفي لحظة عجيبة من الصفاء الذهني حاول أن ينهض على قدميه . ولكن ذلك كان عبثاً فأدار وجهه المتضور الملطخ بالدموع إلى القوزاق الواقفين حوله ، وصاح بصوت متكسر وحشي :

ـ من قتلت ؟

ولأول مرة في حياته جعل يتلوى في نوبة عصبية وهو يصرخ ويبصق زبداً من بين شفتيه :

ـ إخواني ، أنا لاأستحق غفراناً.. أقتلوني... . قطّعوني بالسيف بحق الرب!... أقضوا علي... .

فهرع آمر السرية وضابط فصيل إليه وألقيا نفسيهما عليه وجرداه من حقيبة الميدان وحمائل سيفه ، وسدّا فمه وشدا ساقيه إلى الأرض ولكنه

ظل ينافح من تحتهم فترة طويلة ، مبعثراً الثلج بساقيه اللتين كانت تخبطان بارتعاص ، وظل يدق رأسه على الأرض الثرة السوداء التي حفرتها سنابك الخيل ، على الأرض التي ولد عليها وعاش فيها نصيبه الكامل من الحياة المترعة بالمصائب والضنينة بالأفراح . لاينمو على الأرض غير العشب متقبلاً بلا مبالاة مايأتيه من نور الشمس وماء المطر ، ومقتاتاً على أنساغه مانحة الحياة مطأطئاً هامته في مهب العواصف العاتية . ومن ثم يذرو حبه في الريح ويموت باللامبالاة ذاتها ، فتستقبل سيقانه الذاوية شمس الخريف بترحاب...

٤٥

في اليوم التالي أوكل غريغوري قيادة الفرقة إلى أحد أمراء الكتائب ، وانطلق إلى فيشنسكايا بصحبة بروخور زيكوف . وحين تعديا كارسينسكايا شاهدا سرباً كبيراً من الأوز البري حاطا على بركة في وهدة عميقة . فأشار بروخور إلى الأوز بسوطه وابتسم :

ـ جميل أن نصطاد أوزة ، يا غريغوري بانتلايفتش . إنها خير ما يؤكل مع شيء من الفودكا المحلية .

فقال غريغوري :

ـ سنقترب منها ، وأجرّب بندقيتي . كنت ذات يوم هدافاً لا بأس به .

انحدرا إلى الوهدة ، وتوقف بروخور مع الجوادين فوق ناصية التل في حين خلع غريغوري معطفه ، وأحكم سداد الأمان على بندقيته ، وراح يزحف في شعب ضيق يغطيه دغل رمادي اللون خلّفه العام المنصرم . ظل يزحف وقتاً طويلاً ، لا يكاد يرفع رأسه ، لكأنه يستطلع نقطة أمامية للعدو كما فعل يوم أسر الحارس الألماني على نهر ستوخود ، وكان قميصه الخاكي الحائل يماثل لون الأرض البنية المخضوضرة ، وقد ستره العشب عن العينين

الحادتين للفحل الحارس الذي كان واقفاً على ساق واحدة عند حافة الماء . ظل غريغوري يزحف حتى غدا بوسعه أن يحسن مرماه ، ثم رفع نفسه قليلاً . فأدار الفحل عنقه الرمادي الثعباني وراح يجيل النظر فيما حوله باحتراس . وكان الاوز يعوم فوق الماء ويغوص ويجذف . وبلغ أذنه الصوت الخافت لثرثرته وخبطه على الماء . وفكّر في نفسه : « بوسعي أن أضبط الهدف عبر سدادة مرماي» . ثم رفع البندقية إلى كتفه وقد اشتد وجيب قلبه ثم سدد مرماه إلى الفحل .

وحالما أطلق الرصاصة هبّ إلى قدميه وقد أصم اذنيه خفق الأجنحة وصياح الأوز . وطار الفحل الذي سدد إليه الرصاصة وراح يبذل جهداً مخبولاً للتحليق . أما بقية الأوزفقد ارتفع فوق البركة مثل العنقود . وأطلق رصاصتين أخريين على غيمة الطيور ، ولبث يترقب ليعرف ما إذا أصاب أوزة ، ثم دار على عقبيه ورجع إلى بروخار قانطاً .

وصرخ بروخور إليه :« انظر! انظر! » ووثب إلى سرجه وانتصب عليه وهو يؤشر بسوطه إلى الاوز المتلاشي في المدى الأزرق .

التفت غريغوري فسرت فيه رعشة الفرح وأطربته نشوة الصياد المنتصر . فقد تخلفت إوزة عن السرب وجعلت تهبط بسرعة ، وجناحاها يرفان بوهن بين حين وآخر .وراح غريغوري يراقبها وهو واقف على رؤوس أصابعه واضعاً يده فوق عينيه . وفجأة سقط الطائر كالحجر ، والتمع جناحاه في ضوء الشمس ببياض يخلب الابصار .

فدنا بروخور من غريغوري طافحاً بالبشر وألقى إليه عنان جواده وانطلق الاثنان على امتداد المنخفض . فألفيا الأوزة راقدة وقد مدّت عنقها ونشرت جناحيها وكأنها تحاول احتضان الأرض القاسية . فمال غريغوري في سرجه والتقط غنيمته .

سأله بروخور :

ـ أين أصبتها ؟

وتبين أن الرصاصة قد نفذت خلال منقار الطائر وهشمت العظم المحيط بمحجر العين . وقد لفظ أنفاسه وهو طائر ، فانتزعه الموت من السرب وأهوى به إلى الأرض . فشدّه بروخور إلى قربوس سرجه ، ومضيا في طريقهما .

عبرا الدون في قارب ، تاركين جوادهما في قرية بازكي .

وفي فيشنسكايا توقف غريغوري في بيت قوزاقي من معارفه القدماء ، ورجاه أن يطبخ الأوزة في الحال ، ثم أرسل بروخور في طلب الفودكا . ولم يحاول أن يذهب إلى الأركان . ولبثوا يشربون حتى العصر وأثناء الحديث شرع القوزاقي العجوز يبث شكواه ، اذ قال :

ـ الرئاسة هنا تتطاول ، ياغريغوري بانتلايفتش .

فسأله غريغوري قائلاً :

ـ أي رئاسة ؟

ـ جماعتنا ، كودينوف والآخرون .

ـ ماذا يفعلون ؟

ـ إنهم لا يرحمون الناس الذين هم من غير القوزاق . فهم يعتقلون أهل كل من التحق بالحمر... يعتقلون النساء والأطفال والشيوخ . لقد حبسوا حماتي بسبب ابنها . ولكن أي معنى في هذا ؟ لنفرض جدلاً أنك التحقت بالكاديت وذهبت معهم إلى الدونيتس ، فاعتقل الحمر أباك ، بانتلاي ، أفيكون هذا من الانصاف في شيء ؟ ها ؟

ـ طبعاً لا .

ـ ولكن حكومتنا تقوم الآن باعتقالهم . حين جاء الحمر إلى هنا لم يسيؤوا إلى أحد ، ولكن جماعتنا قد مسهم الجنون ، وليس بالإمكان ردعهم .

فقام غريغوري ، وهو يترنّح قليلاً ، ثم تناول معطفه المعلق على عمود السرير . وكان به ثمل طفيف ، وصاح :

ـ بروخور! هات سيفي ومسدسي!
ـ الى أين ذاهب ، يا غريغوري بانتلايفتش ؟
ـ ليس هذا من شأنك . افعل ما تؤمر به .
وعلّق غريغوري سيفه ومسدسه ، وزرر معطفه ، وتحزّم بالنطاق ، وذهب إلى السجن القائم على الساحة مباشرة . فاعترض الحارس المسؤول طريقه عند البوابة وطلب منه بطاقة المرور .
ـ تنح جانباً ، أنا آمرك!
ـ لا يمكنني أن أدع أحداً يدخل بدون بطاقة مرور .
وقبل أن يفلح غريغوري في استلال سيفه من غمده ، هرب الحارس خلال الباب . فتبعه غريغوري إلى الممر ويده ماتزال على مقبض سيفه . وصاح :
ـ أريد مدير السجن .
كان وجهه ممتقعاً ، وحاجباه معقودين فوق أنفه المعقوف . فجاء اليه قوزاقي قميء أعرج وهو سجّان وأطل صبي كاتب برأسه من المكتب . وبعد لحظة ظهر المدير نعسان مغتاظاً .
وهدر قائلاً : « أنت تعرف أنك لا تستطيع بدون بطاقة... » ولكنه حين عرف غريغوري وحدّق في وجهه تأتأ قائلاً :
ـ هو أنت ، يا صاحب الـ...أيها الرفيق ميليخوف ؟ ماذا تريد ؟
ـ مفاتيح الزنزانات .
ـ الزنزانات ؟
ـ حسناً ، أينبغي لي أن أقولها عشر مرات ؟ أعطني المفاتيح ، ياوغد .
وخطا غريغوري نحو الرجل ، فتقهقر هذا . إلا أنه استطاع أن يجيب بتبات :
ـ لن أعطيك المفاتيح . ليس من حقك...
ـ حق! ـ وصرّ غريغوري بأسنانه واستل سيفه . فرسم السيف الصافر

بيده دائرة تحت سقف الممر الواطئ . ولاذ الكاتب والسجان بالفرار كعصفورين فزعين ، والتصق المدير بالحائط ، وقد غدا وجهه أشد بياضاً من الجبس ، وهس من بين أسنانه :

ـ خذها ... ولكني سأرفع عليك الشكوى .

ـ سأعطيك سبباً جيداً للشكوى! أنتم اعتدتم على حياة المؤخرة بعيداً عن الجبهة أكثر من اللازم . يا لكم من رجال شجعان ، تعتقلون النساء والشيوخ! سأهزكم كلكم هزاً : رح إلى الجبهة أيها الخنزير ، والا فإني سأذبحك في مكانك .

ثم أعاد غريغوري سيفه إلى غمده ولطم المدير المرتعب بجمع يده وراح يسوقه بركبته وقبضته إلى الباب الخارجي وهو يهدر :

ـ إلى الجبهة! هيا! هيا! اللعنة عليكم ... . يا قمل المؤخرة!

ثم دفع الرجل خارجاً وحين سمع ضوضاء في باحة السجن الداخلية هرع إلى هناك . كان ثلاثة سجانين واقفين عند مدخل المطبخ ، وأحدهم يمسك بندقية يابانية صدئة وهو يصيح بعجالة :

ـ السجن يتعرض لغارة . علينا أن نطرده ، ماذا تقول التعليمات القديمة ؟ ماذا تقول التعليمات القديمة ؟

فأخرج غريغوري مسدسه ، فهرع السجانون إلى داخل المطبخ عجالى يسابق بعضهم بعضاً .

هدر غريغوري :« أخرجوا كلكم واذهبوا إلى بيوتكم! » وفتح أبواب الزنزانات المزدحمة وهو يهز قبضة من المفاتيح . وأطلق سراح كل المساجين ، وكانوا زهاء مائة شخص ، وأخرج بالقوة أولئك الذين كانوا يخافون الخروج ، وساقهم إلى الشارع ثم أوصد أبواب الزنزانات الخاوية .

وبدأ حشد من الناس يتجمع خارج بوابة السجن . وتدفق السجناء الذين أطلق سراحهم إلى الساحة وخفّوا إلى بيوتهم .

وجاء قوزاق الحرس من داخل مقر هيئة الاركان يتراكضون عبر الساحة إلى السجن يصحبهم كودينوف وهو يتعثر .

وكان غريغوري آخر من غادر السجن الخاوي . وفيما كان يمر خلال الحشد أطلق سيلاً من السباب على جمهور من نسوة فضوليات علت ثرثرتهن . وسار ببطء ، محدودب الكتفين ، ليلقى كودينوف . واذ عرفه الحرس القوزاق الذين كانوا يهرولون عبر الساحة ، أدوا له التحية ، فصاح بهم :

ـ عودوا إلى مقركم ، يا أولاد! علام تتراكضون ؟ عادة سر!

ـ سمعنا أن هناك تمرداً في السجن ، أيها الرفيق ميليخوف .

ـ جاء إلينا صبي كاتب راكضاً وقال أن الرجل الأسمر يحطم الأقفال .

فرد عليهم : ـ كان ذلك إنذاراً كاذباً .

فعاد القوزاق أدراجهم يتضاحكون ويثرثرون . فأسرع كودينوف يتقدّم إلى غريغوري ، وهو يمسد شعره الطويل المتدلى من تحت قبعته . وصاح :

ـ مرحباً ، ميليخوف! ماالأمر!

ـ سلامتك ، يا كودينوف! اقتحمت سجنكم لتوي .

ـ على أي أساس ؟ ما لعبتك ؟

ـ أخرجتهم جميعاً . علام تحدّق ؟ على أي أساس كنتم تعتقلون النساء والشيوخ ؟ ما هذه اللعبة التي تلعبونها ؟ احذر يا كودينوف!

ـ لا تتصرف على هواك .هذا تسلط .

ـ سأرسلك إلى قبرك! سأعود بكتيبتي من كاركينسكايا في الحال ، وحينذاك سأريك ما هو التهور!

وفجأة أمسك غريغوري كودينوف من حزامه الجلدي القفقاسي ، وأخذ يهزه وهو يهمس بغيظ بارد :

ـ سأفتح الجبهة في الحال ، إن كان ذلك يروق لك . سوف أخرج روحك من جسدك ها هنا إن أردت ذلك .

وصرّ على أسنانه ثم حل قبضته عن كودينوف الذي كان يبتسم بهدوء . وسأله : « علام تكشّر ؟ » .

فسوى كودينوف حزامه ، وأمسك بغريغوري من ذراعه قائلاً :

ـ تعال معي إلى غرفتي . لماذا فار دمك ؟ ينبغي أن ترى كيف تبدو... كالشيطان بعينه! كنّا نتطلّع إلى مجيئك . أما عن السجن ، فليس هذا أمراً ذا بال . أطلقت سراحهم ، ولابأس ، لا ضير في ذلك . سأقول للأولاد ألا يتشددوا في اعتقال النساء اللواتي يحارب أزواجهن في صفوف الحمر . ولكن ماالذي يجعلك تقوض سلطاننا هنا ؟ آه ، يا غريغوري ، انك لفتى عنيد . كان بوسعك أن تأتي الينا وتقول : ينبغي اطلاق سراح السجناء ، أو ما إلى ذلك . لكان بإمكاننا آنذاك أن نراجع القوائم ونطلق سراح البعض منهم . ولكنك أطلقت سراحهم جميعاً . لقد أحسنّا صنعاً بعزل المجرمين الخطرين عن البقية .

فلو أنك أطلقت سراحهم... يالك من رجل حاد الطبع!

وصفق على كتف غريغوري وضحك ، ثم أردف :

ـ حتى أنت يمكن في حال كهذه أن تقتل أي رجل يحاول أن يعترض عليك . وأسوأ من هذا أنك شرعت في إثارة القوزاق...

فانتزع غريغوري ذراعه من قبضة كودينوف وتوقف خارج مقر هيئة الأركان :

ـ أصبحتم كلكم شجعاناً هنا ، وراء أظهرنا ، ملأتم السجون بالناس! بوسعكم أن تظهروا قابليتكم هناك في الجبهة .

ـ أظهرتها في أيامي ولست أسوأ منك . أنا الآن على الاستعداد لأن أفعل ذلك . تعال خذ مكاني ، وسأتولى أنا فرقتك .

ـ كلا ، شكراً .

ـ تلك هي المسألة تماماً .

ـ ولكننا نضيع وقتاً طويلاً هنا في الحديث دونما طائل . أنا ذاهب إلى

أهلي لأستريح بضعة أيام . لست في حالة جيدة . جرحت في كتفي .

ـ ماذا تشكو ؟

فابتسم غريغوري ساخراً :

ـ الحنين ليتآكلني . قلبي مسحوق .

ـ لا! ولكن دعك من المزاح ، ماذا به ؟ لدينا طبيب بين الأسرى هنا ، وقد يكون استاذاً ، كان يرافق البحارة في شوميلينسكايا . انه رجل مهيب الطلعة يضع عوينات سوداء . دعه يعاينك .

ـ ليذهب إلى الشيطان .

ـ حسناً إذاً ، اذهب إلى أهلك واسترح . لمن أوكلت قيادة الفرقة ؟

ـ لريابتشيكوف .

ـ ولكن انتظر لحظة . ما الداعي للعجلة ؟ أخبرني بما يجري في الجبهة . بلغني أحد البارحة أنك قتلت عدداً لا يحصى من البحارة في كليموفكا . أصحيح هذا ؟

ـ مع السلامة ـ وسار غريغوري مبتعداً ، ولكنه حين قطع بضع خطوات ، استدار نصف استدارة وصاح : «إن سمعت أنكم بدأتم في الاعتقالات ثانية...» .

ـ لا ، لا تقلق... تمتع براحة جيدة .

كان النهار ينسحب الى الغرب في اثر الشمس . وتسللت ريح قارصة من الدون . وطار من فوق غريغوري سرب من البط البري وقد علا حفيف أجنحتها ، وفيما كان غريغوري يدخل فناء الدار بلغ أذنيه قصف المدافع من أعالي النهر .

فأسرج بروخور الجوادين بسرعة ، وسأل فيما كان يقودهما خارجاً :

ـ إلى أين ؟ تتارسكي ؟

فأخذ غريغوري الأعنَة ، وأومأ برأسه ايجاباً .

٤٦

كانت تتارسكي تحيا في غياب القوزاق حياة خاوية ملؤها السأم . كان رجالها قد جندوا في سرية مشاة وأرسلوا عبر الدون للالتحاق مؤقتاً بإحدى كتائب الفرقة الخامسة .

كانت قطعات الحمر قد عُززت فشنّت من الشمال الشرقي هجوماً عنيفاً فاستولت على عدد من القرى وأخذت تتقدم صوب يلانسكايا . ولكن النصر حالف المتمردين في الاشتباك العنيف الذي أعقب ذلك . وكان ذلك لأن كتيبتي يلانسكايا وبوكانوفسكايا المتقهقرتين أمام كتيبة موسكو التابعة للجيش الأحمر وسريتين من الخيالة قد وصلتهما امدادات قوية . وقد أرسلت كتيبة المتمردين الرابعة التابعة للفرقة الأولى (التي ضمت سرية تتارسكي) وبطارية من ثلاثة مدافع ، وسريتين من الخيالة الاحتياط ، صعدا على امتداد الضفة اليسرى من الدون فيما حشدت امدادات قوية في القرى التي تواجه يلانسكايا تقريباً . ونصبت بطاريه على التل المطل على كريفسكايا . وكان أحد المدفعيين ، وهو قوزاقي من تلك القرية ، مشهوراً بدقة رمايته ، فسحق أحد مكامن الرشاشات الحمر بقذيفته الأولى ، وبقذيفتين أو ثلاث من قذائف المنشار ، وألحق الهزيمة بجنود الجيش الأحمر المتسترين في أجمة من الصفصاف . فانتهت المعركة لصالح المتمردين وراحوا يتعقبون وحدات الحمرعبر نهر يلانكا ، وأرسلوا وراءهم احدى عشرة سرّية من الخيالة فلحقت سرية من خيالة الحمر وأعملت فيها القتل والذبح على التل القريب من قرية زاتولوفسكي .

ومنذ تلك المعركة ظل مشاة تتارسكي يجرون الخطى على التلال الرملية الواقعة في الجانب الأيسر من الدون . ونادراً ما تيسّر لأي منهم أن يعود إلى قريته بإجازة . وحدث مرة واحدة فحسب في عيد الفصح أن عاد نصف سرية تتارسكي المشاة إلى القرية وكأن بينهم اتفاقاً سرياً ، فأمضوا

هناك يوماً ، وغيروا ملابسهم ، وتزودوا بشحم الخنزير ، والخبز المقسب ، وسواهما من المأكولات ، ثم عبروا الدون مثل جمع من الحجاج يحملون البنادق بدل العصي ، ومضوا يجرجرون الخطى شطر منطقة يلانسكايا .

وقد وقفت زوجاتهم وأمهاتهم وأخواتهم على التل المطل على تتارسكي يرقبنهم وهم يمضون في مسيرتهم . وكانت النسوة يعولن حزناً ، فيمسحن عيونهن بأطراف عصاباتهن ومناديلهن ، ويتمخطن في أذيال تنوراتهن الداخلية ، وعلى امتداد الضفة الأخرى من الدون ، وفوق الكثبان الرملية مضى القوزاق يغذون السير : كريستونيا وأنيكوشكا وبانتلاي بروكوفيتش وستيبان أستاخوف وآخرون . وكانت الاكياس التي تضم زادهم مدلاة من حرباتهم المثبتة على البنادق ، والريح تحمل أناشيدهم ، حزينة كعطر الشمّام البري ، وكانوا يتحدثون فيما بينهم بفتور . ساروا حزانى ، بيد أن الشبع والنظافة كانا باديين عليهم ، فقد سخنت زوجاتهم وأمهاتهم الماء عشية العيد وغسلن أجسامهم الكالحة من القذارة ، ومشّطن القمل المترع بالدم من شعورهم . فلم لا يبقون بين أهليهم ينعمون بمسرات الحياة ؟ ولكن لا ، كان عليهم أن يرحلوا لملاقاة الموت . وقد رحلوا . كان بينهم صبيان في السادسة عشرة والسابعة عشرة من العمر قد جندوا حديثاً في صفوف المتمردين . فخلع هؤلاء صنادلهم وجزماتهم وساروا حفاة على الرمل الدافيء . كانوا في غمرة فرح لايدرون له سبباً ، وبوسعهم أن يتحدثوا بمرح ويشرعوا في الغناء بأصواتهم الفتية الراعشة . كانوا يجدون في الحرب طرافة كالتي يجدونها في لعبة جديدة . وكانوا أثناء الأيام الأولى من القتال يرفعون رؤوسهم من على الأرض القاسية لينصتوا إلى الرصاص يئز من فوقهم . وكان قوزاق الجبهة يزدرونهم ويلقبونهم بـ « الحلفاء الخضراء » فيما يعلمونهم حفر الخنادق والرمي وحمل تجهيزاتهم أثناء السير ، وكانوا يعلمونهم حتى فن تفلية قملهم ولف قماش أقدامهم . بحيث لا يكادون يحسون بجزماتهم الثقيلة على أقدامهم ولكن الصبي يجيل حول الحرب التي تحيط به عينا

مستغربة كعين الطائر رافعاً رأسه ليتطلع من الخندق وقد ألهبه الفضول جاهد
ماوسعه أن يرى «الحمر» حتى تصيبه رصاصة جندي أحمر ، وهو في غمر
هذا الفضول . فاذا ماكانت المنية نصيب هذا «الجندي» ذي السادسة عشر
تمدد ليرقد كطفل كبير بذراعيه الصبيانتين البضتين ، وأذنيه الكبيرتين
وتباشيرجوزة الحلق في عنقه النحيف ، ومن ثم يحملونه إلى قريته ليوارى في
القبر حيث يتعفّن أسلافه . فتلقاه أمه وهي تعصر يديها وتنوح على جثمان
وتجز الشعر الأشيب من رأسها . وحين توارى الجثة ويبدأ الطين في الجفاف
على رابية القبر ، تحمل الأم الهرمة المحدودبة أحزانها التي لا ينطفئ أوارها
إلى الكنيسة ، وهناك تحيي ذكرى ولدها الذي «مات وارتحل» .

أما اذا لم تصبه الرصاصة بجرح مميت ، فإن الصبي يبدأ حينذاك في
إدراك طبيعة الحرب التي لاترحم فتختلج شفتاه وتلتويان ، فيصرخ
«الجندي» بصوت طفولي : «آه ، أماه ، أماه!» وتسيل عبرات صغيرة من
عينيه . ثم تخضه عربة الاسعاف خضاً على الحقول التي لم يمهد فيها طريق
فيؤلمه جرحه ، ويغسل مضمد السرية الجرح ويواسيه ضاحكاً وكأنه يواسي
طفلاً : «كفاك ، يافانيا ، لاتقل إنك ستموت!» ولكن «فانيا الجندي»
يمضي في بكائه ، ويستأذن في الذهاب إلى أهله أو استدعاء أمه . واذا
ماتماثل للشفاء وعاد إلى سريته ، فإنه حينذاك سيفهم الحرب كل الفهم
ولن يمضي اسبوع أو اسبوعان في المعارك ، في القتال بالحراب ، حتى تراه
واقفاً أمام جندي أسير من الجيش الأحمر ، وقد باعد بين قدميه ، يبصق
شأن أي رئيس عرفاء فظ ، وتسمعه يفح خلال أسنانه ليقول : « حسناً
أيها الفلاح ، إذاً فقد وقعت في الفخ ، أيها النغل! كنت تريد الأرض إذاً
وتريد المساومة ؟ أحسبك شعوعياً* ، هيا تكلم ، أيهاالثعبان!» ولهفة منه
لإظهار جرأته ، و«بسالته القوزاقية» يرفع بندقيته ويقتل الرجل الذي عاش

* يقصد شيوعياً . المترجمون

ومات على أرض الدون ، محارباً من أجل الحكم السوفييتي ، في سبيل الشيوعية ، في سبيل إلغاء الحرب من على وجه البسيطة .

وفي موضع ما في إقليم موسكو أو في اقليم فياتكا ، في قرية نائية من قرى روسيا السوفييتية الكبرى ، تتلقى أم إشعاراً بأن ولدها قد « استشهد في حومة النضال ضد الحرس الأبيض ، في سبيل تحرير الكادحين من نير الملاكين والرأسماليين » . وتعول ، والدموع تنساب على وجنتيها . ويتآكل الحزن المستعر قلب الأم ، وفي كل يوم حتى مماتها ستذكر ذاك الذي حملته في رحمها ، وولدته في غمرة الدم وعذاب المرأة ، ذاك الذي سقط على يد عدو في مكان ما من أصقاع الدون الغربية...

سار نصف سرية مشة تتارسكي فوق الكثبان الرملية وخلال أشجار الصفصاف الوردي ، كان الفتيان يسيرون فرحين لاتثقل كواهلهم الهموم ، أما الكبار فكانوا يرسلون الحسرات ويبكون دموعاً لاتراها العين . فقد آن أوان الحراثة ، والبذار ، فالأرض ما انفكت تناديهم ، تناديهم ليل نهار ، بينما يتأتى عليهم المضي إلى القتال ، ومعاناة الضنى في قرية غريبة من جراء البطالة المفروضة عليهم ، والخوف ، والفاقة ، والحنين . ذاك هو ما استدر العبرات من عيون الرجال الملتحين ، وما نشر الكآبة فوق رؤوسهم وهم سائرون ، ويتذكر الجندي حقله المهجور وحيواناته وأدواته . فكل شيء يحتاج إلى يد الرجل ، وكل شيء ينوح في غيبة السيد المشرف . فما عسى المرأة فاعلة ؟ ستجف الأرض فلا ينبت الزرع ، وستلوح نذر المجاعة في العام المقبل . فليس عبثاً أن يقال : حتى الشيخ أفضل من المرأة في الحقل .

وهكذا سار الكبار على الرمل صامتين . ولم تدب فيهم الحياة إلا حين أرسل أحد الفتيان رصاصة في أعقاب أرنب بري .فقرر الكهول معاقبة المخالف لتبذيره تلك الرصاصة المفيدة (اذ كانت قيادة المتمردين قد منعت ذلك منعاً باتاً) فانصب غضبهم على رأسه . واقترح بانتلاي بروكوفيتش :

ـ يستحق أربعين جلدة .

ـ هذا فوق طاقته .

ـ فلن يستطيع بلوغ الجبهة بعد ذلك .

وهدر كريستونيا قائلاً :

ـ ست عشرة .

وقر قرارهم على الست عشرة ، فمددوا المذنب على الرمل وأنزلوا سرواله . وراح كريستونيا يترنم بلحن ما وهو يقتطع أغصاناً من صفصاف الهر تغطيها عراجين صفر منفوشة . وتولى أنيكوشكا الجلد فيما جلس الآخرون يدخنون من حوله . ثم استأنفوا مسيرتهم ، والمسكين من ورائهم يجرجر خطاه ويمسح دموعه ويشد حزامه .

وما إن بلغوا نهاية الأرض الرملية البور وخرجوا إلى الأرض الصالحة للزراعة حتى بدأ الحديث الهادئ ، تنهد أحد الشيوخ وهو يشير إلى رقعة من الأرض قد جفت تماماً :

ـ تلك هي الأرض الحبيبة في انتظار سيدها ، وهو في شغل شاغل عنها ، يجري في الفيافي والوديان لأمر لا يعلم كنهه إلا الشيطان .

واذ مروا بحقول انحنى كل قوزاقي ، والتقط كتلة من التربة الجافة التي لفحتها الشمس وفتتها بين راحتيه ، وهويكظم حسرة :

ـ الأرض تنتظر .

ـ إنها تنتظر المحراث بكل لهفة .

ـ ثلاثة أيام أخر ويفوت أوان البذار هنا .

ـ الربيع مبكّر في صوبنا .

ـ مبكر! ألا ترى الثلج مايزال جاثماً في الأخاديد!

وتوقفوا لينالوا استراحة الظهيرة . وقدّم بانتلاي بروكوفتش إلى الصبي المعاقب شيئاً من اللبن الرائب . وكان قد حمله في كيس من الكتان شدّ إلى نهاية ماسورة بندقيتة ، والماء يقطّر من الكيس طوال الطريق وقد

عاب أنيكوشكا عليه قائلاً : « إنك تترك وراءك مسرباً مثل ثور هرم ، يا بروكوفتش » . واذ كان بانتلاي بروكوفتش يقدم اللبن إلى الصبي ، قال له :

ـ لا تحنق على من هم أكبر منك سنّاً ، أيها الأحمق الصغير . لقد جلدوك ، وهذا أمر تافه ، إن فتى مجلوداً خير من اثنين لم يجلدا .

ـ لو أنك ذقت طعمها أيها العم بانتلاي بروكوفتش ، لما تحدثت إليّ هذا الحديث .

ـ ذقت ما هو أمرّ من هذا ، ياولدي . لقد ضربني والدي ذات مرّة بعريش عربة على ظهري .

ـ بعريش عربة ؟!

ـ نعم . لماذا تنظر إليّ ؟ عليك أن تأكل من لبني . أين مقبض ملعقتك ؟ كسرته ، أليس كذلك ؟ يالك من جرو! إنهم لم يجلدوك هذا الصباح بما فيه الكفاية .

وبعد أن تناولوا وجبة الغداء استراحوا في هواء الربيع العاصف . وأغفوا بعض الوقت وظهورهم إلى الشمس ، ثم راحوا يسيرون في السهب ذي اللون البني والرمادي ويطأون جذامات الزرع التي لم يقلبها المحراث . كانوا يرتدون قمصلات ، ومعاطف ، ومعاطف رعاة ، وفروات ، وكان لدى بعضهم جزمات ، أو صنادل وقد دسّوا سراويلهم الفضفاضة في جوارب بيض ، بينما كان البعض حفاة تماماً . وكانت أكياس زادهم مدلاة من حرابهم المثبتة على بنادقهم .

لم تكن سيماء الجند بادية على رجال هذه السرية من الهاربين ، حتى أن القبرات التي كانت تغرد في قبة السماء الزرقاء تحط على الحشيش بالقرب من أقدامهم .

* * *

ألفى غريغوري القرية خلواً من القوزاق . وفي صباح اليوم التالي لوصوله وضع ابنه ميشاتكا الذي بدأ يشتد عوده على حصانه وطلب إليه أن يورده من الدون ثم ذهب هو وناتاليا لزيارة حماته وغريشاكا العجوز .

فاستقبلته لوكينشنا بالدموع :

ـ غريشا ، يابني! نحن لا محالة هالكون بدون ميروننا ، رحمة الله على روحه . المخازن طافحة بالحب ، ولكن ليس هناك من يبذره . لقد تيتمنا ، ولم يعد أحد يلتفت إلينا ، إننا غرباء بين أهلينا ، منبوذون... انظر كيف يحل الدمار والخراب في بيتنا ، فليس لدينا من يقوم بالعمل .

كان البيت ، والحق يقال ، قد آل إلى خراب سريع . فقد كسرت الماشية الأسيجة المحيطة بالأفنية ، وتأكلت مياه الربيع الجدار الطيني للزريبة فبدأ ينهار ، وأمست ساحة درس الحبوب بلا سياج . وبدا الحوش قذراً ينتشر الروث في أرجائه ، وكان ثمّة مكائن زراعية معطوبة يعلوها الصدأ ملقاة عند السقيفة . كانت إمارات الإهمال والسوس بادية في كل مكان .

واذ راح غريغوري يجوب الفناء فكّر في نفسه قائلاً دون اكتراث : « كل شيء سائر إلى خراب في غياب السيد » . وعاد إلى المنزل فوجد ناتاليا تهمس لأمها . ولكن ما إن ظهر حتى خلدت إلى الصمت وافترت عن ابتسامة ملق ، وقالت :

ـ كانت ماما تسألني ، ياغريشا... أنت خارج إلى الحقول غداً . لعلك تبذر لها شيئاً من الأرض .

فسأل غريغوري قائلاً :

ـ ولكن ما حاجتك إلى بذار أي شيء ، يا أماه ؟ إن مخازنك طافحة بالقمح .

فصفقت لوكينشنا يديهاوسألته قائلة :

ـ ولكن ، ياغريشا ، ماذا عن الأرض ؟ لقد حرث ميروننا الراحل رقعة كبيرة من الأرض .

ـ حسناً ، ما بالها ؟ ستحول* اذا بقينا على قيد الحياة في الربيع المقبل فسنزرعها .

ـ ولكن كيف يمكن أن ندع الأرض تبور ؟

وحاول غريغوري أن يقنعها فقال :

ـ بوسعكم أن تبذروا عند انحسار سوح القتال .

على أن لوكينشنا لم تتزحزح عن مطلبها قيد أنملة . فغضبت عليه ، وفي آخر الآمر زمّت شفتيها المرتجفتين ، وقالت :

ـ اذا لم يتيسر لك الوقت ... يظهر أنك لا تود مساعدتنا .

ـ أوه ، حسناً! انني ذاهب غداً للبذار لنا ، وسوف أبذر شيئاً لكم . يكفي هذا . هل غريشاكا مايزال حياً ؟

فتألقت أسارير لوكينشنا في الحال وقالت :

ـ شكراً ، شكراً ، سأخبر أغريبيا أن تجلب البذور إليكم هذا اليوم . الجد ؟ الرب لا يأخذه إلى جواره . مازال حياً ولكنه خرف بعض الشيء . إنه يجلس في البيت طول الوقت ويقرأ الكتاب المقدس طول الليل . إنه بعض الأحيان يظل يتكلم ويتكلم دون أي معنى... . يتحدث بلغة الكنائس . بوسعك أن تذهب لتراه ، إنه في الغرفة الأمامية .

وقالت ناتاليا وهي تبتسم خلال دموعها :

ـ مررت لتوي به فقال لي : أيتها السفيهة لماذا لاتأتين لزيارتي أبداً ؟ سأموت قريباً ، ياعزيزتي . سأدعو الله لك يا حفيدتي الصغيرة . إنني أحن إلى التراب ، ياعزيزتي ، التراب يناديني ، فقد آن الأوان!

ذهب غريغوري لرؤية الشيخ فملأت منخريه رائحة البخور والسناخة والعفن ، رائحة رجل هرم رث الهيئة . كان غريشاكا مايزال يرتدي قمصلته العتيقة الرمادية بشرائط ياقتها الحمر ، وكان بنطاله في هيئة حسنة وجورباه

---

* تترك دون زرع إلى الموسم التالي . المترجمون

مرتوقين جداً . فمنذ زواج ناتاليا آلت العناية بالشيخ إلى حفيدته الثانية أغريبيا ، فراحت تعنى به عناية فيها من الحب والاهتمام ماكانت ناتاليا توليه إليه . كان ممسكاً بإنجيل على ركبتيه . فرفع إلى غريغوري نظره من تحت عويناته ، وفغر فاه ، وكشر عن أسنانه مبتسماً :

ـ ما زلت سالماً ، أيها الجندي ؟ إذاً فقد حماك الرب من الرصاص... . الحمد لله! اجلس .

ـ إذاً فأنت ماتزال بصحة جيدة ، يا جدي ؟

ـ هاه ؟

ـ قلت أما تزال بصحة جيدة ؟

ـ أنت فتى غريب ، غريب . كيف يمكن أن أكون بصحة جيدة في عمري هذا ؟ أكاد أبلغ المائة الآن . أجل ، قرابة المائة . كأنني في الأمس فقط كنت أجول بخصلتي وأنا شاب معافى ، وكأنني فقد أفقت اليوم لأجد نفسي عفناً في عفن . مرت الحياة مثل وميض البرق . ها قد مضت هذه السنون العديدة وتابوتي ملقى في السقيفة ، ولكن يبدو أن الرب نسيني . إني أتضرع إليه أحياناً فأقول : رباه أدر عينك الرؤوم إليّ ، أنا عبدك غريشاكا ، فأنا عبء على الأرض وهي عبء عليّ .

ـ أمامك عمر طويل ، أيها الشيخ . إن فمك مملوء بالأسنان .

ـ ماذا تقول ؟

ـ عندك أسنان كثيرة .

وغضب غريشاكا قائلاً :

ـ أسنان!إنك أحمق يافتى! لن تستطيع أن تبقي على روحك بأسنانك حينما تهم الروح بمغادرة الجسد . إذاً فمازلت تقاتل يا أبله ؟

ـ أجل ، مازلنا نقاتل .

ـ ويقاتل حفيدي ميتيا أيضاً . سيتعذب بما فيه الكفاية .

ـ سيتعذب حتماً .

ـ هذا ما قلته . ولكن من أجل ماذا تقاتلون ؟ أنتم أنفسكم لاتعرفون . كل شيء يجري وفق الإرادة الإلهية . ما سبب مقتل ميرون ؟ لأنه عصى الله ، فأثار الناس على الحكومة ، وما الحكومات إلا من عند الله جميعاً . حتى وإن كانت حكومة أعداء المسيح ، فهي من الله أيضاً ، قلت لميرون : «ميرون ، لاتقد الناس إلى الغواية . لاتثرهم على الحكومة» . ولكنه قال : «كلا ياأبتي ، لاأستطيع احتمالها . علينا أن نثور ، علينا أن نحطم هذه الحكومة ، إنها تسبب لنا الخراب . كنا يوماً نعيش عيشة الرجال ، ولكن ها نحن الآن أمسينا محضر شرذمة من الشحاذين» . وهكذا أذعن ميرون للغواية . من يشهر السيف يموت بالسيف . تلك حقيقة . يقول الناس إنك نصبت جنرالاً وإنك تتولى قيادة الفرقة ، ياغريشا . أصحيح هذا ؟

ـ أجل .

ـ ولكن أين هي شارات الكتف ؟

ـ لانستعملها الآن .

ـ لاتستعملونها الآن! أي جنرال أنت ، إذاً ؟ في الأيام الخوالي كان مرأى الجنرلات يسر الناظرين : كانوا ذوي صحة جيدة ، ضخام البطن ، مهيبي الطلعة . ولكن ها أنتذا... أنظر إلى نفسك! معطفك كله ملطخ بالوحل ، وليس عليك شارات كتف ، ولاقياطين بيض عبر صدرك ، إنك تعج بالقمل ، لعمري لقد أكلك القمل .

فانفجر غريغوري يهدر ضاحكاً . ولكن غريشاكا مضى في كلامه بحماس :

ـ لا تضحك ، يا وغد! أنت تقود الرجال إلى حتفهم ، أثرتهم على الحكومة . ارتكبتم إثماً كبيراً ، سوف يهلكونكم ويهلكوننا معكم . سيريكم الله مشيئته . ألم ينبئنا الانجيل بمتاعب عصرنا هذا؟ أصغ إلي وسأقرأ لك شهادة النبي أرميا .

وجعل الشيخ يقلب صحف إنجيله الصفر بأصابعه الشاحبة ، وشرع يقرأ ، وهو ينطق بكل مقطع على مهل* :

« أخبروا في الشعوب واسمعوا وارفعوا راية . اسمعوا لاتخفوا . قولوا أخذت بابل ، خزي بيل ، انسحق مردوخ . خزيت أوثانها انسحقت أصنامها . لأنها قد طلعت عليها أمة من الشمال هي تجعل أرضها خربة فلا يكون فيها ساكن . من إنسان إلى حيوان هربوا وذهبوا » ، أتفهم ذلك ، ياغريشا ؟ سيأتون من الشمال ويزهقون أرواحكم ، أيها البابليون . وأصغ إلى هذا :

« وفي تلك الأيام وفي ذلك الزمان يقول الرب يأتي بنو اسرائيل هم وبنو يهوذا معاً يسيرون سيراً ويبكون ويطلبون الرب إلههم » .

« كان شعبي خرافاً ضالة ، وقد أضلتهم رعاتهم . على الجبال أتاهوهم ساروا من جبل إلى أكمة . نسوا مريضهم » .

وسأله غريغوري دون أن يفهم إلا القليل من تلك اللغة القديمة :

ـ ولكن ماقصدك ؟ كيف لنا أن نفسر كل هذا ؟

ـ كذلك أنتم ، ياوغد ، ستهربون إلى التلال يامقلقي راحة الشعب . لستم رعاة للقوزاق ، بل أنتم أسوأ من شياه قطيعكم البلهاء . أنتم لاتعرفون ماتفعلون . أصغ إلى هذا :

« كل الذين وجدوهم أكلوهم » أرأيت! ألا يلتهمكم القمل الآن ؟

واعترف غريغوري قائلاً : « لامهرب من القمل » .

ـ وهكذا ينطبق القول عليكم تماماً . ـ ثم يمضي في قوله : ـ « وقال مبغضوهم لانذنب من أجل أنهم أخطأوا إلى الرب مسكن البر ورجاء آبائهم الرب . اهربوا من وسط بابل واخرجوا من أرض الكلدانيين وكونوا مثل كراريز أمام الغنم » .

---

* آثرنا نقل هذه الآيات بنصها من النسخة العربية للإنجيل (العهد القديم) : سفر أرميا–إصحاح ٥٠ المترجمون

«لأني ها أنذا أوقظ وأصعد على بابل جمهور شعوب عظيمة من أرض الشمال فيصطفون عليها . من هناك تؤخذ . نبالهم كبطل مهلك لايرجع فارغاً » .

«وتكون أرض الكلدانيين غنيمة . كل مغتنميها يشبعون يقول الرب : لأنكم قد فرحتم شمتم ياناهبي ميراثي ...» .

فقاطعه غريغوري قائلاً : ـ أيها الجد غريشاكا! هلا فسرت لي هذا كله بلغة بسيطة ، فلست أفهم من كل هذا شيئاً .

ولكن الشيخ راح يلوك شفتيه ، ومحدقاً فيه بنظرة شاردة ، وأجاب :

ـ سأنتهي خلال دقيقة . أصغ! «... وقفزتم كعجلة في الكلاء وصهلتم كخيل ، تخزى أمكم جداً . تخجل التي ولدتكم . ها ، آخرة الشعوب البريّة وأرض كاشفة وقفر . بسبب سخط الرب لاتسكن بل تصير خربة بالتمام . كل مار ببابل يتعجب ويصفر بسبب كل ضرباتها » .

فسأله غريغوري ثانية وقد أحس بشيء من الامتعاض :

ـ ولكن مامعنى كل ذلك ؟

فلم يجب الشيخ ، بل أغلق الإنجيل ورقد على الأريكة .

وفيما كان غريغوري يبارح الغرفة فكر في نفسه قائلاً : «كل الناس على هذه الشاكلة . ففي شبابهم ينعمون بحياة سعيدة . فيشربون مايتيسر لهم من الفودكا ، ويأثمون شأن غيرهم ، وفي شيخوختهم يشتد سعيهم لإنقاذ أنفسهم من غضب الله على قدر طيشهم أيام الشباب . هاهو غريشاكا ، لازالت لديه أسنان كأسنان الذئب ، يقولون أنه حين كان يعود إلى القرية من الخدمة العسكرية كانت نساء القرية يبكين جميعاً بسببه ، فقد كن طوع بنانه كلهن ، النحيفة فيهن والسمينة . وهاهو الآن ... لو بلغت مثل عمره فلن أصير على شاكلته فلست أنا من عشاق الإنجيل» .

وفيما كان غريغوري وناتاليا عائدين إلى البيت من زيارتهما جعل يفكر بحديثه مع الشيخ ، «ونبوءات» الإنجيل الغامضة المبهمة .

ومضت ناتاليا أيضاً هي الأخرى تسير دونما كلام . لقد أبدت لزوجها بروداً غير مألوف منذ عودته هذه ، والظاهر أن حكايات عن سلوكه مع نساء منطقة كاركينسكايا قد طرقت أذنيها . ففي مساء اليوم الذي عاد فيه ، أعدت فراشه في غرفة الاستقبال ، أما هي فقد نامت فوق الصندوق وغطت نفسها بفروة . ولم تنبس بكلمة لوم أو تتوجه إليه بأي سؤال ، ولم يقل غريغوري هو الآخر شيئاً في تلك الليلة شاعراً أن من الأفضل ألا يسألها عن السبب في استقبالها له بفتور لم يعهده من قبل .

ساراً في الشارع المهجور صامتين ، واشتد بهما شعور البعد عن بعضهما . كانت ريح دافئة رؤوم تهب من الجنوب ، وتجمعت في الغرب سحب بيض . وتناهى إليهما هدير رعد بعيد ، وتعطرت القرية بعطر الحياة المبارك تنشره البراعم المتفتحة والتربة الندية السوداء . وتسابقت أمواج بيض أعرافها على صفحة الدون الزرقاء حيث كانت الريح منعشة برطوبتها مرة برائحة الأوراق المتعفنة والأخشاب الندية ، وكان البخار يتصاعد من الطرف الأدنى للأرض المحروثة وهي رقعة سوداء كالمخمل تقع على امتداد سفح التل ، وشرع ضباب يرتفع وينساب فوق التلال الواقعة على جانب الدون . وراحت قبره تغرد فوق الطريق بنشوة عارمة ، وكانت الفئران البرية تصيء . ومن فوق هذه الأرض ، التي تطفح بعطاء سخي وطاقة موفورة تنبض بالحياة ، تعلقت شمس سامقة شموخ .

توقفت ناتاليا في وسط القرية على مقربة من جسر صغير يعلو أخدوداً تضج فيه مياه الفيضان ، وانحنت وكأنها تشد شريط حذائها ، ولكنها في الواقع كانت تريد أن تخفي وجهها عن غريغوري حين سألته :

ـ لِمَ لاتتكلم ؟

حسناً ، عم أتكلم ؟

ـ هناك مواضيع كثيرة للكلام... وربما أخبرتني كيف كنت تسكر في كاركينسكايا ، وكيف كنت تجري وراء العاهرات ... .

ـ يبدو أنك تعرفين ذلك... .

وأخرج غريغوري كيس تبغه وشرع يلف لنفسه سيكارة .

وقد اشتعل مزيج البرسيم والتبغ المنزلي بأريج ذكي ، فأخذ نفساً أو نفسين ، ثم عاد يسألها :

ـ إذاً فقد سمعت بالأمر ؟ من أخبرك ؟

ـ بما أني أستطيع التحدث في الأمر ، فلا شك أني على معرفة به ، فالقرية برمتها تعرف ذلك . لذا فهناك كثيرون يستطيع المرء أن يسمع منهم .

ـ حسناً ، إذا كنت تعرفين ، فما عساي أن أخبرك ؟

مضى يسير بخطى واسعة . وكان وقع قدميه وقدمي ناتاليا السريعتين يرن بوضوح في سكون الربيع الرائق . ولبثت تسير برهة دونما كلام ، وهي تمسح دموعها . ثم خنقت نشيجها وسألته :

ـ إذاً ، فقد عدت إلى ألاعيبك القديمة ؟

ـ دعك من هذا ، ياناتاليا .

ـ يالك من كلب شره! علام تعذبني من جديد ؟

ـ عليك ألا تصغي كثيراً لأكاذيب الناس .

ـ ولكنك اعترفت الآن بها!

ـ ليتك تقللين من سماع أحاديث الناس . أنا ملوم بعض الشيء ... ولكن اللوم يقع على الحياة نفسها ، ياناتاليا . فالمرء يحيا على حافة قبره طوال الوقت ، وهو يحيد عن الطريق بعض الأحيان... .

ـ ماذا عن أطفالك ؟ ألا تخجل من النظر في وجوههم ؟

ـ هوه! أخجل! وكشر غريغوري عن أسنانه مبتسماً وأضاف :

ـ نسيت معنى الخجل ، كيف يمكن للمرء أن يشعر بالخجل وحياته برمتها قد تسربت ؟ ها هو يقتل الناس ، ولايعرف جلية الأمر . ولكن كيف يمكن أن أصور لك الأمر . أنت لن تفهمي ذلك . أنت تضطرمين بمافيك من

قسوة المرأة ، فلا تفكرين قط بما ينخر قلبي ، ويستنزف دمي... ذلك ماجعلني ألجأ إلى الفودكا ، قبل أيام واعترتني نوبة عصبية... وتوقف وجيب قلبي لحظة بصورة تامة ، وسرى البرد في أوصالي ... . وادلهم وجهه وتعسرت عليه الكلمات . ـ إنه أمر شاق ، وبسبب ذلك يعبث المرء لكي ينساه : عن طريق الفودكا أو النساء! مهلاً! دعيني أنتهي ، إن شيئاً ما يتأكلني طوال الوقت ، لقد سلكت الحياة بي منعطفاً خاطئاً ، وربما أكون خاطئاً في ذلك أيضاً... . ينبغي أن نتصالح مع الحمر ونهاجم الكاديت ، ولكن كيف ؟ من الذي يقيم لنا صلة مع السوفييتات ؟ كيف لنا مداواة ما ارتكبناه بحق بعضنا البعض ؟ إن نصف القوزاق هم في الجانب الآخر من الدونتيس ، أما من بقي منهم فقد استبد بهم الجنون فهم يمزقون الأرض من تحت أقدامهم... إن كل شيء ملتبس في رأسي ، ياناتاليا . حتى جدك ، غريشاكا قرأ عليّ الانجيل وقال إننا أخطأنا ، كان ينبغي ألا نثور ، وقد لعن أباك .

ـ جدي فقد عقله ، وسيأتي دورك من بعده .

ـ لايمكنك إلا أن تفكري على هذه الشاكلة ، ليس لديك ذكاء يريك ما هو أبعد من ذلك .

ـ آه ، لاحاجة بك إلى أن تقنعني ، لقد أسأت إلي ، واعترفت بذلك . وها أنت تحاول أن تتعذر بالحرب ، أنتم جميعاً على شاكلة واحدة . ألم أنل بسببك كفايتي من الأحزان ، أيها الشيطان ؟ من المؤسف أنني لم أنه حياتي في تلك المرة...

ـ ليس لدينا مانتحدث به . الأمر شاق عليك ، فابكي ، فالدموع تخفف من أحزان المرأة . أما أنا فلا أستطيع الآن أن أواسيك لقد عبثت بدم الرجال كثيراً حتى لم تبق في قلبي شفقة على أحد... . لاأكاد آبه لطفلي ، ولا أعير نفسي بالاً ، الحرب أيبست كل عاطفتي ، غدوت قاسياً... أنظري إلى روحي تجديها سوداء كبئر خاوية... .

كانا على وشك أن يبلغا البيت حين أخذ مطر راشق مدرار يهطل فأنام

الغبار على الطريق ، وأحدث جلبة على السقوف ، وأشاع برداً منعشاً . فحل غريغوري أزرار معطفه وغطى ناتاليا الباكية واضعاً ذراعه حولها . وعلى هذا النحو دخلا الفناء ، وقد التصقا ، يجللهما معطف واحد .

وفي المساء أعد المحراث والبذارة في الفناء . وأفلح سيمون على نحو ما في تثبيت سكة على محراث ميليخوف العتيق ، وهو ابن الحداد ، البالغ خمس عشرة سنة من العمر ، والذي كان قد تعلم حرفة والده ، وبات الحداد الوحيد في تتارسكي ، وغدا كل شيء جاهزاً للبذار . وقد اجتازت الثيران فصل الشتاء على خير مايرام ، إذ إن بانتلاي بروكوفتش وفر لها تبناً كثيراً .

وفي صباح اليوم التالي أعد غريغوري كل شيء للخروج إلى السهب . وكانت ايلينشنا ودونيا قد أوقدتا النار في المساء لإعداد الطعام للحارث . كان غريغوري ينوي قضاء خمسة أيام في العمل ، فيبذر لأهله ولحماته ، ويحرث حقلاً للبطيخ وعباد الشمس ، ومن ثم يستدعي أباه من سرية المشاة لاتمام العمل .

تصاعد الدخان الليلكي من المدخنة كالحلزون ، وراحت دونيا تركض في أرجاء الفناء لتجمع الحطب للنار . وجعل غريغوري يتأمل خصرها الأهيف ، وثدييها النافريين ، وقال في سريرة نفسه بحزن وأسى : «ما أسرع ما شبت . العمر يمر كفرسٍ عدّاء في الأمس فقط كانت دونيا صبية يسيل مخاطها ، وتتراقص ضفائرها على ظهرها عندما تركض ، وها هي أهل للزواج . وها أنا قد أخذ الشيب يوخط رأسي . غريشاكا الشيخ على حق حين قال العمر يمر كومض البرق . ما أقصر الزمن الذي يعيشه الإنسان ، ومع ذلك يتحتم علينا اختزاله... ياه ، لئن جاءت المنية ، فلتأت بسرعة» .

أقبلت داريا عليه . لقد برأت من خسارة بيوتر بسرعة مذهلة . وكانت قد حزنت لفترة وجيزة ، فاصفر وجهها من الغم وبدا عليها الكبر . ولكن ما أن أخذت نسائم الربيع تهب والشمس تبعث الدفء في الأرض ، حتى

تلاشى حزنها مع الثلوج الذائبة . فاصطبغ خداها البيضويان من جديد بحمرة طفيفة ، وشاع الوميض في عينيها ، وعاودتها مشيتها الطلقة المتبخترة . وعادت إليها عاداتها القديمة كذلك : فجعلت تزجج حاجبيها من جديد ، وتلمّع خديها بالدهان ، وعاودها كلفها بالدعابة ، ومغايظة ناتاليا بلسانها الفاجر ، وكانت بسمة أمل غامضة تلوح على شفتيها مراراً وتكراراً . لقد انتصر فيها عنفوان الحياة .

دنت من غريغوري وهي باسمة . وفاح من وجهها الوسيم عطر دهن الخيار .

فسألته قائلة : ـ أيمكنني مساعدتك ، ياغريشا ؟

ـ لا أحتاج إلى مساعدة .

ـ آه ، كم صرت خشناً نحوي ، أنا الأرملة! إنك لاتجود عليّ حتى بابتسامة .

ـ الأجدر بك أن تعيني ناتاليا ، هوذا ميشاتكا متسخ من اللعب بالطين .

ـ أهذا واجبي ؟ أنت تنجبهم وأنا أغسلهم لك ؟ كلا . شكراً لك . ان ناتالياك ولود كالأرنبة . ستلد لك عشرة آخرين قبل أن تنضب . وحينذاك سينهكني غسلهم جميعاً .

ـ كفى ، كفى! هيا امضي من هنا!

ـ غريغوري بانتيلايفتش ، أنت القوزاقي الوحيد الذي بقي في القرية الآن . لاتطردني ، دعني أنظر إلى عذاريك الأسودين الخلابين من بعيد على الأقل .

فضحك غريغوري وألقى شعره إلى الخلف من على جبينه العرق :

ـ لا أدري كيف استطاع بيوتر أن يعيش معك... أحسبك ستحصلين دوماً على ماتسعين وراءه .

فردت عليه قائلة باعتذار : « كن مطمئناً » ثم نظرت إليه بعينيها

المحرقتين نصف المغمضتين ، والتفتت إلى المنزل وهي تصطنع الفزع قائلة :

ـ ماذا لوخرجت ناتاليا الآن! ما أشد غيرتها عليك! هذا اليوم أثناء الغداء ألقيت عليك نظرة خاطفة فتغير وجهها تماماً . البارحة قالت لي فتيات القرية : أي قانون هذا ؟ لم يبق في القرية قوزاق ، وها قد عاد غريغوري وهو لا بد بجانب زوجته لا يبارحها . كيف يتسنى لنا أن نعيش ؟ حتى إن كان جريحاً ، وحتى إن بقي نصفه ، فإننا سنجد متعتنا من ذلك النصف . قولي له ألا يسير في القرية ليلاً ، والا فسيلقى منّا الويل فقلت لهن : لا ، يافتياتي ، إن عزيزنا غريغوري لا يعبث إلافي القرى الأخرى ، أما حين يعود إلى أهله فإنه يتشبث بذيل تنورة ناتاليا . أصبح ولداً عفيفاً قبل حين... .

فقال غريغوري ، وهو يضحك جذلاً :

ـ قحبة أنت! لسانك أشبه بمكنسة .

ـ ومن أنا . ولكن زوجتك الشرعية ناتاليا الطاهرة لم تسمح لك بالنوم في فراشها البارحة ليلاً ، لقد نلت جزاءك ،أيها الشيطان الرجيم ، إن ذلك يعلمك حسن السلوك!

ـ لا تتدخلي في شؤون الآخرين ، ياداريا .

ـ أنا لاأتدخل ، كل ما أردت قوله أن ناتاليا هذه حمقاء ، يعود زوجها ، وهي تتعالى ، وتنام بمفردها على الصناديق مثل فطيرة بحجم الفلس . أما أنا فلن أحرم نفسي قوزاقياً إذا سنحت لي الفرصة ، فأبث الرعب حتى في رجل شجاع مثلك......

ثم طقّت بأسنانها ، وأطلقت ضحكة عالية ، ومضت شطر المنزل ، وقرطاها الذهبيان يومضان حين التفتت نحو غريغوري الذي كان يضحك محرجاً .

فقال غريغوري في سريرته :« كنت محظوظاً بموتك ياأخي بيوتر ، فداريا هذه ليست امرأة ، بل شيطانة . كانت ستدفع به إلى هاوية القبر إن عاجلاً أم أجلاً » .

٤٧

أطفئت الأضواء الأخيرة في قرية باخموتكين . كان ثمة جمد خفيف يلفع البرك بغطاء رقيق من الجليد . وفي موضع ما من حقل الحنطة المحصود خارج القرية كانت طيور الكراكي ، التي تخلفت في الطيران ، قد حطّت تلتمس الراحة ، وحملت الريح الشمالية الشرقية لغوها الهادىء المتعب إلى أسماع سكان القرية ، ليؤكد الصمت المخيّم لليل نيسان . وادلهمت الظلال في البساتين . وجأرت بقرة في أحد الأفنية ، ثم سكنت . وتنادت طيور الشنقب بحنين وهي تطير خلال الظلام . وكان ثمة حفيف ينبعث من أجنحة لا تعد لسرب من البط مسرع صوب المدى الطلق للدون الفائض... . وتناهت إلى الأسماع أصوات من ضواحي القرية . وتوهجت سكاير في العتمة ، وانبعثت زنخرة خيل وخشخشة الطين المتجمد تحت حوافرها . ومضت دورية خيالة خلال الشارع الرئيسي ، تتألف من سريتي اللواء السادس الخاص الذي اتخذ مقره في القرية . ودلفوا إلى فناء آخر بيت ، وهم يتحدثون ، وربطوا خيلهم إلى زحافة متروكة واضعين لها شيئاً من العلف . وشرع صوت خفيض أجش يردد أغنية خفيفة ، سرعان ما انضمّت إليها أصوات عديدة أخرى واندفع الجميع في جوقة مرحة منطلقة .

وانحدرت همهمة الكراكي ، وأغنية القوزاق ، وخفق أجنحة البط إلى القوزاق الموكل إليهم أمر الحراسة وراء الطاحونة الهوائية . كان الاستلقاء على التراب البارد المتجمد في الليل شيئاً فظيعاً . ولم يكن يسمح للحرس بالتدخين ولا بالتحدّث وبالسير على الأقدام ، حتى ولا بمحاولة إشاعة الدفء في أنفسهم بشيء من المصارعة الودية . كانوا مضطجعين بين سيقان عباد الشمس المتخلف عن العام الماضي ، يحدقون في عتمة السهب المتثائبة ، يتسمعون وآذانهم لصيقة بالأرض . وما كان لشيء أن يرى على مبعدة عشر خطوات ، وكانت الليلة النيسانية غنية بالحفيف والأصوات

المريبة التي قد يكون أي منها صادراً عن جندي أحمر يزحف باتجاههم . ومسح قوزاقي شاب بقفازه دمعة سببها تطلعه في العتمة . وحسب أنه سمع صوت عسلوج يتكسّر ولهاثاً مكتوماً على مبعدة قليلة منه . فلكز جاره الغافي إلى جانبه في وضع غير مريح . وغدت خشخشة الدغل والأنفاس البطيئة أكثر وضوحاً وما لبث الصوت أن علا فوق الشاب مباشرة . فرفع هامته على مرفقه وتبين بصعوبة وهو يحدّق خلال الحرش قنفذاً كبيراً يعدو في أثر فأر ، وأنفه في الأرض . واستشف القنفذ وجود عدو له قريب منه ، فرفع رأسه ، ورأى الرجل محدقاً فيه . فتنهد القوزاقي بارتياح :« ياللشيطان! كم أخافني! » ودس القنفذ رأسه إلى الداخل ، وغدا كرة شائكة بعضاً من الوقت ، ثم انبسط ، شيئاً فشيئاً ، ومضى زاحفاً ، وهو يرتطم بسيقان عباد الشمس ويدوس على نبات متسلق ذابل . وعاد الصمت ينسج شراكه من جديد ، وكانت الليلة أشبه بليالي حكايت الجن .

وفي القرية ، صاح الديك صيحته الثانية . وانجابت السحب من السماء ، وأطلّت النجمات الأولى خلال حجاب خفيف من الضباب . ثم أزاحت الريح الضباب ، ورنت السماء إلى الأرض بعدد لا يحصى من العيون الذهبية .

وفي تلك اللحظة استمع القوزاقي الشاب إلى الصوت الجلي لحوافر الحصان وخشخشة سيقان الأعشاب وصليل معدني أمامه ، وبعد هنيهة ، إلى صرير سرج . وسمعه القوزاق الآخرون كذلك ، فحطت الأصابع بسرعة على زناد البنادق ، وبزغ شبح الفارس كما لو ارتسم على خلفية السماء . كان راكباً الهوينا صوب القرية .

ـ قف! من هناك ؟ كلمة السر!

ووثب القوزاق على أتم استعداد لإطلاق النار! فتوقف الفارس ورفع يديه فوق رأسه ، وصاح :

ـ لاتطلقوا النار ، أيها الرفاق!

فصاح الضابط المسؤول عن النقطة الأمامية :

ـ ماهي كلمة السر ؟

ـ أيها الرفاق... .

ـ ماهي كلمة السر ؟ يارعيل... .

ـ قف! أنا وحدي ، أسلم نفسي .

ـ مهلاً ، أيها الأولاد . لاتطلقوا النار! سنأخذه حياً .

وجرى آمر الرعيل إلى الفارس وأمسك القوزاقي الشاب بأعنة حصان الفرس ، فعبر الرجل ساقه فوق السرج وترجل عن حصانه .

ـ من أنت ؟ أحمر ؟ أجل ، أيها الإخوان ، هي ذي النجمة على قبعته . أنت مقضي عليك... .

فأجاب الفارس بهدوء :

ـ قدني إلى آمرك ، وعلي أن أوصل إليه خبراً على جانب كبير من الأهمية ، أنا فورونوفسكي ، آمر كتيبة سيردوبسكي ، وقد أتيت للتفاوض معه .

ـ الآمر ؟... . اقتلوه ، أيها الإخوان!

ـ أيها الرفاق ، اقتلوني إن شئتم ، ولكن دعوني أخبر آمركم بما جئت من أجله . وأكرر أنه أمر على جانب كبير من الأهمية ، خذوا سلاحي إن كنتم تخشون هربي .

وشرع يحل نطاق سيفه .

فأخذ آمر الرعيل مسدسه وسيفه ، وأصدر أمره وهو يعتلي صهوة حصان الضابط : « فتشوه! » .

وبعد التفتيش اقتاد آمر الرعيل وقوزاقي آخر الأسير إلى القرية . فمضى هذا سيراً على الأقدام ، والحارس القوزاقي إلى جانبه في حين ركب آمر الرعيل حصانه خلفه ، وقد علت محياه علامات الرضا . ساروا عدة دقائق صامتين ، وتوقف الأسير من حين لآخر ليولع سكائر ، فاستثارت رائحة التبغ الجيد شراهة حارسه .

وسأله القوزاقي :«أعطني واحدة!» فناوله الضابط علبة سكائره المليئة . ، فأخرج القوزاقي واحدة ودس العلبة في جيبه هو . لم يعلق الآمر الأحمر بشيء ، ولكنه تساءل فيما كانا يقتادانه إلى القرية :

ـ أين تأخذانني ؟

ـ ستعرف عما قريب!

ـ لكن قل لي!

ـ إلى آمر السرية .

ـ خذني إلى آمر اللواء ، بوغاتيريوف .

ـ لايوجد رجل هنا بهذا الاسم .

ـ يوجد . فأنا أعرف أنه وصل البارحة إلى باخموتكين بصحبة هيئة أركانه .

ـ لاعلم لنا بذلك .

ـ أوه . كفاكم هذا ، أيها الرفاق! أنا أعلم ذلك ، وأنتم لاتعلمون! ليس هذا سراً عسكرياً ، خصوصاً حينما يكون مكشوفاً لدى أعدائكم! .

ـ هيا ، واصل سيرك!

ـ أواصل سيري . إذا كنت ستأخذني إلى بوغاتيريوف .

ـ صه! لايسمح لي بالتحدث إلى الأسرى .

ـ ولكنه يسمح لك أن تأخذ علبة سكائري ؟

ـ هيا امض لاتحرك لسانك وإلا أخذت معطفك أيضاً ، إن كنت سريع الغضب بهذا الشكل .

وجدوا آمر السرية نائماً . فنهض يتثاءب داعكاً عينيه دون أن يستطيع في بداية الأمر استيعاب ماكان آمر الرعيل يخبره .

وأخيراً قال :

ـ من قلت إنك ؟ آمر كتيبة سيردوبسكي ؟ لعلك لاتكذب ؟ أين أوراقك ؟

وبعد بضع دقائق اقتاد الآمر الأحمر إلى مقر آمر اللواء بوغاتيريوف ، وما إن سمع بوغاتيريوف بالأسير حتى قفز كمن مسه شيء ، وأسرع يزرر بنطلونه ، وأشعل فانوساً وسأل الآمر الأحمر الواقف قرب الباب :

ـ أ أنت آمر كتيبة سيردوبسكي ؟

ـ نعم .

ـ اجلس .

ـ شكراً .

ـ كيف وقعت ـ كيف حدث أن وقعت في الأسر ؟

ـ جئت طوعاً . أريد أن أحدثك على انفراد ، دع الآخرين يخرجون!

فلوح بوغاتيريوف بيده ، فغادر الغرفة آمر الرعيل ورب الدار الفاغر فاه . وجلس بوغاتيريوف إلى المنضدة وليس عليه سوى قميص داخلي قذر ، وهو يدعك رأسه القاتم الحليق المكور كالبطيخ ، وكان وجهه المجعد المنتفخ ينم عن فضول مكبوت . أما الضابط فورونوفسكي ـ وكان ذا قامة رشيقة قوية يرتدي معطفاً أنيقاً تعلو كتفيه شرائط الضباط ـ فقد ابتسم من تحت شاربيه الأسودين . وقال :

ـ أنا أتشرف بالحديث إلى ضابط ، أليس كذلك ؟ أستميحك عذراً في أن أقول كلمة أو كلمتين عن نفسي في البدء ، ومن ثم سأخبرك بالمهمة التي جئت من أجلها . أنا نبيل بالولادة ، وكنت رئيساً ركناً في خدمة القيصر . وقد قاتلت في الجبهة خلال الحرب الألمانية . وفي عام ١٩١٨ ، أعادتني الحكومة السوفيتية إلى الخدمة وأنا الآن آمر كتيبة سيردوبسكي الحمراء . لقد لبثت أتحين الفرصة منذ زمن للقدوم إليكم ـ إلى جانب الذين يحاربون البلاشفة .

ـ لقد تأخرت طويلاً في انتظارك هذا ، أيها الرئيس!

ـ أدري ، لكنني أردت أن أمحو جريرتي إزاء روسيا ليس عن طريق قدومي إليكم بنفسي وحسب (فقد كان هذا في مقدوري منذ أجل طويل)

ولكن عن طريق اصطحاب وحدة من رجال الجيش الأحمر ، أكثر من يركن إليهم من الرجال ، طبعاً ، الذين خدعهم الشيوعيون وجروهم إلى حرب الاقتتال مابين الإخوة .

وإذ ألقى فورونوفسكي نظرة إلى بوغاتيريوف ولاحظ ابتسامته المتشككة ، احمر وجهه كفتاة ، واستطرد مسرعاً :

ـ طبيعي أن تشعر بشيء من عدم الثقة بي وبكلماتي . ولو كنت في مكانك لشعرت بالشيء نفسه ، دعني أثبت لك بحقائق لاتدحض... .

ورفع طرف معطفه وأخرج مطواة من جيب سرواله شق بها حاشية معطفه وأخرج بعض أوراق مصفرة وتصويراً صغيراً . فتفحص بوغاتيريوف الأوراق بإمعان . كانت إحداها تشهد بأن حاملها هو الملازم الأول فرونوفسكي من كتيبة لوبوميرسكي الـ ١١٧ ، وأنه ذاهب إلى بيته لإجازة مدتها أسبوعان بعد المعالجة في مستشفى وكانت تحمل الورقة توقيع وختم رئيس الأطباء في مستشفى ميدان . وأعطت الوثائق الأخرى والتصوير دليلاً ثابتاً على صحة أقوال فورونوفسكي .

ثم تساءل بوغاتيريوف :

ـ حسناً ، وماهوالأمر التالي ؟

ـ جئت لأعلمكم بأنني ومساعدي ، الملازم الأول السابق فولكوف ، كنّا نعمل بين رجال الجيش الأحمر الذين هم تحت أمرتنا ، وأن مجموع القوة الكاملة لكتيبة سيردوبسكي ، باستثناء الشيوعيين طبعاً ، على استعداد للانتقال إلى جانبكم في أية لحظة . ويتألف الرجال كلهم تقريباً من فلاحي مقاطعتي ساراتوف وسامارا . إنهم على استعداد لمحاربة البلاشفة . وليس لنا إلا أن نتوصل إلى اتفاق حول شروط استسلام الكتيبة .وفي الوقت الحاضر تعسكر الكتيبة في أوست ـ خوبرسكايا . ويبلغ عددها حوالي ألف ومائتين من حاملي الحراب ، وهناك خلية شيوعية عدد أفرادها ثمانية وثلاثون ، يضاف إليهم فصيل ينتظم نحو ثلاثين رجلاً من شيوعي المنطقة .

لقد استولينا على البطارية التابعة للكتيبة ، ولكن يحتمل أن يتعين علينا إبادة رجال البطارية حيث أن أغلبهم شيوعيون . إن رجال الجيش الأحمر التابعين لي في حالة من الهياج بسبب الاستيلاء على الطعام في مناطقهم . وقد عملنا على استغلال هذا الظرف لاستمالتهم إلى جانب القوزاق . لكنهم يخشون أن يتعرضوا إلى التنكيل اذا مااستسلموا . وهكذا ، يصبح لزاماً عليَّ أن أصل إلى تفاهم معكم حول هذه النقطة وان كانت مسألة تفصيلية .

ـ أي تنكيل يمكن أن يتعرضوا له ؟

ـ القتل أو السلب... .

ـ كلا ، لن نسمح بذلك .

ـ ثمة شيء آخر : يصر الجنود على أن تظل كتيبة سيرودوبسكي على حالها وأن يسمح لها بمقاتلة البلاشفة كوحدة عسكرية مستقلة جنباً إلى جنب معكم .

ـ لا أستطيع أن أقول لك......

ـ فاهم . عليك أن تتصل بقيادتك العليا ثم تعلمنا بالنتيجة .

ـ أجل ، علي أن أعلم هيئة الأركان في فيشنسكايا .

ـ معذرة ، غير أن وقتي قصير جداً ، وإذا تأخرت عودتي فقد يلاحظ قوميسار الكتيبة غيابي . أخال أننا نستطيع أن نصل إلى اتفاق حول شروط الاستسلام . دعني أكون على علم بقراركم في أقرب وقت ممكن . فقد تنقل الكتيبة إلى جبهة الدونيتس ، أو قد تصل إمدادات ، وآنذاك ... .

ـ سأبعث مراسلاً إلى فيشنسكايا في الحال .

ـ هناك شيء آخر ، مر قوزاقك بإعادة سلاحي لي .

إنهم لم ينزعوا سلاحي فحسب ـ وتوقف وابتسم في حرج ـ لكنهم أخذوا علبة سكائري! هذه بالطبع قضية تفصيلية ، لكن للعلبة قيمة بالنسبة لي لأنها تذكار عائلي موروث

ـ سيعاد كل شيء لك . كيف يتسنى لنا أن نعلمك برد فيشنسكايا ؟

ـ في غضون يومين ستأتيك امرأة إلى باخموتكين قادمة من أوست ـ خوبرسكايا . أما كلمة السر فلتكن «اتحاد» باستطاعتك أن تخبرها شفاهاً ، طبعاً...

* * *

وما هي إلا نصف ساعة حتى انطلق مراسل قوزاقي على حصانه إلى فيشنسكايا .

وفي اليوم التالي وصل إلى باخموتكين مراسل كوديونوف الشخصي . ومضى راكباً حتى بلغ مقر آمر اللواء ودلف إلى الكوخ دون أن يتوقف لربط حصانه ، وسلم بوغاتيريوف اضمامة مكتوب عليها :

«مستعجل وسري» . فمزق بوغاتيريوف الظرف باستعجال وقرأ الخطاب مكتوباً بخط يد كودينوف الممدود :

بعد التحية . النبأ مشجع أخولك التفاوض مع كتيبة سيردوبسكي وجعلهم يستسلمون مهماكان الثمن . وأقترح أن نتنازل لمطالبهم ونعد بأننا سنقبل الكتيبة بمجموعها وأننا لن ننزع حتى سلاحها عنها ، بشرط ، وهذا الشرط لايمكن التخلي عنه ، أن يأسروا ويسلموا قوميسار الكتيبة والشيوعيين ، وعلى الأخص شيوعي فيشنسكايا ، ويلانسكايا ، وأوست ـ خوبرسكايا . كذلك يجب أن يستحوذوا على البطارية ، وقافلة الأمتعة وعدة الكتيبة . تعجل الأمر قدر ماتستطيع . وحينما تكون الكتيبة على استعداد للمجيء ، جمّع ما في مستطاعك من القوات ، وطوقهم بهدوء ، وانزع عنهم السلاح في الحال . وإذا حاولوا المقاومة ، افنهم عن آخرهم . تصرف بحذر ، ولكن بشدة . وما أن ينزع عنهم السلاح ، سق الكتيبة برمتها إلى فيشنسكايا على امتداد الضفة اليمنى للدون ، كي يكونوا بعيدين عن الجبهة وملزمين بالمسير خلال السهب الطلق . وحينئذ لن يكون بمقدورهم أن يلوذوا بالفرار إذا مابدلوا رأيهم . سقهم عبر القرى الواقعة على جانب الدون وأرسل في أثرهم سريتي خيالة كحرس . سوف نوزعهم مثنى وثلاث

على السرايا المختلفة وسنرى كيف سيحاربون الحمر . وبعد ذلك ، إن أفلحنا في الانضمام إلى رجالنا في الدونيتس ، فلهم أن يفعلوا مايشاؤون بهم ـ لن آبه إن شنقوهم عن آخرهم . إني لمسرور بنجاحك . إبقني على علم يومياً بواسطة مراسل .

كودينوف

وكان في الحاشية مكتوباً مايلي :

إذا سلمت كتيبة سيردوبسكي شيوعيينا المحليين ، سقهم تحت حراسة قوية إلى فيشنسكايا خلال القرى الواقعة على جانب الدون . ولكن ابعث بكتيبة سيردوبسكي أولاً . واختر لحراسة الشيوعيين من القوزاق أكثر من تستطيع الاعتماد عليه (المندفعين والكهول) ، وقل لهم أن يخبروا القرويين سلفاً بقدومهم . فلا داعي بأن نلوث أيدينا بهم فستضربهم النساء بالعصي إذا استطاع الحرس أن يدبر القضية بشكل لائق . إن هذه ستكون أفضل سياسة بالنسبة لنا . فلو رميناهم بالرصاص لسرت الشائعة إلى الحمر بأننا نعدم الأسرى . فمن الأسهل أن نسيب الناس عليهم ، أن نطلق غضب الناس مثل الكلب السلوقي . دع الناس يقضون عليهم ، دون قيل أو قال!

٤٨

في الثاني عشر من نيسان كانت كتيبة موسكو الأولى تتكبد خسائر فادحة في القتال مع المتمردين في منطقة يلانسكايا . ومضت صفوف الحمر تشق طريقها إلى قرية أنتونوفسكي وهي لاتعرف عن المنطقة شيئاً .

كانت مساكن القوزاق تقوم متباعدة عن بعضها على جزر صغيرة قوامها تربة صلصالية ، بيد أن الشوارع والأزقة التي انتشر عليها الدغل كانت تنتهي بأرض مستنقعية لايمكن اجتيازها في حين كانت القرية برمتها غارقة في أجمة الحور . وكان نهر اليلانكا ينساب حول القرية ، وهو نهر صغير ضحل ذو قاع طينية زلقة .

وجرب مشاة كتيبة موسكو الأولى تمشيط القرية في تشكيلة مفتوحة ، ولكن ما إن اجتازوا المساكن الأولى وبلغوا أجمة الحور حتى اكتشفوا استحالة اجتياز الأجمة على النحو الذي قصدوه . ورفض آمر الفوج الثاني . ــ وهي ليتواني عنيد ـ أن يستمع إلى وجهة نظر رئيس عرفائه ، الذي كان قد استطاع لتوه أن يجر حصانه من مستنقع عميق ، فأصدر أوامره بالتقدم وكان أول من تحرك للأمام على الأرض الخادعة المترجرجة . ومضى رجال الجيش الأحمر المترددون يتبعونه حاملين رشاشتهم . وحينما كانوا قد قطعوا مايقرب من المائة خطوة وهم يغوصون في الوحل حتى ركبهم ، انطلقت صيحة من الجناح الأيمن انحدرت على امتداد الصفوف : « حذار! فالقوزاق يحيطون بنا! » .

كانت سريتان من المتمردين قد أحاطتا بالفوج فعلاً وشرعتا تهاجمانهم من الخلف . وفقد الفوجان الأول والثاني في أجمة الحور ثلث مجموع أفرادهما ، وأخذا يتراجعان .

وفي غمار القتال جرح ايفان أليكسييفتش في ساقه بواحدة من رصاص القوزاق المحلي . فحمله ميشا كوشيفوي خارج المعركة وأجبرا سائق عربة عتاد ، وهو يهدده بحربته ، على استعمال العربة لنقله .

ردت الكتيبة على أعقابها حتى قرية يلانسكايا . وكان لذلك الانحدار نتائج وخيمة على التقدم الكلي لمفارز الحمر في تلك المنطقة ، إذا اضطرت بعض المفارز إلى التراجع عشرين فرستاً شمالاً وثم عبر نهر خوبر ، قبل تحرك الجليد بيوم واحد وقد غرق عدد كبير من الجياد فتقدمت فصائل المتمردين كسيل عارم متفوقة عدة مرات على قوات الحمر من حيث عدد الأفراد .

ووجدت كتيبة موسكو الأولى نفسها منعزلة بسبب من انكسار الثلج عند مدخل نهر خوبر وعبرت الدون إلى الضفة اليمنى وتوقفت عند أوست ـ خوبرسكايا تنتظر الامدادات . وما إن انقضت مدة قصيرة على وصولهم حتى انضمت إليهم كتيبة سيردوبسكي . وكان رجال سيردوبسكي يختلفون اختلافاً بيناً عن كتيبة موسكو الأولى . لقد كان عمال موسكو وتولا ونيجني

ـ نوفغورود ، الذين كانوا يؤلفون عصب كتيبة موسكو وقوتها الصدامية ، يقاتلون بضراوة وعناد ، وطالما التحموا مع العدو يداً بيد ، وهم لاينون يفقدون من رجالهم مابين قتيل وجريح . وحتى بعد اندحارهم في قرية أنتونوفسكي ، فإنهم تراجعوا دون أن يخسروا عربة عتاد واحدة ، لكن الذي حدث لسرية من كتيبة سيردوبسكي في معركتها الأولى في قرية ياغودينسكي هو أنها تشتت تحت وطأة الهجوم الذي شنته خيالة المتمردين فما أن لمحوا القوزاق المغيرين فوق خيولهم حتى فروا من خنادقهم ، وكان محتملاً أن يبادوا عن آخرهم لو لم تكن الرشاشات بيد الشيوعيين الذين ردوا الهجوم بعاصف من نيرانها .

كان رجال كتيبة سيردوبسكي قد جندوا بصورة مستعجلة في مدينة سيردوبسك ، من مقاطعة سارتوف ، وجلهم فلاحون كهول أميون وكان عدد كبير منهم قد انتزعوا من عوائل الكولاك الغنية الأمر الذي لايساهم في رفع الروح القتالية . وكان رجال قيادتهم في الغالب ضباطاً سابقين في الجيش القيصري ، أما القوميسار الأحمر فكان بلاحول أو قوة ولم تكن له سيطرة على الجنود ، وتحت بصر جماعة الحزب الشيوعي أنفسهم الذين غشيت عيونهم عن كل شيء ، كان ضابط القيادة فورونوفسكي وخونة آخرون يعملون على إثارة جنودهم بصورة حاذقة ، ويزرعون في نفوسهم الشك في إمكانية القضاء على التمرد ، ويهيؤونهم للاستسلام للقوزاق .

كان شتوكمان وايفان وميشا قد نقلوا إلى كتيبة سيردوبسكي واستقروا في كوخ واحد مع ثلاثة من رجال سيردوبسكي . ولاحظ شتوكمان بقلق روح الجفاف التي بدت على رفقائه الجدد ، وانتهى ـ بعد أن نشب بينهم خصام حاد ـ إلى أن ثمة خطر يهدد الكتيبة . وحدث ذات مساء أن دخل اثنان من رجال سيردوبسكي إلى الكوخ ، ومن غير أن ينطقا بكلمة تحية قال أحدهما وهو ينظر مبتسماً بوقاحة إلى شتوكمان وإيفان أليكسييفتش المستلقي على السرير :

ـ إذاً فهذا هو المآل الذي أوصلنا اليه القتال! إنهم يستحوذون على حنطة عوائلنا في قرانا ، وهنا يتعين علينا أن نحارب من أجل ما لا ندرك كنهه .

فسأله شتوكمان بحدّة :

ـ ألا تعرف ماالذي تحارب من أجله ؟

ـ كلا ، لانعرف . فالقوزاق فلاحون مثلنا تماماً . نحن نعرف سبب تمردهم . أي ، نعم ، نعرف ذلك!

واذا بشتوكمان يفقد زمام نفسه المعهود ، وصاح :

ـ وهل تعرف أيه لغة تتفوه بها الآن ، أيها الخنزير ؟ إنها لغة الحرس الأبيض!

ـ اقتصد بـ« خنزيرك » هذه ، والا لقنتك درساً! أسمعتموه ، أيها الاولاد ؟

فتدخل رجل ثانٍ ، قميء وشديد كزكيبة من الطحين :

ـ اهدأ ، اهدأ يا طويل اللحية! لقد رأينا أمثالك من قبل . أتحسب أن مجرّد كونك شيوعياً يمكنّك من اسكاتنا متى ماشئت ؟ كن على حذر وإلا اقتلعنا نزواتك!

واجتاز الكوخ صوب شتوكمان وذراعاه القصيرتان القويتان إلى ظهره ، وعيناه تومضان متوعدتين .

فقال شتوكمان لاهثاً وهو يدفع الرجل عنه :

ـ ماهذا ؟ أتراكم جميعاً خدعتم بآراء الحرس الأبيض ؟

وترنح الرجل إلى الوراء وكان على وشك أن يمسك ذراع شتوكمان غير أن الرجل الذي كان أول المتكلمين أوقفه :

ـ لا تزعج نفسك به .

ـ أنتم تتحدثون كالمرتدين . سنحاكمكم خونة للحكومة السوفييتية .

فأجاب أحد رجال سيردوبسكي :

ـ لا أخالك ستقدم كل الكتيبة إلى المحكمة . إن الشيوعيين يحصلون على السكر والسكاير أما نحن فلا نحصل على أي شيء آخر وصاح إيفان اليكسييفتش ، وهو يستوي على السرير :

ـ هذا افتراء! نحن نحصل على مثل ماتحصلون عليه .

ومن غير ما كلام لبس شتوكمان معطفه وخرج . ولم يحاولوا إيقافه ، غير أنهم هزأوا منه حينما مرّ بهم .

ووجد قوميسار الكتيبة في مقر هيئة الأركان . فناداه إلى غرفة ثانية وأسرّ له بشجاره مع رجال سيردوبسكي واقترح اعتقالهم . فاستمع إليه القوميسار وهو يحك لحيته ويسوّي بتردد نظارتيه ذات الاطار القرني .

ـ سوف ندعو إلى اجتماع الشيوعيين غداً لبحث الموقف . لكنني لا أرى من الممكن أن نعتقلهم في الحال الحاضر . فتساءل شتوكمان محتداً :

ـ ولم لا ؟

ـ طيب أترى ، أيها الرفيق شتوكمان لقد لاحظت بنفسي أن ثمة شيئاً ليس على مايرام في الكتيبة . لعل هناك منظمة معادية للثورة تعمل في صفوف كتيبتنا ، غير أنني لا أستطيع أن أستجلي سر هذه المنظمة . لكن أغلبية الكتيبة واقعة تحت نفوذها . فالفلاحون لا ينصاعون إلا لأهوائهم ، فما عسانا نفعل ؟ لقد أحطت هيئة أركان الفرقة علماً بحقيقة الموقف واقترحت عليهم أن يسحبوا الكتيبة ويعيدوا تشكيلها من جديد .

ـ لماذا تحسب أن من المستحيل اعتقال عملاء الحرس الأبيض وتقديمهم إلى المحكمة الثورية للفرقة ؟ إن كلامهم ذاك لهو الخيانة بعينها!

ـ أدري ، ولكنني لو فعلت ذلك فقد ينتهي إلى تطرف غير مرغوب فيه ، وحتى إلى عصيان .

ـ ولكنك مادمت قد لاحظت موقف الأغلبية فلماذا لم تعلم الشعبة السياسية في حينها ؟

ـ قلت لك إنني قد أعلمتهم . ولكنهم بطيئون في الرد . ما أن تسحب

الكتيبة حتى ننزل العقاب بكل أولئك الذين خرقوا النظام ، وعلى الأخص هؤلاء الذين مافتئوا يرددون ما أخبرتني به . وأضاف متجهماً : ـ لدي شكوك حول فورونوفسكي ورئيس هيئة الأركان ، فولكوف . وبعد اجتماع الشيوعيين غداً سأمضي إلى أوست ـ مدفديتسكايا لبحث الموقف مع الشعبة السياسية علينا أن نتخذ اجراءات سريعة لنضع يدنا على موطن الخطر . ولهذا يتعين عليّ أن أسألك أن تظل محادثتنا هذه في طي الكتمان .

ـ ولكن لمَ لاتدعو إلى اجتماع المنظمة في الحال ؟ إن الوقت لن ينتظرنا ، أيها الرفيق!

ـ أعرف ذلك ، ولكن هذا ليس ممكناً الآن . فغالبية الشيوعيين موجودون في النقاط الأمامية . لقد نسبتهم لهذه المهمة عن عمد لأنني أعتقد أن من المجازفة أن نثق بأية عناصر لاحزبية في وضع مثل هذا . أضف إلى ذلك أن البطارية ، التي يتألف رجالها من الشيوعيين بصورة رئيسية ، لن تصل إلا الليلة . لقد استدعيتها بسبب هذه الأخطار التي تتهدد الكتيبة ... .

عاد شتوكمان من الأركان إلى كوخه وأسر إلى ايفان وميشا بفحوى حديثه مع القوميسار .

وسأل شتوكمان إيفان أليكسييفتش :

ـ ألا تستطيع السير الآن ؟

ـ بلى ، على أنني أعرج . كنت أخشى أن ينفتح الجرح ، ولكن إذا كان لابد من ذلك سأفعل .

وبعد أن مضى الآخرون إلى أسرتهم ، قعد شتوكمان ليكتب تقريراً مفصلاً عن الحالة في الكتيبة ، وعند منتصف الليل أيقظ ميشا . وقال وهو يدس الخطاب الذي كتبه في قمصلة كوشيفوي :

ـ خذ حصاناً من أي مكان حالاً وامض إلى أوست ـ مدفديتسكايا بهذا الخطاب . وينبغي أن تسلمه إلى الشعبة السياسية للفرقة الرابعة عشرة مهما كان الثمن ، حتى لو كلفك ذلك حياتك . كم من الوقت سيستغرق ذلك ؟ أين ستجد

حصاناً ؟ فجمجم ميشا من بين أسنانه وهو يحتذي جزمته اليابسة الصلبة :

ــــ سوف أسرق حصاناً من الدورية الخيالة ، وسأبلغ أوست مدفديتسكايا في غضون ساعتين على الأغلب . فالخيل هنا بائسة وإلا بلغتها في أقل من ذلك . لقد كنت راعي خيل ذات يوم . وأنا أعرف كيف أجعل حصاناً ينطلق حضراً . وأخذ الخطاب ودسه في جيب معطفه . فسأله شتوكمان مستغرباً :

ـ لمَ تضعه هناك ؟

فرد ميشا :

ـ يسهل علي التصرف به إذا ما أسرت .

فشرع شتوكمان يقول :

ـ صح ، ولكن... .

ـ لو أسروني ، فسوف أستطيع أن أبلعه وأزدرده .

ـ يا للفتى الشجاع!

وابتسم شتوكمان قليلاً ، ثم عانق ميشا ، وكأنه يتوجس سوءاً ، وقبله بشفتين باردتين مرتعشتين . وقال : هيا ، انطلق!

فخرج ميشا ، وحل واحداً من أفضل خيل الدورية دون أن يكتشف أمره ، ومضى عليه بحذر خلال القرية ، ماراً بالنقطة الأمامية ، وسبابته على زناد قربينة الخيالة الجديدة . ولم يعلق بندقيته على كتفه إلا بعد أن خرج على الطريق العام وانطلق ليستنزف سرعة حصانه الساراتوفي الصغير .

٤٩

عند الفجر ، شرع مطر خفيف يسقط . وأعولت الريح وانحدرت من الشرق سحب رعدية ثقيلة . وما إن أطل الصباح حتى نهض رجال سيردوبسكي المقيمون مع شتوكمان وخرجوا . وبعد نصف ساعة فتح باب

الكوخ شيوعي من يلانسكايا يدعى تولكاتشيف ملحق بكتيبة سيردوبسكي مثل شتوكمان ورفاقه ، وصاح وهو يلهث :

شتوكمان ، كوشيفوي ، أنتما هنا ؟ هيا اخرجا! فصاح شتوكمان وهو يلتقط معطفه ويرتديه باستعجال :

ـ ما الأمر ؟ ادخل هنا! فتمتم تولكاتشيف فيما تبع شتوكمان :

ـ هناك اضطراب في الكتيبة . حاول المشاة أن يجردوا البطارية من سلاحها أثناء مرورها قبل قليل . شرعوا يطلقون النار ، لكن المدفعيين صدوا الهجوم ، وانتزعوا مغالق المدافع ، وعبروا النهر إلى الجانب الآخر بالزوراق .

فاستحثه ايفان أليكسييفتش ، وهو يحتذي جزمته محمحماً :

ـ وماهو الموقف الآن ؟

ـ هناك اجتماع قائم الآن عند الكنيسة... . الكتيبة بكاملها .

فأمر شتوكمان ايفان أليكسييفتش : «ارتد ملابسك! بسرعة!» وأمسك تولكاتشيف من كمه وسأله : «أين القوميسار ؟ أين بقية الشيوعيين ؟»

ـ لاأدري . لاذ البعض بالفرار ، لكنني جئت إليك . احتلوا دائرة البرق ، ولم يعد مسموحاً لأي امرئ بالدخول . يجب أن نهرب ، ولكن كيف ؟

وهوى الرجل بقنوط على صندوق ، ويداه بين ركبتيه . وفي تلك اللحظة سمعت أصوات أقدام في سقيفة الباب واندفع إلى داخل الكوخ ستة من رجال سيردوبسكي . كانت وجوههم محتقنة وقد بدت ضارية بما تضمر من شر . وصرخوا :

ـ على جميع الشيوعيين أن يذهبوا إلى الاجتماع! اسرعوا! فتبادل شتوكمان النظر مع ايفان وزم شفتيه ، وأجاب : «إننا قادمون» .

فقال أحد الرجال : «اتركوا سلاحكم هنا . فلستم ذاهبين إلى معركة» . غير أن شتوكمان علق بندقيته على كتفه كأنه لم يسمع ، وكان أول من خرج من الكوخ .

كان ثمة ألف ومائة حنجرة تهدر في الساحة . ولم يظهر أي من أهل المنطقة ، إذ سرت شائعات قوية تفيد أن الكتيبة ستنضم إلى المتمردين وأن قتالاً قد ينشب في الشوارع مع الشيوعيين . ومضى شتوكمان صوب الجمع ، وعيناه تبحثان عن أعضاء قادة الكتيبة . ومر به القوميسار ، وقد أمسك بذراعيه رجلان من الجيش الأحمر فيما كان ثالث يدفعه من الخلف . ودفع القوميسار ، وقد شحب وجهه ، خلال الجمع ، وبعد برهة رآه شتوكمان يرتقي طاولة في وسط الغوغاء . تلفت شتوكمان حوله : كان ايفان أليكسييفتش وراءه يتكئ على بندقيته ، وإلى جانبه كان الرجال الذين جاؤوا يستدعونه إلى الاجتماع .

ـ يارفاق الجيش الأحمر!

وبدت كلمات القوميسار خافتة وسط هدير الأصوات .

ـ إن عقد الاجتماعات في وقت كهذا ، حينما يكون العدو قريب جداً... . أيها الرفاق...

ولم يسمح له بالاستمرار إذ راحت قبعات الجيش الأحمر الرمادية والحراب الزرق الناتئة كالشوك ، تميد حول الطاولة ، وكأن الريح تهزها ، وامتدت القبضات نحوه ، وجلجلت صيحات جافة فظة مثل طلقات المسدس :

إذاً فنحن الآن رفاق . ها ؟

ـ إخلع عنك هذه السترة الجلدية!

ـ لقد خدعنا!

ـ من تريدنا أن نقاتل ؟!

ـ اقتلوه! اطعنوه في بالحراب! لقد عانينا الكفاية من قمسرته .

ورأى شتوكمان رجلاً من الجيش الأحمر ، كهلاً ، ضخم الجرم يرتقي الطاولة ويمسك بلحية القوميسار الصغيرة . فتأرجحت الطاولة وهوى الرجل والقوميسار معاً على الأيدي الممدودة للرجال المتدافعين حولهما . وماجت

كتلة رمادية من المعاطف بالقرب من الطاولة ، وضاعت صيحة القوميسار اليائسة في رعيد الأصوات العنيف .

وشرع شتوكمان على الفور يشق طريقه إلى وسط الجمع ، وهو ينحي الرجال عن طريقه بعنف مندفعاً نحو المكان الذي ألقى القوميسار الخطاب منه ولم يحاول أحد إيقافه ، لكن القبضات وأخامص البنادق كانت تهوي على رأسه وظهره ، وانتزعت البندقية عن كتفه وقبعته القوزاقية عن رأسه .

وزعق رجل من الجيش الأحمر حينما داس شتوكمان على قدمه بشدة : «افتح عينيك حيث تسير ، أيها الشيطان!» وعند الطاولة المقلوبة كان ضابط رعيل يسد الطريق أمامه . وكانت قبعته المصنوعة من جلد الحمل قد انداحت إلى مؤخرة رأسه ووجهه يتصبب عرقاً وقد استحال لونه أحمر كالقرميد ، وعيناه تدوران في محجريهما والشرر يتطاير منهما . وكان معطفه غير مزرر . وزأر الرجل : «أين تراك موليا ، تدفع الناس ؟» .

فصرخ شتوكمان بصوت أجش ، مقيماً الطاولة على أرجلها : أريد أن أتكلم! أفسح المجال لجندي نفر أن يقول كلمة!» .

فلم يتردد بعض الواقفين في إعانته على ارتقاء الطاولة . لكن الجلبة لم تخفت في الساحة ، فصاح شتوكمان بأعلى صوته :

ـ سكوت!

وهمدت الضوضاء بعد برهة من الوقت وجعل شتوكمان يصرخ بصوت مبحوح ، وهو يكظم نوبة من السعال :

ـ يارفاق الجيش الأحمر! عار عليكم! أنكم تخونون حكومة الشعب في أحرج اللحظات . تخور عزائمكم في اللحظة التي ينبغي عليكم أن تنزلوا على العدو بقبضتكم القوية ضربة تنفذ إلى قلبه . إنكم تعقدون الاجتماعات في الوقت الذي تناضل فيه بلاد السوفييات من أجل وجودها الذي يتهدده طوق حديدي من الأعداء . إنكم على أبواب خيانة مكشوفة وما هو السبب ؟ لقد

خدعكم أمراؤكم الخونة لصالح الجنرالات القوزاق . إن هؤلاء الضباط السابقين قد أخلوا بثقة الحكومة السوفيتية بهم ، وأنهم ـ إذ يستغلون جهلكم ـ يرسمون الخطط لتسليم الكتيبة إلى القوزاق . ثوبوا إلى رشدكم! فبتسخير سواعدكم يريدونكم أن تسهموا في القضاء على حكومة العمال والفلاحين .

فصفق آمر السرية الثاني ، وهو ضابط قيصري سابق ، بندقيته إلى كتفه ، غير أن شتوكمان لحظ حركته فصرخ فيه :

ـ إياك أن تجرؤ! سوف يتسع لك الوقت لذلك! إنني أطالب بأن تصغوا إلى جندي شيوعي . لقد وهبنا ، نحن الشيوعيين ، كل حياتنا... . وارتفع صوت شتوكمان إلى درجة مفزعة من التوتر وكان وجهه شاحباً مشوهاً... . كل دماءنا ، قطرة إثر قطرة ، في خدمة الطبقة العاملة والفلاحين المضطهدين . لقد اعتدنا على مواجهة الموت وجهاً لوجه . في مقدورك أن تقتلني... . فارتفعت صيحات متضاربة :

ـ لقد سمعنا مافيه الكفاية!

ـ لانريد أن تخدعونا أكثر من ذلك ؟

ـ دعوه يكمل!

ـ سكوت!

ـ ...... اقتلني ، لكنني أكرر القول : ثوبوا إلى رشدكم فليس الوقت وقت اجتماعات الآن ، بل عليكم أن تمضوا لضرب البيض .

وأجال عينيه المضيقتين فوق جمع الجنود شبه الصامتين ولاحظ فورونوفسكي ، آمر الكتيبة ، واقفاً على مبعدة قليلة يبتسم بافتعال ويهمس إلى جندي من الجيش الأحمر إلى جانبه ، فصاح شتوكمان ، ماداً يده ومؤشراً نحو فورونوفسكي :

ـ إن آمر كتيبتكم ... .

غير أن الآمر وضع يده على فمه وأسر بشيء إلى الرجل الواقف إلى جانبه ، وقبل أن يستطيع شتوكمان إكمال جملته ضجت إطلاقة ثقيلة الرجع

خلال الهواء الرطب في ذلك اليوم النيساني المطير . فضم شتوكمان قبضته إلى صدره وهوى على ركبتيه ، وغاب عن الأنظار رأسه الحاسر الأشيب . لكنه مالبث إن وثب على قدميه من جديد ووقف مترنحاً .

فصاح ايفان إذ رأى شتوكمان يقوم : «أوسيب دافيدوفيتش!» وشرع ينافح لشق طريقه اليه غير أن الذين كانوا حوله أمسكوا به من مرفقيه وحمحموا :

ـ صه! سلم بندقيتك ، ياخنزير!

ونزعوا سلاحه . وفتشوا جيوبه وأبعدوه عن الساحة . ثم انقضوا على الشيوعيين الآخريين في الحال ونزعوا سلاحهم أيضاً . وسمعت من شارع جانبي بالقرب من حانوت تاجر خمس أو ست رصاصات صرعت شيوعياً من حملة الرشاشات رفض أن يسلم رشاشته من طراز لويس .

وفي تلك الأثناء استقام شتوكمان مترنحاً على الطاولة وهو يحس باختناق فظيع . وقد علا وجهه بياض الموت ، بينما كانت شفتاه تزبدان دماً وردياً . وأفلح في الأخير أن يصيح ، مستنفذاً آخر ما لديه من عزم وقوة :

لقد خدعوكم . أولاء الخونة...... إنهم يسعون إلى الحصول على العفو عنهم وعلى مناصب عالية في الجيش... . غير أن الشيوعية سوف تحيا... . أيها الرفاق ... . ثوبوا ... الى... . رشدكم ......

ومن جديد أسند الجندي الواقف إلى جانب فورونوفسكي بندقيته إلى كتفه . فجعلت الرصاصة الثانية شتوكمان يخر من على الطاولة على رأسه تحت أقدام الجنود . وقفز إلى الطاولة جندي من كتيبة سيردوبسكي ، ذو وجه مجدور وفم رفيع قبيح ، وجأر :

ـ استمعنا إلى الكثير من الوعود الخلابة ، أيها الرفاق ، ولكنها لم تكن سوى كلام فارغ ووعيد . والآن ، يموت هذا الخطيب اللبيب ميتة الكلاب . الموت للشيوعيين ، لأعداء الفلاحين الكادحين ، أقول أن عيوننا قد تفتحت ، وأننا نعرف من هم أعداؤنا . أتذكرون ماقالوه لنا في قرانا ؟ قالوا

ستكون هناك مساواة ، إخاء مابين الشعوب . هذا ماقاله لنا التسيوعيون... وما الذي وجدناه بالفعل ؟ اللصوصية أيها الإخوان! لقد بعث لي أبي برسالة مليئة بالشكاوي ، يقول فيها أنهم ينهبون ويسرقون في وضح النهار . أخذوا كل الحنطة من أبي ، وطاحونته أيضاً . ولكن ماذا يقول مرسومهم ؟ إنه يقول : كل شيء للفلاح العامل . ألم يحصل أبي على طاحونته بعرق جبينه ؟ إذاً أسألكم بالله أيمكن أن يكون هذا شيئاً آخر غير اللصوصية من جانب الشيوعيين ؟ حطموهم ، مزقوهم ارباً ارباً!

ولم يستطع المتكلم أن يتم حديثه : فقد قدمت من الغرب سريتان من خيالة القوزاق تجريان هذباً داخل القرية ، وعلى المنحدر الجنوبي للتلال الواقعة على جانب الدون هبط مشاة القوزاق وعلى رأسهم بوغاتيريوف ، آمر اللواء الخاص للمتمردين ، فمضى إلى الساحة تحف به هيئة أركان وتحرسه نصف سرية .

وبدأ المطر الشديد يسقط وسمع صوت الرعد العميق في مكان ما على جانب الدون الآخر .

شرعت كتيبة سيردوبسكي بالاصطفاف صفين على عجل . وما كادت جماعة بوغاتيروف تلوح من بعد حتى صرخ آمر الكتيبة ، فورونوفسكي ، بنبرة آمرة لم يسمع رجال الجيش الأحمر لها مثلاً في صرامتها :

ـ كتيبة! استـ... . ـعد!

٥٠

أمضى غريغوري ميليخوف خمسة أيام في تتارسكي ، فبذر عدداً من الحقول بالحنطة ، له والعائلة وحماته . ثم ، ما أن عاد أبوه من كتيبته ، وقد استبد به الحنين إلى الأهل وتفشّى القمل في جسمه ، حتى استعد هو للعوده إلى فرقته . وكان كودينوف قد أخبره سراً بالمفاوضات الجارية مع قيادة

كتيبة سيردوبسكي ، وطلب منه العودة إلى الجبهة بأسرع ما يمكن وتولي قيادة الفرقة .

وفي ظهيرة اليوم الذي قرر غريغوري أن يغادر فيه تتارسكي إلى كارغينيسكايا ، قاد حصانه إلى الدون ليورده . وبينما كان ينزل إلى الماء الذي قد فاض حتى حوافي البساتين ، رأى أكسينيا . وخيل اليه أنها كانت تتلكأ عن قصد في امتياح الماء ، مالئة دلويها بتمهل ، وكأنها تنتظر نزوله . فتعجل خطاه ، وإذ كان يتقدم منها عبرت ذهنه ذكريات حزينة ، متوهجة كلمع البرق... .

وما أن سمعت خطاه حتى استدارت ، وبدت على وجهها دهشة مفتعلة دونما شك . غير أن فرحها باللقاء وألمها القديم فضحا افتعالها . فابتسمت ، ابتسامة بائسة ساهمة ، لا تليق بوجهها الأنوف ، حتى لقد ارتج قلب غريغوري حباً وشفقة . فأوقف حصانه ، وقد وخزه الشوق وأذلته الذكرى ، وقال :

ـ صباح الخير ، أيتها العزيزة أكسينيا .

ـ صباح النور .

كان صوت أكسينيا مزيجاً غريباً من الدهشة والحب والمرارة .

ـ منذ زمان لم نتحادث .

ـ منذ زمان .

ـ نسيت حتى رنّة صوتك... .

ـ أنت سريع النسيان .

ـ صحيح ؟

ودفع غريغوري عنها الحصان الذي كان يلتصق به . وأحنت أكسينيا رأسها وحاولت أن تعلق دلوها بطرف النير ، لكنها لم تستطع . ولبثا واقفين لا يريمان برهة من الزمن . ورفت كالسهم بطة برية فوق رأسيهما . ومضت الأمواج ترتطم بالضفة ، وهي تلعق التربة الطباشيرية بنهم ، وعلى الجانب

الآخر كانت الأمواج بيضاء الصدور تسري خلال الغابة التي فاض عليها النهر . وكانت الريح مفعمة بالرذاذ وعطر الدون الريحاني ، وهي تغذ الهبوب في طريقها صوب مراميه البعيدة في طغيان عارم .

حول غريغوري عينيه عن أكسينيا إلى النهر ، كانت أشجار الحور قائمة في الماء بجذوعها الرمادية الشاحبة ، تؤرجح فروعها الجرد ، وأشجار الصفصاف ، تزينها أزهار البكر ، مطلة فوق النهر مثل غيمات خضر ناعمة . ثم سأل غريغوري ، وقد شاب صوته شيء من البرم والمرارة :

ـ حسناً ، أليس لنا مانتحدث به ؟ فيم سكوتك ؟ لكن أكسينيا كانت قد استعادت رباطة جأشها ، فأجابت دون أن يرف عصب في وجهها :

ـ يبدو أننا قلنا كل ماكان لدينا... .

ـ حقاً ؟

ـ نعم ، كما يجب . لاتزهر الشجرة إلا مرة كل عام .

ـ وهل ترين أن شجرتنا انقضى وقت ازدهارها ؟

ـ وماذا ترى أنت ؟

ـ إنه لشيء غريب ، نوعا ما... .

وترك غريغوري حصانه يمضي إلى الماء ، وابتسم ابتسامة حزينة ، وهو يرنو إلى اكسينيا :

ـ غير أنني لاأستطيع أن أنتزعك من قلبي ، يا أكسينيا . ها إن لي أطفالاً يكبرون ، وبدأ الشيب يدب في رأسي ، وكم من السنين باعدت بيننا ، مثل هوة سحيقة! لكنني لم أزل أفكر بك . ومافتئت أراك في نومي وأهواك . وفي بعض الأحيان ، وحين أفكر بك ، أشرع في استعادة ذكريات حياتنا معاً عند ليستنسكي . لكم أحببنا بعضنا!... وحين أنظر أحياناً إلى ماضي حياتي تبدو لي مثل جيب خاو قُلِب على بطانته...

ـ وأنا كذلك . لكن علي أن أذهب الآن... فنحن واقفان نتحدث أكثر من اللازم...

وبعزم رفعت الدلوين ، ووضعت يديها الملفوحيتن على النير ، وكانت على وشك أن ترقى المنحدر ، غير أنها أدارت وجهها على حين غرة صوب غريغوري ، واكتست وجنتاها توردأ فتياً بديعاً :

ـ كان هنا تماماً ، عند هذا الموضع بالضبط ، حيث ولد حبنا ، ياغريغوري . أتذكر ؟ كان ذلك يوم رحل القوزاق إلى معسكر التدريب .

قالت ذلك مبتسمة ، وانبعثت في صوتها نغمة جذلى...

ـ أذكره كله!

وعاد غريغوري بحصانه إلى الفناء ثم إلى المعلف . وخرج بانتلاي بروكوفتش من السقيفة ، وكان قد بقي ليودع غريغوري ، وسأله :

ـ حسناً ، هل سترحل عما قريب ؟ أتريد أن أطعم حصانك ؟

فنظر غريغوري إلى أبيه ساهما وتساءل :

ـ أرحل إلى أين ؟

ـ ماذا ، إلى كارغينسكايا بالطبع .

ـ لست راحلا اليوم .

ـ ماذا تقول ؟

ـ غيرت رأيي .

ولعق غريغوري شفتيه اليابستين وحول عينيه صوب السماء :

ـ الغيوم تتصاعد ويبدو أنها ستمطر . ليس هناك ما يدعوني لأن أعرض نفسي للبلل .

فقال العجوز موافقا : «هذا صحيح» وإن كان لم يصدق غريغوري ، لأنه كان في زريبة الماشية وراء المنزل قبل بضع دقائق وشاهد غريغوري يتحدث إلى أكسينيا . فقال في سريرته بقلق : «هاهو يعود إلى حيله القديمة . آمل ألا يجلب المتاعب لناتاليا من جديد ، عليه اللعنة ، لاشك أن يشابهني ، هذا الكلب!» . وتوقف عن صنع العريش للعربة وشخص إلى ظهر ابنه المبتعد ، وحين نبش ذاكرته مستعيداً شبابه هو ، شبابه المبكَر ، قرّ قراره : « انه

صورة منّي ، هذا الشيطان! لكنه فاق أباه العجوز في هذا الميدان ، لسوف أجلده بدلاً من أن أدعه يلعب برأس أكسينيا من جديد ويجلب المتاعب إلى العائلة! ولكن أنّى لي ذلك ؟!

في سابق الأيام ، كان اذا ظفر بغريغوري يتحدّث إلى أكسينيا ، لم يتردد في ضربه على ظهره بأيما شيء وقع في يده . لكنه اليوم لم ينبس ببنت شفة حتى أنه لم يكشف عن معرفته السبب الحقيقي الذي حدا بغريغوري أن يبدل رأيه فجأه . اذ أن غريغوري لم يعد « غريشا » ذلك القوزاقي الفتى الطائش ، بل قائد فرقة ، جنرالاً تحت أمرته آلاف من القوزاق ، وان لم يكن يحمل شارات على كتفه . فكيف يتسنى له ، هو بانتلاي بروكوفتش الذي لم ترق رتبته إلى أعلى من رتبة عريف ، أن يعارض جنرالاً ، وان كان ابنه ؟ فلن يسمح له شعوره بالضبط والنظام حتى مجرّد التفكير بإتيان ذلك ، ولهذا شعر أن يديه مقيدتان ، وأحس بشيء من الغربة عن غريغوري . وحتى عندما صاح غريغوري عليه بخشونة أثناء الحراثة البارحة : «فيم وقوفك هناك فاغراً فاك ؟ أمسك بذاك المحراث!» رضخ للأمر ولم ينبس بجواب . ولقد بدا في الآونة الأخيرة أنهما قد تبادلا مقاميهما . فغدا غريغوري يصيح بأبيه المسن وراح بانتلاي بروكوفتش يرضخ إلى نبرة الأوامرالخشنة ، وهو يعظل هنا وهناك على ساقه العرجاء ابتغاء لمرضاة غريغوري .

وفكّر : « يقول أنه يخاف المطر! بينما لم تكن هناك أية إشارة للمطر ، والريح شرقية وليس ثمة الا غمامة صغيرة واحدة تمرق عبر السماء! أيجب عليّ أن أخبر ناتاليا ؟ » واذ أشاعت الفكرة الراحة في نفسه ، همّ بالذهاب إلى الدار . لكنه أعاد النظر في الأمر ، فعاد إلى عمله ، وقد خشي ما قد يعقب ذلك من عراك...

ما إن وصلت أكسينيا إلى الدار وأفرغت دلويها حتى مضت إلى المرآة ووقفت تحدّق قلقة في وجهها الذي كان يزحف اليه الكبر وإن ظل جميلاً .

كان لايزال محافظاً على مجونه وسحرغوايته ، على أن خريف الحياة كان قد شرع بالقاء ألوان كابية على وجنتيها ، وكانت ثمة صفرة تحف بجفنيها ، وخصلات شائبة قد اشتبكت في شعرها ، وقد غامت عيناها من كلال أسيان . ووقفت تحدّق في صورتها ، ثم استدارت وألقت بنفسها على السرير ، تذرف دموعاً غزيرة ، حلوة تسرّي عن الآلام مما لم تعرف لها مثيلاً منذ أجل بعيد .

في الشتاء تعول الرياح القارصة فوق منحدرات الدون القاتمة ، فتكنس عصفا أبيض من الثلج من الحوافي الجرد ، وتكومه أكواماً ، وتعجنه عجناً قوياً . فيتعلق ذلك الجلمود الجبار من الثلج فوق الصقيع ، متلألئاً في ضوء الشمس ، أزرق في السحر ، بنفسجياً شاحباً في الصباح ، وردياً في الفجر . ويظل متعلقاً ، يبعث الرهبة بصمته حتى يتآكله الذوبان من تحته ، أو ينوء بثقله فتقذفة عصفة من الريح . وآنذاك ، يهوي إلى أسفل في زئير مكتوم ، ساحقاً ادغال الشوك القميئة ، مكسراً كرز الطير المتعلق بالمنحدر باستحياء ، جاراً في طريقه حاشية من مثار الثلج ، مزبداً ومتوثباً صوب السماء...

ولم يكن حب أكسينيا الذي تراكم عبر عدد من السنين ، مثل تلك الثلوج ، ليحتاج إلى أكثر من دفعة صغيرة . فكان لقاؤها مع غريغوري كافياً وكذلك تحيته الرقيقة : «صباح الخير ، ايتها العزيزة أكسينيا» . ولكن ماذا عنه هو ؟ ألم يكن عزيزاً عليها ؟ ألم تكن مشغولة البال به كل هذه السنين ، ترجع اليه كل يوم ، كل ساعة ، خلال ذكريات لا تمحى ؟ كانت أفكارها تحوم حول غريغوري دائماً ، مع كل خاطرة تدور في ذهنها وكل خطوة تقوم بها . كذلك الحصان المعصوب يسير ويسيرحول مدار الناعور الذي لا ينتهي...

لبثت راقدة على السرير إلى أن حلّ المساء ، فنهضت واغتسلت ، ومشطت شعرها ، وشرعت ترتدي ملابسها بسرعة محمومة ، كأنها فتاة

على وشك أن تزف إلى عريسها المقبل . ارتدت قميصاً نظيفاً ، وتنورة صوفية ذات لون بنفسجي أحمر ، وحطّت عصابة على رأسها ، وألقت نظرة على نفسها في المرآة ، ثم انفلتت خارجة .

كانت الظلال تحوم حول تتارسكي رمادية بلون الحمام . وكان البط البري يتنادى بلهفة فوق المروج المغمورة بمياة الفيضان . وكان القمر الشاحب الواهن يرتفع وراء أشجار الحور على جانب الدون ، بينما استلقى عبر النهر شريط متموج من نوره . وكانت القطعان قد عادت من السهب قبل أن يتلاشى الضوء ، والبقرات تخور في أفنيتها ، وهي لم تشبع بعد من الحشيش الغض . لم تتوقف أكسينيا لحلب بقرتها ، بل ساقت العجل أبيض الأنف خارج الاسطبل وتركته يمضي إلى أمه . فانقض العجل بنهم على الضرع الرقيق ، ملوحاً بذيله ، وساقاه الخلفيتان متوترتان متباعدتان .

كانت داريا قد فرغت من الحلب ، وكانت تحمل السطل والمصفاة عائدة إلى الدار حينما سمعت صوتاً يناديها من ناحية السياج :

ـ داريا!

ـ من أنت ؟

ـ أنا اكسينيا ... تعالي إلى كوخي لحظة .

ـ ما الذي تريدينه مني ؟

ـ أنا بحاجة ماسّة اليك . تعالي ، بحب المسيح .

ـ سأصفّي هذا الحليب ثم أتيك .

ـ سأكون في انتظارك في الفناء .

وبعد بضع دقائق خرجت داريا فوجدت اكسينيا تنتظرها عند بوابة آل استاخوف . وكانت تنبعث من داريا رائحة الحليب الطازج وزريبة البقر ، واصابتها الدهشة لمرأى اكسينيا متزينة بملابس العيد .

ـ انهيت أعمالك مبكراً هذا المساء ، يا جارة! .

ـ أشغالي قليلة في غياب ستيبان . ليس هناك سوى بقرة واحدة... ولا أكاد أطبخ ... الا قليلاً ومن حين إلى حين ، وهذا كل شيء .

ـ ماذا أردت منّي ؟

ـ تعالي إلى الداخل بعض الوقت . لدي ما اطلبه منك .

وكان صوت اكسينيا يرتجف ، فتبعتها داريا إلى المطبخ ، وهي تكاد تحزر سبب الحديث . وما أن دخلت حتى مضت اكسينيا إلى صندوقها دون أن تشعل ضوءاً ، فنبشت فيه ، ثم امسكت بيد داريا بيديها اليابستين اللاهبتين ، وادخلت خاتماً في اصبعها باستعجال .

فقالت داريا مستغربة :

ـ ما هذا ؟ أهو خاتم حقاً ؟ لا أظنّك تقصدين اعطاءه لي ؟

ـ بلى ، انه لك... تذكاراً...

فاستفهمت داريا بنبرة جدّية وهي تمضي إلى النافذة لتتفحص الخاتم في اصبعها تحت نور القمر الباهت :

ـ أهو من ذهب ؟

ـ نعم ، من ذهب . خليه لديك .

ـ حسناً ، شكراً لك . ماالذي تريدينني أن أفعل لأجل ذلك ؟

ـ اطلبي من غريغوري ... ان يأتي اليّ...

فابتسمت داريا ابتسامة عليم بالأمور :

ـ اللعبة القديمة من جديد ؟

فجفلت اكسينيا وتوهجت حتى طفرت الدموع إلى عينيها :

ـ لا ،لا! اوه ، ماالذي يجول في ذهنك! اريد أن أكلمه حول ستيبان فقد يستطيع أن يحصل له على اجازة .

واحتجت داريا بخبث :

ـ ولكن لمَ لم تأتي لزيارتنا ؟ كان يمكن أن تتحدثي اليه هناك لو كان لديك أمر معه .

ـ لا ، لا! فقد تظن ناتاليا... . احراج...
ـ حسناً ، سأدعوه . لست بخيلة به .

* * *

كان غريغوري يتناول عشاءه . وكان قد فرغ من ملعقته وراح يمسح شاربه بيده . واذ شعر بقدم تلامس قدمه تحت المائدة ، رفع نظره . فرأى داريا تغمز له غمزة لا تكاد ترى .

فحدّث نفسه باهتياج : «إن كانت تستهدف جرّي لأحتل مكان بيوتر ، وتحدثني بأي شيء من هذا القبيل ، فسأضربها بالسوط . لسوف آخذها إلى ساحة درس الحبوب ، واعقد تنورتها حول رأسها ، والهبها بالسوط كالكلبة!» غير أنه قام عن المائدة ، واشعل سيكارة ومضى على مهل إلى سقيفة الباب . فخرجت داريا وراءه على الفور . وحين مرّت به همست في اذنيه قائلة :

ـ آه ، أيها الخنزير! اذهب إنها تريدك .

فتساءل غريغوري وهويشهق بالسؤال :

ـ من ؟

ـ هي!

وبعد ذلك بساعة ، حينما نامت ناتاليا والأطفال ، خرج غريغوري ، ومعطفه مزرر بإحكام عليه ، مع اكسينيا من بوابة فناء آل ستاخوف . لبثا لحظة واقفين بصمت في الشارع الجانبي المعتم ثم مضيا ، يلفهما الصمت ذاته ، نحو السهب الذي كان يلوح لهما بسكونه ، وظلمته ، وعطر حشيشه الغض المسكر . وشدّ غريغوري اكسينيا اليه وهو يلفها بطيات معطفه ، فأحس بها ترتجف ، بينما كان قلبها يدق عنيفاً بطيئاً تحت قميصها...

٥١

قبل رحيل غريغوري في اليوم التالي ، جرى نقاش بينه وناتاليا اذ انتحت به جانباً وسألته همساً :

ـ أين ذهبت الليلة الماضية ؟ ولمَ تأخرت في العودة إلى هذا الحد ؟

ـ هل تأخرت حقاً ؟

ـ حسناً ، ألم يكن كذلك ؟ لقد استيقظت وسمعت الصيحة الأولى للديك ، ولم تكن قد عدت بعد... .

ـ كان كودينوف هنا . وكان عليّ أن أراه للبحث في بعض القضايا العسكرية . وهذا شيء لا تستوعبه عقول النساء ، كعقلك .

ـ ولكن لِمَ لم يأت لقضاء الليلة هنا ؟

ـ كان يستعجل الوصول إلى فيشنسكايا .

ـ وأين يبيت ؟

ـ عند آل أبونشتشيكوف . اذ له قرابة بعيدة معهم . أو شيء من هذا القبيل .

ولم تثر ناتاليا أي سؤال آخر ، وبدت شبه مقتنعة ، لكن عينيها لم تكشف عن حقيقة أفكارها ، ولم يكن في مقدور غريغوري أن يتأكد إن كانت قد صدقته أم لا .

تناول فطوراً سريعاً فيما خرج بانتلاي بروكوفيتش ليسرج حصانه . وهمست الينشنا وهي ترسم علامة الصليب وتقبّله :

ـ لا تنس الله ، لاتنس الله ، يابني . بلغ سمعنا أنك قتلت جماعة من البحارة... يا الهي!فكر بما أنت فاعل يا ولدي! أنظر ، أي أطفال لطاف لديك ، لربّما كان لأولئك الذين قتلتهم أطفال كذلك ، حينما كنت صبياً ، لكم كنت رقيقاً ، أمّا الآن فإنّك دائم العبوس ولا بد أن قلبك كقلب ذئب . اصغ لما تقوله لك أمك ، يابني ، ليست حياتك محفوظة بطلسم ، وقد يكون هناك سيف صارم ينتظر عنقك أيضاً...

فابتسم غريغوري بفتور ، وقبّل يد أمّه اليابسة ، ومضى نحو ناتاليا . فعانقته ببرود وأشاحت عنه . لكنّه لم يلحظ أيّة دموع ، ولاشيء غير المرارة والغيظ المكتوم في عينيها . ثم ودّع أطفاله وخرج...

وحين كان يضع قدمه في الركاب ويمسك بعرف الحصان الكث ، قال يحدّث نفسه :« حسناً ، ها ان الحياة تأخذ منحى جديداً ، غير أن قلبي لايزال بارداً وخاوياً... وحتى اكسينيا لاتستطيع أن تملأه اليوم... »

ومن غير أن يلتفت ليلقي نظرة على عائلته المتجمعة حول البوابة ، مضى على حصانه متمهلاً حدر الشارع . واذ مرّ بكوخ أستاخوف نظر من زاوية عينيه إلى النوافذ فرأى اكسينيا عند النافذة الأخيرة للغرفة الأمامية ، فابتسمت ولوحت له بمنديل مطرّز ، ثم دعكته فجأة في يدها وضغطته على شفتيها وعلى عينيها اللتين كان السواد يحف بهما بعد ليلة لم تنم خلالها...

مضى صاعداً التل في خببٍ سريع . وعند القمّة رأى فارسين وعربة يتحركان ببطء على طريق الحقل باتجاهه . وتبين بينهما أنتيب ، ابن الكذوب ، وقوزاقياً شاباً أسمر من الطرف الآخر للقرية . فحدّث نفسه وهو يرى إلى عربة الثيران : «يجلبان قوزاقاً ميتين إلى أهلهم» . وحين تقدّم من القوزاقيين سألهما :

ـ من هم ؟

ـ أليكسي شامل وايفان توميلين وياكوف .

ـ مقتولين ؟

ـ نعم .

ـ متى

ـ أمس ، عند الغروب .

ـ هل البطارية سليمة ؟

ـ نعم . الحمر باغتوهم في مقرهم . أمّا اليكسي هذا فقد نال حتفه صدفة .

فنزع غريغوري قبعته وترجّل عن حصانه . فأوقفت السائقة المسنة الثيران . كان القوزاق القتلى ممددين جنباً إلى جنب في قاع العربة ، يتوسطهم اليكسي شامل . وحين تقدّم غريغوري ، تناهت إلى أنفه رائحة التفسّخ الكريهة . كان قميص اليكسي الأزرق العتيق مفتوحاً ، وقد طوى كمّه الخاكي تحت رأسه المشجوج ، وكان جذمور ذراعه المقطوعه ملفوفاً بخرقة قذرة ومسجّى على صدره . وقد تسمرت على أسنانه البيض ابتسامه وحشية خالدة ، لكن عينيه الجامدتين كانتا تحملقان بهدوء وتأمل بادي الأسى في السماء الزرقاء ، وفي السحب الطافية فوق السهب......

لم يكن بمقدور امرىء أن يميز وجه توميلين ، وفي الواقع ، لم يكن هناك وجه ، بل كتلة حمراء لاشكل لها شطرت بضربة سيف مائلة . أمّا ياكوف فقد كان أصفر كالزعفران ، ويكاد رأسه أن يكون مقطوعاً برمته عن الرقبة . وكانت عظمة الترقوة البيضاء المقطوعة بارزة من ياقة قميصة غير المزررة ، وامتد على جبينه جرح رصاصة أسود . والظاهر أن أحد رجال الجيش الأحمر قد أخذته الشفقة إزاء حشرجات الموت المنبعثة من القوزاقي المصاب فأطلق عليه النار بصورة تكاد تكون أفقيه ، اذ كان وجهه محروقاً ومبقعاً بأثار البارود الأسود .

اقترح غريغوري قائلاً :« حسناً ، يا اخوان ، فلنتذكّر أصدقاءنا القتلى وندخّن من أجل أن ترقد أرواحهم في سلام » .

ثم تنحّى جانباً وأرخى حزم السرج عن حصانه ، وأسقط الشكيمة من فمه ، وعقد الأعنّة بقادمته اليسرى ثم تركه يرعى على الكلأ الحريري الأخضر . فترجل أنتيب والقوزاقي الآخر عن حصانيهما ، وقيداهما ، ثم تركاهما يسرحان . واستلقى القوزاق وشرعوا يدخنون .

وتساءل غريغوري وهو يلقي نظرة على الثيران كثة الشعر وهي تتدافع على الحشيش :

ـ كيف قتل شامل ؟

ـ كان الذنب ذنبه .

ـ كيف ؟

ـ حسناً ، كان الامر كالاتي . ظهر أمس خرجنا لاداء واجبنا في مهمة دورية . كنّا أربعة عشر ، ومعنا شامل . مضى على حصانه جذلاً فلم يكن والحالة هذه ليشعر بنذير السوء . وراح يهز جذمور ذراعه هنا وهناك ، ويلقي الأعنّة على قربوس سرجه ويقول : «متى سيرجع عزيزنا غريغوري بانتلايفتش الينا ؟ بودّي أن أشرب معه من جديد وأغنّي معه أغنية أخرى» . أجل ، ظل يغنّي طوال الطريق ، وانحدرنا إلى الوهدة وقال العريف : «حسناً ، لا أثر للحمر هنا ، ياأولاد . برأيي أنهم لم يغادروا القرية بعد . ليس الفلاح الروسي بالذي يستيقظ مبكراً ، أظنهم مايزالون يحشون أنفسهم بالدجاج الاوكراني . فلنسترح قليلاً ، فخيلنا تتصبب عرقاً» وهكذا ترجلنا واضطجعنا فوق الحشيش في وهدة ناضبة ، وأبقينا حارسا على التل . رأيت أليكسي يرخي أحزمة سرج حصانه ، فقلت له : «يحسن بك ألا ترخي هذه الأحزمة ، فقد نضطر إلى الرحيل بسرعة . وحينذاك كيف سيتسنّى لك شدّها من جديد بيدك الواحدة ؟» لكنّه ردّ عليّ : «سأتدبرها اسرع منك . لا تحاول أن تعلمني ، يانبات الحلفاء الأخضر» فأرخى الأحزمة وأسقط الشكيمة من فم حصانه ، فتمددنا هناك ندخّن ونتحادث ونغفو . غير أن حارسنا كان مستلقياً تحت شجيرة ، فغفا هو الآخر . وعلى حين غرّة سمعت زنخرة حصان على مبعدة ما . لم أكن أرغب في الحركة ، لكنني نهضت مع ذلك ومضيت إلى قمّة التل . وهناك كان الحمر على خيولهم يجرون باتجاهنا وفي المقدمة قائدهم على حصان رائع ومعهم رشاش فعدوت هابطاً إلى الوهدة وصحت : «الحمر قادمون ، إلى الخيل!» ورآني الحمر أيضاً وتناهى الينا صوت آمرهم يصدر أمراً ، فامتطينا الخيول فاستل عريفنا سيفه وأرادنا أن نهجم ، لكننا لم نكن غير أربعة عشر ، وهم نصف سرية ، ولديهم مدفع رشاش أيضاً . فانطلقنا

خبباً ، ولم يكن في مقدورهم أن يستخدموا رشاشاتهم لموقعنا الذي لم يكن مناسباً بالنسبة لهم ، وهكذا بدأوا يطاردوننا . على أن خيلنا كانت أفضل من خيلهم ، فابتعدنا مسافة لابأس بها عنهم ، ثم ترجلنا عن خيلنا وبدأنا نطلق النار عليهم . وفي تلك اللحظة بالذات لاحظت أن شامل لم يكن معنا . فحين هرعنا لركوب خيلنا ، عدا هو إلى حصانه ، واستطاع أن يضع يده السليمة على قربوس السرج وقدماً في الركاب ، ولكن فيما كان يحاول الركوب انزلق السرج تحت بطن الحصان ولم يفلح في ركوب الحصان وبقي وحيداً يواجه الحمر . وعلى نحو ما استطاع الحصان أن يتخلص منهم فجاء يجري وراءنا والسرج يتأرجح تحته ، وصار مذعوراً بحيث لم يسمح لأحد أن يقترب منه فهو يخور كالوحش . وهكذا أودى شامل بنفسه . فلو لم يكن قد أرخى أحزمة السرج لكان اليوم حيّاً يرزق .

سرت ابتسامة تحت شاربي القوزاقي فختم قصته :

ـ كان شامل يغني في الايام الاخيرة أغنية تقول أن الدب قتل بقرة وصاحبها وهذا ماحدث في الواقع . لقد قتلوه بشكل لايتعرف به المرء على وجهه . ظلوا يشطبونه حتى صار الدم يتدفق منه ، ولو كنت هناك لحسبت أن ثوراً هائجاً قد ذبح في ذلك المكان . وبعد أن رددنا الحمر على أعقابهم ، مررنا بالوهدة والتقطناه .

وتساءلت المرأة التي كانت تقود العربة وقد نفذ صبرها ، وهي تزيح جانباً العصابة التي كانت تقي وجهها من الشمس :

ـ حسناً ، هل نواصل السير ؟

ـ لا تستعجلي ، ياامرأة ، سنمضي بعد لحظة .

ـ كيف تتوقّع منّي ألا أستعجل! إن هذه الجثث الميتة تبعث رائحة نتنة يمكن أن تطرحك أرضاً!

فقال أنتيب متفكراً :

ـ ولماذا لا تكون رائحتها قويّة ؟ لقد أكلوا كفايتهم من اللحم ونهشوا كفايتهم من النساءفي حياتهم... فالرجال على شاكلتهم تنبعث منهم رائحة نتنة دائماً حينما يموتون . يقال أن القديسين وحدهم هم الذين يفوحون بعطر ذكي ، ولكنكم لو سألتموني لقلت لكم إنها حزمة من الأكاذيب . فمهما بلغت قداسته فإنه سيظل يفوح برائحة نتنة كالبلوعة ما أن يبدأ في التعفن . ذلك قانون من قوانين الطبيعة . فهم جميعاً يهضمون طعامهم في مصارينهم ، والله أعطاهم من المصارين مثل أي انسان آخر .

غير أن القوزاقي الآخر انتابه الغضب لأمر ما فصاح به :

ـ أي جحيم تتحدث عنه ؟ قديسون! لنواصل السير .

ثم ودّع غريغوري القوزاق ومضى إلى العربة ليلقي نظرة أخيرة على أبناء قريته الموتى . ولم يلاحظ الا حينذاك أنهم كانوا ، ثلاثتهم ، حفاة ، بينما وضعت ثلاثة أزواج من الجزم عند أقدامهم .

فتساءل :

ـ من خلع جزمهم ؟

ـ قوزاقنا فعلوا ذلك ، ياغريغوري بانتلاييفتش . كانت جزمهم جميعاً جيدة ، فارتأت السرية أن من الأفضل خلعها واعطاءها لمن جزمهم عتيقة . وطبيعي أن للرجال الموتى عوائلهم . ولكن اولادهم يلبسون حتى الجزم العتيقة . ذلك ماقاله أنيكوشكا . قال : « الموتى لا يمكن أن يمشوا أو يركبوا . أعطوني جزمة أليكسي ، فإن لها زوجاً جيداً من النعل . والا فسأموت من البرد قبل أن أحصل على زوج واحد من الحمر! » وهكذا خلعناها ووضعنا بدلها ثلاثة أزواج عتيقة .

استحث غريغوري حصانه على الخبب ، وبينما كان يبتعد سمع القوزاقيين يتجادلان حول ما اذا كان قد ظهر قديس من بين القوزاق في يوم ما .

هبط إلى الوهدة ثم اجتاز طريق الهتمان ورأى كيف وصلت العربة

والفارسان القرية ببطء بعد أن نزلوا من المنحدر .

ولبث محافظاً على سرعته طوال الطريق تقريباً إلى كارغينسكايا . كان النسيم الرفيف ينفش عرف الحصان . وكانت السناجب البرية الطويلة ذات اللون البني تعدو عبر الطريق ، وهي تصفر هلعة . وكان صفيرها الحاد المنذر منسجماً على نحو غريب مع الصمت العميق المخيم على السهب . وكانت طيور الحباري تطير على علو منخفض فوق التلال القائمة على جانب الطريق ، وارتفع أحدها نحو السمت وكأنه يسبح في الفضاء اللازوردي ، متوهجاً كالثلج في ضوء الشمس ، وجناحاه يخفقان بسرعة ، ورقبته المطوقة بريش مخملي تشرئب أثناء طيرانه السريع ، وارتفع ، ثم خرّ هابطاً ، وجناحاه يشتد خفقانهما . وحين اقترب من الأرض راح جناحاه يخفقان ازاء مهاد خضر من الحشائش ، وذلك للمرة الأخيرة قبل أن يختفي ، وقد احتواه بحر من الخضرة .

كان نداء ذكور الحباري الملهوف العارم يسمع في كل مكان . وفي موضع ما ، وعلى مبعدة بضع خطوات من الطريق ، رأى غريغوري دائرة كاملة من الأرض هرستها ذكو ر الحباري المتصارعة على انثى الطير . لم تبق حشيشة في الدائرة ، ولم يكن فيها غير الغبار الرمادي الرقيق عليها آثار سيقان الطيور وعلى حواشي الدائرة تنتصب عيدان جافة من الشيح والنجيل ، وريش قوادم وذيل عالق بها مهتزاً في مهب الريح . وعلى مسافة ليست بعيدة من ذلك الموضع جفلت أنثى حباري في عشها ، وحين لم تجرؤ على الطيران راحت تركض مسرعة على ساقيها الصغيرتين ، وظهرها محدودب كظهر امرأة عجوز ، متجهة صوب الحشيش ، ثم اختفت .

كانت ثمة حياة عارمة ، نابضة غير مرئية تتفتح في السهب ، وقد بعث الربيع فيها الخصب والعطاء . كان العشب يتنامى بغزارة ، وكانت الطيور والحيوانات تتناسل في مضاجعها الخفية في السهب ، واكتست الحقول بكساء منفوش رائع من نبتات صغيرة لاحصر لها ، وليس ثمة غير النجيل

المتخلف من العام الماضي ، يتشبث بالأرض باصرار اتقاء الموت ، وقد تكاثف باكتئاب على منحدرات روابي الدفن التي انتصبت كالحرس فوق السهب . بيد أن الهواء النشيط المنعش كان يجتث ذلك النجيل بلا اكتراث من جذوره ويقذف به ، وهو يطارده من هنا ومن هناك فوق السهب النابض بالحياة .

بلغ غريغوري كارغينسكايا قبيل المغرب ، وفي الصباح التالي تسلّم قيادة الفرقة . وبعد أن ألقى نظرة على آخر التقارير الواردة من هيئة الأركان في فيشنسكايا ، وتشاور مع رئيس هيئة الاركان ، قرّ رأيه على القيام بعملية تعرض ، اذ كانت الكتائب تعاني نقصاً خطيراً في العتاد ، وصار لزاماً الحصول عليه عن طريق الهجوم ، والاستيلاء عليه من الحمر ، وكان هذا هو السبب الرئيسي للقرار الذي اتخذه غريغوري .

وقرب المساء سحبت إلى كارغينسكايا كتيبة مشاة وثلاث كتائب من الفرسان . واستقر الرأي على أخذ ستة من المدافع الرشاشة فقط من أصل اثنين وعشرين مماكان موجوداً في الفرقة ، اذ لم تكن ثمّة أحزمة عتاد للرشاشات الأخرى .

وشرعت قوات القوزاق بشن هجوم التعرض في الصباح التالي . فاستلم غريغوري بنفسه قيادة كتيبة الخيالة الثالثة ، وأرسل دوريات راكبة أمامه ، وقاد الكتيبة مسرعاً صوب الجنوب حيث أفادت التقارير أن كتيبتين من الجيش الأحمر قد حشدتا هناك استعداداً للهجوم على القرزاق .

وما أن ابتعد زهاء فرستين عن كارغينسكايا حتى لحق به ساع يحمل خطاباً من كودينوف ، وكان الخطاب كما يلي :

لقد استسلمت كتيبة سيردوبسكي لنا . وقد نزع السلاح عن جميع جنودها . وحاول عشرون منهم المقاومة فقتلوا واستولينا على أربعة مدافع ميدان (بيد أن المدفعيين الشيوعيين الملاعين قد هربوا بالمغالق) إضافة إلى مائتي قديفة وتسعة مدافع رشاشة . وتجري عندنا الآن احتفالات كبيرة بهذه المناسبة ، اننا

ـ حسناً ، لابأس . ولكن فيم الاستعجال ؟ ماذا جاء في الرسالة ؟ ومن الذي كتبها ؟ كودينوف ؟

ـ استسلمت كتيبة سيردوبسكي في أوست ـ خوبرسكايا .

ـ بديع! اذاً مازلنا أحياء نرزق! أذاهب أنت في الحال ؟

ـ في الحال .

ـ حسناً ، ليكن الله معك! وحينما تعود ستجدنا قد تقدمنا مسافة طيبة .

فألهب غريغوري حصانه بعنف . « يجب أن أرى ميشا وايفان على قيد الحياة... فقد أستطيع أن أعرف قاتل بيوتر... وأخلص إيفان وميشا من الموت... يجب أن أنقذهما... صحيح أن هناك دماً مهدوراً بيننا ، لكن هناك صداقتنا القديمة أيضاً » هكذا كان يفكّر وهو ينحدر من التل عدواً .

٥٢

ما ان دخلت السرايا المتمردة أوست ـ خوبرسكايا وأحاطت بكتيبة سيردوبسكي ، حتى مضى آمر اللواء بوغاتيريوف يصحبه فورونوفسكي وفولكوف لعقد مؤتمر للمداولة . فعقد المؤتمر فى بيت أحد التجار الواقع على مقربة من الساحة ، ولم يدم الا زمنا وجيزا . فحيا بوغاتيريوف فورونوفسكى دون أن يلقي سوطه ، وقال :

ـ كل شئ جرى على نحو بديع! سوف تثبت هذه المأثرة فى سجل خدماتم . ولكن لِمَ لم تستطع الاستيلاء على المدافع ؟

فأجاب فورونوفسكي :

ـ صدفة ، مجرد صدفة ، أيها الآمر . كان كل المدفعيين تقريبا من الشيوعيين ، وقد أبدوا مقاومة يائسة حينما حاولنا تجريدهم من السلاح . فقتلوا اثنين من رجالنا وهربوا بمغالق المدافع .

ـ يا لسوء الحظ!

وألقى بوغاتيريوف قبعته على الطاولة ـ فبان بوضوح على القبعة الأثر الذى خلفته شارة الضباط التى انتزعت منها مؤخرا ـ وابتسم ابتسامة فاترة وهو يمسح وجهه العرق الأحمر ورأسه الحليق بمنديل قذر :

ـ حسناً ، ان كل شئ على مايرام! اذهب وتكلم الى جنودك ... أخبرهم بأن عليهم تسليم جميع أسلحتهم .

فارتج فورونوفسكي لنبرة الضابط القوزاقى الآمرة ، وسأل متلعثما :

ـ جميع أسلحتهم ؟

ـ لن أقول مرتين . قلت «جميع» وأعني «جميع» .

ـ لكننا اتفقنا على ألا تجرد الكتيبة من سلاحها . لا شك أنني أدرك أن المدافع والمدافع الرشاشة والقنابل اليدوية... وكل ماهو من ذلك النوع من المعدات ، يجب أن نسلمه دون قيد أو شرط . أما بشأن المعدات التى تعود لرجال الجيش الأحمر...

فزمجر بوغاتيريوف وضرب ساقه بسوطه :

ـ ليس هناك جيش أحمر الآن! انهم ليسوا رجال الجيش الأحمر الآن بل جنود فى طريقهم للدفاع عن أراضي الدون...فاهم ؟ واذا لم يرضخوا ، فاننا سنجد طرقا كفيلة بجعلهم يرضخون . اننا لن نلعب الختيلة* . لقد زرعتم قذارتكم فى أرضنا ، وها انكم الآن تريدون فرض الشروط . لايمكن أن تكون بيننا أية شروط .فاهم ؟

وأحس فولكوف ، رئيس هئية أركان كتيبة سيردوبسكي ، بالاستياء من كلمات بوغاتيريوف . فتساءل بحدة وهو يمرر أصابعه على أزرار ياقة قميصه الاطلس الاسود وينفش الخصل الكثة لناصية شعره السوداء الغزيرة :

ـ اذاً فأنتم تعتبروننا أسرى ؟ أهذا هو موقفكم ؟

---

* من كلمة «حتل» اى اختفى . لعبة الطماية ، وبالعامية المصرية لعبة الاستغماية . المترجمون

سنوزع الجنود الحمر على السرايا ونجعلهم يقاتلون أبناء جلدتهم . هناك شيء واحد كدت أنساه . لقد أسر اثنان من أبناء قريتك الشيوعيين ، هما ايفان كوتلياروف وميخائيل كوشيفوي ، اضافة إلى عدد كبير من شيوعيي يلانسكايا . انهم يساقون الآن في الطريق مشياً على الأقدام إلى فيشنسكايا حيث سنقضي عليهم . كيف هي الأمور لديك ؟ إن كنت بحاجة إلى خراطيش ، فأخبر الساعي سنبعث اليك خمسمائه .

كودينوف

فصاح غريغوري :« مراسل! » فهرع اليه بروخور زيكوف على حصانه في الحال ، واذ لاحظ التعبير المرسوم على وجه غريغوري ، استبد به الذعر حى أنه رفع يده بالتحية .

فصاح غريغوري فيه :

ـ ريابتشيكوف! أين ريابتشيكوف ؟

ـ في نهاية الرتل .

ـ اذهب وايت به هنا حالاً .

فمضى زيكوف هذباً ، وما هي الا برهة حتى جاء ريابتشيكوف إلى غريغوري خبباً .كان وجهه ذو العذارين الأشقرين قد ترك الطقس عليه أثره فبات جلده يتقشّر ، وقد حرقت شمس الربيع شاربيه وحاجبيه حتى استحال لونها أحمر كلون الثعلب وكان يبتسم وينفث دخان سيكاره كبيرة وهو يتقدّم . وكان حصانه الكميت الداكن ، السمين القوي على الرغم من حلول الربيع ، يخب بمرح خفيف جذل ، ونطاق صدره يتلامع .

وتساءل اذ لاحظ الساعي إلى جانب غريغوري :

ـ أهي رسالة من فيشنسكايا ؟

فأجاب غريغوري باقتضاب :

ـ نعم . استلم قيادة الكتيبة والفرقة . أنا راحل .

فقاطعه بوغاتيريوف ، وهو يفصح بسلوكه بشكل جلي أن الضابطين واقعان تحت رحمته تماما :

ـ لم أقل ذلك ، ولا داعي لازعاجي بافتراضاتكما .

وسادت الغرفة لحظة صمت . وكان ينبعث من الساحة هدير مكتوم . فراح فورونوفسكي يذرع الغرفة جيئة وذهابا ، مفرقعاً مفاصل أصابعه ، ثم زرر قمصلته والتفت الى بوغاتيريوف وعيناه ترفان بعصبية :

ـ إن في لهجتك اهانة لنا ، وهى لا تليق بك ، « كضابط روسي ، وأقول هذا لك وجها لوجه . ولسوف نعرف ، مادمت قد تحديتنا... سنعرف كيف نتصرف . أيها الرائد فولكوف ، انا آمرك بالذهاب الى الساحة واخبار الضباط ألا يسلموا أسلحتهم الى القوزاق بأي حال من الأحوال . وأصدر أمرا الى الكتيبة أن تكون فى حالة استعداد . .سوف أنهي حديثي بعد قليل مع هذا... هذا السيد بوغاتيريوف ثم آتي إلى الساحة .

فتلوى وجه بوغاتيروف غضباً ، وفتح فاه ليتكم . وغيّر لهجته في الحال . فصفق قبعته على رأسه وهو لايزال يعبث بسوطه ، وقال برقة وأدب غير متوقعين :

ـ أيها السيدان ، انكما لم تفهماني جيدا . لا شك أنني لم أنشأ على ثقافة خاصة ، ولم أذهب الى الكلية العسكرية أبدا ، ولهذا فقد لا أكون قد عبرت عما أريد بشكل لائق . ولكننا جميعاً فى جانب واحد . ويجب ألا يكون بيننا أى شعور بالاستياء . فكل ما أردت قوله هو أن رجال الجيش الأحمر ينبغي أن يجردوا من سلاحهم على الفور ، وعلى الأخص أولئك الذين لا ثقة لنا ، أو لكم ، بهم . وهذا كل ما قلت .

ـ فى مثل هذه الحالة ، كان عليك أن تتحدث بوضوح أكثر ، أيها الآمر . يجب أن تتفق معنا ان لهجتك المتحدية ، وسلوكك كله...

وهز فورونوفسكي كتفيه واستطرد بلهجة أهدأ ، وإن ظلت نبرة برمة تشوب صوته :

ـ كان من رأينا نحن أن ينزع السلاح عن العناصر المترددة وغير المؤتمنة وتسلم لكم لتتصرفوا بهم كما تشاؤون...

ـ نعم ، هذا ماقلته .

ـ حسنا ، اذاً ، قلت اننا صممنا على تجريدهم من السلاح بأنفسنا . أما جماعتنا من الصداميين ، فاننا سنحتفظ بهم كوحدة . سنحتفظ بهم بأي ثمن . أنا نفسي أو مساعدي فولكوف ، الذى سمحت لنفسك أن ترفع الكلفة معه ، فسوف نتولى قيادة الوحدة وسنمحو عن أنفسنا بكل شرف عار الاشتراك فى صفوف الجيش الأحمر . وعليك أن تمنحنا هذه الفرصة .

ـ كم سيكون عدد المشاة في جماعتكم ؟

ـ نحو مائتين .

فوافق بوغاتيريوف على مضض : «حسنا ، لا بأس» .

ثم قام ، وفتح الباب وصاح حدر الممر على صاحبة البيت :

وحينما ظهرت عند الباب امرأة متقدمة فى السن تضع حول رأسها شالا ، أمرها أن تأتي اليه بشيئ من اللبن...

ـ اعذرني ، ارجوك . لا يوجد لدينا لبن .

فقال متهكما :

ـ أظنك كنت تقدمين اللبن للحمر ، اما لنا فلا ؟

وأعقب ذلك صمت مقلق . ثم قطعه فولكوف اذ تساءل :

ـ هل لي أن أذهب ؟

فأجاب فورونوفسكي وهو يتنهد :

ـ نعم ، اذهب واصدر أمرا بنزع السلاح عن أولئك الذين أدرجنا أسماءهم فى القائمة .

لم يكن ما حدا بالرئيس الركن فورونوفسكي أن يقول : «سنعرف كيف نتصرف» الا شعوره بالاهانة التي وجهت الى كرامته كضابط . فقد أدرك تماما أن اللعبة قد تمت وأن طريق التراجع قد انقطع . وكانت الأنباء

قد بلغته بأن قوات أرسلت من مقر الجيش لنزع السلاح عن كتيبة سيردوبسكي المتمردة وأنها كانت في طريقها قادمة من أوست ـ مدفد يتسا وسوف تصل في غضون بضع ساعات . على أن بوغاتيريوف هو الآخر أدرك أن فورونوفسكي كان ضابطا يعتمد عليه ولا يخشى منه أي ضرر ، ولم تكن لديه أية فرصة للتراجع ، ولهذا وافق على مسؤوليته الخاصة على تشكيل وحدة مقاتلة مستقلة من القسم الذى يعتمد عليه من الكتيبة . وعلى هذا الأساس انتهى المؤتمر .

وفي الوقت نفسه ، كان القوزاق قد شرعوا ينزعون سلاح الكتيبة بنشاط وجد ، دون أن ينتظروا نتائج المؤتمر . وراحت عيون وأيدي القوزاق الشرهة تنقب في عربات أمتعة الكتيبة ، وتستولي لا على العتاد فحسب ، ولكن على الجزم الجيدة ، ولفافات السيقان ، والبطانيات ، والسراويل والطعام . وازاء هذا التطبيق للعدالة القوزاقية حاول زهاء العشرين من رجال سيردوبسكي أن يقاوموا فهمز أحدهم أخمص بندقيته في قوزاقي أخذ منه كيس النقود ، وصاح «أيها اللص! ما الذي تأخذه ؟ أرجعه والا ستنال حربة تنفذ فيك» .

فتلقى الاسناد من رفاقه وارتفعت صيحات حانقة :

ـ يا رفاق ، الى السلاح!

ـ لقد خدعونا .

ـ لاتسلموا بنادقكم!

ونشبت معركة بالأيدي ، ثم حشر المتمردون رجال الجيش الأحمر ازاء جدار . حيث قضى عليهم خيالة القوزاق في بضع دقائق .

وحين وصل فولكوف استؤنف نزع السلاح بسرعة أشد . وصف رجال سيردوبسكي صفوفا ، وأخذوا يكومون على الأرض بنادقهم وقنابلهم اليدوية ومعدات تلفون الميدان ، وصناديق الخراطيش وأحزمة المدافع الرشاشة .

ثم تهادى بوغاتيريوف الى الساحة على حصانه خببا . وصاح من فوق

حصانه الهائج أمام رجال سيردوبسكي وهو يرفع سوطه فوق رأسه على نحو متوعد :

ـ اصغوا اليّ! من اليوم فصاعدا ، سوف تقاتلون الشيوعيين الملاعين وجنودهم . وسيشمل العفو كل من يمضي معنا ، أما أولئك الذين يحاولون التملص فسينالون ذلك الجزاء! ـ وأشار بسوطه الى الجثث ، التى لم يبق عليها سوى الملابس الداخلية . وقد جثمت تحت الجدار فى كومة بيضاء لا شكل لها .

وهدرت همهمة خلال صفوف رجال الجيش الأحمر ، دون أن يرفع أحدهم صوته بالاحتجاج أو يخرج من الصفوف .

كان القوزاق ـ مشاة وفرسانا ـ يحيطون بالساحة فى حلقة محكمة ، وعلى مقربة من سور الكنيسة صوبت مدافع سيردوبسكى الرشاشة باتجاه مراتب سيردوبسكي نفسها ، وقد قرفص خلفها رماة رشاشات القوزاق على أتم استعداد لاطلاق النار .

وفى غضون ساعة من الزمن ، قام فورونوفسكي وفولكوف بانتقاء الرجال الذين يعتمد عليهم من بقية الكتيبة . كان عددهم ١٩٤ . وقد سميت الوحدة «فوج الثوار الخاص الأول» وخرجت فى اليوم نفسه الى خط الجبهة . وقد سرت شائعة آنذاك بأن الكتيبة الثانية والثلاثين للجيش الأحمر تحت قيادة ميشكا بلينوف الشهير كانت تتقدم ساحقة كل ما يصادفها . ولقد أرسلت سرية من احدى قرى منطقة أوست ـ خوبرسكايا لملاقاتها فأبيدت هذه السرية عن بكرة أبيها . وقد كان بوغاتيريوف عازما على اختبار عناصر القتال فى الفوج الجديد عن طريق اقحامه فى معركة ضد بلينوف .

أما بقية كتيبة سيردويسكي البالغ عددهم زهاء ثمانمائة رجل فقد سيقوا على امتداد ضفاف الدون الى فيشنسكايا . هذا ما امره كودينوف فى رسالة موجهة الى بوغاتيريف . وكان فى حراستهم ثلاث سرايا من القوزاق ، مجهزة بمدافع سيردوبسكي الرشاشة .

وقبل أن يغادر بوغاتيريوف أوست ـ خوبرسكايا حضر قداسا دينيا ، ثم غادر الكنيسة ولم يكن القس قد أتم دعاءه بالنصر « للمحاربين القوزاق المحبين للمسيح » . وحينما امتطى حصانه نادى على أحد أمراء السرايا المتمردة والتي كان عليها ان تبقى فى اوست ـ خوبزسكايا وأصدر اليه التعليمات هامسا فى اذنه :

ـ أحرسوا أولئك الشيوعين كما تحرسون مستودعا للبارود .

وفى الغد سوقوهم الى فيشنسكايا تحت حراس موثوقة . وأرسلوا السعاة اليوم الى القرى لاخبار الناس عن هوية القادمين . انهم سينزلون عقابهم بهم .

وغادر القرية .

٥٣

حوالى منتصف النهار ، ذات يوم من أيام نيسان ، ظهرت طائرة فوق قرية سينكين فى مقاطعة فيشنسكايا . فهرع الأطفال والنساء والشيوخ خارج أكواخهم وقد استلب هدير المحرك العميق لبهم ، ورحوا يشرئبون بأعنافهم ويضعون راحاتهم على عيونهم وهم يحملقون نحو الطائرة التى راحت تحوم دائرة كالصقر فى السماء المضببة فوقهم . وصار هدير المحرك أعلى وأقوى فيما كانت الطائرة تهبط على مهل ، باحثة عن موضع مستو للبهوط فى المرعى خارج القرية .

وصاح جد عجوز ذو خيال خصب وقد استبد به الفزع : « سيلقون علينا القنابل فى الحال! حذارا » فتناثر الحشد المتجمع فى ركن الشارع كقطرات الماء . وراحت النساء تجرجر أطفالهن الزاعقين ، والشيوخ يتواثبون كالماعز فوق الأسيجة ويلوذون بالبساتين .

ولم تبق فى الركن الا امرأة عجوز واحدة . وما كان لها أن تتخلف عن

الهرب ، بيد أنها انكفأت على الأرض . إما لأن ساقاها خانتاها في غمرة الرعب أو أنها تعثرت فوق أجمة . وحيث انكفأت بقيت راقدة وهي تدفر بساقيها الهزيلتين بلا حياء وتنادي بصوت واهن :

ـ آه ، أنقذوني! الموت ، الموت!

ولم يستدر أحد لينقذ المرأة العجوز . ومرت الطائرة فوق مخزن الغلال مباشرة ، بهديرها الفظيع ، فحجب ظل جناحيها نور النهار ثانية من الوقت عن عيني العجوز المرتعبة . وفي تلك اللحظة ، حين أضحت نصف ميتة من الخوف ، لا تسمع ولاتحس بشيء حولها أوتحتها ، بالت على نفسها كالطفل . وكان من الطبيعي أن يستبد بها الرعب حتى أنها لم تلحظ أن الطائرة قد حطت على المرعى ، وأن رجلين يرتديان قمصلتين جلديتين سوداوين ظهرا من قمرة الطيار . واستدارا بتردد صوب القرية وهما يجيلان النظر حولهما حذرين .

بيد أن زوجها ، الذى كان قد اختبأ في البستان ، كان عجوزاً شجاعا ، وبالرغم من أن قلبه كان يخفق بشدة كقلب عصفور في فخ ، فقد كانت لديه من الشجاعة ما جعله يلبث ليراقب ماحدث . وكان هو الذي شخص في أحد الرجلين ضابطا ، ، هو بيوتر بوغاتيريوف ، ابن رفيق له في الكتيبة . وكان بيوتر ، وهو قريب غريغوري بوغاتيريوف ، آمر لواء المتمردين الخاص ، قد تراجع مع البيض الى الدونيتس . ولكن مما لا شك فيه أنه كان هو نفسه ، بيوتر بوغاتيريوف .

وحدّق العجوز متفرسا بعض الوقت ، وهو يقرفص كالأرنب ويداه متدليتان أمامه . وأخيرا قام على قدميه ليرى ما اذا كانت ساقاه ستحملانه ، وقد اقتنع أنه كان بيوتر بوغاتيريوف فعلا ، بيوتر أزرق العينين نفسه الذي كان قد زارهم في العام السابق بذقنه غير الحليق . وحملته ساقاه بشكل بديع ، ولم يرتجف الا قليلا . وهكذا بزغ العجوز ، ببطء من البستان .

ولم يذهب الى زوجته العجوز ، التى كانت لا تزال راقدة فى التراب ، بل سار مباشرة صوب بيوتر ورفيقه ، وهو ينزع قبعته فتساءل العجوز :

ـ قل لي ، ألست بيوتر بوغاتيريوف حقا ؟

ـ بلى ، هو أنا ، أيها الجد!

ـ اذن ، فقد أنعم الله عليّ برؤية الماكنة الطيارة في شيخوختى! لقد بثّت فينا الرعب حقا .

ـ لا يوجد حمر فى المقاطعة ، أليس كذلك ، أيها الجد ؟

ـ كلا ، يابني . ردوا الى مكان ما عبر التشير في المناطق الأوكرانية .

ـ وهل نهض قوزاق قريتنا سينكين أيضا ؟

ـ لقد نهضوا بالفعل ، ولكن عددا كبيرا منهم رقدوا من جديد .

ـ وكيف هذا ؟

ـ اقصد قتلوا .

ـ آه! وعائلتي ، وأبي... . هل هم بخير ؟

ـ كلهم بخير وأحياء يرزقون ، ولكن ، هل أتيت من الدونيتس ؟ هل رأيت ابني تيخون هناك ؟

ـ نعم ، لقد جئت اليك بتحية منه . حسنا ، أيها الجد ، كن حارسا على الطائرة كيلا يعبث بها الأولاد . انا ذاهب الى البيت ـ والتفت الى الرجل الآخر وقال : ـ هيا بنا .

وانطلق بيوتر وصاحبه الى القرية . وبدأ القرويون المذعورون يظهرون من البساتين ومن المآوي والسراديب ومن كل جحر وشق يخطر على البال . مضوا يحيطون بالطائرة التي كانت ماتزال تنفث رائحة النفط والزيت . وكان جناحاها قد اخترقهما رصاص ومنشار في مواضع عدة . وكانت تقف صامتة حارة كحصان مجهد .

هرول العجوز الذى كان أول من شخص بيتر بوغاتيريوف نحو الزقاق الذي سقطت فيه زوجته ، ليزف اليها أخبار ابنهما .

ولكنه لم يعثر لها على أثر . اذ كانت قد لملمت نفسها وهرعت الى الكوخ لتغير ملابسها . فمضى العجوز الى الكوخ ، وحين وجدها صاح : « بيوتر بوغاتيريوف عاد الى القرية . حمل الينا تحية من يتخون » . ثم لاحظ أن زوجته العجوز كانت تغير ملابسها ، ومن غير أن يدرك لذلك سببا ، فار الغضب فيه فزأر فيها : « لماذا ترتدين أحسن الحلل ، أيتها العجوز الهرمة ؟ لن يلتفت إليك أي انسان ، ايتها الشيطانة الفانية! » .

وسرعان ما تجمع كهول القرية في بيت والد بيوتر بوغاتيريوف وراح كل منهم ينزع قبعته عند العتبة ، ويرسم علامة الصليب أمام الايقونات ، ويجلس بوقار على المصطبة متكئا على عكازته .ومضى بيوتر بوغاتيريوف يقص عليهم ، وهو يرتشف من قدح لبناً بارداً ، كيف أنه طار إلى المنطقة بناء على تعليمات من حكومة الدون في نوفوتشيركاسك ، بغية اقامة اتصال مع القوزاق المتمردين ومد يد المعونة اليهم في نضالهم ضد الحمر ، بتجهيزهم بالعتاد والضباط بواسطة الجو . وأخبرهم بأنه لن يمضي وقت طويل حتى يقوم جيش الدونيتس بهجوم تعرضي على امتداد جبهته ثم يلتحق بجيش المتمردين . ولام الشيوخ على ضعف تأثيرهم في القوزاق الشباب الذين تركوا الجبهة وسمحوا للحمر أن يطأوا أرض الدون ، وأنهى كلامه بالقول :

ـ ولكن ما دمتم قد أعدتم النظر في ذلك وطردتم الحكومة السوفيتية الى خارج المنطقة ، فان حكومة الدون ستغفر لكم كل شيء .

فقال أحد الشيوخ متردداً :

ـ ولكن حتى الان ، يا بيوتر غريغوريتش ، ماتزال لنا حكومة سوفيتية ، ولكن ليس فيها شيوعيون ، ولا يحمل علمنا ألوانه الثلاثة ، انما هو أحمر وأبيض .

وأضاف آخر :

ـ وشبابنا ، الخنازير ، لايزالون ينادي أحدهم الآخر بكلمة « رفيق » حينما يتحادثون .

فابتسم بوغاتيروف تحت شاربه ، وأجاب وهو يضيق عينيه الزرقاوين بصورة مرحة :

ـ حكومتكم السوفيتية أشبه بالجليد في الربيع . لا تلقي الشمس عليها بعض الدفء حتى تذوب وتتلاشى . أما أولئك الذين نظموا عملية الفرار من الجبهة ، فاننا سنجلدهم جميعاً فور عودتنا من الدونيتس!

فهدر الشيوخ مستحسنين فرحين :

ـ لا فض فوك ، أجلدوهم ، هؤلاء الشياطين! أجلدوهم حتى ينزف الدم منهم! أجلدوهم على الملأ!

* * *

وقرب حلول المساء ، هرع قائد المتمردين ، كودينوف ، وضابط ركنه ، ايليا سافونوف ، الى سينكين فى مركبة تجرها ثلاثة جياد ، وكان ساع قد أحاطهما علما بوصول الطائرة . فهرعا الى كوخ بوغاتيريوف وقد استبد بهما الفرح بالنبأ ، حتى أنهما لم يتوقفا لتنظيف جزمتيهما ومعطفيهما من الوحل .

٥٤

سار الشيوعيون الخمسة والعشرون الذين غدرت بهم كتيبة سيسردوبسكي الى خارج أوست ـ خوبرسكايا ، تحت حراس مشددة . لم يخطر ببالهم أن يحاولوا الفرار . وكان ايفان أليكسييفتش يحدق فى الوجوه المتحجرة للحرس القوزاق وفى نظراته حقد وتوفز ، وهو يحجل وسط الجماعة ، ويحدث نفسه : « هذه خاتمة المطاف . اذا لم نحاكم ، قضي علينا » .

كانت أغلبية الحرس القوزاق من الكهول الملتحين . وكان يقودهم شيخ من شيعة « المؤمنين القدامى » ، وهو عريف سابق فى كتيبة الأتمان . وما ان

ترك الأسرى أوست ـ خوبرسكايا حتى أصدر أوامره ألا يتحدثوا أو يدخنوا أو يسألوا شيئا .

وصرخ بهم ، وهو يرفع مسدسه :

ــ أتلو صلواتكم ، ياخدم أعداء المسيح . أنتم ذاهبون الى حتفكم ، فلا حاجة بكم لاقتراف الخطايا في ساعاتكم الأخيرة . لقد نسيتم الرب ، وبعتم أنفسكم الى الشيطان الرجيم . وسمتم أنفسكم بسمة الأعداء!

لم يكن بين الأسرى سوى شيوعيين اثنين من كتيبة سيردوبسكي . أما الباقون ، خلا ايفان ، فقد كانوا من منطقة يلانسكايا ، وهم فتية طوال أشداء كانوا قد انضموا الى الحزب الشيوعي حينما بلغت القوات السوفييتية منطقتهم ، وعملوا في الميليشيا أو كرؤساء للجان الثورية في القرى ، ، ثم هربوا الى أوست ـ خوبرسكايا للانضمام الى الجيش الأحمر حينما اندلع التمرد . وكانوا كلهم تقريباً من الحرفين في زمن السلم : نجارين ، صانعي براميل ، بنائين ، أسكافيين وخياطين . ولم يبد على أي منهم أن له أكثر من خمسة وثلاثين ربيعا ، وكان أصغرهم سنا في العشرين من عمره . وبدا الاختلاف الكبير واضحاً بينهم ، وهم الأشداء الوسيمون ذوو الأذرع التي فتلها العمل البدني ، بين قوزاق الحراسة الكهول ذوي الظهور المحدودبة .

همس أحد شيوعيي يلانسكايا وكان يسير الى جانب ايفان :

ـ هل سيحاكموننا ؟ ماذا تظن ؟

ـ ليس ذلك محتملا جدا .

ـ سوف يقتلوننا ؟

ـ هذا ما أتوقعه .

ـ لكنهم لايعدمون أسراهم بالرصاص . هذا ما قاله القوزاق . ألا تذكر ؟

وخيم على ايفان اليكسييفتش الصمت ، لكن شرارة من الامل اضيئت في داخله . فقال في سريرته : «هذا صحيح ، لن يجرؤوا على إعدامنا

بالرصاص . فقد كان شعارهم «يسقط نظام الكومونات ، والاعدام والسلب »... ويشاع انهم لم يذهبوا الى أبعد من إلقاء الاسرى في السجن . شئ من الجلد ، ثم السجن . حسنا ، فما هذا بالشيء الذي يخيف . سوف نبقى في السجن حتى يحل الشتاء ثم ما ان يتجمد الدون حتى يكون اصحابنا قد طردوا البيض ، فيطلقوننا من الاسر» .

توهج الامل مثل الشرارة ، وتلاشى مثل الشرارة أيضا . «كلا ، سيقتلوننا ، انهم متوحشون كالابالسة . وداعا ، ايتها الحياة! آه ، نحن لم نسر على النهج الصحيح! لقد كان علينا ان نقاتلهم ولاتأخذنا بهم رحمة . كان يجب علينا الا نبقيهم احياء ، بل وجب ان نشطرهم بسيوفنا حتى اقدامهم» . لم قبضتيه وهز كتفيه في سورة غضب يائس ، وسرعان ما انكفأ واوشك ان يسقط على الأرض اذ هوت على رأسه ضربة من الخلف .

وارعد العريف المسؤول عن الركب وهو على حصانه قريبا منه : «فيم تلم قبضتيك ، يا خنزير ؟» ولفح ايفان بسوطه ، فتخلفت ندبة عبر وجهه تمتد من الصدغ الى الذقن .

فتساءل احد رجال يلانسكايا بابتسامة متوسلة وصوت راعش : «من تراك تضرب ؟ اضربني انا ، يا أب! انه جريح ، فلماذا تضربه ؟» وخطا خارج الجمع ووقف قدام ايفان باستكانة . فهدر العريف : «سيكون لك ما يكفيك كذلك! اشبعوهم ضربا ، ايها القوزاق! اضربوا الشيوعيين!» .

وهوى السوط بضراوة على قميص الرجل الخفيف حتى ان خرق القماش انكمش كما تنكمش الاوراق في النار ، وانفجر الدم القاتم من الجرح مبللاً القميص . وراح العريف ، وهو يلهث غيظا ، يستحث الاسرى بحصانه وشرع يعمل بسوطه بلا وازع...

وهوى السوط كرة اخرى على ايفان أليكسيفتش . فتوهجت نيران قرمزية في عينيه ، ومادت الارض تحت قدميه ، وبدت الغابة الخضراء

تتأرجح على الضفة المقابلة . فأمسك بالركاب وحاول ان يجر العريف من سرجه ، بيد ان ضربة من نصل السيف أطاحت به ارضا على رأسه . فامتلأ فمه بتراب جاف خانق ، وراح الدم اللافح يتدفق من أنفه وأذنيه .

وظل الحرس يضربونهم ضربا موجعا فترة طويلة من الوقت ، وقد كوموهم حتى غدوا مثل قطيع من الغنم . وتناهت الى اذن ايفان اليكسيفتش ، وهو ملقى على الارض وكأنه فى حلم ، صيحات ووقع اقدام حاد من حوله وزنخرة الخيل الهائجة . وسقطت على رأسه الحاسر كتلة من زبد الحصان الدافئ ، وانبعثت من موضع ما ، قريب جدا ، فوقه مباشرة ، جهشة تشنجية فظيعة وصرخة :

ـ ايها الخنازير! لعنة الله عليكم! تضربون رجالا عزلا! يا...

وداس الحصان على ساق ايفان اليكسيفتش المجروحة ، وضغطت اطراف الحدوات العمياء فى لحم سمانة ساقه ، وأحس بخبطة سريعة من الضربات فوقه . وما هى الا لحظة حتى تكوم الى جانبه جسد ثقيل مبلل ، يفوح منه العرق ورائحة الدم المالحة ، وتسمع ايفان الى الدم يبقبق من بلعوم الرجل كما يبقبق سائل يسكب من قنينة...

وحينما أتم القوزاق اشباعهم ضربا ، ساقوهم حدر النهر ، جعلوهم يغسلون جراحهم . ومضى ايفان يغسل جراحه ورضوضه المحرقة ، فتوغل فى الماء حتى بلغ ركبتيه ، وضم كفيه كالقدح وراح يشرب الماء بلهفة ، مخافة ان تفوته فرصة ارواء الظمأ الذي كان يخز بلعومه .

وبينما كانوا يتقدمون من القرية الاولى ، سبقهم احد القوزاق وهو يركب حصانا شد الربيع من عوده والتمع جلده بالعرق ، وانطلق فى عدو سريع . ومضى داخل القرية ، واذ لم يكد الأسرى يمرون بأول فناء ، حتى تدفق عليهم جمع من الناس مسلح بالمذاري والمعازق والعصي والعتلات . وما ان رأى ايفان والاخرون القوزاق والنساء حتى أدركوا ان تلك كانت الطريقة التى سيلاقون فيها حتفهم .

فصاح احد الشيوعيين : «ليودع احدنا الآخر ، ايها الرفاق!» لقد بدا ظل ماحدث ، بعد عملية الضرب الاولى تلك ، حوداث وقعت في كابوس مريع . فقد سيقوا ثلاثين فرستا خلال قرية تلو قرية ، يستقبلهم في كل منها جمع يسومهم العذاب . كان الشيوخ والنساء والاطفال الكبار يضربونهم ، ويبصقون على وجوههم المتورمة والملطخة بالدماء ، ويقذفونهم بالحجارة وكتل الطين المتيبس ويقذفون الرماد والتراب في عيونهم ، وكانت النساء فظاظاً بشكل خاص ، فلجأن الى اكثر وسائل التعذيب دهاء وقسوة . وحين دنت خاتمة المطاف لم يكن يسيراً تشخيص الرجال الخمسة والعشرين على انهم كائنات بشرية ، فقد كانت اجسامهم ووجوههم مشوهة على نحو وحشي ، وكان يغطيهم دم قاتم متلبد يخالطه الوحل .

كان كل واحد من الخمسة والعشرين يسعى ، في البدء ، الى الابتعاد ما أمكنه عن حرسهم ، لتجنب الضربات . وحاول كل منهم ان يندفع الى الوسط ، وكانت النتيجة ان تكوموا في كتلة قوية من الاجساد . بيد ان القوزاق لجأوا الى تفريقهم على الدوام وأجبروهم على المسير في تشكيلة اكثر اتساعاً . ففقد الرجال كل أمل في اقل حماية من الضربات وراحوا يغذون السير على نحو غير منظم ، لاتعتمل فيهم غير رغبة مؤلمة واحدة : ان يلزموا انفسهم بمواصلة السير وعدم الوقوع . فلو وقعوا لما استطاعوا النهوض من جديد . وكان كل منهم يعطي وجهه ، في البدء ، بيديه ، ويرفع كفيه بضعف الى عينيه حينما كانت الاسنان الحديدية للمذاري او اطراف العصي المفلطحة تلوح امامه . غير انهم اضحوا في الاخير لايأبهون لأيما شيء ابدا . فقد كانوا بادئ الامر ، يرفعون ابتهالات تطلب الرحمة ممزوجة بالأنات واللعنات وزئير ألم لايطاق كزئيرحيوان يائس . ولكن ما ان انتصف النهار حتى مضوا صامتين ، الا واحدا منهم ، وهو شاب من يلانسكايا ، كان اصغرهم سنا جميعا ، وهو مهذار الكتيبة ومحبوبها ،

وجسمه يتشنج بمجموعه ، وهو يجرجر ساقا غدت حطاما اثر ضربة بعمود هوت عليها .

غدا ايفان اليكسييفتش أقوى معنويا بعد اغتساله في الدون ، وحينما رأى القوزاق والنساء يجرون ناحيته ، ودع الرفاق القريبين منه بعجالة وقال بصوت خفيض :

ـ حسنا ، ايها الاخوة ، لقد عرفنا كيف نحارب . والآن ينبغي علينا ان نعرف كيف نموت بشرف . هناك شيء واحد يجب ان نتذكره حتى النفس الاخير ، فكرة واحدة تظل عزاء لنا . قد يحطموننا بعصيهم ، غير انهم لا يستطيعون القضاء على السلطة السوفييتية بعصا . ايها الشيوعيون! ايها الاخوة! موتوا شجعانا ، حتى لا يستطيع العدو ان يضحك منا!

وفي قرية بوبروفسكي لم يصبح بمقدور احد الأسرى ،كان قد ضربه الشيوخ بقساوة ومهارة ، ان يتحمل اكثر مما يتحمل فاطلق صرخة بصوت طفولي موحش ، وفتح ياقة قميصه ، واظهر للنساء والقوزاق صليبا صغيرا قاتما معلقاً بخيط حول عنقه :

ـ ايها الرفاق ، انني لم انضم الى الحزب الا مؤخرا.. لتأخذكم الرحمة بي! انا اؤمن بالله . لدي طفلان صغيران... اشفقوا عليّ! ان لكم اطفالا كذلك...

ـ أي رفاق نحن لك ؟ امسك لسانك! فلهث عجوز افطس الانف صائحا به وهو يضربه مرتين ضربا شديداً :

ـ تذكرت طفليك ، ايها الخنزير الشرير! ها قد عدت الى صوابك الآن اذاً ، أليس كذلك ، أخرجت صليبك ؟ لكنك حين قتلت قوزاقنا ، حين وضعتهم نصب الحائط ، لم تكن تفكر بربك آنذاك ؟

من غير ان ينتظر الرد ، لوح بقبضته وهوى بها على رأس الرجل .

لم يكن لأي شيء مما رأته عينا ايفان اليكسييفتش او سمعته اذناه ان

يترك أي اثر فيه او يستحوذ على اهتمامه حتى لبرهة وجيزة من الوقت . كان قلبه كمن قُدَّ من حجر ، ولم يع ما حوله الا مرة واحدة فقط . دخلوا قرية ذات ظهر ، تلاحقهم الشتائم والضربات ، ومضوا يجاهدون حدر الشارع . وعلى حين غرة ، لاحظ ايفان ، وهو يلقي نظرة الى احد الجوانب ، طفلاً له من العمر زهاء السبع سنوات يتشبث بتنورة امه ، والدموع تنساب مدراراً من عينيه وهو ويصرخ :

ـ ماماتي! لاتضربيه! آه ، لاتضربيه... انني مقهور عليه... انني خائف... انه غارق في الدم .

فصرخت الامرأة بغتة ، وكانت على وشك ان تنزل عصاها على احد الأسرى . وألقت سلاحها ، ولاذت فرارا بزقاق جانبي وهي تمسك بولدها بيدها . فجاشت نفس ايفان من شفقة الطفل ودموعه . فأحس بالدموع تترقرق في عينيه هو وتملّح شفتيه المتشققتين . ونشج عندما تذكر ولده الصغير وزوجته ، ومن خلل الذكرى المفاجئة تولدت فيه رغبة عارمة في الا يموت على مرأى منهما... من الخير ان يموت قبل ذلك...

ومضوا يجاهدون في سيرهم ، لا يكادون يقوون على جر أرجلهم ، وهم يترنحون من شدة الانهاك والألم . كان ثمة بئر في السهب وراء القرية ، فتوسلوا الى العريف المسؤول ان يسمح لهم بالشرب .

فصاح العريف : «لا حاجة بكم للشرب . لقد تأخرنا . هيا!» على ان واحدا من الحرس نطق بلسانهم قائلا :

ـ لا تكن بهذه القسوة ، ياأكيم سازونوفتش! هم بشر مثلنا .

ـ بشر ؟ ليس الشوعيون ببشر . ولا تحاول انت ان تعلّمني ، أأنا المسؤول أم أنت ؟

فأجاب القوزاقي العجوز : «ثمة مسؤولون كثار من امثالك . امضوا ، يا اولاد ، واشربوا!» وترجل عن حصانه ، واستقى من البئر جرة مليئة بالماء . فأحاط به الأسرى في الحال ، وقد التمعت عيونهم الخابية المهروسة ، وامتد

خمسة وعشرون زوجا من الايدي للامساك بالجرة . وهمسوا بأصوات مبحوحة :

ـ اعطني شيئا من الماء ياجدي!

ـ جرعة واحدة على الاقل!

ـ ايها الرفاق! كل بدوره!

فلبث العجوز متردداً دون ان يدرى من يسقي اولا . ثم مرت ثانية لا تنصرم ، صب الماء بعدها فى جابية الشرب المدفونة وتنحى وهو يصيح :

ـ هاكم . هل انتم قطيع من الماشية ؟ كل بدوره!

وانسكب الماء فوق القعر العفن الدبق الاخضر للجابية . فقذف الأسرى انفسهم ناحيتها . واستقى العجوز احدى عشرة جرة ، واحدة اثر اخرى ، حتى ملأ الجابية ، وقد انعقد حاجباه شفقة بهم .

فجثا ايفان اليكسييفتش على ركبته ليشرب . وحينما اطفأ ظمأه ، رفع رأسه ، ورأت عيناه ، بوضوح غريب يكاد يعمى ، الغطاء الابيض بلون الجمد للتراب الطباشيري على الطريق المحاذي للدون ، وزرقة التلال النائية ، ورأتا فوقها ، فوق الدون ذي الناصية البيضاء والانسياب الرشيق ، وفي قبة السماء اللازوردية المنيعة ، غيمة صغيرة . كانت تمضي طافية على جناح من ريح مثل شراع ابيض ، تيمم صوب الشمال ، وقد انعكست صورتها البيضاء على منحنى للنهر ، بعيد .

٥٥

في مؤتمر سري عقدته القيادة العليا للقوات المتمردة اتخذ قرار بطلب المساعدة من حكومة الدون والاتمان بوكايفسكي . وصدرت التعليمات لكودينوف ان يحرر رسالة يعلن فيها عن توبة المتمردين وندمهم لدخولهم فى مفاوضات مع الحمر وتركهم الجبهة فى نهاية عام

١٩١٨ . فقطع كودينوف فى هذه الرسالة وعداً نيابة عن قوزاق الدون الاعلى المتمردين بان القتال ضد البلاشفة سيستمر بضرواة حتى النصر النهائى وطلب ان يزود بضباط أركان وخراطيش بواسطة الجو عبر جبهة القتال .

بقي بيوتر بوكاتيريوف مع المتمردين ، اما الطيار فقد عاد الى نوفوتشيركاسك حاملاً رسالة كودينوف . ومنذ ذلك الحين اقيم اتصال وثيق بين حكومة الدون والقوات المتمردة . وجعلت طائرات صنعت فى فرنسا تحلق كل يوم تقريبا من وراء الدونيتز ، ، جالبة ضباطا وخراطيش وكميات قليلة من قذائف مدافع الميدان الخفيفة . وكان الطيارون يحملون ايضا رسائل من قوزاق الدون الاعلى الذين تراجعوا مع جيش الدون ، ويعودون برسائل جوابية من عوائلهم .

وراح الجنرال سيدورين ، قائد جيش الدون الابيض ، يبعث الى كودينوف بخطط العمليات والتعليمات والتقارير والمعلومات الخاصة بفرق الجيش الاحمر التى كانت تنقل الى جبهة المتمردين ، وفق متطلبات الوضع فى جبهة الدونيتز واعتباراته الستراتيجية . ولم يطلع كودينوف الا نخبة قليلة من رجاله على الاتصالات القائمة بينه وسيدروين ، ملقيا على الامر ستارا من السرية يحجبه عن جميع الآخرين .

٥٦

بلغ الأسرى تتارسكي فى حوالى الساعة الخامسة . كان ضوء الغسق الوجيز وشيكا ، وكانت الشمس تغور راء الافق ، وقرصها المتوهج متكئا على حافة كتلة ممزقة زرقاء رمادية من الغيوم فى الغرب .

وكان قوزاق سرية مشاة تتارسكي بين جالس وواقف فى ظل مخزن حبوب القرية الكبير يومذاك ينقلون الى الضفة اليمنى للدون لمساعدة سرايا

يلانسكايا التى كانت تواجه مشقة فى الصمود امام ضغط الحمر ، وحين كانوا فى طريقهم الى موقعهم الجديد عرجت السرية برمتها الى القرية ليروا عوائلهم وليجددوا مؤونتهم من الزاد .

وكانوا على وشك ان يستأنفوا مسيرتهم فى الحال ، بيد انهم سمعوا ان الشيوعيين الاسرى كانوا يساقون صوب فيشنسكايا وان ميشا كوشيفوى وايفان اليكسييفتش كانا من بينهم ، وانهم بالغون تتارسكي عما قريب . ولذلك قرروا ان ينتظروهم . وكان القوزاق الذين قتل اقرباؤهم مع بيوتر ميلخوف فى المعركة خارج تتارسكي مصرين بشكل خاص على رؤية كوشيفوى وايفان اليكسييفتش .

جلسوا ووقفوا يتبادلون أحاديث فاترة فيما بينهم ، وقد أسندت بنادقهم الى حائط المخزن ، يدخنون ويمضغون بذور عباد الشمس ، وقد أحاطت بهم النساء والشيوخ والاطفال . كانت القرية عن آخرها فى الشارع . وكان الاطفال قابعين على سطوح الاكواخ يرقبون قدوم الأسرى .

وأخيرا انطلق صياح صبي :

ـ ها هم قادمون!

فأسرع الجنود ينهضون ، وعج الناس وضجوا ، وكانت ثمة اصوات مسرعة فيما كان الصبية يركضون لملاقاة الاسرى . واطلقت أرملة اليكسي شامل ، والاسى لا يزال غضا فى قلبها ، صرخة جنوبية .

وقال احد الشيوخ :

ـ اعداؤنا قادمون!

فصاحت اصوات اخرى :

ـ إقتلوا الأبالسة!

ـ لقد قتلوا رجالنا!

ـ لسوف نصفي الحساب مع كوشيفوي وصاحبه وكانت داريا ميليخوفا

واقفة مع زوجة انيكوشكا . وكانت اول من شخَّص ايفان اليكسييفتش من بين رهط الاسرى وهم يتقدمون .

وهدر العريف بصوته فوق عويل الصيحات وصراخ النساء والنحيب : «لقد جئناكم بواحد من قريتكم . تعالوا وتفرجوا عليه ، ابن القحبة هذا! امنحوه قبلة مسيحية! » ومد يده واشار الى ايفان اليكسييفتش .

ـ ولكن اين الآخر ؟ اين ميشا كوشيفوي ؟

وشق انتيب طريقه خلال الجمع ، وهو ينزع بندقيته عن كتفه .

فاجاب العريف ماسحا العرق من وجهه بمنديل احمر وهو يترجل عن حصانه بكلال :

ـ ليس معنا الا واحد من رجالكم ، فلم يكن هناك آخرون! ولكن كلا منكم سيحصل على نتفة منه اذا مزقتموه إرباً!

وعلا صراخ النساء وعويلهن الى اقصى حد يستطعنه . وشقت دايا طريقها صوب الركب فرأت ايفان اليكسييفتش وقد استحال وجهه اسود مزرقاً بالرضوض والدماء وهو يخفق على مبعدة بضع خطوات امامها . وكان رأسه المتورم على نحو مريع بشعره المغطى بقشرة الدم المتيبس يبدو مثل سطل مقلوب . وكان اديم وجهه يخفق مزقا ، وكان قد وضع على الكتلة من مزيج الدم والشعر فوق فروة رأسه قفازين صوفين اراد بهما ان يقي الجرح المفتح من الشمس المحرقة والذباب . وكان القفازان قد التصقا بالجرح ، وهكذا بقيا على رأسه .

اجال بصره حوله وقد بدا عليه سيماء الطريد ، باحثا في الجمع عن زوجته وولده الصغير ، وان كان يتوجس خيفة من العثور عليهما . كان يريد ان يطلب من شخص ما ، اي شخص ، ان يبتعد بهما ان كانا حاضرين هناك . فقد ادرك انه لن يذهب الى ابعد من تتارسكي ، ان حتفه هنا ، ولم يرد ان تشهد عائلته موته . وكان ينتظر موته بفراغ صبر متعاظم . واذ كان في وقفته تلك ، متهدل الكتفين ، شرع يدير رأسه ببطء ومشقة ، وعيناه

تجولان فى الوجوه المألوفة لأهل قريته . فلم يستشف فى أي وجه اثراً من شفقة او تعاطف . لقد كانوا كلهم ، قوزاقا وقوزاقيات ، يخزرونه بعيون يتطاير منها الشرر . وكان قميصة الخاكي التالف ، الذى تصلب من الدماء ، يخشخش مع كل حركة منه . وكان ثمة دم على بنطاله ، بنطال الجيش الأحمر المبطن ، وعلى قدميه العاريتين المعقدتين .

زرعت درايا نفسها امامه... ولبثت تحدق فى وجهه ، وهي تلهث كراهية وألما وتتلظى بهاجس معذب من ان شيئا فظيعا ينبغي ان يتم هنا ، فى هذا المكان ، غير انها لم تستطع ان تتبين ان كان قد رآها وشخَّصها ام لا .

وبذات التعبير القلق المتوفر ، مضى ايفان اليكسييفتش يجيل في الجمع نظرة عينه باستمرار (اذ صُمِّت العين الاخرى برضةٍ) . وعلى حين غرة استقرت نظرته على داريا ، فارتج الى الامام مترنحا ، كما لو كان قد اعطي مخدرا قويا . وكان رأسه يميد لكثرة ما فقد من الدم ، واوشك ان يقع مغشيا عليه . بيد ان حالة التخبط التى بدا كل شيء خلالها غير حقيقي واستحال فيها الضياء الى عتمة ، أشاعت فيه القلق وجعلته يبذل اقصى ما فى حوزته من ارادة ليظل واقفا على قدميه . فرأى داريا وشخَّصها وخطا الى الامام مترنحا . حوَّم شيء يشبه الابتسام من بعيد على شفيته المشوهتين . فبعث شبح الابتسامة تلك القلق في درايا وجعل قلبها يجب بسرعة وعنف ، وكأنه قد صعد الى بلعومها .

فتقدمت الى ايفان اليكسييفتش مباشرة ، وهى تلهث بشدة ووجهها يزداد شحوبا ، أكثر فأكثر .

وتساءلت : « كيف حالك ياابن العم ؟ » . وأفلحت نبرة صوتها الرنانة المتهيجة وترنيمة كلماتها الغريبة في اسكات هدير الحشد . وكان جوابه لا حياة فيه وان كان ثابتا ، وجاء مسموعا وسط ذلك السكون :

ـ وكيف حالك ، يا ابنة العم درايا ؟

ـ أخبرنا ، يا ابن العم العزيز ، كيف قتلت... ـ واختنقت داريا وشدت

قبضتها الى صدرها ، ، ثم مرت لحظة لم تقو فيها على المضي . لكن همستها اذ استأنفت كلامها ، بلغت الأسماع حتى في اخر الجمع : ـ ... ابن عمك ، زوجي .

ـ كلا ، يا ابنة العم ، لم اقتله .

فعلا صوتها متحشرجا :

ـ لم تقتله ؟ ألم تكن أنت وميشا كوشيفوي من قتل قوزاقنا ؟

ـ كلا ، يا ابنة العم ... نحن ... أنا لم أقتله .

فرفعت درايا صوتها :

ـ اذن ، من الذي أزهق روحه ؟ من ؟ قل لي من .

ـ كتيبة زامورسكي...

ـ انت! انت قتلته... القوزاق قالوا انهم شاهدوك على التل . كنت تمتطي حصانا أبيض . أتنكر ذلك ، ياوغد ؟

ـ كنت في تلك المعركة...

وارتفعت يد ايفان اليكسييفتش اليسرى ببطء الى رأسه وجعلت تعدل وضع القفازين اللصيقين بالجرح . وحينما استطرد في كلامه ، كانت ثمة نغمة تردد واضحة في صوته :

ـ كنت في تلك المعركة ، على أنني لم أكن من قتل زوجك ، بل ميخائيل كوشيفوي . أرداه بالرصاص . ان هدر دم ابن العم بيوتر لم يكن على يدي .

فزعقت أرملة ياكوف بصوت نفاذ من بين الجمع :

ـ اذن ، من قتلت من أبناء قريتنا ، يا عدو ؟ أطفال من تركتهم يتامى في هذه الدنيا ؟

فشرعت النساء يبكين بكاءً هستيرياً ، مضاعفات ما كان في الجو من توتر .

قالت داريا ، بعد تلك الحادثة ، انها لاتستطيع أن تتذكر كيف ومن أين

جاءت غدارة خيالة بيديها . لابد أن أحداً قد أعطاها اياها . ولكن حينما تعالت أصوات النساء ، هجست شيئاً غريباً في يديها ، وبدون أن تنظر اليه عرفت انها غدارة . فأمسكت بها ، في البدء ، من ماسورتها مستهدفة أن تضرب ايفان بأخمصها . غير أن سدادة الرمي راحت تخز راحتها وخزاً مؤلما فرفعت أصابعها ، وأدارت الغدارة ، ثم ركزتها على كتفها ، وصوبتها كذلك باتجاه الناحية اليسرى من صدر ايفان .

فرأت القوزاق وراءه يجرون الى الجانبين ، كاشفين عن جدار مخزن الحبوب . وطرقت سمعها صيحات : «أنت مجنونة! سوف تصيبيننا! قفي ، ولاترمي! » . واذ كان يستحثها الترقب الوحشي للجمع ، والرغبة فى الثأر لموت زوجها ، والى حد ما المجد الزائف الذى ولّده فيها اكتشاف نفسها فجأة أنها متميزة عن باقي النساء ، وادراكها أن القوزاق كانوا يشخصون اليها فى ذهول وحتى فى خوف وهم ينتظرون خطوتها التالية ، وأنها بسبب من ذلك ملزمة باتيان شئ ما غريب ، خارق ، قمين ببث الرعب فيهم جميعا.. واذ استحثتها كل تلك المشاعر فى آن واحد ، اندفعت بسرعة مخيفة اتجاه شيء كان قد تقرر فى أعماق وعيها ، شيء ما كان بمقدورها ان تعمل فكرها فيه وما كانت حتى لتفعل ذلك ، فترددت ، ، وهى تتلمس موضع الزناد بحذر . ثم ، فجأة وعلى غير ان توقعت هي نفسها ، وسحبته الي الوراء بقوة .

كاد رجع الغدارة ان يزعزعها من موضع قدميها ، وأصم الطلق اذنيها . بيد انها رأت ، خلال شقي عينيها المضيقتين ، ، وجه ايفان اليكسييفتش تتبدل قسماته بشكل فجائي ، فظيع لايمحى من الذاكرة ، ورأته ينشر يديه ثم يضمهما وكأنه على وشك ان يقفز الى الماء من علو شاهق ، ثم يهوي على رأسه ، ويرتج رأسه كمن اصابته حمى ، وجسده يرتعش ، واصابع يديه المبسوطتين تنشب فى الأرض .

فأسقطت داريا الغدراة ، وهى لما تزل غير مدركة ما فعلته بوضوح ،

وادارت ظهرها للرجل المطروح ، وبحركة بدت بساطتها المطلقة امرا غير طبيعي ، سوت عصابة رأسها ودست شعرها المشعث تحتها .

فقال احد القوزاق وهو يفسح لها المجال باحترام غريب : «انه لايزال يتنفس!» .

ومن غير ان تستوعب ما كان يقال او عما كان الكلام ، تلفتت حولها واستمعت الى انين عميق متقطع بدا انه ينبعث لا من بلعوم انسان ولكن من اعماق قلبه . استحال الانين الى حشرجة الموت . ولم تدرك الا آنئذ ان الانين كان ينبعث من ايفان اليكسييفتش ، الذي لقي حتفه على يديها . واستحثت خطاها بسرعة وخفة حذاء جدار المخزن متجهة صوب الساحة . ولم تلتفت لتتابعها الا عيون قليلة ، اذ كان اهتمام الجمع قد تحول الى انتيب ابن الكذوب ، الذى هرع الى ايفان اليكسييفتتش مسرعا على اصابع قدميه وكأنه فى ساحة الاستعراض ، وهو يخفي حربة وراء ظهره لسبب ما . وبحركات موزونة متأنية ، قرفص على عقبيه ، وسدد نصل حربته الى صدر ايفان ، ، وقال بهدوء : ـ حسنا ، مت الآن يا كوتلياروف! ـ وبكل ما لديه من قوة ضغط على مقبض الحربة .

كان موت ايفان مؤلما وبطيئا . كانت الحياة تصدف عن مغادرة جسده الصحيح القوي . وكان ، حتى بعد الطعنة الثالثة للحربة ، لايزال يفغر فاه وتنبعث «آه ـ آه ـ آه» متحشرجة كليلة من بين اسنانه المدماة .

وقال عريف الركب وهو يدفع انتيب بعيدا : «انت يا هذا ، رح الى الشيطان!» . ورفع العريف مسدسه وسدده نحو ايفان بحركة اعتيادية .

كانت طلقته بمثابة الاشارة للقوزاق ليقذفوا بانفسهم على الاسرى . فتشتت الرجال المطاردون وتبعثروا باضطراب ، واختلط صوت اطلاقات البنادق الحاد المقتضب بالصرخات...

دلف غريغوري ميليخوف مسرعا على حصانه الى تتارسكي في اقل من ساعة بعد ذلك . وكان قد انهك حصانه حتى الموت ، الى ان انكفأ على

الطريق بين قريتين . فحمل غريغوري سرجه الى اقرب قرية ، واستعار حصانا بانسا . بيد انه وصل متأخرا . فقد كانت سرية تتارسكي قد اختفت وراء التل في طريقها صوب حدود منطقة اوست ـ خوبرسكايا ، حيث كان المتمردون يقاتلون وحدات من الخيالة الحمراء ، وكانت القرية ساكنة مهجورة ، والليل ينشر غطاءه القاتم على التلال المحيطة وما وراء الدون واشجار الحور والصفصاف...

مضى غريغوري على الحصان الى فنائه ، فترجل ودخل الى الدار . لم يكن ثمة ضياء في المطبخ . وكان البعوض يطن في الظلال المعتمة ، والايقونات ترسل بصيصا خافتا في الركن... فصاح غريغوري ، وهو يتنسم رائحة البيت المألوفة التي تشيع في النفس الاضطراب :

ـ هل من احد في الدار ؟ اماه ؟ دونيا ؟

وانبعث صوت دونيا من الغرفة الامامية : «غريغوري ، أهذا انت ؟» وتناهى الى سمعه صوت انصفاق اقدام عارية ، وظهر شبح اخته الابيض عند الباب وهي تعقد مشدة تنورتها الداخلية باستعجال .

فسألها : «فيم ذهابك الى الفراش مبكرا ؟ اين امي ؟» وغرقت دونيا في الصمت ، تسمع غريغوري اليها تتنفس بسرعة واضطراب .

ـ ماذا حدث ؟ كم من الوقت مضى على وصول الاسرى هنا ؟

ـ لقد قتلوهم .

ـ ماذا ؟

قتلهم القوزاق ، آه ، غريشا! داريا ، هذي الغراب الشرير... ـ ورنت في صوت دونيا دموع مغضبة ـ ... لقد قتلت ايفان اليكسييفتش بنفسها... بالرصاص...

فصاح غريغوري مذعورا وهو يمسك بأخته من ياقة قميصها :

«ماهذا الذي تهذرين ؟» وتلألأت الدموع في عيني دونيا ، فأدرك غريغوري من الذعر المتجمد في بؤبؤيهما ان أذنيه لم تخدعاه .

ـ وميخائيل كوشيفوي ؟ وشتوكمان ؟

ـ لم يكونا بين الاسرى .

وقصت عليه بايجاز وبصوت كسير مصرع الاسرى الحمر وما فعلته داريا . وانتهت الى القول :

ـ وخافت ماما من قضاء اللية معها في البيت نفسه ؟ فذهبت لتنام عند بعض الجيران . وعادت داريا ثملة... ثملة... كالوحش . وهي نائمة الآن .

ـ اين ؟

ـ في مخزن الحبوب .

فاستدار وخرج ، ومشى عبر الفناء وفتح باب المخزن بقوة . كانت داريا نائمة على الارض وقد جرت تنورتها الى اعلى بلا حياء لتتلفع بها . وكان ذراعاها النحيفان مبسوطين ، وخدها الايمن يتألق بالرضاب ، وانبعثت من فمها المفتوح رائحة الفودكا المنزلية ، قوية نفاذة . وكانت تتنفس انفاسا ثقيلة مجهدة ، ورأسها محني بشكل قبيح ، وقد التصق خدها الايسر بالارض .

لم تعتمل في نفس غريغوري الرغبة الوحشية في استعمال سيفه قدر اعتمالها تلك اللحظة . فانتصب فوق داريا بضع لحظات ، يئن ويترنح ، ويصر على أسنانه ويدق في الجسد المتمدد عند قدميه بمقت واحتقار طاغيين . ثم خطا خطوة الى الأمام ، وحط عقب جزمته ذا النعل الحديدي على وجهها وعلى حاجبيها الأسودين المقوسين ودمدم بصوت أبح :

ـ أيتها الأفعى السامة!

فند عن داريا أنين سكر ودمدمت بشيء . فأمسك غريغوري رأسه بين يديه وجرى الى الفناء .

انطلق على حصانه الى الجبهة في الليلة ذاتها ، حتى أنه لم يلبث ليرى أمه .

كان الجيشان الأحمران الثامن والتاسع لا يزالان يحاولان القيام بعملية تعرض في بعض القطاعات ، بعد أن أخفقا في القضاء على مقاومة جيش الدون وعبور الدونيتس قبل فيضان الربيع . الا أن أغلب هذه المحاولات آلت الى الفشل وانتقلت المبادرة الى قيادة جيش الدون .

والى أواسط شهر أيار لم تحدث أية تغييرات محسوسة على الموقف في الجبهة الجنوبية . واعتمادا على خطة وضعها القائد السابق لجيش الدون ، الجنرال دنيسوف ، ورئيس هيئة أركانه ، الجنرال بولياكوف ، أوشكت عملية تحشيد ما يسمى بالقوة الضاربة على الانتهاء في منطقة كامنسكايا ، هذه القوة التي تنتظم خيرة الكتائب المدربة لجيش الدون الفتي . وصار تعداد تلك القوة الضاربة ينوف على ستة عشر ألفا من حاملي الحراب والسيوف ، وكانت مجهزة بأربعة وعشرين مدفع ميدان ومائة وخمسين رشاشا .

كانت خطة الجنرال بولياكوف أن تضرب القوة ، بالتعاون مع وحدات أخرى ، باتجاه ماكييفكا ، وتهزم فرقة الجيش الأحمر الثانية عشرة ، ثم تتخطى القوات الحمر الأخرى في المنطقة لتنفذ الى منطقة الدون الأعلى ، حيث تنضم الى جيش المتمردين وتدخل فيما بعد الى منطقة خوبر لكي « تشفي » أولئك القوزاق الذين سرت اليهم عدوى البلشفية .

وعلى الدونيتس اتُخذت استعدادات ضخمة لعملية النفاذ . وأنيطت قيادة القوة الضاربة بالجنرال سكريتيف . وبدأ النجاح يحالف جيش الدون . وكان قائده الجديد ، الجنرال سيدورين الذي خلف دنيسوف (ربيب كراسنوف) ، والأتمان الذي أعيد انتخابه ، الجنرال أفريكان بوغايفسكي ، ينتهجان سياسة التعاون مع الحلفاء الغربيين . وكانا يعدّان ، بالتعاون مع ممثلي البعثات العسكرية البريطانية والفرنسية ، خططا بعيدة المدى للزحف على موسكو وتصفية البلشفية في جميع أنحاء الأرض الروسية .

ووصلت الى الموانئ الواقعة على شاطئ البحر الأسود بواخر تحمل الأسلحة . ولم تأت البواخر عابرة المحيط بالطائرات البريطانية والفرنسية والدبابات والمدافع والرشاشات والغدارات ، فحسب ، بل جاءت بقوافل من البغال وتجهيزات غذائية وملابس لم تعد ذات قيمة بعد ابرام الصلح مع المانيا . وامتلأت مخازن البضائع في نوفوروسيسك ببالات من القمصلات الخاكي البريطانية حيث يشب الأسد البريطاني على أزرارها النحاسية . وضاقت المخازن بالطحين والسكر والشوكولاته والمشروبات الروحية الأميركية واذ ذهلت أوروبا الرأسمالية ازاء العنفوان العنيد للبلاشفة ، راحت تصب القذائف والخراطيش في جنوبي روسيا ، تلك القذائف والخراطيش نفسها التى لم يتسن للقوات المتحالفة أن تستخدمها ضد الالمان . لقد هبت الرجعية العالمية لتجهز على روسيا السوفييتية النازفة الممزقة... أما الخبراء العسكريون البريطانيون والفرنسيون الذين كانوا قد قدموا الى الدون والكوبان ليعلّموا الضباط القوزاق وضباط «جيش المتطوعين» فن قيادة الدبابات واستعمال المدافع البريطانية ، فقد باتوا يتطلعون الى دخول موسكو ظافرين...

على أن أحداثا وقعت فى ذلك الوقت فى الدونيتس آلت الى نجاح عملية التعرض التي شنها الجيش الأحمر عام ١٩١٩ .

ليس ثمة شك فى أن السبب الاساسى فى اخفاق الجيش الأحمر فى مواصلة هجوم التعرض كان تمرد القوزاق فى الدون الأعلى ، ، حيث ظلوا ثلاثة أشهر ينهشون مؤخرة الجيش الأحمر كالسرطان ، ويضطرونه الى اجراء تنقلات دائمة للقطعات ، ويعرقلون وصول الامدادات والاحتياطات الى الجبهة وصار اجلاء المرضى والجرحى أمراً شاقاً . فمن الجيشين الأحمرين الثامن والتاسع وحدهما سحب زهاء عشرين ألف جندي للقضاء على الحركة .

أما المجلس العسكري الثوري ، الذي لم يكن على علم تام بالمدى الحقيقي للحركة ، فقد كان بطيئا فى اتخاذ الاجراءات الفعالة اللازمة للقضاء

عليها . وفى البدء ، لم يرسل لسحقها سوى مفارز صغيرة متفرقة (حتى أن مدرسة اللجنة التنفيذية المركزية ، مثلا ، بعثت بمائتي رجل فقط) ، ووحدات أخرى غير كاملة الاعداد . كان الامر أشبه ما يكون بمكافحة النار بأقداح من الماء . كانت وحدات الجيش الأحمر المتفرقة المحيطة بمنطقة التمرد ، التى ناهز قطرها على المائة وعشرين فرستا ، تعمل مستقلة عن بعضها ، دون أية خطة عامة للعمل ، وبالرغم من ازدياد القوات المحاربة ضد المتمردين الى خمسة وعشرين آلف محارب فلم يتم الوصول الى أية نتائج فعالة .

فقذفت الى الميدان أربع عشرة سرية من المشاة وعشرات من مفارز الحماية ، واحدة بعد أخرى ، بغية حصر التمرد فى موضعه... ووصلت مفارز من طلاب المدراس العسكرية من تامبوف وفورونيج وريازان . ولم يحدث الا بعد أن اشتد عود التمرد ، وتسلح المتمردون بالرشاشات ومدفعية الميدان التي استولوا عليها أن أسهم الجيشان الأحمران الثامن والتاسع بفرقة لكل منهما لتشكيل حملة تعززها حضائر من المدفعية والرشاشات . وكانت النتيجة أن تكبد المتمردون خسائر فادحة ، ، الا أنه لم يقض عليهم .

وسرت شرارة من لهيب الدون الأعلى الى منطقة خوبر . وحاولت بضع جماعات قليلة من القوزاق أن تنتفض تحت قيادة بعض الضباط . وفى ناحية أوريوبنسكايا لملم عقيد يدعى أليموف عددا لابأس به من القوزاق والضباط الذين كانوا مختبئين . وقد كان من المقرر أن يبدأ التمرد ليلة الأول من أيار ، بيد أن المؤامرة اكتشفت في الوقت المناسب فألقي القبض على أليموف وعدد من شركائه وأصدرت عليهم محكمة ثورية الحكم بالاعدام رميا بالرصاص . واذ جردت الحركة من قيادتها ، خبت نارها فأخفقت عناصر الثورة المعادية فى منطقة خوبر فى الانضمام الى متمردي الدون الأعلى .

وفى الأيام الأولى من أيار نزلت من القطار مفرزة حمراء فى محطة

تشيرتكوف ، حيث وضعت عدة وحدات للمناوشة من الجيش الاحمر احتياطا . وكانت نشيرتكوفو احدى المحطات الأخيرة الواقعة على سكة الحديد الجنوبية ـ الشرقية التي تمتد مباشرة بحذاء القطاع الغربي لجبهة التمرد . وكان القوزاق من مناطق شتى في ذلك الجزء يقومون في ذلك الوقت بتجميع قوة كبيرة من الفرسان على حدود منطقة كازانسكايا ويخوضون معارك يائسة مع القوات الحمر التي اتخذت آنئذ موقف المهاجم .

سرت شائعة بين رجال الجيش الاحمر في المحطة أن القوزاق قد أحاطوا بتشيرتكوفو وأنهم على وشك أن يشنوا هجوما . وعلى الرغم من أن المحطة لم تكن لتبعد عن الجبهة بأقل من أربعين فرستا وأن هناك وحدات من الجيش الأحمر أمامية كانت ستبعث بانذار لو كانت حركة نفاذ ، إلا أن الهرج والمرج دبّ في المحطة . كانت ثمة ململة في صفوف الجيش الأحمر . ونعق صوت آمر من موضع ماوراء الكنيسة قائلاً : «الى السلاح! » . فاندفع الرجال على نحو هائج في الشوراع .

ثم تبين أن ذلك كان انذارا لا أساس له . اذ أخطأ أحدهم في تشخيص سرية من رجال الجيش الأحمر كانت تقترب منهم وحسبها من القوزاق . ومضت المفرزة الحمراء وكتيبتا المناوشة باتجاه قصبة كازانسكايا .

وفي اليوم التالي لاقت كتيبة كرونستادت ، التي وصلت مؤخرا ، حتفها عن بكرة أبيها تقريبا ، على يد القوات القوزاقية .

فحين انصرم اليوم الأول من القتال شن القوزاق غارة ليلة . وكانت كتيبة كرونستادت تقضي الليلة في السهب ، تحرسها ربايا* ونقاط أمامية ، مفضلين ذلك على المجازفة باحتلال القرية التي هجرها المتمردون . وعند منتصف الليل أحاطت بالكتيبة عدة سرايا من الخيالة القوزاق وفتحوا عليها نارا حامية ، مستخدمين مقارع خشبية كان أحدهم قد اخترعها لارهاب

---

* ربايا . مفردها ربيئة . هي الطليعة في الجيش . المترجمون

العدو . وقد استخدمت هذه المقارع في الليل بدلاً من الرشاشات ولم يكن بالامكان تمييز الصوت الذي تحدثه عن صوت الرشاشات الخفيفة .

وحينما سمع رجال الكتيبة المحاصرون في الظلمة الحالكة ذلك الصرير الهادر لـ «رشاشات» القوزاق ، والاطلاقات القوية لنقاطهم الامامية ، وصياح القوزاق وارعاد الخيالة المتقدمين ، هرعوا صوب الدون ، وعلى الرغم من أنهم أفلحوا في شق طريقهم الى النهر ، غير أنهم فوجئوا بغارة شنها عليهم الخيالة . ولم يفلح في الهرب من الكتيبة كلها سوى بضعة رجال استطاعوا أن يسبحوا عبر الدون المائج بفيضان الربيع .

وفي شهر أيار ، نقلت تعزيزات حمر أكثر فأكثر من الدونيتس الى جبهة التمرد . واشتركت فرقة الكوبان الثالثة والثلاثون في القتال ، فكان ان لمس غريغوري ميليخوف آنذاك لأول مرة مدى ما في الهجوم الحقيقي من قوة . وراحت فرقة الكوبان هذه تكيل الضربات في صفوف فرقته الاولى بلا هوادة ، فاضطر غريغوري للتخلي عن قرية بعد أخرى فيما كان يتراجع ناحية الدون . وعلى مقربة من كار اغينسكايا ، عند ضفاف نهر تشير صمد مدة يوم . غير أنه تعرض لضغط قوات متفوقة وما لبث أن اضطر ليس الى التراجع وحسب بل الى طلب الامدادات .

فأمده كوندرات مدفيديف ، قائد الفرقة الثالثة ، بثماني سرايا من الخيالة ، وكان قوزاق مدفيديف مجهزين تجهيزاً ممتازاً ، إذ كان لجميعم عتاد كثير وكانت جزمهم وبزاتهم ، التي استلبوها من الاسرى الحمر ، في حالة حسنة ، وعلى الرغم من شدة الحر فان العديد منهم كانوا يختالون هنا وهناك بقمصلاتهم الجلدية وكان لكل واحد منهم تقريباً مسدس أو ناظور . واستطاعوا بعض الوقت أن يقاوموا هجوم القراع لفرقة الكوبان الثالثة والثلاثين ، فعزم غريغوري على أن يستغل الفرصة ليذهب الى فيشنسكايا للمشاورة ، نزولاًعند طلبات كودينوف الملحاحة .

٥٨

بلغ فيشنسكايا في الصباح الباكر .

كان ماء الدون قد شرع بالانحسار ، وأفعم الهواء بالرائحة الدبقة الحلوة لاشجار الحور . وعلى امتداد النهر كانت أوراق السنديان اللدنة غامقة الخضرة ترسل حفيفاً حالماً . وكانت المرتفعات الترابية تنضح بالبخار ، وأخذت تظهر عليها حشائش نحيفة ، شوكية خضر . وما فتئت الاخاديد تتلألأ بالماء الراكد . وطيور الأنس تهدر ، والبعوض يطن في الهواء الوخم رغم أن الشمس كانت قد ارتفعت .

وفي المقر ، كانت ثمة الة كاتبة تطرقع ، والغرف مزدحمة ومختنقة بدخان التبغ .

وجد غريغوري كودينوف جالساً وقد ارتسم على وجهه الجد والاستغزاق ، وانكب على مهمة غريبة . وحين دلف غريغوري الى الغرفة بهدوء ، لم يرفع كودينوف نظره ، بل استمر في نتف سيقان ذبابة زمردية كبيرة . نتف ساقاً ، ثم صخم راحته اليابسة الضخمة على الذبابة ووضعها لصق أذنه ، متسمعاً الى الطنين المتراوح في طقته بين العالي والخفيض ، لتلك الحشرة السجينة . ثم لاحظ غريغوري على حين غرة ، فقذف الذبابة تحت المنضدة بحركة نافرة مغضبة ، ومسح راحته بسرواله ، ومال بكلال على ظهركرسيه اللامع . وقال :

ـ اجلس ، يا غريغوري بانتلاييتش .

ـ كيف حالك ، أيها القائد ؟

ـ حسن . حسن بقدر ما هو متوقع . كيف تسير الامور عندكم ؟ اذن هم يدفعونكم الى الوراء .

ـ على امتداد خط الجبهة كلها .

ـ هل أوقفتهم عند نهر تشير ؟

ـ بعض الوقت . لكن امدادت مدفيديف أنقذت الموقف .

ـ هذا هوالموقف ، يا ميليخوف . ـ وأخذ كودينوف الجلد الرمادي لنطاقه القفقاسي بين يديه ، وتنهد وهو يحدق باهتمام متفحصاً فضة الابزيم المسودة ، حسب تقديراتنا ، فان مستقبل الحال سائر نحو الاسوأ . ان شيئاً ما يحدث في الدونيتس . فإما أن يكون أصحابنا هناك قد شرعوا يكتسحون صفوف الحمر فيدفعونهم الى الوراء باتجاهنا ، أو أن يكون الحمر قد أدركوا أننا السبب في كل متاعبهم الحالية فراحوا يحاولون أن يطبقوا علينا الكماشة .

ـ وماهي أخبار «الكاديت» ؟ ماذا أرسلوا من تقارير في الطائرة الاخيرة ؟

ـ لاشيء ذا بال . انهم لا يخبرونك أو يخبروني بخططهم يا صاحبي . فسيدورين رجل ذو دهاء . انهم يحاولون النفاذ خلال جبهة الحمر لمد يد المساعدة لنا . لقد وعدونا بالمساعدة ، غير أن المساعدة لا تأتي دائماً . فليس النفاذ خلال الجبهة بالأمر اليسير . لقد جربت ذلك بنفسي في الأيام الخوالي الجائز أن يكونوا قد أخذوا بضعة فيالق من جبهة كولتشاك وجاؤوا بها الى هنا . اننا في ظلام ، وليس بمقدوزنا أن نرى أبعد من أنوفنا . فتساءل غريغوري متثائباً : «حسناً ، ما الذي استدعيتني من اجله ؟» فلم يكن غريغوري معنياً بشكل خاص بنتيجة الحركة . اذ لم تعد القضية تقلقه ، كما يبدو . لقد ظلت أفكاره تحوم يوماً بعد يوم حول القضية القديمة ذاتها ، كما يجر حصان دواسة حول ساحة درس الحبوب ، الى أن قال في سريرته ، كمن يهز كتفيه دونما اكتراث : «لن يقوم سلام بيننا وبين السوفييتات ، فهذا شيء أكيد . لقد سفكوا من دمنا الكثير ، وسفكنا الكثير من دمهم . أما حكومة الكاديت ، فرغم أنها تزجينا بمعسول الكلام فانهم سينتفون ريشنا فيما بعد . اللعنة . فلتأت النهاية مهما كان لونها» .

ونشر كودينوف خارطة ، وهو لا يزال يتحاشى عيني غريغوري ، وقال :

ـ عقدنا مؤتمرا هنا فى غيابك وتوصلنا الى قرار...

فقاطعه غريغوري ، وهو يتذكر مجلس الحرب الذى كان قد انعقد فى هذه الغرفة ذاتها فى الشتاء ، حينما كان العقيد القفقاسي حاضرا : «مع من عقدت المؤتمر ؟ مع الأمير ؟»

فتجهم وجه كودينوف وقتم . ثم أجاب :

ـ إنه لم يعد من بين الأحياء .

فتساءل غريغوري وقد اعتراه اهتام مفاجئ :

ـ وكيف كان ذلك ؟

ـ ألم أخبرك ؟ الرفيق جورجيدزه قتل .

ـ أوه ، صار لك ...« رفيقا »...كان رفيقا منذ أن اخذ يرتدي فروة . غير أننا لوكنا قد وحدنا قوانا مع الكاديت ـ لا سمح الله ـ ولو أنه كان لايزال حيا ، لدهن شاربه فى الحال ، ولما عاد يمد إليك يده للمصافحة ، بل يمد اصبعه الصغير فقط! هكذا!

ومد غريغوري اصبعه الوسخ الخشن والتمعت أسنانه بضحكة .

لكن كودينوف ظل عابسا ، وعبّرت نظرته ونبرة صوته عن الاستياء الواضح والضيق والغضب المكبوت ، ثم زمجر قائلا :

ـ ليس ثمة ما يدعو للضحك . لا تضحك لمقتل انسان آخر .

فأحس غريغوري بالوخز ، الا أنه أجاب ضاحكا :

ـ ليس لي من رحمة أترحم بها على روح ذاك العقيد الابيض الوجه الابيض اليدين...

ـ مات قتيلا .

ـ فى معركة ؟

ـ من الصعب القول... انها قصة غريبة وليس من اليسير تلمس الحقيقة فيها . ذلك أنه كان ملحقا بقافلة نقل بناء على أوامري . ويبدو أنه لم يكن على وفاق تام مع القوزاق . وحدث أن كان هناك قتال يدور قريبا من

دوباريفكا ، وكانت القافلة التى يركب معها على مبعدة فرستين تقريبا وراء خط النار . كان جالسا فى احدى العربات ، وأصابته رصاصة طائشة فى وجهه تماما . هكذا قال القوزاق . حتى أنه لم يتحرك أبدا... لا بد أن القوزاق هم الذين قتلوه . أولئك الخنازير!

ـ حسنا فعلوا!

ـ كفاك مثل هذا الكلام . ألاتستطيع أن تكف عن خلق المتاعب .

ـ لاتغضب . كنت أمزح .

ـ عليك أن تحتفظ بمزاحك السخيف لنفسك في المستقبل . ان مثلك مثل الثور ، فأنت تلوث علفك بنفسك . اذن فأنت ترى أنه يجب قتل الضباط! أتراك ترفع من جديد شعار «تسقط شارات الضباط» ها ؟ ألم يحن الوقت لتثوب الى رشدك ، ياغريغورى ؟ اذا شئت أن تتصنع العرج ، فاعرج على الساق نفسها ، على الاقل .

ـ امض فى قصتك .

ـ ليس لدي المزيد مما يقال . خمنت أن القوزاق قتلوه ، فخرجت اليهم وتبادلت معهم حديثا صريحا فقلت : «اذاً ، لقد عدتم الى حيلكم القديمة من جديد . أليس من سبق الأوان أن تشرعوا بقتل ضباطكم ؟ لقد استبدت بكم نوبة من هذا القبيل فى الخريف الماضي ، ولكن ما ان أجلسكم الحمر على الخازوق ، حتى وجدتم أنفسكم فى حاجة الى الضباط وجئتم تجرجرون أذيالكم الينا متوسلين أن تكونوا تحت قيادتنا . وها هى الآن القصة نفسها تعاد من جديد» . وألقيت عليهم درسا طيباً . ومن الطبيعي أنهم أنكروا قتله ، بيد أننى استطعت أن أتبين من أعينهم أنهم كاذبون . ولكن ماعساك تفعل بهم ؟ بامكانك أن تتبول على وجوههم وسيقسمون بأن ذلك ندى نازل من عند الله . ـ ودعك كودينوف النطاق بيده وانتفخت أوداجه غضبا : ـ لقد قتلوا رجلا ذكيا ، وها انني الآن ـ وقدأمسيت بدونه ـ كمن فقد يده اليمنى . من ذا الذي سيرسم لنا الخطط الآن ومع من نتشاور ؟ فى مقدورنا

أن نتحدث الى ما لا نهاية ، ولكن ما ان نجابه مسألة استراتيجة حتى تجد أننا خواء الوفاض . انني أشعر بالامتنان لوصول بيوتر بوغاتيريوف ، والا لما كان في وسعي أن أجد رجلا واحداً أتبادل معه الكلام . أوه حسنا ، لا عليك . فلنبدأ عملنا . اذا لم يستطع أصحابنا أن ينفذوا خلال جبهة الدونيتس فلن يصبح بقدورنا الصمود فى مواقعنا . ولذا قر عزمنا ، كما سبق أن ذكرت ، على الزج بكل الجيش ، بآلافه الثلاثين ، فى محاولة لشق طريقنا . فاذا أرجعتم على أعقابكم ، انسحبوا نحو الدون . وسنقوم نحن باخلاء الضفة اليمنى من أوست ـ خوبر سكايا حتى كازانسكايا ، وحفر الخنادق على امتداد الدون ، والدفاع عن أنفسنا...

وقاطعته طرقة حادة على الباب ، فصاح : «ادخل» . فدخل آمر اللواء السادس الخاص ، غريغوري بوغاتيريوف ، كان وجهه الاحمر الصارم يتلألأ بالعرق وحاجباه النحاسيان الذاويان قد انعقدا غضبا... وبدون أن ينزع قبعته جلس الى المنضدة .

فتساءل كودينوف وهو يشخص الى بوغاتيريوف بابتسام مكتوم : «ما الذى جئت من اجله ؟»

فقال بوغاتيريوف : «أعطنا خراطيش!»

ـ أعطيناك شيئا منها . كم تريد اكثر ؟ أتحسب أن لدي معملا للخراطيش هنا ؟

ـ وماذا أعطيتنا ؟ خرطوشة لكل رجل! انهم يصلوننا بنيران رشاشاتهم ، وكل ما نستطيع فعله هو أن نحني ظهورنا ونخفي انفسنا . أتدعو هذه حربا ؟

فقال كودينوف : «انتظر لحظة ، يا بوغاتيريوف ، فاننا نبحث أمورا هامة» . وأضاف حينما نهض بوغاتيريوف يهم بالخروج : «ولكن لا تذهب ، فليست لدينا أسرار نحجبها عنك» . واستدار الى غريغوري : «حسناً . اذاً يا ميليخوف . فاذا لم نستطع ان نقاوم حتى على هذه الضفة ، فسنحاول أن نشق الحصار . سوف نخلف كل من ليس في الجيش ، نخلف

كل أمتعتنا ، ونضع المشاة في عربات ، ونأخذ ثلاث بطاريات معنا ، ونسير صوب الدونيتس . اننا نريد أن تكون فرقتك في المقدمة . لعلك لن تعارض ؟

ـ الأمر سيان لدي . ولكن ماذا عن عوائلنا ؟ ففتياتنا ونساؤنا ، وشيوخنا ، سنفقدهم جميعا .

ـ ما عسانا... من الخير أن يستسلموا هم على أن تدور الدائرة علينا جمعياً .

وتهدل فم كودينوف من طرفيه . وران عليه الصمت زمنا . ثم أخرج جريدة من طاولته .

ـ اليك خبرا آخر... قدم القائد العام ليقود القطعات بنفسه . ويقال انه في ميليروفو أو كانتيميروفكا الآن . انتظر حتى يبلغ موضعنا!

فتساءل غريغوري :

ـ أجاد أنت ؟

ـ نعم . هاك ، اقرأ هذه . أرسلت إلي من كازانسكايا . احدى دورياتنا ظفرت باثنين من المراسلين الحمر . فقتلوهما ، بطبيعة الحال ، وعثروا لدى أحدهما ـ وهو رجل يبدو متقدما في السن ، كما قيل ، ولربما كان قوميسارا ـ عثروا على هذه الصحيفة «الطريق» مؤرخة في الثاني عشر من هذا الشهر . انهم يقدمون وصفا بديعا عنا!

وناول كودينوف غريغوري الصحيفة البالية . فنظر غريغوري الى السطر العريض الذى خط بقلم لا يمحى أثره ، وشرع يقرأ :

تمرد في المؤخرة

لقد انقضت بضعة اسابيع على قيام تمرد في جزء من أرض قوزاق الدون . ان هذه الحركة التي أوحى بها عملاء دينكين ـ الضباط المعادون للثورة ـ قد وجدت الاسناد من كولاك القوزاق ، وقد جر الكولاك وراءهم عددا كبيرا من القوزاق الوسط . وانه لمن المحتمل جدا أن يكون القوزاق ، قد تعرضوا ، في بعض

الحالات ، الى مظالم على يد بعض الأفراد من ممثلي الحكومة السوفييتية . ولقد استغل هذه الحالات عملاء دينكين استغلالا ماهرا لاشعال نار التمرد . ان رجال «الحرس الأبيض» الذين تخلفوا فى منطقة التمرد يتظاهرون أنهم يتبنون نظام السوفييتات بغية اكتساب ثقة القوزاق الوسط . وبهذه الطريقة تضافرت مخططات الثورة المعادية ، مصالح الكولاك وجهل جماهير القوزاق معا للقيام بتمرد جنوني اجرامي فى مؤخرة جيوشنا العاملة فى الجبهة الجنوبية . ان حركة تمرد في مؤخرة الجيش مثلها مثل دملة فى كتف العامل . فلأجل أن نحارب بجدارة ، وندافع عن الوطن السوفييتي ونقضي على زمر دينيكن من سادة الأرض ، يجب أن نضمن مؤخرة لجيشنا تعتمد على التحالف الودي ، السلمي والوثيق بين العمال والفلاحين . وعلى هذا الأساس فإن أخطر مهمة تواجهنا هى تطيهر الدون من التمرد والمتمردين .

لقد أصدرت الحكومة السوفييتية المركزية أوامرها القاضية بانجاز هذه المهمة بأقصر وقت ممكن . ولقد وصلت تعزيزات كبيرة ولا تزال تصل لمساندة الحملة التى تحارب هذا التمرد المعادي للثورة . ويجري الآن ارسال خيرة المنظمين الحزبيين ليعالجوا هذه المهمة الملحة .

يجب أن يوضع حد للتمرد . ويجب على رجال جيشنا الأحمر أن يدركوا بجلاء أن متمردي مناطق فيشنسكايا ويلنسكايا وبوكانوفسكايا هم شركاء مباشرون لجنرالي «الحرس الأبيض» دينيكين وكولتشاك . وكلما أتيح للحركة أن تستمر مدة أطول ، زادت الخسائر من كلا الجانبين . وليس بالامكان حقن الدماء الا عن طريق واحد : تسديد ضربة سريعة ، قوية قاصمة .

يجب أن يوضع حد للتمرد ويجب أن تفجر الدملة على كتفنا وتكوى بحديد حار . وآنذاك ستصبح يد الجبهة الجنوبية طليقة لكى تهوي بضربة مميتة على العدو .

قرأ غريغورى المقالة وابتسم باكتئاب . لقد أفعمته مرارة وحنقاً ، فقال فى نفسه : «يجعلون مني شريكا لدينيكين هكذا بجرة قلم» .

ـ حسنا ، مقال بديع ، أليس كذلك ؟ انهم يريدون أن يعالجوا بالحديد الحار . سنرى من هو الذي سيقوم بعملية الكي! أليس كذلك يا ميليخوف ؟

وبينما كان كودينوف ينتظر رداً من غريغوري استدار إلى بوغاتيريوف :

ـ تقول انك بحاجة الى خراطيش ؟ ستحصل عليها! ثلاثون لكل خيال ، لجميع اللواء . أهذا كاف ؟ اذهب الى المخازن واسحبها ، وسيحرر ضابط الاعاشة اصدارا بذلك . ولكن عليكم أن تلجأوا الى سيوفكم أكثر ، يا بوغاتيريوف ، أضف الى أن الدهاء شئ حسن!

فابتسم بوغاتيريوف مبتهجا وقال : «شعرة من جلد خنزير!» .

ثم ودعهم على عجل وغادر الغرفة .

وحينما أتم غريغوري عمل الترتيبات الخاصة بالتراجع المرتقب نحو الدون ، مع كودينوف ، استدار هاما بالخروج غير أنه سأل كودينوف قبل أن يمضي :

ـ هب أنني جئت بكل الفرقة الى بازكي ، فهل هناك ما ستعبر النهر عليه الى فيشنسكايا ؟

ـ أية فكرة! من المؤكد أن بمقدور الخيالة أن يعبروا الدون سباحة على حيلهم . لعمري من سمع بخيالة يحملون على شئ عبر نهر ؟

ـ ولكن ليس لدي العديد من أهل القرى الواقعة على جانبي الدون ، كما لايخفى عليك . أضف الى أن القوزاق القادمين من نهر تشير ليسوا ماهرين فى السباحة . فقد قضوا كل حياتهم في السهب ، وأين يسبحون هناك ؟

ـ سيبعرون مع الخيول . فعلوا ذلك فى المناورات وفى الحرب الألمانية .

ـ إنني أتحدث عن المشاة .

ـ هناك المعبر . وسنهيئ لهم زوارق ، فلا تخش شيئا .

ـ سيقدم المدنيون معنا ، أيضا .

ـ أعرف ذلك .

ـ عليك أن تهيئ وسائل العبور الجميع ، والا فسأزهق روحك حينما أصل . ليس بالامر الهيِّن أن نخلّف المدنيين على الجانب الخطر من النهر .

ـ طيب ، سأهتم بذلك .

ـ وماذا عن المدافع ؟

ـ دمر مدافع الهاون ، ولكن أجلب مدافع الميدان الى هنا . سوف نهيئ قوراب كبيرة تتسع لنقل البطاريات الى هذا الجانب .

ثم غادر غريغوري المقر وهو واقع تحت تأثير المقالة التى كان قد قرأها لتوه .

«انهم يدعوننا شركاء دينيكين... ومن نحن اذن ؟ هذا هو واقعنا بالضبط ، فلِمَ نجانب الحقيقة...» وتذكر شيئا كان ياكوف قد قاله يوم كان حيا . اذ حدث ذات مساء فى كاركنيسكايا أن كان فى طريقة الى قريته فعرج على مقر المدفعية القائم فى الساحة . وحينما كان ينظف جزمته عند المدخل ، سمع ياكوف يجادل شخصا ما «أنت تقول اننا مستقلون الآن ؟ ولن نكون فى خدمة أية حكومة بعد اليوم ، ها ؟ باه! ان لديك بطيخة متعفنة بين كتفيك بدلا من رأس . واذا شئت أن تعرف ، فاعلم بأننا لسنا أفضل حالا من كلب ضال . فاذا اقترف كلب خطأ وهرب ، فأين عساه يذهب ؟ انه يخاف أن يمضي مع الذئاب ، ويخاف أن يعود الى سيده خشية ما سيناله من ضرب... انه مثلنا تماما . تذكر كلماتي : لن يمضي وقت طويل حتى ندب عائدين الى«الكاديت » وأذيلنا بين سيقاننا متوسلين اليهم أن يصفحوا عنا تذكر كلماتى ، وهذا ما سنفعله! » .

راح غريغوري ، منذ المعركة التى كان قد قتل فيها البحارة ، يعيش فى حالة من الخدر واللامبالاة . وصار يحني رأسه بقنوط دونما ابتسام . ولأجل من الوقت لبث الألم والحزن لمصرع ايفان اليكسييفتش يؤرقه . تم مر هذا أيضاً ، وانقضى . وكان الشيء الوحيد الذي بقي لديه فى حياته (أو هكذا بدا

له الأمر) هو عاطفته المشبوبة نحو أكسينيا ، التى عادت اليه من جديد بزخم لاينثني . لقد كانت هى وحدها التى تومئ اليه أن يوافيها كما تؤمئ نار مضرب خفاقة بعيدة للمسافر على السهب خلال العتمة المتجمدة لليلة خريفية .

والآن ، وحين كان عائداً من المقر انعطف ذهنه صوب اكسينيا «اننا سنحاول فك الحصار عنا ، فما مصيرها هي ؟» ومن غير ما تردد استقر عزمه : «ستبقى ناتاليا مع الأطفال ومع أمي ، لكنني سآخذ آكسينيا معي . سأعدلها حصانا ، وتستطيع أن تركب مع أركاني»

عبر الدون الى بازكي وما ان بلغ مقره ، حتى مزق ورقة من دفتر ملاحظاته وكتب :

«أكسينيا... قد يتعين علينا أن نتقهقر الى الجانب الايسر للدون . فاذا صار الأمر كذلك ، أتركي كل شيء واذهبي الى فيشنسكايا . ابحثي عني هناك ، ، فستذهبين معي» .

ثم طوى الورقة وختمها بصمغ الكرز ، وأعطاها لبروخور زيكوف ، وقال له وهو متجهم ، يحاول أن يحجب حرجه بصرامة لامبرر لها :

ـ اركب حصانك الى تتارسكي واعط هذه الورقة لاكسينيا أستاخوفا . احرص على ألا يراك أحد من أهلي وأنت تعطيها الورقة . ومن الأفضل أن تأخذها إليها ليلا... لاتنتظر ردا... وبعد ذلك تستطيع أن تتمتع باجازة يومين . هيا انطلق .

فاستدار بروخور يهم بالذهاب الى حصانه ، غير أن غريغوري نادى عليه :

ـ وعرج على بيتي وأخبر والدتي أو ناتاليا ، بأن من الخير لهم أن يرسلوا بالملابس وكل ما له قيمة الى هذا الجانب من الدون . ويحسن بهم أن يدفنوا الحبوب ، ولكن يستحسن أن تساق الماشية الى هذا الجانب .

٥٩

بدأت القوات المتمردة بالتراجع على امتداد الجبهة كلها فى الثاني والعشرين من أيار ، كانوا يتقهقرون وهم يحاربون وينازعون حول كل بوصة من الأرض . وكان سكان القرى يهربون أمامهم صوب الدون وقد استبد بهم الذعر ، فراح الشيوخ يسرجون كل ما لديهم من حيوانات الجر ، ويحملون عرباتهم بالصناديق ، والأواني والأدوات والحبوب والأطفال وقاموا بتوزيع قطعان القرية على أصحابها ، فراح هؤلاء يسوقون بقراتهم وأغنامهم على امتداد الطريق . وانحدرت قوافل كبيرة من اللاجئين الى القرى الواقعة على جانب الدون ، متقدمين الجيش ، وكان المشاة قد تلقوا أمرا من مقر القيادة يقضي بالشروع فى انسحابهم قبل ذلك بيوم . ففى الحادي والعشرين من أيار قام قوزاق تتارسكي المشاة مع مفرزة قوامها رجال من فيشنسكايا من غير القوزاق ، بمغادرة مواقعهم في منطقة أوست ـ خوبرسكايا وقاموا بمسيرة اضطرارية قطعوا خلالها أكثر من ثلاثين فرستا الى قرية ريبني المجاورة لفيشنسكايا .

وفى صباح الثاني والعشرين كانت السماء ملفعة بضباب رقيق ، ولم تكن العين لترى غيمة واحدة فى المدى خلا غيمة صغيرة ذات لون وردي باهر ظهرت قبيل الشروق فى الجنوب . وبدا جانبها المواجه للشرق وكأنه ينزف دما... ثم ارتفعت الشمس فوق التلال الرملية على الجانب الأيسر من النهر ، فاختفت الغيمة عن الأنظار . وعلى المروج أضحى صياح طيور الصفرد أكثر وضوحا ، ، وظهرت على حين غرة نعاج الماء ذوات الأجنحة المدببة مثل ندف زرق فوق الجوانب الضحلة للنهر ، ثم حومت صعدا فى الجو حاملة فى مناقيرها الكاسرة سمكاً متلألئاً كفضة...

وحينما انتصف النهار غدا الجو حارا على نحو لم يعتده الناس فى شهر أيار . وصار الهواء خانقا رطبا كما لوكان المطر وشيكا . ومنذ بكرة الفجر

كانت عربات اللاجئين تدب على امتداد الضفة اليمنى للدون ميممة صوب فيشنكايا . وطوف على النهر صوت عجلات العربات ، وزنخرة الخيل ، وخوار الثيران والاصوات البشرية .

وفي الثاني والعشرين من ايار كان رجال مفرزة فيشنسكايا غير القوزاق لا يزالون في ريبني... وفي حوالي الساعة العاشرة صباحا تلقوا أمرا بالمضي الى قرية كروموك الواقعة على طريق هتمان العام ، ، واقامة ربايا ثمة للقبض على كل القوزاق الذين تصلح أعمارهم للخدمة االعسكرية ممن كانوا يحاولون بلوغ فيشنسكايا .

بلغت كروموك موجة عربات اللاجئين المتوجهة إلى فيتسنسكايا كانت النساء تسوق الماشية ، وقد علاهن الغبار وحال لونهن قاتما من لفح الشمس ، وفيما كان الخيالة يمضون على جانب الطريق . وكانت أصوات صرير العجلات وزنخرة الخيل والخراف ، وخوار الأبقار وصراخ الأطفال وأنين المصابين بالتيفوس الذين حملوا أيضا للهرب ، تمزق الصمت المطبق على القرية وبساتين الكرز . كان ذلك الهدير الذي اختلطت فيه آلاف الأصوات من الغرابة حتى أنه أبح الكلاب من كثرة النباح ، فأقلعت عن ملاحقة كل عابر ، ولم تعد تصطحب العربات الماضية فى طريقها مسافة فرست أو نحوه ، كما تفعل في الظروف الاعتيادية .

أمضى بروخور زيكوف يومين فى قريته ، فسلم أكسينيا رسالة غريغوري ، أخبر ايلينشنا وناتاليا بتعليماته ، ثم غادر القرية قاصدا فيشنسكايا في الثاني والعشرين من أيار . وتوقع أن يجد سريته في بازكي ، الا أن رمي المدافع الثقيل بدا قادما من موضع ما وراء نهر تشير . فلم يشعر بروخور بأية رغبة قوية تدفعه للمضي الى حيث يتأجج أوار معركة حامية ، واستقر رأيه على التوجه الى بازكي وانتظار وصول غريغوري والفرقة الأولى اليها .

فمضى الى كروموك على حصانه متمهلا في طريق هتمان العام ، تكاد

خطى حصانه لا تعدو سرعة المشي الاعتيادي ، وحتى لقد سبقته عربات اللاجئين . ثم لحق بهيئة أركان كتيبة شكلت مؤخرا في أوست ـ خوبرسكايا ، وانضم اليها . كانت هيئة الأركان مسافرة في مركبات خفيفة ذوات نوابض وفي عربتين صغيرتين تجري وراءها ستة من الخيل مسرجة وكانت احدى العربتين الصغيرتين تحمل وثائق وجهاز تلفون ، وفي الأخرى قوزاقي كهل جريح ورجل معقوف أنفه وقد استبد به اعياء شديد يغطي رأسه بقبعة من فرو الكاراكول ، رمادية مما يستعملها الضباط . وكان جليا أنه يمر بفترة الإبلال من التيفوس . وكان متمدداً وقد تلفع بمعطف سميك حتى ذقنه ، بيد أنه كان لا يني يطلب من أحدهم أن يلف قدميه بشيء دافئ ، وراح يتفجر غضبا ويطلق اللعنات وهو يمسح العرق من جبينه بيده الهزيلة .

ـ أيها الخنزير! الريح تتسرب من تحت قدمي! بوليكارب ، غطني ببساط . يوم كنت قويا صحيحا ، كان الكل يلجأ الي ، أما الآن... ـ وراحت عيناه تجولان بتلك القساوة الهائلة لرجل عانى من مرض خطير .

فترجل الرجل الذي دعاه بوليكارب وهرع الى العربة ، وقال :

ـ على هذه الحال يمكن أن تصاب بنزلة برد ، ، يا صاموئيلو ايفانوفيتش .

ـ قلت لك غطني!

فصدع بوليكارب للأمر ، ثم تخلف عن العربة .

فسأله بروخور مشيرا الى المريض بعينيه :

ـ من يكون هذا ؟

فأجاب القوزاقي :

ـ ضابط من أوست ـ مدفديتسكايا... كان ملحقا بهيئة أركاننا .

كان ثمة حشد مائج من اللاجئين القادمين من قرى أوست ـ خوبرسكايا ينسحب مع هيئة الأركان . فنادى بروخور على قوزاقي عجوز جالس في عربة وضعت عليها كومة عالية من النفائس المنزلية المختلفة :

ـ أنت يا هذا... بحق الشيطان أين تظن أنكم ذاهبون ؟

فرد الرجل :

ـ نحن ذاهبون الى فيشنسكايا .

ـ وهل أرسلوا فى طلبكم ؟

ـ لم يرسل أحد في طلبنا ، ولكن من يريد أن يلقى بنفسه في الموت ؟ حينما يطل الذعر في عينيك ستنطلق على حصانك بالسرعة اللازمة .

فسأله بروخور :

ـ سألتك لماذا تذهبون الى فيشنسكايا . كان بمقدوركم أن تعبروا النهر عند يلنسكايا ولم يكن الأمر ليأخذ منكم وقتا طويلا .

ـ وبأي شئ نعبر ؟ الناس تقول لا يوجد معبر هناك .

ـ وكيف ستعبرون في فيشنسكايا ؟ وهل سيخلفون القطعات وراءكم ريثما يأخذونكم وعرباتكم ؟ انكم تهيمون مثل قطيع من الخراف ، لايعلم الا الشيطان الى أين ولماذا! ولماذا! تصطحبون كل تلك معكم ؟ ـ وأشار بروخور بسوطه حانقا الى الصرر الموضوعة على العربة .

ـ معنا ملابسنا ، ، وأطواق الخيل وطحين وما شاكل ذلك مما نحتاجه فى الحقل . لم يكن بمستطاعنا أن نخلّفها وراءنا ، فلئن عدنا سنجد كوخنا قاعا صفصفا . يابنى ، حينما تكون قد لملمت حوائجك بالدموع والعرق ، فليس من اليسير أن تخلّفها وراءك ، ولو كان في مقدوري ، لحزمت كوخي أيضا ، حتى لا يستحوذ عليه الحمر ، فلتحل بهم الهيضة!

ـ وذاك الجرن الكبير هناك ، ، فيم تجرجره معك ؟ وتلك الكراسي ؟ ليس الحمر بحاجة اليها!

ـ لم نقدر أن نخلفها وراءنا . لكنهم سيكسرونها ويحرقونها . كلا ، لن أدعهم يغتنون على حسابي . لقد نظفت كوخي عن آخره!

ولوّح العجوز بسوطه على الخيل السمينة ، ثم التفت وأشار بالسوط الى عربة تجرها الثيران خلفه ، وأضاف قائلا :

ـ أترى تلك الفتاة المتلفعة هناك ، تسوق الثيران ؟ انها ابنتي . معها خنزيرة ونسل من الخنازير الصغار فى تلك العربة . لعلنا ضايقناها حينما قيدناها ووضعناها فى العربة ولذا ولدتهم الخنزيرة خلال الليل وهى راقدة فى العربة . أتستطيع أن تتسمع الى الصغار يقبعون ؟ كلا ، لن أدع الحمر يسمنون على حسابي ، عسى أن يأخذ الطاعون أوراحهم !

فقال بروخور وهو يحدق حانقا فى وجه العجوز العريض العرق :

ـ اياك أن تقف في طريقي حينما تصل المعبر ، أيها الجد! والا فسيُلقى بك وبخنازيرك وبكل ماتملك في الدون .

فتساءل العجوز بذهول مطبق :

ـ لماذا ؟

فصاح بروخور ، الهادئ في عادته :

ـ لأن الناس يموتون ، ، ويفقدون كل يملكون ، وأنت ، أنت أيها الشيطان العجوز ، تجرجر معك كل شيء متل الجعل . اننى لا أطيق آكلي الروث من أمثالك .

فحمحم العجوز مغضبا ، وهو يشيح بوجهه :

ـ هيا... اذهب وابعد عني! اي قادة لنا ، مستعدون لقذف أمتعة الناس الآخرين فى الدون . كلمته باحترام وهو... لماذا ، ان لي أنا ولدا ، برتبة عريف ، يصد الحمر مع سريته... اذهب ، رجاء! لا تضع عينك على أموال الآخرين لو كنت أنت قد اغتنيت بعض الشئ لما صرت حسودا هكذا .

مضى بروخور يخب . وارتفع على حين غرة خلفه زعيق خنزير صغير طغى على الأصوات الأخرى ، نافذا الى طبلتي أذنيه . وقبع الخنزير الكبير فى اضطراب .

فصاح الضابط الملقى فى العربة ، مقطبا يوشك أن يبكي :

ـ ما هذا بحق الشيطان ؟ من أين جاء هذا الخنزير ؟ بوليكارب!...

فأنبأه بوليكارب قائلا :

ـ انه خنزير سقط من عربة ، وداست العجلة على ساقه .

ـ قل لصاحبه أن يقطع بلعومه... قل له يوجد مرضى هنا... يكفينا ما نحن فيه دون خنازير تزعق فى آذاننا! أسرع!

ورأى بروخور ، الذى كان قد حاذى العربة الصغيرة ، الضابط متسمعا الى الزعيق وقد انعقد حاجباه ، وهو يحاول عبثا أن يغطي أذنيه بقبعته . ثم قدم بوليكارب من جديد .

ـ انه لا يريد أن يقتله ، ياصاموئيلو ايفانوفيتش . يقول ان حالته ستتحسن ، والا فانهم سيذبحونه هذا المساء .

فشحب لون الضابط ، وجاهد ليستقيم ، ثم جلس مدليا ساقيه من على جانب العربة .

وصاح :

ـ اين مسدسي ؟ أوقف الحصان! أين صاحب ذلك الخنزير ؟ سأريه! فى أية عربة هو ؟

فاضطر العجوز القوزاقي البخيل الى ذبح الخنزير .

فابتعد بروخور ضاحكا ، وسرعان ماسبق صفاً جديداً طويلاً من عربات أوست ـ خوبرسكايا . كانت تربو على المائتين ، فامتدت مع ماشيتها وخرافها مسافة فرست تقريبا على الطريق . أما الفرسان فكان عددهم زهاء الاربعين . فقال بروخور في نفسه : «سنشاهد ألعابا نارية عند المعبر!» .

انطلقت امرأة من مقدمة الصف تركب كميتا بديعا ، نحو بروخور . وحين تقدمت صوبه أوقفت حصانها . كانت تجلس على سرج كثير الزركشة ، وكانت الأحزمة التحتانية والمقعد تلمع بجلد زاه لم يكد يصيبه خدش ما ، والشكيمة والاجزاء المعدنية تتلألأ بالفضة . وكانت المرأة تجلس على السرج على نحو يدل على الخبرة والدراية ، وقد أمسكت بالأعنة بشكل صحيح فى يدها القوية السمراء ، الا أن الحصان العسكري القوي كان بادي النفور من سيدته . فأجال عينيه ، وقوّس رقبته وكشر عن صف أصفر

من الأسنان محاولا أن يعض ركبة المرأة الجميلة التي بدت من تحت تنورتها .

كانت ملثمة الى عينيها بعصابة رأس نظيفة زرقاء . وسألت بروخور وهي تميطها عن شفتيها :

- ربما مررت بعربات تحمل جرحى ،أليس كذلك ؟

- مررت بالعديد من العربات ، ولكن ماذا في ذلك ؟

فأجابت المرأة وهي تمط الكلمات :

- لم أستطع أن أعثر على زوجي . لقد جرح في ساقه ، وهو ينقل الآن في مستشفى ميدان من أوست ـ خوبر سكايا . ولكن يبدو أن الجرح قد تقيّح فأخبرني أن أجلب له حصانه . هوذا الحصان ـ ولسعت المرأة رقبة الحصان العرقة بسوطها . ـ أسرجته وركبته الى أوست ـ خوبرسكايا ، لم أستطع أن أجد المستشفى . سرت وسرت ، دون أن أستطع العثور عليه .

كان بروخور يتسمع بسرور الى الجرس الخفيض المرنان لصوت المرأة القوزاقية . وهو ينظر باعجاب الى وجهها الوسيم المليء ، فقال مستغربا :

- اية حاجة لك للبحث عن زوجك يا امرأة ؟ دعيه يذهب مع مستشفى الميدان! ان أي رجل يمكن أن يتزوج حسناء مثلك ، صداقها جواد كهذا . انا مستعدللمغامرة شخصيا!

فابتسمت المرأة على مضض ، ثم انحنت لتغطي ركبتها بطرف تنورتها . وتساءلت : «قل لي ، بلا مسخرات ، هل مررت بمستشفى ميدان ؟» .

فأجاب بروخور متنهدا ، وهو يشير الى صف العربات الممتد وراءه على مبعدة قليلة : «سوف تجدين مرضى وجرحى في ذلك الجمع هناك» .

فلوحت المرأة بسوطها ، أدارت حصانها بحدة ومضت تخب مبتعدة .

كانت العربات تغذ سيرها ببطء والثيران تلوح بذيولها متكاسلة لتهش عنها ذباب الخيل الطنان... كان الجو حارا والهواء خانقا عكيكا يحمل نذير

الرعد ، حتى أن الأوراق الصغيرة لعباد الشمس القميء النامي على قارعة الطريق كانت ذاوية ذابلة .

ومن جديد حاذى بروخور صفا من العربات . وأذهله أن يجد عددا كبيرا من القوزاق الشباب معهم... رجال إما فقدوا سراياهم أو هربوا منها ، فانضموا الى عوائلهم ، وصاروا يمضون معهم نحو معبر النهر . وكان بعضهم قد ربطوا خيلهم العسكرية وراء العربات وكانوا متمددين يحادثون زوجاتهم أو يعنون بأطفالهم . وكان آخرون ممتطين صهوات خيلهم ، وقد تسلحوا تسليحا كاملا بسيوفهم وبنادقهم ، ، فقال بروخور لنفسه وهو يحدق بهم : «لقد تركوا وحداتهم وهم يسعون الى مصيرهم» .

أفعم الهواء برائحة عرق الحيوانات ، والخشب والأواني المنزلية وزيت العربات الذى لفحته الشمس . ومضت الثيران تتقدم بتباطؤ وفتور ، قد تدلت من ألسنتها الهادلة خيوط من اللعاب تمتد الى التراب . وكانت العربات التى تجرها الخيل تتحرك على الوتيرة ذاتها دون أن تبدي أية محاولة لاجتياز الآخرين . وكانت المجموعة بكاملها تمضي بسرعة لاتزيد على ثلاثة فرستات أو أربعة في الساعة . ثم سُمعت رمية مدفع على حين غرة من بعيد من جهة الجنوب ، فاذا بالحياة تنبعث في الموكب على الفور . فانعطفت العربات التي يجرها حصان أوحصانان خارج الصف ، ، واستحثت الخيل على الخبب ، وشرعت السياط تفح والصرخات تتعالى . وراحت أغصان الصفصاف تهس على ظهور الثيران ، والعجلات تفرقع على نحو أسرع . وانطلق الجميع وقد استبد بهم الذهول ، يستحثون خطاهم . وارتفعت من الطريق سحابات من الغبار أمواجا كثيفة ، ثم طوقت عائدة لتحط على سيقان القمح والأعشاب .

كان حصان بروخور يجر العنان نحو العشب ، مدليا خطسمه الى أسفل ينتزع حزما من البرسيم واللفت والخردل البري ولكن ، وما ان دوت الرمية ، حتى غرز بروخور مهمازيه فى خاصرتي الحصان ، فانطلق طوعا يخبّ ببطء ،

وكأنه أدرك أن ذلك الوقت لم يكن وقت الرعي .

اشتد القصف فتذبذب صوت راعد فى الهواء العكيك .

ـ يا سيدنا المسيح!

ورسمت امرأة شابة تركب في عربة حمل اشارة الصليب على نفسها ، وانتزعت حلمة ثديها البنّية المتلامعة باللبن من فم طفلها ، وحشرت ثديها المكتنز الأصفر فى قميصها .

وصاح عجوز ، يمشي الى جانب ثيرانه ، على بروخور :

ـ أهم رجالنا الذين يطلقون النار ، أم لا ، أيها الجندي ؟

ـ انهم الحمر ، أيها الجد . فليس في مدافعنا أية قذائف .

ـ يامليكة السماء ، أنقذيهم!

وأسقط العجوز الأعنة من يده ، ورفع قبعته القوزاقية المتآكلة ، ورسم اشارة الصليب وهو يدير وجهه ناحية الشرق .

ومن الجنوب ارتفعت غيمة سوداء ناتئة من وراء حافة مسنبلة بعيدان الذرة الصفراء المتأخرة في النمو . وانتشرت حتى غمرت من الأفق نصفه ، ، حاجبة السماء بستار مضبب... فصاح أحدهم :

ـ أنظروا ، هناك حريق كبير!

وارتفعت أصوات تتساءل فوق قرقعة عجلات العربات :

ـ ماذا يمكن أن يكون ؟

ـ أين الحريق ؟

ـ بمحاذاة نهر تشير .

ـ انهم الحمر يحرقون القرى على امتداد تشير .

ـ لا سمح الله!...

ـ يا لها من غيمة دخان هائلة!

ـ لا بد أن أكثر من قرية واحدة تضطرم فيها النار .

ـ ايفان ، قل لمن فى المقدمة أن يسرعوا!

وراحت رقعة الغيمة السوداء تتسع أكثر فأكثرعلى صفحة السماء . وصار هدير رمي المدافع يتعالى بشكل مستديم . وفي غضون نصف ساعة جعلت الريح الجنوبية تحمل الى طريق هتمان العام الرائحة الحريفة المرعبة للقرى المحترقة علي ضفة نهر تشير .

٦٠

يمر الطريق المؤدي الى كرموك ، في موضع منه ، بسياج ذي بلاط من الحجر الرمادي ، ثم ينعطف بحدة صوب الدون ، منحدرا في أخدود غير عميق أُلقي عبره جسر خشبي . وكان قعر الأخدود أيام الجفاف ، يتلألأ برمله الأصفر وحصبائه ثرة الالوان ، أما بعد هطول أمطار الصيف فقد كانت السيول الغرينية لمياه المطر تنحدر بهياج على التل ، فيتكون جدول يجري في الأخدود ، غاسلا الصخور ومتدحرجا فوقها ، وهو يهدر في طريقه الى الدون . وفي مثل تلك الأيام تغمر المياه الجسر ، ولكن ليس لمدة طويلة . فبعد أن تبلغ مياه التل الهائجة ذورتها ، وتحطم الجدران وتقتلع الأسيجة وعواميدها ، تعود فتنحسر ، فتتلألأ الحصباء من جديد في قعر الأخدود ، وتفوح منها رائحة الكلس والطين الطري الذي جرفته السيول من المنحدرات .

كان جانبا الأخدود تغطيهما أشجار كثيفة من الصفصاف والحور ، حتى أن فيئها يظل باردا حتى في أشد أيام الصيف حرارة . وفي ذلك الفيء تنعمت الربيئة المؤلفة من مفرزة فيشنسكايا غير القوزاقية . وعسكرت عند الجسر برجالها الأحد عشر ، وقد زودوا بتعليمات لاعتقال جميع القوزاق الذين يبلغون من العمر ما يؤهلهم للخدمة العسكرية ، ممن كانوا يحاولون بلوغ فيشنسكايا . والى أن ظهرت من بعيد أولى عربات اللاجئين لبث الرجال مستلقين تحت الجسر يلعبون الورق ويدخنون ، وراح بعضهم يخلع قميصه وسرواله وينظفهما من قمل الجنود الشره . وحصل اثنان منهم على سماح

من ضابطهما فذهبا الى الدون ليسبحا .

غير أن استراحتهم كانت قصيرة الأجل ، اذ سرعان ما بدأ اللاجئون يتدفقون حدر الجسر فيضاً لا ينقطع ، وفجأة غدا الموضع الظليل الوسنان الصغير يعج بالناس والجلبة والحرارة ، وكأن العربات كانت تحدر معها عكة السهب من التلال الواقعة على جانب الدون .

وقف آمر الربيئة عند الجسر ويده على بيت مسدسه ، وهو ضابط صف طويل نحيف ذو لحية قصيرة واذنان كبيرتان بارزتان كأذني صبي... وسمح لعدد من العربات بالمرور دون أن يعترضها ، غير أنه حين لاحظ قوزاقيا شابا ، ، له من العمر زهاء الخمس والعشرين سنة ، يقود عربة مع الآخرين ، أصدر اليه أمرا صارما بالوقوف .

فعبس القوزاقي وشد الأعنة . فمضى الآمر الى العربة وسأله : «من أية كتيبة أنت ؟» .

ـ وما شأنك أنت ؟

ـ سألتك من أى كتيبة أنت . حسنا ؟

ـ انا من سرية روبزني . ومن أنت ؟

ـ انزل!

ـ أريد أن أعرف من أنت .

ـ قلت لك ، انزل .

واحمر وجه الآمر حتى أذنيه . وفتح بيت مسدسه ، وأخرجه ، ثم نقله الى يده اليسرى . فدس القوزاقي الشاب الأعنة في يدي زوجته ونط من العربة...

فاستجوبه الآمر قائلا :

ـ ما السبب فى أنك لست مع كتيبتك ؟ وأين كنت ذاهباً ؟

ـ كنت مريضا . وانا ذاهب الآن الى بازكي مع عائلتي .

ـ ألديك وثيقة تثبت أنك في اجازة مرضية ؟

ـ من أين آتي بوثيقة ؟ لم يكن في السرية طبيب .

ـ إذن أنت لم تحصل على وثيقة! ـ ثم نادى على أحد رجاله ـ كاربنكو! خذ هذا الرجل الى المدرسة .

فتساءل القوزاقي :

ـ من تكونون ، بحق الشيطان ؟

سوف نريك من نحن!

ـ علي أن أرجع الى سريتي . لا يحق لك أن تمنعني .

ـ سنرسلك بأنفسنا . ألديك سلاح ؟

ـ بندقية .

ـ أخرجها فوراً وإلا حفرت ثقباً فيك . قوزاقي شاب مثلك وتختبئ تحت تنورة زوجتك الداخلية! أيتعين علينا أن ندافع عنك ؟

ثم قال بازدراء عبر كتفه وهو يشيح بوجهه : «وغد!»

فأخرج القوزاقي بندقيته من تحت بساط . ولما لم يستسغ تقبيل زوجته على مرأى من الآخرين أخذ بيدها ، وتمتم لها بشيء ، ثم مضى مخفوراً صوب المدرسة

وعادت العربات المتزاحمة في الطريق الضيق تسير من جديد على الجسر بجلبة مرعدة .

وفي غضون ساعة من الزمن كانت الربيئة قد اعتقلت زهاء خمسين هارباً . حاول بعضهم أن يقاوم ، وعلى الأخص قوزاقي كهل ذو شارب طويل ومظهر جندي شجاع . فحينما أمره الآمر بالنزول من عربته ، لفح حصانيه بسوطه ، إلا أن اثنين من الحرس أمسكا بالحيوانين من لجاميهما وأوقفاهما عند الطرف الأبعد من الجسر . ومن غير أن يعمل القوزاقي ذهنه نتش بندقية أميركية من نوع ونتشستر من تحت غطاء المشمع وحطها على كتفه ، صائحاً :

ـ تنحيا عن الطريق وإلا قتلتكما ، عليكما اللعنة!

فقال له أحد الحارسين :

ـ انزل ، انزل! لقد تلقينا أوامر بإطلاق النار على كل من يخرج عن الطاعة . سنرميك .

ـ يا فلاحون! بالأمس كنتم أنفسكم حمراً ، واليوم تصدرون الأوامر الى القوزاق... يا ذوي الجلود الزنخة! تنحيا عن الطريق وإلا رميتكما...

فوثب أحد الحارسين على عجلة أمامية ، وبعد صراع قصير انتزع البندقية من يد الرجل . فتقوس القوزاقي كالقطة ، ودس يده تحت الغطاء المشمع ، وسحب حساماً من غمده ، وحين جثا على ركبتيه استطاع أن يبلغ جانب العربة ، إلا أنه أخطأ رأس الحارس بقليل فيما ابتعد هذا قافزاً .

فصرخت زوجة القوزاقي الباكية ذات الوجه الهزيل في زوجها الهائج : « تيموفي ، كف عن ذلك! تيموفي! آه! لا تفعل هذا... لا تقاوم ، إنهم سيقتلونك! » .

غير أنه انتصب بملء قامته في العربة ، ولوح بالحسام المشع بلون في زرقة الفولاذ فوق رأسه ، مبعداً عنه الحارسين ، وهو يقذفهما بسباب مبحوح ويجول بعينيه . وأرعد صائحاً : « ابتعدا وإلا مزقتكما! » ووجهه يرتجف غضباً ، وتحت شاربيه أزبد لعابه ، وبياضا عينيه المزرقان يحول لونهما أحمر قانياً كالدم .

واستطاعا أخيراً أن يجرداه من سلاحه بشق النفس ، ثم طرحاه أرضاً وقيداه . وحينما فتشا العربة عثرا على تفسير بسيط لمقاومته العنود . إذ كانت ثمة جرة كبيرة تحت الغطاء المشمع مليئة بالفودكا المنزلية القوية .

وكان الطريق في تلك الأثناء قد اكتظ بالعربات والبهائم . وقد ازدحمت العربات بحيث صار لزاماً على اللاجئين أن يحلوا الخيل والثيران ويجرّوا العربات بأيديهم حدر الجسر . وراحت الثيران والخيل المزنخرة بعنف ، وقد أهاجها ذباب الخيل ، تعت عرائش العربات بضراوة وتتزاحم متدافعة صوب حاجزي الجسر . وضج الجسر باللعنات وصفير السياط ونحيب النساء . أما العربات التي كانت في المؤخرة فقد استدارت الى الخلف وصعدت الى الطريق

العام من جديد لتيمم صوب الدون عند بازكي .

أرسل الهاربون المعتقلون الى بازكي تحت الحراسة ، غير أن الحراس لم يستطيعوا أن يسيطروا عليهم إذ كان الهاربون جميعهم مسلحين . فما أن عبروا الجسر حتى احتدمت معركة بين الحراس والأسرى . وبعد مضي وقت قصير عاد الحراس الى النقطة الأمامية ، بينما مضى الهاربون أنفسهم الى فيشنسكايا في تشكيلة عسكرية .

حتى أن بروخور نفسه أوقف في كروموك . فأبرز أمر المرور الذي كان غريغوري قد زوّده به ، فسُمح له بالمرور دون اعتراض .

وبلغ بازكي الواقعة مقابل فيشنسكايا في المساء المبكر . كانت آلاف من عربات اللاجئين تسد كافة الشوارع والأزقة الجانبية وتنتشر على ضفة الدون مسافة فرستين تقريباً . وكان ثمة أكثر من خمسين ألفاً من الناس منتشرين داخل الغابات ينتظرون نقلهم الى الجانب الآخر .

كانت البطاريات ، وهيئات أركان الكتائب ، والمعدات العسكرية تنقل على المعبر عبر النهر . أما المشاة فكانوا ينقلون في زوارق ذوات مجاذيف ، حيث كانت عشرات منها تنقط صفحة الدون . وكانت حشود من الكائنات البشرية تمور متزاحمة حول المرسى . وكان هدير المدفعية لايزال ينبعث من نهر تشير ، وقد اشتدت رائحة الحريق الحريفة .

شرعت أولى مفارز الخيالة التي كانت تحمي التقهقر بالوصول عند منتصف الليل ، وكان مقرراً أن تعبر النهر حالما يطل الفجر . إلا أن أية أنباء لم تصل عن خيالة الفرقة الأولى ، فقرر بروخور أن يلبث في بازكي منتظراً وصول سريته . شق طريقه بجهد وهو يقود حصانه بالأعنة عبر العربات الواقفة عند سياج مستشفى بازكي فربط حصانه على عربة لاجئ ومضى يبحث عن معارف بين الزحام .

ومن بعيد لاحظ أكسينيا أستاخوفا نازلة الى النهر ، وقد ضغطت على صدرها صرة صغيرة وألقت على كتفيها سترة صوفية . فأثار جمالها الخارق

اهتمام بعض المشاة عند جانب النهر ، مما جعلهم ينادون عليها بسفاهة ، وشعت أسنانهم ببريق أبيض وسط وجوههم المغبرة العرقى حينما انفجروا في هدير من الضحك المتشوق . وتجرأ قوزاقي طويل أشقر الشعر ، كان نطاق قمصلته سائباً ، على وضع ذراعه حولها من الخلف ، وضغط شفتيه على رقبتها قاتمة الجلد . غير أنها دفعت الرجل بخشونة وهي تقول شيئاً ما وتكشر عن أسنانها . فهدرت جماعة الجنود ، ونزع القوزاقي قبعته ، وهو يتوسل بصوت أجش : «قبلة صغيرة واحدة لا غير!» .

فأسرعت أكسينيا خطاها ومضت ، وقد علت شفتيها الممتلئتين ابتسامة مزدرية . لم ينادها بروخور بل راح يبحث بين الجمع عن آخرين من أهالي قريته . وبينما كان يشق طريقه ببطء خلال الزحام طرقت سمعه أصوات وضحكات ثملة ، وسرعان ما وجد ثلاثة شيوخ جالسين على مرشحة حصان تحت عربة . كانت لدى أحدهم جرة من الفودكا المنزلية وضعها بين ساقيه ، وكان هؤلاء الشيوخ المرحون يتناوبون على شرب الفودكا بكوز نحاسي اتخذوه من طلقة فارغة ، ويمضغون شيئاً من السمك المجفف . فتوقف بروخور الجائع إزاء فواح الشراب القوي ورائحة السمك المالحة .

فدعاه أحد الرجال : «أيها الجندي ، تعال واشرب جرعة معنا!» ولم يجد بروخور في ذلك ضيراً ، فجلس ورسم علامة الصليب ، وتقبل بابتسام كوزاً من المشروب نفاذ الرائحة من يد العجوز المضياف .

وهدر عجوز آخر ، بدا أنفه وشفته العليا متهشمين :

ـ اشرب مادمت حياً! هاك ، خذ عضة من هذا الأبرميس* . لا تشمخ بأنفك على معشر الشيوخ ، يا فتى . إن الحكمة تأتي من الشيوخ . فمازال عليكم ، أيها الأولاد ، أن تتعلموا منا كيف تعيشون وكيف تشربون الفودكا .

فشرب بروخور وهو يلقي نظرات وجلى على العجوز عديم الأنف . ولم

* نوع من السمك . المترجمون

يستطع أن يمنع نفسه من السؤال ، بين كوزه الثاني والثالث :

ـ كيف فقدت أنفك ، يا أب ؟ في المجون ؟

ـ كلا ، يا بني . أصابني الزكام . كنت أعاني دائماً من الزكام منذ صباي . هذا هو السبب!

فاعترف بروخور :

ـ وأنا أسأت الظن بك . كنت أتصور أن داء عفناً ما قد خلف أثره الأسود على أنفك . ولم أكن أود أن أمس أياً من هذه الترهات .

وإذ طمأنه تفسير العجوز ، ضغط شفتيه الى الكوز وأفرغه حتى القعر دونما وجل .

وجأر صاحب الفودكا ، وهو رجل عجوز قوي :

ـ حياتي انتهت! فلمَ لا أشرب ؟ جلبت معي مائتي بود من الحبوب ، ولكن اضطررت الى ترك ألف بود ورائي . سقت خمسة أزواج من الثيران الى هذا الموضع ، ولكن علي الآن أن أخلفها ورائي أيضاً ، لأنني لا أستطيع أن أنقلها عبر النهر . سأفقد كل ما لملمته في حياتي . لننطلق في الغناء! هيا ، أيها الأصدقاء!

واستحال لون وجهه قرمزياً وامتلأت عيناه بالدموع . فقال العجوز المجدوع الأنف يناقشه :

ـ لا تصرخ ، يا تروفيم ايفانيتش! فإن بقينا على قيد الحياة ، فسنستعيد ثراءنا من جديد .

فرفع القوزاقي العجوز صوته أكثر من السابق ، وتجعد وجهه وهو يبكي :

ـ كيف يمكن أن أمنع نفسي من الصراخ ؟ سأفقد كل حبوبي . ستموت كل ثيراني . سيحرق الحمر داري عن آخرها . ابني قتل في الخريف ، فكيف لي أن أمنع نفسي من الصراخ ؟ لمن كسبت حقلي وأملاكي معاً ؟ في الأيام الخوالي ، كانت لدي عشرة قمصان تتعفن بالعرق على ظهري خلال الصيف ، وها أنا الآن أمسيت عريان حافياً . هيا اشربوا!

وبينما كانوا يتحدثون ، أتى بروخور على أبرميسة كاملة ، وكرع سبعة كيزان من الفودكا ، وصار من السكر بحيث وجد مشقة كبيرة في النهوض على قدميه ، حينما أراد أن يتركهم .

فعرض صاحب الفودكا عليه قائلاً :

ـ أيها الجندي ، أيها المدافع عنا ، سأمنحك شيئاً من الحبوب لحصانك إن شئت ذلك . كم تريد ؟

فتمتم بروخور غير مكترث لكل ما حوله :

ـ سآخذ ملء زكيبة .

فصب العجوز ملء زكيبة من أحسن الشوفان وساعده على وضعها على كتفيه . ثم سأل بروخور وهو يحتضنه ويذرف دموعاً منفعلة : «ولكن أعد الزكيبة إلي . لا تنس ، بحب المسيح! »

فرفض بروخور بعناد وطيش لسبب ما :

ـ لن أعيد الزكيبة . أقول لك إنني لن أعيدها وأنا أعني أنني لن أعيدها .

وابتعد عن العربة مترنحاً . وكانت الزكيبة تستحثه على المضي وهي تتأرجح على ظهره ، وقد بدا لبروخور وكأنه يسير على أرض زلقة بالجمد ، إذ كانت قدماه تتزحلقان وساقاه تهتزان كسيقان حصان غير منعل يخطو فوق الجليد . وبعد بضع خطوات مترنحة ، توقف ليتذكر ما إذا كان مرتدياً قبعته أم لا . وتشمم حصان ، مربوط الى عربة ، زكيبة الشوفان ، فشد نفسه نحوها وقضم إحدى زواياها . فانهمرت الحبوب خلل الثقب بوقع ناعم موصول . وإذ وجد بروخور حمله أقل ثقلاً من السابق ، انطلق من جديد .

وكان من الممكن أن يفلح في حمل بقية الشوفان الى حصانه إلا أن ثوراً ضخماً كان يمر بجانبه رفسه فجأة بحوافره . وما كان للثور أن يدع أي امرئ يقربه ، وهو الذي كان قد لقي الأمرين من السياط وذباب الخيل ، فاستبد به الهياج بفعل الحرارة والوقوف المستديم . فطار بروخور ، وهو الذي لم يكن أول ضحية لهياج الثور ذلك النهار ، وارتطم رأسه بمدار عجلة ، وارتمى نائماً في الحال .

استيقظ وشيك انتصاف الليل . كانت ثمة غيوم رمادية غامقة تتدفق عبر السماء فوقه متجهة ناحية الغرب . ومن حين لآخر كان القمر الفتي يطل هنيهة خلال شق بين الغيوم ، ثم تتلفع السماء بالسحب ، وبدا على الريح أنها تزداد برودة . كانت الخيالة تمر قريبة جداً من العربة التي استلقى الى جانبها بروخور . وكانت الأرض تئن تحت عدد لا يحصى من الحوافر المنعلة . وحين تشممت البهائم المطر ، راحت تزنخر . وكانت أغمدة السيوف تجلجل على الركائب ، والوهج الباهت للسكائر يتألق لحظة ويختفي . وتناهت رائحة عرق الخيل والرائحة الحريفة للعدة الجلدية الى منخري بروخور . وكان قد اعتاد على تحسس هذه الرائحة الغريبة للخيالة كما يحس بأي جزء من بدنه ، مثله في ذلك كمثل جميع القوزاق العاملين في الخدمة العسكرية . لقد حمل القوزاق هذه الرائحة معهم على جميع الطرق من بروسيا وبوكوفينا الى سهوب الدون ، ولقد غدت هذه الوخامة الدائمة للخيالة عزيزة وأليفة عليه مثل رائحة بيته هو . فرفع منخراه المفلطحان ورفع رأسه الثقيل ، وهتف متسائلاً :

ـ من أية كتيبة أنتم ، يا أولاد ؟

فرد عليه صوت مستخف خلل العتمة :

ـ خيالة .

ـ نعم . ولكنني سألت من أية كتيبة ؟

فأجابه الصوت ذاته :

ـ كتيبة بتلورا* .

فسبه بروخور : « يا خنزير! » وانتظر لحظة ثم كرر السؤال : « من أية كتيبة أنتم ، أيها الرفاق ؟ » .

فجاءه الجواب :

ـ بوكوفسكي .

---

* أحد رؤوس التمرد في الحرب الأهلية . المترجمون

وحاول بروخور أن يقوم على قدميه ، إلا أن الدم هجم الى رأسه وصعد الغثيان الى بلعومه ، فاضطجع ، وغيبه النوم من جديد . وقبيل الصباح هبت برودة رطبة من ناحية النهر . وتناهى الى سمعه وهو نائم صوت يتساءل من فوقه :

ـ لم يمت ؟

فيرد رجل آخر عند أذن بروخور تماماً :

ـ جسمه حار... وثمل!

فقال الأول :

ـ جره عن الطريق! إنه منكفئ كجثة ميت . خله يذوق طعم رمحك!

فمنح الرجل الثاني بروخور نصف الواعي نخسة مؤلمة برمحه في أضلاعه ، وأمسكت بساقيه يدان وسحبتاه الى جانب الطريق .

وأرعد صوت صارم :

ـ تحلون هذه العربات ، وجدتم الوقت المناسب لتناموا! ها هم الحمر في أعقابنا تماماً ، ورجالنا ينامون وكأنهم في بيوتهم! نحوا العربات عن الطريق ، فستمر البطارية من هنا عما قريب . أسرعوا! تسدون الطريق!... يا لكم من تنابلة!

وبدأ اللاجئون النائمون فوق وتحت العربات يتململون . ووثب بروخور على قدميه . لم يكن لديه سيف ولا بندقية ، وكان قد ضيع جزمته اليمنى منذ نوبة سكره في المساء السابق . وكان يجول ببصره بارتباك فيما حوله وهمّ بالبحث عن أشيائه تحت العربة ، إلا أن سواق ومدفعيي بطارية قادمة قلبوا العربة على رأسها بطيش ، بما عليها من صناديق ، وما هي إلا لحظة حتى كانوا قد فتحوا طريقاً لمدافعهم .

وهرع السواق الى خيلهم . وارتعشت السيور الجلدية العريضة وتوترت . وراحت العجلات الضخمة لمدافع الميدان تئن على عثرات الطريق . وتعلق مدار عجلة من عربة عتاد بمحور عربة حمل فكسر .

وصاح العجوز المجدوع الأنف الذي كان قد استضاف بروخور ، من عربته : « أنتم تلوذون بالفرار من الجبهة! لعمري انكم جنود أخيار ، عليكم اللعنة! » .

ومضى جنود البطارية يمرون صامتين ، يغذون السير ليعبروا النهر . وعلى ضوء الغبش الباكر ظل بروخور يبحث وقتاً طويلاً عن بندقيته وحصانه ، إلا أنه لم يعثر على أي منهما . وعند النهر خلع جزمته الأخرى وقذف بها في الماء ، ثم بلل رأسه مرة وأخرى محاولاً تخفيف وطأة الألم الذي كان يضغط على رأسه بأطواق حديدية لا تُحتمل .

وشرعت الخيالة تعبر النهر عند شروق الشمس . فساق القوزاق خيلهم حدر الدون فوق الموضع الذي ينعطف فيه شرقاً في زاوية قائمة . وكان آمر السرية ، وهو رجل ذو أنف معقوف وسيماء قاسية ولحية زنجبيلية كثة ، يشبه الى حد غريب خنزيراً برياً متوحشاً . وكانت ذراعه اليسرى معلقة بمشدة وسخة ملطخة بالدم ، بينما كانت يمناه تعمل بالسوط بلا كلل .

وصاح على القوزاق ، فيما كانوا يحاولون إدخال الخيل الى الماء ، فتكشفت أسنانه بيضاً كأنياب الكلب ، من بين عذاريه الأحمرين : «لا تدعوا خيلكم تشرب!... استحثوها على المضي! ماذا يا أبناء... الـ...! أتخافون الماء أم ماذا ؟ خذه الى الماء!... إنه ليس مصنوعاً من السكر ، فلن يذوب! »

وتزاحمت الخيل معاً محجمة عن النزول الى الماء القارس ، فجعل القوزاق يصيحون ويسوقونها بسياطهم . وبدأ حصان أدهم ذو غرة عريضة في جبينه ، يسبح ، كان واضحاً أنه قد خبر السباحة من قبل . وراحت الأمواج تنحدر فوق ثفره المنحدر ، وانحسر ذيله الكث جانباً ، فيما انتصب رأسه وعنقه خارج الماء . فتبعته الخيل الأخرى ، وهي تزنخر حين تخبط في الماء . ثم تبعها القوزاق في ست جنائب ، وقد وقف رجل على مقدمة كل جنيبة وبيده حبل ذو أنشوطة على أهبة الاستعداد لأي طارئ .

وصاح آمر السرية ، وهو يفرقع بسوطه قبل أن ينزله على ساق جزمته المعفرة بالكلس : «لا تذهبوا أمامها! سوقوها مع التيار . لا تدعوه يجرفها بعيداً » .

وبدأ التيار السريع يجرف الخيل معه . واستطاع الحصان الأدهم بسهولة

أن يسبق الآخرين بمسافة ، وكان أول من ظهر على الشاطئ الرملي للضفة اليسرى . وفي تلك اللحظة أطلت الشمس فوق الأغصان الكثيفة لشجرة حور ، وسقطت حزمة وردية من الضياء على الحصان الأدهم ، فتوهج شعره ، وقد تلألأ بالبلل ، وهجاً قاتماً .

زعق آمر البطارية ، الذي كان يحكي الخنزير شكلاً ، بصوت أجش : «اعتن بالمهرة . ساعدها ، إن عليها عناناً . أجذف ، ألا تستطيع! اجذف! »

وبلغت جميع الخيل الضفة الأخرى دون أية حادثة . وقد كان القوزاق في انتظارها ، يفرزون الخيل حالما تحط على اليابسة ويضعون عليها الأعنة . ومن الجانب الآخر شرع الرجال يرسلون الأسرجة في قوارب عبر النهر .

سأل بروخور قوزاقياً كان يأخذ سرجاً الى قارب :

ـ أين شبت النار أمس ؟

ـ على امتداد نهر تشير .

ـ هل أضرمتها قذيفة مدفع ؟

ـ اللعنة على القذيفة! الحمر يضرمون النار عن عمد...

فتساءل بروخور بدهشة :

ـ هل يعمدون الى حرق كل شيء ؟

ـ لا ، لا يفعلون ذلك... يحرقون بيوت الأغنياء . البيوت ذات السقوف الحديدية والمآوي الجيدة .

وبعد الاستفسار عن فرقته ، عاد الى عربات اللاجئين . وكان الدخان الحريف لنيران المضارب التي أضرم فيها الحطب والأسيجة المنتزعة والجل ، يتصاعد في كل مكان مع مهب النسيم . وانهمكت النساء في إعداد الفطور . وكانت قد وصلت أثناء الليل عدة آلاف أخر من اللاجئين القادمين من مناطق السهوب على الضفة اليمنى للدون . وارتفع حول النيران طنين الأصوات . وتناهت الى سمع بروخور نتف من الأحاديث :

ـ متى ستحين لنا فرصة للعبور ؟

ـ عسى الله أن لا يدعنا نعبر . فسوف ألقي حبوبي في الدون ولا أدع الحمر يحصلون عليها .

ـ أرأيت عدد الناس المحيطين بالمعبر... مثل سرب من الذباب!

ـ ولكن كيف بمقدورنا أن نترك صناديقنا على الشاطئ . يا إلهي!

ـ بعد كل التعب والشقاء الذي تكبدناه من أجلها... يا سيدنا المسيح!

ـ آه لو عبرنا النهر عند قريتنا .

ـ نعم ، أي شيطان جاء بنا إلى موضع فيشنسكايا هذا ؟

ـ يقال إن كالينوف أوكول قد حرقت عن آخرها .

ـ حسبت أننا سنعبر على المعبر .

ـ أتظن حقاً أنهم سيصفحون عنا ؟

ـ عندهم أوامر بإنزال السيف بكل قوزاقي يتجاوز عمره السادسة .

ـ سيظفرون بنا هنا . وما عسانا نفعل آنذاك ؟

ـ سيكون ثمة الكثير من اللحم الفج آنئذ!

والى جانب عربة مزينة زينة بهيجة وقف عجوز أشيب ، أتمان قرية كما يبدو من هيئته وتعاليه ، يخطب :

ـ سأله : « يعني لازم أن يموت الناس على شاطئ النهر ؟ متى سيتسنى لنا العبور الى الجانب الآخر ؟ سيمزقنا الحمر عن بكرة أبينا » . فقال معاليه : « لا تخف ، أيها الجد! سوف نحافظ على مواقعنا وندافع عنها حتى يكون جميع الناس قد عبروا . سنهلك ولكننا لن ندع زوجاتنا وأطفالنا وآباءنا يقاسون الأمرين » .

كان جمع النساء والشيوخ المتحلقين حوله يصغون إليه باهتمام زائد ، وارتفع منهم خليط شامل من الأصوات حينما توقف العجوز هنيهة ليجر نفسه :

ـ فلمَ عبرت البطارية إذن ؟

ـ كادوا يسحقوننا بحوافرهم في عجالة عبورهم .

ـ وها قد وصلت الخيالة .

ـ يقولون إن غريغوري ميليخوف قد ترك الجبهة .

ـ من سيدافع عنا الآن ؟ الجنود كانوا السباقين في العبور ، وخلفوا الأهالي وراءهم .

ـ كل واحد يلوذ بجلده .

ـ الجميع يخوننا .

ـ يجب أن نبعث للحمر بشيوخنا مع الخبز والملح ، فقد تأخذهم الشفقة بنا ولا يعاقبوننا .

وانعطف فارس عند زاوية الشارع إزاء البناية الطابوقية الكبيرة للمستشفى . وكانت بندقيته معلقة على قربوس جلده ، ويتأرجح رمح الى جانبه .

فصاحت عجوز فرحة : «لعمري ، هو ذا ولدي ميكيشكا!» وجرت نحوه ، تشق طريقها بين الخيل والعربات وتتوثب فوق العرائش . فأمسكوا بالخيال من ركابه وأوقفوه . فرفع فوق رأسه رزمة رمادية مختومة وصاح :

ـ أحمل بريداً الى رئيس الأركان! دعوني أمر!

فصاحت العجوز متأثرة ، وخصلات شعرها الأشيب مسدولة على وجهها اللامع : «ميكيشكا ، يا صغيري العجوز!» ثم سألته بابتسامة مرتعشة ، وهي تضغط بجسمها على جنب الحصان :

ـ هل مررت بقريتنا ؟

ـ نعم ، الحمر فيها الآن...

ـ وبيتنا...

ـ بيتنا لايزال قائماً . إلا أن بيت فيدوت حرق عن آخره . سرت النار الى سقيفتنا كذلك ، إلا أن الحمر أخمدوها بأنفسهم . أما فتيسكا فقد لاذت بالفرار وأخبرتنا أن ضابطهم أمرهم ألا يحرقوا أياً من بيوت القوزاق الفقراء ، بل جميع الدور التي تعود للبرجوازيين .

فرسمت المرأة إشارة الصليب وقالت :

ـ حسناً ، الحمد لله! ليحفظهم المسيح!

فتدخل عجوز صارم مغضباً :

ـ ما الذي تقولين ، يا امرأة ؟ أضرموا النار في بيت جارك وأنت تجأرين بـ« الحمد لله! »

فردت المرأة بسرعة وحيوية :

ـ ليتخطفه الشيطان! جاري يستطيع بيسر أن يبني له بيتاً جديداً ، ولكن ماذا كنت سأفعل لو أضرمت النار في دارنا ؟ لفيدوت جرة مدفونة ملأى بالذهب ، أما أنا فكنت أعمل طيلة حياتي أجيرة لدى الآخرين .

ومال الخيال من سرحه قائلاً :

ـ دعيني أذهب ، يا أمي! علي أن أسرع بهذه الرزمة .

سارت المرأة الى جانب الحصان بعضاً من الوقت تقبل يد الخيال ، ثم قفلت راكضة الى العربة ، بينما مضى هو يصيح بصوت جهوري فتي :

ـ أفسحوا الطريق! لدي رزمة للقائد العام . أفسحوا الطريق!

وراح الحصان يتواثب ويجانب ، فأفسح الجمع له الطريق على مضض . وبدا على الخيال أنه كان يتحرك ببطء ، بيد أنه سرعان ما اختفى وراء العربات ، وراء ظهور الثيران والخيل ، ولم يبن غير رمحه المتأرجح فوق الجمع الحاشد وهو يشق طريقه صوب النهر .

٦١

وفي بحر النهار نُقلت الى الجانب الآخر للنهر جميع القوة المتمردة واللاجئون كذلك . وكان آخر العابرين سرايا خيالة كتيبة فيشنسكايا التابعة للفرقة الأولى التي يقودها غريغوري ميليخوف . وكان غريغوري واثنتا عشرة سرية مختارة قد استطاعوا الصمود أمام ضغط الحمر ، وذلك حتى المساء ، وفي حوالي الساعة الخامسة ، ولدى استلامه إشعاراً من كودينوف بأن الجيش واللاجئين قد عبروا النهر جميعاً ، أصدر أمره بالتراجع .

وبموجب خطة المتمردين كان على السرايا المسحوبة من القرى الواقعة على الضفة اليمنى أن تعبر وتلازم ضفة النهر ، كل سرية مقابل قريتها . وعند انتصاف النهار وصلت التقارير الى القائد العام تفيد أن أغلبها قد اتخذت مواقعها .

وحيثما كانت هناك فجوات واسعة بين القرى ، نسبت هيئة الأركان فيها سرايا تتألف من قوزاق مناطق السهوب ، أما بقية هذه السرايا فقد أبقيت في مؤخرة خط النار احتياطاً . وهكذا امتدت جبهة المتمردين على الضفة اليسرى للدون الى أكثر من مائة فرست ، من أقصى قرى منطقة كازانسكايا في الغرب حتى مصب الخوبر .

ما ان عبر القوزاق النهر حتى شرعوا بالتهيؤ لحرب الخنادق ، فراحوا يحفرون الخنادق على عجل ، ويقطعون وينشرون أشجار الحور والصفصاف والبلوط ، ويشيدون الحفائر وأوكار الرشاشات . وجرى الاستيلاء على جميع الزكائب الفارغة من اللاجئين ، فملئت رملاً ، ونظمت استحكامات أمام صف الخنادق الطويل .

وعند المساء كان حفر الخنادق قد تم في كل مكان . وأخفيت وراء فيشنسكايا البطاريتان الأولى والثالثة في غابات صنوبر . ولم يكن لدى المدافع الثمانية سوى خمس قذائف فقط . وقد نفدت الخراطيش كذلك تقريباً . فأرسل كودينوف سعاة يحملون تعليمات مشددة تمنع أي إطلاق بالبنادق وتأمر كل سرية بانتقاء واحد أو اثنين من خيرة رماتها وتجهزهم بكميات كافية من الرصاص ، بحيث يصبح باستطاعتهم أن يقتنصوا أي حامل رشاشة أحمر أو آخرين يظهرون في شوارع القرى الواقعة على الجانب الأيمن . أما بقية القوزاق فلم يسمح لهم بإطلاق النار إلا إذا حاول الحمر عبور النهر .

كان الوقت غسقاً حين خرج غريغوري ليفتش مواقع فرقته ، ثم عاد ليقضي الليلة في فيشنسكايا .

وفي تلك الليلة مُنعت جميع الأضواء والنيران في فيشنسكايا والمروج

المحيطة بها . فسبحت الضفاف بضباب بنفسجي . وفي بكرة الصباح التالي ظهرت أولى الدوريات الحمر على تلال بازكي . وسرعان ما غدوا يظهرون ويختفون على جميع التلال الواقعة على الضفة اليمنى من أوست ـ خوبرسكايا الى كازانسكايا . ثم اختفت الدوريات وخيّم فوق المنحدرات صمت ثقيل موات الى أن انتصف النهار .

في طريق هتمان العام كانت الريح تثير أعمدة الغبار . والدخان الأرجواني الحالك للقرى المحترقة ظل يتصاعد في جهة الجنوب . وجعلت سحب ، كانت الريح قد فرقتها ، تتجمع من جديد ، وراح برق شاحب يحوم فوق الأرض . وبدا كأن هزيماً من الرعد يمزق كتل السحب المتعلقة ، وطفق مطر قوي ينزل مدراراً . فراحت الريح ترسله أمواجاً راقصة فوق القمم الكلسية للتلال القائمة على جانب الدون ، وفوق عباد الشمس الذاوي من الحرارة الشديدة ، وفوق الحنطة العطشى . فأنعش المطر الأوراق الصغيرة المغبَّرة ، وتلألأت براعم الربيع طرية ، وأقام عباد الشمس المدوّر رؤوسه المسودة من جديد ، وارتفع من الحدائق الفواح الحلو للبطيخ الناضج ، وتصاعد البخار من الأرض الملفوحة فيما كانت تطفئ ظمأها...

وبعد الظهر عادت الدوريات الحمر تظهر كرة أخرى فوق التلال التي امتدت سلسلة على الضفة اليمنى للدون الى بحر آزوف .

ومن التلال كان بالمستطاع رؤية الضفة الرملية المستوية للجانب الأيسر لعشرات الفرستات تتشعب عليها الحواف الخضر للجداول . انحدرت دوريات الحمر بحذر الى داخل القرى . وراح المشاة يتدفقون وراءهم حذر التلال . وكانت البطاريات الحمر ترتقي أكمات الحراسة ، حيث كان خفراء بولوفتسي وعصابات البدو يقفون في سالف الأيام يترقبون ظهور الأعداء .

فتحت بطارية النار على فيشنسكايا . فانفجرت القذيفة الأولى في الساحة ، وسرعان ما امتلأ الهواء بنتف رمادية صغيرة من الدخان الذي انبعث من انفجار القذائف وسحب المنثار البيض بلون اللبن . ثم فتحت ثلاث

بطاريات أخرى النار على فيشنسكايا وعلى خنادق القوزاق الممتدة على النهر . وشرعت الرشاشات تثرثر غضبى .

كان ثمة رشاشان من طراز هوتشكيس يطلقان قذائفهما في دفقات قصيرة الأمد . بينما ظل مدفع من طراز مكسيم يصب حممه صباً مستديماً كضربات طبل من حديد ، بعد أن حدد المدى الذي كان المشاة المتمردون يتحركون فيه على الضفة المقابلة . وهدرت العربات صعداً الى الأكمات ، وحفرت الخنادق في المنحدرات التي يغطيها الشوك . وقرقعت عربات خفيفة وأخرى ذوات عجلتين على الطريق العام ، مثيرة سحباً من الغبار طويلة متموجة .

غدا هزيم المدفعية يسمع الآن على امتداد الجبهة كلها . وظلت بطاريات الحمر تصلي الضفة المقابلة بنار حامية من التلال الستراتيجية حتى موهن متأخر من المساء . وكانت الحقول النديبة بالخنادق التي يحتلها المتمردون صامتة على امتداد خط النار . وكانت خيل فرسان القوزاق قد أخفيت على ضفاف النهر يغطيها القصب والبردي والأسل ، حيث لا يزعجها الذباب والحرارة الشديدة . وكانت الأشجار وأغصان الصفصاف العالية تحجبها حجباً تاماً عن أعين الراصدين الحمر .

لم تكن العين لتقع على أي امرئ على امتداد المروج الخضر ، خلا أشباحاً صغيرة ، من حين لآخر ، للاجئين يهرعون بعيداً عن الدون . وكان رماة الرشاشات الحمر يطلقون وراءهم بضع طلقات ، وعلى أزيز الرصاص يقذف اللاجئون المذعورون بأنفسهم على الأرض . فيلبثون مستلقين بين الحشائش الكثيفة حتى الغسق ، وآنذاك فقط ينطلقون راكضين صوب الغابات ، دون أن يلقوا نظرة الى الخلف ، مسرعين باتجاه الشمال ، الى المتاهة المضيافة لأشجار الحور الرومي والبتولا .

* * *

ظلت فيشنسكايا مدة يومين عرضة لقصف المدفعية الشديد المتواصل . فلم يخرج السكان من سراديبهم . ولم تدب الحياة في الشوارع

التي نخرتها القذائف إلا ليلاً .

انتهت هيئة الأركان العامة للمتمردين الى الاستنتاج بأن مثل ذلك القصف الثقيل لم يكن سوى تمهيد لمحاولة عبور النهر ، وكانوا يتوجسون خيفة من احتمال عبور الحمر للنهر مقابل فيشنسكايا مستهدفين الاستيلاء على الموضع ودق اسفين خلال خط الجبهة الطويل ، فيشطرونه شطرين ، ثم يقضون على قوات التمرد قضاء تاماً بشن هجمات جانبية . وبناء على أمر من كودينوف ركزت في فيشنسكايا أكثر من عشرين رشاشة مزودة بكميات احتياطية كبيرة من الذخيرة . وصدرت التعليمات الى آمري البطارية ألا يطلقوا قذائفهم المتبقية إلا إذا حاول الحمر العبور . أما المعبر وجميع الزوراق فقد سُحبت الى موضع من الماء الراكد على مبعدة من فيشنسكايا ووضعت عليها حراسة قوية .

أما بالنسبة لغريغوري ميليخوف فقد بدت مخاوف قيادة هيئة الأركان لا أساس لها . فعبّر عن رأيه بقوة في اجتماع للمجلس العام للحرب . وتساءل :

ـ أتحسبون أن هناك أي احتمال بعبورهم الى فيشنسكايا ؟ انظروا : إن الضفة في هذا الجانب جرداء كالدف ، رملية ملساء ، وليس على جانب الدون نفسه شجرة أو دغل . فمن تبلغ به الحماقة حتى يعبر من هناك ؟ فعلى شاطئ أجرد كهذا ستقوم الرشاشات بحصدهم عن آخرهم . لا يأخذن بك الظن ، يا كودينوف ، بأن قادة الحمر أغبى منا . إذ أن لدى بعضهم رؤساء على أكتافهم أفضل مما لدينا . كلا ، لن يحاولوا الاستيلاء على فيشنسكايا . فالاحتمال أقوى في أنهم سيحاولون العبور إما حيث يكون النهر ضحلاً ، حيث توجد مخاضات عبر الضفاف الرملية ، أو حيث توجد أرض مغطاة بالغابات ودق الشجر . يجب علينا أن نضع حراسة مشددة فوق مثل هذه المواقع : وخصوصاً في الليل . يجب أن نحذّر القوزاق ألا يند عنهم صوت أو رائحة ، يكشف عن مكانهم ، ولنجلب الاحتياطي لكي يكون لدينا شيء ما نقاتل به إذا حلت المتاعب .

فسأله واحد منهم :

ـ تقول إنهم لن يحاولوا الاستيلاء على فيشنسكايا ؟ فلماذا يقصفونها بهذا التشكل ، إذن ؟

فأجاب غريغوري :

ـ الأحسن أن تسألهم عن ذلك! أتراهم يقذفون فيشنسكايا فقط ؟ ماذا عن كازانسكايا ويرنسكايا ؟ كل ما في الأمر أن لديهم بضع قذائف أكثر مما لدينا . أما مدفعيتنا اللعينة نحن فليس لديها سوى خمس قذائف ، ولهذه القذائف أغلفة من البلوط!

فانفجر كودينوف ضاحكاً ، وقال :

ـ أصاب الثور في عينه!

فقال آمر البطارية الثالثة غضباً :

ـ لا جدوى في مثل هذا النقد الآن . علينا أن نتكلم بشكل جدي...

فتجهم كودينوف وعبث بنطاقه :

ـ استمر في كلامك ، من الذي يمنعك ؟ الأوامر صدرت إليكم مرة تلو المرة ألا تبددوا قذائفكم ، بل تحتفظون بها للظروف الحرجة . لكنكم على العكس ، رحتم تطلقون النار على كل ما يلوح أمام نظركم ، حتى على عرباتهم . ولهذا فليس من حقك أن تستاء من النقد . إن موقفكم مدعاة للضحك تماماً كما قال ميليخوف .

اقتنع كودينوف بحجج غريغوري ، ودعم بإصرار اقتراحه الرامي الى وضع حراسة قوية في جميع الأماكن الصالحة للعبور وتجميع القوات الاحتياطية في مكان قريب . كما اتخذ قرار بنقل عدة رشاشات الى السرايا الواقعة في الأماكن التي يحتمل العبور منها .

حل اليوم التالي فأكد ما توقعه غريغوري من أن الحمر لن يحاولوا العبور قبالة فيشنسكايا وإنما سينتقون موضعاً أكثر ملاءمة لذلك . ففي الصباح بعث آمر السرية المعسكرة مقابل كروموك بتقرير يفيد بأن الحمر كانوا يستعدون لعبور النهر . إذ أن الحرس ظلوا يتسمعون طوال الليل الى أصوات حركة تنبعث

من الجانب الآخر للنهر . وقد جيء بألواح خشبية الى كروموك على عربات لا تحصى ، وبعد ذلك مباشرة تناهت الى مسامع القوزاق عبر النهر أصوات المناشير وضربات المطارق والفؤوس . وبدا كأن الحمر يقومون بصنع شيء ما وخيل للقوزاق بادئ الأمر أنهم كانوا يصنعون جسراً عائماً ، فمضى قوزاقيان جريئان مسافة نصف فرست صعداً على امتداد الشاطئ ، ثم خلعا ملابسهما وغطيا رأسيهما بأغصان صغيرة وانحدرا طافيين مع التيار . وحين مرا على مقربة من الضفة سمعا رجالاً من الجيش الأحمر يتحدثون داخل مترسة رشاشة غير أنهما لم يجدا شيئاً في الماء ، فتبين أن الحمر لم يكونوا يشيدون جسراً .

ظلت النقطة الأمامية تراقب ضفة العدو في يقظة متزايدة . وحينما أطل الفجر لم يتمكن الراصدون ، الذين لم تتخلّ أعينهم عن النواظير لحظة ، من رؤية أي شيء زمناً من الوقت ، إلى أن تبيّن أحدهم ، وكان يعتبر أفضل رام في الكتيبة ، شبحاً خلال العتمة المتضائلة لجندي أحمر يقود حصانين مسرجين حدر الدون .

فهمس القوزاقي لرفيقه : « إن أحدهم يمضي حدر الدون » . ونحّى ناظوره جانباً .

خاض الحصانان في النهر وشرعا يردان .

فلوى القوزاقي الحمالة الطويلة لبندقيته حول مرفقه الأيسر ، ورفع ، واتخذ هدفه بعناية وتأن .

أزت الإطلاقة ، فانقلب أحد الحصانين على جنبه ، وانطلق الآخر هارباً صعد المرتقى . فانحنى الجندي الأحمر ليحل السرج عن الحصان الميت ، إلا أن القوزاقي أطلق ناره من جديد ، ثم أرسل ضحكة ناعمة حينما رأى الجندي الأحمر يشد قامته بحدة ويحاول أن يعدو مبتعداً عن النهر ، ثم يهوي فجأة على وجهه ولا يقوم بعدها .

ما أن وصل التقرير عن استعدادات الحمر حتى أسرج غريغوري حصانه وانطلق عليه الى الموقع . فاتخذ طريقاً ملتوية خلل الغابات غير أنه قرر أن يقطع

الفرسخين الباقيين جرياً سريعاً عبر المرج المكشوف ، معرضاً نفسه لاحتمال اطلاق النار عليه من جانب الحمر . وإذ أراح حصانه بضع دقائق ، اختار لساناً أخضر من أشجار الصفصاف ، ناتئاً عن أرض الغابات الواقعة على جانب الدون من الناحية الأخرى للمرج ، ثم رفع سوطه . فهوت الضربة اللاسعة على كفل الحصان ، فنصب الحيوان أذنيه وانطلق كالطير صوب أشجار الصفصاف . ولم يكد غريغوري يطوي مسافة قليلة عبر المرج حتى شرعت رشاشة تلعلع من الجانب الآخر للنهر . وراحت الرصاصات تتطاير من فوقه تصفر كالفئران البرية فقال في نفسه : « عالية جداً » ، وهو يهز العنان ويلصق وجنته بعرف الحصان . وبدا حامل الرشاشة الأحمر وكأنه قد خمن ما دار في ذهن غريغوري ، فخفض مرمى رشاشته ، وصارت الرصاصات تتواثب وتتقافز تحت حافري الحصان الأماميتين ، ناثرة الوحل من الأرض التي كانت لاتزال بليلة بماء الفيضان الربيعي .

قام غريغوري على ركابيه وكاد أن يتمدد تماماً على رقبة الحصان الممدودة ، وكان لسان غابة الصفصاف الأخضر ينطلق باتجاهه . وحينما طوى نصف المسافة أرعد مدفع ميدان من التل المقابل . فجعل الهدير غريغوري يتأرجح على سرجه . ولم يكد الأزيز المولول للمنشار يتلاشى من أذنيه ، ولا استقامت العيدان التي قوسها ضغط الهواء الشديد ، من جديد ، حتى انطلق المدفع يرعد كرة أخرى . وبدا الهدير الضاج كأنه يبلغ أشد قوته ، ثم توقف فجأة طرفة العين . وفي طرفة العين تلك ، ارتفعت أمام عينيه غيمة سوداء ، واهتزت الأرض إثر ضربة قاصمة ، وقذفت قادمتا الحصان في مكان ما في الفضاء...

أفاق غريغوري أثناء سقوطه . انكفأ على رأسه ، خابطاً الأرض بشدة حتى أن سرواله انشق عند ركبتيه ، وانقطعت السيور . كان النسف الهائل للانفجار قد قذفه مسافة ما عن حصانه ، وحينما هوى انزلق على الحشيش ، حتى احترقت يداه ووجنته .

قام على قدميه وقد بهرته السقطة . وانهمرت كالمطر ، من عل ، كتل ونثار من التراب والحشيش . وكان حصانه منطرحاً على مبعدة عشرين خطوة

تقريباً من الحفرة التي أحدثتها القذيفة . كان رأسه بلا حراك ، غير أن سيقانه وكفله العرقان وذيله ، كانت ترتعش ارتعاشاً عصبياً رتيباً .

كانت الرشاشة قد لاذت بالصمت . ولم يكن ثمة صوت مدة خمس دقائق من الزمن خلا صوت طيور السماك تطلق النذير بين عيدان القصب . فمضى غريغوري الى حصانه ، وهو ينافح للتغلب على دوخته . كانت ساقاه ترتجفان ، وأحس بهما ثقيلتين على نحو غريب ، كما لو كان قد جلس جلسة غير مريحة زمناً طويلاً . أزاح السرج عن الحصان ، وما كاد يبلغ القصب التالف بفعل القذيفة في أقرب حرش إليه ، حتى شرعت الرشاشة تتأتئ من جديد . إلا أنه لم يتسمع الى أزيز الرصاص المتطاير ، فلابد أنهم كانوا يصوبون نارهم نحو هدف جديد . ثم وصل بسلام الى قبو آمر السرية بعد ساعة .

أفاد آمر السرية قائلاً لغريغوري :

ـ توقفوا عن الطرق الآن . لكنهم سيستأنفون ذلك هذه الليلة . لعلك سترسل إلينا ببعض الخراطيش ، فليس في حوزتنا سوى مشبكين لكل رجل .

ـ سوف تصلكم الخراطيش هذا المساء . لا تتوقفوا لحظة عن مراقبة الصوب الآخر .

ـ إننا نراقب على ما يرام! ونحن نفكر بالطلب الى البعض أن يتطوعوا ليعبروا النهر هذه الليلة سباحة بغية اكتشاف ما يصنعون .

فتساءل غريغوري :

ـ لمَ لم ترسلوا أحداً الليلة الماضية ؟

ـ أرسلنا بالفعل رجلين ، بيد أنهما خشيا من الذهاب الى داخل القرية . سبحا بمحاذاة الضفة ، إلا أنهما لم يذهبا الى أبعد من ذلك . ومن تستطيع أن تجده راغباً في الذهاب الآن ؟ إنها مغامرة خطرة : ما أن تبلغ إحدى نقاطهم الأمامية حتى تلقى حتفك . وليس القوزاق بالمغامرين الأشداء حينما يكونون على مقربة من قراهم . كانوا أثناء الحرب ضد الألمان ، مستعدين للمغامرة بأي شيء سعياً للحصول على الأوسمة ، أما الآن فإن عليك أن تتوسل إليهم

لقبول واجب الخفارة . أضف الى ذلك أن النساء صرن يسببن لنا المتاعب . جئن الى هنا وعثرن على أزواجهن ، وها هن يقضين الليل في الخنادق . ولست بمستطيع إجلاءهن من هنا . حاولت أن أطردهن البارحة ، فتوعدني القوزاق . قالوا لي : «ليكن سلوكك أعقل قليلاً ، وإلا صفينا الحساب معك!» .

ثم مضى غريغوري من قبو الآمر الى الخنادق المتعرجة خلال الغابة على مبعدة خمسين خطوة تقريباً من الضفة الى الدون . كانت ثمة أجمة من أشجار البلوط والحور تحجب الرابية الصفراء لصدر الاستحكامات عن أعين العدو . وكانت خنادق المواصلات تصل ما بين الخط الأمامي والمخابئ التي كان القوزاق يخلدون الى الراحة فيها . وكانت ثمة خارج الحفائر ، أكوام رمادية من جلود السمك المجفف وعظام لحم الغنم وقشور عباد الشمس وبقايا طعام أخرى ، وتدلت من الأغصان جوارب وسراويل داخلية من الكتان ولفافات أرجل وقمصان نوم وتنورات نسائية ، لم يمض وقت طويل على غسلها .

انبثق رأس حاسر لامرأة شابة ناعسة العينين من أول حفيرة . فدعكت عينيها وأجالت نظرها في غريغوري دون اكتراث ، ثم اختفت كالفأر البري داخل الفجوة السوداء للجحر . وكان صوت غناء خافت ينبعث من الحفيرة الثانية حيث امتزج صوت نسائي صاف ، مكتوم غير عال ، بأصوات الرجال . وكانت ثمة امرأة كهلة أنيقة الملبس تجلس خارج منفذ الحفيرة الثالثة وقد ارتاح في حضنها رأس شائب لقوزاقي نائم . وبينما كان هذا مرتاحاً في غفوته ، راحت هي تفلي رأسه بهمة وتقصع القمل الأسود على مشط خشبي ، أو تهش الذباب الذي كان يحط على وجه «شائبها» . ولو لم تكن هناك تلك اللعلعة الغاضبة لرشاشة الجانب الآخر للدون وذاك القصف الخافت للقذائف القادم من أعلى المجرى ، لظن المرء أنهم جماعة من جامعي القش يستريحون في الغابة ، إذ ما أشد الدعة التي بدت على سرية المتمردين .

لم يحدث أبداً خلال سني الحرب الخمس أن رأى غريغوري خطاً أمامياً عجيباً كهذا . فمضى يمشي أمام الحفائر ، لا يستطيع أن يكتم ابتسامته ، وهو

يلتقي على الدوام بنساء يسهرن على راحة أزواجهن : يرتقن الملابس ، ويغسلن الأغطية ، ويهيئن الطعام ، وينظفن الأوعية والأواني .

وحينما عاد غريغوري الى حفيرة آمر السرية قال له :

ـ هل أنتم مرتاحون جداً هنا ؟

فتبسم الرجل وأجاب :

ـ على أحسن ما يرام .

فتجهم غريغوري قائلاً :

ـ لعل راحتكم أكثر من اللزوم! أبعد النساء من هنا في الحال . أهذا المكان حوشك الخاص أو سوق قرية ؟ سيعبر الحمر النهر عما قريب ، ولن تستطيعوا حتى سماعهم! ستكونون منهمكين باللهاث فوق نسوتكم . أطردهن جميعاً من هنا حالما يحل الغسق . سوف آتي في الغد ، فإن وقع نظري على امرأة هنا فسوف أطيح برأسك أنت قبل كل شيء .

فقال الرجل موافقاً :

ـ إنك على حق بيّن . فأنا من ناحيتي ضد وجود النساء هنا ، ولكن ما عساك تفعل مع القوزاق ؟ لقد زال الضبط من الوجود . أرادت النساء أن يزرن أزواجهن . وها قد مضت علينا ثلاثة أشهر ونحن نقاتل...

واحمر وجهه على حين غرة ، وجلس على فراشه القش ليخفي إزار امرأة أحمر ثم أشاح بوجهه عن غريغوري وأرسل نظرة متوعدة الى حيث كانت العينان البنيتان المبتسمتان لزوجته تختلسان النظر من وراء ستارة من الخيش كانت تحجب ركناً من القبو .

٦٢

حينما وصلت أكسينيا الى فيشتسكايا ، مضت لتنزل عند خالة لها تسكن في ضاحية البلدة على مقربة من الكنيسة الجديدة . وأمضت نهارها

الأول بكامله تبحث عن غريغوري ، بيد أنه لم يكن قد وصل فيشنسكايا بعد . وطوال اليوم التالي ظل الرصاص يئز والقذائف تتفجر في الشوارع ، فلم تستطع أن تستجمع عزماً كافياً لمغادرة المسكن .

وقالت لنفسها غضبى ، وهي تعض على شفتيها الممتلئتين حيوية وإن كانت ذابلتين ، وقد استلقت على صندوق غرفة الاستقبال : «قال لي تعالي الى فيشنسكايا ، ووعدني أننا سنعيش معاً ، وها هو الآن قد اختفى الى حيث لا يعلم إلا الشيطان!» أما خالتها فقد جلست الى النافذة تحوك جورباً وترسم إشارة الصليب بعد كل طلقة . وراحت تنبح حينما تناثر زجاج النافذة مجلجلاً على الأرض :

ـ آه ، سيدنا المسيح! إنه لأمر فظيع ؟ فيم عساهم يقتتلون ؟ أية عداوة يضمر أحدهما للآخر ؟

فتوسلت إليها أكسينيا :

ـ خالتي! تعالي بعيداً عن النافذة ، فقد يصيبك شيء . إلا أن العجوز حملقت فيها بنظرة ساخرة من وراء نظارتيها ، وأجابت غاضبة :

ـ ما أشد غباءك ، يا أكسينيا! هل أنا عدو لهم ؟ ما الذي يدفعهم لإطلاق النار علي أنا ؟

ـ قد تقتلين مصادفة . فهم لا يرون أين تستقر طلقاتهم .

ـ إذن ، يقتلونني لأنهم لا يرون ، ها ؟ يطلقون النار على الرجال . فالرجال أعداؤهم . أما أنا فعجوز وأرملة . فما يريدون من إطلاق النار علي ؟ أعتقد أنهم يعرفون على من يطلقون نار بنادقهم ومدافعهم .

وعند الظهر مر غريغوري منطلقاً في الشارع ، وقد انحنى كثيراً فوق رقبة حصانه . فرأته أكسينيا من النافذة ، وهرعت خارجة الى السقيفة التي يعلوها النبات المتسلق ، وهي تصرخ : «غريشا!» إلا أن غريغوري كان قد اختفى تماماً وراء زاوية الشارع ، مخلفاً مثاراً من النقع يتطامن بهدوء على الطريق . وكان من العبث محاولة الركض وراءه . فلبثت على الدرجات تذرف دموعاً غضبى .

وسألتها خالتها :

ـ ألم يكن ستيبان ذاك الذي مرّ منطلقاً على حصانه ؟ لماذا هرعت الى الخارج كالمجنونة ؟

فردت أكسينيا خلل دموعها :

ـ كان واحداً من أبناء قريتنا .

فتساءلت العجوز الفضولية :

ـ ولكن لمَ تبكين ؟

ـ ولماذا تريدين أن تعرفي ؟ ليس هذا من شأنك .

ـ أوه ، ليس هذا من شأني ؟ طيب ، كان الذي مرّ منطلقاً حبيباً من أحبائك ؟ وإلا فما كنت ستبكين مثل هذا البكاء جزافاً . أنا لم أعش كل هذه السنين عبثاً .

وقبيل المساء دلف بروخور زيكوف الى الكوخ . كانت أكسينيا آنذاك في حجرة الاستقبال ، وعلى صوت بروخور جرت الى الخرج وهي تصيح جذلة : « بروخور! » .

فقال بروخور :

ـ حسناً ، يا فتاة ، لقد جعلتني أقوم بمهمة بحث وتنقيب محترمة . أنهكت قدمي بحثاً عنك . إنه مجنون كل الجنون . النار في كل مكان ، وكل روح حي يخبئ نفسه ، أما هو فإن كل ما يقوله : « جدها وإلا ستجد لك قبراً! » .

فأمسكت أكسينيا ببروخور من كم قميصه وجذبته الى سقيفة الباب ، وتساءلت : « أين هو ذلك الشيطان ؟ » .

ـ همم! لقد عاد من الخط الأمامي سيراً على قدميه . قتلوا الحصان من تحته . فعاد مسعوراً كما تتهيج كلبة مقيدة . وتساءل : « هل وجدتها ؟ » فأجبته : « أين لي أن أجدها ؟ أنا لا أستطيع أن أخلقها لك» . فقال : « لا يمكن لامرأة أن تضيع كما تضيع الإبرة! » يا لزنيره علي! إنه ذئب في جلد إنسان . ولكن ، هيا بنا!

وما هي إلا لحظة حتى كانت أكسينيا قد حزمت صرتها الصغيرة وودعت خالتها على عجل . فتساءلت العجوز :

ـ هل أرسل ستيبان في طلبك ؟

ـ نعم يا خالتي .

ـ حسناً ، بلغيه حبي . ولمَ لم يأت بنفسه ؟ كان بمقدوره أن يشرب شيئاً من اللبن ويأكل تلك الزلابية المتخلفة...

جرت أكسينيا خارج البيت دون أن تستمع الى كلمات خالتها الوداعية . وراحت تركض في الشارع مسرعة حتى شحب لونها ، وأضحت أنفاسها لهاثاً سريعاً . وصار لزاماً على بروخور آخر الأمر أن يرجو منها تخفيف سرعتها . فقال :

ـ اسمعي! كان من عادتي أنا أيضاً أن أجري وراء الفتيات في صباي ، ولكنني لم أكن على هذه الدرجة من الاستعجال التي أنت عليها . ألا تستطيعين صبراً ؟ هل هناك حريق ، أم ماذا ؟ لقد انقطع نفسي . ألا تستطيعين التصرف مثل الناس الآخرين...

وقال في نفسه : «ها هما يجتمعان ثانية... حسناً ، لن يستطيع الشيطان نفسه أن يفرقهما الآن! سوف ينعمان بالهناء ، ولكن ماذا عني أنا الذي توجّب أن أمضي باحثاً عنها ، هذه القحبة ، تحت النار... عسى ألا تتوصل ناتاليا الى معرفة ذلك أبداً ، وإلا مزقتني إرباً . إنني أعرف سلالتها ، فليس آل كورشونوف ممن يستهان بهم . لو لم أفقد بندقيتي وحصاني في لحظة تهالك على المشروب ، لما مضيت متسكعاً هنا وهناك بحثاً عنها . أي نعم ، فليلعنني الله لو فعلت ذلك! ليتدبرا أمريهما بنفسيهما من الآن فصاعداً! »

كانت ثمة شمعة تحترق مرسلة دخاناً داخل كوخ أحكم غلق نوافذه . وكان غريغوري جالساً الى طاولة ، وقد فرغ تواً من تنظيف بندقيته وشرع يحك ماسورة غدارته حين صر الباب فإذا بأكسينيا ماثلة على العتبة . كان جبينها الشاحب الضيق مبتلاً بالعرق ، وعيناها المتسعتان الغضباوان تضطرمان

بلهيب من العواطف الجياشة في وجهها الممتقع مما جعل قلب غريغوري ، وهو ينظر إليها ، يرتعش غبطة .

فقالت ، وهي تلهث بشدة : «أرسلت تطلبني إلى هنا... ثم ابتلعتك الأرض» . فلم يكن ثمة في الوجود في تلك اللحظة سوى غريغوري ، مثلما كان ذات مرة منذ زمن بعيد ، في أيام غرامهما الأولى . ومن جديد ، امحت الدنيا من الوجود حينما غاب غريغوري ، وعادت فبعثت كرة أخرى حين غدا قريباً إليها . ودون أن تكترث لوجود بروخور ، ارتمت على غريغوري ، ولفت نفسها حوله ، مثل الكروم البرية ، وراحت تقبل وجنتي حبيبها غير الحليقتين ، وتطبع قبلات صغيرة على أنفه ، وجبينه ، وعينيه ، وشفتيه ، وهي تهمس همسات متقطعة وتنتحب وتنشج :

ـ أوه ، كم تعذبت... أواه ، لكم عانيت ، يا حبيبي الأعز يا غريتشا ، يا مهجة قلبي ، يا حياتي!

فتمتم غريغوري محرجاً : «حسناً ، كفى! ألا ترين أننا الآن... كفى... أكسينيا ، حسبك!» وأشاح بوجهه ، متجنباً عيني بروخور ، ثم أقعدها على المصطبة ، وأزاح الشال عن رأسها ، وجعل يمسد شعرها المضطرب . وشرع يقول : «إنك...»

ـ أنا كما كنت دائماً ، أما أنت...

ـ كفى ، أنت والله... أنت لمجنونة!

فألقت بذراعيها حول كتفيه ، وجعلت تضحك خلل دموعها ، وهي تهمس مسرعة :

ـ كيف ، كيف فعلت ذلك! ترسل إليّ ، فآتيك على قدمي ، بعد أن تركت كل شيء ، ثم لا أجدك هنا . لمحتك تنطلق على حصانك ، فهرعت أخرج وراءك ، وناديتك ، ولكنك غبت في المنعطف . كان محتملاً أن يقتلوك ، فلا أكون قد اكتحلت بنظرة أخيرة منك .

وقالت له أشياء أخرى ، أشياء كانت من الرقة والأنوثة والحماقة ما تعز

عن الوصف ، وهي تمسد كتفيه المهدلين طوال الوقت ، وتحدق في عينيه بعينيها الوالهتين . كانت نظرتها تنم عن بؤس وهيام ، وعن يأس مرير في الوقت نفسه ، مثل عيني حيوان مطارد ، حتى غدا غريغوري يشعر بالألم والحرج إذا ما التقى نظره بها . فأسبل أهدابه ، وابتسم غصباً ، وأخلد الى الصمت ، فيما راح تورد وجنتيها يزداد احمراراً ، أكثر فأكثر ، وبدا بؤبؤا عينيها وكأن ضبابة زرقاء معتمة تغشاهما .

خرج بروخور دون أن يستودعهما ، وحين صار في السقيفة ، بصق ثم داس على البصقة بقدمه . « يا للمجنون! » قال ذلك بقسوة فيما هبط درجات العتبة وصفق البوابة بعنف ليعبّر عن شعوره هذا .

٦٣

ظلا يومين يعيشان في حلم من الأحلام ، يصلان الليل بالنهار ، لا يعيان ما يدور حولهما . وكان يحدث أن يستيقظ غريغوري أحياناً غب إغفاءة قصيرة خدرة ، فيلقى عيني أكسينيا مسمرتين عليه في ضوء الغبش وكأنها كانت تستظهر ملامحه استظهاراً . وكانت تستلقي عادة على مرفقها وقد أسندت خدها براحة يدها ، وهي تحدق فيه تكاد لا يطرف لها جفن . فيسألها غريغوري :

ـ لماذا تحدقين ؟

ـ أريد أن أشبع نظري منك ، سيقتلونك . قلبي يحدثني بذلك .

فيبتسم غريغوري ويقول : «حسناً ، مادام قلبك يحدثك بذلك ، حدقي فيّ ما شئت! »

وفي اليوم الثالث ، خرج من الكوخ للمرة الأولى منذ وصولها ، كان كودينوف قد أرسل إليه المراسل تلو المراسل يطلب منه الحضور الى اجتماع يعقد في مقره ، بيد أنه كان يعيدهم إليه قائلاً إنهم يستطيعون عقد الاجتماع

دونه . وكان بروخور قد حصل على حصان جديد له من الأركان ، ثم مضى الى الخنادق ليلاً وعاد بسرجه من هناك .

وحين رأت أكسينيا غريغوري يهم بالخروج سألته فزعة : « أين أنت ذاهب ؟ »

فأجاب : « أريد أن أذهب الى تتارسكي لأرى كيف يدافع رجالنا عن القرية وماذا حل بعائلتي » .

ـ هل مشتاق لأطفالك ؟ ـ وأحست برعدة تتمشى في أوصالها فلفت كتفيها الأسمرين بشال .

ـ نعم .

فراحت تتوسل إليه : « لا تذهب ، أتوسل إليك » . وأخذت عيناها تومضان وميضاً محموماً في محجريهما المعتمين . « هل عائلتك أغلى لديك مني ؟ ها ؟ أنت موزَّع العواطف . لمَ لا تأخذني معك أيضاً ، وسنسوي ، أنا وناتاليا ، أمر وجودنا معاً بشكل من الأشكال... حسناً ، اذهب! ولكن إياك أن ترجع إلي! لن أقبل بعد الآن! فأنا لا أريد أن أعامل بهذه الطريقة . لا أريد! »

لكن غريغوري خرج الى الفناء دون أن ينبس بشيء ، وامتطى حصانه .

* * *

كانت سرية مشاة تتارسكي متراخية الهمة في حفر خنادقها . وكان كريستونيا يرعد قائلاً :

ـ ما أكثر ما يبصقون من هراء سخيف . أين المفروض فينا أن نكون ، في الجبهة الألمانية ؟ لا تحفروا عميقاً ، يا أولاد ، لا أعمق من ركبكم . كيف يتوقعون أن نحفر أعمق من ذلك في هذه الأرض الصلدة ؟ لن يستطيع المرء أن يهمشها بمعول ، فكيف بمسحاة!

وبناء على نصيحته ، فقد حفروا في التل الوعر شديد الانحدار على الضفة اليسرى خنادق لا تصلح لغير الاستلقاء فيها ، وأقاموا حفائر في الغابة .

وآنذاك أعلن انيكوشكا الذي لا يكل له عزم : «ها نحن الآن أشبه بالسناجب البرية! سنعيش في جحور الأرانب ونقتات على الأعشاب . وداعاً للكعك والقشطة ، وداعاً أيها اللحم وأنت أيتها الشعرية . ما رأيكم بقضمة من البرسيم ؟ »

لم يكن رجال تتارسكي يواجهون من ضغط الحمر إلا النزر اليسير . فلم تكن ثمة بطاريات موجهة صوب القرية . ولم يكن يحدث إلا أن يلعلع ، بين الحين والحين ، مدفع رشاش من الضفة اليمنى ، حين يطل راصد برأسه من الخندق ، ثم يخيم بعد ذلك سكون طويل آخر .

كانت خنادق الجيش الأحمر مقامة على التل . وكان أولئك أيضاً لا يطلقون نارهم إلا لماماً ، ولم يكن رجال الجيش الأحمر يزورون القرية إلا ليلاً ، ولمدة قصيرة .

* * *

بلغ غريغوري أرض المروج التابعة لقريته عصرا . كان كل شيء هناك مألوفاً لديه ، وعملت كل شجرة على إثارة الذكريات في نفسه... انحدر الطريق عبر « ممر العذراء » ، حيث اعتاد القوزاق في عيد القديس بطرس من كل عام أن يشربوا الفودكا بعد تقسيم أرض المروج بينهم . ومر بغابة أليكسي ، التي تمتد داخل أرض المروج ، كما يمتد رأس من الأرض في البحر . لقد حدث منذ أجل بعيد أن هاجمت الذئاب في هذه الغابة بقرة تعود لقوزاقي من تتارسكي يدعى أليكسي . وها قد مر أمد طويل مذ مات أليكسي ، وامحت ذاكرته كما تمحي الكتابة من على شاهدة القبر ، ونسي الأقارب والجيران لقبه ، لكن الغابة التي أعطيت اسمه ما تزال تمد نحو السماء بالتيجان غامقة الخضرة لأشجار البلوط والدردار . هنا ، كان قوزاق تتارسكي يأتون لقطع الأشجار للانتفاع منها في بعض الشؤون المنزلية ، ولكن ما أن يحل الربيع حتى تبرز براعم فتية ناشطة حول الجذامات القديمة ، وتمر سنة أو سنتان تنمو خلالها نمواً لا تستشفه

الحواس ، ومن جديد تعود غابة أليكسي فتنشر في الصيف أغصانها الخضر ، وتكتسي في الخريف دثاراً ذهبياً من أوراق البلوط التي عضها الصقيع بنابه .

وفي الصيف ، كانت شجيرات العليق الشائكة تمتد كثيفة فوق الأرض الرطبة ، وتنشغل طيور العقعق ونقار الخشب ذات الريش الزاهي ببناء أعشاشها في أعالي أشجار الدردار الفلينية العجوز . وفي فصل الخريف ، حين يشتد الهواء ويفعم برائحة ثمر البلوط وأوراقه المتساقطة ، تأتي طيور الحجل المهاجرة فتزور الغابة الصغيرة ، أما في الشتاء فليس ثمة إلا آثار الأقدام المستديرة للثعالب وقد امتدت بخيطها المرصع فوق دثار الثلج الأبيض . وكان غريغوري كثير التردد على غابة أليكسي ينصب الأفخاخ للثعالب .

مضى غريغوري على حصانه تحت فيء الأغصان البارد يسير على الممر القديم ، وقد علته الأعشاب الآن . واجتاز «ممر العذراء» ، ثم يمم صوب «المنحدر الأسود» ، والذكريات تلعب في رأسه كالخمرة المسكرة . كانت ثمة ثلاث أشجار حور يولي شطرها ، يوم كان صبياً ، ابتغاء صيد صغار البط البري ، وإزاء «البركة المدورة» كان يصطاد السمك بالخيط من الفجر حتى الغسق . وعلى مسافة أبعد قليلاً ، كانت هناك أجمة قديمة وحيدة من أشجار التوت الثلجي ، كان بالمستطاع رؤيتها من فناء ميليخوف ، وفي كل خريف كان من عادة غريغوري أن يقف على درجات عتبة داره ليمتّع ناظريه بمرأى تلك الأجمة . فكانت تبدو من بعيد وكأنها تمور بلهيب قرمزي . وكان أخوه الراحل بيوتر كلفاً أشد الكلف بالمربيات المصنوعة من توتها المر .

أجال غريغوري بصره ، بقلب يشوبه غم هادئ ، في مرابع طفولته . وراح حصانه يمشي الهوينا ، وهو يذود عنه ذباب الخيل والبعوض بذيله في ارتخاء . وكانت الأحراش تحني هاماتها برفق أمام النسيم الهاب ، وأرض المروج تموج بظلال متناثرة .

ومضى الى الخنادق التي تشغلها سرية مشاة تتارسكي ثم أرسل كريستونيا الى أبيه . ترجل غريغوري وأعطى لأنيكوشكا عنان حصانه ورأى

من بعيد أباه العجوز يعرج مسرعاً ، وحين صار على مقربة من غريغوري هتف له : «تحياتنا ، أيها القائد!» .

ـ مرحباً ، يا أبي!

ـ جئت لزيارتنا ؟

ـ بالكاد انتزعت نفسي . حسناً ، كيف حال الأهل ؟ أين أمي وناتاليا ؟

فلوّح بانتلاي بروكوفتش بيده وتجعد وجهه . وانحدرت دمعة على خده الأسمر .

فتساءل غريغوري بحدة وقد انتابه القلق :

ـ ماذا ؟ ما الأمر ؟ ما الذي حدث ؟

ـ لم يعبروا النهر...

ـ لماذا ؟

ـ ناتاليا طريحة الفراش منذ يومين... التيفوس ، كما يبدو ، ولم تود العجوز أن تتركها . ولكن ، لا تفزع ، يا بني ، فإنها بخير .

ـ وطفلاي ؟ ميشا ؟ بوليا ؟

ـ إنهما هناك أيضاً . لكن دونيا عبرت النهر . كانت تخشى البقاء هناك... فتاة وحيدة ، كما تعلم . راحت مع زوجة أنيكوشكا . لقد زرت البيت مرتين حتى الآن . عبرت النهر سراً خلال الليل في قارب وزرتهم . حالة ناتاليا في غاية السوء ، ولكن صحة الطفلين على ما يرام ، والحمد لله! لقد فقدت ناتاليا الوعي . كانت حرارتها مرتفعة جداً حتى لقد تيبس الدم على شفتيها .

فصاح غريغوري غضباً :

ـ لمَ لم تجلبهم الى هذا الجانب ؟

فساور العجوز الحنق ، حتى بدا الاستياء واللوم واضحين في صوته الراعش حين أجابه :

ـ وماذا كنت تفعل ، أنت ؟ ألم يكن في مقدورك أن تأتي الى هنا لانتشالهم ؟

فنب غريغوري محتجاً بانفعال شديد :

ـ تحت قيادتي فرقة بأكملها . كان علي أن أدبر أمر عبورها .

ـ لقد بلغت مسامعنا نزواتك في فيشنسكايا . ولا يبدو أنك عدت بحاجة الى عائلتك... آه ، يا غريغوري ، إن لم تكن مستعداً للتفكير بشؤون أهلك ، فما عليك إلا أن تولي مزيداً من تفكيرك صوب الخالق . إنني لم أعبر النهر في هذه المنطقة ، ولو فعلت ، فهل تظن بأنني سأتركهم ؟ كان رعيلي في يلانسكايا ، وحين وصلنا هنا كان الحمر قد دخلوا تتارسكي .

فقال غريغوري وقد بح صوته وخفت :

ـ ما كنت أفعله في فيشنسكايا لا يعنيك في شيء! ولا تحاول أن...

فذهل العجوز ، وأجاب : « إنني لم أقصد أي شيء! » وراح يحدق في رهط القوزاق المتجمعين على مبعدة يسيرة ، وقد انتابه الحرج ، وقال : « اخفض صوتك ، فبمقدور هؤلاء أن يسمعوك! » ثم خفض صوته هو حتى بات كالهمس ، وأردف : « إنك لم تعد طفلاً صغيراً ، ويحسن بك أن تدرك ذلك جيداً . ومهما يكن ، فلا تقلق على أهلك . فستستعيد ناتاليا صحتها ، إن شاء الله ، كما أن الحمر لا يسببون لهم أية متاعب . صحيح أنهم قتلوا عجلنا ، ولكن هذا ليس بالمهم . كانوا رؤوفين بأهلنا ولم يمسوهم بسوء . لا شك أنهم استولوا على كميات كبيرة من الحبوب ، ولكن لا حرب بلا خسائر» .

ـ أترانا نستطيع أن نعبر بهم النهر الآن ؟

ـ لا أظن ، وأين سنأخذ ناتاليا ، في حالتها هذه ؟ ذلك سينطوي على خطر كبير . ثم ان العجوز تقوم بالسهر على كل شيء ، وأنا شخصياً لم أعد قلقاً عليهما مثلما كنت في السابق . أتعلم ، لقد اندلعت النيران في القرية .

ـ ومن احترق بيته ؟

ـ احترقت ساحة القرية عن آخرها وكذلك دور جميع التجار الكبار . وأضرمت النار في بيت كورشونوف دون أن تبقي منه شيئاً . كانت لوكينشنا قد هربت قبل وصول الحمر ، ولكن غريشاكا العجوز ظل في الدار ليعنى بأمور

الحقل . وروت أمك أنه قال لها : «لن أتزحزح خطوة ولن أدع أعداء المسيح يقتربون مني ، فهم يخشون علامة الصليب» . وأنت تذكر كيف كان عقله يزداد خرفاً يوماً بعد يوم . لكن الحمر لم يخافوا من صليبه ، فحرقوا الدار ومرافق الحقل عن آخرها ، ولم يسمع أحد بما حل بغريشاكا . ومهما يكن من أمر ، فقد كان أوان أجله قد حل . ألم يصنع لنفسه تابوتاً منذ عشرين سنة ، ومع ذلك ظل حياً طوال هذا الوقت... إن الذي يقوم بإضرام النيران في القرية هو صديقك ، عليه اللعنة!

ـ من تعني ؟

ـ ميشا كوشيفوي ، لعنة الله عليه!

ـ لا يمكن أن يكون هو!

ـ إنه هو بعينه ، وحق الله! عرّج على بيتنا ليستفهم عنك ، وأخبر أمك أنك ستكون أول من يعقد الحبل على رقبته حالما يعبر الحمر الى الجانب الآخر . وقال لها : «سيشنق على أعلى بلوط ، ولن أدنس سيفي بدمه» . كذلك سأل عني : «وأين ولي الآخر ، بحق الشيطان ؟ كان عليه أن يرقد في بيته فوق الموقد!» وقال : «إن أمسكت ببانتلاي العجوز ، فلن ألجأ الى ضربه ضربة مميتة ، بل سأظل ألفحه بالسوط حتى أنتزع روحه» . أرأيت أي شيطان قد تكشف عنه! إنه يطوف في أرجاء القرية يضرم النار في دور التجار والقسس وهو يقول : «سأحرق كل منطقة فيشنسكايا انتقاماً لمقتل إيفان اليكسييفتش وشتوكمان» أي نعم ، هذا ما يقوله .

ولبث غريغوري يتحدث مع أبيه نصف ساعة بعد ذلك ، ثم مضى الى حصانه . وعلى الرغم من أن العجوز لم يشر مرة أخرى الى موضوع أكسينيا ، فإن غريغوري لم يبارحه شعوره بالاكتئاب . فحدث نفسه قائلاً : «مادام أبي يدري ، فلابد أن الجميع سمعوا بالأمر كذلك . من ترى أخبرهم ؟ من عساه رآنا معاً غير بروخور ؟ لا شك أن ستيبان لا يدري ، أم تراه يدري هو الآخر ؟» وصرّ على أسنانه وقد أحس بالخزي والغيظ من نفسه...

مضى الى القوزاق وتبادل معهم حديثاً قصيراً . وكان انيكوشكا لايزال يمزح ويطالب ببعض الدلاء من الفودكا للسرية . فقال ضاحكاً وهو يضرب بأظافره على بلعومه ليظهر ظمأه : «لا تأبهوا للخراطيش إن أرسلتم لنا الفودكا!» .

ونفح غريغوري وأبناء قريته الآخرين شيئاً من التبغ الذي جلبه معه ، ولم ير ستيبان استاخوف إلا حينما كان يهم بامتطاء صهوة حصانه ، فتقدم منه ستيبان متمهلاً وتبادل معه التحية لكن دون أن يمد إليه يده .

كانت تلك هي المرة الأولى التي يرى فيها ستيبان منذ اندلاع التمرد ، فحدق فيه قلقاً متفحصاً ، وساءل نفسه : أتراه يدري ؟ لكن وجه ستيبان الوسيم لم يشبه أيما اضطراب ، بل كان جذل المحيا ، فتنفس غريغوري الصعداء .

٦٤

قضى غريغوري اليومين التاليين في تفقد قطاع الجبهة الذي تسيطر عليه فرقته الأولى . وحين عاد الى فيشنسكايا وجد أن القيادة العامة للأركان قد نقلت مقرها الى قرية تشورني التي تقع على مبعدة يسيرة من فيشنسكايا . وبعد أن أراح حصانه بعض الوقت وأورده انطلق مباشرة الى تشورني .

استقبله كودينوف بسرور ، وهو يتفرس فيه وقد ارتسمت على شفتيه ابتسامة متحدية :

ـ حسناً ، يا غريغوري بانتلايتش ، حدثنا بما رأيت .

فأجاب غريغوري :

ـ رأيت قوزاقاً ورأيت الحمر عبر النهر .

ـ إذن ، فلم تر الشيء الكثير! جاءتنا ثلاث طائرات الى هنا تحمل خراطيش ورسائل .

فتساءل غريغوري :

ـ وماذا يقول صديقك الجنرال سيدورين في رسالته ؟

فاستطرد كودينوف بالنبرة الممراحة ذاتها :

ـ تعني ، صديقي القديم سيدورين! إنه يطلب منا أن نصمد هنا بكل ما لدينا من قوة كي لا ندع الحمر يعبرون النهر ، ويقول إن «جيش الدون» على وشك أن يشن هجوماً حاسماً .

فعلق غريغوري هازئاً :

ـ كلام جميل!

تغيرت لهجة كودينوف وصارت صارمة :

ـ إنهم سيقومون بعملية انقاذ . أنا لم أخبر أحداً غيرك بذلك ، وهو أمر في منتهى السرية . ففي غضون أسبوع ، سيكونون قد نفذوا خلال جبهة الجيش الأحمر الثامن . ويجب علينا أن نصمد!

ـ إننا صامدون .

ـ الحمر يعدون العدة في كروموك لعبور النهر .

فتساءل غريغوري دهشاً :

ـ ألا يزالون يضربون بمطارقهم ؟

ـ بلى... ولكن أين كنت طوال هذا الوقت ؟ ربما كنت مختفياً في فيشنسكايا ، أليس كذلك ؟ كنت أول من أمس أنقب عنك في كل مكان . ثم عاد أحد سعاتي وأفاد بأنك لم تكن في مقرك ، وأن امرأة جميلة خرجت من هناك والدموع تترقرق في عينيها وقالت إنك خرجت على جوادك الى مكان ما . فلم أستطع كبح نفسي عن التساؤل فيما إذا كنت تسلي نفسك بفتاة وتختفي عن الأنظار في مكان ما .

فقطب غريغوري ، إذ أنه لم يتقبل مزاح كودينوف بسعة صدر ، ورد بجفاء :

ـ عليك ألا تصغي الى الأكاذيب وأن تختار سعاة ذوي ألسنة قصار! فإن أرسلت رجالاً لهم ألسنة طوال كهذا فلسوف أقصرها لهم بسيفي .

فانفجر كودينوف هادراً بالضحك وصفق ظهر غريغوري بيده ، وقال :
ـ ألا تستطيع أن تتحمل مزحة ؟ على أية حال ، لدي أمور أكثر أهمية أريد أن أتباحث معك حولها . علينا أن نأسر واحداً من الحمر ليقدم لنا المعلومات عن الوضع . هذا أولاً . ثم نريد أن نرسل سريتين من سرايا الخيالة عبر النهر من موضع ما في هذا الجانب من كازانسكايا ، ليغيروا على الحمر . وقد يكون في مستطاعهم العبور حتى من كروموك ، فيبثون الرعب فيهم . ما رأيك ؟

فأجاب غريغوري بعد برهة من الصمت :

ـ فكرة لا بأس بها .

فسأل كودينوف :

ـ وهل ستقود السريتين بنفسك ؟

ـ ولم لا ؟

ـ لأننا نريد قائداً محارباً لهذه المهمة . نريد آمراً محنكاً ، فليست المهمة بالأمر اليسير . ولو عهدت بعملية العبور هذه الى يد غير ماهرة فقد لا يعود أي من الرجال حياً .

وإذ نفخت كلمات كودينوف الزهو في نفس غريغوري ، وافق على قيادة الهجوم بلا تردد : «سأقوم بالمهمة دونما ريب» .

فنهض كودينوف من مقعده ، وجعل يتحدث بحماس ، وهو يتخطى جيئة وذهاباً على ألواح الأرضية الخشبية ، فينبعث منها صرير ، وقال :

ـ هذه هي الأسس التي كنا نبني خططنا وتفكيرنا عليها . ليس من الضروري أن تتوغل هذه القوة حتى مؤخرة العدو ، إنما واجبها هو أن تمضي بمحاذاة الدون فتخض أعصاب العدو خضة مناسبة في قريتين أو ثلاث ، وتستولي على بعض الخراطيش والقذائف ، وتأسر بضعة منهم ومن ثم تكر عائدة من الطريق نفسها . هذا ، ويجب أن تتم المهمة كلها أثناء الليل ، حتى يكون بمستطاعكم العودة الى مكان المخاضة في النهر عند الفجر . ألا توافقني على

ذلك ؟ حسناً ، فكر في الأمر ملياً ، وانتق غداً القوزاق الذين تريد أن تأخذهم معك ، ثم انطلقوا . لقد أجمعنا على أن ليس هناك من يصلح لهذه المهمة غيرك . وإذا أنجزتها بنجاح ، فأن جيش الدون لن ينسى ذلك أبداً . وسوف أكتب عن ذلك تقريراً الى الجنرال نفسه حالما يلتئم شمل قواتنا بقوات أصدقائنا . ولسوف أدرج كافة خدماتك ومآثرك مما سيؤدي الى ترقيتك...

ثم توقف فجأة حين لاحظ وجه غريغوري يكفهر غضباً ، بعد أن كان هادئاً طوال الوقت .

ـ من تظنني أكون عندك ؟... ـ قال غريغوري ذلك وهو يضع يديه بسرعة وراء ظهره وينهض من مقعده . ـ أتحسب أنني أذهب بهذه المهمة سعياً وراء الترقية ؟ أتحسب أن باستطاعتك أن تستأجرني ؟ تلوّح لي بالترفيع ؟ إنني...

ـ مهلاً لحظة!

ـ أنا أبصق على ترقيتك هذه!

ـ مهلاً! أسأت فهمي تماماً!

ـ فهمتك كل الفهم! ـ وغص غريغوري بالكلام ، فجلس على المقعد من جديد . ـ ابحث لك عن شخص آخر . لن أقود أي قوزاق عبر الدون!

ـ غضبك من غير ما داع .

ـ لن أتولى القيادة ، وكفى .

ـ حسناً ، أنا لا أقسرك على ذلك أو أتوسل إليك . إذا أردت أن تقود ، قُد ، وإذا لم تشأ ، فالأمر متروك لك . وضعنا الحالي في منتهى الخطورة ، ولهذا قررنا ألا ندعهم يمضون في استعداداتهم للعبور ، إذا كان الأمر في مقدورنا . أما عن ترقيتك ، فإنني كنت أمازحك بها . أنت لا تستطيع أن تتحمل أية مزحة . وقبلها كنت أمازحك حول تلك المرأة ، فثارت ثائرتك أيضاً . كنت لا أقصد سوى استثارتك . فأنا أعرف أنك نصف بلشفي تكره المناصب الرفيعة . ومع ذلك فقد أخذت الأمر بمنتهى الجد! كنت أغيظك ممازحاً ، لا لشيء إلا لكي أراك تثور .

ثم ضحك كودينوف ضحكة لا تكلف فيها حتى أن غريغوري حسب ، لحظة ، أنه ربما كان يمزح فعلاً في أقواله تلك . لكنه رد عليه بعناد :

ـ مهما يكن من أمر ، فلن أتولى قيادة المهمة . لقد غيرت رأيي .

فجعل كودينوف يعبث بطرف نطاقه من غير ما اكتراث . ثم قال بعد فترة طويلة من الصمت :

ـ حسناً ، لا يهم ذلك ، سواء كنت قد غيرت رأيك أو أصابك الخوف من المهمة . إنما المهم في الأمر هو أن موقفك هذا سيفسد علينا خططنا . وإن كنا ، بلا ريب ، سنجد شخصاً آخر بدلاً منك . فلست أنت الشجاع الوحيد بين القوزاق . ولكن أحكم بنفسك بمدى خطورة الموقف الذي نحن فيه . لقد أرسل إلي كوندرات مدفيديف نشرة أخرى اليوم . تقول إن الحمر قد وصلتهم تعزيزات كبيرة . هاك ، اقرأها أنت بنفسك وإلا فلا أحسبك ستصدقني...

وأخرج من حقيبة الميدان طبقة مصفرة من الورق تعلوها بقع قاتمة من أثر الدم ، ثم أعطاها الى غريغوري :

ـ لقد عثروا عليها عند قوميسار سرية أممية أو شيء من هذا القبيل . وكان لاتفياً . ظل هذا النغل يقاوم الى آخر خرطوشة لديه ، ثم قذف بنفسه ، وهو رافع حربته ، على رعيل كامل من القوزاق . كان كوندرات هو الذي صرعه . إن للعدو رجالاً شجعاناً أيضاً ، وهم أولئك الذين يؤمنون بعقيدتهم . وقد وجدوا لديه نشرة التعليمات هذه

أمر الى قوات الحملة

٨ رقم ١٠٠

بوكوتشار ٢٥ أيار ١٩١٩

يتلى أمام جميع السرايا ، وسرايا الخيالة . والبطاريات

لقد دنت نهاية تمرد الدون المكلل بالعار!

لقد أزفت الساعة ، واتُخذت كافة الاستعدادات اللازمة . فقد حشدت قوات

كافية لمحق الخونة . وأزفت الساعة لتصفية الحساب مع أشباه « هابيل » الذين مضى عليهم أكثر من شهرين وهم يسددون الطعنات الى ظهور جيوشنا المحاربة في الجبهة الجنوبية . ولقد ظل عمال وفلاحو روسيا كلها يرقبون عصابات القوزاق هذه وهي تمد يد العون ، تحت راية حمراء زائفة ، الى مالكي الأرض « المائة السود » ، دينيكين وكولتشاك .

أيها الجنود ، أيها القادة ، يا قوميسارية الحملة التأديبية : لقد تم إنجاز الاستعدادات . والآن ، ومع الإيذان بالهجوم : انطلقوا الى الأمام!

إن أوكار الخونة والمارقين الأدنياء يجب أن تدك ، وأشباه هابيل يجب أن يقضى عليهم . ولا تأخذن بكم الرحمة بالمناطق التي تبدي مقاومة في وجهكم! ولا رحمة إلا بأولئك الذين يلقون سلاحهم طوعاً وينضمون الى جانبنا! أما الضالعون بركاب دينيكين وكولتشاك ، فجابهوهم بالرصاص والفولاذ والنار! أيها الرفاق الجنود ، إن روسيا السوفييتية تضع أملها فيكم . عليكم أن تطهروا الدون من وصمة الخيانة السوداء في أيام معدودات . لقد أزفت الساعة!

الى الأمام ، هبوا هبة رجل واحد!

٦٥

في التاسع عشر من أيار أصدر رئيس هيئة أركان الحملة التابع للجيش الأحمر التاسع أمراً بأن يحمل ميشا كوشيفوي رسالة مستعجلة الى مقر قيادة الكتيبة الثانية والثلاثين ، التي كان من المقرر أن تكون في قرية كورباتوفسكي .

فبلغ كوشيفوي القرية في مساء اليوم نفسه ، غير أنه لم يعثر على مقر الكتيبة فيها . كانت القرية تغص بقوافل الأمتعة التابعة لوحدة أخرى ، وكانت تمضي قادمة من الدونيتس ومتجهة صوب أوست ـ مدفيديتسا ، ترافقها سريتان من المشاة للحماية .

فلبث ميشا يتجول في القرية زهاء الساعتين لمعرفة محل وجود مقر الكتيبة الثانية والثلاثين . وأخيراً أخبره فارس من الجيش الأحمر أن مقرها في قرية يفلانتييفسكي ، في منطقة بوكافسكايا .

وبعد أن أطعم ميشا جواده ، مضى الى يفلانتييفسكي ، غير أنه لم يعثر على مقر الكتيبة هناك أيضاً . وفي طريق عودته الى كورباتوفسكي بعد منتصف الليل صادف في السهب دورية من الجيش الأحمر . وحينما كان لايزال على مبعدة منهم ، تناهت إليه صيحة أحدهم : «من هناك ؟»

ـ صديق .

فجاء صوت أوكراني أبح : «حسناً ، فلنر أي صديق أنت...» وتقدم منه ضابط يعتمر قبعة فرائية بيضاء ويرتدي سترة زرقاء غامقة . «من أية وحدة أنت ؟»

ـ لواء الحملة التابع للجيش التاسع .

ـ أتحمل هوية رسمية ؟

فأبرز ميشا أوراقه . وبينما كان آمر الدورية يتفحصها تحت ضوء القمر ، مضى يستجوب ميشا مرتاباً :

ـ ومن هو آمر لوائكم ؟

ـ الرفيق لوزوفسكي .

ـ وأين هو لواؤكم الآن ؟

ـ عبر الدون . من أي كتيبة أنت ، أيها الرفيق ؟ الثانية والثلاثون ؟

ـ كلا . نحن فرقة الكوبان الثالثة والثلاثون . ولكن ، من أين جئت ؟

ـ من يفلانتييفسكي .

ـ وأين وجهتك ؟

ـ كورباتوفسكي .

ـ أوهوا هناك قوزاق الآن .

فقال ميشا دهشاً :

ـ أهذا صحيح ؟

ـ صدقني ، إن فيها قوزاقاً الآن... قوزاقاً متمردين . لقد جئنا من هناك تواً .

فتساءل ميشا بقنوط :

ـ فكيف يمكنني أن أصل الى بوبروفسكي إذن ؟

ـ ذلك من شأنك .

ثم ضرب الآمر جواده الأدهم بسوطه ، ومضى عن ميشا ، غير أنه ما لبث أن استدار على سرجه وهتف له : «خير لك أن تأتي معنا وإلا ظفر بك القناصة» .

فانضم ميشا الى الدورية بسرور . وأمضى معها تلك الليلة حتى بلغوا قرية كروجيلين ، حيث مقر كتيبة تاغانروغ ٢٩٤ ، فسلّم الرسالة الى آمر الكتيبة ، وبعد أن شرح له السبب في عدم استطاعته تسليم الرسالة الى الجهة المعنية ، سأله أن يسمح له بالبقاء في الكتيبة مع دورية راكبة .

كانت فرقة الكوبان الثالثة والثلاثون ، المؤلفة حديثاً ، قد سحبت من المنطقة القريبة من أستراخان الى منطقة فورونيج . وقد قذف بأحد ألويتها ، الذي ينتظم كتائب تاغانروغ وديربنت وفاسيلوفسكي ، الى المعركة للقضاء على التمرد القوزاقي . وكان هذا اللواء هو الذي انقض على فرقة غريغوري ميليخوف الأولى وأجبرها على عبور الدون .

استأنف اللواء زحفه ، على امتداد الضفة اليمنى للدون ، متجهاً صوب منطقة أوست ـ خوبرسكايا ، مستولياً على قرى نهر تشير بجناحه الأيمن ، ولم يتوقف ليعود إلا بعد أن أمضى قرابة أسبوعين في المنطقة .

وأسهم ميشا في المعارك التي دارت للاستيلاء على كارغينسكايا وعدد من القرى الواقعة على نهر تشير . وفي صباح السابع والعشرين من أيار ، صف آمر سريته رجاله في جانب الطريق ، وتلا عليهم أمراً كان قد استلمه تواً . وبعد ذلك ظلت هذه الكلمات عالقة في ذهن ميشا كوشيفوي : «إن

أوكار الخونة والمارقين الأدنياء يجب أن تدك ، وأشباه هابيل يجب أن يقضى عليهم... » وكذلك : « أما الضالعون بركاب دينيكين وكولتشاك ، فجابهوهم بالرصاص والفولاذ والنار! »

فمنذ اليوم الذي علم فيه ميشا باغتيال شتوكمان وبلغته شائعات مقتل ايفان أليكسييفتش وشيوعيي يلانسكايا ، تملكه شعور طاغ بالكراهية للقوزاق . ولم يعد يفكر ، أو يصغي الى نداء الرحمة الخافت المنبعث من قلبه ، إذا ما وقع قوزاقي متمرد في يديه . فلم يبد رأفة بأي منهم بل كان يتوجه بالسؤال الى الأسير بعينين زرقاوين باردتين كالثلج : « أشبعت من مقاتلة الحكومة السوفييتية ؟ » ثم يهوي بالسيف على الرجل بقسوة دون أن ينتظر منه رداً على السؤال أو يلقي نظرة على وجهه المصعوق . ولم يقتصر على قتل الأسرى ، ولكنه كان يسلط ألسن النار القرمزية من شعلة إحراق على أفاريز السقوف في بيوت القرى التي هجرها المتمردون ، فإذا ما اندفعت الأبقار والثيران عبر الأسيجة وقد تملكها الذعر وانطلقت تخور في الشارع ، أطلق عليها النار فأرداها قتيلة .

وأعلنها حرباً شعواء ماحقة على بطر القوزاق وغدرهم ، وعلى نمط حياتهم الجامد الراكد الذي لم يعكر صفوه شيء ، قروناً طوالاً ، في بيوت القوزاق المنيعة . فكان مصرع شتوكمان وإيفان اليكسييفتش بمثابة الوقود لكراهيته ، ثم جاءت كلمات الآمر القصيرة الواضحة فكانت تجسيداً دقيقاً لمشاعره العمياء . ففي اليوم الذي تُلي الأمر على سريته قام هو وثلاثة رفاق آخرين بإضرام النار في مائة وخمسين داراً في كارغينسكايا وحدها . وكان قد عثر على شيء من النفط الأبيض في مخزن أحد التجار ، فدار به الى الساحة وقد أمسك بعلبة من عود الثقاب بيده . فخلف وراءه خطاً من الدخان الحريف واللهيب يندلع من دور القسس والتجار زاهية الطلاء ومن بيوت أغنياء القوزاق ، مرابض أولئك الذين : « دفع تآمرهم بجماهير القوزاق الجاهلة الى التمرد » .

كانت الدوريات الراكبة أول من يدخل القرى المهجورة ، فكان كوشيفوي يأتي على حرق بيوت الأغنياء قبل أن يصل المشاة . وكانت الرغبة العارمة تعتمل في صدره للوصول الى تتارسكي بأي ثمن ليأخذ ثأر ايفان وشيوعيي يلانسكايا من أهل قريته . وكان يحدث نفسه بأنه سيضرم النار في نصف القرية على الأقل! وكان قد أعد في ذهنه قائمة بالدور التي يجب إحراقها إذا ما بلغ تتارسكي فعلاً . فإذا لم يقدَّر لكتيبته أن تمر بها ، فقد عقد العزم على التسلل إليها ليلاً من غير ما إذن .

وكانت ثمة دوافع أخرى ، علاوة على رغبته في الانتقام ، تستحثه للذهاب الى تتارسكي ثانية . ففي غضون العامين الماضيين كان يلتقي بدونيا ميليخوفا كلما وجد نفسه في القرية ، فتنامت لديهما عاطفة حب لم يفصحا عنه . لقد كانت أصابع دونيا السمر هي التي خاطت له كيس تبغه الملون المطرز ، وكانت هي التي أعطته سراً زوجاً من القفازات المصنوعة من شعر الماعز الناعم ليحمي بهما يديه من قر الشتاء ، وكان منديلها المطرز الصغير هو الذي يحتفظ به ويرعاه بحنان في الجيب العلوي لقمصلته العسكرية . فكان هذا المنديل الصغير ـ الذي كانت طياته لاتزال تحتفظ ، رغم مرور أشهر ثلاث ، بعبق جسد الفتاة ، الذي يحاكي عبق التبن ـ عزيزاً على قلبه الى حد يعز عن الوصف . وكان كلما أخرجه من جيبه ، يستعيد بانفعال ذكرى شجرة حور جردها الصقيع الأبيض قائمة الي جانب بئر ، وثلج خفيف ينث من سماء مدلهمة ، وشفتي دونيا الراعشتين وألق الثلج البلوري يحوم على أهداب عينيها .

تهيأ لزيارة قريته واتخذ استعدادت حصيفة لها ، فانتزع بساطاً ملوناً من حائط في بيت أحد تجار كارغينسكايا ، وشده تحت مرشحة حصانه . كما عثر على سروال يكاد يكون جديداً في صندوق أحد القوزاق ، وقص ستة شالات نسائية فجعل منها ثلاثة أزواج من لفافات الساق ، ودس زوجاً من القفازات الصوفية في حقيبته ليرتديها قبيل رحيله الى تتارسكي .

فمنذ القدم ، كانت العادة أن يرتدي الجندي أفضل ما لديه لدى عودته

الى أهله . وكان ميشا مايزال أسير هذه العادة القوزاقية ، رغم كونه جندياً في الجيش الأحمر فعمل كل ما في وسعه لمراعاة هذا التقليد القديم .

كان حصانه أشهب بديعاً استولى عليه من قوزاقي صرعه أثناء إحدى المعارك . وكان ، بمنظره المهيب وسرعته ، مدعاة للزهو ، لكن سرج ميشا لم يكن ليليق بذلك الحصان ، فقد كان جلده مخدشاً وممزقاً ، وأجزاؤه المعدنية صدئة . ولم تكن الشكائم واللجام بأفضل منه حالاً ، فصار لزاماً عليه أن يعمل شيئاً ما لإضفاء مظهر أفضل عليها . ثم أسعفه الحظ حين خطرت في ذهنه فكرة رائعة . ففي إحدى القرى عثر على سرير حديدي ذي صفائح من معدن النيكل ملقى خارج أحد بيوت التجار ، وكانت تعلو قوائمه الأربع مصاريع معدنية ملمعة ينعكس عليها ضياء الشمس . ولم تمض لحظة حتى حل ميشا هذه المصاريع من السرير ، ثم ربطها بخيوط حريرية ، اثنين الى حلقات اللجام ، واثنين الى سير العنان فوق جبين الحصان . فجعلت المصاريع تتوهج كشمس الظهيرة الناصعة فوق رأس الحصان ، حتى انبهر الحصان من شدة الألق وراح يتعثر في سيره . لكن ميشا لم ينتزعها ، رغم أن نظر الحيوان كان يعاني منها وعينيه تدمعان بسببها .

مضت الكتيبة في طريقها بمحاذاة الدون متجهة صوب فيشنسكايا . ولهذا لم يجد ميشا صعوبة كبيرة في الحصول على إذن من آمر الدورية بالسماح له بزيارة أهله ليوم واحد . ولم يكتف آمره بإعطائه الإذن ، بل أضاف الى ذلك شيئاً آخر . قال سائلاً ميشا :

ـ أنت متزوج ؟

ـ لا .

ـ لديك عشيقة ، ها ؟

ـ لدي ماذا ؟

ـ أعني حبيبة!

ـ حبيبتي فتاة محترمة .

ـ وهل لديك ساعة وسلسلة ؟

ـ كلا ، يا رفيق .

فعلق الآمر على ذلك بقوله : «شيء مؤسف!!» : كان قد اشترك في الحرب الألمانية ، فكان يدرك أي عار تجلب على الجندي عودته الى قريته صفر اليدين من الأسلاب . فنزع من صدره هو ساعة وسلسلة كبيرة ، وقدمهما الى ميشا قائلاً :

ـ أنت محارب شجاع! هاك ، ارتد هاتين أثناء وجودك في القرية وابهر بهما عيون الفتيات . كنت أنا شاباً ذات يوم أيضا . وأفسدت عدداً لابأس به من الفتيات وأسعدت العديد من النساء في زمان . ولهذا فأنا أتفهم مثل هذه الأمور . قل لمن يسألك إن هذه السلسلة مصنوعة من الذهب الأميركي الجديد . وإذا أحرجك أحد بخصوص ختم الصائغ ، الطمه على وجهه! فهذا هو الشيء الوحيد الذي ينبغي فعله مع قليلي الحياء ، ولا خير في هدر الكلام معهم . حدث لي أن كان البعض من هؤلاء الكتاب أو مستخدمي المخازن يأتونني أمام الناس ويحاولون أن ينتزعوا النشوة مني : «آها ، أنظروا الى سلسلة الساعة المدلاة على كرشه . يحاول أن يتظاهر بأنها من الذهب الحقيقي... هيا ، أرنا الختم! » لكنهم لم يعاودوا سؤالي مرة أخرى . «تريد أن ترى الختم ، ها ؟ سنرى ، هو ذا ما تريد! » .

ولمَّ آمر ميشا الممراح قبضته الهائلة وأطلقها الى أمام بقوة كاسحة .

علّق ميشا الساعة والسلسلة ، وحلق ذقنه على الضوء المنبعث من نار المعسكر ، ثم أسرج حصانه وانطلق . وما أن انبلج الفجر حتى كان يدخل تتارسكي خبباً .

لم يبد على القرية أنها تغيرت : كانت القبة الصغيرة للكنيسة المبنية بالطابوق لاتزال ترفع الى السماء صليبها المذهب الباهت ، وبيوت القسس والتجار لاتزال قابعة متراصة في مواقعها حول الساحة ، وشجرة الحور لاتزال تتمتم باللغة الأليفة القديمة فوق كوخ ميشا المتهدم . ولم يكن ثمة ما هو

غريب ومدهش سوى ذلك السكون العميق العالق فوق الشوارع مثل نسيج العنكبوت . كانت صفاقات الشبابيك محكمة الغلق ، وكانت ثمة أبواب مغلقة بالأقفال ، غير أن الكثرة الباقية منها كانت مفتوحة على مصاريعها . لكأن الوباء قد اجتاح القرية بخطاه الثقيلة فأخلى الأفنية والشوارع من الأحياء ولم يخلّف وراءه سوى الفراغ والخراب . ولم تكن الأذن لتلتقط أية نأمة بشرية ، أو خوار بقرة أو صيحة ديك . ولم تكن هناك سوى العصافير تثرثر تحت أفاريز المآوي أو على الاجمات .

مضى ميشا مباشرة الى بيته . لكن أحداً من عائلته لم يخرج لاستقباله . كان الباب المؤدي الى السقيفة مُشرعاً ، وكانت ثمة لفافات ساق عتيقة عند العتبة ، وضمادة داكنة اللون من أثر الدماء ، وريش ورؤوس دجاج تهافت الذباب عليها وقد شرع التفسخ يدب فيها . وكان واضحاً أن رجالاً من الجيش الأحمر كانوا تناولوا وجبتهم من الغذاء في الكوخ قبل بضعة أيام ، كانت الأرض مغطاة بنثار من حطام أقداح مكسرة ، وعظام دجاج سلخ اللحم عنه سلخاً ، وأعقاب سكائر ، وجرائد ممزقة . فمضى ميشا الى الغرفة الأمامية . كان كل شيء هناك على مثل حاله في سالف الأيام ، غير أنه لاحظ أن صفاقة من الباب الأرضي المؤدي الى القبو ، حيث كانت أمه تخزن البطيخ في الخريف ، كانت تبدو وكأنها مواربة قليلاً .

كان من عادة أم ميشا أن تحتفظ بالتفاح المجفف داخل القبو لكيلا يجده الأطفال . وإذ تذكر ميشا ذلك مضى الى الباب الأرضي ، وهو يقول في سريرته : « لا ريب أن أمي كانت تتوقع مجيئي ، فلابد أنها خبأت لي شيئاً في القبو » . فاستل سيفه ، ورفع الباب بمقدمته ، فإذا برائحة الرطوبة والعفن تتصاعد من القبو . جثا على ركبتيه ، وراح يحدق في الظلمة حتى استطاع أخيراً أن يميز قنينة من الفودكا ، ومقلاة فيها بضع بيضات مقلية ، وقطعة من الخبز قضمت نصفها الفئران ، وقدحاً يغطيه كوز خشبي ، وكان كل ذلك موضوعاً على غطاء مائدة مفروش . إذاً ، فلقد كانت أمه العجوز تتوقع مجيئه حقاً! فقد أعدت له ما

هو قمين بضيف معزز . فخفق قلبه بالحب والبهجة ، فيما مضى في تنقيبه داخل القبو . كل هذه الأشياء مستها منذ أيام يدا أمه الحريصتان . وعثر على زكيبة من الجنفاص معقودة بعارضة أرضية . فأنزلها ووجد فيها ملابسه الداخلية العتيقة ، ولكن بعد أن رُتقت بدقة وغسلت وكويت .

كانت الفئران قد أفسدت الطعام كله ، ولم ينج منها سوى اللبن والفودكا . فشرب الفودكا ، وأكل اللبن الذي زادت لذته بعد انجماده ، وأخذ الملابس الداخلية ، ثم زحف صعداً .

أما أمه ، فأغلب الظن أنها هربت عبر الدون . وقال لنفسه : «لقد خشيت البقاء في القرية ، وحسناً فعلت بذهابها ، وإلا لقتلها القوزاق . وعلى أية حال ، فلابد أنهم أساءوا معاملتها بسببي» . ثم خرج من الكوخ ، وحلّ حصانه ، بيد أنه قرر ألا يذهب الى دار آل ميليخوف رأساً ، فموقعه يشرف على الدون تماماً ، وقد يصيبه هدّاف جيد من الجانب الآخر للنهر فيرديه قتيلاً . فعقد العزم على الذهاب الى دار آل كورشونوف ، ثم العودة الى الساحة عند الغسق ليضرم النار في دور موخوف والتجار الآخرين والقسس ، تحت جنح الظلام .

فمضى على حصانه متوارياً وراء الأفنية حتى بلغ فناء كورشونوف الفسيح ، فولج إليه عبر البوابة المفتوحة ثم ربط حصانه ، وكان على وشك أن يدخل الى البيت حينما ظهر على عتبته غريشاكا العجوز . كان رأسه الأبيض يهتز وعيناه الذاويتان مغمضتين تقريباً لفرط ضعفهما ، وكانت قمصلته القوزاقية العتيقة ، بشاراتها الحمر على الياقة المدهنة ، مزررة باعتناء ، غير أن بنطاله كان شديد الارتخاء ، فصار لزاماً على العجوز أن يمسك به بيديه .

فهتف ميشا من موقعه عند درجات العتبة وهو يلوح بسوطه : «كيف حالك ، أيها الجد ؟» لكن العجوز لم يجب بشيء ، بل كان الغيظ والكراهية يخالطان نظرته الصارمة .

فرفع ميشا صوته : «كيف حالك ؟» .

فأجاب غريشاكا على مضض : «الحمد لله!» ، وما فتئ يحدج ميشا

بنظرته الغاضبة . فلبث ميشا واقفاً بهدوء وقد باعد ما بين ساقيه ، وهو يعابث سوطه ويزم ، عابساً ، شفتيه المليئتين الشبيهتين بشفاه الفتيات . ثم سأل غريشاكا قائلاً :

ـ لماذا لم تتراجع مع الآخرين عبر الدون ، يا جد غريشاكا ؟

فتساءل العجوز :

ـ ومن أنت ؟

ـ ميشا كوشيفوي .

ـ ابن أكيم ؟ الذي كان يشتغل عندنا ؟

ـ أي ، نعم .

ـ إذن ، فأنت يا ابن الحلال ؟ سموك ميشا يوم العماد ، أليس كذلك ؟ طلعت ابن حلال نجيب حقاً! تماماً مثل أبيك . كان دائماً يحاول الحصول على شيء لقاء لا شيء ، وها أنت ذا صورة طبق الأصل منه ، ها ؟

فنزع ميشا قفازاً من إحدى يديه ، وازداد عبوساً .

ـ ليس من شأنك من أكون وماذا أدعى . سألتك ، لماذا لم تعبر الدون ؟

ـ كل ما في الأمر أنني لم أشأ أن أفعل ذلك ، فلم أفعل . ولكن ما الذي تسعى وراءه ؟ هل بعت نفسك لخدمة أعداء المسيح ؟ تحمل نجمة حمراء على قبعتك ؟ آه يا ابن القحبة ، أنت عدو لقوزاقنا إذن ؟ عدو لأهل قريتك ؟

وتقدم هابطاً الدرجات مترنحاً . وكان واضحاً أنه لم يكن يحصل على طعام كاف منذ لاذت عائلة كورشونوف بالفرار عبر الدون . فتقدم من ميشا وهو على هذا الحال ، مهملاً ، سقيماً ، أشعث ، وجعل يتفرس فيه بنظرة ملؤها الغضب والذهول .

فأجابه ميشا : «نعم ، أنا أحاربهم . ولن يمضي وقت طويل حتى نضيق عليهم الخناق» .

ـ آه ، ولكن ماذا يقول الكتاب المقدس في ذلك ؟ بالكيل الذي تكيلون يكال لكم .

فقال ميشا بفظاظة :

ـ لا حاجة بك الى الاستشهاد بالكتابات المقدسة للتنديد بي ، يا شيخ! لم آت الى هنا لمثل هذا . اخرج من الدار حالاً .

ـ ماذا تريد ؟

ـ لا يهمك ما أريد! قلت لك ، اخرج!

ـ لن أترك بيتي! أنا أعرف ماذا ستفعل . أنت خادم أعداء المسيح ، فهذه علامتهم على قبعتك . ها قد حدث كل شيء ، كما تنبأ الإنجيل ، سيقف الابن ضد أبيه ، والأخ ضد أخيه...

ـ لا تحاول خداعي . القضية اليوم ليست قضية أخوة ، بل هي واضحة كالحساب . لقد عمل أبي لديكم حتى يوم مماته ، وأنا عملت لديكم قبل الحرب مزهقاً روحي خدمة لكم ، وها قد حان الوقت لتصفية الحساب معكم . انقشع عن الدار ، فسأضرم النار فيها . لقد قضيتم عمركم في دار مرفهة ، أما الآن فبإمكانكم أن تعيشوا حيث كان علينا أن نعيش ، في أكواخ القش . أتفهم ما أقول ، أيها العجوز ؟

ـ أي ، أفهم . حل أوان هذا ، أيضاً . لقد جاء في كتاب النبي أشعيا : جثثهم سوف تتبدد ، وستفوح من أجداثهم الجيفة ، وستذوب الجبال بدمائهم .

فقال ميشا بغضب مرير :

ـ لا وقت لي أبدده معك! ألا تنقشع عن الدار ؟

ـ كلا ، أيها العدو .

فقال ميشا وهو ينزع بندقيته على عجل :

ـ ما كان لهذه الحرب والقلاقل أن تستمر لولا أمثالك من المعاندين . أشباهك هم الذين يجلبون المتاعب للناس ، ويحرضونهم على معاداة الثورة...

وعلى اثر الإطلاقة خر غريشاكا على رأسه ، وانبعثت منه تمتمة واضحة وهو ملقى على الأرض :

ـ هذه ليست مشيئتي... لكن مشيئتك تتحقق . يا إلهي ، خذ عبدك الى جوارك...

وند عنه زخير ، ونز الدم ما بين عذاريه الأبيضين .

فرد عليه ميشا : « إنه سيأخذ روحك! كان عليه أن ينتزعك من الدنيا منذ وقت طويل ، أيها الشيطان العجوز! » وأحس ميشا بالنفور والتقزز ، فاجتاز جثة العجوز من جانبها وهرع صاعداً درجات العتبة .

وسرعان ما شب لهب وردي في الأوراق والأغصان اليابسة التي كانت الريح قد حملتها الى السقيفة ، وسرت النار في الحال الى العوارض الخشبية الفاصلة ما بين المخزن والسقيفة . فتصاعد الدخان الى السقوف وانثنى الى داخل الغرف . فخرج كوشيفوي . وحين فرغ من إضرام النار في المأوى ومخزن الحبوب ، كانت ألسنة اللهيب في الدار قد نفذت الى الخارج وصارت تلعق عوارض صفاقات الشبابيك المصنوعة من خشب الصنوبر ، وتمد ذؤاباتها نحو السقف .

وفي حرش ليس ببعيد خلد ميشا الى النوم مستظلاً بفيء الكروم البرية والأدغال الشوكية ، الى أن حل الغسق . أما حصانه المقيد فقد تركه يسرح باسترخاء قريباً منه . ومع اقتراب المساء استبد بالحصان العطش فجعل يصهل حتى أيقظ سيده . فنهض ميشا وأورد حصانه من بئر البستان ، ثم أسرجه ومضى عليه في الشارع . كان الدخان الحريف لايزال ينبعث من الأدوات المحروقة في فناء كورشونوف ، ولم يبق من الدار إلا أسسه الصخرية العالية وموقده شبه المحطم رافعاً مدخنته السخماء الى السماء .

فيمم ميشا وجهته صوب فناء آل ميليخوف مباشرة ، وبينما كان يدخل عبر البوابة ألفى ايلينشنا تجمع قطع الخشب الصغيرة في صدريتها . فنادى عليها بصوت رقيق : « مرحباً ، يا خالتي! » وإذ رأته ، امتلكها ذعر رهيب حتى أنها لم تستطع أن تنبس بشيء رداً على تحيته ، بل أرخت ذراعيها فانهمرت قطع الخشب من صدريتها .

ـ كيف حالك ، يا خالتي ؟

فردت ايلينشنا بنبرة متقطعة : «الحمد لله!... الحمد لله! »

ـ سليمة معافاة ؟

ـ سليمة ، ولكن لا تسل عن عافيتي .

فسألها ، بينما هو يترجل عن حصانه ويمضي إليها :

ـ وأين هم قوازقك ؟

ـ في الجانب الآخر من الدون...

ـ ينتظرون وصول «الكاديت» ؟

ـ أنا لا أهتم إلا بشؤون النساء... فلست أفقه حرفاً من هذه الأمور...

ـ وهل يفدوكيا بانتلاييفنا* في الدار ؟

ـ رحلت هي الأخرى عبر الدون .

فصاح ميتا بصوت مرتعش : «وما الذي جعلهم ، بحق الشيطان ، يذهبون كلهم! » ثم اخشوشن صوته غضباً :

ـ دعيني أقل لك شيئاً ، يا خالتي : لقد تكشف ابنك غريغوري عن عدو لدود للحكومة السوفييتية . وحينما نعبر الى الضفة الأخرى ، فإن رقبته ستكون أول رقبة يلتف حولها الحبل . أما بانتلاي بروكوفتش فما كان عليه أن يهرب . إنه عجوز وأعرج ، كان من الخير له أن يبقى في بيته...

فسألته ايلينشنا بقسوة ، وقد شرعت تلم الخشب وتضعه في صدريتها من جديد : «أيبقى لينتظر موته ؟ »

ـ الموت بعيد عنه . كان من المحتمل أن ينال شيئاً من الجلد . وما كان لأحد أن يقتله . ومع ذلك ، فأنا لم أجئ للتحدث حول هذا الموضوع .

ثم عدّل من وضع سلسلة الساعة على صدره ، وأردف قائلاً وهو يخفض بصره :

---

* وهو الاسم الكامل لدونيا . المترجمون

ـ الواقع انني جئت لزيارة يفدوكيا باتتلاييفنا . انني شديد الأسف لعبورها هي الأخرى الى الجانب الآخر للدون . لكنني أريد أن أقول لك شيئاً ، باعتبارك أمها : إنني أريدها من أمد طويل ، ولكننا هذه الأيام لا نجد متسعاً من الوقت للاهتمام بأمور النساء ، فنحن منهمكون بالقضاء على الثورة المعادية ، وها نحن نمحقها محقاً لا مجال فيه للرحمة . وحالما نفرغ منها وتقام السلطة السوفييتية في كل مكان ، فسأرسل إليك آنئذ من يطلب يد ابنتك يفدوكيا .

ـ ليس هذا وقتاً مناسباً للتباحث بمثل هذه الأمور .

فأجاب ميشا عابساً ، وقد انعقد جبينه مقطباً :

ـ بل هو الوقت المناسب! إنه ليس مناسباً لعقد الخطبة ، ولكن لا بأس في التحدث بالأمر . لست حراً في التصرف بوقتي . فأنا اليوم هنا ، وقد يرسلونني غداً عبر الدون . ولهذا فأنا أحذرك . ليس لك أن تعطي يفدوكيا الى أي رجل آخر ، وإلا فالويل لك . أما إذا جاءتك رسالة من كتيبتي تعلمك بمقتلي ، فلك أن تزوجيها شخصاً آخر . أما الآن فإياك أن تفعلي ذلك ، فكلانا يحب الآخر . أنا لم أجلب إليها أية هدايا ، فليس هناك مكان يستطيع المرء شراءها منه ، ولكن إذا ما رغبتِ بأي شيء مما تحتويه بيوت التجار البورجوازيين ، فلا عليك إلا أن تقولي ، فسأذهب في الحال وآتيك به...

ـ لا سمح الله! أنا لم أمس ممتلكات الآخرين حتى الآن .

ـ حسناً ، كما تشائين . بلّغي دونيا أعمق تحياتي إن رأيتها قبلي ، والآن ، الى اللقاء ، يا خالتي . لا تنسي ما قلته لك .

فمضت ايلينشنا الى داخل البيت دون أن ترد عليه ، وامتطى ميشا حصانه ومضى به صوب الساحة .

فألفاها تعج بجنود الجيش الأحمر الذين هبطوا إليها من التل لقضاء الليلة . وكانت أصواتهم العالية تتعالى في الشوارع . واستوقف ثلاثة منهم ميشا ليتفحصوا أوراقه الرسمية ، وكانوا يحملون مدفعاً رشاشاً خفيفاً الى نقطة

أمامية تقع على جانب الدون . والى جانب دار سيمون تشوكن التقى بأربعة آخرين . كان اثنان منهم يدفعان عربة يدوية ذات عجلتين محملة بالشوفان ، فيما كان الاثنان الآخران يقدمان العون لزوجة سيمون المسلولة في حمل ماكنة خياطة وزكيبة من الطحين . فعرفت المرأة ميشا وحيته . فتساءل ميشا : « ماذا عندكم ؟ » .

فرد عليه الجندي الأحمر بلهجة فتية : « إننا نحاول أن نسدي لهذه المرأة العاملة بعض العون . إننا نقدم لها ماكنة خياطة وشيئاً من الطحين يعودان الى أحد البورجوازيين » .

ثم أضرم ميشا النار في سبع دور تعود الى التاجر موخوف وتجار آخرين ، وإلى القسين ، والى ثلاثة قوزاق أغنياء ، كانوا كلهم قد هربوا الى جبهة الدونيتس . ولم يغادر القرية إلا آنئذ ، فمضى على صهوة حصانه صعد التل ، ثم استدار . كان اللهب الأحمر يتصاعد من تتارسكي تحته ذؤابات هائلة من الشرر ، صوب السماء السوداء ، وصورة النيران تتراقص على مياه الدون الدفوق وكانت الريح تدفع باللهب ناحية الغرب ، فتنثني ثم تغور لتأتي على البنايات بلا كلل .

كان ثمة نسيم عليل يهب قادماً من السهوب الشرقية ينشر اللهب ويحمل على أجنحته شرراً قادحاً أسود نحو البعيد...

ميخائيل شولوخوف

نوبل 1965

ولد في قرية فيوشينسكايا في بلاد القوقاز 1905 .
.لم يكمل شولوخوف دراسته الابتدائية
عاش الفترة من 1918 وحتى 1924 في أقليمه
حيث كانت المنطقة تحت سيطرة الجيش الابيض
.الذي اراد ان يطيح بثورة البلاشفة
في 1924 سافر إلى موسكو ليجرب مختلف الاعمال
.ويمارس حظه في الكتابة والنشر والتعرف على الاوساط الادبية
بعد عامين اي في عام 1926 عاد الى موطنه الاصلي
.ولم يفارقه حتى مماته
.وفي نفس العام ظهرت مجموعته الاولى قصص الدون وقصة سهب لازوريف
انضم إلى الحزب الشيوعي السوفيتي عام 1932
. وفي عام 1934 أصبح عضوا في اتحاد الكتاب
كتب روايته الدون الهادئ في الفترة ما بين 1928 - 1940
فقد صدر الجزء الأول من الرواية عام 1928
.وانتظر القراء 12 عاما ليكمل شولوخوف روايته الملحمية

وتوفي في 21 فيفري 1984

ISBN 978-9933-407-05-6
9 789933 407056